

لوسيندا رايلي
مكتبة 1684
الشقيقات السبع 2
الشقيقة العاصفة
ترجمة:
فاديا قرعان
رواية
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الكتاب الثاني في السلسلة

بعد .. الشقيقات السبع

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود



الشقيقة العاصفة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.



الإخراج الفني: بسمة تقي

Original Title: The Storm Sister

Copyright © Lucinda Riley, 2015

إنّ الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

---

28 2 2024



الجناح، شارع زاهية سلمان، مبنى مجموعة تحسين الخياط

ص.ب.: 8375 -11 بيروت، لبنان

هاتف: 830608 1 961+ فاكس: 830609 1 961+

الموقع الإلكتروني: www.all-prints.com

البريد الإلكتروني: publishing@all-prints.com

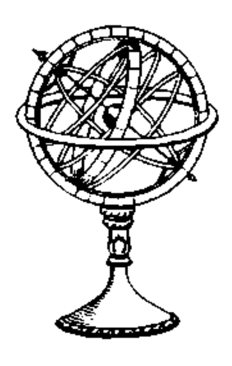
مواقع التواصل الاجتماعي: allprintslb

لوسيندا رايلي

مكتبة | 1684

الشقيقات السبع

الشقيقة العاصفة



رواية

ترجمة:

فاديا قرعان





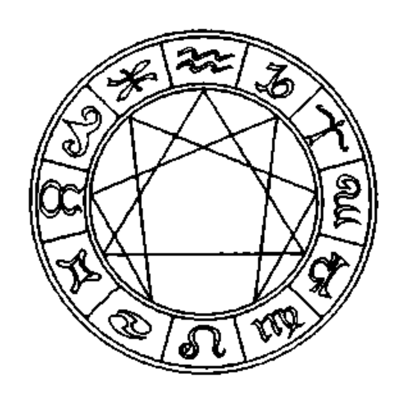
إلى سوزان موس، توأم روحي


MOHAMED KHATAB



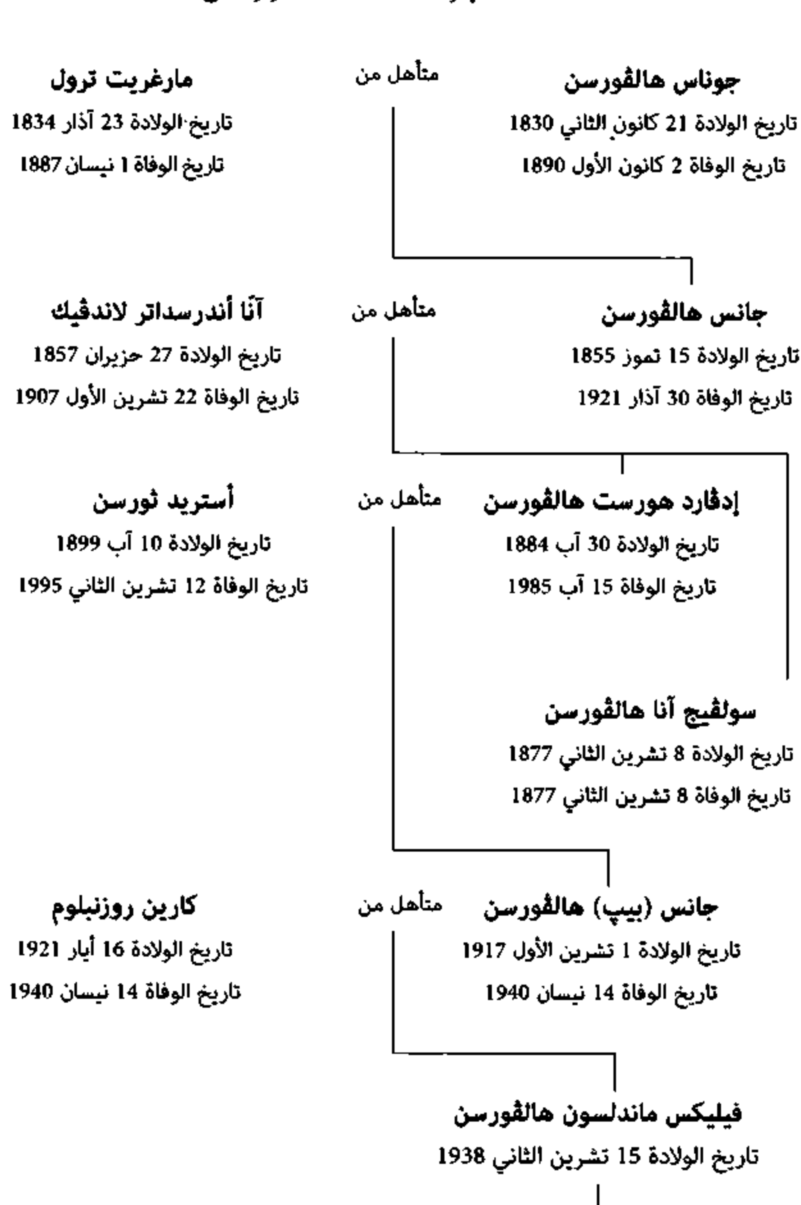
لن أكتفي بالتسلّل على طول الساحل
بل سأبحر في عرض البحر، مسترشدًا بالنجوم.

جورج إليوت




MOHAMED KHATAB

شجرة عائلة هالڤورسن



الشخصيات

أتلانتيس

پا سولت - والد الشقيقات بالتبنّي (متوفّى)

مارينا (ما) - مربّية الشقيقات

كلوديا - مدبّرة المنزل في أتلانتيس

غيورغ هوفمان - محامي پا سولت

كريستيان - الرُّبّان

الشقيقات داپلييز

مايا

آلي (ألسيوني)

ستار (أستروپ)

سيسي (سيلينو)

تيغي (تايغيت)

إلكترا

ميروپ (مفقودة)



حزيران 2007

"Morning Mood"



1

سوف أتذكّر دائمًا أين كنتُ بالضبط، وماذا كنتُ أفعل، عندما بلغني خبر وفاة والدي.

كنت مستلقية، عاريةً تحت أشعة الشمس على متن مركب نيبتون، ويد ثيو مستريحة على بطني كأنها تحميني. تلألأ المنحنى المهجور لشاطئ الجزيرة الذهبيّ أمامنا تحت أشعّة الشمس مستكينًا في حضن خليجه الصخريّ، بينما كانت المياه الفيروزيّة الصافية تحاول، متكاسلةً، إثارة الأمواج وهي ترتطم بالرمال، مكوِّنةً رغوة لذيذة شبيهة برغوة الكابوتشينو.

كان ساكنًا مثلي تمامًا، هكذا فكّرت.

كنا قد رسونا في هذا الخليج الصغير قبالة جزيرة مانشيريز اليونانيّة، عند غروب الشمس في اللّيلة السابقة، وترجّلنا من المركب باتجاه المنحنى حاملين معنا صندوقيْ تبريد؛ الأول يحتوي على أسماك البوري الأحمر والسردين الطازج، التي اصطادها ثيو في وقت سابق من ذلك النهار، والثاني وضعنا فيه النبيذ والماء. ألقيت بحِملي على الرمال، وأنا ألهث من المجهود الذي بذلت، بينما طبع ثيو قبلة رقيقة على أنفي.

صاح قائلًا وقد بَسَطَ ذراعيه مشيرًا إلى تلك البقعة الشاعريّة: «لفظتنا الأمواج إلى هذه الجزيرة المهجورة، جزيرتنا وحدنا. سأذهب الآن للبحث عن الحطب لنتمكّن من شيِّ الأسماك». جلست أراقبه وهو يبتعد عني ويسير باتّجاه الصخور المصفوفة على شكل هلالٍ حول الخليج الصغير، محاولًا الوصول إلى الشُّجَيْرات

الصغيرات الشديدة الجفاف النامية في الصدوع. على الرغم من أن ثيو بحّار من طراز عالمي، كان قوامه النحيل يخفي قوّة كامنة. فمقارنةً بالبحّارين الآخرين الذين شاركت معهم في سباقات الإبحار كأحد أفراد طواقمهم، لم يكن ثيو يتمتّع بعضلاتٍ بارزةٍ أو صدرٍ شبيهٍ بصدر طرزان، بل كان رشيق البِنية. ومن بين الميّزات التي لفتت انتباهي فيه كانت مشيته المترنّحة. وقد أخبرني يومها أنه وقع في صغره عن الشجرة وكسر كاحله ولم يلتئم بعدها الجرح كليًّا.

ضحك عندها ضحكة خافتة وقال لي:

- إنه أحد الأسباب وراء اختياري العيش في عرض البحر. إذ لا يمكن لأحدٍ أن يسخر من مشيتي لدى إبحاري في قاربي.

بعد أن انتهينا من شيّ السمك، مارسنا الحب تحت النجوم. ففي صباح اليوم التالي، ستنتهي رحلتنا معًا على متن القارب. وقبل أن أقرّر استئناف التواصل مع العالم الخارجيّ عبر إعادة تشغيل هاتفي، وأكتشف بأن حياتي قد تحطّمت شرّ تحطيم، رقدت بجانبه وأنا أشعر بسلام مطلق. ورحت أستعيد في ذهني ذكرى المعجزة التي جمعتني بثيو وقادتنا إلى هذا المكان الجميل، وكأنني في حلم سوريالي...



التقيت به للمرّة الأولى منذ سنة ونيّف ضمن فعاليات سباق هاينيكين في سانت مارتن في الكاريبي. كان الفريق الفائز يتناول العشاء احتفالًا بالفوز، وتفاجأت لدى معرفتي بأن قائد الفريق هو ثيو فاليز-كينغز. فثيو شخصيّة بارزة ومعروفة في عالم الإبحار، وقد تمكّن في خلال السنوات الخمس الماضية من التفوّق على كلّ الربابنة الآخرين في عدد الانتصارات التي سجّلها في السباقات البحريّة.

همست لزميلي السابق في الفريق الوطنيّ السويسريّ، روب بيلامي، معلّقةً:

- لم أتخيّله بهذا الشكل على الإطلاق. يبدو أشبه برجل مهووس بتلك النظارة المزوّدة بإطار سميك.

وتابعت، وعيناي تلاحقانه، بينما كان ينهض من مكانه لينتقل إلى طاولة أخرى:

- ومشيته غريبة أيضًا.

وافقني بوب الرأي قائلًا:

- أعترف بأنه لا يشبه مطلقًا البحّارة ذوي البنية الضخمة والعضلات المفتولة المفضّلين لديك. ولكن هذا الرجل عبقريّ تمامًا يا آل. فهو صاحب حاسّة سادسة مميّزة في شؤون البحار، ولا يسعني أن أثق بربّان سواه في العواصف البحريّة.

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك المساء، عرّفني روب إلى ثيو بشكلٍ مقتضبٍ، فبدت لي عيناه الخضراوان المائلتان إلى اللون البندقيّ مستغرقتين في التفكير وهو يصافح يدي قائلًا:

- أنت إذن آل داپلييز الشهيرة.

كانت لكنته البريطانية تخفي بين ثناياها صوتًا دافئًا وهادئًا. فأجبته قائلةً وقد ارتبكت قليلًا لدى سماعي إطراءه:

- أصبت في ما يعود إلى الاسم. ولكنني أظنّ أنّ الشهرة تليق بك أنت.

حاولت ما بوسعي لأجتنب الرعشة التي انتابتني تحت تأثير نظراته الفاحصة، ولاحظت أنّ قسمات وجهه قد لانت بعض الشيء لدى إطلاقه ضحكة خافتة.

سألته:

- ما الذي يدعو للضحك؟

- يجب أن أعترف بأنني لم أكن أتوقّع رؤية فتاة مثلك.

- ما الذي تقصده بفتاة مثلي؟.

ولكنّ انتباه ثيو تحوّل إلى مصوّر أراد أن يلتقط صورة للفريق، ولم أتمكّن من معرفة ما كان يقصده.

التقيت بعد ذلك به في عددٍ من الأنشطة الاجتماعية التي كنّا نشارك فيها في إطار سباقات القوارب. كان يتمتّع بحيوية غير مفهومة، ويتميّز بضحكته الرقيقة، العفوية، التي تجذب الناس إليه، على الرغم من سلوكه الخارجي المتحفّظ. عند مشاركته في

الأنشطة الرسمية، كان يرتدي بنطالًا من الشينو وسترة من الكتّان المجعّد، حرصًا منه على التزام البروتوكول واحترام الجهات الراعية للسباقات، في حين أنّ حذاءه القديم وخُصل شعره البنية الجامحة يوحيان وكأنه ترجّل لتوّه من قاربه.

شعرتُ في تلك المناسبات الأولى القليلة وكأنّ أحدنا يحوم حول الآخر. وعلى الرغم من أنّ نظراتنا كانت تلتقي في أغلب الأحيان، لم يحاول ثيو إنهاء حديثنا الأوّل. وبينما كان فريقي يحتفل بالفوز لستة أسابيع خلت في أنتيغا في الحفل الراقص الذي نظّمه اللورد نيلسون مع انقضاء الأسبوع المخصّص للسباق، شعرت به يربّت كتفي قائلًا:

- أحسنتِ صنيعًا يا آل.

أجبته وفي داخلي إحساس بالغبطة لأنّ فريقنا تمكّن من التغلّب على فريقه:

- شكرًا لك.

- سمعت أناسًا كُثُرًا يثنون على أدائك هذا الموسم يا آل. ما رأيك في أن تنضمّي إلى فريقي في سباق القوارب الذي سيُقام في سيكلاديس في شهر حزيران؟

صحيح أنّني تلقّيت عرضًا للانضمام إلى فريق آخر، ولكنّني لم أكن قد أبلغتهم بموافقتي بعد.

لاحظ ثيو تردّدي، فسألني:

- هل ارتبطتِ مع فريق آخر؟

- نعم، بصورة مبدئية.

- حسنًا، هذه بطاقتي. فكّري في الأمر مليًّا وأبلغيني قرارك قبل نهاية الأسبوع. يسعدني كثيرًا أن ينضمّ شخص مثلك إلى فريقي.

أجبته وقد طرحت التردّد الذي تملّكني جانبًا:

- شكرًا لك.

من يستطيع أن يرفض فرصةً مماثلةً للانضمام إلى فريق الرجل الملقّب بـ«ملك البحار؟». وإذ رأيته يهمّ بالابتعاد عني صرخت:

- بالمناسبة، لمَ قلتَ لي في المرّة الأخيرة، التي تحدّثنا فيها معًا، إنك لم تكن تتوقع رؤية شخص مثلي؟

تسمّر في مكانه ورمقني بنظرات خاطفة قبل أن يقول:

- لم يسبق لي أن قابلتك شخصيًا؛ سمعت بعض الأحاديث من هنا وهناك عن مهاراتك في الإبحار، وهذا كلّ شيء. كما قلت لكِ، وجدتكِ مختلفةً عمّا كنت أتوقّعه. عمتِ مساءً يا آل.

استغرقت في التفكير في حديثنا وأنا في طريق العودة إلى غرفتي في النزُل الصغير المجاور لميناء سانت جون، وكان نسيم المساء العليل يلامس جسدي وأنا أتساءل في داخلي عن سبب انجذابي الشديد إلى ثيو. كانت مصابيح الشوارع تضفي على واجهات المنازل الأماميّة المطليّة بألوان زاهية وهجًا ليليًا دافئًا، بينما تناهت إلى مسمعي، من بعيد، الهمهمة المملّة لروّاد الحانات والمقاهي. كنت غافلة عمّا يدور حولي، يغمرني شعور بالبهجة بالعرض الذي قدّمه لي ثيو فاليز-كينغز، شعور شبيه بذلك الذي كان يخالجني عند الفوز في سباق.

حين دخلت الغرفة في النزُل، تناولت كمبيوتري المحمول بسرعة وكتبت له رسالة إلكترونيّة لأبلغه موافقتي على عرضه. ولكن قبل أن أرسلها، أخذت حمامًا سريعًا، وأعدت قراءتها بدقّة، وأنا أشعر بتوهّج خديّ من شدّة لهفتي. وإذ قررت حفظها في مجلّد المسوّدات على أن أرسلها بعد بضعة أيام، تمدّدت على سريري، وثنيت ذراعيّ للتخلّص من التوتّر والتقرّح الذي سبّبه لي السباق اليوم.

تمتمت لنفسي، وقد ارتسمت على ثغري ابتسامة عريضة: «حسنًا يا آل، سيكون سباقًا حافلًا».

أرسلت الرسالة الإلكترونيّة وفق الخطّة التي وضعتها، واتصل ثيو بي على الفور ليعرب عن مدى سعادته بانضمامي إلى فريقه. ومنذ حوالى أسبوعين تقريبًا، وأثناء صعودي إلى يخت هانس 540 المجهّز للسباق، والراسي في ميناء ناكسوس، للبدء بالتمارين اللازمة للمشاركة في سباق سيكلاديس، وجدت نفسي فريسةً للقلق بشكلٍ غير مبرّر. ولكن مع بدء السباق التنافسيّ، تبيّن لي أنّ السباق لم يكن

متطلبًا أكثر مما ينبغي، كما أنّ المشتركين فيه يمثّلونْ مزيجًا من البحّارة الرصينين وعشّاق عطلات نهاية الأسبوع، تجمعهم الحماسة لفكرة الإبحار والتنقّل على مدى ثمانية أيام بين أكثر الجزر جمالًا في العالم. وبالنظر إلى أنّ الفريق المعني هو من أكثر الفرق خبرة، كنت واثقة من قدرتنا على تحقيق الفوز.

من المعروف أنّ ثيو لا يتعاون إلّا مع فريق من البحّارة الشبّان. ووجدت نفسي، أنا وصديقي روب بيلامي، البالغين من العمر ثلاثين سنة، الأكبر سنًّا في الفريق والأكثر خبرة. سمعت أنّ ثيو يفضّل الاستفادة من مواهب البحّار في المراحل الأولى من حياته المهنيّة تفاديًا لاكتساب أيّ عادات سيئة. أما باقي أعضاء الفريق المؤلّف من ستة أشخاص، فكانوا في أوائل العشرينات: غي، رجل إنكليزيّ ضخم البنية وفظ؛ تيم، أستراليّ خالٍ من الهموم؛ ومايك، بحار نصفه ألمانيّ ونصفه يونانيّ يعرف المياه في بحر إيجة وكأنه يحفظها عن ظهر قلب.

وعلى الرغم من توقي للعمل مع ثيو، لم أتّخذ القرار بالانضمام إلى فريقه عشوائيًّا؛ فقد بذلت جهدًا كبيرًا لجمع معلومات عن اللغز المعروف «بملك البحار»، عبر البحث في الإنترنت والتحدّث مع الأشخاص الذين عملوا على متن قواربه في مراحل سابقة.

سمعت بأنّه بريطاني الأصل وتابع دراسته في جامعة أكسفورد، ما يفسّر تلك اللكنة البريطانية المتداخلة، ولكن ملفّه الشخصيّ في الإنترنت يقول إنّه مواطن أميركي، ترأّس فريق الإبحار في جامعة ييل وتمكّن من تحقيق الفوز في عددٍ كبير من المسابقات. ونُمي إلى صديقٍ لي أنّه يتحدّر من عائلة ثرية، بينما علم صديق آخر أنه يعيش على متن قاربه.

هذا، وتمكّنت من جمع تعليقات أخرى منها: «باحث عن الكمال»، «محبّ للسيطرة»، «صعب الإرضاء»، «مدمن على العمل»، «كاره للمرأة»... بحيث سمعت التعليق الأخير من زميلة بحّارة ادّعت بأنها تعرّضت للتهميش وإساءة المعاملة من طاقمه، ما دفعني إلى إعادة النظر في الأمر. لكنني وقعت أسيرة إحساسٍ ساحقٍ ومهيمنٍ في غاية البساطة:

«إنه بالتأكيد أفضل بحّار لعين تعاملت معه في حياتي».

منذ اليوم الأوّل لي على متن القارب، أدركتُ لماذا يُكنّ أقران ثيو احترامًا فائقًا له. فقد تعوّدت التعامل مع بحّارة يحبّون الصياح، ويصرخون عند توجيه التعليمات وإطلاق الشتائم، كأنهم طهاة سيّئو المزاج داخل مطبخ.

كانت مقاربة ثيو البسيطة للأمور أشبه بالوحي. فقد كان قليل الكلام في خلال الامتحان التقييمي الذي أجراه لنا، مكتفيًا بمراقبتنا جميعًا عن بعد. ومع غروب شمس النهار، جمعنا كلّنا وأشار إلى نقاط الضعف ونقاط القوة لدى كلٍّ منا، بصوتٍ هادئ وثابت. وأدركت أنه لم يفوّت أيّ تفصيل ولو كان بسيطًا، وعنت سطوته الفطريّة أنّ علينا الانتباه إلى كلّ كلمة يقولها.

تابع بعد أن طلب من الجميع الانصراف:

- بالمناسبة يا غي، لا يمكن لك التسلّل لتدخين سيجارة أثناء التمرّن استعدادًا للسباق.

وظهرت على ثغره شبه ابتسامة.

اصطبغ وجه الرجل باللّون الأحمر خجلًا. وهمس لي لدى ترجّلنا من القارب للاستحمام وتبديل ملابسنا استعدادًا لتناول العشاء:

- هذا الرجل له عينان في الجهة الخلفيّة من رأسه.

غادرت في تلك الليلة النزُل الصغير مع باقي أفراد الطاقم، والسعادة تملأ قلبي لأنني اتّخذت القرار بالانضمام إليهم في السباق. مشينا على طول ميناء ناكسوس بينما كانت القلعة الحجريّة القديمة، التي تعلو المدينة، تشعّ بالأنوار، والأزقة المتعرّجة الموزّعة عشوائيًا تسترخي بين المنازل المطلية بالأبيض. غصّت المطاعم على طول الميناء بالبحّارة والسيّاح الذين كانوا يستمتعون بتناول المأكولات البحرية ويرفعون الكؤوس المملوءة بشراب الأوزو عاليًا. وعثرنا في أحد الشوارع الخلفيّة على مطعمٍ صغيرٍ بمقاعد خشبيّةٍ متداعيةٍ وأطباقٍ غير متناسبة، تديره إحدى العائلات المحليّة. كان الأكل البيتي جُلّ ما احتجنا إليه بعد نهار طويل على القارب، خاصة وأنّ هواء البحر فتح شهيتنا للأكل.

بدت عليّ أمارات الجوع الشديد وأنا ألتهم المسقّعة وطبق الأرز الجانبيّ السخيّ، ما أثار استغراب الرجال الذين راحوا يحدّقون إليّ. ملتُ إلى أمام لألتقط رغيفًا ثانيًا من الخبز وقلتُ بنبرةٍ ساخرة:

- ما الأمر؟ أهي المرة الأولى التي تشاهدون فيها امرأة وهي تأكل؟

شارك ثيو في المزاح المتبادل مكتفيًا بالتفوّه بملاحظة عَرَضيّةٍ باردة، لكنه غادر المكان مباشرةً بعد العشاء، مختارًا عدم المشاركة في التنقّل بين الحانات. لحقت به بعد ذلك بقليل لأنّ ما تعلّمته في سنوات عملي بحّارةً محترفة، جعلني أدرك بأنّ مشاهدة التصرّفات العابثة للفتيان، بعد منتصف الليل، ليست شيئًا ممتعًا.

تمكّنا في خلال الأيام القليلة التالية، تحت نظرات عينيه الخضراوين الثاقبة، من توحيد جهودنا لنتحوّل سريعًا إلى فريق على درجةٍ عاليةٍ من الكفاءة والتناغم، بينما كان إعجابي بأساليبه يزداد يومًا بعد يوم. في الأمسية الثالثة لنا في ناكسوس، كنتُ أوّل من بادر إلى النهوض عن مائدة الطعام وقد شعرت بالإرهاق بعد نهارٍ متعبٍ تحت أشعة بحر إيجة الحارقة.

- حسنًا يا فتيان، سأنصرف.

سمعت ثيو يقول، وهو يغادر المطعم من بعدي:

- وأنا أيضًا. تصبحون على خير يا فتيان. لا أريد رؤية أحدٍ منكم يعاني في الغد من آثار الإفراط في شرب الكحول.

ولحق بي في الشارع وهو يسألني:

- هل أستطيع الانضمام إليك؟

أومأت برأسي إيجابًا:

- أجل، بالطبع.

وقد شعرت فجأة بالتوتّر لأنها المرّة الأولى التي نكون فيها بمفردنا.

قطعنا سويًّا الشوارع المرصوفة بالحصى، وكان ضوء القمر ينير المنازل الصغيرة البيضاء بأبوابها ومصاريعها الجانبية المطلية باللّون الأزرق. وعلى الرغم من الجهد

الذي بذلته لتبادل أطراف الحديث، كان ثيو يكتفي بالردّ بـ«نعم» أو «لا»، بحيث بدأت إجاباته المتحفّظة تثير سخطي.

عندما وصلنا إلى بهو النزُل، التفت نحوي فجأة وقال:

- أنتِ بحّارة بالغريزة يا آل. يجب أن أعترف بأنك نجحت في التفوّق على أفراد الطاقم كافّة. من علّمك الإبحار؟

أجبته وقد أخذني إطراؤه على حين غرّة:

- والدي. تعوّد أن يصحبني في صغري للإبحار معه في بحيرة جنيڤ.

- بحيرة جنيڤ. هذا يبرّر اللكنة الفرنسية.

تهيّأت لسماع التعليق النموذجي:

- قولي شيئًا مثيرًا باللغة الفرنسية. ذلك التعليق الذي أسمعه كثيرًا من الرجال في حالات مشابهة، لكنّه لم يقلْ شيئًا.

- حسنًا، لا ريب في أنّ والدك كان بحّارًا مميّزًا، لأنّه أحسن تدريبك.

أجبته وقد شعرت بالغبطة:

- شكرًا.

فأضاف على عجل:

- كيف تشعرين كونك المرأة الوحيدة على متن القارب؟ مع أنني لا أظنّ أنها المرّة الأولى.

- بصراحة، لم أفكّر في الأمر.

نظر إليّ من خلال نظارته المزوّدة بإطار سميك وقال:

- حقًّا؟ حسنًا، اعذريني على ما سأقوله، ولكنني أظنّ أنك تفعلين. أشعر في بعض الأحيان وكأنك تحاولين التعويض عن ذلك، ما يجعلك ترتكبين أخطاء. أقترح عليك أن تخفّفي عن نفسك وتكوني على سجيّتك. في أي حال، تصبحين على خير.

ورماني بابتسامة خفيفة وصعد السلّم المكسوّ ببلاطٍ أبيض متوجّهًا إلى غرفته.

في تلك الليلة، وبينما كنت مستلقية في السرير الضيّق، كانت الملاءات المنشّاة تسبّب لي الحكّة وخداي محمرّيْن غضبًا من انتقاده لي. أيُعقل أن يكون الذنب ذنبي

لأنّ وجود العنصر النسائي على متن القوارب المخصّصة لسباقات المحترفين، نادر نسبيًّا، أو مستجدّ، كما يقول زملائي من البحّارة الرجال؟ ومن يحسب ثيو فاليز-كينغز نفسه؟ أيحسب نفسه معالجًا نفسيًّا محنّكًا قادرًا على تحليل سلوك الأشخاص الذين لا يحتاج سلوكهم إلى تحليل؟

لطالما ظننت نفسي قادرة، بصفتي أنثى، على السيطرة على زمام الأمور في عالم ذكوريّ بامتياز، بحيث كنت أمنع نفسي من الاهتمام بالسّخرية والتعليقات الجانبية، وأنظر إليها على أنها مجرّد تعليقات ودّية. كما بنيت لنفسي جدارًا حصينًا في حياتي المهنية، وشخصيتين مختلفتين تمامًا؛ شخصية «آلي» في المنزل وشخصية «آل» في العمل. أعترف بأنّ الأمر كان صعبًا في أحيانٍ كثيرةٍ وتعلّمت أن أحفظ لساني خاصة عند سماعي التعليقات الجنسانية الطابع بشكل أساسي والتي تلمّح إلى سلوكي المزعوم «كفتاة شقراء». وكنت أتعمّد اجتناب الملاحظات المشابهة عبر إبعاد خُصل شعري الأشقر المائل إلى الحمرة عن وجهي، وربطه إلى خلف على شكل ذيل حصان، مع الحرص على عدم استعمال أيٍّ من مستحضرات التجميل لإبراز عينيّ أو إخفاء النمش. كما كنت أعمل بجدٍّ مثل باقي الرجال على القارب، حتى أنني كنت أدخّن بشراهة أكثر منهم.

أبعد الاستياءُ النومَ من عينيّ، فتذكّرت ما قاله لي أبي ذات مرّة عن أنّ السخط الذي يشعر به الفرد حين يسمع ملاحظات شخصيّة مردّه إلى أن هذه الملاحظات تحمل بين ثناياها شيئًا من الحقيقة. ومع تقدّم ساعات الليل، سلّمت بصحّة ما قاله ثيو؛ لم أكن أتصرّف على «طبيعتي».

في مساء اليوم التالي، لحق ثيو بي وأنا في طريق العودة إلى النزُل. على الرغم من بنيته الجسدية النحيلة، أثار حضوره خوفي إلى حدٍّ بعيد بحيث تلعثمت في الكلام. وبينما كنت أتخبّط لأشرح له عن شخصيتي المزدوجة، أصغى ثيو إليّ من دون أن يتفوّه بكلمة، ومن ثمّ قال لي:

- سمعت مرّة والدي، الذي لا أعتبره بالإجمال صاحب وجهات نظر سليمة،

يقول إنّ المرأة قادرة على الهيمنة على العالم شرط أن تستخدم نقاط قوتها وتتوقّف عن محاولة أداء دور الرجل. ربما كان عليك أن تحاولي القيام بذلك.

أجبته بنبرةٍ عاليةٍ وقد شعرت بالسّخط من تعرّضي للازدراء:

- من السهل على الرجل قول ذلك، ولكن هل اضطر والدك يومًا للعمل في بيئة يهيمن عليها العنصر النسائي هيمنة كاملة؟ وهل باستطاعته، في هذه الحالة التصرّف على سجيّته بسهولة؟

- أظنّك محقّة في ذلك. حسنًا، قد يكون من المفيد بعض الشيء أن أناديك «آلي». فهذا الاسم يليق بك أكثر من «آل». هل تسمحين لي بذلك؟

وقبل أن يتسنّى لي الردّ، توقّف فجأة أمام واجهة الميناء الخلّابة حيث كانت قوارب الصيد الصغيرة تترجّح برفقٍ بين اليخوت والمراكب الضخمة، فيما كانت الأصوات التي تبعث السكينة للبحر الهادئ تلفّ أبدانها. وقفت أراقبه وهو ينظر إلى السماء، وقد اتّسعت فتحتا أنفه بشكلٍ واضحٍ وهو يستنشق الهواء في محاولة منه للتحقّق ممّا سيحمله الفجر معه من تغييراتٍ في الأحوال الجوية. لم يسبق لي أن رأيت أحدًا يفعل ذلك إلّا البحّارة المسنّون، فضحكت ضحكة خافتة وقد تخيّلت في ذهني ثيو، في صورة كلب بحرٍ أشهبَ عجوز.

التفتَ نحوي وعلى ثغره ابتسامة حائرة ومن ثمّ سألني قائلًا:

- ما الذي يضحكك؟

- لا شيء. ولا مانع عندي في أن تناديني «آلي» إذا كان ذلك يُشعرك بالراحة.

- شكرًا لكِ. علينا الآن أن نعود أدراجنا لنتمكّن من النوم لبضع ساعات. وضعت الخطط لنهار الغد وأخشى أن يكون يومًا شاقًا.

لم يغمض لي جفن في تلك الليلة أيضًا، ورحت أستعيد في ذهني الحديث الذي دار بيننا. كنت متعوّدةً على النوم بعمق خاصة أثناء التمرين أو السباقات.

وبدل أن يأتي إطراء ثيو لي بثمار إيجابيّة، ارتكبت خلال اليومين التاليين عددًا من الأخطاء السخيفة التي جعلتني أشعر كأنني مبتدئة ولا أمتُّ بِصِلةٍ إلى البحّارة المحترفة التي كنتها. وفي حين انتقدت نفسي بقسوة، وسخر زملائي في الفريق منّي بشكل وديٍّ وعابث، لم أسمع ثيو ينتقد تصرّفاتي مرّةً واحدة.

في الليلة الخامسة، فضّلت ألّا أنضمّ إلى باقي أفراد الطاقم على العشاء من شدّة شعوري بالحرج والارتباك من أدائي المتدني الذي لم أعهد له مثيلًا من قبل. فجلست على الشّرفة الصغيرة في النزُل، أتناول الوجبة البسيطة التي أعدّتها لي صاحبة النزُل اللطيفة والمؤلّفة من الخبز وجبن الفيتا والزيتون، وأحتسي النبيذ الأحمر اللّاذع لعلّي أتخلّص من شعوري بالأسى. وبعد احتساء بضع كؤوس، بدأت أشعر بالغثيان وبالحزن على نفسي. فنهضت من مكاني وتوجّهت إلى غرفتي أترنّح على الجانبين، وإذا بثيو يصل فجأة إلى شرفة النزُل.

سألني وهو يمسك بنظارته ويثبّتها على أنفه ليتمكّن من رؤيتي جيّدًا:

- هل أنتِ بخير؟

حدّقت إليه بعينين شبه مغمّضتين، ولكنّ ملامحه تحوّلت إلى ضبابيّة لسبب غير مفهوم.

أجبته بتثاقل: «أجل»، وسارعت إلى الجلوس من جديد، بينما كانت كلّ الأشياء التي أحاول التركيز عليها تتمايل أمامي.

- قلق الجميع عليك لعدم مشاركتك في العشاء هذا المساء. لا أظنّك مريضة، صح؟

- كلّا.

وشعرت بعصارة مرارتي ترتفع وتسدّ حلقي وأنا استطرد قائلة:

- إنني بخير.

- تستطيعين إخباري إن كنت تشعرين بتوعّك وأقسم بألّا أحاسبك على ذلك. هل تسمحين لي بالجلوس؟

لم أتمكّن من الإجابة. في الحقيقة، وجدت صعوبة في ذلك وأنا أحاول السيطرة على الغثيان. فجلس على كرسيٍّ بلاستيكيٍّ في الجهة الأخرى من الطاولة وسألني قائلًا:

- ما المشكلة؟

لملمت شتات نفسي وأجبت قائلة:

- لا شيء.

- تغيّر لون وجهك بشكل مخيف يا آلي. هل أنت واثقة من أنك لست مريضة؟

- أرجو منك...أن تعذرني.

ما إن تفوّهت بهذه العبارات حتى ترنّحت قليلًا وتوجّهت إلى طرف الشّرفة حيث أفرغت كلّ ما في معدتي على الرصيف في الأسفل.

شعرت بيدين تحيطان بخصري وسمعت صوتًا يقول:

- مسكينة. من الواضح أنك متوعّكة. سأساعدك للوصول إلى غرفتك. ما هو رقم غرفتك؟

استولى عليّ شعور بالذعر يفوق التصوّر حين أدركت ما حصل أمام ثيو فاليز-كينغز، الذي كنت أتوق لترك انطباع جيّد لديه لسبب أجهله كليًّا. فهمست بغباء قائلة: «إنني بخير». لم يكن ممكنًا أن تكون الأمور أكثر سوءًا.

رفع ذراعي المتراخية ووضعها على كتفه قائلًا: «هيا بنا»، وحملني وسط نظرات النزلاء الآخرين المشمئزّة.

عندما وصلت إلى غرفتي، تقيّأت بضع مرات أخرى، ولكن في الحمام. وفي كل مرّة كنت أخرج فيها من الحمام، كنت أجد ثيو في انتظاري ليساعدني في العودة إلى سريري.

قلت له بصوتٍ منخفض:

- أؤكّد لك بأنني سأكون بخير في الصباح. أقسم لك.

أجابني بنبرة جادّة وهو يمسح قطرات العرق عن جبيني مستخدمًا منشفة باردة ورطبة:

- كنت تردّدين هذا الكلام خلال الساعتين الماضيتين بين جولات التقيّؤ.

همست بصوت أجش:

- اذهب إلى غرفتك يا ثيو. أؤكّد لك أنني بخير وأحتاج إلى النوم فحسب.

- سأذهب إلى غرفتي بعد قليل.

همست بصوت خافت وعيناي شبه مغمّضتين:

- شكرًا لاهتمامك بي.

- لا داعيَ للشكر يا آلي.

وجدت نفسي مترجّحةً بين عالم الوعي وعالم اللاوعي قبل أن يخطفني شبح النوم. ابتسمت وسمعتني أقول: «أظنّ أنني وقعت في حبك»، قبل أن أغرق في غياهب النسيان.

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، كنت أشعر بقليل من الارتعاش ولكنني كنت في حالٍ أفضل. وبينما كنت أهمّ بالنهوض من الفراش، تعثّرت بثيو الذي استخدم الوسادة الإضافية ونام متقوقعًا على الأرض. أغلقت باب الحمام، وانزلقت داخل حوض الاستحمام وأنا أحاول أن أتذكّر الكلمات التي أظنّ، أو لعلني، نطقتُ بها بالفعل مساء أمس.

«أظنّ أنني وقعت في حبك».

من أين أتيت بهذا الكلام؟ أم لعلّني كنت أحلم بأنني قلته؟ في أيّ حال، كنت متوعّكةً جدًا وربما كنت أهلوس. يا إلهي، أرجو ذلك، ووضعت رأسي بين يديّ متأوّهة في سرّي. ولكن...إذا كان صحيحًا أنني لم أتفوّه بتلك الكلمات، فلماذا أتذكّرها بهذا الوضوح؟ صحيح أنها كلمات سخيفة وغير دقيقة، ولكن ثيو قد يظنّ أنني كنت أعنيها. وأنا لا أعنيها، أليس كذلك؟

عندما خرجت خجلى من الحمام، كان ثيو يستعدّ للرحيل. لم أتمكّن من النظر إلى عينيه وهو يقول لي إنه سيتوجّه إلى غرفته ليستحم، ومن ثمّ يعود في غضون عشر دقائق ليصحبني لتناول الفطور.

- انزل وحدك يا ثيو. لا أريد المجازفة.

- يجب أن تأكلي شيئًا يا آلي. إذا استمرّ التقيؤ بعد ساعة من تناول الطعام، أخشى أن أكون مرغمًا على منعك من ركوب القارب إلى أن تتحسّن حالتك الصحيّة. أظنّك تعرفين القواعد.

- لا بأس.

تمنّيت حين غادر الغرفة لو كان بإمكاني أن أختفي. لم أتمنّ يومًا في حياتي أن أكون في مكان آخر بقدر ما تمنّيته في تلك اللحظة.

بعد مرور حوالى خمس عشرة دقيقة، وصلنا إلى الشّرفة. كان باقي أفراد الطاقم جالسين إلى مائدة الطعام، فالتفتوا نحونا وعلى وجوههم ابتسامات متكلّفة تخفي وراءها تلميحات عابثة. تملّكتني رغبة في تسديد لكمة مُحْكَمَة لكلّ واحد منهم.

بينما كنّا نجلس إلى المائدة، توجّه ثيو إليهم قائلًا:

- أُصيبت آلي بمغص معويّ. ومن الواضح، يا روب، أنك لم تتمكّن أيضًا من النوم جيدًا ليلة البارحة.

ضحك أفراد الطاقم أمام استهجان روب الذي بدا في حالة من الحرج، فيما تابع ثيو كلامه بكل رباطة جأش عن جلسة التمرين التي خطّط لها.

جلست صامتة، وأنا ممتنّة له لأنه نجح في تبديل مسار الحديث، مع أنني كنت أعي تمامًا ما يفكّر الآخرون فيه. والمثير للسخرية هو أنّ الجميع، من دون استثناء، كانوا على خطأ. كنت قد قطعت عهدًا على نفسي بألّا أدخل في علاقة مع أي زميل لي في الفريق، إدراكًا مني للسمعة التي يمكن أن تطال المرأة في عالم الإبحار المترابط. ويبدو الآن أنني قد حصلت على تلك السمعة على سبيل الافتراض.

ولحسن الحظ أنني لم أعانِ من الغثيان بعد تناول طعام الفطور، فسُمح لي بالصعود إلى القارب. قرّرت منذ تلك اللحظة أن أثبت للجميع، وخاصة له هو، بأنني لا أهتمّ لأمر ثيو فاليز-كينغز إطلاقًا. وحرصت خلال التمارين على البقاء بعيدة عنه قدر المستطاع على متن القارب الصغير واستخدمت الكلمات الأحادية المقطع للردّ عليه. وفي المساء، كنت أرغم نفسي بعد العشاء على البقاء مع أفراد الطاقم وأتركه يغادر المطعم بمفرده متوجّهًا إلى النزُل.

لم أكن أحبّه. ولم أكن أرغب في أن يظنّ أحد عكس ذلك. ومع أنني عقدت العزم على إقناع المحيطين بي بذلك، فقد تبيّن لي أنّني لا أملك في داخلي ذرّة اقتناع.

ووجدت نفسي أحدّق إليه في اللحظات التي كنت أخاله لا ينظر فيها إليّ. كنت معجبة بهدوئه، وأسلوبه المتّسم بالاتزان في التعامل مع الطاقم، والتعليقات الثاقبة التي كان يدلي بها، وأسهمت في توطيد ترابطنا وتحسين عملنا كفريق واحد. وعلى الرغم من قوامه الصغير نسبيًّا، فقد بدت عضلاته بارزة تحت ملابسه. كانت نظراتي الفاحصة تراقبه وهو يثبت لي، مرّة بعد أخرى، بأنه الأكثر لياقة وقوّة بيننا جميعًا.

كلما شردت أفكاري، رغمًا عني، في ذلك الاتجاه، كنت أبذل جهدًا لأعيدها إلى الاتجاه الآخر. وأدركت في أحد الأيام بأن ثيو غالبًا ما يتجوّل عاري الصدر. صحيح أن الطقس حار جدًّا خلال ساعات النهار، ولكن ألا يستطيع مراجعة خرائط السباق إلا إذا كان عاري الصدر..؟

سألني مرة وقد استدار فجأة ووجدني أحملق إليه:

- هل تحتاجين إلى شيء يا آلي؟

لا أذكر ما همست به وأنا أشيح بنظري عنه وقد علا الاحمرار وجنتيّ من شدّة الخجل.

ولعلّ أكثر ما خفّف من توتّري هو أنه لم يأتِ على ذكر ما يمكن أن أكون قد قلته في الليلة التي توعّكت فيها، حتى أنّني بدأت أقنع نفسي بأنّني كنت واهمة. ومع ذلك، كنت واثقة بأنّ ما حدث لي لا رجعة فيه، وأنها المرّة الأولى في حياتي التي أشعر فيها وكأن الأمور تخرج عن سيطرتي. فإلى جانب التغيير الحاصل في نومي المعتاد، بدأت أفقد شهيتي المعروفة للطعام. وإذا نجحت في أن أغفو قليلًا، كنت أراه في أحلامي في حالات يحمر لها وجهي خجلًا عندما استيقظ، وتجعل سلوكي حياله أكثر غرابة. في سن المراهقة، قرأت الروايات الغرامية، ومن ثمّ تخلّصت منها واستبدلت بها قصص الرعب المثيرة. وبينما كنت أستعرض في ذهني الأعراض الحالية، أدركت بأسفٍ بالغٍ أنها تتوافق كلّها مع التشخيص نفسه: يبدو أنني وقعت، بطريقة أو بأخرى، في حب ثيو فاليز-كينغز.

في الليلة الأخيرة من التدريب، نهض ثيو عن المائدة بعد العشاء وأخبرنا بأننا قمنا بعمل استثنائيّ وأنّه يعلّق آمالًا كبيرةً على فوزنا في السباق المقبل. وبعد

تبادل الأنخاب، كنت استعد لمغادرة المكان والعودة إلى النزُل عندما حدّد النظر إليّ قائلًا:

- أريد مناقشة مسألة مُهمّة معك يا آلي. بحسب الأنظمة، يجب أن يتولّى أحد أفراد الطاقم مَهمّة الإسعافات الأوّلية. لا داعيَ للقلق، إنه مجرد إجراء روتينيّ ويتطلّب توقيع استمارات جديدة. ألديك أي مانع؟

وأشار إلى ملفٍّ بلاستيكيٍّ، مومئًا برأسه باتجاه طاولة فارغة.

أجبته قائلة:

- لا أملك أدنى فكرة عن الإسعافات الأوّلية.

ومن ثمّ أضفت بتحدٍّ بينما كنا نجلس إلى الطاولة بعيدًا عن الآخرين:

- إن كنت أنثى فذلك لا يعني أنني قادرة على ممارسة مهامّ التمريض أكثر من الرجال. لمَ لا تعرض الفكرة على تيم أو أي شخص آخر؟

- اصمتي يا آلي لو سمحت، إنها مجرد حجّة. انظري.

أخرج ثيو مجموعة من الأوراق البيض ووضعها أمامي قائلًا: «حسنًا». ومن ثمّ ناولني القلم وتابع:

- حرصًا مني على الأمور الشكلية، وخاصة سمعتك، سنتحدّث الآن عن مسؤولياتك بصفتك العضو المسؤول عن الإسعافات الأولية في الفريق. وسنناقش في الوقت نفسه ما قلته لي في الليلة التي تعرّضت فيها لوعكةٍ صحيةٍ، عن أنك تعتقدين بأنك وقعتِ في حبّي. بصراحة يا آلي، أظنّ أنني أبادلك الشعور نفسه.

توقّف عن الكلام بينما كنت أحدّق إليه مذهولة، لا أصدّق ما أسمعه، وأحاول التأكّد من أنّ ذلك كان مجرّد محاولة منه لإغاظتي. لكنّه كان منهمكًا بمراجعة الأوراق أمامه.

واستطرد بعدها قائلًا:

- أود أن أقترح عليك أن نحاول معًا إدراك ما يمكن أن يعني ذلك لكلٍّ منا. لذا، قررت أن أركب القارب في الغد وأتوارى عن الأنظار لأستمتع بوقتي في عطلة نهاية أسبوع طويلة. وأودّ منك مرافقتي.

ورفع في الختام نظره إليّ قائلًا:

- هل توافقين على ذلك؟

فتحت فمي وأغلقته مرارًا وتكرارًا كالحمقاء، ولكنني لم أعرف بما أجيبه.

- حبًّا باللّه يا آلي، قولي إنك موافقة فحسب. اعذريني على المقارنة السخيفة، ولكننا نعمل على القارب نفسه. وكلانا يعي حقيقة المشاعر التي تخالجنا، مشاعر اشتعل فتيلها في اللحظة الأولى التي التقينا فيها لسنة خلت. سأكون صريحًا معك وأعترف لك بأنني كنت أتوقّع رؤية فتاة «مسترجِلة» بعضلات بعد كلّ ما سمعته عنك. ولكن عندما رأيت عينيك الزرقاوين وشعرك البرتقالي المائل إلى البنّي الجميل، وجدت نفسي مفتونًا بك.

تنهّدت في سرّي وقد ضاعت الكلمات على شفتيّ.

تنحنح ثيو وقد بدا عليه التوتّر وهو يستطرد قائلًا:

- حسنًا، فلنذهبْ ونستمتعْ بما نحب أن نفعله: نلهو لبعض الوقت في المياه ونمنح هذا «الإحساس» الذي لا ندرك كنهه فرصة لينمو. وأنا واثق، إن لم يكن شيء آخر، بأن القارب سينال إعجابك. فهو سريع ومزوّد بكل وسائل الراحة.

سألته بعد أن استعدتُ في نهاية الأمر صوتي:

- هل سيكون أي شخص آخر... على متن القارب؟

- لا.

- هذا يعني أنك ستكون ربّانًا مع طاقم مؤلّفٍ من فردٍ واحد؟

- أجل، ولكن أعدك بألّا أطلب منك شدّ الأشرعة أو الجلوس في عش الغراب طوال الليل.

وابتسم عندها لي وقد اتّقدت عيناه بالحماسة وهو يتابع:

- قولي إنك سترافقينني يا آلي.

أومأت برأسي قائلة:

- موافقة.

- جيّد. تستطيعين الآن التوقيع على الخط المنقّط...

وأشار بإصبعه إلى نقطة على الورقة البيضاء مضيفًا: «لإتمام الاتفاق».

رمقته بنظرةٍ عجلى ووجدته ما يزال يبتسم لي. فبادلته في نهاية الأمر الابتسام، ومن ثمّ وقّعت اسمي وناولته الورقة. أمعن النظر فيها بجدية قبل أن يعيدها إلى الملف البلاستيكيّ قائلًا بصوت مرتفع ليتمكّن باقي أفراد الطاقم، الذين كانوا حتمًا يحاولون التنصّت علينا، من سماعه:

- حسنًا، لقد سُوّي الأمر. وافيني إلى الميناء عند الظهر لأزوّدك بتعليمات دقيقة عن المهامّ المُسنَدة إليك.

وغمزني على عجلٍ قبل أن يتوجّه بخطى متّزنة إلى الطاولة الأخرى وينضمّ إلى الآخرين، فيما كانت رزانتي المعتادة تصارع لتخفي شعلة الإثارة التي اتّقدت في أحشائي.

2

من الإنصاف أن أقول إنني وثيو لم نكن واثقين ممّا يمكن أن نتوقّعه ونحن نبحر من ناكسوس على متن نيبتون، وهو يخت أنيق وقويّ من نوع سانسيكر، يجاوز طوله طول هانس الذي أبحرنا على متنه خلال السباق بعشرين قدمًا. تعوّدت مشاركة الأماكن المكتظّة على المراكب مع أشخاص كُثُر، لكن وجودنا، نحن الاثنيْن، وحيديْن على متن هذا القارب جعل المساحة الكبيرة بيننا تبدو ملفتة. كانت المقصورة الرئيسة جناحًا فخمًا، بداخله المغطّى بخشب الساج المصقول واللامع. وعندما رأيت السرير الكبير المزدوج، انكمشت وتراجعت خطوة إلى الوراء، بعد أن تذكّرت ظروف المرة الأخيرة التي نمنا فيها في الغرفة نفسها. قال وهو يوجّه المركب للخروج من مرفأ ناكسوس:

- اشتريته بثمن بخسٍ منذ بضع سنوات بعد أن أفلس المالك. منحني هذا على الأقل سقفًا فوق رأسي منذ ذاك الحين.

سألته بدهشة:

- هل عشت فعلًا على متن هذا المركب؟

أجاب:

- تعوّدت الإقامة مع أمي في منزلها في لندن خلال فترات الاستراحة الطويلة. لكنني عشت العام الماضي هنا في اللحظات النادرة التي لم أكن أشارك خلالها في سباقات زوارق أو منافسات، حتى وصلت إلى مرحلة أرغب فيها في أن يكون لي منزلي الخاص على اليابسة. في الواقع، اشتريت لتويّ منزلًا، لكنه يحتاج إلى تصليحات كثيرة، والله وحده يعلم متى سيتسنّى لي الوقت لأرمّمه.

كنت متعوّدة على تيتان، يخت أبي الرائع العابر للمحيطات بنظام الإبحار الآلي المعقّد، ما جعلنا، نحن الاثنين، نتشارك «الشغف» كما يحلو لثيو أن يسمّيه. لكنّني في ذلك الصباح، وجدت صعوبة في التملّص من البروتوكول المعتاد لوجودي

على متن المركب معه. عندما يطلب مني ثيو أن أفعل شيئًا ما، عليّ أن أمنع نفسي من أن أجيب: «حاضر أيها القبطان!»

ساد شيء من التوتّر الأجواء بيننا، إذ لم يكن أيّ منا واثقًا من كيفية الانتقال من علاقة العمل التي جمعتنا حتى الساعة، إلى أسس أكثر حميمية. كان الحوار بيننا متكلّفًا، ورحت أفكّر مرتين في كلّ كلمة أتفوّه بها في هذا الوضع الغريب، وألجأ في أغلب الأحيان إلى الكلام المقتضب التافه. بقي ثيو شبه صامت، وعندما رسونا لتناول الغداء، بدأت أشعر بأن الفكرة برمّتها كارثة كبيرة.

شعرت بالامتنان حين أخرج زجاجة نبيذ زهري بارد ليرافق طبق السلطة. لم أكن يومًا ممّن يكثرون من احتساء الكحول، لاسيما عندما أبحر، إلا أننا استطعنا، بطريقة ما، أن ننهي، نحن الاثنان، الزجاجة سريعًا. ولكي أخرج ثيو من صمته المربك، قررت أن أتحدّث إليه عن الإبحار. راجعنا استراتيجيتنا التي وضعناها لسباق سيكلاديس وتناقشنا حول السباق في أولمبياد بكين القادم وكيف سيكون مختلفًا. كان موعد تجاربي الأخيرة لحجز مقعد ضمن الفريق السويسري في نهاية فصل الصيف، وأخبرني ثيو أنه سيبحر نحو أميركا.

- إذًا، أنت أميركي المولد؟ تبدو بريطانيًا.

أوضح قائلًا:

- أميركي الأب وإنكليزي الأم. درست في مدرسة داخلية في هامشير، ومن ثمّ في أوكسفورد، والتحقت بعدئذٍ بجامعة ييل. لطالما كنت مجتهدًا في عملي.

- ماذا درست؟

- الأدب الكلاسيكي في أوكسفورد، ومن ثمّ تابعت دراسات عليا في علم النفس في ييل. كنت محظوظًا بما يكفي لاختياري ضمن فريق الإبحار الجامعي وانتهى بي الأمر لأتولّى قيادته. كلها أشياء تلائم من يعيش في برج عاجي. ماذا عنكِ أنتِ؟

- التحقت بمعهد الموسيقا في جنيف ودرست العزف على الفلوت (الناي). الآن أصبح باستطاعتي تفسير الأمر.

رمقته بنظرة أرفقتها بابتسامة، فسأل:

- ما الذي يفسّر ماذا؟

- حقيقة أنك بارع في تحليل الأشخاص. إنّ جزءًا من سبب نجاحك الباهر كقبطان هو أنك بارع في التعامل مع طاقمك، لاسيما أنا.

تابعت كلامي بعد أن منحني ما احتسيته من كحول شيئًا من الشجاعة:

- ملاحظاتك ساعدتني فعلًا، حتى لو لم يكن سماعها حينذاك يروق لي كثيرًا.

طأطأ رأسه قليلًا بعد أن أخجله الإطراء وقال: «شكرًا».

ثمّ أردف:

- في جامعة ييل، منحوني حرية الجمع بين حبي للإبحار وعلم النفس فطوّرت أسلوبًا في القيادة قد يجده بعض الناس غير اعتياديّ، لكنه نجح معي.

- وهل دعم والداك حبك للإبحار؟

- دعمتني والدتي، لكنّ والدي...

صمت قليلًا قبل أن يقول:

- لقد انفصلا حين كنت في الحادية عشرة من عمري وتلى الانفصال طلاق صعب ومقيت بعد بضع سنوات. بعدئذ، عاد أبي إلى الولايات المتحدة ليعيش هناك. كنت أزوره في الإجازات حين كنت صغيرًا في السن، لكنه تعوّد صرف وقته في العمل أو في السفر، وقد استخدم مربيات للاعتناء بي. زارني مرات قليلة حين كنت في ييل ورآني وأنا أتنافس، لكنني لا أستطيع أن أقول إني أعرفه جيّدًا. لم أعرفه إلا من خلال ما فعله بأمي، وأعترف بأن حقدها عليه أثّر في حكمي. في أيّ حال، أودّ أن أسمعك تعزفين على الناي».

قال هذا فجأة في محاولة لتغيير الموضوع بينما التقت نظراته نظراتي، عينان خضراوان التقتا عينين زرقاوين. لكن هذه اللحظة مرت وأشاح بنظره مجدّدًا وهو يتململ في مقعده.

شعرت بالإحباط بعد أن باءت محاولاتي لاستدراجه بالفشل، فغرقت في صمت غاضب أيضًا. وبعد أن حملنا الأطباق المتّسخة إلى المطبخ، غطست في المياه قرب المركب، وسبحت بسرعة وقوة لأصفّي ذهني الذي شوّشه النبيذ.

سألني عندما عدت للظهور على متن المركب:

- ما رأيك في أن نصعد إلى السطح العلوي ونستفيد من أشعة الشمس قبل أن ننطلق؟

وافقت بالرغم من أنني كنت أشعر بأنّ بشرتي الفاتحة اللون والمليئة بالنمش قد حصلت على ما هو أكثر من كافٍ من أشعة الشمس. تعوّدت عندما أبحر أن أغطي نفسي بكريم واقٍ من الشمس، ذي قدرة عالية على حماية بشرتي، لكن المسألة كانت أشبهً بطلاء نفسي باللون الأبيض، ما يعني أنّ مظهري لن يكون أكثر جاذبية وسحرًا. في ذلك الصباح، اخترت، عن عمدٍ، أن استخدم واقيًا من الشمس أقل فاعليّة، مع أنني بدأت أشعر بأن الأمر لا يستحق عناء الحروق التي ستخلّفها الشمس على بشرتي.

حمل ثيو زجاجتيْ ماء من صندوق الثلج، وشققنا طريقنا إلى السطح المكشوف والمريح في مقدّمة اليخت. استلقينا جنبًا إلى جنب على الأرائك الوثيرة الفاخرة، ورحت استرق النظر إليه خلسةً في حين كان قلبي يتخبّط بين ضلوعي لرؤية جسده شبه العاري على مقربة مني. أشحت برأسي بعيدًا منه لمنع أيّ أفكار شهوانيّة من أن تراودني.

قال:

- إذًا، أخبريني عن أخواتك وعن ذاك المنزل الذي يشرف على بحيرة جنيڤ حيث تعيشين. يبدو مثاليًا وشاعريًا.

- إنه... أنا...

كان عقلي مشوّشًا بسبب الرغبة والكحول، وآخر ما أردت فعله هو أن ألقي خطابًا طويلًا معسولًا عن سيناريو عائلتي المعقّد، فأردفت قائلة وأنا أستدير لأستلقي على وجهي:

- أشعر بالنعاس فهل بإمكاني أن أخبرك لاحقًا؟

- بالطبع، تستطيعين ذلك، آلي؟

شعرت بلمسة أصابعه الخفيفة على ظهري. «نعم» واستدرت مجدّدًا ورفعت ناظريّ إليه بينما شعرت بأنفاسي تعلق في حنجرتي في حال من التوقّع.

- كتفاك تحترقان.

أجبته بنبرة غاضبة:

- آه، صحيح. حسنًا، سأنزل إذًا لأجلس في الظلّ في أسفل.

- هل أرافقك؟

لم أجبه، بل اكتفيت بهزّة من كتفيّ وأنا أقف وأبدأ السير في القسم الضيق من السطح الذي يفضي إلى مؤخّرة المركب. عندئذ، أمسكت يده بيدي.

- آلي، ما الأمر؟

- لا شيء، لماذا تسأل؟

- تبدين متوتّرة جدًّا.

أجبته على الفور:

- حقًّا؟ وأنت أيضًا!

- هل أبدو كذلك فعلًا؟

أجبته بنعم بينما هو يتبعني على السلالم المؤدية إلى المؤخّرة حيث جلست على مقعد في الظل.

تنهّد قائلًا:

- أنا آسف يا آلي. لم أكن يومًا ماهرًا في هذا الجزء.

- ما هو هذا الجزء بالتحديد؟

- أنت تعلمين... كلّ المقدّمات... حسن التصرّف. أعني، أنا أحترمك ومعجب بك ولم أشأ أن أجعلك تشعرين وكأني أحضرتك إلى هنا من أجل مطارحتك الغرام. لعلك اعتقدت أنّ هذا كل ما أريده لأنّك حسّاسة جدًّا حيال كونك أنثى في عالم للرجال و...

- باللّه عليك يا ثيو! أنا لست كذلك!

- حقًّا يا آلي؟

ونظرّ إليّ نظرة عدم تصديق قبل أن يتابع كلامه:

- سأكون صادقًا معك. في أيامنا هذه، نخشى نحن الرجال أن نُتّهم بالتحرّش الجنسي إذا نظرنا إلى امرأة حتى من باب الإعجاب. حصل لي هذا مرة مع امرأة بحّارة أخرى كانت جزءًا من طاقمي.

تظاهرت بالدهشة وأنا أسأله: حقًّا؟.

- نعم. أعتقد أنّني قلت شيئًا من قبيل «مرحبًا جو، يسرّني أن أرحّب بكِ على متن المركب فوجودك يجعل الحيويّة تدبّ فينا نحن الفتيان». وأصبحت ملعونًا منذ تلك اللحظة.

حدّقت قبل أن أعلّق باستنكار:

- لماذا قلت هذا الكلام؟

- باللّه عليك يا آلي، ما عنيته هو أنها ستبقينا متأهّبين ومتحفّزين، فسمعتها مذهلة على الصعيد المهني. لكنّها فهمت كلامي بشكل خاطئ، لسبب ما.

علّقت بنبرة لاذعة:

- لا أعرف لماذا فعلت هذا.

- ولا أنا أيضًا.

- ثيو، كنت أمازحك! أستطيع أن أرى تمامًا لماذا شعرت بالاستياء. لا تستطيع أن تتخيّل أنواع التعليقات التي نسمعها نحن النساء البحّارات. لا عجب في أن تكون حسّاسة حيال هذا الأمر.

- حسنًا، لهذا السبب كنت متوتّرًا جدًّا حيال وجودك معنا على متن المركب في بادئ الأمر، خاصة لأنّني وجدتك جذّابة للغاية.

هاجمته قائلة:

- أنا الطرف النقيض، أتذكر؟ انتقدتني لأنني أحاول أن أكون رجلًا ولا أكتفي بنقاط القوة الخاصة بي!

ارتسمت على وجهه تكشيرة وهو يعلن:

- أصبت الهدف. وها أنت الآن معي، وحيدين، وأنا أعمل معك وقد تعتقدين...

صحت في وجهه وقد طفح بي الكيل تمامًا:

- ثيو! أصبحت المسألة سخيفة! أعتقد أنّ المشكلة فيك وليس فيّ أنا!
وأردفت قائلة:
- طلبت مني أن أرافقك إلى مركبك وقد جئت بملء إرادتي!
- نعم، فعلتِ. سأكون صادقًا معك يا آلي، هذه المسألة برمتها...
توقّف عن الكلام، ومن ثمّ نظر إليّ بصدق وإخلاص قبل أن يتابع كلامه:
- أنت مُهمّة جدًّا بالنسبة إليّ. وسامحيني إنْ كنت أتصرّف بغباء وبلاهة، لكنْ انقضى وقت طويل للغاية منذ أن فعلت هذا... مسألة المغازلة هذه. ولا أريد أن أرتكب أيّ خطأ.
رقّ قلبي لكلامه وقلت:
- حسنًا، ما رأيك لو تحاول أن تتوقّف عن تحليل كلّ شيء وتسترخي قليلًا؟ عندئذ، قد أسترخي أنا أيضًا. تذكّر أنّي أريد أن أكون هنا.
- حسنًا، سأحاول.
قلت وأنا أتأمّل ذراعيّ اللتين أحرقتهما الشمس:
- حسنًا. والآن بتُّ أبدو كحبة طماطم ناضجة جدًّا، سأنزل إلى أسفل لأستريح من أشعّة الشمس. ويسرّني أن تنضمّ إليّ إذا ما رغبت في ذلك.
وقفت وشققت طريقي نحو السلالم قبل أن أضيف بجرأة:
- وأعدك بألّا أقاضيك بتهمة التحرّش الجنسي. في الواقع، لعلي سأشجعُك قليلًا.
اختفيت عن ناظريه بعد أن بلغت أسفل السلالم وأنا أضحك بصوت عالٍ لوقاحة دعوتي، وأتساءل إنْ كان سيلبّيها. عندما دخلت الحجرة واستلقيت على السرير، شعرت بنوع من السلطة. قد يكون ثيو رئيسي في العمل، لكني مصمّمة على أن نكون متساويَيْن في أيّ علاقة خاصة يمكن أن تنشأ بيننا في المستقبل.
بعد مرور خمس دقائق، وقف ثيو بشكل خجول عند الباب واعتذر مرارًا وتكرارًا لأنه تصرّف بسخافة. وفي نهاية الأمر، طلبت منه أن يصمت وأن ينضمّ إليّ في السرير.

بعد أن حصل هذا، سارت الأمور كلّها على خير ما يرام بيننا. وفي الأيام التي تلت، أدركنا أنّ المسألة أبعد وأعمق من مجرّد انجذاب جسديّ، إنها تلك الثلاثيّة النادرة التي تجمع الجسد والقلب والعقل. وأخيرًا، غصنا في هذه البهجة المشتركة، بهجة عثور كلّ واحدٍ منّا على الآخر.

زادت الحميمية بيننا بوتيرة أسرع من الوتيرة الطبيعية لأنّ كلّ واحد منا يعرف نقاط قوة الآخر ونقاط ضعفه وينبغي أن أقول إننا لم نتحدّث كثيرًا عن الأخيرة بل اكتفينا بتمجيد روعة كلٍّ منّا في نظر الآخر. أمضينا ساعات في ممارسة الحب، واحتساء النبيذ وتناول السمك الذي كان ثيو يصطاده من مؤخّرة المركب وأنا استلقي بتكاسلٍ في حجره وأطالع كتابًا. ترافق جوعنا الجسديّ مع نهم لا يوصف لمعرفة كلٍّ منّا ما يمكن معرفته عن الآخر. كنا وحيدَيْن في البحر الهادئ والمسالم، فشعرت وكأننا نعيش خارج الزمن.

في ليلتنا الثانية، استلقيت تحت النجوم على السطح العلويّ المكشوف، بين ذراعيّ ثيو وأخبرته عن پاپا سولت وعن شقيقاتي. واستمع ثيو بافتتان، تمامًا كما يفعل الجميع، إلى قصة طفولتي الغريبة والساحرة.

- إذًا، دعيني أفهم بشكل صحيح: والدك الذي لقّبته شقيقتك الكبرى باسم پا سولت، جلبك أنت وخمس بنات أخريات إلى منزله من رحلاته التي قام بها حول العالم. الأمر يشبه إلى حدٍّ ما تجميع الأناس الآخرين لقطع المغنطيس التي تُعلّق على الثلاجات؟

- باختصار، نعم. لكنّني أعتقد بأنني أهم بقليل من مغنطيس يُعلّق على ثلاجة.

قال وهو يعضّ أذني بنعومة:

- سنرى ذلك. هل قام برعايتكنّ كلكنّ بنفسه؟

- لا. كان لدينا مارينا التي لطالما ناديناه ماما. وظّفها بابا مربيّة عندما تبنّى مايا، شقيقتي الكبرى. إنها عمليًّا أمنا ونحن كلنا نحبّها جدًّا. إنّها فرنسيّة في الأصل، وهذا أحد الأسباب التي جعلتنا نجيد اللغة الفرنسيّة، فضلًا عن أنها واحدة من اللغات الرسميّة في سويسرا. وكان بابا مهووسًا بفكرة أن نجيد لغتين، فتعوّد أن يتحدّث إلينا بالإنكليزية.

علّق وهو يحضنني ويطبع قبلة على شعري:

- لقد أحسن صنعًا. ما كنت لأعرف أنها ليست لغتك الأم، بصرف النظر عن لكنتك الفرنسيّة الرائعة. هل تحدّث إليكنّ والدك يومًا عن السبب الذي جعله يتبناكنّ؟

- طرحت على أميّ هذا السؤال ذات مرة، فقالت لي إنه كان يشعر بالوحدة في أتلانتيس ولديه مال كثير ليشاركه. نحن الفتيات لم نتساءل فعليًا عن السبب يومًا، بل تقبّلنا ما نحن عليه كما يفعل كلّ الأطفال. كنّا عائلة، ولم يكن هناك أيّ سبب يدفعنا للتساؤل. نحن فقط... ما نحن عليه.

- المسألة أشبه بقصّة من قصص الخيال. فاعل الخير الثريّ يتبنّى ستّ يتيمات. ولمَ اختار فتياتٍ فقط؟

أجبته ضاحكة:

- تعوّدنا المزاح بهذا الشأن وقلنا إنّه لربما بعد أن بدأ بتسميتنا على اسم العنقود النجميّ «الشقيقات السبع» أو «الثريّا»، كان يمكن لتبنيّ صبيّ أن يفسد التسلسل. بصراحة ليس لدى أيّ منّا فكرة عن السبب.

قال في محاولة منه لإغاظتي:

- إذًا، اسمك أنت هو «ألسيوني»، الشقيقة الثانية؟ إنه أصعب عند النطق من آل.

- نعم، لكن لا أحد ناداني بهذا الاسم يومًا، باستثناء ماما التي تعوّدت مناداتي به عندما تغضب مني.

وأردفت عابسة:

- إياك أن تجرؤ على مناداتي بهذا الاسم!

- أنا أحب هذا الاسم، يا طائري الأزرق الصغير. وأعتقد أنه يليق بك. ولكن لمَ أنتنّ ست أخوات فحسب في حين أنه ينبغي أن تكنّ سبع فتيات بحسب الأسطورة؟

- ليس لديّ أدنى فكرة. الشقيقة الأخيرة التي من المفترض أن تحمل اسم ميروپ لو جلبها بابا إلى المنزل، لم تصل.

- هذا محزن.

- نعم، إنّه كذلك. لكنّ شقيقتي السادسة إلكترا كانت كالكابوس عندما وصلت إلى أتلانتيس، ولهذا، لا أظنّ أنّ واحدة منّا كانت تتطلّع لانضمام طفل آخر لا يكفّ عن الصراخ والبكاء إلى عائلتنا.

- إلكترا؟

عرف ثيو الاسم على الفور، فتابع يسأل:

- أنت لا تتحدّثين عن عارضة الأزياء الشهيرة، أليس كذلك؟

أجبته بشيء من الحذر والتوتّر:

- هي بشحمها ولحمها، نعم.

التفت إليّ ثيو مذهولًا. فأنا نادرًا ما أذكر، هذا إذا فعلت أصلًا، أنني وإلكترا شقيقتان، لأنّ هذا يُفضي إلى محاولات لا تنتهي لاكتشاف المرأة التي تكمن خلف أحد أكثر الوجوه التي تم تصويرها في العالم.

- حسنًا، حسنًا. وماذا عن أخواتك الأخريات؟ سألني، وقد سرّني أنه لم يطرح أيّ سؤال آخر عن إلكترا.

- مايا هي شقيقتي الكبرى وهي الأكبر سنًّا. إنها مترجمة وورثت عن بابا موهبتها في اللغات. لم أعد أحسب عدد اللغات التي تتكلّمها. وإن كنت تعتقد أنّ إلكترا جميلة فعليك أن ترى مايا. أنا أتميّز بأنّ شعري أحمر اللون وبشرتي مليئة بالنمش، بينما تتميّز هي ببشرة سمراء رائعة وشعر أسود داكن فتبدو أشبه بنجمة لاتينية مثيرة. علمًا بأنها مختلفة تمامًا في شخصيتها؛ هي ناسكة فعليّة، ولا تزال تعيش في منزلنا أتلانتيس وتقول إنها تريد أن تبقى هناك لتهتم بپا سولت. نحن كلنا نعتقد أنها تختبئ من شيء ما.

أفلتت من بين شفتيّ تنهيدة قبل أن أضيف:

- لا أعلم فعلًا ما هو. أنا واثقة من أنّ شيئًا ما حصل لها عندما غادرت المنزل

لتكمل دراستها الجامعيّة؛ لقد تغيّرت تمامًا. في أيّ حال، أحببتها كثيرًا في صغري وما زلت أحبها، حتى لو كنت أشعر بأنها أقصتني وأخرجتني من حياتها في السنوات القليلة الماضيّة. والحقّ يُقال إنها فعلت ذلك مع الجميع. لكننا كنّا متقاربتين جدًّا في الماضي.

همس ثيو:

- عندما تغوصين في أعماق نفسك، تميلين إلى نسيان كلّ ما يحيط بك وإلى التخلّي عنه، إن كنت تفهمين ما أعنيه.

علّقت على كلامه وأنا أبتسم:

- إنّه كلام عميق جدًّا. نعم، هذا هو حجم المسألة.

- وماذا عن شقيقتك الأصغر منك سنًّا؟

- اسمها ستار وهي تصغرني بثلاث سنوات. شقيقتاي اللتان في الوسط جاءتا معًا. جاء بابا بسيسي، شقيقتي الرابعة، بعد مرور ثلاثة أشهر على وصول ستار، وهما متلاصقتان منذ ذلك الحين. عاشتا حياة ترحال بعد أن أنهتا دراستهما الجامعيّة، فجالتا في أوروبا والشرق الأقصى، لكن يبدو أنهما تنويان الاستقرار الآن في لندن بحيث يمكن لسيسي أن تتابع دورة في الأسس الفنيّة. وإن كنت ستسألني عن ستار كشخص، من هي، أو ما هي مواهبها وطموحاتها، فأخشى أنني لا أستطيع أن أجيبك حقًّا لأنّ سيسي تسيطر عليها بالكامل. هي لا تتكلّم كثيرًا وتترك سيسي تتولّى الحديث بالنيابة عنهما. سيسي صاحبة شخصيّة قويّة جدًّا مثل إلكترا. وكما يمكن لك أن تتخيّل، هناك توتّر بين الاثنتين. فإلكترا عصبيّة وقويّة كما يوحي اسمها لكنها تخفي خلف ذلك طبيعة حسّاسة جدًّا. لطالما كان هذا رأيي.

وافقني ثيو الرأي قائلًا:

- يمكن لأخواتك أن يشكّلن موضوع دراسة نفسيّة مذهلة، هذا مؤكّد. إذًا، من التالية؟

- تيغي التي يسهل وصفها لأنّها حلوة المعشر بكلّ بساطة. أنهت دراستها في العلوم البيولوجيّة وعملت لبعض الوقت في مجال البحوث في حديقة الحيوان في

سيرفيون، قبل أن تشدّ الرحال إلى مرتفعات إسكتلندا لتعمل في محميّة للغزلان. إنها...

صمتُّ للحظة بحثًا عن الكلمة المناسبة لوصفها:

- بالغة الرقّة وهوائية، مع كلّ معتقداتها الروحانيّة الغريبة. تبدو وكأنها تطفو في مكانٍ ما بين الجنّة والأرض. أخشى أن نكون أغظناها كلنا من دون رحمة على مدى السنين عندما أعلنت أنها سمعت أصواتًا أو رأت ملاكًا في الشجرة في الحديقة.

- إذًا، أنت لا تؤمنين بأمور مماثلة؟

- كنت أصف نفسي بأنّ قدميّ ثابتتان على الأرض.

وصحّحت كلامي وأنا ابتسم:

- أو على المياه، على الأقل. أنا إنسانة عمليّة جدًّا بطبيعتي، وأفترض أنّ هذا هو السبب الذي جعل شقيقاتي ينظرن إليّ على أنني «قائدة» عصابتنا الصغيرة. لكن هذا لا يعني أني لا أحترم ما لا أعرفه أو لا أفهمه. ماذا عنك أنت؟

- حسنًا، على الرغم من أنني لم أرَ أيّ ملاكٍ يومًا، كما رأت شقيقتك، لكنّني لطالما شعرت بأني محروس، لاسيّما عندما أبحر. عشت لحظات رهيبة تقشعرّ لها الأبدان على متن المركب، وتمكّنت حتى الساعة من أن أخرج منها سليمًا ومن دون أذى. لعل بوسيدون (إله البحار) يدعمني ويساندني، إذا ما أردنا استخدام تشبيه من الأساطير.

همست بحماس:

- آمل أن يستمر هذا طويلًا.

- حسنًا. والآن، حدّثيني عن والدكم الرائع.

وراح ثيو يملّس شعري بنعومة قبل أن يردف: «ما هي طبيعة عمله؟».

- سأكون صادقة معك مجدّدًا وأقول: لا أحد منّا يعرف تحديدًا ما هي طبيعة عمله، لكنه ناجح بغض النظر عن نوعه. إنّ يخته تيتان من نوع بانيتي.

قلت هذا في محاولة مني لتصوير ثروة بابا بلغة يمكن لثيو أن يفهمها.

ردّ ثيو محاولًا إغاظتي:

- واو! هذا يجعل من يختي هذا زورقًا صغيرًا. حسنًا، حسنًا. مع قصورك في البحر وعلى اليابسة، أفترض أنك أميرة متخفيّة.

- لقد عشنا حياةً كريمةً لكنّ بابا كان مصمّمًا على أن تكسب كلّ واحدة منا مالها الخاص. لم يكن هناك هبات ومنح مفتوحة لأيّ واحدة منا بعد أن أصبحنا راشدات، إلا إذا كانت الغاية من المال هي التعليم.

- إنه رجل حسّاس وذكيّ. إذًا، هل أنت مقرّبة منه؟

- نعم، للغاية. لطالما كان كلّ شيء بالنسبة إليّ، وبالنسبة إلينا كلنا. أنا واثقة من أنّ كلّ واحدة منا تحب أن تعتقد أنّ علاقتها به خاصّة. كنا نحن الاثنتين نتشارك حبّ الإبحار، لذلك أمضيت معه وقتًا طويلًا أثناء نشأتي. وهو لم يعلّمني الإبحار فحسب، بل هو أكثر الرجال الذين التقيتهم في حياتي لطفًا وحكمةً.

علّق ثيو على كلامي ويده تنتقل من شعري لتداعب عنقي:

- إذًا، أنتِ فعلًا ابنة أبيك المدلّلة. يبدو أنّ عليّ أن أبذل جهدًا كبيرًا لأبلغ مستواه.

قلت له وقد شتّتت لمسته انتباهي:

- كفانا كلامًا عني. أريد أن أعرف مزيدًا عنك.

- لاحقًا يا آلي، لاحقًا... يجب أن تعرفي التأثير الذي تتركه لكنتك الفرنسيّة الرائعة عليّ. يمكنني أن أستمع إليها طوال الليل.

رفع ثيو جسمه مستندًا إلى مرفقه، وانحنى قليلًا ليطبع قبلة طويلة على شفتيّ. وبعدها، لم نعد نتكلّم.

3

صباح اليوم التالي، قررنا أن نبحر باتجاه جزيرة ميكونوس للتزوّد بالمؤن. بعد قليل سمعت ثيو يناديني من سطح اليخت العلوي طالبًا مني الانضمام إليه على الجسر.

قال لي وقد بدت عليه علامات الاعتداد بالنفس:

- احزري ماذا حدث؟

- ماذا؟

- كنت أدردش عبر جهاز اللّاسلكيّ مع بحّار صديقٍ لي يُدعى أندي، وأبلغني بأنه على متن قاربه في منطقة قريبة من هنا. واقترح أن نلتقي في وقت لاحق في الخليج الواقع قبالة جزيرة ديلوس لنحتسي كأسًا معًا، مشيرًا إلى أنني لن أجد صعوبة في العثور عليه لأن يختًا ضخمًا اسمه تيتان يرسو بالقرب من قاربه».

هتفت قائلة:

- تيتان؟ هل أنت واثق؟

- ادّعى أندي بأنه من نوع بانيتي، ولا ريب عندي في أن مركب والدك فريد من نوعه ولا يوجد أي نظير له. وأضاف أندي بأنّه رأى قصرًا عائمًا آخر يدنو منه، ما أثار لديه شعورًا برهاب الاحتجاز ودفعه للانتقال بضعة أميال باتجاه الخليج المجاور. ما رأيك إذًا لو نمرّ لشرب فنجان من الشاي مع والدك قبل أن نلتقي أندي؟

أجبته بصدق:

- كلامك فاجأني كثيرًا لأنّ بابا لم يبلغني نيّته القيام برحلة إلى هذه البقعة، مع أنني واثقة من أن بحر إيجة هو مكان الإبحار المفضّل لديه.

- لنكون منصفين، لا أظنّه كان يتوقّع أن تكوني على مسافة قريبة منه. تستطيعين استخدام المنظار عند اقترابنا من المكان للتأكّد من أنه يخت والدك،

وسنتصل بالربّان عبر جهاز اللّاسلكي لنبلغه بقدومنا. سيكون محرجًا ألّا يكون يخت والدك فنُتّهم بالتطفّل على روسيّ من أصحاب النفوذ يستمتع بوقته مع المومسات على متن يخته المليء بالفودكا. في الواقع، لا أظنّ أنها فكرة سيئة.

والتفت ثيو نحوي مستطردًا:

- لم يسبق لوالدك أن قام بتأجير يخته تيتان، صح؟

أجبته بحزم: «أبدًا».

- حسنًا سيدتي، خذي المنظار وعودي للاسترخاء على ظهر القارب، بينما يتولى الربّان الأمين القيادة. أشيري إليّ بإبهامك إلى أعلى عبر النافذة عندما ترين يخت تيتان وسأبعث رسالة عبر جهاز اللّاسلكيّ لأبلغهم بوصولنا.

عدت إلى ظهر القارب وجلست قلقة أترقّب ظهور اليخت تيتان في الأفق، وأنا أتساءل في قرارة نفسي عمّا يمكن أن أشعر به عندما يلتقي الرجل الذي أحبه، أكثر من أيّ شيء في العالم، الرجل الذي كان حبي له ينمو معي منذ صغري. حاولت أن أتذكّر إن كان سبق لبابا أن التقى أيًّا من الرجال الذين واعدتهم في الماضي. وخيّل إليّ بأنني عرّفته مرّة إلى شخص كنت معجبة به في معهد الموسيقا في جنيڤ، بيد أن ذكرى تلك الحادثة طواها الدهر. وتوخّيًا للصدق، أعترف بأنه لم يسبق لي أن التقيت شخصًا ترك في نفسي أثرًا بالغًا إلى حدّ يدفعني لأعرّفه إلى بابا، أو إلى أيّ فرد من أفراد أسرتي.

بعد مرور حوالى عشرين دقيقة، لفت انتباهي مركب هيكله مألوف، فالتقطت المنظار للتأكّد من هوّيته. أجل، إنه يخت بابا دون أدنى شك. التفتُّ إلى الوراء، وقرعت على نافذة الجسر الزجاجيّة خلفي، وأشرت لثيو بإبهامي نحو الأعلى. فأومأ برأسه ومدّ يده ليمسك بجهاز الاستقبال اللّاسلكيّ.

حين عدت إلى المقصورة، ضممت شعري المُبعثَر بفعل الهواء إلى خلف على شكل ذيل حصان وارتديت قميصًا قطنيًّا وبنطالًا قصيرًا، وقد شعرت فجأة بالإثارة لأنها المرّة الأوّلى التي أفاجئ فيها والدي بهذه الطريقة وأقلب الطاولة عليه. عند

عودتي إلى الجسر، سألت ثيو إذا كان ربّان يخت والدي، هانز، أجابه، عبر جهاز اللّاسلكيّ فأجابني:

- كلا لم يجب. بعثت رسالة أخرى منذ لحظات قليلة. وفي حال لم نتلقَّ أيَّ ردّ، أظنّ أنّ علينا المجازفة والقيام بزيارة مفاجئة. إنها فكرة مثيرة للاهتمام.

أمسك ثيو بالمنظار وصوّبه باتجاه قارب آخر مجاور لليخت تيتان.

- أعرف صاحب اليخت الآخر الضخم الذي حدّثني أندي عنه. يحمل اليخت اسم أوليمبس وهو ملك شخص ثري يُدعى غريغ إيسزو. التقيته في مناسبات عدّة بصفته صاحب شركة «لايتنينغ كومينوكايشن» الراعية لبعض القوارب التي تولّيت قيادتها.

صرخت مذهولة:

«حقًّا؟» فقد كان غريغ إيسزو يضاهي إليكترا شهرةً ولكن على طريقته الخاصّة. سألته:

- كيف يبدو؟

- حسنًا، سأقول لك بكلّ بساطة إنني لم ارتح له. كنت جالسًا بقربه في حفل عشاء ولم ينفكّ طوال الأمسية عن الحديث عن نفسه ونجاحاته. وابنه زيد أسوأ منه بكثير، فهو ولد ثريّ مدلّل يظنّ أنّ بإمكانه الإفلات من أنواع العقاب كافّة بفضل أموال والده.

وامتلأت عينا ثيو بتعابير الغضب على غير العادة.

كنت أصغي بانتباه شديد إلى كلّ كلمة يقولها. وكانت تلك المرّة الأوّلى التي يذكر فيها أحد المقربين مني اسم زيد أيسزو. فسألته قائلة:

- أهو سيئ إلى هذا الحدّ؟

فأجابني مكّررًا التأكيد على ما سبق وقاله:

- أجل، سيئ إلى هذا الحدّ. ارتبطت صديقة لي بعلاقة معه وأساء معاملتها إلى أقصى درجة ممكنة. في أي حال...

ورفع ثيو المنظار من جديد إلى عينيه وتابع قائلًا:

- أظنّ أنّ الأفضل أن نحاول الاتصال باليخت تيتان مرّة أخرى. إذ يُخيّل إليّ أنّ اليخت قد بدأ يتحرك. لمَ لا تبعثين الرسالة بنفسك يا آلي؟ إذا كان والدك أو ربّان يخته على السمع، سيتعرفان حتمًا إلى صوتك.

أذعنت لطلبه ولكنني لم ألقَ أي ردّ، ورأيت القارب يضاعف سرعته ويبحر بعيدًا منا.

سألني ثيو بينما أخذت المسافة التي تفصلنا عن اليخت تيتان تتسّع:

- ما رأيك لو نلحق به؟

- سأحضر هاتفي المحمول واتّصل ببابا مباشرة.

- وسأحاول في هذه الأثناء مضاعفة سرعة القارب. لا ريب في أنّهم ابتعدوا كثيرًا، ولكنّني لم أحاول من قبل اللحاق بيخت بهذا الحجم، ولا بدّ من أن الأمر سيكون ممتعًا.

تركت ثيو يمارس لعبة القط والفأر مع يخت بابا، ونزلت إلى المقصورة وأنا ممسكة بإطار الباب، خشية أن أقع بعد أن زاد ثيو سرعة القارب. وجدت هاتفي المحمول في حقيبة الظهر وحاولت أن أشعله، وقد بدأ صبري ينفد أمام الشاشة التي لا حياة فيها. كانت الشاشة تحدّق إليّ وكأنّها حيوان أليف أهملته ونسيت أن أطعمه، وأدركت لتوّي أنّ البطارية تحتاج إلى شحن. عدت أبحث بين أغراضي في حقيبة الظهر عن الشاحن، ووجدت موائمًا أميركيّ الطراز يتوافق مع المقبس قرب سريري، فوصلته به وتوسّلته ليعود إلى الحياة على جناح السرعة.

عندما صعدت إلى الجسر من جديد، كان ثيو قد خفّف السرعة وأعادها إلى وتيرتها الطبيعية.

- لن نتمكّن من اللّحاق بوالدك، حتّى لو استخدمت السرعة القصوى. فتيتان يستخدم كل طاقته. هل اتّصلت به؟

-كلا، لأنني أقوم بشحن هاتفي في الوقت الحالي.

- بإمكانك استعمال هاتفي.

ناولني ثيو هاتفه المحمول، فطلبت رقم هاتف بابا سولت، فحوّلني مباشرة

إلى البريد الصوتيّ. تركت رسالة لأبي شرحت له فيها الوضع وطلبت إليه الاتصال بي في أقرب فرصة ممكنة.

قال لي ثيو مازحًا:

- يبدو لي أن والدك يريد الفرار منك. لعلّه لا يرغب في رؤية أحد الآن. في مطلق الأحوال، سأتصل بأندي عبر اللّاسلكيّ لأتمكّن من تحديد موقعه بالضبط ونتوجّه مباشرة لمقابلته.

لا ريب في أن إمارات الارتباك قد ارتسمت على وجهي، لأن ثيو سارع إلى إحاطتي بذراعيه واحتضاني.

- كنت أمزح يا حبيبتي. لا تنسي أنه خط مفتوح للبث اللّاسلكيّ ومن الممكن أن يكون ربّان تيتان قد تغافل عن تلقّي الرسائل. من المعروف أنني غالبًا ما أفعل ذلك. كان حريًّا بك أن تتّصلي به عبر المحمول.

- معك حق.

بينما كنا نبحر باتجاه جزيرة ديلوس للقاء صديق ثيو، تذكّرت الساعات الطويلة التي كنت أمضيها مع بابا على متن قاربه وإصراره على تشغيل جهاز اللّاسلكيّ في كلّ الأوقات، وتأهّب الربّان هانز الدائم لتلقّي أي رسالة موجّهة إلى تيتان.

تذكّرت، حين استعدت الأحداث الماضية، الانزعاج الذي شعرت به طوال فترة بعد الظهر. ربّما كانت نفسي تحدّثني بما سيأتي.



عندما استيقظت في صباح اليوم التالي بين ذراعيّ ثيو في خليج ماشيريس الجميل المهجور، شعرت بقلبي مثقلًا بالحزن لمجرّد التفكير في عودتنا إلى ناكسوس في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم. كان ثيو قد حدّثني عن الخطط التي وضعها استعدادًا للسباق الذي يُتوقّع أن يبدأ بعد بضعة أيام، وبدت لي الأوقات السعيدة التي أمضيناها معًا قد أشرفت على نهايتها، أقلّه في الوقت الحالي.

تنبّهت من حلم اليقظة الذي راودني، وأنا مستلقية بقربه على سطح المركب

عارية، وأرغمت نفسي على تهيئة ذهني للخروج من تلك الشرنقة الجميلة المتمثّلة في العلاقة التي نشأت بيني وبين ثيو. كان هاتفي ما يزال موصولًا بالشاحن منذ يوم أمس، ولم أجد بدًّا من النهوض والذهاب لإحضاره.

شعرت بيد ثيو تمسك بي على عجل وصوته يقول لي:

- إلى أين تذهبين؟

- سأحضر هاتفي. يجب أن أستمع إلى الرسائل الواردة.

- عودي بسرعة، اتفقنا؟

فعلت ما طلب مني، وحين عدت أمسك بي وأرغمني على ترك الهاتف جانبًا لفترة أطول قليلًا. يكفي القول إنني لم أشغّل الهاتف إلا بعد مرور ساعة أخرى.

كنت أدرك بأنني سأجد بعض الرسائل من الأصدقاء وأفراد العائلة. ولكن عندما تمكّنت من إبعاد يد ثيو برفق عن بطني حتى لا أوقظه، لاحظت أن عدد الرسائل الواردة غير اعتياديّ، إلى جانب الرسائل الصوتيّة.

كانت الرسائل كلّها من شقيقاتي.

«آلي، أرجوك أن تتصلي بي حين تستطيعين ذلك. أحبك، مايا».

«آلي، هذه أنا سيسي. إننا نحاول الاتصال بك. هل تستطيعين الاتصال بماما أو بأي واحدة منّا على الفور؟».

«عزيزتي آلي، هذه أنا تيغي. لا أحد منّا يعرف مكانك، ولكن علينا أن نتحدّث إليك».

كانت رسالة إلكترا وحدها كافية لترتعد فرائصي: **«يا إلهي يا آلي! أليس ذلك فظيعًا؟ أتصدّقين ما حصل؟ إنني في طريق العودة من لوس أنجلوس».**

نهضت من مكاني وتوجّهت إلى مقدّمة اليخت. كان من الواضح أن أمرًا مريعًا قد حصل. أخذت يداي ترتجفان وأنا اتصل ببريدي الصوتي لأعرف ما الذي جعل شقيقاتي يتّصلنَ بي بهذا الإلحاح.

وما إن أصغيت إلى الرسالة الأخيرة الواردة حتى عرفت الحقيقة.

«مرحبًا، هذه أنا سيسي من جديد. يبدو أن الجميع يخشون أن يخبروك بما حصل، ولكنّنا نحتاج إليك في المنزل بسرعة. يؤسفني يا آلي أن أنقل إليك الأخبار السيئة، ولكنّ بابا سولت قد تُوفّي. آسفة... آسفة.. أرجو منك أن تتصلي بنا في أقرب فرصة ممكنة».

لا ريب في أنّ سيسي قد ظنّت أنها أقفلت الخط قبل أن تقفله، بحيث سمعت صوت من يجهش بالبكاء، تبعته الرنّة المعتادة التي تعلن عن ورود رسالة ثانية.

حدّقت إلى الأفق البعيد وأنا شاردة الذهن أفكّر كيف أنني رأيت أمس تحديدًا اليخت تيتان عبر المنظار. حاولت أن أواسي نفسي قائلةً إنه من المؤكّد أنّ ثمة خطأ ما، لكنني أصغيت بعدها إلى البريد الصوتيّ التالي المرسل من مارينا، التي عاملتني طوال حياتي كأمّ لي مع أنه لا تربطني بها صلة دمّ، طالبة مني الاتصال بها لأمر طارئ. ومن ثمّ ورد بريد صوتيّ آخر مماثل من مايا، وثالث من تيغي ورابع من إلكترا...

يا إلهي، يا إلهي.

أمسكت بالدرابزين واستندت إليه، بينما أُفلت هاتفي المحمول من يدي واستقّر على سطح المركب محدثًا جلبة. ملت برأسي إلى الأمام وقد شعرت بالدماء تجفّ في عروقي وخشيت أن يُغمى عليّ. فجلست على سطح المركب ووضعت رأسي بين يدي وأنا أتنفّس بصعوبة.

- لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا.

- ما الذي يجري يا حبيبتي؟

هرع ثيو الذي كان ما يزال عاريًا نحوي، وجلس القرفصاء قبالتي، ومن ثمّ أمسك بذقني رافعًا رأسي نحوه وقال لي:

- ما الذي جرى؟

لم أتمكّن من الإجابة واكتفيت بالإشارة إلى هاتفي المحمول الذي وقع أرضًا.

سألني وهو يلتقط الهاتف، وقد بدت علامات القلق على وجهه:

- هل من أخبار سيئة؟

أومأت برأسي بالموافقة.

- تبدين يا آلي وكأنك رأيت شبحًا. تعالي إلى الداخل وسأحضر لك كوبًا من الماء.

حملني عن الأرض بينما كان هاتفي المحمول ما يزال بين يديه، وساعدني في التوجّه إلى أسفل حيث أجلسني على مقعد جلديّ. أذكر أنني تساءلت في سري إنْ كان مقدّرًا لي أن يراني وأنا في هذه الحالة من العجز.

ارتدى بنطاله القصير على عجل وأحضر لي أحد قمصانه القطنية، وساعدني على ارتدائه من دون أن يلقى أي استجابة من جسدي، ومن ثمّ زوّدني بكأس من البراندي وكوب ماء. كانت يداي ترتعشان بشدّة، فطلبت منه تشغيل بريدي الصوتيّ لأتمكّن من الاستماع إلى الرسائل المتبقّية. غصصت وأنا احتسي البراندي وانسكبت قطرات منه في المكان، إلا أنّه أضفى شيئًا من الدفء على معدتي وساعدني على استعادة هدوئي.

«تفضلي». ناولني هاتفي المحمول فأعدت الإصغاء بفتور لرسالة سيسي ورسائل الآخرين، وثلاث رسائل من مايا، وواحدة من مارينا، ليعلو بعدها صوت غيورغ هوفمان غير المألوف، الذي بالكاد أذكر أنه كان محامي بابا. وتلقيت أيضًا خمس رسائل صوتية فارغة حيث لم يجد المتّصل، كما يبدو، ما يقوله، فأنهى الاتصال.

بقيت عينا ثيو مسمّرتين على وجهي بينما كنت أضع هاتفي المحمول على المقعد بجانبي.

همست بهدوء: «توفي بابا سولت»، وسرحت بعدها في الفضاء لفترة طويلة.

- يا إلهي! كيف حصل ذلك؟

- لا أعرف.

- هل أنت واثقة من ذلك؟

-أجل! كانت سيسي الوحيدة التي تحلّت بالشجاعة الكافية لتنطق بتلك

الكلمات. ولكنّني ما أزال غير قادرة على فهم كيف يُعقل أن يحصل... فبالأمس شاهدنا يخت بابا.

- أخشى ألّا أكون قادرًا على تقديم تفسير لما حصل يا حبيبتي. أظنّ أن أفضل ما باستطاعتك فعله في الوقت الحالي هو الاتصال بالمنزل.

ودفع بالهاتف المحمول باتجاهي عبر المقعد.

- لا أستطيع.

- فهمت. هل ترغبين في أن أتّصل بهم بنفسي؟ بإمكانك أن تعطيني الرقم.

صرخت في وجهه قائلة:

- كلّا! كلّا، أريد العودة إلى دياري في الحال!

ونهضت من مكاني، وأنا أنظر من حولي عاجزة، ورفعت بعدها نظري إلى السماء وكأنني أتوقّع ظهور طائرة مروحية لتقلّني إلى المكان الذي كنت بحاجة ماسّة إلى أن أكون فيه.

- أصغي إليّ، دعيني أذهب للاتصال بالإنترنت وإجراء بعض الاتصالات الهاتفية. وسأعود في الحال.

واختفى ثيو على الجسر بينما بقيت جالسة في مكاني وقد شُلّت قدماي تحت وقع الصدمة.

أبي.. پاپا سولت.... توفّي؟! ودفعتني تلك الفكرة السخيفة إلى إطلاق ضحكة غاضبة. كان رجلًا جبّارًا، لا يُقهر، ممتلئ حيوية...

«أرجوك لا!». وبدأت فجأة أرتعش وشعرت بوخز في يديّ ورجليّ وكأنني في جبال الألب المغطاة بالثلج، وليس على متن قارب في بحر إيجة.

أعلن ثيو حين عاد:

- حسنًا، لن تتمكّني من اللحاق برحلة الساعة الثالثة إلا ثلث من ناكسوس إلى أثينا، لهذا علينا أن نذهب إلى أثينا بالقارب. تستطيعين أن تستقلّي الرحلة المتوجّهة من أثينا إلى جنيف صباح الغد. حجزت لك تذكرة لأنه لم يتبقَّ سوى بضعة مقاعد شاغرة.

- أهذا يعني أنّني لن أتمكّن من العودة اليوم إلى دياري؟

- إنها الواحدة والنصف يا آلي، والطريق إلى أثينا بالقارب طويلة، ناهيك بالسفر بالطائرة إلى جنيف. فإذا استخدمنا السرعة القصوى في معظم الطريق، إلى جانب التوقّف في ناكسوس للتزوّد بالوقود، يمكن لنا الوصول إلى الميناء مساء اليوم عند غروب الشمس. ولا أتخيّل أنّنا قد نتمكّن من دخول مرفأ بيرايوس المزدحم في الظلام.

أجبته بضجر: «بالتأكيد». وأنا أتساءل في سرّي كيف سأتمكّن من تحمّل تلك الساعات الطويلة التي ستستغرقها رحلة العودة إلى المنزل.

قال لي ثيو:

- لا بأس، سأذهب لأشعل المحرك. أتريدين مرافقتي والبقاء معي؟

- سألحق بك بعد قليل.

لم تكد تمرّ خمس دقائق حتى بدأت أسمع القعقعة الهيدروليكية الإيقاعية للمرساة بينما كان يجري رفعها والدندنة الخافتة للمحركات التي بدأت الحياة تدبّ فيها. نهضت من مكاني وسرت نحو مؤخّرة المركب حيث اتّكأت على الدرابزين. كنت أراقب القارب وهو يبحر بعيدًا من الجزيرة التي اعتبرتها مساء البارحة أشبه بالفردوس، ولكنها تحوّلت الآن إلى المكان الذي علمت فيه بوفاة أبي. وإذ أخذت سرعة القارب تزداد شيئًا فشيئًا، شعرت بالغثيان تحت وقع الصدمة والإحساس بالذنب. فقد كنت أنانية بحقٍّ في الأيام القليلة الماضية. إذ لم أكن أفكّر إلا بنفسي، وبالسعادة التي أشعر بها لعثوري على ثيو.

بينما كنت أمارس الحب معه وذراعاه تحيطان بي، كان أبي طريح الفراش في مكان ما يُحتضر. كيف يمكن أن أسامح نفسي يومًا على ذلك؟



أنجز ثيو ما وعد، ووصلنا إلى مرفأ بيرايوس في أثينا عند المغيب. بقيتُ خلال تلك الرحلة المؤلمة، بقربه وقد وضعت رأسي في حضنه. كان ثيو يداعب خُصَل

شعري برفق بيد، ويقود القارب بحذر عبر البحر المتلاطم الأمواج باليد الأخرى. وما إن بلغنا الميناء ورسونا حتى نزل ثيو إلى مطبخ القارب وأعدّ طبقًا من الباستا، وأطعمني إياه بنفسه كما لو كنت طفلة صغيرة.

سألني، وقد بدا عليه الإرهاق من شدّة التركيز خلال الساعات القليلة الماضية:

- ما رأيك لو ننزل وننام قليلًا؟ علينا أن نستيقظ في الغد عند الساعة الرابعة لتتمكّني من اللحاق برحلتك.

وافقت على اقتراحه على مضضٍ لأنني كنت واثقة من أنه سيصرّ على البقاء مستيقظًا معي في حال رفضت الذهاب إلى الفراش. فتهيّأت لليلة أرقٍ طويلة، تاركة ثيو يقودني إلى أسفل، حيث ساعدني على الصعود إلى الفراش، وأحاطني بذراعيه وضمّني بقوّة إليه.

- لست أدري إنْ كان في ما سأقوله أي عزاء يا آلي، ولكنّني أحبّك. ولست أعتقد ذلك، بل أنا واثق منه.

حدّقت إليه في الظلمة، وقد تبلّلت فجأة عيناي بالدموع، في حين أنني لم أذرف دمعة واحدة منذ سماعي الخبر. وتابع قائلًا:

- أقسم بأنني لا أقول ذلك لأجعلك تشعرين بالتحسّن. كنت أنوي الإفصاح عن مشاعري هذا المساء في مطلق الأحوال.

فهمست قائلة:

- وأنا أحبّك أيضًا.

- حقًّا؟

- أجل.

- حسنًا، إذا كنت تعنين ذلك، فاعلمي أن ما قلتِه أفرحني أكثر من الفوز في سباق فاستنت لهذه السنة. حاولي الآن أن تنامي.

فجأة، بعد اعتراف ثيو بحبّه، استغرقت في النوم.



في صباح اليوم التالي، وبينما كانت سيارة الأجرة تشقّ طريقها عبر شوارع أثينا التي تشهد ازدحامًا شديدًا عند الفجر، رأيت ثيو يتحقّق من ساعته خلسة. تعوّدت الإمساك بزمام كل الأمور المماثلة، والتحقّق من الوقت من أجل الآخرين، لكنّني كنت ممتنّة في تلك المرحلة، لاهتمامه بكل التفاصيل.

تمكّنت من إنجاز معاملات الدخول في الدقائق الأربعين الأخيرة التي سبقت إقلاع الطائرة، قبل لحظات قليلة من إقفال المكتب.

سألني ثيو عابسًا:

- هل أنت واثقة يا حبيبتي من أنك ستكونين بخير؟ هل أنت متأكّدة من أنك لا ترغبين في أن أرافقك إلى جنيڤ؟

أجبته أثناء توجّهي إلى بوابة المغادرة:

- سأكون بخير، أقسم لك.

- اسمعي، في حال احتجت إلى أي شيء، فلا تتردّدي في إعلامي.

وصلنا إلى نهاية الطابور الملتفّ كما الثعبان بين الحواجز، منتظرين عبور نقطة التفتيش الأمنية. فالتفتُّ نحو ثيو قائلة:

- أشكرك على كلّ شيء. لقد كنت مذهلًا.

فأجابني قائلًا وهو يضمّني إليه بقوة:

- لم أفعل شيئًا يا آلي. لا تنسي أنّني أحبّك.

فأجبته هامسة : «لن أنسى»، وارتسمت على ثغري ابتسامة واهية.

- وفي كل مرّة تشعرين فيها بأن شجاعتك تخونك، اتصلي بي أو أرسلي لي رسالة نصيّة.

- أعدك بذلك.

واستطرد قائلًا بينما كان يحرّرني من قبضة ذراعيه:

- بالمناسبة، سأتفهّم الأمر تمامًا في حال لم تتمكّني من المشاركة في السباق في ظلّ الظروف الطارئة.

- سأبلغك بقراري في أقرب فرصة ممكنة.

وتجهّم وجهه فجأة وهو يقول:

- أنا واثق من أننا سنخسر من دونك. فأنت أفضل معاون حصلت عليه. الوداع يا حبيبتي.

- الوداع.

انضممت إلى الطابور وتهت بين الأشخاص الذين كانوا يسيرون بتثاقل. وبينما كنت أضع حقيبة ظهري في صندوق لتمريرها تحت الأشعّة السينية، التفتُّ إلى الوراء، فوجدته ما يزال منتظرًا.

غمغم ثيو قائلًا: «أحبك»، وغادر المكان بعد أن أرسل لي قبلة ولوّح بيده مودّعًا.

أثناء وجودي في قاعة الانتظار، شعرت فجأة بفقاعة الحب السوريالية التي غلّفتني في الأيام القليلة الماضية تنفجر، فأصابني نوع من الارتباك في المعدة لمجرد التفكير في ما عليّ مواجهته. أخرجت هاتفي المحمول واتصلت بكريستيان، الربّان الشاب المسؤول عن قيادة الزورق السريع الذي سيقلّني من جنيف عبر البحيرة وصولًا إلى المنزل الذي أمضيت فيه طفولتي. تركت له رسالة طلبت فيها منه أن يقلّني من العوّامة عند الساعة العاشرة. كما أوصيته بألّا يخبر ماما أو شقيقاتي بمجيئي، مدّعية بأنّني سأتّصل بهم بنفسي.

وعلى الرغم من أنني عزمت الاتصال بهنّ حين أصعد إلى الطائرة، لكنّني لم أتمكّن من ذلك، بحيث منعني خوفي من الساعات القليلة التالية التي سأمضيها بمفردي، بعد أن أكّد لي أحد أفراد عائلتي صحّة الخبر الذي سمعته. بدأت الطائرة تتحرك على طول المدرج، وما إن تركت الأرض وحلّقت في سماء أثينا التي كانت تشهد في تلك الساعة شروق الشمس، حتى أسندت خدّي المتوهجّ إلى النافذة الباردة، وقد استولى عليّ إحساس بالذعر.

حاولت أن ألهي نفسي، فألقيت نظرة لامبالية على الصفحة الأولى لجريدة إنترناشونال هيرالد تريبيون التي أعطتني إياها مضيفة الرحلة. وعندما قرّرت أن أضعها جانبًا، لفت انتباهي عنوان رئيسيّ.

«العثور على جثة الثري المليونير على الجزيرة اليونانية».

ورأيت صورة وجه مألوف بشكل غامض، مع تعليق مدوّن تحتها.

«العثور على غريغ إيسزو جثة هامدة على شاطئ بحر إيجة».

حدّقت إلى العنوان الرئيسيّ مصعوقة. كان ثيو قد أخبرني بأن مركبه، أوليمبس، كان يرسو على مسافة قريبة من مركب پاپا سولت قبالة خليج ديلوس..

وقعت الصحيفة من يدي على الأرض، بينما كنت أنظر عبر النافذة بحزن. لست أفهم. لم أعدْ أفهم شيئًا..

بعد مرور ثلاث ساعات، وبينما كانت الطائرة تحطّ في مطار جنيڤ، بدأ قلبي يخفق بشدّة إلى حدّ أنني لم أعدْ قادرة على التقاط أنفاسي. كنت عائدة إلى المنزل، الذي كانت العودة إليه في الأيام العادية تترافق مع إحساس لا يوصف بالسعادة والإثارة، لأن الرجل الذي أحبّه أكثر من أي شيء في العالم سيكون في انتظاري ليرحّب بي في عالمنا السحريّ وهو فاتح ذراعيه. ولكنه لن يكون هذه المرّة موجودًا للترحيب بي. ولن أجده في المنزل أبدًا بعد اليوم.

4

أشار كريستيان إلى مقعدي أمام دفّة القيادة حيث تعوّدت أن أجلس وأقود المركب بسرعة عبر مياه بحيرة جنيف الهادئة والساكنة. سألني:

- هل ترغبين في القيادة يا آنسة آلي؟

- ليس اليوم يا كريستيان.

أومأ برأسه بتجهّم وكآبة بينما أكّدت تعابير وجهه أنّ كل ما عرفته صحيح. أدار المحرك فارتميت على أحد المقاعد في الخلف، بعد أن أحنيت رأسي بحزن، وقد عجزت عن النظر إلى أيّ اتجاه سوى اليابسة وأنا أتذكّر كيف أجلسني پاپا سولت على ركبتيه حين كنت طفلة صغيرة وتركني أدير الدفّة للمرة الأولى. الآن، وعلى بُعد دقائق قليلة من مواجهة الواقع ومن وجوب الاعتراف بأنّي تخاذلت ولم أردّ على رسائل أسرتي أو ألبّي نداءها، تساءلت: «كيف يمكن لأيّ إله أن ينقلني من قمة السعادة والفرح إلى جحيم اليأس الذي شعرت به مع الاقتراب من أتلانتيس».

من البحيرة، بدا كل شيء على حاله كما كان دائمًا خلف السياج الذي شكّلته الأشجار، حاجبةً المنزل عن الأنظار. رحت أصلّي عندما خفّف كريستيان السرعة ليتوجّه نحو المرسى، وقفزت على الفور من المركب الذي ربطه بشكل آمن إلى مربط الحبال؛ ثمة خطأ ما بالتأكيد؟ يُفترض بپاپا أن يصل في أيّ لحظة لكي يرحب بي... يجب أن يكون هنا...

وما هي إلا ثوانٍ قليلة حتى رأيت سيسي وستار تسيران على المرجة الخضراء وتقتربان مني. بعدئذ، ظهرت تيغي عند مدخل المنزل الأمامي المفتوح وهي تصرخ وتسرع للحاق بشقيقتها الأكبر منها سنًّا. بدأت أركض على العشب للقائهنّ إلا أنّ ركبتيّ ضعفتا من الرهبة فتوقّفت بعد أن قرأت التعابير المشتركة التي ارتسمت على وجوههنّ.

ناشدت نفسي قائلة: «آلي، أنت القائد هنا وعليك أن تتمالكي نفسك...».

كانت تيغي أول الواصلات إليّ. وقفت جامدة على العشب، محاولة التظاهر بالهدوء، وقالت:

- آلي! آه آلي، كم نحن مسرورات بقدومك!

ورمت بذراعيها حولي وضمّتني بقوة وهي تردف:

- انتظرنا وصولك لأيام!

كانت سيسي التالية وتبعها ظلّها أي ستار التي بقيت صامتة لكنها انضمّت إلى تيغي في عناقنا المشترك.

في النهاية ابتعدت وقد لاحظت الدموع في أعين شقيقاتي، ثم توجّهنا معًا بصمت إلى أتلانتيس.

عند رؤية المنزل، عاد ألم الخسارة ليعتصر قلبي. أطلق بابا سولت على هذا المكان اسم مملكتنا الخاصة. يعود المنزل إلى القرن الثامن عشر وهو يبدو كالقصور التي يُحكى عنها في القصص الخياليّة بأبراجه الأربعة وجُدُره الخارجية المطليّة باللون الزهريّ. لطالما شعرت بالأمان هنا في هذا المنزل المبني على شبه جزيرة خاصة، والمحاط بحدائق رائعة، إلا أنه بدا فارغًا وخاليًا من دون بابا سولت.

عندما وصلنا إلى الشرفة الأماميّة الكبيرة، خرجت مايا، شقيقتي الكبرى، من الجناح القائم إلى جانب المنزل الرئيسي. استطعت ان أرى الألم مرتسمًا على ملامحها الجميلة التي بدا عليها الارتياح ما إن رأتني.

أخذت نفسًا عميقًا وهي تسرع لاستقبالي: «آلي!»

قلت وهي تضمني بين ذراعيها:

- مايا، أليس هذا مريعًا؟

- نعم، هذا مريع. لكن كيف عرفت؟ نحن نحاول الاتصال بك منذ يومين.

قلت لشقيقاتي المجتمعات من حولي:

- هلّا دخلنا؟ سأشرح لكنّ.

تخلّفت مايا عن الركب بينما تجمّعت شقيقاتي الباقيات من حولي ونحن ندخل إلى المنزل. فعلى الرغم من أنها الأكبر سنًّا والشخص الذي يلجأن إليه إن كان لديهنّ أيّ مشكلة عاطفيّة، إلا أنّني لطالما تولّيت القيادة ضمن المجموعة. وأدركت أنها تركتني أفعل ذلك الآن.

كانت ماما في انتظارنا في بهو الاستقبال فضمّتني إلى صدرها في عناق دافئ وصامت. تركت نفسي أغوص بين ذراعيها المريحتين وشددتها بقوة إليّ. شعرت بالارتياح عندما اقترحت أن نتوجّه جميعًا إلى المطبخ، فقد كانت رحلتي طويلة وكنت أتوق لأن أشرب قهوة.

بينما راحت كلوديا، مدبّرة منزلنا، تُعدّ إبريقًا كبيرًا من القهوة، انسلّت إلكترا إلى الغرفة، وقد بدت ساقاها وذراعاها الطويلة والداكنة اللون أنيقة بشكل طبيعي ومن دون أيّ جهد، في البنطال القصير والقميص ذي الكمين القصيرين اللذين ارتدتهما.

رحّبت بهدوء قائلة: «آلي».

عندما اقتربت مني، استطعت أن أرى كم تبدو متعبة وكئيبة وكأن أحدهم استنفد طاقتها وامتص النيران التي كانت تشتعل في عينيها العنبريتين المذهلتين. عانقتني عناقًا سريعًا وشدّت بيدها على كتفي.

تأمّلت كل واحدة من شقيقاتي، وخطر لي كم أصبح نادرًا في هذه الأيام أن نجتمع كلنا معًا. وانقبض قلبي عندما خطر لي سبب اجتماعنا. كان عليّ أن أسمع منهنّ في نهاية المطاف ما حدث لبابا، لكنّني أدركت أنه يجب عليّ أولًا أن أخبرهن أين كنت وما عشته هناك ولمَ احتجت وقتًا طويلًا لأعود إلى المنزل.

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن استهلّ الكلام:

- حسنًا. سأخبركنّ بما حدث لأنني - والحق يُقال - ما زلت مشوّشة بشأنه.

جلسنا حول الطاولة، ولاحظت أنّ ماما كانت تقف جانبًا فأشرت إلى الكرسي ودعوتها للجلوس قبل أن أضيف:

- ماما، يجب أن تسمعي هذا أنت أيضًا. لعلك تستطيعين المساعدة في تفسير ما حصل.

بعد أن جلست ماما، حاولت أن استجمع أفكاري لأشرح لهنّ كيف ظهر اليخت تيتان في مرمى منظاري.

- كنت هناك في بحر ايجه، أتدرّب لخوض سباق سيكلاديس الذي سيُقام الأسبوع التالي، عندما سألني بحّار زميل لي إن كنت أرغب في الانضمام إليه على متن يخته لقضاء عطلة نهاية أسبوع طويلة. كان الطقس رائعًا وسرّني جدًا أن أسترخي في البحر على سبيل التغيير.

سألت إلكترا كما توقّعت:

- مركب من هذا؟

أجبت في محاولة مني للمراوغة:

- قلت لكنّ إنه مجرد صديق.

وبقدر ما أردت أن أخبر شقيقاتي عن ثيو وأن أشاركهن التفاصيل عنه، لكنّ الوقت لم يكن مناسبًا فتابعت كلامي:

- في أيّ حال، كنّا هناك منذ بضعة أيام، عندما أخبرني صديقي في عصر ذاك اليوم أنّ زميلًا آخر من البحّارة اتصل به عبر جهاز اللاسلكيّ ليُعلمه أنه رأى اليخت تيتان..

عدت بالذاكرة إلى تلك اللحظة، ورشفت رشفة من فنجان القهوة، ومن ثمّ بذلت قصارى جهدي لأصف لهنّ كيف لم يُجب أحد على نداءاتنا ورسائلنا عبر اللاسلكيّ، وكيف شعرت بالتشوّش والإرباك وأنا أرى مركب بابا سولت يتحرّك مبتعدًا عنّا. استمع الجميع إلى حكايتي بانتباه كبير ولاحظت نظرة الحزن التي تبادلتها ماما ومايا. بعدئذ، أخذت نفسًا عميقًا وأخبرتهن أنّ سوء عمل الهاتف في تلك المنطقة كان السبب في عدم تلقيّ أيّ رسالة من رسائلهن حتى يوم أمس. كرهت نفسي لأنني اضطررت للكذب لكني لم أستطع أن أتحمّل فكرة إخبارهنّ بأنّني أطفأت هاتفي. ولم أذكر أوليمبس، اليخت الآخر الذي رأيته أنا وثيو في الخليج.

أخيرًا، توسّلت إليهنّ قائلة:

- أرجوكنّ، هلّا أخبرتني إحداكن ما الذي يجري؟ ولمَ كان مركب بابا سولت في اليونان علمًا أنه كان قد تُوفّي؟

التفتنا كلّنا إلى مايا التي كانت تزن كلماتها قبل أن تنطق بها:

- آلي، تعرّض پاپا سولت لنوبة قلبيّة قبل ثلاثة أيام. لم يكن بمقدور أحدٍ أن يفعل أيّ شيء.

سماع الطريقة التي مات فيها من فم شقيقتي الكبرى جعل الخبر مؤكّدًا ونهائيًا. وتابعت تقول بينما كنت أحاول أن أكبح انهمار دموعي:

- نُقل جثمانه بالطائرة إلى تيتان الذي انطلق به إلى عرض البحر. أراد أن يرقد في المحيط ولم يشأ أن نتضايق وأن نحزن.

حدّقت إليها وقد صعقتني الحقيقة المروّعة وهمست:

- يا إلهي. إذًا، هناك احتمال أن أكون قد صادفت مراسم دفنه الخاصة. لا عجب في أنّ المركب زاد من سرعته ليبتعد عني قدر المستطاع. أنا..

لم أعدْ قادرة على التظاهر بأني قويّة أو هادئة، فوضعت رأسي بين يديّ وأخذت أنفاسًا عميقة لأسيطر على الذعر الذي تملّكني، فيما التفّت شقيقاتي من حولي في محاولة منهنّ لتهدئتي ومواساتي. لم أتعوّد إظهار أيّ انفعال أمامهن، وسمعت نفسي أعتذر وأنا أحاول أن أتمالك نفسي مجدّدًا.

قالت تيغي بلطف:

- لا شكّ في أنّها كانت صدمة فظيعة لك حين أدركت ما يحصل. نحن كلنا آسفات من أجلك يا آلي.

أجبتها باقتضاب: «شكرًا».

همست ببعض التفاهات بأنّ بابا أخبرني ذات يوم أنه يريد أن يُدفن في البحر. إنها لمصادفة سخيفة أن أصادف تيتان في رحلة پاپا سولت الأخيرة؛ هذه الفكرة جعلت رأسي يدور، وشعرت بحاجة ماسّة لتنشّق بعض الهواء، فقلت بقدر ما استطعت من الثبات:

- اسمعنَ، هل تمانعنَ لو بقيت وحدي لبعض الوقت؟

وافقن جميعهنّ على منحي خصوصية لبعض الوقت، فتركت المطبخ وكلمات الدعم الدافئة واللطيفة تلاحقني.

وقفت في المدخل أتلفّت من حولي بيأس. حاولت أن أبحث في جسدي الراحة التي كنت أتوق إليها، وأدركت في الوقت عينه أنه رحل، وأنّي لن أجده، أيًا يكن الطريق الذي أختار.

خرجت متعثّرة من الباب الأمامي المصنوع من خشب السنديان الثقيل، وكلّ ما أصبو إليه هو أن أصل إلى الخارج لأتمكّن من إطلاق هذا الشعور بالذعر الذي يضغط على صدري. فقادني جسدي تلقائيًا إلى المرسى وشعرت بالارتياح حين رأيت المركب لايزر راسيًا هناك. صعدت إلى متنه ورفعت الشراع ومن ثمّ فككت الحبال.

عندما وجّهت الدفّة بعيدًا من الشاطئ، شعرت بأنّ الرياح مواتية، واندفعت أشقّ مياه البحيرة بقدر ما استطعت من السرعة. وفي النهاية، وبعد أن أنهكت نفسي، ألقيت المرساة في خليج تحميه شبه جزيرة صخريّة.

انتظرت حتى تتدفّق أفكاري، لعلّها تضفي معنى على ما علمته للتو. لكنّ أفكاري كانت مضطربة ومشوّشة إلى حدّ كبير. بقيت أحدّق إلى المياه كالبلهاء من دون أن تخطر لي أيّ فكرة. تمنيّت لو أستطيع أن أتلقّف شيئًا يتيح لي أن أفهم، لكن الخيوط المتداخلة والمتشابكة لإدراكي رفضت أن تطلعني على الوقائع والحقائق الكارثيّة لما حصل؛ أن أحضر ما كان بالتأكيد جنازة پاپا سولت... لمَ كنت أنا هناك لأراها؟ هل من سبب لذلك؟ أم أنها مجرد مصادفة؟

بعد أن هدأت دقات قلبي تدريجًا وعاد عقلي إلى العمل من جديد، طالعتني الحقيقة الكاملة، رحل پاپا سولت، ولا منطق أو مبرر لرحيله على الأرجح. وإن أردت أنا، المتفائلة على الدوام، أن أتجاوز هذه المحنة، فعليّ أن أتقبّل الأمور كما هي وبكل بساطة. لكن الركائز الواقعيّة التي تعوّدت أن أستند إليها عند حصول أمر رهيب بدت الآن باطلة ولاغية، مجرد تفاهات فارغة من المضمون، جرفها مدّ حزني وألمي، وحاجتي لإنكار ما حدث. وأدركت أنّ سبل الراحة اختفت كيفما يقذني عقلي، ولا شيء سيجعلني يومًا أتقبّل حقيقة أنّ والدي تركني من دون كلمة وداع.

جلست هناك في مؤخّرة المركب لوقت طويل، وأدركت أنّ يومًا آخر مرّ على كوكب الأرض من دون أن يكون هو جزءًا منه، وأنّ عليّ بطريقة ما أن أتعايش مع الشعور بالذنب المدمّر الذي أحسست به، لأنّني قدّمت سعادتي على ما عداها، في حين أنّ شقيقاتي وبابا كانوا بحاجة ماسّة إليّ. لقد خذلتهم جميعًا في أهم لحظة من حياتهم. رفعت نظري إلى السماء والدموع تسيل على خديّ وطلبت من بابا سولت أن يصفح عني.

شربت جرعة من الماء ثم استلقيت في مؤخّرة المركب وتركت النسيم الدافئ يتراقص على جسدي. جعلني تمايل المركب الناعم أهدأ، ولطالما فعل، حتى أني غفوت قليلًا.

«اللحظة هي كل ما نملك يا آلي. أرجو ألّا تنسي هذا أبدًا».

خطر لي أنّ هذه المقولة هي إحدى المقولات المفضّلة لدى بابا. وعلى الرغم من أنني بقيت أحمرّ خجلًا مما كنت أفعله مع ثيو حين لفظ بابا أنفاسه الأخيرة- التصادم الصارخ لبدء الحياة وانتهائها- قلت لنفسي إنّ الحال ما كان ليتغيّر بالنسبة إليه أو إلى الكون، لو كنت أحتسي كوبًا من الشاي أو لو كنت نائمة. وأدركت، أكثر من أيّ شخص آخر، أنّ أبي كان ليسعد جدًّا لأني وجدت شخصًا مثل ثيو.

عندما أبحرت عائدة إلى أتلانتيس، شعرت بأنني أكثر هدوءًا. وبقيت معلومة واحدة لم أذكرها في الوصف الذي قدّمته لشقيقاتي عن الطريقة التي التقيت بها مركب بابا. شعرت بأنّني أحتاج لأن أشارك إحداهنّ هذه المعلومة في محاولة مني لفهم ما جرى.

وكما هو الحال في العائلات الكبيرة التي تضم إخوة وأخوات، كان هناك مجموعات صغرى ضمن المجموعة الكبرى. ولأنّني، أنا ومايا، الأكبر سنًّا، فقد قررت أنّ أُسرّ لها بما رأيت.

ناورت بلايزر لأصل إلى المرسى حيث ربطته، وشققت طريقي نحو المنزل، بعد أن أضحى العبء الذي أثقل صدري أخفّ مما كان عليه حين غادرت. لاقتني مارينا لاهثةً في الحديقة فاستقبلتها بابتسامة حزينة.

- آلي، هل خرجت على متن لايزر؟
- نعم. احتجت بعض الوقت لكي أجمع أفكاري.
- حسنًا خرجن جميعًا إلى البحيرة.
- الجميع؟
- باستثناء مايا. حبست نفسها في الجناح الجانبي لتنهي بعض الأعمال.
وتبادلنا النظرات.

على الرغم من أني استطعت أن أرى الأثر الذي تركه موت بابا على ماما، لكنّني كنت أحبّها لأنها لطالما أعطت مشكلاتنا ومشاعرنا ومخاوفنا الأولويّة. بدا جليًّا أنّها قلقة على مايا التي شعرت دائمًا بأنّها المفضّلة لديها.

قلت:
- كنت في طريقي للتحدّث إليها لعلّنا نشعر بالأنس معًا.
- في هذه الحالة، هلّا قلت لها إنّ غيورغ هوفمان، محامي والدك، سيصل بعد قليل. لكنه يريد التحدّث إليّ أولًا لسبب أجهله. لذا، عليها أن تحضر إلى المنزل بعد ساعة. وأنت أيضًا بالطبع.

أجبتها: «سنفعل».

شدّت أمي على يدي بمحبة، وانطلقت عائدة إلى المبنى الرئيس للمنزل.

عندما وصلت إلى الجناح الجانبي، طرقت الباب بخفّة لكني لم أسمع أيّ جواب. كنت أعلم أنّ مايا لا تقفل الباب، ففتحته ودخلت وأنا أناديها باسمها. تقدّمت نحو غرفة الجلوس، فوجدت شقيقتي متقوقعة على الأريكة وقد غطّت في النوم، فبدت ملامحها المثاليّة مسترخية وشعرها الأسود اللامع مرتّبًا كما لو أنها تستعد ليُلتقط لها بعض الصور. استقامت وقد بدت محرجة وأنا أقترب منها.

- أنا آسفة يا مايا. كنت نائمة، أليس كذلك؟
ردّت وقد احمرّت وجنتاها:
- أعتقد أني كنت كذلك.
- قالت ماما إنّ الفتيات خرجنَ، فخطر لي أن آتي وأتحدّث إليك. فهل لديك مانع؟

- لا، أبدًا.

بدا جليًّا أنها كانت مستغرقة في النوم، فعرضت أن أعدّ الشاي حتى أمنحها بعض الوقت لتستجمع أفكارها. جلسنا لاحتساء الشاي الذي كان البخار يتصاعد منه، وشعرت بأنّ يديّ ترتجفان وأنّني أحتاج إلى شراب أقوى من الشاي لأخبرها قصّتي.

- هناك قليل من النبيذ الأبيض في الثلّاجة.

قالت مايا بابتسامة متفهّمة قبل أن تنهض لتحضر لي كأسًا من المطبخ.

بعد أن ارتشفت قليلًا منه، استجمعت قواي وأخبرتها بأنّني رأيت مركب غريغ إيسزو قرب مركب أبي قبل يومين، وتفاجأت عندما رأيت وجهها يشحب. فعلى الرغم من أنّ رؤية أوليمبس قريبًا إلى هذا الحدّ هزّتني وصدمتني، لاسيما بعد أن عرفت ما كان يجري على متن تيتان، لكنّ مايا بدت مصدومة أكثر ممّا توقّعت. راقبتها وهي تحاول أن تسيطر على نفسها، ومن ثمّ وهي تحاول أن تستخف بالأمر، وأن تقدّم لي بعض العزاء والمواساة ونحن نتحدّث.

- آلي، أرجوكِ، انسي أمر وجود المركب الآخر هناك، فلا صلة له بالأمر. لكن وجودك هناك، لتري المكان الذي اختار بابا أن يُدفن فيه، أمر يبعث الراحة في نفوسنا. ربما نستطيع وكما اقترحت تيغي أن نبحر في وقت لاحق من الصيف، ونضع إكليلًا من الورود على المياه هناك.

قلت على الفور، إذ لم أعد أتحمّل السكوت أكثر:

- لعلّ أسوأ ما في الأمر أنّني أشعر بالذنب.

- لماذا؟

- لأن تلك الأيام القليلة على متن المركب كانت جميلة للغاية! وكنت سعيدة جدًّا، وأسعد من أيّ وقت مضى في حياتي. والحقيقة هي أنّني لم أشأ أن يتّصل بي أحد، فأطفأت هاتفي. وكان بابا يُحتضر بينما كان هاتفي خارج الخدمة! لم أكن حاضرة في اللحظة التي احتاج فيها إليّ!

- آلي، آلي...

انتقلت مايا لتجلس إلى جانبي وراحت تملّس على شعري وتبعده عن وجهي، بينما تهزّني بنعومة بين ذراعيها.

- لم يكن أيّ منّا هنا. وأعتقد صادقة أنّ بابا أراد أن تجري الأمور كما جرت. أرجوكِ، تذكّري أني أعيش هنا وكنتُ قد غادرت العشّ عندما حصل ذلك. ما كان بالإمكان أن نفعل شيئًا وفق ما قالته ماما. وعلينا أن نقتنع جميعًا بهذا.

- نعم، أعلم ذلك. لكنّني أشعر وكأنّ هناك أمورًا كثيرة أريد أن أسأله عنها، وأن أخبره بها، وها هو قد رحل.

- أعتقد أنّ هذا هو شعورنا كلنا. لكنّنا على الأقل موجودات لنساعد بعضنا بعضًا.

- نعم، هذا صحيح. شكرًا لك يا مايا. أليس مذهلًا كيف يمكن لحياتنا أن تنقلب رأسًا على عقب في غضون ساعات؟

ردّت بابتسامة:

- نعم، وأودّ في وقتٍ ما أن أعرف سبب سعادتك.

فكّرت في ثيو واستمتعت بالشعور بالراحة الذي تمنحني إياه ذكراه.

- سأخبرك في وقتٍ ما، أعدك بذلك. لكنّ ليس الآن.

وتابعت أسألها في محاولة مني لتغيير الموضوع:

- وكيف حالك أنت يا مايا؟

هزّت كتفيها وأجابت:



- أنا بخير. ما أزال مصدومة كحال الجميع.

- نعم، لا شكّ في أنك كذلك. كما أنَّ إطلاع أخواتنا على الخبر لم يكن بالأمر السهل بالتأكيد. أنا آسفة لأنّني لم أكن حاضرة لمساعدتك.

- حسنًا، لقد وصلت الآن على الأقل. وهذا يعني أننا نستطيع الاجتماع بغيورغ هوفمان لنتابع من بعدها حياتنا.

قلت وأنا أتفقّد ساعتي:

- آه، نعم. نسيت أنْ أخبرك أنّ ماما طلبت منا أن نتوجّه إلى المنزل بعد ساعة. سيصل في أيّ لحظة، لكنه، كما يبدو، يريد التحدّث إليها أولًا. لذا...

وتنهّدت قبل أن أتابع كلامي:

- هل أستطيع أنْ أحصل على كأس أخرى من النبيذ بينما نحن ننتظر؟

5

توجّهت برفقة مايا عند الساعة السابعة إلى المنزل للقاء غيورغ هوفمان. كانت شقيقاتي الأخريات ينتظرننا على الشّرفة، تحت أشعة شمس المساء الدافئة، وقد بلغ التوتّر منهنّ مبلغًا وفقدنَ صبرهنّ. كانت إلكترا، كالعادة، تحاول إخفاء قلقها بإطلاق التعليقات الساخرة عن نزعة بابا سولت إلى الدراما والغموض، عندما ظهرت أخيرًا مارينا برفقة غيورغ. رجل طويل القامة، أشيب الشعر، يرتدي بذلة رمادية داكنة على درجة عالية من الأناقة، بحيث يمكن وصفه بالمحامي السويسري النموذجيّ الناجح.

قال المحامي:

- آسف لأنّني جعلتكنّ تنتظرنَ طويلًا، ولكن كان عليّ أن أنهي ترتيب بعض الأمور. أتقدم أوّلًا بالتعازي من كلّ واحدة منكنّ.

وصافح كلّ واحدة بدورها وتابع يقول:

- هل أستطيع الجلوس؟

أشارت مايا إلى مقعد بقربها فتوجّه غيورغ نحوه وجلس عليه. شعرت بتوتّره بينما كان يثبت ساعته الباهظة الثمن الأنيقة حول معصمه. استأذنت مارينا منّا ودخلت المنزل رغبة منها في أن تتركنا بمفردنا معه.

بدأ غيورغ كلامه قائلًا:

- حسنًا يا فتيات، يؤسفني أن يكون أوّل لقاء شخصيّ بيننا في ظل هذه الظروف المأسوية. لكنّني أشعر وكأنني أعرف كلّ واحدة منكنّ تمام المعرفة من خلال حديث والدكنّ عنكنّ، وعليّ أن اعترف لكنّ في بداية الأمر بأنّه كان يحبكنّ كثيرًا.

لم يغب عني ذلك الانفعال الصادق الذي طغى على ملامحه لبضع ثوانٍ قبل أن يضيف:

- وأنا لا أتحدّث هنا عن الحب فحسب، بل أيضًا عن مدى اعتزازه بإنجازاتكنّ. تحدّثت إليه قبل فترة وجيزة من رحيله عنّا، وطلب منّي أن أنقل لكنّ جميعًا هذه الرسالة.

نظر إلى كلّ واحدة منا برفق قبل أن يحوّل نظره إلى الملف الموضوع أمامه قائلًا:

- سنطرح أوّلًا المسائل المالية جانبًا، ودعوني أطمئن كلّ واحدة منكنّ بأنها ستحظى بمخصّصات، على مستوى معيّن، لبقية حياتها. لكنّ والدكنّ كان مصمّمًا على أنه لا يجدر أن تكون حياتكنّ أشبه بحياة أميرات كسالى، لذا ستتلّقى كلّ منكنّ دخلًا يكفيها ليبعد عنها شبح العوز، ولكنه لا يكفيها لتعيش حياةً مترفة. أما بالنسبة إلى الترف فقد شدّد والدكنّ على أنه ينبغي السير على خطاه والعمل لجني الأموال التي من شأنها توفير ما تحتجنَ إليه. هذا، وستبقى أملاك والدكنّ مودعة على سبيل الأمانة لتتمكنّ لاحقًا من استعادتها، وإنه لشرف عظيم لي أن يمنحني حق إدارتها. كما منحني حرية القرار لجهة منح مساعدة مالية إضافية لمن تلجأ إليّ وهي تحمل اقتراحًا أو لديها مشكلة.

لم تتفوه أيّ منا بكلمة بينما كنّا نصغي إليه باهتمام شديد.

بعد قليل أضاف:

- يشكّل هذا المنزل جزءًا من الوديعة، وقد أعربت كلّ من كلوديا ومارينا عن استعدادهما للبقاء هنا والاهتمام بشؤون المنزل. وفي اليوم الذي تلقى فيه الشقيقة الأخيرة حتفها، سوف يتم تحرير الوديعة ويمكن بعدها بيع أتلانتيس وتوزيع ثمنه على أولادكنّ في حال رزقتنّ بأولاد. وإلّا تنتقل الأموال إلى جمعية خيرية من اختيار والدكنّ. من جهتي..

تخلّى غيورغ في نهاية المطاف عن التصرّفات المتكلّفة التي تفرضها عليه مهنته كمحام وتابع قائلًا:

- أظنّ أن ما فعله والدكنّ ينمّ عن فطنة وذكاء؛ أراد أن يبقى المنزل على حاله لبقية حياتكنّ، بحيث يكون لديكنّ مكان آمن لتعدنَ إليه. غير أن والدكنّ يتمنّى بصورة أساسية أن تحلّق كل واحدة منكنّ بعيدًا وترسم مصيرها بيدها.

تبادلت وشقيقاتي النظرات ونحن نتساءل عن التغيّرات التي يمكن أن تترتّب عن ذلك. من جهتي، لم أكن أتوقّع أن يترك ذلك أيّ تأثير على مستقبلي المالي، إذ لطالما كنت مستقلّة وأعمل بجدٍّ للحصول على ما أريده. أما بشأن مصيري فقد خطر على بالي ثيو والعلاقة التي نشأت بيننا ورغبتي في أن تستمر.

علا صوت غيورغ مستطردًا وكأنه أراد أن ينتشلني من الأفكار التي كانت تعصف في رأسي:

- والآن، سننتقل إلى الإرث الأخير الذي تركه والدكنّ، وسأطلب من الجميع مرافقتي. من هنا لو سمحتنّ.

لحقنا بغيورغ ونحن لا نعلم إلى أين سيصحبنا. فقادنا حول جانب المنزل وعبر مساحات الأراضي وصولًا إلى حديقة پاپا سولت السرية، القابعة خلف صفّ من أسيجة الطقسوس المشذّب بإتقان. استقبلتنا موجة عاتية من الألوان الساحرة؛ ألوان أزهار الخزامى، والكاشم الرومي والمخملية التي تستقطب الفراشات في فصل الصيف. كان مقعد بابا المفضّل مستقرًّا تحت مظلّة من الورود البيضاء التي كانت تتدلّى في تلك الأمسية بتكاسل فوق المكان الذي تعوّد أن يجلس فيه. ففي صغرنا، كان يجد متعة كبيرة في مشاهدتنا ونحن نلعب على شاطئ الحصى الصغير الممتد من الحديقة إلى البحيرة، بينما كنت أحاول، بشكل أخرق، دفع القارب الأخضر الصغير الذي اشتراه لي في عيد ميلادي السادس.

أيقظني صوت غيورغ من جديد من أحلام اليقظة، وهو يقول لنا مشيرًا بإصبعه إلى وسط المصطبة: «هذا ما أرغب في أن ترَيْنه». ارتفع في المكان نُصْب مذهل، يرتكز على قاعدة صخرية، ويصل من حيث الارتفاع إلى خصري تقريبًا، فتجمّعنا كلّنا حوله لرؤيته عن كثب. كان النصْب عبارة عن كرة ذهبية يخترقها سهم معدنيّ رقيق وسط مجموعة من الأطواق المعدنية الملتفّة حوله بشكل معقّد. وحين لاحظت أنّ أشكال القارات والمحيطات منقوشة بشكل دقيق على الكرة الذهبية، أدركت أنّها تمثّل الكرة الأرضية، بينما يشير رأس السهم إلى المكان الذي يجب أن يكون نجم الشمال فيه. ورأيت أيضًا طوقًا معدنيًّا أكبر يدور ضمن حلقة دائرية

حول خط الاستواء وقد حُفرت عليه دائرة البروج الاثني عشر. كان النصْب أشبه بإحدى الأدوات الملاحية القديمة، ولكن ما هي الرسالة التي أراد بابا أن يبلغنا إياها من خلاله؟

أعلن غيورغ ردًّا على تساؤلاتنا جميعًا: «إنه اسطرلاب كرويّ». وتابع كلامه عن الاسطرلاب الكرويّ الذي ظهر منذ آلاف السنين واستخدمه الإغريق في الأساس لتحديد مواقع النجوم، ولتحديد الوقت من النهار.

بعد أن فهمت ماهية استخدامه، أدركت سبب ذلك التألّق المطلق للتصميم القديم. وفي حين راح جميع الشقيقات يطلقن عبارات الإعجاب، سألته إلكترا بحدّة، وقد بدا واضحًا أن صبرها قد نفد:

- نعم، ولكن ما علاقته بنا؟

أجابها غيورغ معتذرًا:

- ليس من ضمن مسؤولياتي تقديم تفسير لذلك. مع أنه يمكن لكلّ واحدة منكنّ، في حال أمعنت النظر، رؤية اسمها محفورًا على الأطواق التي أشرت إليها منذ قليل.

كانت الأسماء محفورة فعلًا بشكل واضح وأنيق على المعدن. وأشرت بإصبعي إليها قائلة: «هذا اسمك يا مايا». وتابعت كلامي وقد التفتُّ لرؤية اسمي: «هناك أرقام تحت اسمي، وكأنها أشبه بمجموعة من الإحداثيات. أجل، أنا واثقة من ذلك».

كانت الإحداثيات تتضمن أيضًا بعض النقوش، لاحظت مايا بأنها مكتوبة باليونانية ووعدتنا بأن تترجمها لاحقًا.

- حسنًا، إنه نصْب جميل جدًّا ومنتصب في وسط المصطبة.

بدا جليًّا أن سيسي لم تعدْ تتحمّل ما يجري وهي تسأله قائلة:

- ولكن ما معنى هذا كله؟

- أكرّر ما قلته منذ قليل، ليس من ضمن صلاحياتي تقديم تفسير لما يجري. أظنّ أنّ مارينا تسكب لنا الشامبانيا على الشرفة الأساسية، تنفيذًا لتعليمات والدكنّ.

أراد أن نشرب جميعًا نخب وفاته، وسأعطي بعدها كلّ واحدة منكنّ مظروفًا آملًا أن يتضمّن شرحًا أكثر ممّا أستطيع أن أقدّمه.

عدت برفقة الجميع إلى الشرفة وأنا أفكّر في مواقع الإحداثيات المُحتمَلة. لزمنا جميعًا الصمت، ونحن نحاول إدراك كنه الإرث الذي تركه لنا والدنا. وبينما كانت ماما تسكب كأسًا من الشامبانيا لكلّ واحدة منّا، تساءلت في سرّي إن كانت على علم مسبق بالأحداث التي جرت هذا المساء، على الرغم من أن وجهها خلا من أي تعبير.

رفع غيورغ كأسه ليشرب نخبًا وقال:

- أرجو أن تشاركنَني الاحتفال بحياة والدكنّ التي كانت مميّزة فعلًا. جلّ ما بوسعي أن أقوله لكنّ هو أنه كان يرغب في أن تكون مراسم دفنه على هذا الشكل: بناته كلهنّ مجتمعات في أتلانتيس، المنزل الذي كُتب له شرف أن يعيش فيه معكنّ طوال السنوات الماضية.

صرخنا جميعًا ونحن نرفع كؤوسنا:

- نخب بابا سولت.

وبينما كنا نرتشف الشامبانيا بصمت، أخذت أفكّر مليًّا في ما رأيناه منذ قليل وفي داخلي رغبة شديدة في الحصول على بعض الأجوبة.

سألته قائلة:

- متى نستطيع الحصول على تلك الرسائل؟

- سأذهب لإحضارها.

ونهض غيورغ من مكانه وغادر المائدة.

قالت سيسي:

- إنه أغرب مأتم شاركت فيه.

سألتُ ماما: «هل أستطيع الحصول على مزيد من الشمبانيا؟» بينما كان وابل من الأسئلة يحوم حول المائدة والدموع تنهمر من عيني تيغي وهي تقول هامسة:

- ليته كان موجودًا بيننا ليشرح لنا بنفسه ما يجري.

أجبتها بنبرة مواسية، وقد شعرت بأن الأجواء بدأت تميل إلى الكآبة واليأس:

- ولكنّه لم يعد موجودًا بيننا يا عزيزتي. ويخيّل إليّ أنّ الترتيب الذي اتّخذه في محلّه. فقد حرص على تسهيل الأمور علينا قدر المستطاع. وعلينا الآن أن نستمدّ القوة بعضنا من بعض.

أومأت شقيقاتي برؤوسهنّ دليلًا على الموافقة، وعلامات الحزن بادية على وجوههنّ، وأمسكت بيد تيغي حين عاد غيورغ حاملًا معه ستة مظاريف ورقيّة وضعها على الطاولة. نظرت إليها بطرف عيني ولاحظت أن أسماءنا مكتوبة على الجهة الأمامية منها بخط بابا المميّز.

قال جورج:

- أودعت هذه الرسائل لديّ منذ حوالى ستة أسابيع. وطُلب مني تسليم واحدة لكلٍّ منكنّ في حال وفاة والدكنّ.

سألته:

- هل نستطيع فتح الرسائل الآن، أم في وقت لاحق؟

أجاب جورج:

- لم يضع والدك أيّ شرط في هذا الخصوص. جلّ ما قاله هو أنّ بإمكانكنّ فتح الرسائل حالما تصبح كل واحدة منكنّ مهيّأةً وقادرةً على القيام بذلك من دون أن يسبّب لها ذلك أيّ ضيق.

عندما نظرت إلى شقيقاتي، أدركت بأنّنا جميعًا نفضّل قراءة الرسائل على انفراد.

أعلن غيورغ مومئًا برأسه: «حسنًا، لقد انتهت مهمتي.

وأعطى كلّ واحدة منا بطاقتها الشخصيّة، مؤكّدًا لنا بـأنه سيبقى دائمًا بجانبنا، وأضاف:

- ولكنّني واثق، بحسب معرفتي بوالدكنّ، من أنه قد توقّع كلّ ما يمكن أن تحتجنَ إليه. أظنّ أنّه من الأفضل لي أن أنصرف. أتقدّم منكنّ من جديد بأصدق التعازي.

قدّرت حجم الصعوبة التي واجهها ليتمكّن من نقل إرث بابا الغامض إلينا، وسررت كثيرًا عندما شكرته مايا نيابة عنّا كلّنا.

- الوداع. تعلمنَ أين يمكنكنّ العثور عليّ في حال احتجتنّ إليّ. وغادر الشّرفة وعلى ثغره ابتسامة كئيبة، مؤكّدًا بأنه لا داعيَ لأن يرافقه أحد إلى الباب.

لم تخطر في ذهني فكرة تناول الطعام طوال النهار. كان اهتمامي كلّه منصبًّا على الرسائل والاسطرلاب الكرويّ.

- أتظنين يا مايا أنّ بإمكاننا العودة إلى مكان الاسطرلاب الكرويّ وترجمة الاقتباسات المحفورة عليه؟

أجابتني قائلة، بينما كانت مارينا وكلوديا تدخلان المكان حاملتين الأطباق ولوازم المائدة:

- بالتأكيد، ولكن بعد تناول العشاء.

حدّقت إلكترا إلى الأطباق ثم نهضت من مكانها وقالت:

- أرجو ألّا تمانعنَ، ولكنّني لا أشعر بالجوع.

ولدى مغادرة إلكترا المكان، التفتت سيسي نحو ستار وسألتها:

- هل تشعرين بالجوع؟

كانت ستار تمسك بمظروفها بإحكام، فتمتمت بهدوء:

- أظنّ أنّه يجب أن نأكل شيئًا.

كان كلامها منطقيًّا جدًّا، فبذلنا نحن الخمس، لدى جلوسنا إلى المائدة، ما بوسعنا لابتلاع شرائح البيتزا المعدّة منزليًّا وطبق السلطة. بدأت بعدها شقيقاتي بالانسحاب، واحدةً تلو أخرى، إلى أن بقينا، مايا وأنا، بمفردنا.

- هل يزعجك يا مايا أن أتركك وأخلد إلى الفراش؟ أشعر بإرهاقٍ شديد.

- طبعًا لا. فأنت الشخص الأخير الذي تلقّى الخبر، ولا بدّ من أنك ما تزالين تحت تأثير الصدمة.

- أجل، أظنّ ذلك.

ونهضت من مكاني وطبعت قبلة رقيقة على خدّها قائلة:

- تصبحين على خير يا عزيزتي مايا.

- تصبحين على خير.

شعرت بالذنب لأنني تركت مايا جالسة بمفردها على المائدة، لكنّني كنت بحاجة، شأني شأن شقيقاتي الأخريات، إلى صرف بعض الوقت بمفردي، لاسيما وأنّ الرسالة التي أحملها بيدي بدأت تحرق أناملي. وتساءلت في سرّي عن المكان الذي يمكن أن أستمتع فيه بالوحدة والسلام، وقرّرت في نهاية الأمر التوجّه إلى غرفة النوم التي أمضيت فيها طفولتي، والتي من شأنها أن توفّر لي، في الوقت الحالي، الراحة التي أحتاج إليها.

كانت غرف النوم كلّها في الطابق العلويّ من المنزل، وغالبًا ما كنّا، مايا وأنا، ندّعي في صغرنا بأنّنا أميرتان أسيرتان في برج. كانت غرفة نومي مشرقة ومزخرفة ببساطة، بحيطانها المغطاة باللونين البنفسجي الفاتح والأزرق، وستائرها المخرّمة بمربعات بيضاء. قالت لي تيغي مرّة إنها تبدو أشبه بمقصورة قارب قديمة الطراز، وإنّ المرآة المدوّرة المزوّدة بإطار يحاكي حبل النجاة، حيث طُبع اسمي «س.س. آلي»، والتي تلقّيتها كهدية في عيد الميلاد من سيسي وستار لسنوات خلت، عزّزت ذلك الانطباع.

جلست على السرير أتأمّل المظروف متسائلة إنْ كانت شقيقاتي قد فتحنَ مظاريفهن بلهفة، أم أنّ الخوف مما قد تحتويه منعهنّ من ذلك؟ عندما حملت مظروفي بين يدي، تبين لي وجود انتفاخ بسيط. لطالما كنت الأكثر لهفة بين شقيقاتي لفتح هدايا أعياد الميلاد، والحق يُقال إنني شعرت باللهفة نفسها وأنا أتأمّل المظروف. مزّقته وأخرجت منه ورقة سميكة، ومن ثمّ قفزت من مكاني مذعورةً عندما رأيت شيئًا صغيرًا صلبًا يتدحرج على اللحاف. وسرعان ما أدركت أنّه ضفدع صغير بُنيّ اللون.

أمعنت النظر إليه لبضع ثوانٍ وأدركت مدى سخافتي لاعتقادي بأنّه حيوان حيّ، فمددت يدي لألتقط ذلك النموذج المصغّر. كان ظهره مرقّطًا باللون الأصفر

وعيناه رقيقتين ومعبّرتين. لمسته بأناملي بينما كان يستريح في راحة يدي، وقد شعرت بالارتباك لما يمكن أن يكون پاپا سولت قد كتبه في الرسالة الموجّهة إليّ. لا أذكر بأن الضفادع كانت تتّسم بأيّ أهمية خاصة بالنسبة لأيٍّ منا. لعلّها إحدى دعابات پاپا سولت المعتادة ومن الممكن أن تتضمّن الرسالة تفسيرًا لها.

التقطت الرسالة وفتحت الورقة وبدأت بقراءتها.

أتلانتيس

بحيرة جنيڤ

سويسرا

عزيزتي آلي،

وأنا منكبٌ على كتابة هذه الرسالة، تراءت أمامي صورة ابنتي الثانية الفاتنة النابضة بالحياة، وهي تقرأ الكلمات على عجل بنفاد صبر للوصول إلى النهاية. ومن ثمّ تعود وتقرأها من جديد على مهل.

في أي حال، لقد عرفت الآن بأنني لم أعدْ موجودًا بينكنّ، وأنا واثق من أنّ وقع الصدمة كان قويًّا على كل واحدة منكنّ. كما أعلم أنك ستحزنين لفقداني، ولكن، وباعتبارك الأكثر تفاؤلًا بين شقيقاتك، والوحيدة التي أسهمت سماتها الإيجابية وحماستها للحياة في إضافة مزيد من الإشراق إلى حياتي، ستتمكّنين، كما كنت تفعلين دائمًا، من جمع شتات نفسك والمضي قدمًا. وهذا ما يجدر بك أن تفعليه.

ولعلّكِ الوحيدة بين بناتي كلّهنّ، التي تشبهني أكثر من سواها. ولا يسعني سوى أن أعرب لك عن مدى اعتزازي بك، آملًا وراجيًا اللّه أن تنسجي على المنوال نفسه الذي أعرفه، على الرغم من أنني لن أكون موجودًا بعد اليوم لأحرسك. إن الخوف هو أكبر عدوٍّ يمكن أن يواجه الإنسان، ولا ريب أن مشاعرك الخالية من الخوف هي أعظم نعمة أغدقها اللّه عليك. فلا تفرّطي بها، على الرغم من الحزن الذي تشعرين به حاليًا يا حبيبتي آلي، اتّفقنا؟

أكتب اليوم إليك، بصرف النظر عن رغبتي في وداعك بشكل رسميٍّ، لأنني

قرّرت منذ فترة وجيزة أنه يجدر بي أن أترك لكلّ واحدة منكنّ طرف خيط عن جذورها الأصلية. ولست أعني بذلك أنني أرغب في أن تتخلّي عن كلّ شيء على الفور، ولكن لا أحد منّا يعلم ما يمكن أن يخبئه المستقبل له، ومتى قد تشعرين بالحاجة أو بالرغبة لاكتشاف ما خفي عنك.

أظنّك رأيت الاسطرلاب الكرويّ والإحداثيات المحفورة عليه. إنها تشير إلى موقع سيساعدك حتمًا في البدء برحلتك. كما ستجدين على الرفّ في غرفة مكتبي كتابًا لرجل تُوفي منذ زمن طويل اسمه جانس هالفورسن. يتضمن الكتاب معلومات كثيرة، ويمكن أن يساعدك على اتخاذ القرار بشأن ما إذا كنت ترغبين في التحرّي عن جذورك بشكلٍ أوسع. وإنْ فعلتِ، فلا ريب عندي في أنّك واسعة الحيلة بما يكفي لتجدي سبيلًا لذلك.

ابنتي الحبيبة، أنعم الله عليك بالمواهب منذ ولادتك، وغالبًا ما كنت أفكّر بأنها كثيرة جدًّا. ومن يمتلك كثيرًا من كلّ شيء يواجه صعوبات تمامًا كمن يمتلك قليلًا. وأخشى أيضًا أن أكون قد أسهمت، من خلال فرحتي بمشاركتك لي شغفي بالبحر، في إبعادك عن المسار الصحيح في حين كانت تتوافر أمامك مسارات أخرى أكثر بساطة. كنت موسيقية موهوبة وكنت أعشق الاستماع لك وأنت تعزفين على الناي. سامحيني إنْ كنتُ قد أخطأت بحقّك، ولكن عليك أن تعلمي بأن تلك الأيام التي أمضيناها معًا في البحيرة هي من أسعد أيام حياتي. لهذا، أود أن أشكرك من صميم قلبي.

تجدين ربطًا بهذه الرسالة أحد الأشياء العزيزة على قلبي. عليك أن تعتزّي بها وتحافظي عليها، حتى لو قرّرت ألّا تتحرّي عن ماضيك، ولا تنسي أن تورّثيها لأولادك في المستقبل.

عزيزتي آلي، أنا واثق من أن صلابتك وسماتك الإيجابية ستساعدك في أن تكوني كما يحلو لك ومع من ترغبين، على الرغم من الضربة التي تلقيتها عند قراءتك هذه الرسالة. لا تضيّعي لحظة واحدة من حياتك، اتفقنا؟

سأحرسك من فوق

والدك المحب،

بابا سولت x

كان بابا على حقٍّ في تقديره، لأنني قرأت الرسالة مرتين، وقرأتها على عجل في المرّة الأوّلى. كما أدركت بأنني سأقرأها مئات المرات في الأيام والسنين المقبلة.

تمدّدت على السرير، وأمسكت الضفدع الصغير في يدي، أفكّر في ما جاء في رسالة بابا، من دون أن تكون لديّ أدنى فكرة عن صلة ذلك الضفدع بي. قرّرت في تلك اللحظة أن أتحدّث مع ثيو في هذا الشأن، لاعتقادي بأنّه قد يتمكّن من إيجاد تفسير منطقيٍّ لذلك. فسارعت، بشكل عفويّ، إلى الإمساك بحقيبتي بحثًا عن هاتفي للتأكد إن وصلتني منه أي رسالة، ولكنني تذكّرت بأنني تركته موصولًا بالشاحن في المطبخ لدى وصولي هذا الصباح إلى المنزل.

توجّهت إلى السلّم بهدوء حتى لا أزعج شقيقاتي. وإذا بباب غرفة إلكترا مفتوح جزئيًا، فاسترقت النظر من خلاله بحذر خشية أن تكون نائمة. كانت تجلس عند طرف السرير وقد أدارت ظهرها نحو الباب، حاملة في يدها زجاجة شراب. ظننت للوهلة الأولى أنها تحتسي ماءً، ولكن عندما تناولت جرعة ثانية أدركت بأنها تحتسي فودكا. وقفت أتأمّلها وهي تغلق الزجاجة بالسدّادة، ومن ثمّ تدفع الزجاجة تحت سريرها.

ابتعدت عن الباب حتى لا تراني، وهبطت السلّم على رؤوس أصابعي وصولًا إلى الطابق الأوّل، وقد أزعجني المشهد الذي رأيته. كانت إلكترا، أكثر من أي واحدة فينا، مهووسة جدًّا بصحّتها، ما جعلني أتساءل عن السبب الذي دفعها إلى احتساء الكحول في هذه الساعة من الليل. ولكن، لعلّ القواعد الروتينية غير قابلة للتطبيق في خلال هذه المحنة الصعبة والمحزنة التي نمرّ بها جميعًا.

توقفت غريزيًّا في منتصف السلّم وتوجّهت مباشرة نحو جناح الغرف الخاص ببابا في الطابق الأوّل، وقد شعرت فجأة بحاجة ملحّة للإحساس به قربي.

دفعت الباب بتردّد واغرورقت عيناي بالدموع حين رأيت السرير العالي الذي لفظ عليه أبي أنفاسه الأخيرة. كانت الغرفة مختلفة جدًّا عن باقي أجزاء المنزل، كانت غرفة عملٍ بامتياز وتفتقر إلى الزخرفة، باستثناء أرضيتها المصنوعة من الخشب المصقول والسرير المزوّد بإطار خشبي، وبجانبه منضدة من خشب

الماهوجني البالي، تعلوها الساعة المنبّهة الخاصة ببابا. أذكر أنّني دخلت المكان في صغري وفُتنت بها. فسمح لي بابا بالضغط على المفتاح نحو أسفل ونحو أعلى، وإشعال المنبّه وتوقيفه. وكنت أقهقه ضاحكة في كل مرّة يرّن فيها.

قال لي يومها: «يجب أن أديرها في كلّ يوم حتى لا تتوقّف عن التكتكة».

لم تكن الساعة تتكتك الآن.

دخلت الغرفة وجلست على السرير. كانت الملاءات مرتبة ونظيفة جدًّا، فلمست بأطراف أصابعي القطن الأبيض المنشّى للوسادة التي استراح رأسه عليها للمرّة الأخيرة.

تساءلت في سرّي عن مكان ساعته القديمة من نوع أوميغا سيماستر وما حلّ بما تعوّد متعهّدو دفن الموتى وصفه «بالأغراض الشخصية». وتراءت في ذهني صورة تلك الساعة التي كانت تزيّن معصمه؛ ساعة مزوّدة بقرص ذهبي أنيق قابل للدوران وسوار جلدي تعرّض لخدش ظاهر في الفتحة الرابعة. اشتريت له مرة سوارًا بديلًا بمناسبة عيد الميلاد ووعدني بأن يستخدمه عندما يتمزّق السوار القديم، ولكنه لم يفعل.

غالبًا ما كنّا نتساءل، شقيقاتي وأنا، عن سبب ارتداء بابا الملابس نفسها، أقلّه في الأوقات التي لا يمارس فيها الإبحار، على الرغم من أنه قادر على اختيار ملابس تحمل توقيع أشهر المصمّمين وانتقاء ساعات من ماركات عالمية. فسترته القديمة المصنوعة من قماش التويد جميلة مع قميص ناصع البياض مكويٍّ بدقّة، ومع أزرار أكمامٍ ذهبية بسيطة تحمل الأحرف الأولى لاسمه، وبنطال داكن بطيّات عسكرية الطابعِ عند الجهة الأمامية. أما قدماه، فلا أذكر أنني رأيتهما تنتعلان حذاءً سوى ذلك الحذاء الإيرلندي الغليظ، البنيّ اللون ذي الرأس اللامع. وبينما كنت أجول بنظري في الغرفة، وقعت عيناي على الخزانة الصغيرة المزوّدة بمجموعة من الأدراج والمصنوعة من خشب الماهوجني، بحيث لم تكن الغرفة تضمّ أي قطع أثاث سواها، فأدركت بأن بابا كان اقتصاديًّا جدًّا في حاجاته الشخصية.

نظرت إلى صورة أبي وبجانبه شقيقاتي وأنا على متن اليخت تيتان، والموضوعة

فوق خزانة الملابس المزوّدة بأدراج. على الرغم من أنه كان في السبعين من عمره عند التقاط هذه الصورة، بدا واضحًا أنّه يتمتّع ببِنية رجل شاب، إذ كان طويل القامة وأسمر السحنة، وصاحب ملامح جذّابة سفعتها الشمس، بحيث أبرزت الضحكة التي ارتسمت على وجهه، وهو متّكئ على درابزين اليخت وبناته يحطنَ به، التجاعيد التي خلّفتها السنون. وانتقلت بعدها نظراتي إلى الصورة الوحيدة المعلّقة على الحائط المقابل للسرير الضيّق.

نهضت من مكاني واقتربت منها لأتأمّلها عن كثب. كانت الصورة رسمًا تخطيطيًّا بالقلم الفحميّ لامرأة شابة، في بداية العشرينات بحسب ما أظنّ. كانت ملامحها ملفتة للنظر، ولكنها كبيرة جدًّا مقارنة بوجهها الصغير الذي يتّخذ شكل قلب. فعيناها الواسعتان متناسبتان مع شفتيها الممتلئتين، ولفتت انتباهي الغمّازتان عند طرفي فمها. أما شعرها الكثيف المتجعّد فينسدل إلى ما دون كتفيها. ورأيت في أسفل الصورة توقيعًا، إلا أنني لم أتمكّن من قراءة الأحرف.

سألتها: «من أنتِ؟ ومن كان والدي...؟».

عدت إلى سرير بابا وأنا أتنهّد، وتمدّدت عليه، ومن ثمّ تقوقعت إلى أن اتّخذت شكل كرة صغيرة. وشعرت بالدموع تنهمر من عينيّ وتغرق الوسادة التي ما تزال تفوح منها رائحته الليمونية المنعشة.

همست قائلة: «أنا هنا يا بابا، فأين أنت؟».

6

استيقظت في اليوم التالي وأنا في سرير بابا. شعرت أنني كنت تحت تأثير مخدّر ما لكنني تخلّصت منه. لم أتذكّر أني غفوت ولم يكن لديّ أيّ فكرة عن الوقت، فنهضت من السرير وتوجّهت إلى النافذة لأنظر إلى الخارج. خطر لي أنه مهما تفتقر غرفة نوم پاپا سولت للرفاهية، لكن المشهد الذي تطلّ عليه النافذة يعوّض هذا النقص. كان يومًا بهيًا بأشعة شمسه التي تلمع على السطح الأملس للبحيرة التي بدت وكأنها تمتد إلى لانهاية ضبابيّة من اليمين ومن اليسار. وعندما نظرت أمامي مباشرة، استطعت أن أرى الخضرة تكسو التل الذي يرتفع ارتفاعًا حادًّا بدءًا من شاطئ البحيرة في الناحية المقابلة. وفي هذه اللحظات القليلة، استعاد أتلانتيس سحره.

صعدت إلى غرفتي في الطابق العلويّ حيث استحممت وخرجت وأنا أفكر في ثيو، ومدى قلقه لأنّني لم أتصل به منذ أن وصلت إلى المنزل. ارتديت ملابسي على عجل، وحملت كمبيوتري الخاص ثم نزلت ركضًا إلى الطابق السفليّ واتجهت إلى المطبخ لأسترجع هاتفي الخلويّ فوجدت رسائل عدة من ثيو في انتظاري، وغمر الدفء قلبي حين قرأتها.

أردت الاطمئنان عليك فحسب. أرسل لك حبي كله.

تصبحين على خير عزيزتي آلي. قلبي وعقلي معك.

لا أريد أن أزعجك. اتصلي بي أو أرسلي رسالة حين تستطيعين. اشتقت إليك.

كانت رسائل مُحبّة وغير متطلّبة، حتى أنه لم يطالبني بالردّ على الفور. ابتسمت وأرسلت له إجابةً، وأنا أتذكّر رسالة بابا التي قال لي فيها إني أستطيع أن أكون ما أشاء، أو مع من أشاء.

وفي هذه اللحظة بالذات، أردت أن أكون مع ثيو.

كانت كلوديا تقف أمام طاولة العمل في المطبخ، تمزج خليطًا ما في وعاء. عرضت عليّ بعض القهوة الساخنة على سبيل الترحيب فقبلت بامتنان.

سألتها:

- هل أنا أول شخص ينزل؟

- لا، ستار وسيسي خرجتا وانطلقتا في طريقهما إلى جنيف.

قلت وأنا أرتشف جرعة من السائل الداكن والغني:

- حقًّا؟ ألم تستيقظ الأخريات؟

ردّت بهدوء وهي مستمرة بخفق المزيج بيديها القويتين والقادرتين:

- إنْ كنَّ قد استيقظنَ فأنا لم أرَهنَّ.

أخذت قطعة كرواسان من وليمة الفطور الموضوعة وسط الطاولة الطويلة وقضمت هذه الحلوى الغنيّة بالزبدة قبل أن أقول:

- أليس رائعًا أن نتمكّن كلنا من البقاء هنا في أتلانتيس؟ ظننت أنّ المنزل قد يُعرض للبيع.

- نعم، هذا جيد جدًّا للجميع فعلًا.

وأردفت تسألني، وهي تسكب المزيج في صينية وضعتها إلى جانب الفرن:

- هل تحتاجين إلى أيّ شيء آخر؟

- لا، شكرًا لك.

أومأت برأسها ثم نزعت مئزرها وخرجت من المطبخ.

خلال طفولتنا، كانت كلوديا فردًا أساسيًا في أتلانتيس بقدر ماما أو پاپا سولت. لكنتها الألمانية جعلتها تبدو قاسية لكنّنا نعرف قلبها الطيب والرقيق الذي يختبئ في داخلها. خطر لي أنّنا لا نعرف سوى قليل عنها وعن خلفيتها، لكن لم يخطر لنا، ونحن أطفال، وحتى في مراهقتنا، أن نطرح أسئلة مثل: كيف وأين ولماذا. فكلوديا وعلى غرار أيّ شيء آخر في العالم السحريّ الذي ترعرعنا فيه، كانت جزءًا منه فحسب.

تساءلت عندئذٍ عن الإحداثيات على الاسطرلاب الكرويّ وكيف يمكن للأسرار التي تخفيها أن تزعزع كل ما عرفناه أو لم نعرفه عن أنفسنا. كانت فكرة رهيبة، لكن پاپا سولت تركها لنا على الأرجح لسببٍ ما، وعليّ أن أثق بالقرار الذي أتّخذه. والآن، يعود لكل واحدة منا أن تبحث أكثر أو لا تبحث. القرار قرارنا وعلينا أن نختار.

أخذت قلمًا ودفتر ملاحظات من الخزانة الجانبية، وخرجت من الباب الخلفي للمطبخ، وأنا أرمش بعينيّ من أشعة شمس الصباح، والهواء البارد الذي كان يداعب بشرتي جعلني أشعر بالانتعاش. كان العشب الذي لم تدفئه الشمس بعد، ما يزال باردًا ورطبًا وهو يلامس جانبيّ قدميّ بخفَة. امتدت الحدائق أمامي بهدوء وسكينة، ولم يقطع الصمت المخيّم على المكان سوى زقزقة الطيور بين الحين والآخر، وصوت المياه التي تداعب شاطئ البحيرة.

تتبّعت آثار الخطوات التي خلّفتها ليلة أمس والتي تفضي إلى أحد جوانب المنزل حيث حديقة بابا الخاصة، ورحت أتأمّل أنواع الورود المختلفة التي تفتّحت لتوّها ففاح عبيرها في هواء الصباح.

لمعت الكرة الذهبيّة في وسط الاسطرلاب الكرويّ تحت أشعّة الشمس التي ألقت ظلالًا حادّةً على نطاقات الملاحة. فمسحت بكُمّي الندى عن النطاق الذي يحمل اسمي، وأعدت رسم الكتابة اليونانية بإصبعي، وأنا أتساءل عما تعنيه، ومنذ متى وبابا يخطّط لهذا.

قررت أن أبدأ العمل، فسجّلت بعناية الإحداثيات لنا كلنا، وحاولت ألّا أخمّن إلى أين يقود أيّ منها، لاسيما تلك التي تعود إليّ. أحصيت النطاقات مجددًا ولمست بأصابعي النطاق السابع منها. كلمة وحيدة كانت مكتوبة عليه: «ميروپ».

«شقيقتنا السابعة المُنتظرَة». أخذت نفسًا عميقًا وأنا أتساءل عمّا دفع أبي لأن يفكّر في إضافة اسمها إلى الكرة في حين أنّ الأوان فات بالنسبة إليه الآن ليحضرها إلى المنزل. ثمة أسرار كثيرة! هذا ما خطر لي وأنا في طريق عودتي إلى المنزل، وما من أحد ليجيب عن أسئلتي.

بعد أن عدت إلى المطبخ، وضعت الإحداثيات أمامي وشغّلت كمبيوتري

المحمول ثم تناولت قطعة أخرى من الكرواسان بينما أنا أنتظر بإحباط إشارة الإنترنت التي بدا أنها تحتاج إلى دهر لكي تظهر. وعندما قررت أخيرًا أن تعمل، تحقّقت من المواقع التي تستخدم الإحداثيات لتحديد الأماكن واخترت محرّك البحث جوجل إيرث في نهاية المطاف. فكرت بأيّ منّا، نحن الشقيقات، يجب أن أبدأ؟ وقررت أن أتبع الترتيب بحسب العمر على أن أترك نفسي إلى النهاية. طبعت إحداثيات مايا، وأنا أتساءل إن كان سيتم التعرّف إليها، وراقبت الكرة الأرضية وهي تدور وتقرّب الصورة وتشير بدقة إلى مكان محدد.

تمتمت مذهولة وبأنفاس متقطعة: «واو، لقد نجحت».

مرّت ساعة مليئة بالإحباط حيث كانت إشارة الإنترنت تظهر وتغيب. لكن، ومع عودة كلوديا إلى المطبخ لتبدأ بتحضير الغداء، كنت قد تمكّنت من كتابة الوقائع المجرّدة بشأن كل مجموعة إحداثيات، باستثناء تلك العائدة إليّ.

طبعتها وحبست أنفاسي لوقت بدا أنّه لن ينتهي بينما كان الكمبيوتر يعمل عمله.

همست وأنا أقرأ التفاصيل: «يا إلهي!».

سألتني كلوديا: «عفوًا؟».

قلت على الفور وأنا أدوّن الموقع على دفتر الملاحظات الذي وضعته إلى جانبي: «لا شيء».

- هل ترغبين في تناول الغداء يا آلي؟

أجبتها من دون تركيز، وأنا أفكر في أنّ المكان الذي حدّده البحث لي هو متحف للفنون بحسب ما يبدو: «نعم، سيكون هذا ممتازًا. شكرًا لك».

هذا غير منطقي!.. لكنّني لم أكن واثقة من أنّ أيًّا من إحداثيات شقيقاتي منطقيّ.

رفعت نظري عندما دخلت تيغي إلى المطبخ، فابتسمت لي ابتسامة عذبة وسألت:

- هل نحن الاثنتان وحدنا على الغداء؟

- يبدو كذلك، نعم.

قالت وهي تقترب بخفّة من الطاولة:

- حسنًا، سيكون هذا رائعًا، أليس كذلك؟

على الرغم من غرابة أفكارها الروحانيّة، فقد حسدتها على سلامها الداخلي وأنا أراقبها تجلس قبالتي. ينبع هذا السلام من إيمانها التام والكامل بأنّ هناك في هذه الحياة ما هو أكبر من الحياة نفسها، كما يحلو لها أن تقول. بدت وكأنها تحمل معها رياح مرتفعات إسكتلندا المنعشة وطراوتها في بشرتها البيضاء وشعرها الكستنائي الكثيف، كما انعكس هدوؤها في عينيها البنيّتين الناعمتين.

- كيف حالك يا آلي؟

- أنا بخير. وأنت كيف حالك؟

- أحاول التآلف فحسب. أتعلمين؟ أستطيع أن أشعر به حولي، كما لو أنه...

تنهّدت وهي تمرّر يديها في خُصل شعرها المجعّدة اللامعة قبل أن تردف:

- لم يرحل مطلقًا.

- لكنه ليس هنا للأسف يا تيغي.

- نعم، لكنّ عدم قدرتك على رؤية شخصٍ ما، لا يعني أنّه غير موجود؟

أجبتها بخفّة، وأنا غير واثقة من أنّي في مزاج يسمح لي بتحمّل تعليقات تيغي الباطنيّة:

- بلى، في قاموسي أنا. الطريقة الوحيدة التي أعرفها للتعامل مع مسألة خسارة بابا هي تقبّل الأمر في أسرع وقت ممكن.

قاطعت كلوديا حوارنا عبر وضع طبق سلطة سيزار أمامنا، قائلة:

- هناك ما يكفي للجميع، لكن إنْ لم تحضر أيّ منهن، يستطعنَ تناولها على العشاء.

قلت وأنا أسكب لنفسي بعض السلطة:

- شكرًا. على فكرة، سجّلت كل الإحداثيّات وعرفت كيفية البحث عنها في محرك البحث جوجل إيرث. هل تريدين إحداثيّاتك يا تيغي؟

- في وقت ما، نعم. لكن ليس الآن. أعني، هل هذا مهم وهل يشكّل أيّ فارق؟

- بصراحة، لست واثقة.

- مهما يكن المكان الذي جئت منه في الأصل، فإن پاپا سولت وماما هما من تولّيا رعايتي وربّياني لأصبح من أنا الآن. قد آخذ المعلومات، وإذا شعرت لاحقًا بالحاجة إلى قراءتها فباستطاعتي أن أفعل. أنا نوعًا ما...

تنهّدت تيغي ولاحظت تردّدها وحيرتها ثم أضافت:

- لا أريد أن أعتقد أنّي أتيت من مكان آخر. پاپا سولت هو أبي وسيكون كذلك على الدوام.

- أفهمك.

- وأردفت أسألها ونحن نشرع في تناول الطعام:

- إذًا، ومن باب الفضول فقط، أين پاپا سولت الآن برأيك يا تيغي؟

- لا أعلم يا آلي، لكنه بالتأكيد لم يرحل، وهذا مؤكّد.

- هل هذا في عالمك أم في عالمي؟

- هل من فرق؟ حسنًا، لا فرق بالنسبة إليّ في أيّ حال.

تابعت وهي تصف وجهة نظرها قبل أن أتمكّن من الردّ:

- نحن مجرّد طاقة، كلنا. وكل شيء من حولنا طاقة أيضًا.

أجبتها وقد ظهر التهكّم جليًّا في صوتي:

- حسنًا، أفترض أنها طريقة للنظر إلى الأمور. أعلم أنّ هذه القناعات والمعتقدات تناسبك يا تيغي. لكنها في الوقت الحالي، وبعد أن دُفن بابا، لا تنفعني ولا تفيدني.

- لا، أفهمك يا آلي. لكن دورة الحياة تستمر وهي لا ترتبط بنا نحن البشر فحسب، بل ترتبط بالطبيعة كلّها أيضًا. فالوردة تتفتّح وتُظهر بهاءها وجمالها كله، ومن ثمّ تذوي وتموت، لتعود وتزهر وردةٌ أخرى مكانها على الشتلة نفسها...

رمقتني بنظرة أرفقتها بابتسامة صغيرة قبل أن تضيف:

- لديّ شعور أنّ هناك شيئًا جيّدًا وإيجابيًا عندك حاليًّا على الرغم من هذه الأخبار الفظيعة والبغيضة.

راقبتها بريبة وسألتها:

- حقًّا؟

- نعم.

ومدّت يدها نحوي مردفة:

- استمتعي به ما دمتِ قادرة على ذلك، هلّا فعلت؟ لا شيء يدوم إلى الأبد كما تعلمين.

- أعلم هذا.

ووجدت نفسي أتّخذ فجأة موقفًا دفاعيًا وأشعر بالضعف أمام تعليقها الدقيق، فسارعت إلى تغيير الموضوع وسألتها:

- إذاً، كيف حالك أنت؟

- أنا بخير، نعم...

بدا أنّ تيغي تحاول أن تطمئن نفسها بقدر ما تسعى لطمأنتي، وأضافت:

- نعم أنا كذلك.

- أما تزالين تستمتعين بالعناية بغزلانك في المحميّة؟

- أنا أعشق عملي، وهو يناسبني تمامًا، على الرغم من أنني لا أحظى بدقيقة لنفسي؛ فنحن نعاني من نقص في عدد العاملين. وعلى ذكر هذا الموضوع، لا بدّ لي من أن أعود في أسرع وقت ممكن. لقد تحقّقت من مواعيد الطيران وسأغادر بعد ظهر اليوم. سترافقني إلكترا إلى المطار.

- بهذه السرعة؟

- نعم، فما الذي يمكن أن نفعله هنا؟ أنا واثقة من أنّ بابا يفضّل أن تعود كل واحدة منّا إلى حياتها، وألّا نتسكّع في الأرجاء ونحن نشفق على أنفسنا.

وافقتها الرأي:

- نعم، أنت محقّة.

ورحت أفكّر للمرة الأولى في ما هو أبعد من هذه الفجوة الرهيبة، أفكّر في المستقبل. وتابعت الحديث:

- من المفترض أن أشارك في سباق سيكلاديس بعد بضعة أيام.

حثّتني:

- إذًا، افعلي ذلك يا آلي.

عندئذ تمتمت:

- ربما سأفعل.

- حسنًا، عليّ أن أصعد وأوضّب حقائبي ثم أودّع مايا. ما جرى سيؤثّر فيها أكثر من أيّ واحدة أخرى منّا. فهي منهارة.

- أعلم هذا. خذي، إليكِ إحداثياتك.

وأعطيتها الورقة التي دوّنت عليها المعلومات.

- شكرًا.

راقبت تيغي وهي تنهض وتتحرك ثم تقف عند باب المطبخ وتنظر إليّ بتعاطف:

- تذكّري دائمًا أنّني على بُعد اتصال هاتفيّ فحسب إذا ما احتجت إليّ في الأسابيع القليلة المقبلة.

- شكرًا يا تيغي. وهذا ينطبق عليك أيضًا.

بعد أن ساعدت كلوديا في رفع الأطباق، توجّهت إلى غرفتي في الطابق العلويّ وأنا أتساءل إنْ كان عليّ، أنا أيضًا، أن أغادر أتلانتيس. فتيغي محقّة؛ لم يعد لدينا ما نفعله هنا. ودفعتني فكرة العودة إلى البحر والمياه، ناهيك بفكرة العودة إلى حضن ثيو، إلى الرجوع إلى الطابق السفلي مع كمبيوتري للتحقّق إنْ كان هناك أيّ مقاعد شاغرة على متن الرحلة المتوجّهة إلى أثينا في الساعات الأربع والعشرين

القادمة. عندما دخلت المطبخ، وجدت ماما تقف عند النافذة وقد أدارت ظهرها لي؛ بدا جليًّا أنها غارقة في أفكارها. وعندما سمعت وقع خطواتي، استدارت نحوي وهي تبتسم لكنها لم تفلح في إخفاء الحزن الذي لمحته في عينيها.

- مرحبًا يا عزيزتي. كيف حالك اليوم؟

- أفكر في العودة إلى أثينا لأشارك في سباق سيكلاديس كما كان مقررًا في الأصل. لكنني قلقة من فكرة تركك، أنت والفتيات الأخريات هنا، لاسيّما مايا.

- أعتقد أنّ فكرة سفرك ومشاركتك في السباق فكرة ممتازة يا عزيزتي. وأنا واثقة من أنّ هذا ما كان والدك ليطلبه منك. لا تقلقي بشأن مايا فأنا هنا إلى جانبها.

- أعلم ذلك.

خطر لي أنه من المستحيل أن أتخيّل أمًّا مُحبّة وداعمة لنا أكثر منها حتى وإنْ لم تكنْ أمّنا الحقيقيّة.

- تقدّمت منها، ضممتها بين ذراعيّ، وشددتها إلى صدري قبل أن أضيف:

- وتذكّري أننا كلنا موجودات من أجلك أيضًا.

صعدت إلى الطابق العلويّ بحثًا عن إلكترا لأسلّمها إحداثيّاتها قبل أن تغادر. طرقت باب غرفة نومها ففتحته لكنها لم تدعني للدخول.

- مرحبا آلي. أنا على عجلة من أمري، أوضّب حقائبي.

- أحضرت لك إحداثيّاتك من الاسطرلاب الكرويّ فحسب. خذي.

- لا أعتقد أني أريدها.

وتابعت تقول بحزن:

- بصراحة يا آلي، ما الذي جرى لوالدنا؟ يبدو وكأنه يلعب معنا لعبة ما من داخل قبره.

- جلّ ما أراده يا إلكترا هو أن يجعلنا نعرف من أين أتينا، في حال احتجنا إلى هذه المعلومة.

- إذًا، لمَ لمْ يتصرّف كما يفعل معظم الأناس الطبيعيين؟ لمَ لمْ يكتب مثلًا على

ورقة بدلًا من أن يُخضعنا للعبة جغرافية غريبة، كما يفعل صائدو الكنوز؟ يا إلهي، لطالما أحبّ هذا الرجل السيطرة والتحكّم فينا.

- إلكترا، أرجوك! لعلّه لم يشأ أن يكشف كل شيء على الفور، في حال فضّلنا ألّا نعرف. بالتالي، ترك لنا ما يكفي من المعلومات لنكتشف الحقيقة في حال أردنا ذلك.

رفضت رفضًا قاطعًا قائلة:

- حسنًا، أنا لا أريد.

عندئذ سألتها بلطف:

- لمَ أنت غاضبة منه إلى هذا الحدّ؟

- لست غاضبة، أنا...

والتمع الألم والإرباك في عينيها الكهرمانيّتين وهي تهزّ رأسها وتردف باستهجان:

- حسنًا، أنا كذلك. أنا... لا يمكنني أن أشرح.

- حسنًا، خذي هذا في أيّ حال.

سلّمتها المظروف وقد علّمتني التجربة ألّا أبحث أكثر، ثم أضفت:

- ليس عليكِ أن تفعلي أيّ شيء بها.

- شكرًا يا آلي. أنا آسفة.

- لا تقلقي. هل أنت واثقة من أنك بخير يا إلكترا؟

- أنا... نعم، أنا على ما يرام. عليّ الآن أن أعود إلى توضيب حقائبي. أراكِ لاحقًا.

أغلقت الباب في وجهي، فابتعدت وأنا أعلم تمامًا أنّها تكذب.



شققنا أنا ومايا وستار وسيسي طريقنا، بعد ظهر ذلك اليوم، إلى المرسى لنرى إلكترا وتيغي وهما تغادران. سلّمتهما مايا أيضًا المقولتين الخاصّتين بهما بعد أن ترجمتهما.

علّقت سيسي ونحن نعود إلى المنزل:

- أعتقد أننا أنا وستار سنغادر في وقت لاحق أيضًا.

سألت ستار بنبرة شاكية:

- حقًّا؟ ألا نستطيع أن نبقى لبعض الوقت؟

ولاحظت، كما أفعل دائمًا، التناقض الجسديّ بينهما: ستار الطويلة والنحيلة إلى حدّ الهزال بشعرها الأشقر الفاتح جدًّا وبشرتها البيضاء كالثلج، وسيسي ذات البشرة الداكنة والجسم الممتلئ.

- ما الفائدة؟ بابا تُوفيّ وقد اجتمعنا بالمحامي، وعلينا أن نعود إلى لندن في أسرع وقت ممكن لنجد مكانًا نعيش فيه.

عندها قالت ستار:

- أنت محقّة.

سألتها:

- ماذا ستفعلين أنت في لندن ما دامت سيسي في كليّة الفنون؟

ردّت ستار وهي تختلس النظر إلى سيسي:

- لست واثقة بعد.

أجابت سيسي بالنيابة عنها:

- أنت تفكرين في متابعة دروس في الطهو، أليس كذلك يا ستار؟ إنها طاهية مدهشة في الحقيقة.

تبادلت أنا ومايا نظرة قلق بينما أخذت سيسي ستار بعيدًا منّا للتحقّق من رحلات الطيران إلى هيثرو في الليلة نفسها.

تنهّدت مايا عندما ابتعدتا وعلّقت:

- لا تقوليها. أعلم.

سرنا نحو الشرفة الأماميّة ونحن نناقش خوفنا من علاقة ستار وسيسي. كانتا لا تفترقان إلى حدّ التطرّف، وأملت فقط أن تنفصلا قليلًا مع انشغال سيسي بدروسها في الفن وتركيزها عليها.

لاحظت كم تبدو مايا شاحبة وأدركت أنها لم تتناول طعام الغداء. فطلبت منها أن تجلس على الشرفة، وتوجّهت إلى المطبخ حيث وجدت كلوديا التي طلبت منها إعداد بعض الطعام. رمقتني كلوديا بنظرة تفهّم وبدأت بتحضير السندويشات بينما عدت أنا إلى الخارج وإلى مايا.

سألتها بحذر:

- مايا، أنا لا أريد أن أتطفّل، لكنْ هل فتحت رسالتك ليلة أمس؟»

- نعم، فعلت. حسنًا، صباح اليوم في الواقع.

- يبدو جليًا أنها أثارت استياءك.

- في البدء نعم، لكني على ما يرام الآن يا آلي، حقًّا. ماذا عنكِ أنتِ؟

أصبحت نبرتها فظّة وأدركت أنّ هذا يعني أنّ عليّ التراجع، فقلت:

- نعم، فتحت رسالتي. وقد كانت جميلة وجعلتني أبكي، لكنها رفعت معنوياتي أيضًا. على فكرة، أمضيت فترة الصباح وأنا أبحث عن الإحداثيّات على الإنترنت. أصبحت أعرف الآن بشكلٍ محدّدٍ من أين أتت كل واحدة منّا في الأصل.

أضفت بينما ظهرت كلوديا وهي تحمل طبقًا من السندويشات وضعته على الطاولة قبل أن تنسحب على عجل:

- هناك بعض المفاجآت في الأمر، أؤكد لك هذا.

سألتني:

- أتعرفين تحديدًا أين وُلِدنا؟ أين وُلِدت أنا؟

أوضحت لها:

- نعم أو على الأقل أين وجدنا بابا. هل ترغبين في أن تعرفي يا مايا؟ بإمكاني أن أخبرك أو أتركك تبحثين وتكتشفين بنفسك.

- أنا... أنا لست واثقة.

مازحتها مزحة عرجاء:

- كل ما أستطيع قوله هو أنّ بابا جال جميع الأنحاء.

عادت تسأل:

- إذن أنت تعرفين من أين أتيتِ في الأصل؟

- نعم، علمًا أنّ المسألة ليست منطقيّة بعد.

- ماذا عن الأخريات؟ هل قلتِ لهنّ إنك تعرفين أين وُلدنَ؟

- لا، لكنّني شرحت لهنَّ كيف يمكنهنّ البحث عن الإحداثيّات على محرك البحث جوجل إيرث. هل أشرح لك أنتِ أيضًا؟ أمْ أكتفي بإخبارك أين وجدك بابا؟

أجابت وهي تخفض عينيها الجميلتين نحو الأرض:

- لست واثقة تمامًا في الوقت الحالي.

- حسنًا، من السهل جدًّا أن تبحثي بنفسك كما قلت لك من قبل.

- إذًا، سأفعل هذا على الأرجح حين أصبح مستعدة.

اقترحت عليها أن أدوّن لها الإرشادات المتعلّقة بإحداثيّاتها، لكنني شككت في أن تتحلّى بالشجاعة لأبحث عنها. سألتها:

- هل سنحت لك فرصة لترجمة أيّ من المقولات المحفورة باليونانيّة على الاسطرلاب الكرويّ؟

- نعم، ترجمتها كلّها.

- حسنًا، أود فعلًا أن أعرف ما اختاره بابا لي. هلّا أخبرتني رجاءً؟

قالت مايا:

- لا أتذكّر المقولة حرفيًّا، لكن باستطاعتي أن أذهب إلى الجناح الجانبي وأدوّنها لك.

- إذًا، يبدو أننا، أنا وأنتِ، قادرتان على تزويد أخواتنا بالمعلومات التي يحتجْنَها إن أردنَ استكشاف ماضيهنَّ.

- نستطيع ذلك. لعلّ الوقت ما يزال مبكرًا جدًّا لكي تفكّر أيّ منا في العودة وتتبّع الأدلّة التي أعطانا إيّاها بابا.

«ربما». تنهّدت وأنا أفكر في ثيو وفي الأسابيع القادمة قبل أن أتابع كلامي:

- سينطلق سباق سيكلاديس قريبًا، وسأضطر لأن أغادر المنزل في أسرع وقت

ممكن لأتمكّن من الانضمام إلى البحّارة. وأقولها صراحة يا مايا، ستكون العودة إلى البحر صعبة بعد ما رأيته منذ بضعة أيام.

طمأنتني قائلة:

- أستطيع أن أتخيّل هذا. لكني واثقة من أنك ستكونين بخير.

- آمل ذلك. فهذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بالتردّد منذ أن بدأت أشارك في السباقات بشكل احترافيّ.

شعرت بالارتياح بعد أن بُحت بهذا بصوتٍ عالٍ لشقيقتي الكبرى. ففي الوقت الراهن، كلما خطر في بالي سباق سيكلاديس، تراءت لي صورة وحيدة وهي صورة بابا المسجّى في تابوته في قعر البحر.

شجّعتني مايا بقولها:

- لقد استثمرت كلّ جهودك في الملاحة لسنواتٍ يا آلي، فلا تدعي ما حصل يرعبك. افعلي هذا من أجل بابا، فهو ما كان ليرغب في أن تفقدي ثقتك.

- أنت محقّة. في أيّ حال، هل ستكونين بخير وحدك هنا؟

- بالطبع. لا تقلقي بشأني، أرجوك. لديّ ماما وعملي، وسأكون على ما يرام.

وبينما كنت أساعد مايا على إنهاء السندويشات، جعلتها تعدني بأن نبقى على تواصل، وسألتها إنْ كانت ترغب في أن تنضم إليّ لنبحر معًا في وقت لاحق من هذا الصيف، على الرغم من أني علمت أنها لن تفعل.

ظهرت سيسي على الشرفة لتقول:

- تمكّنا من حجز مقعدين على متن الرحلة المتوجّهة إلى هيثرو. سيقلّنا كريستيان إلى المطار بعد ساعة.

قلت وأنا أغادر لأبحث عن جهاز الكمبيوتر الخاص بي:

- إذًا، سأرى إنْ كنت أستطيع أن أجد رحلة إلى أثينا وأرافقكما. لا تنسي أن تكتبي لي المقولة، رجاءً يا مايا.

بعد أن وجدت في اللحظات الأخيرة رحلة متوجّهة إلى أثينا في وقت لاحق من هذا المساء، سارعت إلى توضيب أمتعتي. جلت في غرفة نومي لأتأكد من

أنني لم أنسَ شيئًا فوقعت عيناي على الناي القابع في علبته على أحد الرفوف. لقد بقيت هذه العلبة مقفلة لوقت طويل. خطر لي أنّ بابا أتى على ذكرها في رسالته، فدفعتني نزوة ما إلى رفعها من مكانها وقررت أن أحملها ضمن متاعي؛ قال ثيو إنه يودّ أن يسمعني أعزف، ولعلّي أفعل ذلك بعد أن أتمرّن. وعندما انتهيت، نزلت السلالم بحثًا عن ماما لأودّعها.

احتضنتني بقوة وطبعت قبلتين حارتين على خديّ قبل أن تقول:

- أرجو أن تعتني بنفسك يا عزيزتي وعودي لرؤيتنا عندما تستطيعين ذلك.

- سأفعل يا ماما. أعدك بذلك.

بعدئذ، سرنا أنا ومايا سويًّا نحو المرسى.

قالت وهي تناولني مظروفي الذي يحتوي على ترجمة المقولة التي اختارها بابا لي:

- أتمنى لك حظًّا موفقًا في السباق.

عانقتها عناقًا أخيرًا، وصعدت إلى الزورق السريع حيث كان في انتظاري كلٌّ من سيسي وستار. لوّحنا جميعًا لمايا بينما راح كريستيان يبتعد عن المرسى. انطلقنا نعبر البحيرة، وفكرت كيف أنّ پاپا سولت لطالما قال لي إنّ على المرء ألّا يلتفت أبدًا إلى الخلف وإلى الماضي، لكنني علمت أني سأفعل من حين إلى آخر، وسأفكر في ما كان، ولم يعد موجودًا الآن.

ابتعدت عن سيسي وستار متوجّهة إلى مؤخرة المركب وأنا ما أزال متشبّثة بالمظروف وقد تملّكني شعور بأن من المناسب أن أقرأ ما اختاره بابا من مقولة لي بينما أنا فوق مياه بحيرة جنيف، حيث أبحرنا أنا وهو معًا مرات عدّة. فتحت المظروف وأخرجت قطعة الورق من داخله.

«ستجدين أعظم قواكِ في أوقات الضعف».

مع تراجع أتلانتيس وابتعاده، واختفاء المنزل خلف الأشجار، تمنيّت أنْ تتدفّق كلمات بابا من خلالي وتساعدني على إيجاد الشجاعة التي أحتاجها لكي أمضي قُدُمًا وأكمل طريقي.

7

بعث لي ثيو رسالة يقول فيها إنه سيكون في انتظاري في مطار أثينا. عندما وصلت إلى بوابة القادمين، توجّه إليّ والقلق بادٍ عليه، ومن ثم أخذني بين ذراعيه قائلًا: قلقت عليك يا حبيبتي. كيف حالك؟ لا بدّ من أنك منهارة يا مسكينة وتابع متحسّسًا أضلعي: خسرتِ كثيرًا من وزنك.

أجبته بحزم، وقد عبقت في أنفي رائحته الزكيّة التي توحي بالطمأنينة: إنني بخير.

حمل حقيبة الظهر الخاصة بي وخرجنا إلى الظلمة، في ظل الحرارة الخانقة التي تشهدها أثينا في شهر تموز.

صعدنا إلى سيارة التاكسي المزوّدة بمقاعد بلاستيكية لزجة تفوح منها رائحة تبغ قوية، وتوجّهنا إلى فندق مجاور لميناء ڤاليرو، حيث يُتوقّع أن يبدأ سباق سيكلاديس.

قال ثيو بينما كانت سيارة التاكسي تجتاز شوارع المدينة: كنت جادًّا عندما قلت لك إنك لست مضطرّة للقيام بذلك، ونستطيع أن نتدبّر أمورنا من دونك.

أجبته:

- لست أدري إن كان يُفترض بي أن أعتبر كلامك مديحًا أم ذمًّا.

- إنه مديح من دون أدنى شك، فأنت تمثّلين جزءًا لا يتجزّأ من الطاقم. ولأنّني أحبّك كثيرًا، فلا أريدك أن تشعري بأي ضغط.

أحبّك! في كل مرّة يتفوّه فيها بهذه الكلمة بتلك العفوية الطبيعية، أشعر

بسعادة غامرة. وها هو يجلس هنا بقربي، ممسكًا بيدي، ويقول لي: أحبّك. وكيف يمكن ألّا أبادله ذلك الحب وهو يتحلّى بالصدق والصراحة والبعد عن ممارسة الألاعيب؟ أذكر أنّه قال لي مرة في تلك الأيام الجميلة التي أمضيناها على متن القارب نيبتون قبل أن يبلغني خبر وفاة پاپا سولت، إنه في حال كسرت قلبه، عليه أن يبحث عن قلبٍ آخر بدلًا منه.

- إنني واثقة من أنّ هذا ما يريدني بابا أن أفعله. يريد مني أن أعود إلى الإبحار، وأعيش حياتي بدلًا من الانغماس في الكآبة والحزن. ومن المؤكّد أنه يريدني أن أحقّق الفوز.

شدّ على يدي قائلًا:

- سنفعل ذلك من أجله يا آلي. أقسم لك.



عندما صعدت صباح اليوم التالي إلى القارب هانس برفقة باقي أفراد الطاقم، للبدء بالتمرين في الأيام القليلة المتبقية قبل حلول موعد السباق، بدا الجميع مفعمين برغبة ملحة في الفوز. وتأثّرت كثيرًا بالمحاولات التي بذلها كلّ واحد منهم لتسهيل الأمور عليّ قدر المستطاع. لم يكن سباق سيكلاديس شاقًا كالسباقات البحريّة الأخرى التي شاركت فيها؛ فهو يمتدّ على فترة ثمانية أيام، بحيث يُسمح بالتوقّف لمدة أربع وعشرين ساعة والاستراحة يومًا كاملًا في كلّ جزيرة نبحر إليها.

لاحظ ثيو أنّني أحضرت معي الناي، فاقترح عليّ قائلًا:

- ما رأيك لو تحضرينه معك إلى القارب؟ بإمكانك أن تعزفي لنا لتحفيزنا على العمل.

وبينما كنّا نعبر الأمواج بسرعة عالية والشمس المتألّقة تستعد للمغيب في اليوم الأوّل من السباق، رفعت الآلة إلى شفتيّ وابتسمت لثيو قبل أن أبدأ بالعزف على آلة النفخ الموسيقيّة معزوفة «فانتازيا حول موضوع لتوماس تاليس» وهي

مقطوعة موسيقيّة حققت شهرة واسعة من خلال الفيلم الملحميّ عن روّاد البحر «قائد وربّان». ابتسم ثيو لي ابتسامة عريضة من داخل مقصورة القيادة، وقد تذكّر في سرّه الدعابة التي أطلقها لدى إبحارنا باتجاه ميناء ديلوس. وصفّق لي الشبّان بحماسة بينما كنت أشعر في داخلي وكأنني أعرب عن امتناني وتقديري لـپاپا سولت على طريقتي.

حلّ فريقنا في المرتبة الأولى في الجولة الأولى من السباق، وفي المرتبة الثانية في كلّ من الجولتين الثانية والثالثة. ما وضعنا في مواجهة مباشرة مع طاقم يوناني. وفي الليلة ما قبل الأخيرة من السباق، وصلنا إلى ميناء فينيكاس في سيروس، وهي جزيرة يونانية شاعريّة صغيرة، أقام سكانها احتفالًا لكل الطواقم في الميناء. ولم نكد ننتهي من تناول العشاء، حتى أرسل ثيو في طلبنا جميعًا.

- سيدتي، سادتي. أعلم أنكم ستصفونني بمفسد البهجة، ولكن بصفتي الربّان آمركم جميعًا بالنوم باكرًا هذا المساء.

وأومأ برأسه باتجاه الطاقم اليوناني، الذي كان أفراده شبه ثملين، ويمسك واحدهم الآخر بكتفه ليرقصوا رقصة زوربا الفلكلورية على أنغام لحن يُعزف على البزق، وتابع:

- في الوقت الذي يستمتع فيه الفريق المنافس بوقته، سننعم نحن بليلة هادئة لنستيقظ في الصباح بكامل نشاطنا ومستعدين للقتال، اتّفقنا؟

تأوّه الجميع بطريقة غريبة، إلا أنهم انصاعوا للأوامر، وعادوا إلى المركب حيث دخل كلّ منهم إلى مقصورته.

وبالنظر إلى ضيق المكان الذي كنّا نقيم فيه مع باقي أفراد الطاقم، حرصنا، ثيو وأنا، على اتّباع روتين معيّن في ساعات الليل لنتمكن من أن نمضي بعض الوقت معًا من دون إثارة الشبهات. وبصفتي الفتاة الوحيدة في الطاقم، خُصّصت لي مساحة ضيّقة في مقدّمة القارب، في حين كان ثيو ينام على أريكة في المنطقة المخصّصة للجلوس في مطبخ القارب.

حين أسمع الآخرين يدخلون غرفة تبديل الملابس الصغيرة المزوّدة بمغسلة

ومرحاض، كنت أتسلّل بهدوء من مكاني، وأصعد خلسةً إلى الطابق العلويّ حيث تنتظرني يد دافئة تشدني إليها. وبعد أن نتبادل العناق لخمس دقائق من الوقت، مثل مراهقيْن يخشيان أن يراهما ذويهما معًا، أعود إلى المطبخ على رؤوس أصابعي، بحثًا عن حجّة أتذرّع بها في حال رآني أحدهم متسلّلة، وأفتح المبرّد وأخرج منه قارورة ماء، ومن ثمّ أعود إلى مقصورتي وأقفل الباب بقوة. كنا مقتنعيْن بأنّنا نتقن تلك التمثيلية بشكل جيّد جدًّا بحيث لا يملك أحد من أفراد الطاقم أدنى فكرة عمّا يدور بيننا. عندما احتضنني بين ذراعيه في تلك الليلة، شعرت بالشغف في القُبل التي كان يغدقها عليّ قبل النوم.

قال متأوّهًا:

- أرجو أن تكوني مستعدة لتمضي ما لا يقلّ عن أربع وعشرين ساعة معي في السرير، للتعويض عن الإحباط الذي شعرت به في الأيام القليلة الماضية.

همست في أذنه بينما كنت أبعد يده الشاردة عن ثديي الأيسر:

- نعم، نعم حضرة القبطان. مع أنني لا أظنّ أنّ من العدل أن تأمر أفراد الطاقم بالذهاب إلى الفراش باكرًا بينما الربّان يخالف أوامره علنًا.

- أنت محقّة كالعادة. حسنًا يا جولييت حياتي، تواري عن نظري، ولا تدني من جسدي، وإلا فلن أتمكّن من لجم رغبتي الشديدة بك.

ضحكت ضحكة خافتة، وقبّلته للمرة الأخيرة ومن ثمّ حرّرت نفسي من عناقه.

- أحبّك يا حبيبتي. نامي جيدًا.

- وأنا أحبّك أيضًا.



أتت إجراءات ثيو أُكُلَها مرة أخرى. فالمنافسة خلال الجولة الأخيرة من السباق مع الطاقم اليوناني كانت محمومة، والنتيجة كانت متقاربة جدًّا، ولكن عندما علّق ثيو منتصرًا لدى اجتيازنا نهار السبت خط النهاية في ميناء فولياغميني قبل خمس دقائق من الطاقم اليوناني، أدركنا أنّ شراب الأوزو قد نال منهم. وفي حفل الختام،

وضع أفراد الطاقم تاج الفوز المصنوع من أوراق الغار على رأسي، بينما كانت كاميرات التصوير تومض، والشمبانيا تُرشّ على الجميع. ناولني أحدهم زجاجة لأشرب منها، فرفعتها عاليًا في الهواء وقلت لـپاپا سولت في سري إن هذا الفوز مهدى له. وأرسلت له إلى السماء عبارة «اشتقت إليك» متّقدة بالحب.

بعد العشاء الذي أُقيم احتفالًا بالفوز، أمسك ثيو بيدي وساعدني على النهوض عن المائدة.

- علينا في بادئ الأمر أن نشرب نخب آلي. فعلى الرغم من كل الظروف، أظنّ أن الجميع يوافقونني الرأي بأن أداءها كان مذهلًا.

هتف الفتيان مهلّلين لي وشعرت بالدموع تترقرق في عينيّ أمام حفاوتهم الصادقة.

- ثانيًا، يسعدني أن تنضمّوا جميعًا إلى طاقمي في سباق فاستنت الذي سيُقام في شهر آب المقبل حيث سأقود مركب تايغرس في رحلته الأوّلى. أظنّ أنكم سمعتم عن هذا القارب الجديد الذي تم إطلاقه حديثًا. لقد عاينت القارب عن كثب، وأنا واثق من أنه سيبحر بنا في رحلة فوز جديدة. ما رأيكم؟

أجابه روب بحماسة:

- مركب تايغرس؟ أنا موافق.

وحذا بقية الفتيان حذوه معربين عن توقهم إلى المشاركة في ذلك السباق.

سألته بصوت هادئ:

- هل الدعوة تشملني أيضًا؟

- بالتأكيد يا آلي.

والتفت نحوي، وأحاطني بذراعيه وقبّلني بشغفٍ على شفتيّ، ما أثار جولة جديدة من الهتافات، بينما كنت أحاول أن أبعد نفسي عنه وقد علت الحمرة وجهي.

- هذا ما كنت أنوي إعلانه في الختام؛ إنني مغرم بآلي، ومن لديه أي اعتراض على هذه العلاقة، فليعلمْني بذلك، اتّفقنا؟

نظرت إلى الفتيان وقد بدت على وجوههم علامات الاستغراب.

قال بوب متنهّدًا:

- إنها أخبار قديمة.

وعلّق غيي بدوره قائلًا:

- نعم، ما القصة الكبيرة في هذا؟

نظرنا معًا إلى أفراد الطاقم مندهشيْن.

سألهم ثيو:

- هل كنتم على علمٍ بالأمر؟

أجابه روب:

- أرجو المعذرة حضرة الربّان، ولكن يبدو أنك نسيت أننا كنا نعيش جنبًا إلى جنب خلال الأيام القليلة الماضية، ولم يكن صعبًا علينا أن ندرك حقيقة ما يجري. فلا أحد سواك حظي بشرف لمس مؤخرة آل من دون أن يتلقّى صفعة قوية بسبب ذلك، ولا أحد سواك كانت تغدق عليه القُبل والمداعبات قبل النوم. كنا نعرف الحقيقة منذ فترة طويلة. آسف.

لم يتمكّن ثيو من الإجابة واكتفى بقول: «آه»، بينما أخذ يضغط على يدي.

صاح غيي قائلًا:

- اذهبا واستأجرا غرفة في فندق.

فيما كان باقي أفراد الطاقم يطلقون تعليقات بذيئة.

قبّلني ثيو من جديد وشعرت برغبة في الاختفاء عن وجه الأرض من شدّة الإحراج، وقد أدركت أنّ الحب يمكن أن يكون أعمى فعلًا.

استأجرنا غرفة في أحد الفنادق في فولياغميني. وكان ثيو حريصًا على الالتزام بوعده لي حيث أمضينا أكثر من أربع وعشرين ساعة، وانصرفنا إلى الاهتمام بشؤوننا. وبينما كنا مستلقييْن على الفراش، تحدّثنا عن الخطط المتعلّقة بسباق فاستنت وما بعد ذلك.

- حسنًا، هل أنتِ متفرّغة للانضمام إلى طاقمي على متن مركب تايغرس؟

- أصبحت الآن متفرّغة. لقد تعوّدت الانضمام إلى أبي وعدد من شقيقاتي في عطلة سنويّة على متن تيتان في شهر آب.

ابتلعت حزني على مضض واستطردت قائلة:

- ومن ثمّ في شهر أيلول، سأبدأ بالتدريب مع الفريق السويسريّ، في حال تمكّنت من النجاح في الاختبارات النهائية، استعدادًا للألعاب الأولمبية في بيكين.

- سأشارك في الألعاب الأولمبية مع الفريق الأميركيّ.

حاولت أن استفزّه قائلة:

- أنا واثقة من أنّ المنافسة ستكون قوية ولا يمكن أن أسمح لك بالفوز.

- شكرًا لك يا سيدتي الجميلة. آمل أن أتمكّن من الارتقاء إلى مستوى التحدي.

وانحنى ثيو أمامي هازئًا وتابع:

- حسنًا، ماذا ستفعلين خلال الأيام القليلة المقبلة؟ من جهتي، أظنّ أنني استحق عطلة في منزل الأسرة الصيفيّ الواقع على بعد بضع ساعات بالمركب من هنا. ومن ثمّ، سأتوجّه إلى جزيرة وايت للاستعداد لسباق فاستنت. هل ترغبين في مرافقتي؟

- في الإجازة أم في سباق فاستنت؟

- في الاثنين، مع أنّني واثق من أنك بحّارة على درجة عالية من الخبرة. ولكن سباق فاستنت مختلف عن السباقات الأخرى. شاركت في السباق الأخير الذي أقيم منذ سنتين وكدنا أن نفقد أحد أفراد الطاقم أثناء دوراننا حول الصخرة. أقسم لك بأنّ مات كاد أن يقع من المركب. إنه سباق خطير و...

أخذ ثيو نفسًا عميقًا وتابع:

- الحق يُقال إنني بدأت أتساءل إن كانت فكرة انضمامك إلى الطاقم سديدة.

- لماذا؟ ألأنني فتاة؟

- حبًا بالله يا آلي. هدّئي من روعك! لم أكن أقصد ذلك. ولكنّني أحبّك ولن أسامح نفسي إذا أصابك مكروه. في أي حال، نستطيع التفكير مليًا في الموضوع

خلال الأيام القليلة المقبلة، اتفقنا؟ من الأفضل أن نناقش المسألة ونحن نحتسي كأسًا على شرفة مطلّة على البحر. صباح الغد، عليّ أن أعيد المركب هانس إلى مالكه في الميناء حيث يرسو مركب نيبتون، وبإمكاننا بعدها الانطلاق مباشرة، ما رأيك؟

- في الواقع كنت أفكّر في العودة إلى المنزل للبقاء برفقة ماما ومايا.

- سأتفهّم الأمر في حال كنت تشعرين بأنّه ينبغي لك القيام بذلك. مع أنني أرغب بشدّة في أن تأتي معي. أشعر وكأن السنة المقبلة ستكون سنة جنون لنا، نحن الاثنين.

- أود مرافقتك، ولكن عليّ أن اتّصل أوّلًا بماما لأتأكّد من أن كل الأمور تسير على ما يرام، ومن ثم سأقرّر ما أفعله.

- لمَ لا تتصلين بها بينما أستحم؟

وطبع قبلة سريعة على رأسي قبل أن يقفز من السرير ويتوجّه نحو الحمام.

عندما اتصلت بماما، أكّدت لي أنّ كلّ الأمور تسير على أفضل ما يرام في أتلانتيس، ولا داعي لعودتي إلى المنزل.

- خذي إجازة يا عزيزتي. قرّرت مايا السفر لبعض الوقت، ما يعني أنها لن تكون هنا في مطلق الأحوال.

علّقت قائلة:

- حقًّا؟ أنا مندهشة فعلًا! ولكن هل أنت واثقة من أنك لن تشعري بالوحدة؟ أعدك بأن يبقى هاتفي المحمول مفتوحًا طوال الوقت في حال احتجت إلي.

أجابت بصوت رزين:

- إنني بخير ولن أشعر بالوحدة يا عزيزتي. يؤسفني القول إن الأسوأ قد وقع بالفعل.

أقفلت الخط وقد تملّكني شعور بالإحباط، تمامًا كما يحصل في كلّ مرّة أتذكّر فيها أن بابا لم يعد موجودًا. ولكن ماما كانت على حق؛ فالأسوأ قد حصل فعلًا.

وكم كنت أتمنى في تلك اللحظة لو أنني أنتمي إلى ديانة تعتمد قواعد محدّدة للتعامل مع الحزن الذي ينشأ عقب موت أحبائنا. على الرغم من أنني كنت أعتبر هذه القواعد بالية في السابق، بدأت أنظر إليها على أنها نوع من الطقوس الرامية إلى مساعدة الإنسان في التغلّب على تلك اللحظات المظلمة التي يعيشها بعد خسارة شخص عزيز.

غادرنا، ثيو وأنا، الفندقَ صباح اليوم التالي وسرنا معًا باتجاه الميناء.

شربنا نخب الفوز مع مالك القارب هانس، الذي كان سعيدًا جدًّا بالفوز وتحدّث مع ثيو عن إمكانية المشاركة في سباقات مستقبليّة، ومن ثم مشينا على طول الميناء وصعدنا إلى متن نيبتون. قبل أن نتهيأ للإبحار، حدّد ثيو مسار رحلتنا على نظام الملاحة، ورفض أن يخبرني عن وجهتنا. وبينما كان منهمكًا بإخراج المركب من ميناء فولياغميني والانطلاق في اتجاه عرض البحر، شغلت نفسي بإعادة ملء الثلاجة والمبرّد بالجعّة، والمياه والنبيذ.

أثناء اجتيازنا المياه الزمرديّة الهادئة، حاولت جاهدة التركيز على جمال منظر البحر، ولكن ازدواجية المشاعر التي اختبرتها خلال رحلتي الأخيرة على متن نيبتون عادت لتظهر من جديد. ووجدت نفسي أفكّر في التشابه القائم بين پاپا سولت والشخص الذي أحبّه؛ فكلاهما يجد متعة كبيرة في الغموض، ويحب أن يكون مسيطرًا.

بينما كنت أتساءل إنْ كنت قد وقعت في حبّ شخصيّة الأب، شعرت بسرعة المركب تتضاءل وسمعت صوت إسقاط المرساة. وعندما ظهر ثيو على سطح المركب بقربي، قررت ألّا أشاركه الأفكار التي كانت تجول في رأسي، إذ كنت واثقة من أنه لن يدعني في حالي كونه مولعًا بالتحليل.

اشتريت من كشك مجاور للميناء طبقًا من سلطة الفيتا مع الزيتون الطازج، ووجدت الوقت مناسبًا، أثناء تناولنا الطعام واحتساء الجعّة، لأصف لثيو بشكل دقيق الاسطرلاب الكرويّ والاقتباسات المحفورة عليه، وأحدّثه عن محتوى الرسالة التي تركها لي پاپا سولت.

- يبدو لي أنه كان مستعدًا لهذا النهار خير استعداد. لا بدّ من أن الأمر تطلّب بعض التخطيط.

- أجل، كان أبي من هذا النوع من الأشخاص. إذ كان يحرص على أن يكون كلّ شيء منظّمًا خير تنظيم.

جاء ردّ ثيو ليعكس الأفكار التي راودتني منذ قليل:

- إنه يشبهني إلى حدٍّ بعيد. فأنا كتبت وصيتي وأصدرت التوجيهات اللازمة بشأن إجراءات مأتمي.

قلت له وقد اقشعرّ بدني من كلامه:

- لا تقلْ ذلك.

- آسف يا آلي، ولكن البحّارة يمارسون لعبة خطيرة جدًّا ولا أحد يعلم ما يمكن أن يحدث.

- في مطلق الأحوال، أنا واثقة من أن بابا كان سيحبّك كثيرًا.

ونظرت إلى ساعتي في محاولة مني لتغيير مسار الحديث:

- ألا يُفترض بنا أن ننطلق إلى المكان المتوجّهين إليه؟

- أجل، بعد قليل. أفضّل أن يكون توقيت وصولنا مثاليًّا.

وابتسم ابتسامة سريعة مضيفًا:

- هل ترغبين في السباحة؟

بعد مرور ثلاث ساعات، رأيت ألوان أشعة الشمس وهي تسدل ستارها فوق سماء جزيرة صغيرة فتضفي عليها توهجًا مائلًا إلى البرتقاليّ الداكن، ينعكس على المنازل المطليّة بالأبيض والموزّعة على طول الساحل، فأدركت سبب تريّثه في الوصول.

أخذ ثيو نفسًا عميقًا، بينما كانت يده تستريح على العجلة وهو يقود المركب باتجاه الميناء، ويده الأخرى تحيط بخصري. قال:

- أرأيت؟ أليس المشهد رائعًا؟

وافقته الرأي وأنا أتأمّل أشعّة شمس المغيب وهي تتغلغل بين السحب، مثل بيضة تنثر صفارها بعد انكسارها.

- كان بابا يقول دائمًا إن غروب الشمس في اليونان هو الأجمل على الإطلاق.

ردّ ثيو وهو يطبع قبلة على عنقي برقّة:

- أتّفق معه في هذا الشأن أيضًا.

قرّرت في تلك اللحظة، بالنظر إلى الأفكار التي راودتني من قبل، أن أبعد عن ذهني بشكل نهائي ما كان بابا يحبّه ولا يحبّه طوال مدّة إجازتنا.

سألته ونحن ندخل الميناء وفتى داكن البشرة يهرع لالتقاط الحبل الذي رميته له لتأمين المركب على الرصيف:

- هلّا قلت لي الآن أين نحن؟

- ما أهمية ذلك؟ ستعلمين في حينه. بإمكانك في الوقت الحالي الاكتفاء بالقول إنكِ «في مكانٍ ما».

وفي حين كنت أتوقّع أن نحمل حقائبنا ونصعد بها التلال الشديدة الانحدار، تفاجأت عندما طلب ثيو مني أن أتركها حيث هي. وبعد أن أقفلنا المقصورة بإحكام، ترجّلنا من القارب ودفع ثيو للفتى بعض الدراهم مقابل الجهد الذي بذله، ومن ثمّ أمسكني بيدي وقادني على طول واجهة الميناء الأمامية وصولًا إلى صفّ من الدراجات البخاريّة. بحث في جيبه عن مفتاح، ومن ثمّ راح يعبث بقفل إلى أن تمكّن من تحرير كتلة السلاسل المعدنيّة الثقيلة الملفوفة حول إحدى الدراجات.

- الشعب اليونانيّ محبوب جدًّا، ولكن الوضع الاقتصاديّ رديء حاليًّا، ومن الأفضل اتخاذ بعض التدابير الوقائيّة. فأنا لا أرغب في أن أكتشف لدى وصولي إلى هنا أن الإطارات مفقودة. هيا اركبي.

ركبت الدراجة بتردّد وقد شعرت بقلبي يخفق بشدّة.

كنت أكره الدراجات البخاريّة. أذكر أنّني في السنة التي انقطعت فيها عن الدراسة، امتثلت لما اقترحه عليّ پاپا سولت وسافرت في رحلة حول العالم مع

صديقتيّ ماريال وهيلين. فبدأنا رحلتنا في الشرق الأقصى وزرنا تايلند، وكامبوديا وفيتنام. وفي طريق عودتنا إلى أوروبا حيث وجدت لنفسي عملًا صيفيًّا على جزيرة كيثنوس بصفة نادلة، سافرنا عبر تركيا على دراجات بخاريّة مستأجرة. وفي طريقنا من مطار بودروم إلى كالكان، لم تتمكّن ماريال من تقييم مدى خطورة منعطف حاد التقوّس فتحطّمت درّاجتها.

ولن أنسى ما حييت صورة جسدها المرمي عند جانب التل بين الجنبات، وقد بدا جامدًا من دون حياة، ووقوفنا في منتصف الطريق في انتظار مرور سيارة لمساعدتنا.

غير أن الطريق كان شبه مهجور، وكان عليّ في نهاية المطاف أن أبحث عن هاتفي المحمول وأتّصل بالشخص الوحيد الذي خطر على ذهني والقادر على أن يقول لي ما عليّ فعله. شرحت لـ پاپا سولت ما حصل، فطلب مني ألّا أقلق لأن المساعدة في طريقها إلينا. وبعد مرور نصف ساعة من المعاناة، حطّت طائرة مروحية وعلى متنها القبطان وفريق الإسعاف الطبي. نُقلنا نحن الثلاث إلى مستشفى في دالامان، حيث خضعت ماريال للعلاج جراء تهشّم حوضها وتكسّر ثلاثة من أضلعها، ولكن الصدمة التي تلقتها على رأسها ما زالت تسبب لها نوباتٍ شديدةً من الصداع.

شعرت بشيء من الغثيان نتيجة الخوف الذي سيطر عليّ وأنا أجلس في المقعد الخلفيّ من الدراجة البخاريّة في ذلك المساء، مع أنني لم أقترب من أي منها منذ الحادث الذي تعرّضت ماريال له.

سألني:

- هل أنت مستعدّة؟

تمتمت مجيبةً، بينما كنت أحيط خصره بذراعيّ بإحكام:

- كما لم أكنْ في أي وقت مضى.

لدى انطلاقنا عبر الممرات الضيّقة في ذلك «المكان ما»، تمنّيت في سرّي ألّا يكون ثيو من أولئك السائقين المتهوّرين ويحاول أن يبهرني بأسلوبه في القيادة،

لأنني سأطلب منه في هذه الحالة التوقّف لأنزل عن الدراجة. ومع أنه أثبت لي أنه ليس من ذلك النوع، أغمضت عينيّ لدى مغادرتنا الميناء وانطلاقنا في اتجاه طريق شديد الانحدار ويعلوه الغبار. وبعد أن قطعنا صعودًا مسافة طويلة، بدت لي وكأنّها دهر، مع أنّها استغرقت أقل من خمس عشرة دقيقة، شعرت به يضغط على الفرامل بينما مالت الدراجة إلى جانب واحد وهو يضع قدمه على اليابسة ويُطفئ المحرك.

- لقد وصلنا.

- جيد.

وفتحت عينيّ متنفسةً الصعداء وركّزت اهتمامي على الترجّل عن الدراجة.

- أليس المنظر جميلًا؟

وتابع ثيو كلامه مثنيًا على المكان:

- أقصد القول إن المناظر التي رأيناها أثناء صعودنا إلى هنا كانت رائعة، ولكنّني أظنّ أن هذا المنظر هو الأفضل على الإطلاق.

لم يكن لديّ أدنى فكرة عن المناظر التي يتحدّث عنها لأنّني لم أتمكّن من فتح عينيّ طوال الطريق صعودًا إلى هنا. أمسك بيدي وقادني عبر العشب الجاف والقاسي. رأيت مجموعة من أشجار الزيتون المعمّرة المنتشرة في الأراضي المنحدرة بشكل حاد تحتنا وصولًا إلى البحر. فأومأت برأسي بالموافقة.

سألته بينما كان يقودني عبر بستان الزيتون:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

لم أرَ أمامي أثرًا لأي مسكن سوى حظيرة قديمة لا تصلح سوى لإيواء الأغنام.

أشار بإصبعه إلى الحظيرة وقال وهو يلتفت نحوي:

- ها هو، منزلي الحلو الدافئ. أليس مذهلًا؟

- إنه.... أنا..

- تبدين شاحبة جدًّا يا آلي. هل أنت بخير؟

- أجل.

وصلنا في نهاية المطاف إلى الحظيرة وأنا أتساءل في سري من منّا قد فقد

صوابه. إذا كان صحيحًا أن هذا المكان هو «منزله»، فلن أتوانى عن العودة أدراجي في الظلمة سيرًا على الأقدام، لأنني لن أمضي ليلة واحدة في هذا المكان مهما يكلّفني الأمر.

- أعلم بأن المكان يبدو حاليًا أشبه بكوخ، ولكنني اشتريته مؤخرًا وأردت أن تكوني أول من يراه، خاصّة عند غروب الشمس.

تابع كلامه بينما كان يفتح الباب الخشبيّ المتشقّق ويرافقني إلى الداخل:

- أعلم أنه بحاجة إلى الترميم، وأنظمة التخطيط والبناء في هذا المكان متشدّدة إلى حدٍّ ما.

رأيت عبر السقف، في وقت الغسق، النجوم التي بدأت تظهر من خلال الفجوة الهائلة التي تعلو رأسي. كانت رائحة الأغنام القوية تعبق في المكان، ما جعلني أشعر بالغثيان من جديد.

سألني:

- ما رأيك في المكان؟

- أظنّ أنه يتمتّع، تمامًا كما قلت، بمنظر جميل.

كنت أصغي لثيو وهو يشرح لي عن المهندس المعماري الذي استخدمه، والمطبخ الفسيح الذي ينوي بناءه هنا، وغرفة الجلوس الضخمة هناك والشرفة المطلّة على البحر. أومأت برأسي عاجزة وهرعت إلى الخارج، فلم أعد قادرة على تحمّل رائحة الأغنام لوقت أطول. مشيت بسرعة عبر الأرض الصلبة الجافة، وتمكّنت من الالتفاف نحو زاوية الحظيرة قبل أن أميل نحو الأمام وأفرغ كلّ ما في معدتي.

- ما الأمر يا آلي؟ هل تقيّأت من جديد؟

وجدت ثيو بقربي ويداه تساندني بينما كنت أهز رأسي بحزن.

- لا، إنني بخير.. ولكن... ولكن...

جلست على العشب وانفجرت بالبكاء كطفلة صغيرة. أخبرته عن حادثة الدراجة البخاريّة وعن مدى اشتياقي لأبي وأسفي لأنني لم أتمكّن من كبح انفعالاتي حتى لا يراني في هذا الحالة المزرية مرّة أخرى.

- يجب عليّ أنا أن أطلب منك السماح، فالذنب ذنبي. لا شكّ في أنك مرهقة بعد السباق والصدمة التي عشتها نتيجة وفاة والدك بشكل فجائيّ. وأؤكد لك أنك أبليت حسنًا في تأدية دور الفتاة القوية، ومع أنني أفتخر بقدرتي على قراءة عقول الآخرين، فشلت في قراءة ما يدور في رأسك. سأتصل بصديق لي وأطلب منه الحضور إلى هنا بسيارته ليقلّنا على الفور.

راقبت ثيو وهو ينهض من مكانه ويجري اتصالًا من هاتفه الخلويّ، وقد بلغ مني الإرهاق مبلغًا بحيث لم أتمكّن من مناقشته. كانت الشمس في تلك اللحظة تغرق في البحر تحتنا، وتبيّن لي بعد أن استعدت هدوئي، أن ثيو كان محقًّا. فالمنظر خلّاب فعلًا.

لم تكد تمر عشر دقائق، حتى وجدت نفسي جالسة بوقار في سيارة فخمة، من نوع ڤولڤو، يقودها رجل مسنّ قال لي ثيو إنه يُدعى كريون، بينما كان ثيو يلحق بنا على متن الدراجة البخاريّة. مع بلوغنا منتصف الطريق، انعطفت السيارة يمينًا وسارت على طريق وعر مغطّى بالغبار، يقود إلى مكان مجهول. ولكن مع بلوغنا نهاية المسار، رأيت الأنوار الساطعة لمنزل جميل قائم على حافة منحدر ترحب بنا.

- تصرفي وكأنك في منزلك يا حبيبتي.

حين دخلنا الرواق الفسيح، ظهرت امرأة في منتصف العمر، عيناها سوداوان، فغمرته بحنان وهي تتمتم بعبارات التحبّب باللغة اليونانية. علّق ثيو قائلًا:

- إنها إيرين، مدبّرة المنزل. سترشدك إلى غرفتك وتجهز لك الحمام. وسأتوجّه في هذه الأثناء إلى الميناء مع كيرون لأحضر أغراضنا من القارب.

تبيّن لي أنّ الحمام قائم على شرفة محفورة، كباقي أجزاء المنزل، في الصخور المسنّنة الممتدّة بشكل شديد الانحدار إلى أسفل الجرف الصخريّ وصولًا إلى البحر الكثير الزبد. بعد الاستمتاع بمياه الحوض المعطّرة الشديدة الرغوة، خرجت من الحوض ودخلت إلى غرفة نوم جميلة جيّدة التهوية. ومن ثمّ ذهبت لاكتشاف المكان ووجدت نفسي في غرفة جلوس مؤثّثة بشكل أنيق تقود إلى شرفة رئيسيّة كبيرة جدًّا تطلّ على منظر رائع وحوض سباحة ممتدّ إلى ما لانهاية بحيث لا يمكن

لأي منافس في الألعاب الأولمبية التغاضي عنه. واستنتجت في نهاية الأمر بأن هذا المنزل كان يشبه أتلانتيس إلى حد بعيد، باستثناء أنه معلّق في الهواء.

ارتديت رداءً قطنيًّا ناعمًا وجدته على السرير، وخرجت إلى الشرفة حيث جلست مسترخية على أحد المقاعد المريحة. أطلّت بعد قليل إيرين تحمل زجاجة من النبيذ الأبيض موضوعة في إناء مبرّد وكأسين.

- شكرًا لكِ.

ارتشفت شرابي وأنا أحدّق إلى ظلمة السماء المرصّعة بالنجوم، وشكرت اللّه على وجودي في هذا المكان المترف خاصّة بعد الإبحار لأيّام عدّة. وأدركت في تلك اللحظة أنه لو اصطحبت ثيو في زيارة إلى أتلانتيس، سيشعر وكأنه في منزله. ففي الماضي، كنت أصطحب كثيرًا من أصدقائي في المدرسة الداخلية لإمضاء العطلة في منزلي أو للإبحار على متن تيتان، وكنت أتفاجأ حين أرى قناع الشخصية الاجتماعية يسقط أمام انبهارهم الشديد بنمط حياتنا. وعندما كنت ألتقي بهم من جديد، كنت أشعر بشيء من الحقد ينبعث منهم، بحيث لا ترجع صداقتنا بعدها إلى ما كانت عليه.

لحسن الحظ أنّني لن أواجه مشكلات مماثلة مع ثيو، لأنّ نمط حياة أسرته شبيه إلى حد بعيد بنمط حياة أسرتي. ضحكت في سرّي لمجرّد التفكير في أن كلًّا منّا قد صرف الجزء الأكبر من حياته ممدّدًا على أسرّة صلبة في مقصورات تفتقر إلى التهوية، شاكرين اللّه إذا حالفنا الحظ ووجدنا قطرة ماء، ساخنة أم باردة، في حجرة الاستحمام الضيقة.

شعرت بيده على كتفي ومن ثمّ طبع قبلة على خدّي.

- مرحبًا يا حبيبتي. هل تحسّنت؟

- أجل، تحسّنت كثيرًا، شكرًا على سؤالك. لا شيء يضاهي حمامًا ساخنًا بعد أيامٍ عدة من السباق.

- معك حق.

وسكب ثيو لنفسه كأسًا من النبيذ من الزجاجة وجلس قبالتي.

- سأدخل للاستحمام بدوري. وأرجو منك يا آلي أن تسامحيني. أعلم بأنني أركّز

على هدف منفرد عندما أكون في مَهمّة، ولكنني كنت أتحرّق شوقًا لأريك منزلي الجديد.

- لا عليك. أنا واثقة من أنّه سيكون جميلًا جدًّا عند انتهاء أعمال ترميمه.

- من المؤكد أنه لن يضاهي هذا المنزل من حيث الجمال، ولكنه سيكون لي على الأقل.

وتابع وهو يهزّ كتفيه بلامبالاة:

- وهذا كلّ ما يهمّ في بعض الأحيان، أليس كذلك؟

- لم يخطر يومًا على بالي أن أمتلك منزلًا خاصًّا بي. فعدد السباقات التي أشارك فيها كثير جدًّا، ما يعني أنه لا جدوى من امتلاك منزل خاص لاسيما وأنّ بإمكاني العودة بكلّ بساطة إلى أتلانتيس. والبحّارة أمثالنا لا يجنون ما يكفي من المال لشراء كلّ ما يرغبون فيه.

- ولهذا السبب بالذات اشتريت حظيرة الأغنام. وفي المقابل، لا أرى أي جدوى من نكران حقيقة أن كلًّا منّا تعوّد الاعتماد على شبكة أمان تنتشله في كل مرة يقع فيها. من جهتي، أفضل أن أتضوّر جوعًا على الذهاب متذلّلًا لطلب المساعدة من أبي. ألا تجدين أن للامتيازات ثمنًا باهظًا؟

- ربما، ولكنني لا أظنّ أنّ أحدًا قد يشعر بالأسف على أيٍّ منّا.

- لست أقصد بكلامي بأننا نستحق العطف يا آلي، ولكن على الرغم من أن هذا العالم الماديّ يعتقد العكس، لا أظنّ أنّ المال قادر على حلّ كلّ المشكلات. فوالدي مثلًا، اخترع شريحة خاصة بأجهزة الحاسوب جعلت منه شخصًا فائق الثراء في سنّ الخامسة والثلاثين، أي في مثل سنّي حاليًا. وكان يحب كثيرًا، في طفولتي، أن يحدّثني عن نضاله في سنّ الشباب مؤكّدًا لي أنّني محظوظ جدًّا. فتجربته في الحياة لم تكن مثل تجربتي، لأنني وُلِدت في حضن أسرة تملك المال. ما يعني أن الأمر أشبه بدائرة مكتملة: لم يكن والدي يملك شيئًا سوى الإلهام الذي حثّه على تحسين جودة حياته، في حين أنني أملك ظاهريًّا كل شيء، ومع ذلك لم يكن يفوّت فرصة واحدة إلا ويعزّز في داخلي الشعور بالذنب على ما أمتلكه. لذا، أمضيت

حياتي ساعيًا لتدبير أموري من دون مساعدته، وأنا أشعر بالإحباط لأنني لم أكن على مستوى توقّعاته. هل كان الأمر مشابهًا بالنسبة إليك؟

- كلا، مع أننا أدركنا منذ نعومة أظفارنا قيمة النقود. كان پاپا سولت يردّد دائمًا بأننا وُلِدنا لنكوّن شخصية خاصّة بنا، بحيث لا نستطيع السعي سوى لتحقيق أفضل ما بوسعنا. لطالما كنت واثقة من أنّه يفتخر بي، خاصة في ما يتعلق بالإبحار. وأعتقد بأن مردّ ذلك إلى أننا نتشارك هذا الشغف. ولكن الغريب في الأمر هو أنّه ذكر أمرًا غريبًا في الرسالة التي تركها لي. إذ اعتبر بأنني لم أواصل دراستي الموسيقية لأنني أردت أن أرضيه وأصبح بحّارة محترفة.

- وهل هذا صحيح؟

- ليس تمامًا. فقد أحببت الإبحار والموسيقا معًا، ولكن فرص الاحتراف في مجال الإبحار كانت أوفر ولم أجد بدًّا من استغلالها. أظنّ أن الحياة هي هكذا، أليس كذلك؟

وافقني ثيو الرأي واستطرد قائلًا:

- والمثير للاهتمام هو أنني مزيج كامل من أبي وأمي. فقد أخذت عن أبي ميله للتكنولوجيا وعن أمي حبها للإبحار.

- إنني متبنّاة ولا أملك أدنى فكرة عما تخفيه جيناتي. كانت تربيتي ترتكز على التنشئة وليس على الطبيعة.

- أليس من المذهل أن تكتشفي الآن إن كانت جيناتك قد أدت أي دور في حياتك؟ أظنّ أنّ عليك أن تستخدمي في أحد الأيام المعلومات التي تركها لك والدك لتتمكّني من معرفة جذورك. لا ريب أنها ستكون دراسة أنثروبولوجيّة مميّزة.

أجبته وأنا أتثاءب:

- أنا واثقة من ذلك. ولكنّني مرهقة جدًّا ولا أريد التفكير في الموضوع. تفوح منك رائحة الأغنام، وأظنّ أنّ الوقت قد حان لتستحم.

- معك حق. وفي طريقي إلى الحمام، سأطلب من إيرين أن تجهز العشاء على المائدة وأعود في غضون عشر دقائق.

وطبع قبلة سريعة على أنفي وغادر الشرفة.

8

بعد أن هدأ اندفاع الشغف الذي ميّز بداية علاقتنا، وخلال أيام التكاسل القليلة في «مكانٍ ما»، أخذنا أنا وثيو وقتنا لكي نتعرّف أحدنا إلى الآخر بشكلٍ صحيح. ووجدت نفسي أبوح له بأمور لم أخبر بها أيّ كائن آخر. وهي تفاصيل صغيرة وغير مُهمّة لأيّ شخص آخر لكنها تعني لي أشياء كثيرة. لم يتشتّت انتباهه ولو للحظة وهو يستمع إليّ، بينما كانت عيناه الخضراوان ثابتتين عليّ بتلك النظرة العميقة التي تميّزه. تمكّن بطريقة ما من أن يجعلني أشعر بأنّني محبوبة بقدر لم أشعر به من قبل. وأبدى اهتمامًا خاصًا ببابا سولت وبشقيقاتي وبـ«الميتم الفخم» كما يحلو له أن يسمي منزلنا في أتلانتيس.

في صباح أحد الأيام الخانقة التي كان فيها الهواء ساكنًا جدًّا بحيث لاحظنا أنا وثيو أنّ عاصفة رعديّة توشك أن تهبّ، انضم إليّ على الأريكة الموضوعة في الظلّ على الشرفة.

سألته بينما كان يجلس:

- أين كنت؟

- كنت، للأسف، في مكالمة جماعية مملّة جدًّا مع راعي فاستنت، ومدير الفريق ومالك تايغرس. وبينما كانوا يناقشون الدلالات اللفظيّة، كنت أنا أخربش وأرسم.

- حقًّا؟

- نعم. هل جرّبت مرةً أن تلعبي لعبة ترتيب الحروف في اسمك أو أن تكتبيه بشكل عكسيّ عندما كنت صغيرة؟ أنا فعلت هذا، وجاءت النتيجة سخيفة ومضحكة.

وأردف قائلًا بابتسامة: «ويث؟»

- بالطبع فعلت ذلك وكانت النتيجة مضحكة أيضًا. اسمي أصبح «يلا».

- هل خطر لك يومًا أن تلعبي لعبة ترتيب الحروف باسم شهرتك؟

أجبت وأنا أتساءل إلى أين سيقود هذا الحديث: «لا».

- حسنًا. أنا أحبّ أن أتلاعب بالكلمات. حين كنت أعاني من الملل منذ قليل، خلال الاتصال الجماعي، رحت أعبث باسمك.

- وماذا أيضًا؟

أوضح ثيو كلامه:

- أنا أحبّ التحليل والغموض والأسرار، لكنّني أعرف أيضًا القليل عن الأساطير الإغريقية، لأنني درست الأدب الكلاسيكي في أوكسفورد، وعشت هناك كل فترات الصيف مذ كنت طفلًا».

وتابع يسألني:

- هل أستطيع أن أريكِ ما توصّلت إليه؟

قلت وهو يناولني قصاصة ورق خُربشت عليها بضع كلمات:

- إن كنت تصرّ على ذلك.

- هل ترين ما هي تهجئة داپليز؟

- بلاياديس.

قرأت الكلمة التي كتبها ثيو تحت شهرتي والتي يبدو أنّه استخرجها من «داپليز».

- نعم. وهل تعني لك هذه الكلمة شيئًا؟

- أجبته على مضض:

- تبدو لي مألوفة بالتأكيد.

- آلي، إنه الاسم اليوناني للعنقود النجمي أو الثريّا التي تحتوي الشقيقات السبع.

التفتّ إليه واتّخذت موقفًا دفاعيًا غير منطقي وسألت:

- وإن يكنْ؟ ما الذي تقوله؟

- إنها لمصادفة غريبة جدًّا أن تحملي أنت وأخواتك أسماء سبع أو ربما عليّ أن أقول ست...

وتفحّص ثيو نفسه قبل أن يتابع كلامه:

- نجمات شهيرات وأن تكون شهرتكن «بلاياديس» لكن بترتيب مختلف للحروف. هل كانت هذه شهرة والدكنّ أيضًا؟

شعرت بالاحمرار يغزو وجنتيّ والحرارة تحرقهما وأنا أبحث في ذاكرتي لأرى إن كنت قد سمعت أحدهم ينادي بابا يومًا «بالسيد داپلييز». تعوّد العاملون في منزلنا والبحارة على متن تيتان مناداته «سيدي» باستثناء مارينا التي كانت تشير إليه باسم «پاپا سولت» كما نناديه نحن الفتيات، أو بـ«والدكنّ». حاولت أن أتذكّر إن رأيت اسم شهرة مكتوبًا على أيّ بريد وصله، لكن جلّ ما تذكرته هو مظاريف تبدو رسميّة وطرود وأغراض تُسلَّم باسم شركة من شركات پاپا سولت.

أجبت في نهاية الأمر:

- على الأرجح.

لاحظ ثيو انزعاجي فقال:

- أنا آسف يا آلي. كنت أحاول أن أكتشف إن اخترع اسم شهرة لكنّ أنتنّ الفتيات أم أنّ هذه كانت شهرته هو أيضًا. في أيّ حال يا عزيزتي، يغيّر أشخاص كُثُر أسماءهم في الأوراق الرسميّة. وهذا أمر جميل في الواقع. أنت «ألسيوني بلاياديس». أما في ما يتّصل بلقب پاپا سولت، وأنا...

- يكفي يا ثيو.

- أنا آسف، لكن الأمر يسحرني. أنا مقتنع بأنّ أباك يخفي أكثر مما تراه العين.

عندئذ، اعتذرت منه وتوجّهت إلى الداخل، وأنا أشعر بالانزعاج، لأنّ ثيو وجد شيئًا حميمًا جدًّا بشأن عائلتي، حتى وإن كانت المسألة مجرّد أحرف تلاعب بها، وهو أمر لم نلاحظه أنا وشقيقاتي من قبل، ولم يُناقش يومًا بشكل صريح حتى وإن لاحظنَ ذلك.

عندما عدت إلى الشرفة، حذا ثيو حذوي ولم يشر إلى الموضوع مجددًا. وأثناء تناول الغداء، أخبرني مزيدًا عن والديه وعن طلاقهما العنيف. كان يتنقّل باستمرار بين والدته في إنكلترا ووالده في الولايات المتحدة لتمضية الإجازات. وروى ثيو كعادته القصّة كلها تقريبًا مستخدمًا ضمير الغائب، وكأن الأمر لا يعنيه هو إذا ما أردنا تحليل سلوكه، لكنني استطعت أن أشعر بتوتّره الكامن وبغضبه اللاوعي والمكبوت. بدا لي وكأن ثيو لم يمنح والده أيّ فرصة بدافع الوفاء لوالدته. في أيّ حال، لم أشعر بما يكفي من الثقة لأخبره رأيي، لكنّني أحسست أنّني سأفعل في الوقت المناسب.

عندما استلقيت في السرير تلك الليلة، لم أستطع أن أنام وبقيت أشعر بالاضطراب بسبب ما كُشف عن اسم شهرتي. إن كان اسم شهرتنا اسمًا اخترعه بابا بسبب هوسه بالنجوم وأسطورة الشقيقات السبع، فمن نحن إذًا؟

ولعل السؤال الأهم: من كان هو؟

أما الحقيقة المروّعة فهي إدراكي الآن أنني لن أتمكّن أبدًا من أن أعرف.



في اليوم التالي، استعرت جهاز الكمبيوتر من ثيو وبحثت عن الشقيقات السبع في الثريّا. أخبرنا بابا عن النجوم، لاسيما مايا التي أمضت الكثير من الوقت معه في مرصده المقبّب الموجود فوق أتلانتيس، لكنّني لم أهتم يومًا بالموضوع. وأيّ معلومة زوّدني بها بابا كانت تقنيّة بينما كنا نبحر معًا. لقد بذل قصارى جهده لكي يعلّمني كيف استخدم النجوم لأبحر وأخبرني أنّ البحارة تعوّدوا الاستعانة بالثريّا لإرشادهم، منذ آلاف السنين. في النهاية، أطفأت الكمبيوتر وأنا أفكّر في الأسباب التي دفعت بابا لإطلاق هذه الأسماء علينا مهما تكنْ، وأنّ هذه الأسباب ستبقى لغزًا آخر لن نتمكّن أبدًا من حلّه. وأدركت أنّ البحث أكثر في الموضوع سيزيد من اضطرابي فحسب.

أخبرت ثيو بكل هذا حين كنّا نتناول الغداء فوافقني الرأي.

- أنا أعتذر يا آلي، حقًّا. ما كان عليّ أن آتي على ذكر الموضوع. الحاضر والمستقبل

هما كل ما يهمّ. وأيًا كان والدك، فكل ما يهمّني هو أنّه فعل الصواب حين انتشلك وأنت طفلة. وعلى الرغم من أنني اكتشفت مزيدًا أتلهّف لإطلاعك عليه...

وراح يراقبني مخمّنًا، فصحت به: «ثيو!»

وافقني قائلًا: «حسنًا، حسنًا، أدرك أنّ التوقيت غير مناسب الآن».

لا، لم يكن التوقيت مناسبًا، علمًا بأنّني في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم - ولربما كما كانت نيّة ثيو - أخرجت رسالة بابا من دفتر يومياتي حيث كنت أخبئها وأعدت قراءتها. ربما قد أذهب ذات يوم وأتبع الأثر الذي تركه لي. أو على الأقل سأجد الكتاب الذي ذكره، ذاك الكتاب القابع على رفّ في مكتبه في أتلانتيس...



عندما اقترب موعد انتهاء وقتنا معًا، شعرت كما لو أنّ ثيو أصبح جزءًا مني. وعندما كرّرت هذه الجملة لنفسي، بالكاد استطعت أن أصدّق أنني أنا من قال هذا الكلام. على الرغم من أنّ هذا المفهوم كان رومنسيًا، لكنني شعرت فعلًا أنّه توأم روحي. شعرت معه بالاكتمال.

لم أدرك كم يبدو هذا الوضع الجديد مخيفًا إلا حين ناقش بطريقته الهادئة آليات مغادرة «مكانٍ ما»، الذي أعلم الآن أنه جزيرة آنافي، والعودة إلى عالم الواقع.

- عليّ أولًا أن أذهب لزيارة أمّي في لندن. بعدئذ، سأحضر تايغرس من ساوثهامبتون وأبحر به إلى جزيرة وايت. سيمكّنني هذا على الأقل من أن أكوّن فكرة عنه واختبره. ماذا عنكِ يا عزيزتي؟

- عليّ أن أعود إلى المنزل لبعض الوقت أيضًا. ماما تقول دائمًا عبر الهاتف إنها بخير، لكن في غياب مايا أو بابا، أشعر أنّ عليّ أن أكون معها.

- حسنًا، لقد بحثت عن الرحلات. لمَ لا نبحر معًا إلى أثينا على متن نيبتون في نهاية الأسبوع، وتستقلين بعدها رحلة إلى جنيف؟ بحثت عبر الإنترنت ووجدت مقعدًا شاغرًا في الرحلة التي تغادر ظهرًا، وهي تغادر قرابة الوقت الذي تغادر فيه رحلتي إلى لندن.

كانت نبرتي فظّة وأنا أردّ على اقتراحه:

- عظيم. شكرًا.

شعرت فجأة بأني ضعيفة إلى حدّ مخيف، وخائفة من البقاء من دونه وممّا سيحمله المستقبل. أو حتى إن كان هناك مستقبل بعد «مكانٍ ما».

- ما الأمر يا آلي؟

- لا شيء. تعرّضت للشمس كثيرًا اليوم، وعليّ أن أخلد إلى النوم باكرًا.

وقفت وحاولت أن أغادر الشرفة، لكنه أمسك بيدي قبل أن أتمكّن من ذلك.

- لم ننهِ حديثنا بعد فأرجو منك أن تجلسي.

أجلسني مجددًا وبحزم على الكرسي قبل أن يطبع قبلة على شفتيّ ويتابع كلامه:

- من الواضح أنّ علينا أن نناقش خططنا لما هو أبعد من رحلتينا إلى الوطن. لنبدأ بالفاستنت على سبيل المثال. فكّرت فيه كثيرًا منذ أن وصلنا إلى هنا وأريد أن أقدّم اقتراحًا.

قلت وقد بدوت متناقضة حتى لنفسي: «تفضّل». فلم يكن هذا نوع الخطط التي أرغب في سماعها في الوقت الحالي.

- أريدك أن تأتي وتتدرّبي مع الطاقم. لكنْ إذا شعرت أنّ الظروف المناخيّة خطرة جدًّا إلى حدّ لا يسمح بوجودك على متن المركب لخوض السباق الحالي، أو إذا بدأتِ السباق لكني طلبت منك في مرحلة معيّنة أن تغادري إلى البر، فعليكِ أن تقسمي بأنك ستطيعين أوامري.

بذلت جهدًا كبيرًا لكي أومئ برأسي موافقة:

- حسنًا أيّها القبطان. كما تشاء.

- لا تسخري مني يا آلي فأنا جاد. قلت لك من قبل إني لا أستطيع أن أسامح نفسي إذا حدث لك أيّ مكروه.

- ألا يعود القرار لي؟

- لا. بصفتي قبطانك فضلًا عن أني حبيبك، فالقرار قراري.

- إذًا، لا يحق لي أنا أن أمنعك إذا رأيت أنّ الوضع خطير جدًا ولا يسمح بأن تبحر؟

- بالطبع لا!

وهزّ ثيو رأسه بإحباط قبل أن يردف:

- أنا من سيتخذ القرار، في السراء وفي الضراء.

- ماذا لو كان «في الضراء»، وأنا أعلم ذلك؟

- عندئذ، ستخبرينني وسأسمع تحذيرك. لكنْ أنا من سيتّخذ القرار في نهاية الأمر.

- حسنًا، ولمَ لا أستطيع أن أفعل أنا؟ هذا ليس عادلًا، أنا...

- آلي، هذا النقاش أصبح سخيفًا. نحن ندور في حلقة مفرغة، كما أني واثق من أنّه لن يحدث شيء من هذا. كل ما أحاول أن أقوله لك هو أنّ عليكِ أن تصغي إليّ، اتفقنا؟

وافقت بتجهّم:

- حسنًا.

كانت هذه هي المرة الأولى التي نكاد أن نتشاجر فيها نحن الاثنان، ولمّا كان الوقت قصيرًا في هذا المكان المثالي، كرهت أن أتسبّب في تدهور الأمور أكثر.

والأهم من هذا كله...

رأيت عينيْ ثيو تفيضان حنانًا وهو يمدّ يده نحوي ويداعب وجهي بأصابعه قبل أن يردف:

- دعينا لا ننسَ أنّ مستقبلًا بأكمله ينتظرنا بعد الفاستنت. في الواقع، كانت هذه أجمل أسابيع في حياتي، على الرغم من كل الصدمات. عزيزتي آلي، تعلمين أنّ الإسهاب الرومنسي ليس أسلوبي، لكن سيكون عظيمًا لو وجدنا طريقة تمكّننا من أن نبقى معًا على الدوام. ما رأيك؟

- لا مانع لديّ.

تمتمت بهذا، غير قادرة على أن أنتقل من حالة «منزعجة بشدّة» إلى حالة «دعنا نمضِ حياتنا معًا» في غضون ثوانٍ قليلة. كدت التفت إلى الأوراق التي يحملها ثيو لأرى إن كان قد وضع على جدول أعماله بند «مناقشة المستقبل مع آلي».

- مهما يبدُ كلامي قديم الطراز، أعلم أنني لن أجد امرأة مثلك أبدًا. ولمّا كنّا نحن الاثنان لسنا صغيرين في السن وقد عشنا تجارب كثيرة، أودّ أن أقول لك إني واثق. أنا مستعد لأن أذهب إلى القمر لكي أتزوّجك في الغد. ماذا عنكِ أنت؟

نظرت إليه، محاولة أن أستوعب ما يقوله من دون أن أفلح في ذلك. وسألته بحدّة:

- هل هذا عرض زواج على طريقة ثيو؟

- أفترض أنه كذلك، نعم. ما رأيك؟

- سمعت ما قلته.

- و...؟

- حسنًا، سأكون صريحة في كلامي يا ثيو، هذا المشهد يشبه مشهدًا من مسرحيّة روميو وجولييت.

- لا، ليس كذلك. أنا لست بارعًا في مسألة اللحظات المهمّة، كما رأيت. أريد أن أنتهي منها بسرعة لأتابع العيش، بحسب ما أفترض. وأنا أودّ فعلًا أن أعيش معك... وسرعان ما صحّح كلامه قائلًا:

- أعني أن أتزوّجك.

- لسنا مضطرين لأن نتزوّج.

- لا، لكنني أفترض أنّ تربيتي التقليديّة تتدخّل وتؤدّي دورها هنا. أريد أن أمضي ما تبقى من حياتي معك؛ وبالتالي، عليّ أن أعرض عليك الزواج بشكل رسميّ. أودّ أن تصبحي السيدة فاليز-كينغز وأن أصبح قادرًا على أن أقول «أنا وزوجتي» للناس.

عارضته قائلة:

- قد لا أرغب في حمل شهرتك. كثيرات هنّ النساء اللواتي لا يحملنَ شهرة أزواجهن في هذه الأيام.

وافقني الرأي بهدوء:

- صحيح، صحيح. لكن المسألة أفضل بكثير، ألا تعتقدين؟ أن نتشارك الاسم نفسه؟ من أجل الحسابات المصرفية. كما أنّ هذا يوفّر شرحًا كثيرًا أثناء المخابرات الهاتفية مع الكهربائي والسبّاك و...

- ثيو؟

- نعم؟

- هلّا صمتّ باللّه عليك! مهما تكن عمليًا إلى حدٍّ يثير الإحباط أحيانًا، وقبل أن تبدأ التحليلات لتستخلص مني جوابًا إيجابيًا، أودّ أن أتزوّجك في الغد أيضًا.

- هل ستفعلين حقًّا؟

- نعم، بالطبع سأفعل.

عندئذ لاحظت ما بدا لي وكأنها دموع تتجمّع في عينيه. وأدرك ذاك الجزء مني، الذي يشبهه إلى حدّ بعيد، أنّه حتى الأشخاص الأكثر ثقة بأنفسهم ظاهريًا، يصبحون ضعفاء وسريعي العطب عندما يعرفون أنّ الشخص الذي يحبّونه يبادلهم هذا الشعور، وأنه يريدهم ويحتاج إليهم بالقدر نفسه. دنوت منه وأخذته بين ذراعيّ.

ابتسم، وهو يمسح عينيه خلسةً قبل أن يقول:

- حسنًا، أليس هذا رائعًا؟

- نعم، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنّ عرض الزواج كان في مُنتهى الهراء.

- جيد. حسنًا... على الرغم من أنّ ما سأقوله سيبدو على الأرجح قديم الطراز، ويمكنك أن تلقي باللوم على تربيتي، لكنّني أودّ أن نخرج للتسوّق غدًا، فنختار ما يثبت حقيقة أنك زوجتي الموعودة.

عمدت إلى إغاظته فقلت:

- تقصد أننا أصبحنا مخطوبين؟ يسرّني هذا حتى لو بدوت وكأنك خرجت لتوّك من إحدى قصص أوستن.

- شكرًا لك.

ورفع نظره نحو النجوم ثم هزّ رأسه والتفت إليّ مضيفًا:

- أليست هذه معجزة؟

- أيّ جزء منها؟

- كل ما حصل. أعني أنّني أمضيت خمسًا وثلاثين سنة وأنا أشعر أني وحيد على هذا الكوكب، ثم وصلتِ أنتِ من حيث لا أدري. وفجأة، فهمته.

- ما الذي فهمته؟

هزّ رأسه ثمّ هزّ كتفيه بشكل بسيط وردّ:

- الحب.



اصطحبني ثيو في صباح اليوم التالي إلى كورا، عاصمة الجزيرة، وهي في الواقع قرية ناعسة ذات بيوت بيض تتربّع على تلة تشرف على الشاطئ الجنوبي للجزيرة. تجوّلنا في الشوارع الضيّقة العتيقة حيث وجدنا بضع متاجر صغيرة تبيع المصاغ المصنوع يدويًّا إلى جانب خليط من المتاجر التي تبيع المأكولات والمواد الغذائية والأدوات المنزلية، فضلًا عن سوق شعبية صغيرة نُصبت فيها بعض الأكشاك التي تبيع الحلي الرخيصة. لم أكن يومًا شغوفة بالحلي والمجوهرات، وبعد نصف ساعة أمضيناها في تجربة الخواتم المختلفة، لاحظت أنّ ثيو بدأ يشعر بالإحباط.

حثّني بينما نحن نتوقّف أمام آخر كشك في السوق:

- لا بدّ من أنّ هناك شيئًا ما ترغبين فيه؟

في الواقع، كانت عيناي قد استقرّتا على شيء ما.

- هل تمانع إنْ لم أخترْ خاتمًا؟

- في اللحظة الراهنة، لا آبه إن كان خيارك قد وقع على حلقة تُعلّق بحلمة الصدر، طالما سأشتري لك شيئًا يُسعدك ونستطيع بعدها أن نتناول الغداء. أنا أتضوّر جوعًا.

- حسنًا إذًا، أريد الحصول على هذه.

وأشرت إلى قلادة «عين الحسد»: وهي قلادة يونانيّة تقليديّة على شكل عين زجاجية زرقاء تتدلّى من سلسلة رفيعة من الفضّة.

فكّ صاحب الكشك القلادة وحملها في كفّه الذي مدّه نحونا لكي نتمكّن من أن نلقي عليها نظرة عن كثب، مشيرًا إلى السعر المكتوب بخط اليد على ورقة صغيرة. نزع ثيو نظارته الشمسيّة وحمل القلادة بين إبهامه وسبابته ليتفحّصها.

- آلي، إنها جميلة لكن ثمنها بالكاد يبلغ خمسة عشر يورو.

- لقد أحببتها. يضع البحّارة عين الحسد لحماية أنفسهم من البحار الهائجة. واسمي في أيّ حال يعني راعية البحّارة وحاميتهم.

- أعلم هذا، لكنّني لست واثقًا تمامًا من أنّ عين الحسد هي الرمز المناسب للخطوبة.

- حسنًا، أنا أحببتها وقبل أن نفقد صوابنا ونتخلى عن البحث، هل يمكنني أن أحصل على هذه، أرجوك؟

طالما أنك تعدين بحمايتي.

قلت وأنا ألفّ ذراعيّ حول وسطه:

- سأفعل بالطبع.

- حسنًا. لكنّني أحذّرك من أني سأضطر على الأرجح، ومن أجل الشكليّات، أن أقدّمك في المستقبل مع شيء... لنقل تقليديًا أكثر.

وبعد دقائق قليلة، غادرنا السوق والتعويذة الصغيرة معلّقة في عنقي.

قال حين كنّا نشقّ طريقنا عبر الطرقات الهادئة والساكنة بحثًا عن كأس من البيرة وبعض الطعام للغداء:

بعد إعادة النظر، أعتقد أنّ وضع سلسلة حول عنقك مناسب أكثر من وضعها

حول إصبعك، علمًا أنّ علينا أن نشتري لك خاتمًا مناسبًا في نهاية الأمر. لكنني أخشى أني لا أستطيع أن أسارع إلى تيفاني أو كارتييه.

أغظته عندما كنا نجلس إلى طاولة في الظلّ خارج أحد المقاهي:

- والآن، من الذي يُظهر جذوره؟ ولعلمك فقط، أنا أكره الأصناف المشهورة والماركات العالميّة.

- أنت محقّة. سامحيني لأني أظهرت ماضيّ المتأصّل فيّ والمرتبط بالنادي الريفي في كونكتيكيت.

وأردف وهو يحمل لائحة الطعام البلاستيكية:

- في أيّ حال، ما الذي ترغبين فيه على الغداء؟



في اليوم التالي، وبعد أن انفصلنا أنا وثيو على مضض في مطار أثينا، جلست في الطائرة وأنا أشعر بالضياع من دونه. ورحت التفت لاإراديًا إلى المسافر المدهوش الذي يجلس إلى جانبي، لأخبر ثيو شيئًا خطر لي للتو، لأعود وأتذكّر أنه ليس هنا. واعترفت في سريّ أني أشعر بالحرمان من دونه.

لم أخبر ماما بعودتي إلى المنزل، ظنًّا مني أنّه سيكون من اللطيف أن أصل من دون سابق إنذار وأفاجئها. وبينما كانت الطائرة تنقلني إلى جنيف، استجمعت شجاعتي حتى أصل إلى أتلانتيس الذي فقد قلبه، وترجّحت مشاعري بين الفرح بما وجدت والرهبة ممّا فقدت وعدت إليه. وفي هذه المرة، لن تكون شقيقاتي موجودات ليملأنَ الفراغ والهوّة التي خلّفها بابا سولت وراءه.

عندما وصلت إلى أتلانتيس، ولأول مرة في حياتي، لم يحضر أحد للقائي عند المرسى، ما زاد من اكتئابي. لم أجد كلوديا في مركزها المعتاد في المطبخ أيضًا، لكني رأيت قالب حلوى إسفنجيًا بالبرتقال يرتاح على الطاولة، وقد بدا أنه خرج لتوّه من الفرن، وهو في الحقيقة النوع المفضّل لديّ. أخذت قطعة كبيرة منه وغادرت المطبخ ثم صعدت السلالم متوجّهة إلى غرفتي. رميت حقيبة الظهر التي

أحملها على الأرض وجلست على السرير، أراقب مشهد البحيرة الرائع من خلف الأشجار واستمع للصمت المثير للأعصاب.

وقفت مجدّدًا وتوجّهت إلى الرفوف لأرفع المركب الموضوع في زجاجة والذي أهداني إياه پاپا سولت بمناسبة عيد ميلادي السابع. حدّقت إلى الخشب والقماش المتشابكَيْن داخل الزجاجة، وابتسمت إذ تذكّرت كيف أزعجت بابا لكثرة ما طلبت منه أن يخبرني كيف أمكن للمركب أن يدخل من عنق الزجاجة الضيّق.

همس لي بسريّة:

- إنه السحر يا آلي، ويجب أن نؤمن كلنا بذلك.

استعدت دفتر يوميّاتي من حقيبتي وسحبت منه الرسالة التي كتبها لي في محاولة يائسة مني للشعور بأنه قريب منّي مجدّدًا. وبعد أن تحقّقت من التفاصيل، قرّرت أن أتوجّه إلى أسفل، إلى مكتبه تحديدًا، لأبحث عن الكتاب الذي اقترح عليّ أن أقرأه.

وقفت في باب مكتبه، تاركة رائحة الحمضيات والهواء المنعش والأمان تملأ أنفي.

- آلي! سامحيني لأني لم أكن موجودة عندما وصلت. لم أكن أعلم أنك قادمة، لكن يا لها من مفاجأة رائعة!

- ماما!

واستدرت لأعانقها قبل أن أضيف:

- كيف حالك؟ لديّ بضعة أيام من العطلة وأردت أن أتأكّد من أنّك بخير.

فردّت بشيء من العجلة:

- نعم، نعم... وكيف حالكِ أنتِ يا عزيزتي؟

شعرت بعينيها الثاقبتين والذكيّتين تقوّمانني، فأجبتها:

- أنت تعرفينني يا ماما، أنا لا أمرض أبدًا.

ردّت ماما بلطف:

- وكلتانا نعرف أنّني لم أكن أسأل عن صحتك يا آلي.

فقلت بنبرة عرجاء، وأنا لم أستعد بعد لأن أخبر ماما عن ثيو وعن السعادة المُحتمَلة التي عثرت عليها:

- كنت مشغولة، وهذا ما ساعدني على ما أظنّ. على فكرة، لقد فزنا في السباق.

وجودي هنا في أتلانتيس ورحيل بابا عنه جعلا الكلام في موضوع ثيو يبدو غير مناسب.

- مايا هنا أيضًا. ذهبت باكرًا إلى جنيف، بعد مغادرة... الصديق الذي أحضرته معها من البرازيل. ستعود في وقت قريب وستكون سعيدة برؤيتك، أنا واثقة من ذلك.

- وأنا سأسعد برؤيتها. أرسلت لي رسالة إلكترونية قبل بضعة أيام وقد بدت سعيدة جدًّا. لا أستطيع الانتظار لأسمع مزيدًا عن رحلتها.

- والآن، ما رأيك في كوب من الشاي؟ تعالي إلى المطبخ وبإمكانك أن تخبريني بكل التفاصيل عن السباق.

- حسنًا.

امتثلت لطلب ماما وتبعتها، تاركة مكتب بابا. لعلّه حضوري إلى المنزل فجأة ومن دون أن أتّصل مسبقًا، لكني شعرت بأنها متوتّرة، وأنها فقدت مؤقّتًا صفاءها وسكونها المعتادين. ثرثرنا بشأن مايا وسباق سيكلاديس وسمعنا بعد مرور عشرين دقيقة صوت الزورق السريع يقترب. خرجت لملاقاة مايا عند المرسى.

صحت وأنا أفتح ذراعيّ لها:

- مفاجأة!

بدت مايا مذهولة:

- آلي! ما الذي تفعلينه هنا؟

قلت بتكشيرةٍ ونحن نعود نحو المنزل يدًا باليد:

- قد يبدو كلامي غريبًا، لكن هذا المنزل هو منزلي أيضًا.

- أعلم هذا، لكني لم أكن أتوقّع حضورك.

قرّرنا أن نجلس على الشرفة ودخلت لأحضر ابريقًا من الليموناضة التي تعدّها كلوديا بنفسها. تأملت مايا بينما كنت أصغي لكلامها عن الرحلة التي قامت بها مؤخّرًا إلى البرازيل، وخطر لي أنها تبدو نابضة بالحياة كما لم أرها منذ سنوات. كانت بشرتها متوهّجة وعيناها لامعتين. بدا جليًّا أنّ اكتشاف ماضيها عبر الأدلّة التي تركها پاپا سولت بعد وفاته، ساعد في شفائها.

- آلي، هناك ما أريد أن أقوله لك. وربما كان عليّ أن أخبرك بذلك منذ زمن بعيد...

عندئذٍ، أخبرتني بالذي حصل في الجامعة وجعلها تختبئ منذ ذاك الحين. فاضت عيناي بالدموع وأنا أستمع إلى القصة، ومددت يدي نحوها أواسيها.

- مايا، إنه لمن المخيف أن تضطرّي لأن تعيشي هذه التجربة كلها وحدك. لمَ لمْ تخبريني بحق السماء؟ أنا شقيقتك! لطالما ظننت أنّنا متقاربتان. كنت لأقف إلى جانبك وأساندك، كنت لأفعل حقًّا.

- أعلم يا آلي، لكنكِ كنتِ في السادسة عشرة من عمرك حينذاك. كما كنت أشعر بالخزي.

سألتها عن الشخص المريع الذي سبب لشقيقتي هذا القدر من الألم.

آه، ليس بشخص تعرفينه. إنه شخص تعرّفت إليه في الجامعة ويُدعى زيد.

زيد أيسزو؟

- نعم. لعلّك سمعت اسمه في الأنباء. والده كان الملياردير الذي انتحر.

قلت وقد انتابتني قشعريرة:

- والذي رأيت مركبه قرب مركب بابا في ذلك اليوم الرهيب عندما سمعت خبر وفاته، إنْ كنتِ تتذكّرين.

- لعل الأمر المثير للسخرية هو أنّ زيدًا نفسه أجبرني عن غير قصد على الصعود إلى متن الطائرة المتجهة إلى ريّو، علمًا بأنّني كنت في الأصل متردّدة بين الذهاب وعدمه. بعد أربع عشرة سنة من الصمت، ترك لي رسالة صوتيّة، خرجت من العدم، يقول فيها إنه قادم إلى سويسرا، ويسألني إن كان بالإمكان أن نتقابل.

نظرت إليها باستغراب وسألتها:

- أراد لقاءك؟

- نعم. قال إنه سمع بوفاة بابا واقترح أننا لربما نستطيع أن نواسي بعضنا. وإنْ كان من شيء يمكن أن يجعلني أهرول لمغادرة سويسرا والابتعاد عنها، فهو هذا.

سألتها إن كان زيد يعرف ما حصل لها خلال هذه السنوات الماضية كلها.

هزّت مايا رأسها بحزم وردّت:

- لا. وأشك في أن يأبه للأمر حتى لو علم.

قلت بحزن:

- أعتقد أنك أحسنت صنعًا حين تخلّصت منه.

- أنت تعرفينه إذًا؟

- لا، لا أعرفه شخصيًا. لكنْ لديّ صديق يعرفه.

وسارعت إلى تغيير الموضوع قبل أن تتمكّن مايا من طرح أيّ أسئلة إضافيّة:

- في أيّ حال، يبدو أنّ الصعود إلى متن تلك الرحلة كان أفضل شيء فعلته يومًا. ولم تخبريني حتى الساعة عن ذاك البرازيلي الوسيم الذي كان بصحبتك. أعتقد أنّ ماما أعجبت كثيرًا به. لم يكن لديها حديث منذ أن وصلت إلا عنه. يبدو أنه كاتب؟

تحدّثنا بشكل مختصر عنه، ثم سألتني مايا عن حالي. رأيت أنّ اللحظة لحظتها لتتحدث عن الشخص الذي التقته بعد هذه السنوات كلها، فامتنعت عن إخبارها عن ثيو وتحدّثت عن سباق الفاستنت وعن التجارب للألعاب الأولمبية القادمة بدلًا من ذلك.

رجتني قائلة:

- آلي! هذا رائع! أعلميني كيف ستجري الأمور معك، هلّا فعلتِ؟

- بالطبع سأفعل.

وفي هذه اللحظة، ظهرت مارينا على الشرفة وقالت: «مايا، عزيزتي. لم أعلمْ أنك عدتِ حتى رأيت كلوديا للتو. أعطاني كريستيان هذا في وقت سابق؛ أخشى أني نسيت أن أسلّمك إياه».

التمعت عينا مايا بعد أن عرفت خط اليد، وقالت:

- شكرًا يا ماما.

سألتنا ماما:

- هل ترغبان في تناول العشاء؟

- إن كان هناك عشاء، فسنفعل بالتأكيد؟

والتفتّ إلى مايا وقلت:

- هل ستنضمين إليّ؟ لا تسنح لنا غالبًا فرصة اللقاء وتبادل الأخبار في هذه الأيام.

ردّت وهي تقف:

- نعم، بالطبع. لكنّني سأعود إلى الجناح الجانبي لبعض الوقت إن لم يكن لديكما أيّ مانع.

نظرنا أنا وماما إلى مايا وإلى الرسالة التي أمسكت بها بإحكام بين يديها.

قالت مارينا:

- أراكِ لاحقًا يا عزيزتي.

تبعت ماما إلى داخل المنزل، وشعرت باضطراب شديد ممّا أخبرتني به مايا للتو. من ناحية، كان جيدًا أن تتوضّح الأمور بيننا وأن أفهم الآن لماذا وضعت مايا مسافة بيننا بعد الجامعة ورمت نفسها في ما يشبه المنفى الاختياري. لكن حقيقة أن تخبرني أنّ سبب ألمها هو زيد أيسزو مسألة مختلفة تمامًا...

مع وجود ست فتيات في المنزل، وكل واحدة منّا مختلفة للغاية عن الأخرى، فإن كميّة الثرثرة عن الحبيب وقصص الحب تختلف باختلاف طباع كل واحدة، من الشقيقات. بقيت مايا حتى اليوم متكتّمة تمامًا بشأن حياتها الخاصة بينما اكتفت ستار وسيسي إحداهما بالأخرى، ونادرًا ما تحدّثتا إلينا نحن الأخريات. ولم يبقَ سوى إلكترا وتيغي اللتين تعوّدتا البوح لي بأسرارهما على مرّ السنين...

صعدت إلى غرفتي التي رحت أذرعها ذهابًا وإيابًا من دون كلل، وأنا أتأمّل

الحكمة من أن أعرف شيئًا يُحتمل أن يؤثّر في أشخاص آخرين أحبهم، وإنْ كان على المرء أن يشارك مثل هذه المعلومات أو أن يلتزم الصمت. لقد فتحت مايا قلبها للمرة الأولى منذ سنوات وباحت لي بسرّها، فرأيت أنّ القرار يعود إليها إنْ كانت تريد إخبار أخواتنا الأخريات القصّة أم لا. فما الجدوى من أن أتدخّل؟

بعد أن اتّخذت هذا القرار، تحقّقت من هاتفي الخلويّ وابتسمت تلقائيًا حين رأيت رسالة من ثيو.

عزيزتي آلي. اشتقت إليكِ. لعلّ كلامي مبتذل لكنّها الحقيقة.

أجبته على الفور.

أنا أيضًا وأكثر ابتذالًا.

بينما كنت استحمّ قبل أن أنزل لأنضمّ إلى مايا على العشاء، تقت لأن أخبرها عن حبي الجديد الرائع، لكنّني ذكّرت نفسي بأنّ هذه اللحظة لحظتها، بعد هذه السنين كلها، وأنّ لحظتي يمكن أن تنتظر إلى وقتٍ لاحق.

أثناء تناول العشاء، أعلنت مايا أنها ستعود إلى البرازيل في اليوم التالي.

وقالت وهي تجلس هناك والسعادة تشعّ منها:

- لدينا حياة واحدة يا ماما، أليس كذلك؟

وخطر لي أنها لن تبدو يومًا أكثر جمالًا ممّا هي عليه الآن.

ردّت ماما:

- نعم، هذا صحيح. وإذا ما تعلمنا شيئًا من الأسابيع القليلة الماضية، فهو هذا.

قالت مايا وهي ترفع كأسها:

- لا اختباء بعد الآن. وحتّى لو لم تسر الأمور على ما يُرام، سأكون على الأقل قد حاولت.

رفعت كأسي بدوري أبادلها النخب قائلةً:

- لا اختباء بعد الآن.

9

وقفنا، مارينا وأنا، نلوّح بأيدينا ونرسل قبلات في الهواء بينما كنا ننظر إلى مايا وهي تغادر أتلانتيس.

قالت ماما وهي تحاول أن تمسح خلسة عينيها الدامعتين:

- إنني سعيدة جدًّا من أجلها.

استدرنا وعدنا معًا إلى المنزل حيث جلسنا نحتسي الشاي، ونتحدث عن ماضي مايا الصعب والمستقبل الورديّ الذي ينتظرها، وبدا واضحًا من خلال ما قالته ماما بأنها تشاطرني المشاعر نفسها بشأن زيد أيسزو. أنهيت فنجان الشاي وقلت لها:

- عليّ الانصراف للاطلاع على بريدي الإلكترونيّ. هل أستطيع استخدام مكتب بابا؟ وأنا أعلم بأن الغرفة تتمتّع بأفضل إشارة إنترنت.

أجابت أمي وعلى ثغرها ابتسامة حزينة:

- بالتأكيد. لا تنسي بأن هذا المنزل ملك لك ولشقيقاتك.

أحضرت كمبيوتري المحمول من غرفة نومي، وفتحت باب مكتب أبي، الذي بدا على حاله، بجدران المغطّاة بألواح من خشب البلوط وقطع الأثاث الأثرية المريحة. جلست بتردّد على كرسي پاپا سولت المصنوع من الجلد، ووضعت كمبيوتري المحمول أمامي على طاولة المكتب المصنوعة من خشب الجوز. وبينما كنت أعمل على تشغيل الجهاز، استخدمت الكرسي الدوار لإلقاء نظرة على تلك الوفرة من القطع التي كان بابا يحتفظ بها على الرفوف. لم تكن تلك القطع تدلّ على أي موضوع محدّد، ما جعلني أفترض دائمًا بأنها مجرّد قطع أثارت اهتمامه خلال رحلاته الكثيرة. لفت انتباهي رفّ الكتب الممتدّ من الأرضية إلى السقف والذين كان يزيّن أحد حيطان الغرفة، وتساءلت في سري عن مكان ذلك الكتاب الذي ذكره في رسالته. حين لاحظت أن كتب دانتي تستكين إلى جانب كتب

ديكينز وكتب شكسبير إلى جانب كتب سارتر، أدركت أن الكتب مرتّبة وفق ترتيبٍ أبجديّ، وتتميّز بكونها انتقائية ومتنوّعة تمامًا مثلما كان بابا.

قرّر عندها الكمبيوتر المزاجيّ أن يقول لي إنه يرغب في إيقاف التشغيل، على الرغم من أنني قمت بتشغيله منذ بضع ثوانٍ فقط، لذا كان عليّ أن أعيد بدء التشغيل من جديد. في هذه الأثناء، نهضت من مكاني وتوجهّت إلى مشغّل الأقراص المدمجة الخاص ببابا. حاولنا جميعًا إقناعه بأن يستبدل به جهاز آي بود، ولكن على الرغم من أنه يمتلك في مكتبه مجموعة واسعة من أحدث أجهزة الكومبيوتر ووسائل الاتصال الإلكترونيّة، كان يقول إنه بات عجوزًا لإحداث تغيير مماثل، ويفضّل أن «يرى» الموسيقا التي يريد الاستماع إليها بشكل ملموس. عندما أشعلت مشغلّ الأقراص المدمجة، تفاجأت لدى اكتشافي ما كان يستمع بابا إليه للمرة الأخيرة، بحيث امتلأت الغرفة بالأنغام الجميلة لمعزوفة «مزاج الصباح» للملحّن غريغ من مسرحية بير جينت.

تسمرّت مكاني وقد أشعلت تلك الموسيقا شرارة الذكريات في ذهني. إنها قطعة الأوركسترا المفضلّة لدى بابا الذي كان يطلب مني في أغلب الأحيان أن أعزف الموازين الافتتاحية على الناي. وبالتالي، انطبعت طفولتي بذلك اللحن حتى أصبح يذكرني باللحظات المهيبة التي كنا نتشاركها عند شروق الشمس في الأيام التي كان يصحبني فيها إلى البحيرة ويعلّمني الإبحار بتأنٍّ.

اشتقّت إليه كثيرًا.

كما اشتقت إلى شخص آخر أيضًا.

بينما كانت الموسيقا تصدح عبر مكبرات الصوت المخفيّة وتملأ الغرفة بأنغام رائعة، التقطت غريزيًّا سمّاعة الهاتف الموضوعة على طاولة المكتب لأجري اتصالًا.

وإذ وضعت السمّاعة على أذني وبدأت أطلب الرقم، أدركت بأن شخصًا آخر في المنزل يستخدم الهاتف.

غير أن الصدمة التي شعرت بها لدى سماعي النغمات المألوفة للصوت الذي كان يواسيني في طفولتي أرغمتني على إنهاء المحادثة.

صرخت قائلة وقد مدّدت يدي لأطفئ مشغّل الأقراص المدمجة وأتأكّد من أنه هو : «مرحبًا؟»

ولكن الصوت عند الطرف الآخر سرعان ما تحوّل إلى إشارة صوتيّة رتيبة، وأدركت للحال أن الاتّصال قد انقطع.

جلست قليلًا لألتقط أنفاسي، ثم نهضت من مكاني وهرعت نحو الرواق مناديةً أمّي بصوت عالٍ. ورأيت كلوديا تخرج مسرعةً من المطبخ لدى سماعها صراخي. في تلك المرحلة، كنت أبكي بشكل هستيريّ واندفعت نحو ماما عندما رأيتها تطلّ عند أعلى السلم.

- ما الذي يجري بحق السماء، يا آلي؟

- لقد.. لقد سمعت صوته يا ماما! سمعت صوته!

- صوت مَنْ يا عزيزتي؟

- بابا سولت! كانت يتحدّث على الخط عندما رفعت سمّاعة الهاتف في المكتب لطلب رقم. يا إلهي! أبي لم يمت، لم يمت!

- آلي... ورأيت ماما ترمق كلوديا بنظرة حادّة بينما كانت تحيطني بذراعها وتقودني إلى غرفة الجلوس.

- أرجوك يا عزيزتي، حاولي أن تهدئي قليلًا.

- كيف تريدين مني أن أهدأ؟ عرفت غريزيًّا بأنه لم يمت يا ماما، ما يعني أنه ما يزال في مكان ما على قيد الحياة.

ونظرت إليها متّهمةً وتابعت:

- وكان يتحدّث مع شخص في هذا المنزل.

- أدرك تمامًا يا آلي ما تخالين أنك سمعته، ولكنّ هناك تفسيرًا بسيطًا لما حصل.

- وما هو هذا التفسير بحق السماء؟

- رنّ الهاتف منذ بضع دقائق. سمعت الرنين ولكنّني لم أتمكّن من الردّ لأنني

كنت بعيدة من الهاتف، ما أدّى إلى تشغيل البريد الصوتيّ. وأنا واثقة من أنك سمعت رسالة والدك على البريد الصوتيّ.

- ولكنّني كنت جالسة أمام سمّاعة الهاتف ولم أسمع الهاتف يرّن قبل أن أرفع السمّاعة.

- كانت الموسيقا تصدح في المكان يا آلي. كنت أسمعها في غرفتي في الطابق العلويّ. لعلّها طغت على رنين الهاتف.

سألتها يائسةً:

- هل أنت واثقة من أنك لم تكوني تتكلمين معه على الهاتف؟ أم لعلّها كلوديا؟

- أعلم يا آلي أنك ترغبين في سماع تفسير مختلف، ولكنْ أخشى أنه لا يمكنني أن أفعل ذلك. ما رأيك أن تستخدمي هاتفك الجوال وتطلبي رقم المنزل؟ إذا تركت الهاتف يرّن أربع مرات، ستسمعين صوت والدك في الرسالة الصوتيّة.

توسّلت إليّ قائلة:

- حاولي أن تفعلي ذلك، لو سمحت.

رفعت كتفيّ بلامبالاة وقد وقعت بالإحراج لأنني اتّهمْت ماما وكلوديا بالكذب عليّ. وقلت لها:

- كلّا، فأنا أصدق كلامك. كنت أتمنّى بأن يكون هو...وأن تكون الأحداث المريعة التي مررنا بها مجرّد سوء تفاهم.

- هذا ما نتمنّاه جميعًا يا آلي، ولكنّ والدك تُوفّي، وليس بوسع أيٍّ منّا أن يفعل شيئًا ليعيده إلى الحياة.

- نعم، معك حق. أنا آسفة.

- لا تعتذري يا عزيزتي. إن كان بوسعي أن أفعل شيئًا...

أجبتها بينما كنت أهمّ بالنهوض من مكاني:

- كلا.. سأذهب لإجراء الاتصال الهاتفيّ.

ابتسمت لي مارينا وقد امتلأت عيناها بالعطف وهي تنظر إليّ وأنا متوجّهة إلى مكتب پاپا سولت. جلست من جديد أمام طاولة المكتب أتأمل الهاتف. رفعت السمّاعة وطلبت رقم ثيو، وإذا بهاتفه المحمول يُطلق البريد الصوتيّ. كنت أرغب في التحدّث معه مباشرة وليس مع الآلة، لذا، أقفلت الخط على عجل من دون أن أترك أيّ رسالة.

تذكّرت الكتاب الذي طلب مني پاپا سولت أن اقرأه. فنهضت من مكاني ورحت أدقّق في العناوين التي تبدأ بحرف الهاء على رفوف الكتب. وسرعان ما تمكّنت من العثور عليه، وأخرجته من مكانه على الرفّ.

غريغ، سولفيج وأنا

السيرة الذاتية لآنا وجانس هالڤورسن

جانس هالڤورسن

لم أفهم شيئًا ممّا كُتب سوى أن الأمر يتعلق بسيرة ذاتية، فحملت الكتاب ووضعته على طاولة المكتب، وجلست على الكرسي الدوّار.

بدا واضحًا أن الكتاب قديم جدًّا، وأوراقه مصفّرة وسهلة التفتّت. لفتني تاريخ إصدار الكتاب في العام 1907، أي منذ مئة سنة بالضبط. ونظرًا لأنني موسيقيّة، أدركت لتوّي ما الذي كان السيد هالڤورسن يرمي إليه. فسولفيج هي البطلة الحزينة في قصيدة إبسن التي شكّلت معلمًا بارزًا في الموسيقا ذات الشهرة العالميّة التي ألّفها إدوارد غريغ لمرافقة المسرحية. قلبت صفحة أخرى، فرأيت مقدّمة أخرى تضمّنت اسمي «غريغ» و«بير جينت». وشعرت بحزن كبير لأنني لم أتمكّن من قراءة ما كُتِب، بالنظر إلى أن العبارات الأخرى كانت مكتوبة، بحسب ما أفترض، باللغة النروجية، أو اللغة الأم لكل من غريغ وإبسن، وبالتالي يتعذّر عليّ قراءتها.

تنهّدت من الإحباط، ورحت أقلّب صفحات الكتاب حيث وجدت بعض الرسوم بالأبيض والأسود لامرأة قصيرة القامة في زيّ مسرحيّ، ترتدي ملابس شبيهة بملابس فلّاحة ريفيّة. وقرأت تحت الصورة العبارة التالية: «آنا لاندفيك سوم سولفيج، أيلول

1876». تأملت الصور باهتمام شديد، وتبين لي أنّ آنّا لاندفيك تلك، كانت يافعة جدًّا عند تصويرها. فعلى الرغم من كثافة الماكياج المسرحيّ الذي كانت تضعه، أدركت أن الفتاة بالكاد تجاوزت سنّ الطفولة. وبينما كنت أتصفّح الصور الأخرى وأتأمّلها وهي تتقدّم في السنّ، جاء ردّ فعلي مفاجئًا وأنا أحدّق في قسمات وجه إدوارد غريغ نفسه المألوفة. كانت آنّا لاندفيك تقف بجانب بيانو ضخم بينما وقف غريغ خلفه يصفّق لها.

وجدت صورًا أخرى لشاب وسيم، تبيّن أنه كاتب السيرة الذاتية، وقد جلس بشكلٍ رسميّ قرب آنّا لاندفيك التي كانت تحمل طفلًا بين يديها. وعلى الرغم من خيبة الأمل التي شعرت بها، لأن الكتاب لن يكشف لي ما أريد اكتشافه بسبب عائق اللغة، بلغت موجة فضولي ذروتها. ولم أجد بدًّا من ترجمة الكتاب، وخطر لي أن أسأل مايا، بصفتها مترجمة، إن كانت تعرف أحدًا بإمكانه مساعدتي.

وبالنظر إلى حسيّ الموسيقيّ، تأثّرت كثيرًا لمجرّد التفكير في أنّ أجدادي قد يكونون على صلةٍ بأحد هؤلاء المؤلفين، المفضّلين لديّ ولدى بابا. ألهذا السبب كان يحب العمل المسرحيّ بير جينت إلى هذا الحدّ؟ لعلّه كان يسمعني إياه لمعرفته بصلته بي.

تحسّرت من جديد على وفاته، وعلى الأسئلة التي بقيت من دون إجابة.

- هل أنت بخير يا عزيزتي؟

انتشلني سؤال ماما الواقفة عند فتحة الباب من الأفكار التي كنت غارقةً فيها.

- إنني بخير.

- هل كنت تقرئين؟

- أجل.

ووضعت يدي فوق غلاف الكتاب لأحميه من نظراتها الفضوليّة.

- حسنًا، الغداء جاهز على الشرفة.

- شكرًا يا ماما.



أثناء تناولي طبقًا من سلطة جبنة الماعز وكأسًا من النبيذ الأبيض المثلج، اعتذرت من ماما من جديد على النوبة الهستيريّة التي انتابتني منذ قليل.

قالت لي ماما مواسيةً:

- لا داعي للاعتذار. بالمناسبة، كلتانا نعرف أخبار مايا، لكنّكِ لم تتحدّثي كثيرًا عن نفسك. أخبريني عن أحوالك يا آلي. أشعر وكأن شيئًا جيّدًا قد حصل. تبدين مختلفة.

- في الحقيقة يا ماما، تعرّفت إلى شاب أيضًا.

أجابت مبتسمةً:

- خُيِّل إليّ ذلك.

- ولهذا السبب لم أستلم أيًّا من الرسائل الصوتيّة التي أرسلتموها لي. كنت برفقته عند وفاة بابا وهاتفي كان مقفلًا.

وزلّ لساني فجأة، رغبة مني في التنفيس عن كربي:

- إنني في غاية الأسف. أشعر بالذنب يا ماما.

- لا داعي للإحساس بالذنب. من كان يعتقد أنّ ذلك قد يحدث؟

تنهدت وقلت:

- أقسم بأنني أشعر وكأنني داخل أفعوانة عاطفية، ولا أذكر أنني أحسست يومًا بهذا القدر من السعادة والحزن في آن. والغريب في الأمر هو أنني أشعر بالذنب لأنني سعيدة.

- لا أظنّ مطلقًا أن والدك يريدك أن تشعري بالذنب يا عزيزتي. ولكن من هو الرجل الذي استولى على قلبك؟

أخبرتها بكلّ ما جرى، وغمرني شعور بالارتياح لمجرد الحديث عن ثيو.

- هل هو فتى أحلامك يا آلي؟ لم أسمعك يومًا تتحدثين عن أي رجل بهذه الحماسة.

- أظنّ ذلك، أجل. في الواقع، لقد عرض عليّ الزواج.

نظرت ماما إليّ مندهشة:

- يا إلهي! وهل وافقت؟

- أجل، وافقت، على الرغم من أنّني واثقة بأنّنا لن نبقى متزوجيْن لمدى العمر. ولكنه قدّم لي هذه.

وسحبت السلسلة الفضية من تحت ياقة ملابسي وأريتها عين الحسد وأضفت:

- أعلم أنّ الأمور سارت بسرعة غريبة، ولكننا نرى بأنّنا نسلك المسار الصحيح. تعلمين جيّدًا يا ماما بأنني لست من النوع الذي ينجرف وراء الأمور الرومنسية، ولكن هذه العلاقة كانت بمنزلة صدمة لي.

- أعرفك تمام المعرفة يا آلي، ولذا أدركت بان الأمر جديّ هذه المرّة.

- إنه يذكّرني بأبي كثيرًا. كم أتمنّى لو سنحت له الفرصة أن يتعرّف على ثيو.

وأطلقت تنهيدة وفمي مليء بالسلطة.

- دعينا نغيّر الموضوع. أتظنين أنّ أبي يريدنا فعلًا أن نبحث عن جذورنا؟

- أظنّ أنه كان يرغب في تزويدكنّ بالمعلومات اللازمة، في حال قررتنّ البحث عن جذوركنّ. ولكن القرار يعود لكنّ.

- يبدو أنّ ذلك قد أتى بفائدة مع مايا. إذ نجحت أثناء بحثها عن ماضيها، في إيجاد طريقها للمستقبل أيضًا.

ردّت ماما:

- هذا صحيح.

- أظنّ أنّني وجدت طريقي أيضًا من دون الحاجة إلى التنقيب في الماضي. أستطيع أن أتحرّى عن أجدادي يومًا ما، ولكن ليس في الوقت الحالي. أفضّل الآن أن أستمتع بالحاضر وأرى إلى أين سيقودني.

- أحسنتِ. أتمنى أن تحضري ثيو إلى المنزل في أقرب فرصة ممكنة لأتعرّف إليه.

وابتسمت لمجرد التفكير في ذلك.

- سأحضره يا ماما، أعدك بذلك.



بعد الاستمتاع لبضعة أيام بأطباق كلوديا المعدّة منزليًا، والنوم المنتظم، وطقس شهر تموز الرائع، استعدت نشاطي وهدوئي. وغالبًا ما كنت أستقل قارب «ليزر» بعد الظهر واستمتع بجلسات الإبحار المترفة. وعند مغيب الشمس، أستلقي على ظهر المركب وأترك المشاعر التي أكنّها لثيو تغمرني.

في كلّ مرّة أبحر فيها في عرض البحر، أشعر بنفسي قريبة منه ومن بابا، وبدأت شيئًا فشيئًا أتقبّل فكرة خسارة بابا وأتكيّف معها. وعلى الرغم من أنني أبلغت مارينا بأنني لن أتحرّى عن الماضي في الوقت الراهن، بعثت لمايا رسالة إلكترونيّة أسألها فيها إنْ كانت تعرف مترجمًا يجيد اللغة النروجية. ردّت مايا بالنفي، ولكنها وعدتني بأن تجري بعض الاتصالات. ولم تكد تمر بضعة أيام، حتى بعثت إليّ رسالة إلكترونيّة تتضمّن تفاصيل الاتصال بالمدعوة ماغدالينا جينسين. فاتصلت بها وتحدّثت إليها، وأشارت إلى استعدادها لترجمة الكتاب من أجلي. وبعد تصوير الغلاف والصور خشية أن يضيع الكتاب، وضّبته جيدًا وأرسلته إليها بوساطة شركة فيديكس.

بينما كنت أوضّب أغراضي استعدادًا للسفر إلى جزيرة وايت الواقعة قبالة الساحل الإنكليزي، للبدء بالتمارين، سرت قشعريرة على طول عمودي الفقري خوفًا ممّا يمكن أن يحدث. لا ريب أن سباق فاستنت يعتبر مُهمّة صعبة حيث سيتولى ثيو قيادة طاقم من عشرين شخصًا مختارين بعناية وعلى درجة عالية من الخبرة. كما أنها المرّة الأوّلى التي أغامر فيها بسباق ينطوي على مستوى عالٍ من التحدي. في المقابل، إنه لشرف عظيم لي أن يطلب ثيو مني الانضمام إلى طاقمه.

عندما وقفت في الرواق حاملة حقيبتي وآلة الناي التي طلب ثيو مني إحضارها هذه المرّة أيضًا، لاستمتاعه بعزفي، سألتني ماما:

- هل أنت جاهزة للرحيل؟

- أجل.

أخذتني بين ذراعيها واحتضنتني بقوة فشعرت بنفسي محاطة بكلّ ما تمثله من راحة وأمان.

قالت لي حين غادرنا المنزل متوجّهتين إلى رصيف الميناء:

- ستعتنين بنفسك خلال السباق أليس كذلك يا عزيزتي؟

- لا داعي للقلق يا ماما. فالربّان المسؤول عني هو الأفضل على الإطلاق. وسيحرص ثيو على أن أكون في أمان.

- عليك أن تلتزمي بما يطلبه منك يا آلي. أعلم أنك تميلين إلى العناد في بعض الأحيان.

أجبتها وعلى ثغري ابتسامة ساخرة وقد أدركت بأنها تعرفني أكثر من أي أحد آخر:

- سأفعل بالتأكيد.

بينما كانت تنظر إليّ وأنا أقود اليخت بعيدًا عن الرصيف، وكريستيان يرمي الحبال ويصعد إلى متن اليخت بدوره، صاحت مارينا:

- اتصلي بي يا آلي.

- سأفعل يا ماما.

وبينما كان اليخت يجتاز البحيرة بسرعة عالية، شعرت وكأنّني أبحر فعلًا إلى مستقبلي.

10

- مرحبًا آلي.

حملقت إلى ثيو مدهوشةً، وسط الدفق البشريّ في مطار هيثرو.

- ما الذي تفعله هنا؟

تذمّر ممازحًا، قبل أن يشدّني إليه ويأخذني بين ذراعيه وسط قاعة الوصول ويقبّلني قائلًا:

- وما هذا السؤال؟ من يسمعك سيعتقد أنك لست مسرورة برؤيتي.

- أنا مسرورة بالطبع!

ضحكت ونحن نتباعد لنتمكّن من تنشّق بعض الهواء، مأخوذةً بقدرته على تحقيق توقّعاتي. أضفت وأنا أفكّ أسري من بين ذراعيه:

- ظننت أنّك مشغول على متن تايغرس. هيا، نحن نسبّب ازدحامًا بشريًّا هنا.

قادني من قاعة الوصول إلى حيث اصطفّت سيارات الأجرة، وقال وهو يعطي السائق التعليمات:

- هيا اصعدي.

سألته بينما نحن ننطلق:

- هل سنستقل سيارة أجرة من هنا إلى المركب الذي سينقلنا إلى جزيرة وايت؟ إنها على بُعد أميال.

- لا، لن نفعل بالطبع يا آلي. لكن، ما دمنا سنتدرّب بدوام كامل عند وصولنا إلى هناك، خطرت لي فكرة لطيفة وهي أن نمضي ليلة معًا قبل أن أعود «القبطان» من جديد وتعودي «آل» فحسب.

احتضنني مجدّدًا وهو يهمس:

- اشتقت إليك يا حبيبتي.

قلت وأنا أرى السائق يسترق النظر إلينا في المرآة:

- وأنا أيضًا.

كم سرّني وفاجأني أن أرى السائق يتوقّف أمام فندق كلاريدج حيث حجز لنا ثيو غرفة. أمضينا بعد ظهر رائعًا وأمسيّة أكثر روعةً للتعويض عن الوقت الذي خسرناه. وقبل أن أطفئ النور تلك الليلة، تأملته وهو يغطّ في النوم إلى جانبي، وتشبّعت بتفاصيله، وأدركت أنّني أنتمي إلى أيّ مكان يكون هو فيه.



في صباح اليوم التالي، قال ثيو بينما كنّا نتناول طعام الفطور في السرير:

- قبل أن نستقل القطار إلى ساوثهامبتون، علينا أن نقوم بزيارة واجبة.

- هل علينا أن نفعل ذلك؟ من سنزور؟

- أمي. لقد أخبرتك أنها تعيش هنا في لندن وهي متلهّفة للقائك. أرجو أن تحضّري نفسك بينما أستحم.

نهضت من السرير ورحت أبحث في مقتنياتي، وقد انتابني القلق لأنني سأقابل، في الواقع، حماتي المستقبليّة. لم أكن أحمل معي أيّ شيء أفضل من بناطيل الجينز والكنزات القطنيّة والأحذية الرياضيّة التي وضعتها في حقيبتي للأمسيات النادرة التي لا أكون فيها على متن المركب، حيث أرتدي من رأسي حتى أخمص قدميّ الملابس المضادة للمياه من الغورتكس وهو القماش الشقيق لليكرا لكن الخالي من الجاذبية.

دخلت إلى الحمام لأبحث في حقيبة مستلزماتي عن الماسكارا وأحمر الشفاه، لكنني أدركت أنّني تركتهما، على الأرجح، في أتلانتيس. صحت بثيو عبر باب الدوش:

- إنّني لا أحمل أيًّا من أدوات الماكياج.

فقال وهو يخرج من المقصورة المليئة بالبخار:

- آلي، أنا أحبك من دون زينة. تعلمين كم أكره النساء اللواتي يضعن كثيرًا من مساحيق التجميل. والآن، هلّا أسرعت ودخلت للاستحمام؟ علينا أن نغادر في الحال.

بعد أربعين دقيقة، وبعد أن قطعنا متاهة من الشوارع أخبرني ثيو أننا في منطقة من لندن تُدعى شلسي. توقّفت سيارة الأجرة أمام منزل أبيض جميل؛ ثلاث درجات من الرخام تفضي إلى الباب الأمامي الذي ينتصب على جانبيه أصيصان تبرز منهما أزهار الغاردينيا العطرة.

قال وهو يصعد الدرجات بخفة:

- ها قد وصلنا.

وأخرج من جيبه مفتاحًا وفتح الباب، مناديًا بينما كنّا ندخل إلى البهو:

- ماما؟

تبعته في ممر ضيِّق يُفضي إلى مطبخ مضاءٍ، تتوسّطه طاولة بسيطة من خشب البلوط وخزانة ويلزية ضخمة تزدحم فيها الفخاريّات الزاهية الألوان.

تناهى إلينا صوتٌ أنثويٌّ عبر النوافذ الكبيرة المفتوحة:

- أنا هنا في الخارج يا عزيزي!

خرجنا إلى شرفة حجريّة حيث وجدنا امرأة نحيلة ذات شعر أشقر داكن مرفوع إلى خلف في تسريحة ذيل حصان قصير، تقلّم الورود في الحديقة الصغيرة الغنّاء المسوّرة.

همس ثيو بحبٍّ بينما رفعت المرأة ناظريها ورحّبت بنا بابتسامة سعيدة:

- ترعرعت أمي في الريف الإنكليزي، وهي تحاول أن تعيد بناء المشهد نفسه في وسط لندن.

- مرحبًا يا عزيزي. مرحبًا آلي.

وبينما هي تتوجّه إلينا شعرت بتلك النظرة الثاقبة التي تُميّز ابنها عليّ وهي تتأمّلني بعينيها الزرقاوين الزاهيتين. خطر لي أنها جميلة إلى حدٍّ مدهش، بملامحها الناعمة التي تشبه ملامح الدمية والبشرة الفاتحة للوردة الإنكليزية التقليدية.

قالت وهي تقبّلني بحرارة على الوجنتين:

- سمعت كثيرًا عنك وأشعر بأني أصبحت أعرفك.

قال ثيو وهو يضمّها بين ذراعيه:

- مرحبًا ماما. تبدين بخير.

- حقًّا؟ كنت أعدّ الشعر الأشيب أمام المرآة هذا الصباح بالذات.

تنهّدت تنهيدة ساخرة قبل أن تضيف:

- من المؤسف أنّ التقدّم في السنّ لا يوفّر أحدًا منّا. والآن، ماذا أقدّم لكما من شراب؟

سأل ثيو وهو يلتفت إليّ مستفهمًا:

- قهوة؟

وافقت قائلة:

- ممتاز.

وهمست له بينما نحن نتبعها إلى المنزل:

- على فكرة، ما هو اسم أمك؟ لا أظنّ أني في مرحلة أستطيع معها أن أناديها ماما.

- يا إلهي، أنا آسف! اسمها سيليا.

ومدّ ثيو يده ليمسك بيدي ويشدّ عليها قبل أن يسأل:

- هل أنتِ بخير؟

- نعم، بالطبع.

أثناء احتساء القهوة، طرحت عليّ سيليا بعض الأسئلة عن نفسي وعندما أخبرتها عن وفاة بابا سولت، واستني بدفء وتعاطف:

- لا أعتقد أنّ أيّ ولد يُشفى تمامًا من فقد أحد والديه، لاسيما الابنة التي تفقد أباها. أعلم أني كنت محطّمة ومنهارة عندما خسرت أبي. جلّ ما يستطيع المرء أن

يرجوه هو أن يتحلّى بالقدرة على تقبّل الأمر. والوقت ما يزال مبكرًا جدًا بالنسبة إليك يا آلي.

أضافت وهي ترمق ثيو بنظرة:

- هل يجعلك ابني تعملين كثيرًا، آمل أنه لا يتعبك.

- إنه لا يتعبني يا سيليا. وللصراحة، إنّ التسكّع والتذمّر يجعلان كل شيء أسوأ بكثير. والأفضل أن أبقى منشغلة.

- حسنًا، سأشعر بالتأكيد بالسرور عندما ينتهي سباق الفاستنت هذا. وربما عندما تُرزقين بأطفال، ستفهمين أنّ قلبي يبقى على جمر كلما خاض ثيو سباقًا وحتى انتهائه.

اعترض ثيو قائلًا:

- باللّه عليك يا أمي. لقد خضت هذا السباق مرتين من قبل، وأنا أعرف ما أفعله.

أضفت:

- إنه قبطان رائع يا سيليا. وطاقمه مستعد لأن يفعل أيّ شيء من أجله.

- أنا واثقة من ذلك، وأنا فخورة به بالطبع. لكنّني أتمنّى في بعض الأحيان أن يكون محاسبًا أو سمسارًا في البورصة، أو لو اختار شيئًا ليس محفوفًا بالمخاطر إلى هذا الحدّ.

- هيّا يا أمي. أنت لا تشعرين عادة بهذا القدر من القلق. وأعود وأكرّر ما ناقشناه مرارًا وتكرارًا، وهو أنه قد تصدمني حافلة في الغد.

وتابع يغيظها بمحبة:

- أنتِ من علّمني الإبحار في البداية.

- سامحني، سأصمت. وكما قلت من قبل، لعلّها السنّ وكل تلك الأفكار العاطفيّة والحزينة التي تترافق معها.

سمعت شيئًا من الحدّة في صوتها وهي تسأله:

- هل رأيت أباك أو تواصلت معه مؤخرًا؟

صمت ثيو للحظة قبل أن يجيب:

- نعم. أرسل لي رسالة إلكترونية يقول فيها إنه في منزله في جزر الكاريبي.

رفعت سيليا حاجبًا مقوّسًا بشكل أنيق وسألت:

- وحده؟

ردّ ثيو بحزم:

- لا فكرة لديّ، ولا آبه لذلك.

وعمد على الفور إلى تغيير الموضوع سائلًا أمه إن كانت تنوي السفر في شهر آب.

استمعت إليهما بهدوء وهما يناقشان خططها لصرف أسبوع في جنوب فرنسا ومن ثمّ بضعة أيام في إيطاليا قرابة نهاية الشهر. بدا واضحًا من السهولة التي يتحدّثان بها أن كلًّا منهما يحب الآخر.

بعد حوالى الساعة، أنهى ثيو كوب القهوة الثاني ونظر إلى ساعته وقال:

- علينا أن ننطلق يا أمي.

- حقًّا؟ ألن تبقيا لتناول الغداء؟ بإمكاني أن أعدّ طبقًا من السلطة، لا مانع لديّ من ذلك فعلًا.

- لا نستطيع البقاء، فلدينا اجتماع لكل أفراد الطاقم على متن تايغرس عند الساعة الخامسة، وليس لائقًا أن يصل القبطان متأخرًا. بالتالي، يجب أن نلحق بالقطار الذي ينطلق عند الساعة الثانية عشرة والنصف من واترلو.

ووقف قبل أن يردف:

- سأسارع فقط إلى الحمام، وألقاكما أنتما الاثنتين عند المدخل.

قالت سيليا بعد أن خرج ثيو من المطبخ:

- سرّني كثيرًا أن أقابلك يا آلي. عندما أخبرني أنك المرأة التي اختارها شعرت بقلق غير مبرّر. إنه ابني الوحيد وهو كل شيء بالنسبة إليّ. لكني أستطيع أن أرى الآن أنكما متناسبان تمامًا.

أجبتها بابتسامة:

- أشكرك على كلامك هذا. نحن سعيدان جدًّا.

وعندما وقفنا وابتعدنا عن الطاولة لنتوجّه إلى المدخل، مدّت يدها ووضعتها على ذراعي قائلة:

- هلّا اعتنيتِ به؟ يبدو أنه لا يفهم معنى الخطر مطلقًا.

- سأبذل قصارى جهدي يا سيليا.

- أنا...

وكانت على وشك أن تقول مزيدًا عندما ظهر ثيو إلى جانبنا.

- وداعًا أمي. سأتّصل بك، لكن لا تقلقي إن لم أفعل خلال أسبوع السباق.

أجابته سيليا بغصّة في صوتها:

- سأحاول ألّا أقلق. وسأكون هناك لأحتفل بك عند خط النهاية في بلايموث.

ابتعدتُ متوجّهة إلى الباب الأماميّ، ولم أرغب في أن أتطفّل على وداعهما، لكنّني لم أستطع إلا أن أُلاحظ كيف احتضنته سيليا كما لو أنها لا تتحمّل فكرة تركه يذهب. في النهاية، سلخ ثيو نفسه عنها بلطف ولوّحت لنا بابتسامة مصطنعة بينما كنّا نغادر المنزل.

في رحلة القطار إلى ساوثهامبتون، بدا ثيو مشتّت الذهن وهادئًا على غير عادته.

سألته بينما كان ينظر من النافذة إلى الخارج وهو غارق في التفكير:

- هل أنت على ما يرام؟

- أنا قلق على أمي، هذا كل ما في الأمر. لم تبدُ على طبيعتها اليوم. لم أرها يومًا كئيبةً إلى هذا الحد؛ وهي تودّعني عادة بابتسامة عريضة وعناق سريع.

- يبدو جليًّا أنّها تحبّك كثيرًا.

- وأنا أحبّها. هي من جعلني ما أنا عليه، ولطالما ناصرتني في مسألة الإبحار. لعلها تتقدّم في العمر فحسب.

أضاف وهو يهزّ كتفيه:

- وأشكّ بالطبع في أن تتمكّن يومًا من تجاوز قصتها مع أبي وطلاقهما.

- هل تعتقد أنها ما تزال تحبّه؟

- أنا شبه متأكّد من ذلك، إلا أنّ هذا لا يعني بالضرورة أنه يعجبها. كيف يمكن لها أن تُعجب به؟ عندما اكتشفت سلسلة علاقاته الغراميّة، كانت أكثر من محطّمة ومنهارة. أمي المسكينة شعرت بإهانة كبيرة فطلبت منه أن يرحل بالرغم من أنّ هذا فطر قلبها.

- يا إلهي، كم هذا مريع.

- نعم، إنه كذلك. أبي ما يزال يحبّها أيضًا. إنهما بائسان بتباعدهما، لكنني أفترض أنّ هناك خطًّا رفيعًا ما بين الحبّ والكراهية. لعلّ الأمر أشبه بالعيش مع مدمن على الكحول: عليكِ في مرحلة ما أن تختاري ما بين خسارة الشخص الذي تحبين وبين فقدان عقلك. لا أحد يستطيع أن ينقذنا من أنفسنا مهما يبلغ حبّ هذا الشخص لنا، أليس كذلك؟

- لا، لا يمكنه.

فجأة، أمسك ثيو بيدي وقال:

- لا تدعي الشيء نفسه يحصل لنا يا آلي، أرجوك.

فأجبته بحرارة:

- لن يحصل أبدًا.



كانت الأيام العشرة التالية، وكما هو الحال دائمًا قبل أيّ سباق، محمومةً ومتعبةً، وما زاد الطين بلّة هو أنّ سباق الفاستنت يشتهر بأنه السباق الأشدّ صعوبةً والأكثر تطلّبًا من الناحية التقنيّة في العالم. وتنصّ قواعده على أنْ يكون خمسون في المئة من الطاقم قد خاض ثلاثمئة ميلٍ من السباقات البحريّة معًا خلال الشهور الاثني عشر الماضية. في أول أمسيّة لنا، وعندما جمع ثيو أفراد الطاقم العشرين

على متن تايغرس، أدركت أنّني أقل خبرةً بكثير من معظمهم. وفي حين أن ثيو كان يشتهر باحتضانه المواهب الشابة وتشجيعها، وقد ضمّ إلى الطاقم أفرادًا خاضوا سباق سيكلاديس، فقد بدا جليًا أنه لن يخاطر، وعمد إلى اختيار ما تبقّى من الفريق بدقّة من بين خيرة مجتمع البحّارة الدوليّ.

كان المسار شاقًا وخطرًا، فالانطلاق من الشاطئ الجنوبي لإنكلترا، يليه عبور البحر السلتي باتجاه صخرة فاستنت على الشاطئ الإيرلندي، ومن ثمّ العودة إلى خط النهاية في بلايموث. كانت رياح غربيّة وجنوبيّة غربيّة قويّة، وتيّارات غدّارة، فضلًا عن نُظُم مناخيّة متقلّبة لا يمكن التنبؤ بها، قد قضت على حظوظ مراكب كثيرة في السباقات السابقة. وكلّنا ندرك جيدًا أنّ عددًا من الخسائر وقع على مرّ السنين. ما من فريق تعامل مع هذا السباق بخفّة، فكيف الحال بطاقم مركبنا الذي يسعى إلى الفوز.

كنا نستيقظ مع بزوغ الفجر في كل صباح، ونمضي ساعات في البحر؛ نجري المناورات اللازمة مرارًا وتكرارًا، ونختبر أقصى قدرات الطاقم والمركب الرائع المزوّد بأحدث التقنيات. وخلال فترات التدريب، وعلى الرغم من أنّني استطعت أن ألاحظ إحباط ثيو عندما لا يؤدّي فرد ما «لعبة الفريق» كما يسمّيها، فهو لم يفقد هدوءه ولو لمرة واحدة. وفي المساء، وأثناء تناول العشاء، تجري مناقشة الاستراتيجيات والتكتيكات لكل جزء من السباق، وصقلها باستمرار، على أن الكلمة الأخيرة تبقى دومًا لثيو.

فضلًا عن التدريبات العمليّة على الملاحة، عقدنا جلسات إحاطة وأجرينا تمارين سلامة، مستخدمين معدات السلامة المتطوّرة المتوافرة على متن المركب. وحصل كل واحد منّا على جهازٍ لتحديد المواقع في حالات الطوارئ، وجهاز إرسال، لتعليقهما في سترات النجاة العائدة لكل فرد من الطاقم. وكان الطاقم يعمل بلا كلل ولا ملل على متن المركب، حتى لو لم نكن نبحر، فيُراجع كل تفصيلٍ بعناية تحت إشراف ثيو، بدءًا من التحقّق من جردة المعدات، إلى اختبار المضخّات والرافعات، إلى تركيب الأشرعة والتحقّق منها. وحدّد ثيو، من ضمن مهامه الكثيرة الأخرى كقبطان، الأسرّة ووضع نظام مراقبة بالتناوب.

وبفضل قيادته الملهمة، كانت روح العمل الجماعيّ في أوجها عندما سمعنا منه الخطاب التشجيعيّ الأخير في الليلة التي سبقت بدء السباق في 12 آب. في تلك الليلة، وقف كل فرد من أفراد الطاقم وهلّل له.

أصبحنا الآن في أتمّ الجهوزيّة. والأمر الوحيد الذي أفسد الأجواء هو توقّعات الطقس المريعة للأيام القليلة المقبلة.

قال لي ثيو وهو يطبع قبلة سريعة على خدّي فيما راح الفريق يتفرّق:

- عليّ، يا عزيزتي، أن أذهب الآن إلى الرويال أوشن راسينغ كلوب من أجل اجتماع القباطنة. اذهبي إلى فندقنا وخذي حمّامًا ساخنًا، فهو الحمّام الأخير الذي ستحظين به إلى وقت طويل.

وهذا ما فعلته.

بذلت قصارى جهدي لكي أستمتع برفاهية المياه الساخنة المتدفّقة، عندما نظرت لاحقًا من النافذة، رأيت كيف هبّت الرياح وراحت تزمجر فوق الميناء، صافعةً بعنف المراكب المئتين وواحد وسبعين المتجمّعة فيه أو في أنحاء الجزيرة، وتشنّجت معدتي فجأة. كان هذا آخر ما نتوقّعه، وبدا وجه ثيو مظلمًا حين انضمّ إليّ في غرفة الفندق في وقت لاحق.

سألته:

- ما الأخبار؟

- الأخبار لا تسرّ، وتوقّعات الطقس سيئة كما نعلم، حتى أنّهم قد يضطرّون إلى تأجيل انطلاق السباق في الغد. هناك تحذيرات شديدة من قوة الرياح. بصراحة يا آلي، لا يمكن للوضع أن يكون أسوأ.

جلس وقد بدا وكأنه أُفرغ من طاقته كلها، فتقدّمت منه ورحت أدلّك كتفيه.

- ثيو، عليك أن تتذكّر أنه مجرّد سباق.

- أعلم هذا، لكن الفوز في السباق يشكّل ذروة حياتي المهنيّة حتى الآن. أنا في الخامسة والثلاثين من عمري يا آلي ولا أستطيع الاستمرار في خوض السباقات إلى الأبد. سحقًا!

قال كلمته الأخيرة وهو يضرب ذراع الكرسي بقبضته، ثم أردف:

- لماذا هذا العام؟

- حسنًا، لنرَ ما سيحمله لنا الغد. فغالبًا ما تكون توقّعات الطقس خاطئة.

تنهّد وهو يشير إلى السماء الداكنة في الخارج قبل أن يجيب:

- لكن الواقع ليس كذلك. في أيّ حال، أنت محقّة، فليس بإمكاني فعل أيّ شيء. سيتصّلون بكل قبطان مشارك في الساعة الثامنة من صباح الغد ليعلمونا إنْ قرروا تأجيل انطلاق السباق. لذا، فالدور لي الآن لكي أستمتع بحمّام ساخن وليلة نوم هانئ.

- سأذهب لأعدّ لك الحمّام.

- شكرًا لك... آلي؟

التفت إليه بينما كنت أتوجّه إلى الحمام قائلة:

- نعم؟

ابتسم ثيو لي وأجاب:

- أنا أحبّك.



أُجّل السباق، تمامًا كما تكهّن ثيو، وذلك للمرة الأولى منذ انطلاقته قبل ثلاث وثمانين سنة. اجتمع أفراد الطاقم لتناول طعام الغداء في نادي رويال لندن لليخوت، وكل واحد منهم يراقب السماء عبر النافذة آملًا في حصول معجزة ما.

سيُتّخذ قرار آخر في صباح الغد. لذلك تسكّعنا أنا وثيو بخطى يائسة بعد انتهاء الغداء متوجّهين إلى فندقنا القريب من الميناء.

- سيصبح الطقس صافيًا في النهاية يا ثيو، فهذا ما يحصل دائمًا.

- آلي، لقد راجعت كل موقع محتمل على الإنترنت، كما اتصلت شخصيًا بمركز الأحوال الجويّة. يبدو أنّ هناك منخفضًا جويًا مستمرًا لبضعة أيام. حتى لو تمكّنا من بدء السباق، فسيكون صعبًا جدًّا أن نصل إلى خط النهاية. في أيّ حال...

والتفت إليّ ثم ابتسم فجأة قبل أن يضيف:

- لدينا الوقت على الأقل لحمام ساخن آخر.

في مساء يوم الأحد ذاك، تناولنا العشاء معًا في مطعم الفندق وقد سيطر علينا شعور بالتوتّر والاضطراب. وسمح ثيو لنفسه باحتساء كأس من النبيذ، وهو أمر ما كان ليسمح به عادة في الليلة التي تسبق أيّ سباق، وعدنا إلى غرفتنا أهدأ بقليل مما كنّا عليه حين تركناها. وفي تلك الليلة، مارس الحب معي بشغف وإلحاح فريدين؛ لينهار بعدئذ على الوسائد ويشدّني إلى صدره.

سمعته يقول قبل أن نغطّ في النوم:

- آلي.

- نعم؟

- إذا جرت الأمور على ما يُرام، فسننطلق في الغد، لكنّ السباق سيكون صعبًا. وأنا أذكِّرك الآن بالوعد الذي قطعته لي في «مكانٍ ما». إذا طلبت منك أن تغادري المركب، فستطيعين أوامري كقبطان.

- ثيو، أنا...

- أنا جاد يا آلي، لا أستطيع أن أسمح لك بالصعود إلى المركب غدًا، إلا إذا كنت واثقًا من أنك ستفعلين ما أطلبه منك.

أجبته وأنا أهزّ كتفيّ:

- إذًا نعم، أنت القبطان. وعليّ أن أفعل ما تطلبه.

- وقبل أن تقوليها مجدّدًا، لا علاقة لقراري بكونك امرأة وأنا لا أشكّك في كفاءتك. السبب هو أني أحبّك.

- أعلم هذا.

- جيّد. نومًا هنيئًا يا حبيّ.



وصلت الأخبار في وقت مبكر من صباح اليوم التالي بأن سباق الفاستنت سينطلق بعد خمس وعشرين ساعة من الموعد السابق. وبعد أن اتصل بالطاقم كله، غادر ثيو متوجّهًا إلى المركب على الفور، ولاحظت أنه استعاد مجددًا تركيزه وطاقته.

بعد ساعة، انضممت إليه مع باقي طاقم المركب على متن تايغرس. كانت المراكب تتمايل بشكل خطير يمينًا ويسارًا، حتى وهي لا تزال في الميناء، بفعل الرياح والأمواج التي تضربها.

- يا إلهي، عندما يخطر لي أنه كان بإمكاني أن أقود يختًا فخمًا في بحر الكاريبي في مثل هذا الوقت.

همهم روب بذلك حين سمعنا الطلقة الناريّة التي تعلن بدء السباق، بينما كنّا ننتظر دورنا بتوتّر لنغادر الميناء. وفي هذه الأثناء، استدعانا ثيو إلى سطح المركب لنلتقط صورة جماعيّة «لرحلة موفّقة».

حتى أكثر البحّارة حنكةً وتمرّسًا بدوا شاحبين ونحن نغادر أمان الميناء. ومياه البحر المرتفعة التي بدت كدوامة ترغي وتزبد بفعل الريح، بلّلت كل واحد منّا في غضون ثوانٍ.

خلال الساعات الثماني المضطربة التي تلت، زادت الرياح من زخمها، لكن ثيو بقي هادئًا، وبالكاد تعثّر أو اختلّ توازنه بينما كان يوجّه المركب عبر المياه الجامحة، ويصدر سيلًا من الأوامر ليبقينا ضمن المسار ويحافظ على سرعتنا نفسها. رُفعت الأشرعة وأُنزلت عشرات المرات بينما كنّا نحاول التعامل مع الظروف المناخيّة المتقلّبة بعنف، بما في ذلك عواصف بلغت سرعتها أربعين عقدة وظهرت أمامنا من العدم. ولم يتوقّف المطر طوال هذا الوقت عن التساقط على رؤوسنا من دون كلل.

في ذلك اليوم الأول، أوكلت إلى اثنين منّا أعمال المطبخ. حاولنا أن نقوم بتسخين الحساء، لكن استعمال الموقد المصمّم خصيصًا لإبقاء القدر مستويةً لم يفلح فتأرجُح المركب كان عنيفًا إلى حدٍّ جعل محتواها ينسكب في الأنحاء، ويصل إلينا في أكثر من مناسبة، فلجأنا إلى فرن المايكرويف لتسخين بعض المأكولات

المسبقة الطهي. حضر أفراد الطاقم بالتناوب، وهم يرتجفون في ملابسهم المخصّصة للسباق التي منعهم التعب من خلعها لوقت قصير سيخصّصونه لتناول الطعام. لكن نظرات الامتنان ذكّرتني بأنّ مهام التنظيف وإعداد الطعام أثناء السباق مُهمّة أيضًا بقدر المهام التي تجري على سطح المركب.

كان ثيو من ضمن المجموعة الأخيرة التي نزلت لتناول الطعام. أخبرني بينما كان يلتهم طعامه على عجل أنّ عددًا من المراكب اتخذ القرار بالاحتماء في المرافئ المختلفة على طول الشاطئ الجنوبيّ لإنكلترا.

قال وهو ينظر إلى ساعته:

- ستصبح الأمور أسوأ بكثير بعد أن نغادر القناة ونصبح في البحر السلتي. لاسيما بعد أن يحلّ الظلام.

كانت الساعة تقارب الثامنة مساءً وقد بدأ الضوء يتلاشى. سألته:

- وما هو رأي الآخرين؟

الجميع يرون أنّ علينا أن نكمل. وأعتقد أنّ المركب قادر على التحمّل...

وفي تلك اللحظة بالذات، وقعنا، نحن الاثنين، عن المقعد بعد أن تمايل مركب تايغرس وترنّح بشدّة نحو الميمنة، وصحت صيحة خفيفة حين ارتطمت زاوية الطاولة بشدّة بمعدتي. أما ثيو، الرجل الذي اعتقدت صادقة بأنه قادر على السير على الماء، فراح يستجمع قواه ليرفع نفسه عن الأرض.

قال وهو يراني أتلّوى من الألم:

- حسنًا، انتهينا. وكما قلت من قبل إنه مجرد سباق. سنتوجّه إلى المرفأ.

وقبل أن أتمكّن من النطق بأيّ كلمة، صعد السلالم على عجل متوجّهًا إلى سطح المركب.

وبعد مرور ساعة، قادنا ثيو إلى مرفأ وايماوث. كنّا كلنا مبلّلين حتى العظم على الرغم من ملابسنا المضادّة للمياه والمصنوعة بتقنية عالية، كما كنّا متعبين تمامًا. وبعد أن رمينا المرساة وأنزلنا الأشرعة وتحقّقنا من كلّ المعدّات للتأكّد من

أنها لم تتعرّض لأيّ ضرر، استدعانا ثيو إلى المقصورة الرئيسة. جلسنا متهالكين حيث وجدنا مكانًا فارغًا في بزّاتنا البرتقاليّة اللون المخصّصة للسباق، وقد بدَوْنا أشبه بكركند نصف ميت علق بشباك صيّاد.

- الوضع خطير جدًا، ولا نستطيع أن نكمل الليلة، ولن أعرّض حياة أيّ منكم للخطر. لكن الخبر الجيّد هو أنّ معظم المراكب الأخرى في المنافسة قد التجأت إلى المرافئ، ما يعني أنه ما يزال لدينا فرصة. ستقوم آلي ومايك بإعداد بعض المعكرونة لنتناولها لاحقًا وبإمكانكم في هذه الأثناء أن تستحمّوا بالنظام وحسب الترتيب في المناوبة. سننطلق مجددًا ما أن تُشرق الشمس. ليضع أحدكم الإبريق على النار لكي نتمكن من إعداد بعض الشاي لننعم بقليل من الدفء. سنحتاج إلى كامل قوانا مع قدوم الصباح.

نهضنا، أنا ومايك، على الفور وتوجّهنا نحو المطبخ. وأعدّ لنا مايك كوبين من الشاي فيما نحن نفرغ الباستا في قدر كبير ونسخّن الصلصة الجاهزة سلفًا. ارتشفت كوب الشاي بامتنان، وأنا أتخيّل الدفء يتدفّق ليصل إلى أصابع قدميّ الباردة.

قال مايك مكشّرًا:

- أرحّب بجرعة من مشروب أقوى. باستطاعتك أن تفهمي لماذا اعتاد البحّارة القدامى احتساء شراب الروم، أليس كذلك؟

نادى روب:

- يا آلي، حان دورك للاستحمام.

- لا تقلق، أستطيع أن أفوّت دوري واستحمّ لاحقًا.

فقال بنبرة تقدير:

- رجل طيب. سأدّعي أني أنت.

لم تُقدّر مهاراتي في الطبخ، المشكوك فيها، يومًا بقدر ما قُدّرت في تلك الليلة. وما أن انتهينا من تناول الطعام وغسل القصع البلاستيكية حتى تفرّق الجميع ليناموا بينما ما تزال الفرصة متاحة لذلك. ولمّا كان المركب غير مصمّم لينام على متنه هذا العدد من البحّارة دفعة واحدة، تدبّر الموجودون أمرهم فاستلقوا على المقاعد أو افترشوا الأرض في أكياس نومهم الخفيفة الوزن.

دخلت لآخذ حمامي وأنا أتساءل إنْ كانت المياه الباردة التي كانت كل ما تبقّى لي في نهاية صفّ البحّارة الطويل، قد جعلتني في حال أفضل أم أسوأ. وخرجت لأجد ثيو في انتظاري.

- آلي، أحتاج لأن أتحدّث إليك.

أمسك بيدي وجرّني عبر المقصورة المعتمة المزدحمة بالأجساد الجامدة ثم أدخلني إلى فسحة صغيرة مكتظّة بمعدات الإبحار يُطلق عليها اسم «مكتبة». جعلني أجلس وأخذ يديّ بين يديه.

- آلي، هل تصدّقين أنّي أحبّك؟

- نعم، بالطبع.

- وهل أنتِ مقتنعة بأني أعتقد أنك بحّارة مذهلة؟

- لست واثقة من ذلك.

ومنحته نصف ابتسامة متسائلة قبل أن أردف:

- لماذا؟

فأجاب:

- لأنني لن أشركك أكثر في السباق. بعد قليل، سيصل زورق صغير ليقلّك. تم حجز غرفة مع فطور لك قرب الميناء. أنا آسف.

وتابع قائلًا:

- لا يمكنني فحسب.

- لا يمكنك ماذا؟

- المخاطرة بك. الظروف المناخيّة سيّئة للغاية وقد تحدّثت إلى عدد من القباطنة الآخرين الذين يتحدّثون عن الانسحاب. أعتقد أنّ تايغرس قادر على الاستمرار لكنني لا أستطيع أن أبقيك على متنه. هل تفهمينني؟

اعترضت قائلة:

- لا، لا أفهم. لمَ أنا وليس غيري؟

- أرجوك يا عزيزتي، أنت تعرفين السبب. و...

توقّف قليلًا عن الكلام قبل أن يردف:

- إذا أردتِ أن تعرفي الحقيقة، فاعلمي أنّ وجودك على متن المركب يجعل من الصعب عليّ أن أركّز وأن أقوم بعملي.

حملقت إليه مصدومة وغير مصدّقة ورجوته:

- أنا... أرجوك دعني أبقَ يا ثيو.

- هذه المرة لا. أمامنا سباقات أخرى سنخوضها معًا يا حبيبتي. وأمامنا كثير ممّا لا علاقة له بالمياه. دعينا لا نغامرْ بهذا كله.

- إذًا، لماذا تكمل السباق بينما تخاف عليّ منه؟ إن كانت المراكب الأخرى تفكّر في الانسحاب فلمَ لا تحذو حذوها؟

وبدأت أختنق غضبًا حين تيقّنت من إصراره على انسحابي من السباق.

- هذا السباق هو قدري يا آلي، ولا أستطيع أن أخذل الجميع. حسنًا، من الأفضل أن تجمعي أغراضك. سيصل القارب الذي سيقلّك في أيّ لحظة.

- لكن ماذا عن خذلاني أنا للجميع؟ ماذا عن خذلاني لك؟

أردت أن أصرخ في وجهه لكني تراجعت بسبب الطاقم الذي ينام في الغرفة المجاورة. وتابعت:

- يُفترض بي أن أكون حاميتك!

قال بحدّة: ستخذلينني بالتأكيد إذا ما استمررت بالنقاش. اجمعي أغراضك، الآن. هذا أمر من قبطانك. فأرجو أن تطيعيه.

أجبت بنبرة وقحة وقد أدركت أنّ عليّ أن أتقبّل الهزيمة:

- حاضر أيها القبطان.

شعرت بغضب شديد من ثيو لأسباب عدّة مشوّشة ومربكة بينما كنت أتوجّه إلى حيث وضعت حقيبتي لأستعيدها. صعدت إلى سطح المركب، فرأيت أضواء الزورق الذي يقترب عبر المرفأ وتقدّمت لأنزل السلّم.

عقدت النيّة على أن أغادر من دون أن أوجّه أيّ كلمة أخرى لثيو، فالتقطت

الحبل الذي رماه قائد الزورق وربطه بأحد مرابط المركب فيما هو يقترب بمحاذاتنا. كنت قد أمسكت أول السلّم لأهبط عندما سُلّط ضوء مصباح يدويّ على وجهي من الأعلى.

تناهى إليّ صوت ثيو وهو يقول:

- ستنزلين في فندق وارويك غاستهاوس.

فقلت بنبرة خالية من أيّ شعور:

- حسنًا.

ورميت حقيبتي في الزورق ثم خطوت خطوة أخرى نحو أسفل قبل أن تمسك يد بذراعي وتسحبني إلى أعلى، إليه.

همس وهو يحتضنني بين ذراعيه، تترجّح أصابع قدميّ على الدرجة العليا للسلّم:

- آلي، بالله عليك، أنا أحبّك. أنا أحبّك... لا تنسي هذا أبدًا، اتفقنا؟

ذاب قلبي بين أضلعي على الرغم من غضبي، وأجبته وأنا آخذ المصباح من يده وأوجّهه إلى وجهه لأحفر ملامحه وتفاصيله في ذاكرتي:

- أبدًا. ارجعْ لي سالمًا يا عزيزي.

همست بهذه الكلمات الأخيرة بينما كان ثيو يتركني على مضض استعدادًا لفك الحبل، فنزلت السلّم وقفزت إلى الزورق الذي ينتظرني.

في تلك الليلة، وعلى الرغم من الإرهاق الشديد الذي شعرت به من يوم الإبحار المضني الذي عشته، فإنني لم أستطع أن أنام. ولعل أسوأ ما في الأمر أنني عندما فتشّت حقيبتي أدركت أني تركت هاتفي الخلويّ على متن المركب لشدة استعجالي في المغادرة. لم يعد بإمكاني الآن أن أتواصل بشكل مباشر مع ثيو وشتمت نفسي لشدّة غبائي. وبينما كنت أذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، تراوحت مشاعري بين الاستنكار لأني تُركت على الشاطئ، وبين الخوف الصرف وأنا أرى الغيوم المتلبّدة والأمطار الغزيرة تنسكب على المرفأ في الأسفل وأسمع الصفير

المتواصل للرياح العاتية. كنت أعرف كم يعني هذا السباق لثيو لكني قلقت من أن تتغلّب رغبته في الفوز على حكمه المهنيّ الاحترافيّ على الأمور. وفجأة، رأيت البحر على حقيقته: وحش لا يمكن السيطرة عليه، وحش مزمجر وقادر على أن يحوّل البشر حطامًا وأشلاءً.

ومع انبثاق الفجر المظلم، رأيت مركب تايغرس يتحرك من جديد، ليخرج من ميناء وايماوث إلى البحر المفتوح.

تمسّكت أصابعي بقلادة خطبتي بشدّة وأدركت أني لا أستطيع أن أفعل أكثر. همست وانا أراقب تايغرس حتى استحال نقطة صغيرة ابتلعتها أمواج البحر القاسية:

- وداعًا يا حبي.

أمضيت الساعات القليلة التالية مقطوعة تمامًا عن العالم. وفي النهاية، أدركت أنّ البقاء وحدي، والشعور باليأس والبؤس في وايماوث، لا فائدة منهما، فحزمت حقيبتي واستقللت القطار ومن ثم العبّارة عائدة إلى كاوز. سأكون هناك على الأقل على مقربة من مركز مراقبة الفاستنت، وأستطيع أن أكتشف أولًا بأول كيف تسير الأمور، بدلًا من الاعتماد على أخبار الإنترنت. إنّ المراكب كلها مجهّزة بأجهزة تتبّع، لكني أعلم أنها غير موثوق فيها عندما يكون الطقس سيئًا.

بعد ثلاث ساعات ونصف الساعة، حجزت لنفسي غرفة في الفندق الذي نزلنا فيه، أنا وثيو، خلال إجراء التدريبات، ثم سرت على طول يخت الرويال سكادرون لأرى إن كان بالإمكان الحصول على أيّ معلومة. وغاص قلبي عندما تعرّفت إلى عدد من البحّارة الذين بدأوا السباق معنا، وقد تجمّعوا بشكل بائس على الطاولات.

رأيت باسكال لومير، وهو رجل فرنسي، أبحرنا معًا ضمن الفريق نفسه قبل سنوات عدة، فتوجّهت نحوه لأتحدّث إليه.

قال متفاجئًا:

- مرحبًا آلي. لم أكن أعلم أنّ مركب تايغرس انسحب من السباق.

- لم ينسحب، على حدّ علمي. أمرني القبطان بالنزول والبقاء في الميناء. لقد رأى أنّ الوضع خطير جدًا.

- إنه محقّ فالوضع خطير فعلًا. عشرات المراكب انسحبت رسميًا أو تنتظر في المرفأ حتى يهدأ الطقس، وقد قرّر قبطاننا الانسحاب. كان البحر كالجحيم بالنسبة إلى المراكب الصغيرة كمركبنا. نادرًا ما رأيت طقسًا كهذا. يجب أن يكون رجالكم بخير على متن مركب بحجم مئة قدم، والمركب الذي يبحر على متنه صديقك أفضل ما هو موجود.

طمأنني بكلماته الأخيرة بعد أن رأى النظرة القلقة في عينيّ ثم أردف:

- هل ترغبين في شرب شيء ما؟ يوجد كُثُر منا هنا ونحن نحاول أن نُغرق أحزاننا الليلة.

قبلت عرضه وانضممنا إلى المجموعة التي راحت تقارن طقس اليوم بطقس سباق الفاستنت في العام 1979 حين تحطّم مئة واثنا عشر مركبًا بفعل الأمواج، ولاقى ثمانية عشر شخصًا حتفهم، من ضمنهم ثلاثة من أفراد فرق الإنقاذ.

بعد مرور نصف ساعة، وبعد أن بلغ قلقي على تايغرس وثيو أقصاه، اعتذرت منهم وارتديت سترتي الصوفيّة قبل أن أقطع الطريق المبلل بالمطر، وأتوجّه إلى مركز مراقبة الفاستنت، الواقع على مسافة قريبة، في نادي رويال أوشن للسباقات. وسألت على الفور إن كان هناك أيّ معلومات عن تايغرس.

قال المراقب وهو يتحقّق من الشاشة أمامه:

- نعم، اجتاز المركب بيشوب روك وهو حاليًا على بعد أميال قليلة منها ويحقق تقدّمًا جيدًا. إنه في المرتبة الرابعة حاليًا. لعلمك، في هذا السباق، ومع عدد الانسحابات التي تم إعلانها، قد يربح السباق بشكل تلقائي.

بعد أن اطمأنت إلى أنّ الأمور على ما يُرام وأن ثيو بخير حتى الساعة، عدت إلى يخت الرويال سكادرون حيث اشتريت سندويشًا وأكلته وأنا أراقب مزيدًا من البحارة يصلون متعبين بثيابهم الرثّة الغارقة في المياه. سمعتهم يقولون إنّ الرياح عادت لتعصف بقوة من جديد لكني كنت مشتّتة الذهن إلى حدّ منعني من المشاركة في أحاديثهم فعدت أدراجي إلى الفندق وتمكّنت في نهاية الأمر من بضع ساعات من النوم المتقطّع. وفي النهاية، استسلمت وعدت مجدّدًا إلى مركز

المراقبة في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي بينما كان الفجر الرماديّ اللون يشقّ الظلمة. وما أن دخلت حتى حلّ الصمت المطبق على الغرفة.

- هل من أخبار؟

رأيت المراقبين يتبادلون نظراتٍ قلقةً في ما بينهم فسألت وقد انتفض فؤادي في صدري ويبّس الخوف حلقي:

- ما الذي حصل؟ هل تايغرس على ما يُرام؟

وعاد تبادل النظرات من جديد.

- تلقينا نداء استغاثة قرابة الساعة الثالثة والنصف من صباح هذا اليوم. يبدو أنه أحد الرجال على متن المركب. أُرسلت دوريّة من خفر سواحل ومروحيّة إنقاذ، وما نزال بانتظار الأخبار.

- هل يعلمون منْ؟ ما الذي حصل؟

- آسف يا حب، ليس لدينا أيّ تفاصيل في الوقت الراهن. لمَ لا تجلبين لنفسك كوبًا من الشاي، وسنبلغك ما إن تصلنا أيّ أخبار.

أومأت برأسي وأنا أحاول السيطرة على حالة الهستيريا التي بدأت تنتابني. إنّ مركب تايغرس حديث ومجهّز بأفضل التقنيات وبنظام اتصالات رائع. علمت أنهم يكذبون عليّ عندما قالوا إنهم لا يعرفون التفاصيل. وإذا صحّ إحساسي، فهذا يعني أمرًا واحدًا.

راح قلبي ينبض بسرعة كبيرة وشعرت بأنني سأفقد وعيي، فتوجّهت إلى حجرة السيدات وانهرت على مقعد المرحاض محاولة التقاط أنفاسي بينما الذعر يكتسحني. لعلّي مخطئة... لعلّهم لا يستطيعون إطلاعي على التفاصيل حتى يتّضح لهم ما حصل فعلًا. لكن، وفي أعماق قلبي وروحي، عرفت الحقيقة.

11

أعادت طائرة مروحيّة جثة ثيو إلى البرّ الرئيسيّ. كان مدير السباق شديد اللطف في تعامله معي وأعرب عن استعداده لتأمين انتقالي بسيارة تنقلها عبّارة تجتاز نهر ساوثهامبتون، في حال كنت أرغب في ذلك، ومن ثمّ إلى المستشفى حيث سترقد جثة ثيو في المشرحة.

- إن اسمك واسم والدة ثيو مدوّنان على استمارة الإدخال باعتباركما أقرب الأقرباء. يؤسفني قول ذلك، ولكن ينبغي لكل واحدة منكما ملء الأوراق اللازمة. هل أتّصل بالسيدة فاليز-كينغز أم باستطاعتك القيام بذلك؟

أجبته وتفكيري مشوش:

- أنا.... لا أعرف.

- ربّما كان من الأفضل أن أتّصل بها بنفسي. أخشى أن تسمع الخبر عبر الراديو أو التلفزيون. والمؤسف هو أن خبر وفاته ستتناقله كل شبكات الأخبار في العالم. إنني في غاية الأسف يا آلي. وسأجتنب ما يتداوله الناس في أنّ ثيو لقي حتفه وهو يمارس الرياضة الأحب إلى قلبه. فأنا أشعر بالأسى من أجلك، ومن أجل أفراد الطاقم ورياضة الإبحار.

لم أجد الكلمات المناسبة للردّ عليه.

وإذ بدا في حيرة من أمره لا يعرف ما عليه أن يفعله من أجلي بينما كنت أجلس أشبه بالمشلولة في مكتبه قال:

- حسنًا، أتريدين مني أن أعيدك إلى الفندق لتنالي قسطًا من الراحة؟

رفعت كتفيّ بيأس، وقد أدركت في قرارة نفسي مدى حسن نيته، في حين كنت واثقة من أنني لن أذوق طعم «الراحة» أبدًا مرةً ثانية.

- لا عليك، أستطيع العودة سيرًا على الأقدام.

- إذا احتجت إلى أي شيء يا آلي، لا تترددي بالاتصال بي عبر هاتفي المحمول. وأبلغيني إذا ما أردت أن أؤمّن لك سيارة. سيعود باقي أفراد الطاقم بحرًا إلى كاوز على متن مركب تايغرس. وأنا واثق من أنهم سيرغبون في التحدث إليك في مرحلةٍ معيّنة، ليرووا لك ما حصل بالضبط، في حال كنتِ مستعدة لذلك. وسأتولى في هذه الأثناء، مَهمّة الاتصال بوالدة ثيو هاتفيًا.

قطعت طريق العودة إلى الفندق الواقع قبالة واجهة الميناء الأماميّة بتثاقل، وتوقّفت لبعض لحظات أتأمّل البحر الرماديّ القاسي. وحين وقفت هناك، رحت أصرخ في وجهه بكلمات فاحشة وقد انفجرت بالعويل، وأنا أسأله أن يجيبني لماذا أخذ مني أبي أوّلًا ومن ثمّ ثيو.

وأقسمت في تلك اللحظة لنفسي بألّا تطأ قدمي متن قارب أبدًا بعد اليوم.

خلال الساعات القليلة التالية، عانيت من فراغ شديد، بحيث جلست في غرفتي، عاجزة عن التفكير أو القيام بأي شيء.

جلّ ما كنت أعرفه هو أنه لم يتبقّ أيّ شيء.

أيّ شيء على الإطلاق.

رنّ الهاتف قرب سريري فنهضت من مكاني بشكل آلي للإجابة عليه. قالت لي عاملة الاستقبال إن بعض الأصدقاء ينتظرونني في أسفل مضيفة:

هناك شخص يُدعى السيد روب بيلامي ومعه ثلاثة آخرون.

على الرغم من فقداني الإحساس، أدركت بأنه لا مفرّ من النزول للاستماع إلى ما حصل وأدّى إلى وفاة ثيو، مهما يكن مقدار الألم الذي سأشعر به لدى رؤية أفراد الطاقم. فطلبت من عاملة الاستقبال أن تقول لهم إنني سأوافيهم إلى ردهة الفندق.

عندما دخلت القاعة، وجدت روب، وكريس، ومايك وغيي في انتظاري. كانوا جميعًا تحت تأثير الصدمة فلم يتمكّنوا من النظر إليّ وهم يدمدمون بعبارات التعزية.

- بذلنا قصارى جهدنا..

- كان شجاعًا جدًّا وقفز في الماء لإنقاذ روب.

- ليس ذنب أحد، كان حادثًا مأسويًا.

أومأت برأسي وبذلت جهدًا لأجيب على عباراتهم المتعاطفة، محاولة التظاهر بأنني إنسانة عمليّة. وفي نهاية الأمر، نهض مايك، وكريس وغيبي استعدادًا للانصراف، بينما أعرب روب عن رغبته بالبقاء قليلًا بعد.

لوّحت لهم مودّعةً بشكل مثير للشفقة.

- أرجو أن تعذريني يا آل، ولكنني أحتاج إلى شراب.

وأشار بيده إلى النادلة الجالسة بتكاسل في مركز خدمتها في الزاوية وتابع:

- ومن الأفضل أن تشربي كأسًا معي قبل أن أخبرك بما حصل بالضبط.

وبعد أن تسلّح كلّ منا بكأس من البراندي، أخذ روب في النهاية نفسًا عميقًا ورأيت الدموع تترقرق في عينيه.

فألححت عليه قائلة:

- أرجوك يا روب، أخبرني بما حصل.

- حسنًا. كان القارب شبه متوقف، غير قادر على التقدّم إلى الأمام بسبب رداءة الطقس. وكنت على سطح مقدّم القارب في نوبة الحراسة عندما جاء ثيو ليحلّ محلي. وبينما كنت أفك حزام الأمان المثبّت بحبل عارضة الصاري، ضربتني موجة قوية جدًّا ورمتني عن ظهر القارب في البحر. ويبدو أنّني فقدت الوعي تحت تأثير الضربة، وأصبحت عرضة للغرق، ما دفع بثيو إلى إطلاق جهاز الإنذار، ورمي عوامة الإنقاذ ومن ثمّ القفز في المياه. وفي حين أنني كنت ما أزال في تلك المرحلة فاقد الوعي، أخبرني الفتيان بأن ثيو تمكّن من السباحة للوصول إليّ، وسحبني نحو عوامة الإنقاذ ووضعني عليها؛ غير أن موجة قوية أخرى دفعته بعيدًا عني وأغرقته. واختفى بعدها كليًا عن الأنظار، وكانت الظلمة حالكة والطقس عاصفًا، وأظنّك تدركين أكثر مني مدى صعوبة العثور على أحد في المياه في ظل ظروف مماثلة. لو أنه تمكّن من البقاء متمسّكًا بعوامة الإنقاذ...

وكبح روب تنهيدته الحزينة وأردف:

- لبقي على قيد الحياة. طلب أفراد الطاقم طائرة إنقاذ مروحيّة ومن ثم تمكّنوا من العثور عليّ وانتشالي من المياه بوساطة آلة رافعة، وذلك بفضل المصباح

المعلّق بعوّامة الإنقاذ. ولكن ثيو... تمكّنوا من تحديد مكان جثته بعد مرور حوالى الساعة عبر تعقّب محطة الإرشاد الراديوي للطوارئ. إنني في غاية الأسف. لن أسامح نفسي أبدًا على ما حصل.

شعرت للمرّة الأولى منذ أن سمعت الخبر، بشيء من الانفعال يجري في عروقي. فوضعت يدي فوق يده قائلة:

- كلّنا نعلم يا روب مخاطر الإبحار، وكان ثيو على علم بها أكثر من أي شخص آخر.

- معك حق يا آل، ولكن ليتني لم أفكّ الحزام في تلك اللحظة... تبًّا.

ووضع يده على حاجبيه ليخفي عينيه وتابع:

- كان من المفترض أن تكونا معًا.. ولكن ذلك بات مستحيلًا بسببي أنا. لا شكّ في أنك تكرهينني!

وأجهش روب بالبكاء لاإراديًا ولم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئًا سوى تربيت كتفه بشكل عفويّ. والأسوأ من ذلك كلّه هو أن جزءًا مني كان يكرهه فعلًا لأنه نجا من الموت في حين أن ثيو لم ينجُ.

- ليس الذنب ذنبك. وأي ربّان سواه كان ليفعل الشيء نفسه. لا أتوقّع منه أقلّ من هذا. غير أن بعض الأمور..

وعضضت شفتي لأكبح الدموع التي كادت تنهمر من عينيّ وقد نفدت مني عبارات الاسترضاء.

مسح روب الدموع من عينيه المفعمتين بالشعور بالذنب وقال:

- اعذريني يا آلي، أعلم أنه لا يُفترض بي أن أجلس هنا وأثرثر، لكنّني كنت بحاجة إلى التنفيس عما في داخلي.

- شكرًا لك. فأنا ممتنّة كل الامتنان لأنك أخبرتني القصة كاملة. لا أظنّ أن ما حصل كان سهلًا عليك أيضًا.

خيّم علينا الصمت لبضع دقائق قبل أن ينهض روب من مكانه مستعدًّا للانصراف.

- لا تتردّدي في الاتصال بي إن احتجت لأي شيء. بالمناسبة..

ودسّ يده في جيب بنطاله الجينز مضيفًا:

- وجدت هذا في القارب. أهو لك؟

أخذت هاتفي المحمول منه قائلة:

- أجل، شكرًا.

قال لي هامسًا:

- ثيو أنقذ حياتي. إنه بطل عظيم. آسف جدًّا.

نظرت إلى روب البائس وهو يغادر الردهة، ومن ثم جلست أفكّر في أن وجودي في هذا المكان لم يعدْ له أي معنى، بعد أن قابلت أفراد الطاقم كلّهم. كما كنت واثقة من أن سيليا سترغب في التعرّف إلى جثّة ابنها بنفسها. وتساءلت في سري، وقد نهضت من مكاني وفي داخلي رغبة شديدة بمغادرة المكان الذي أصبح يشكّل بالنسبة إليّ مسرح إعدامي، إلى أين سأذهب. بإمكاني العودة إلى المنزل في جنيف، ولكن ماذا عن ثغرة الفقدان التي تنتظرني هناك ولا تنفك تتّسع؟

لم يعدْ لي أي ملاذ.

دخلت غرفتي وبدأت أوضّب أشيائي بصورة تلقائية.

تركت هذه المرّة هاتفي مقفلًا لسبب مناقض تمامًا للسبب الذي جعلني أقفله يوم كنت على متن القارب برفقة ثيو. كنت منهارة كليًّا ولا أستطيع التحدث إلى أيّ فرد من أفراد أسرتي لأخبره بما حصل. ولم تكن أيّ من شقيقاتي على علم بعلاقتنا، لأنّني افترضت بأنّ هناك متسعًا من الوقت ليلتقيهن ثيو في المستقبل. وكيف يمكن أن أشرح لهنّ ما كان يعنيه بالنسبة إليّ في حين لم يمضِ وقت طويل على علاقتنا؟ صحيح أنّ اتحادنا الجسديّ حديث العهد، لكنّني كنت أشعر وكأن روحينا متحدّتان منذ الأزل.

عندما توفّي بابا سولت، سلّمت جدلًا بالنظام الطبيعيّ لدائرة الحياة. وكان ثيو بجانبي يواسيني ويمنحني الأمل ببداية جديدة. واتّضح لي في تلك اللحظة أنني

اعتمدت كثيرًا عليه ليملأ المساحة الفارغة التي خلّفها بابا وراءه. ولكنّه رحل بدوره وأخذ معه أحلامي بالمستقبل. ففي غضون ساعات قليلة، حرمتني الحياة من ثيو وانتزعت مني شغفي الأبديّ بالإبحار، من دون شفقة أو رحمة.

وبينما كنت أهمّ بمغادرة غرفتي حاملة معي حقيبتي، رنّ جرس الهاتف الموضوع على المنضدة قرب السرير.

أجبت بحذر:

- آلو؟

- أنا سيليا يا آلي. قال لي المدير المسؤول عن السباق إنك تقيمين في فندق نيو هولموود.

- أنا... مرحبًا.

- كيف حالك؟

أجبت متمتمة وقد فقدت القدرة على أداء دور الفتاة الشجاعة القويّة: «مزرية». ولكن سرعان ما أدركت بأنني لست مضطرة لضبط نفسي على الأقل أمامها.

- كيف حالك أنتِ؟

- مزرية أيضًا. عدت لتوّي من المستشفى.

لم ننبس بأي كلمة بينما كانت كلّ واحدة منّا تحاول استيعاب الحقيقة المطلقة والمريعة التي انطوت عليها كلماتها. وكنت أشعر بسيليا تقاوم رغبتها بالبكاء قبل أن تردف قائلة:

- كنت أتساءل يا آلي إلى تنوين الذهاب.

- لست واثقة بعد... لا أعرف.

- ما رأيك لو تستقلّين العبّارة وتتوجهين إلى ساوثهامبتون؟ بإمكاننا السفر معًا إلى لندن حيث تستطيعين صرف بضعة أيام برفقتي، فالاهتمام الإعلاميّ المسعور بالحادثة أشبه بكابوس حقيقيّ. باستطاعتنا الاختباء في منزلي لبعض الوقت. ما رأيك؟

شعرت بغصّة في حلقي فيما انهمرت الدموع على خديّ امتنانًا.

- أظنّ أنه... يسعدني ذلك.

- تعرفين رقم هاتفي. اتصلي بي لإبلاغي بموعد وصولك إلى محطة ساوثهامبتون لسكك الحديد وسأكون في انتظارك.

- سأفعل يا سيليا. شكرًا لك.

وأدركت فيما بعد بأنّ اتصال سيليا بي، في تلك اللحظات الأكثر ظلمة في حياتي، منعني من رمي نفسي في المياه الهائجة في طريق العودة بالعبّارة إلى ساوثهامبتون، رغبة منّي في اللحاق بثيو.

عند وصولي إلى المحطة، رأيت وجهها الناصع البياض شبه مخفيٍّ خلف النظّارة السوداء الكبيرة، فهرعت وارتميت بين ذراعيها المفتوحتين، تمامًا كما كنت لأفعل مع ماما. وقفنا مسمّرتين في تلك البقعة لوقت طويل، نحن الغريبتين نسبيًّا، اللتين لا يربط بيننا سوى وجعنا المتبادل على خسارة الشخص الوحيد القادر على أن يتفهّمنا.

عندما وصلنا إلى واترلو، أقلّتنا سيارة تاكسي إلى المنزل الجميل الأبيض في تشلسي حيث سارعت سيليا التي أدركت بأننا لم نتناول شيئًا منذ سمعنا الخبر، إلى إعداد طبق من العجّة لنا. كما سكبت كأسين كبيرتين من النبيذ وجلسنا على الشرفة نستمتع بتلك الأمسية الدافئة والهادئة من شهر آب.

- أريد أن أخبرك شيئًا يا آلي، وقد تعتبرين كلامي سخيفًا..

وارتجفت بنية سيليا الدقيقة من شدة الإرهاق وتابعت:

- أثناء وجودكما هنا للمرّة الأخيرة، تيقّنت من ذلك. وعندما قبّلته قبلة الوداع، شعرت بأنّني أودّعه إلى الأبد.

- أجل، وشعر ثيو بخوفك يا سيليا. لم يكن على طبيعته خلال رحلة العودة إلى ساوثهامبتون بعد لقائه بك.

- هل كان قلقًا من حدسي أم من حدسه؟ أتذكرين أنه قال لنا قبل مغادرتكما

بوقت قليل، إنه يرغب في دخول الحمّام، طالبًا إلينا موافاته إلى الرواق؟ بعد أن أقفلت الباب وراءكما، توجّهت عائدة إلى المطبخ ووجدت هذا المظروف موضوعًا على المنضدة في الرواق وموجّهًا إليّ.

ودفعت نحوي مظروفًا كُتب على الجهة الأماميّة منه « أمي» بخط ثيو الأنيق.

أضافت سيليا:

- فتحت المظروف ووجدت نسخة جديدة من وصيّته، إضافة إلى رسالة لي وأخرى لك يا آلي.

رفعت يدي إلى فمي صارخة:

- يا إلهي!

- قرأت رسالتي، ولكنني لم أفتح رسالتك وتركتها داخل المظروف. لعلّك لست مهيّأة بعد لقراءتها، ولكنّ واجبي يحتّم عليّ أن أنفّذ ما طلبه منّي في الرسالة الموجّهة إليّ وأسلّمك الرسالة.

وسحبت مظروفًا صغيرًا من داخل المظروف الكبير وناولتني إياه. أمسكته بيدين مرتعشتين قائلة:

- ولكن يا سيليا، إذا كان قلبه قد حدّثه بذلك، فلماذا لم ينسحب من السباق على غرار ما فعل ربابنة كُثُر؟

- أظنّ أنّ كلتينا تعرف الجواب يا آلي. لا بدّ من أنك تعلمين، بصفتك بحّارة، بأنّك في كلّ مرّة تصعدين فيها إلى متن قارب للمشاركة في سباق جديد، تكونين معرّضة لخطر كبير. وتذكّري ما قاله ثيو لنا في ذلك النهار، عن أنه يمكن أن تصدمه حافلة ويلقى حتفه.

وهزّت كتفيها بحزن واستطردت:

- لعلّه شعر بأن قدره الموت...

- الموت في سن الخامسة والثلاثين؟! بالتأكيد لا! لنفترض بأنه كان يشعر بذلك، لماذا أحبّني؟ لقد عرض عليّ الزواج! كان لدينا حياة بأكملها. كلّا.

هززت رأسي بقوّة وأضفت:

- لا أستطيع تقبّل هذه الفكرة.

- من البديهي ألا تتقبّليها، وأرجو أن تسامحيني لأنّني ذكرتها، ولكنّني وجدت فيها بعض العزاء بطريقة غريبة. فالموت حقيقة مربكة، ولا أحد منا يتقبّل فكرة وفاة أحبائنا. ومع ذلك، إنها الحقيقة الوحيدة المؤكَدة التي سيواجهها كلّ واحد منا بدوره، بصرف النظر عن الولادة.

نظرت إلى الرسالة التي كنت أحملها بين يديّ، وتنهّدت بإذعان قائلة:

- ربما كنت محقّة يا سيليا. ولكن ما الذي دفعه إلى كتابة وصية جديدة أو ترك رسالة لكلّ منا لو لم يكن قلبه يحدّثه بشيء ما؟

- من الإنصاف الاعتراف بأنّ ثيو منظّم ودقيق للغاية، حتى في الموت. ولا أظنّ أن ذلك يُخفى عليك.

أضحكنا تعليقها على الرغم من حزننا.

- أجل، تمامًا مثل والدي. حسنًا، أظنّ أنّه عليّ أن أقرأ الرسالة.

- على راحتك. أريد منك الآن أن تعذريني يا آلي، لأنني سأصعد واسترخي في حوض الاستحمام.

غادرت سيليا المكان، وأدركت بأنها كانت تريد أن تتركني بمفردي أكثر من حاجتها إلى الاستحمام.

ارتشفت قليلًا من النبيذ، ثم وضعت الكأس جانبًا، وفتحت المظروف بأصابعي المرتعشة. إنها تلك الرسالة الثانية التي تُسلَم إليّ من وراء القبور لأطّلع على فحواها.

من الرجل الذي ليس لديه مسكن ثابت.
(إنني في الواقع، على متن القطار الذي يقلّني
من ساوثهامبتون إلى هيثرو للقائك).

حبيبتي،

عليّ الاعتراف بأنّ هذه الفكرة السخيفة فعلًا عشّشت في رأسي في الآونة الأخيرة. ولكنّك تعلمين جيدًا ووالدتي ستؤكّد لك ذلك، لا أستطيع إلّا أن أكون

منظّمًا. فهي تحتفظ بنسخةٍ من وصيّتي منذ السنوات الأولى التي بدأت فيها المشاركة في السباقات. صحيح أنّني لا أملك أموالًا كثيرة لأورّثها لأحد، ولكنّني أظنّ أنّ وضع النقاط على الحروف يُسهّل الأمور على الورَثَة.

وبعد أن دخلتِ الآن حياتي، وأصبحتِ محور عالمي، والمرأة التي أريد أن أُمضي باقي أيام عمري بقربها، تغيّرت الأمور. ولأنّ علاقتنا ليست «رسميّة» في الوقت الحالي، في انتظار أن تضعي الخاتم في أصبعك، إلى جانب القلادة التي تضعينها حول عنقك، فمن الضروري أن يعرف الجميع، أقلّه من الناحية المادية، ما هي نوايانا، في حال حصل لي أي مكروه.

أنا واثق من أنك ستشعرين بالإطراء والإثارة (هِهِه) عندما أخبرك بأنّني سأترك لك مزرعة الأغنام في «مكانٍ ما». لاحظت في تلك الليلة كم أحببت المزرعة (أبدًا) ولكن الأرض المحيطة بها، مع الترخيص بالتخطيط المدنيّ، توازي شيئًا على الأقل. (شيء ما في مكانٍ ما-اسم مُحتمَل للمنزل. ما رأيك؟). وأريدك أيضًا أن تحتفظي بنيبتون، منزلي الحالي في البحار. لست أملك بصراحة، أي ممتلكات ماديّة أخرى على درجة عالية من القيمة. هذا بصرف النظر عن دراجتي، التي يمكن أن تشعري بالإهانة في حال تركتها لك. ولا أستطيع أن أنسى رأس المال الهزيل الذي ورثته عن والدي السخيّ، حيث بإمكانك استخدامه للتزوّد بمزيدٍ من النبيذ الأحمر لاحتسائه في «مكانٍ ما» في المستقبل.

آسف، ولكن المسار وعر قليلًا، وأريد منك أن تعذريني على خطّي الرديء. أنا واثق من أنّني سأنتزع هذه الرسالة من أمي فور عودتنا إلى المنزل بعد انتهاء السباق ليتسنّى لي، على الأقل، أن أطبعها. ولكن إذا لم تُتَحْ لي الفرصة لأفعل ذلك، لأنني لقيت حتفي، فباستطاعتي أن أرقد قرير العين لأن الأمور تسير تمامًا كما خطّطت لها.

والآن يا آلي، أخشى أنّني سأنساق هنا قليلًا وراء عواطفي، لأنّني أريد أن أقول لك كم أحبّك وما كنتِ تعنينه بالنسبة إليّ خلال تلك الفترة القصيرة التي أمضيناها معًا، فترة هي الأهم في حياتي. عليّ الاعتراف بأنّك أحدثت خضّةً رائعة على متن

قاربي (آمل أن تعجبك المقارنة بالملاحة البحرية) وأتحرّق شوقًا لأمضي بقية عمري ممسكًا بكِ وأنت تتقيأين، ونناقش معًا أصول كنيتك الغريبة محاولًا معرفة كل تفصيل صغير عنك ونحن نتقدّم في السنّ معًا ونصبح عجوزين من دون أسنان.

وإذا أراد القدر أن تصل هذه الرسالة إليك، فارفعي عينيك نحو النجوم، واعلمي بأنني أنظر إليك من أعلى. ولا بدّ من أنني سأكون احتسي كأسًا من الجعّة مع بابا وهو يخبرني عن عاداتك الطفولية السيئة.

حبيبتي آلي، يا عنقود الثريّا، لا أستطيع أن أصف لك مقدار السعادة التي أضفتها إلى حياتي.

عيشي سعيدة! هذه هي هديتك.

ثيو

بقيت جالسة في مكاني في ذلك المساء الكئيب، أبكي وأضحك في الوقت عينه. كانت الرسالة تجسّد طبيعة ثيو الخالية من التكلّف إلى حدّ بعيد، بحيث انفطر قلبي حزنًا من جديد.

التقيت سيليا صباح اليوم التالي على الفطور. ففي الليلة السابقة، قادتني إلى غرفتي من دون أن تطرح أي سؤال عن محتوى الرسالة، وكنت ممتنة كلّ الامتنان لذلك. قالت لي إنها مضطرّة للخروج لتسجيل وفاة ثيو وإنجاز كل الإجراءات المتعلقة بنقل جثمانه إلى لندن، مشدّدة على ضرورة أن نحدّد معًا موعدًا للجنازة.

- اسمعي يا آلي، طلب ثيو مني في الرسالة التي تركها لي أن أسألك إنْ كنت توافقين على العزف على الناي خلال جنازته.

- حقًّا؟

نظرت إليها بعينين مليئتين بالدهشة، وقد تفاجأت لدى إدراكي إلى أي حدّ كان ثيو يفكّر بالمستقبل.

تنهّدت سيليا قائلة:

- نعم، أصدر ثيو تعليماته بشأن ترتيبات الدفن لسنوات خلت. فهو يرغب

بحفل تأبين إلى جانب الجنازة، يليه حرق الجثة الذي أصَر على ألّا يحضره أحد. كما طلب أن يُرمى رماده في ميناء ليمنغتون حيث تعلّم الإبحار للمرّة الأوّلى برفقتي. أتظنين أنك قادرة على القيام بذلك؟

- أنا... لست أدري.

- حسنًا، أخبرني بأنك تعزفين بشكل رائع على الناي. وأظنّ أنك حزرت بأن الموسيقا التي اختارها ليست تقليديّة، تمامًا كما لم يكن تقليديًا. يريد منك أن تعزفي معزوفة «الفتى جاك» من مجموعة فانتازيا حول الأغاني البحرية البريطانية. أظنّ أنك سمعتها خلال الليلة الأخيرة من مهرجان برومز؟

- أجل، أعرفها جيدًا. أعتقد بأن كل البحارة الأحياء يعرفون اللحن الذي يشكّل جزءًا من القطعة الموسيقية القديمة المعروفة باسم «رقصة البحار المزمارية».

استرجعت في رأسي بعض النوتات الموسيقية، نوتات عزفتها لسنوات طويلة خلت، ولكنها ما تزال محفوظة في ذاكرتي. كلّ ما طلبه ثيو ينم عن طبيعته، بحيث يعبّر عن عشقه للإبحار وفرحه الفطريّ بكونه على قيد الحياة.

- أجل، أظنّ أنّني سأعزفها من أجله.

وللمرّة الأولى منذ وفاته، انفجرت بالبكاء.



خلال الأيام القليلة التالية التي لم تخلُ من الإرهاق، لم نجد بدًّا من الانزواء والتواري عن الأنظار، خاصّة وأن المراسلين الصحفيين اتخذوا من باب المنزل الأمامي مقرًّا لهم. فكنا نعيش في شبه عزلة، مكتفيتين بالخروج للتزّود بالطعام وشراء فساتين سوداء للجنازة. وبينما كنّا نراجع المهام المهيبة الواجبة، ازداد احترامي لـ پاپا سولت لتنسيقه مراسم جنازته بنفسه، كما ازداد أيضًا احترامي لسيليا. فعلى الرغم من أنّ ثيو كان يعني لها كل شيء، لم تكن أنانية في حزنها عليه.

- لا أظنّ أنّ الوقت تسنّى له يا آلي ليخبرك بأنّه لطالما أحبّ كنيسة الثالوث الأقدس في شارع سلوان، الواقعة على مسافة قريبة من هنا. التحق بمدرسة إعدادية

مجاورة لها، وكانت تلك كنيسته المحلية. أذكر أنني شاهدته وهو يغني منفردًا «في مكانٍ بعيدٍ في مزود» مع جوقة الكنيسة يوم كان في الثامنة من عمره تقريبًا.

وارتسمت على شفتيها ابتسامة مفعمة بالحب وتابعت:

- ما رأيك لو نقيم مراسم الدفن في تلك الكنيسة؟

لا ريب في أن تأثّري بحرصها على الوقوف عند رأيي في كل القرارات التي تتّخذها، على الرغم من أن تعليقاتي غالبًا ما تكون بعيدة كلّ البعد عن الموضوع، كان يفوق الوصف. فقد عرفت ثيو، ابنها الوحيد، طوال حياتها، ومع ذلك تحلّت بكثير من الصبر والتعاطف وهي ترى وتدرك ما أشعر به تجاهه، وما كان يشعر به تجاهي.

- افعلي كلّ ما تجدينه مناسبًا يا سيليا.

- هل ترغبين في دعوة أحد للمشاركة في الجنازة؟

- لم يكن أحد على علم بعلاقتنا باستثناء الأشخاص الذين دعوتهم كأفراد الطاقم والجمعية العامة للملاحة. ولا أعتقد أن الباقين سيتفهّمون الأمر.

ولكنها كانت متفهّمة. ففي كلّ مرّة كنا نجد أنفسنا في المطبخ عند الساعة الثالثة فجرًا، عندما يكون الألم في ذروة حدّته، كنا نجلس إلى المائدة ونتحدث إلى ما لانهاية عن ثيو، محاولتين إيجاد العزاء الذي نصبو إليه. كانت سيليا تمتلك مخزونًا وافرًا من التفاصيل الصغيرة يعود إلى خمس وثلاثين سنة، في حين أن مخزوني لا يكاد يجاوز الأسابيع. وتمكّنت من خلالها، من التعرّف على ثيو بشكل أفضل، ولم أشعر مطلقًا بالملل من النظر إلى صورة تعود إلى طفولته، أو قراءة حرف كتبه خلال فترة وجوده في المدرسة الداخلية وأخطأ في هجائه.

وبقدر ما كنت أعي في أعماقي بأنّ ذلك ليس حقيقيًا، كنت أشعر بالعزاء لأنه بقي حيًّا من خلال كلّ كلمة كنا نتبادلها أنا وسيليا. ولا شيء يمكن أن يفوق ذلك أهمّية.

12

سألتني سيليا حين وصلنا إلى كنيسة الثالوث الأقدس:

- هل أنتِ جاهزة؟

أومأت برأسي، وضغطت كلٌّ منّا على يد الأخرى في حركة تضامن سريعة، قبل أن نترجّل ونتجاوز آلات التصوير التي لمعت في وجهينا، ومن ثمّ ندخل إلى الكنيسة. كانت الكنيسة الأشبه بكهف مكتظة إلى حدّ كبير بحيث لم يبقَ مكان سوى لمن يرغب في الوقوف في الخلف، ما جعلني أذرف دموعًا كنت قد أقسمت على ألّا أجعلها تسيل.

كان ثيو بانتظاري عند المذبح بينما توجّهت برفقة سيليا نحو تابوته. ابتلعت ريقي بصعوبة بسبب هذه المحاكاة المريعة للزواج الذي لربما احتفلنا به هنا لو بقي على قيد الحياة.

بعد أن جلسنا في مكاننا على المقعد الخشبي الطويل في الصف الأمامي، بدأ القدّاس، وقد اختار ثيو مزيجًا موسيقيًّا لمراسم عزائه. بعد خطاب الكاهن، جاء دوري أنا. انضممت إلى أوركسترا صغيرة مؤلّفة من كمانات وتشيلو وكلارينت ومزمار، تمكّنت سيليا من جمعها معًا في الجهة الأماميّة من الكنيسة. وبعد أن أرسلت له صلاة صامتة، وضعت الفلوت في فمي وبدأت أعزف. وعندما انضمّت الاوركسترا إليّ في العزف، أصبح الإيقاع أسرع ورأيت الجموع تبدأ بالابتسام ليقف الواحد منهم تلوَ الآخر. وبعد أن هبّ الجميع على أقدامهم، بدأوا بأداء حركة الركب المحنيّة التقليديّة «لرقصة البحّار»، وقد شبك كل واحد منهم ذراعيه ومدّهما أمامه. رفعت الأوركسترا الصغيرة الوتيرة، وعزفت كما لو أنّ حياتنا متعلّقة بما نفعله بينما تحرّكت الجموع بسرعة أكبر نحو أعلى وأسفل وبشكل متناسق مع الموسيقا.

وما أن انتهينا حتى تعالى الصياح منهم والتهليل وبدأ التصفيق. وطالبونا بالإعادة كما يحصل دومًا كلما عُزفت هذه المقطوعة. انسحبت مع الفلوت إلى المقعد الأمامي وجلست بجانب سيليا التي شدّت على يدي بقوة.

- شكرًا لك يا عزيزتي آلي، شكرًا جزيلًا لك.

عندئذ، دنا روب من مقدّمة الكنيسة، وصعد الدرجات القليلة قبالة تابوت ثيو وقام بتعديل الميكروفون قبل أن يتكلّم:

- طلبت مني سيليا، والدة ثيو، أن أقول بضع كلمات. لقد قضى ثيو، كما تعلمون جميعًا، وهو يحاول إنقاذ حياتي. لا أستطيع أن أشكره الآن على ما فعله من أجلي تلك الليلة، لكنني أعلم أنّ تضحيته جلبت ألمًا وعذابًا كبيرين لسيليا وآلي، المرأة التي أحب. ثيو، من كل من أبحر معك يومًا، نرسل لك كل الحب والاحترام والشكر. كنت وبكل بساطة الأفضل. وآلي...

- ونظر إليّ مباشرة قبل أن يردف:

- هذا ما طلب أن يُعزف لك.

شعرت مجدّدًا بيد سيليا على يدي، عندما نهض أحد أفراد الجوقة وقدّم أداءً جميلًا لأغنيّة «في مكانٍ ما - ساموير»، من فيلم وست سايد ستوري. حاولت أن أبتسم للنكتة السريّة التي خصّني بها ثيو إلا أنّ الكلمات المحزنة أثّرت فيّ إلى أقصى حدّ. ومع انتهاء الأغنية، رفع ثمانية من أفراد طاقم ثيو في سباق فاستنت، ومن ضمنهم روب، التابوت بعناية وهدوء على أكتافهم العريضة وبدأوا يسيرون فيه إلى خارج الكنيسة. قادتني سيليا معها، في الصف الأول من موكب المشيّعين الذين ساروا خلف التابوت.

رأيت، ونحن نشقّ طريقنا إلى الخارج، وجوهًا مألوفة تجلس في الكنيسة. كانت ستار وسيسي بين الحشود، فابتسمتا لي بحبّ وتعاطف حين مررت بهما. وقفنا أنا وسيليا في الخارج، في شارع سلوان، نراقب تابوت ثيو وهو يوضع في سيارة نقل الموتى التي ستحمل جسده في رحلته الانفرادية إلى المحرقة. وبعد أن تحرّكت السيارة مبتعدة وودّعناه وداعًا أخيرًا صامتًا، التفتُّ إلى سيليا وسألتها كيف عرفت شقيقاتي.

- طلب مني ثيو في رسالته أن أتّصل بمارينا إذا حصل له أيّ خطب بحيث تعلم هي وأخواتك بما جرى. ظنّ أنك قد تحتاجين إليهن.

راحت الجموع تتدفّق تدريجًا إلى خارج الكنيسة وتتوزّع في الأنحاء، وهم يلقون التحيّة، بعضهم على بعضٍ بهدوء. توجّه أشخاص كُثُر نحوي، وغالبيتهم من الأصدقاء البحّارة، فقدّموا تعازيهم وعبّروا عن دهشتهم لموهبتي الموسيقيّة الخفيّة. التفتُّ حولي ورأيت رجلًا طويل القامة، يرتدي بِزّة ونظّارة داكنة يقف بعيدًا من الحشد. شيء ما فيه بدا بائسًا وكئيبًا إلى حدّ جعلني أعتذر من المجموعة وأتوجّه نحوه.

قلت له:

- مرحبًا. أنا آلي صديقة ثيو. طُلب مني أن أعلم الجميع أننا نرحّب بقدومهم إلى منزل سيليا لتناول بعض الطعام والشراب. إنه على بُعد خمس دقائق من هنا، سيرًا على الأقدام.

التفت إليّ وقد أخفت نظّارته التعبير الذي ارتسم في عينيه ثم أجاب:

- نعم، أعرف أين يقع المنزل. عشت هناك في ما مضى.

وعندئذ، أدركت أنّ هذا الرجل هو والد ثيو فقلت:

- سرّني جدًا التعرّف إليك.

- أنا واثق من أنك تدركين، على الأرجح، أنّني غير مرحّب بي هناك، مهما أودّ أن أنضمّ إليكم.

لم أعرف بما أجيبه فاكتفيت بالنظر إلى قدميّ من شدة الإحراج. بدا جليًّا أنه حزين ويتألّم ومهما يكن قد حصل في الماضي بينه وبين زوجته، لكنّه فقد ابنه أيضًا.

وتمكّنت أخيرًا من أن أقول:

- هذا مؤسف.

- لا بُدّ من أنك الفتاة التي أخبرني ثيو أنه سيتزوّجها. أرسل لي رسالة إلكترونية قبل بضعة أسابيع.

وتابع قائلًا بنبرته الأميركيّة الناعمة، التي تختلف جدًّا عن نبرة ثيو الإنكليزيّة القاطعة:

- سأغادر الآن لكن تفضّلي، خذي بطاقتي يا آلي. سأبقى في المدينة لبضعة أيام قادمة وسيسّرني كثيرًا أن أتحدّث إليك عن ابني. لقد أحببته كثيرًا على الرغم من كل ما سمعتِه عني بالتأكيد. أعتقد أنك ذكيّة بما يكفي لتعرفي أنّ هناك وجهًا آخر لكل قصّة.

أجبته، وقد تذكّرت أنّ پاپا سولت قال لي الكلام نفسه ذات مرة:

- نعم.

قال وهو يستدير ويسير مبتعدًا عني ببطء بينما يرشح اليأس من كل مسامه:

- من الأفضل أن تعودي الآن، لكن سرّني التعرّف إليك. إلى اللقاء في الوقت الحالي يا آلي.

التفتّ نحو ما تبقى من الحشد فرأيت سيسي وستار تنتظران باحترام أن أنهي حديثي. توجّهت نحوهما فمدّت كل واحدة منهما ذراعيها لاحتضاني.

قالت سيسي:

- يا إلهي يا آلي! تركنا كلنا رسائل على هاتفك الخلويّ منذ أن سمعنا الخبر! نحن آسفات جدًّا، جدًّا. ألسنا كذلك يا ستار؟

أومأت ستار برأسها وأدركت أنها تكاد تبكي وهي تقول:

- نعم. كان قدّاسًا رائعًا يا آلي.

- شكرًا لكِ.

وأضافت سيسي:

- من الرائع أن نسمعك تعزفين الفلوت. لم تفقدي براعتك.

رأيت سيليا تلوّح لي بيدها وتشير إلى السيارة الكبيرة التي تنتظر إلى جانب الرصيف.

- اسمعا، عليّ أن أرافق والدة ثيو، لكن هل ستأتيان إلى المنزل؟

ردّت سيسي:

- أخشى أننا لا نستطيع ذلك. لكن اسمعي، شقتنا ليست بعيدة وهي قرب الجسر في باترسي، لذا عندما تشعرين أنك بحال أفضل، يكفي أن تتّصلي بنا وتأتي لزيارتنا. اتّفقنا؟

قالت ستار وهي تحتضنني مرة أخرى:

- نودّ فعلًا أن نراكِ مجددًا يا آلي. الفتيات يرسلن لك حبّهن. اعتني بنفسكِ، أرجوكِ.

- سأحاول. وأشكركما مجدّدًا على قدومكما. لا أستطيع أن أعبّر كم أقدّر لكما هذا.

بينما كنت أصعد إلى السيارة، راقبت الاثنتين تسيران معًا وتأثرت تأثّرًا شديدًا بحضورهما.

علّقت سيليا بينما كانت السيارة تبتعد عن الرصيف:

- أختاك لطيفتان جدًّا. أن يكون للمرء أخوة أمر رائع. أنا مثل ثيو طفلة وحيدة.

سألتها:

- هل أنتِ بخير؟

- لا، لكن التأبين كان الأروع والأكثر بهجة. ولا أستطيع أن أقول لك كم عنى لي أن أسمعك تعزفين.

وتوقّفت لبضع ثوانٍ عن الكلام ثم تنهّدت بعمق قبل أن تردف:

- لاحظت أنك كنت تتحدّثين إلى بيتر، والد ثيو قبل قليل.

- نعم.

- لا بُدّ من أنّه كان مختبئًا في الناحية الخلفيّة للكنيسة، إذ لم أره حين دخلت. لو رأيته، لطلبت منه أن يأتي ويجلس معنا في الصف الأمامي.

- هل كنت لتفعلين ذلك؟

- بالطبع! لعلّنا لم نعد أعزّ الأصدقاء لكنّني واثقة من أنه مفجوع بقدري. أفترض أنه قال إنه لن يحضر إلى المنزل؟

- نعم، علمًا بأنّه قال إنه سيبقى في المدينة لبضعة أيام وهو يرغب في رؤيتي.

- آه يا عزيزتي. إنه لمن المؤسف والمحزن ألّا يكون اجتماع شملنا ممكنًا حتى في جنازة ابننا.

وأضافت بينما كانت السيارة تتوقّف أمام المنزل:

- أنا ممتنّة جدًّا لدعمك. لولاك لما استطعت أن أتجاوز هذه المحنة يا آلي. والآن، دعينا ندخلْ ونرحّبْ بضيوفنا ونحتفِ بحياة فتانا.



بعد بضعة أيام، استيقظت في غرفة الضيوف المريحة، والقديمة نسبيًّا، في منزل سيليا. ستائر مزيّنة بالورود والطيور، تغطّي النوافذ، وتتماشى مع غطاء السرير الخشبيّ العريض الذي استلقيت فيه، وتتناسب مع ورق الحيطان المخطّط الذي أضحى لونه باهتًا. التفتّ إلى الساعة فوجدت أنها قرابة العاشرة والنصف. وأخيرًا، عدت أنام من جديد، منذ حفل التأبين، لكن نومي أصبح ثقيلًا بشكل غير طبيعيّ وصرت أستيقظ في الصباح وكأنّني أعاني من آثار الكحول أو كأنّني تناولت أحد أقراص المنوّم التي عرضتها عليّ سيليا لكنّني رفضتها. استلقيت في الضوء الخافت وأنا أشعر بالإنهاك تمامًا كما كان حالي قبل أن أخلد إلى النوم، على الرغم من أنّني نمت نومًا عميقًا لأكثر من عشر ساعات، ورحت أفكّر في أنّني لا أستطيع أن استمرّ بالاختباء هنا مع سيليا، مكتفية بحديثنا الذي لا ينتهي عن ثيو. يُفترض بسيليا أن تسافر في الغد إلى ايطاليا، وعلى الرغم من أنها دعتني للانضمام إليها لكنّني أدركت أنّ عليّ أن أتابع حياتي.

ويبقى السؤال: إلى أين سأذهب بعد أن أغادر هذا المكان؟

كنتُ قد اتّخذت القرار بأن أتّصل بمدرب الفريق السويسري لأعلمه بأنّني لن أنضمّ إليه وإلى الفريق لتجارب الألعاب الأولمبيّة. وعلى الرغم من أنّ سيليا قالت لي مرارًا وتكرارًا إنّ عليّ ألّا أسمح لما حصل بأن يدمّر مستقبلي ويضعِف

من شغفي، لكنني كلما فكرت في العودة من جديد إلى الماء، تسري قشعريرة في جسدي.

قد أجاوز الأمر يومًا، لكن ليس في الوقت المناسب لأبدأ ما أعلم أنها ستكون شهورًا من التدريب المضني، استعدادًا لأهمّ حدث رياضيّ على وجه الأرض. سأصادف في معسكر التدريب أشخاصًا كُثُرًا عرفوا ثيو، وبالرغم من أنّ الحديث عنه مع والدته شكّل متنفّسًا رائعًا لي، لكنّني كنت أشعر بضعف شديد كلما أتى شخص آخر على ذكره.

والآن، بعد أن أصبحت من دون ثيو وبعد أن توقّفت عن الإبحار، بدت الأيام التي تنتظرني فارغة فراغًا لا نهاية له، ولا أعلم كيف يمكن أن أملأه.

تساءلت: هل أصبح هناك «مايا» جديدة في العائلة. هل قُدِّر لي أن أعود إلى أتلانتيس وأنعزل بين جدرانه لأحزن على انفراد كما فعلت هي في الماضي. كنت أعلم تمامًا أنّ مايا استعادت زمام أمورها وتجاوزت مشاكلها وغادرت لتبدأ حياتها الجديدة في ريّو، ما يعني أنّني أستطيع أن أعود بسهولة إلى المنزل وأستقر في عشّها في الجناح الجانبيّ.

ما أدركته في الأسابيع القليلة الماضية هو أنني عشت حياة برّاقة خادعة من قبل، وإذا أردت أن أحكم على نفسي وعلى أخطائي، لاعترفت بأنني لطالما تعاملت بتعالٍ مع أيّ شخص أضعف مني. لم أفهم يومًا لمَ لا يستطيع الناس النهوض ونفض غبار الصدمة عن أنفسهم والمضيّ قُدُمًا في حياتهم. وفجأة، بدأت أدرك استحالة أن يتعاطف المرء بشكل صادق مع سواه ممّن يعيش محنة، ما لم يختبر هو نفسه معنى الخسارة والألم العميق.

وفي محاولة يائسة مني لكي أحافظ على إيجابيتي، قلت لنفسي إنّ ما حصل لي لربما سيجعلني شخصًا أفضل. هذه الفكرة ألهمتني، فأخرجت أخيرًا هاتفي الخلويّ، وقد خجلت أن أعترف بأني لم أشغّله منذ وفاة ثيو قبل أكثر من أسبوعين. وجدت البطارية فارغة مجددًا فوصلته بقابس الكهرباء لشحنها، وتوجّهت إلى الحمام، وبينما أنا استحمّ سمعت الطنين المتكرر للرسائل الصوتيّة والنصيّة المتراكمة التي وصلت بعد أن عاد الهاتف إلى الحياة.

بينما كنت أجفّف نفسي وأرتدي ملابسي، رحت أحضّر نفسي ذهنيًا قبل أن التقط هاتفي وأتصفّح الرسائل النصيّة التي لا تنتهي من ماما وشقيقاتي، ومن عدد كبير من الأشخاص الذين سمعوا بما جرى لثيو. كتبت مايا:

آلي، ليتني أستطيع أن أكون معك. لا أستطيع أن أتخيّل ما تشعرين به، لكنّني أرسل لك حبّي الخالص.

آلي، حاولت أن أتّصل بك لكنك لم تجيبي. أخبرتني ماما وأنا أشعر بالحزن الشديد عليك. أنا موجودة من أجلك يا آلي، ليلًا ونهارًا، إن احتجت إليّ. تيغي إكس.

بعدئذ، انتقلت إلى الرسائل الصوتيّة. لا شكّ في أنّ معظمها وعلى غرار الرسائل النصيّة، مرسلة من أشخاص يقدّمون تعازيهم. لكن، وبينما أنا أستعيدها لأستمع إليها، اعتصرت معدتي عندما سمعت أقدم الرسائل التي وصلت إلى هاتفي قبل عشرة أيام. كان الإرسال رديئًا والكلمات بدت مكتومة لكنني عرفت أنه ثيو.

> **«مرحبًا يا حبّي. أتّصل بك من الهاتف الموصول بالأقمار الصناعيّة بينما لا أزال قادرًا على ذلك. نحن الآن في مكانٍ ما في البحر السلتي. الطقس مريع جدًّا وحتى ساقيّ المعتادتين على البحر تخلّتا عني. أعلم أنك غاضبة لأني طردتك من المركب، لكن قبل أن أحاول الحصول على قسط من النوم، أردتك أن تعلمي أنّ قراري لا علاقة له بقدراتك كبحّارة. وسأكون صادقًا معك وأقول إني أتمنّى لو كنت معي الآن على متن المركب فأنت تساوين عشرة من الرجال هنا. أنت تعلمين أنّ قراري نابع من حقيقة أنّني أحبّك يا عزيزتي آلي. وآمل فقط أن ترضي بالتحدّث إليّ عندما أعود! عمتِ مساءً يا حبيبة قلبي. أعود وأكرّر إنّني أحبّك. إلى اللقاء».**

تخليّت تمامًا عن فكرة الاستماع إلى أيّ رسائل أخرى ورحت أعيد رسالة ثيو مرة تلوَ الأخرى وأتشبّع من كل كلمة فيها. علمت من الوقت الذي وصلت فيه الرسالة إلى هاتفي أنّه اتّصل بي قبل ساعة واحدة من صعوده إلى سطح المركب ليرى روب يهوي عن متنه، ومن رمي نفسه في الماء لملاقاة حتفه لينقذه. لم أكن

أعلم كيف يمكن أن نحفظ رسالة ما إلى الأبد، لكنّني علمت أنّ عليّ أن أكتشف ذلك.

همست له:

- أنا أيضًا أحبّك.

وكلّ ما بقي في داخلي من بقايا غضب عليه، لأنه أمرني بمغادرة المركب ذلك اليوم، تبخّر وتلاشى.

*

أخبرتني سيليا أثناء تناولنا الفطور أنها ستخرج لشراء بعض الحاجيات قبل التوجّه إلى إيطاليا وسألتني:

- هل قررت ما هي وجهتك التالية يا آلي؟ أنت تعلمين أنّ بقاءك هنا أثناء غيابي أكثر من مرحّب به، كما تستطيعين أن ترافقيني. أنا واثقة من أنك تستطيعين الحصول على تذكرة سفر إلى بيزا حتى في اللحظة الأخيرة.

أجبتها، وقد خشيت أن أتحوّل إلى عبء على سيليا:

- شكرًا، هذا لطف فائق منك. لكني أظنّ أني سأعود، على الأرجح، إلى المنزل.

- القرار قرارك، لكن أعلميني فحسب.

وبعد أن غادرت المنزل، صعدت إلى الطابق العلويّ وشعرت بأنني قويّة بما يكفي لأتّصل بسيسي وستار. طلبت رقم سيسي أولًا، لأنّها هي من ترتّب كل الأمور لكلتيهما. لكنّ اتّصالي تحوّل تلقائيًا إلى رسالة صوتيّة فاتصلت بستار بدلًا منها.

- آلي؟

- مرحبًا ستار. كيف حالك؟

- آه، أنا بخير. لكن الأهم هو كيف حالك أنت؟

- أنا بخير. كنت أفكر في أن أمرّ لزيارتكما في الغد.

- حسنًا، سأكون في المنزل وحدي. ستخرج سيسي لالتقاط صور لمحطة الطاقة في باترسي. تريد أن تستلهم منها شيئًا لأحد مشاريعها الفنيّة قبل تحويلها إلى مشروع إنمائي جديد.

- هل أستطيع أن آتي وأراك حينها؟

- أودّ ذلك بالتأكيد.

- حسنًا. ما هو الوقت الذي يناسبك؟

- أنا هنا طوال النهار يا آلي. لمَ لا تأتين لتناول الغداء؟

- حسنًا، سآتي قرابة الساعة الواحدة. أراك في الغد يا ستار.

بعد أن أنهيت المكالمة جلست على السرير، وأدركت أنّ غداء الغد سيكون فرصة لأمضي فيها أكثر من دقائق معدودة مع شقيقتي الأصغر سنًا للمرة الأولى، ومن دون أن تكون سيسي حاضرة أيضًا.

أخذت كمبيوتري المحمول من حقيبة الظهر وقد خطر لي أن ألقي نظرة على رسائلي الإلكترونية. وضعته على طاولة الزينة، وأوصلته بقابس الكهرباء. وجدت مزيدًا من رسائل التعزية والبريد العشوائي المعتاد، بما في ذلك رسالة من فتاة يُفترض أنّ اسمها «تمارا» تقدّم لي المواساة الآن بعد أن أصبحت الليالي أشد ظلمةً. بعدئذ، رأيت اسمًا لم أتعرّف إليه على الفور: ماغدالينا جانسن. وبعد بضع دقائق، تذكّرت أنها المترجمة التي طلبت منها أن تعمل على الكتاب من مكتبة پاپا سولت وشكرت الرب لأني لم أضغط على زر «محو».

من: Magdalenajense1@trans.no

إلى: Allygeneva@gmail.com

الموضوع: «غريغ، سولفيج للتوضيح جيغ/غريغ، سولفيج وأنا

20 آب 2007

عزيزتي الآنسة دابليز،

إني أستمتع للغاية بترجمة غريغ، سولفيج للتوضيح جيغ. إنه موضوع مذهل وليس قصة صادفتها من قبل هنا في النروج. خطر لي أنه قد يهمك أن تبدئي بقراءة المخطوطة فأرفقت ربطًا الصفحات التي أنهيتها حتى الساعة، وصولًا إلى الصفحة 200. سأرسل إليك ما تبقّى في الأيام العشرة القادمة.

مع فائق الاحترام،

ماغدالينا

فتحت المرفقات التي تحتوي الترجمة وقرأت الصفحة الأولى. ومن ثمّ الثانية ومع بداية الثالثة نقلت الكمبيوتر إلى السرير وأوصلته بقابس الكهرباء المجاور له بحيث يمكنني أن أجلس مرتاحة وأنا أتابع القراءة...

آنّا

تلمارك، النروج

آب 1875

13

توقّفت آنّا أنديرزداتر لاندفيك وهي تلوّح لروزا، البقرة الأكبر سنًّا في القطيع، لحثّها على شقّ طريقها على المنحدر الحادّ. فقد تخلّفت روزا كالعادة عن الأبقار الأخرى التي نجحت في الوصول إلى المراعي النضرة.

كان والدها يقول لها دائمًا:

- غني لها يا آنّا وستأتي إليك. ستأتي إليك.

غنّت آنّا بضع نوتات من أغنية «بير الموسيقي» المفضّلة لدى روزا، فخرجت النغمات من فمها تتردّد كرنين الأجراس في أسفل الوادي. وإذ أدركت أنّ روزا تحتاج إلى بعض الوقت لتصل إليها وهي تتحرّك بتثاقل، جلست على العشب القاسي، وطوت جسمها النحيل متّخذة الوضعية المفضّلة لديها، بحيث رفعت ركبتيها لتلامسا ذقنها، ومن ثم أحاطتهما بذراعيها. فتنشّقت هواء المساء الدافئ واستمتعت بالمنظر وهي تدندن مع الحشرات الطنّانة في الحقل. كانت الشمس قد بدأت تميل إلى المغيب خلف الجبال عند الجانب الآخر من الوادي، لتضفي على مياه البحيرة في الأسفل بريقًا شبيهًا ببريق الذهب الزهري المنصهر. فسرعان ما ستختفي كليًّا لينسدل بعدها الليل بستاره المظلم.

خلال الأسبوعين الماضيين، وبينما كانت تعدّ الأبقار عند سفح الجبل، لاحظت أن وقت الغسق كان يحلّ في وقت أبكر يومًا بعد يوم. فبعد أشهر طويلة كان ضوء النهار يبقى فيها ساطعًا حتّى منتصف الليل تقريبًا، أدركت آنّا في تلك الليلة أنّ والدتها ستشعل المصابيح الزيتيّة مع اقتراب موعد عودتها إلى الكوخ. وسيصل بعدها والدها وشقيقها لمساعدتهما على إقفال المزرعة الصيفيّة المخصّصة لمنتجات الألبان ونقل الماشية إلى الوادي استعدادًا للشتاء. يعتبر هذا الحدث

مبشّرًا بانتهاء الصيف في البلدان الإسكندنافيّة وحلول تلك الأشهر اللامتناهية من العتمة المتواصلة. وسيرتدي ذلك الجانب الشديد الخضرة من سفح الجبل قريبًا معطفًا سميكًا من الثلج الأبيض، وستغادر آنّا برفقة والدتها المنزل الخشبيّ حيث أمضتا الأشهر الدافئة لتعودا إلى مزرعة الأسرة الواقعة خارج بلدة هيدال الصغيرة.

بينما كانت روزا متوجّهة نحوها، كانت تتوقّف بين الفينة والأخرى لتشمّ العشب؛ واستمرت آنّا تدندن أغنيتها المفضّلة حرصًا منها على تشجيعها. كان والدها أندرز، يرى أن روزا لن تتمكّن من البقاء لغاية الصيف القادم. لم يكن أحد واثقًا من سنّ تلك الدابّة، ولكنها كانت حتمًا أصغر سنًّا من آنّا البالغة من العمر ثماني عشرة سنة. ولدى تفكيرها بأن روزا لن تكون موجودة للترحيب بها وهي ترمقها بحسب رأيها بنظرات الاعتراف بالجميل بعينيها الكهرمانيتين الناعمتين، شعرت بالدموع تتدفق إلى عينيها. كما أن التفكير في الأشهر الطويلة المظلمة القادمة جعل الدموع تسيل بغزارة على خديّ آنّا.

مسحت دموعها على عجل وهي تواسي نفسها لأنها ستتمكّن على الأقل، لدى عودتها إلى المزرعة في هيدال، من رؤية قطّها غردي وكلبتها فيفا. كانت آنّا تعشق الاسترخاء في مقعدها أمام الموقد الدافئ، تأكل الجبنة النروجية الحلوة المذاق مع الخبز، بينما يخرخر غردي على حضنها وفيفا تنتظر لتلعق الفتات. ولكنها كانت تعي تمامًا بأن والدتها لن تسمح لها بالبقاء مسترخية طوال الشتاء، مسترسلة في أحلام اليقظة.

كانت والدتها بيريت تردّد دائمًا على مسمعها:

- عليكِ أن تتحمّلي يومًا ما مسؤولية منزلك الخاص يا عزيزتي ، ولن أكون موجودة لأطعمك أنت وزوجك.

لم تكن آنّا تهتم فعلًا بالمهام المنزلية، كخضّ الزبدة، ورتق الملابس، وإطعام الدجاج، وتحضير الليفسي، أو الخبز المسطّح، الذي يلتهمه والدها بوفرة، كما لم يخطر على بالها بأنها قد تجد نفسها مضطرّة لإطعام ذلك الزوج الوهميّ. وعلى الرغم من الجهد الذي كانت تبذله، والحق يُقال إنها لا تستطيع الاعتراف بأنها تبذل

جهدًا كافيًا، غالبًا ما كانت تثمر مساعيها في المطبخ عن مأكولات غير صالحة للأكل أو عن نتائج كارثية.

في الأسبوع الماضي، قالت لها والدتها وهي تضع على الطاولة قصعة من السكر وإبريقًا من الحليب الطازج:

- صحيح أنك تحضّرين الجبن النروجي الحلو المذاق منذ سنوات عدّة، لكنّ مذاقه لم يتحسّن على الإطلاق. حان الوقت لتتعلّمي كيفية تحضيره بشكل جيد.

ومهما تبذل آنّا من عناء، كان طبق الجبن النروجيّ الحلو يتحوّل إلى مخفوق ومحروق من أسفل، حتى أن كلبتها فيفا التي لا تعرف معنى الشبع، أبت تناوله وأظهرت ازدراءها له، ما دفعها إلى أن تهمس في أذنها قائلة:

- أيتها الخائنة.

وعلى الرغم من أنّ آنّا تركت المدرسة لأربع سنوات خلت، إلا أنها ما زالت تفتقد إلى الأسبوع الثالث من كلّ شهر حيث كانت الآنسة جاكوبسن، المدرّسة التي تقسّم وقتها بين القرى في مقاطعة تلمارك، تصل إلى قريتهم حاملة معها مواضيع تعليميّة جديدة. وكانت آنّا تفضّل ذلك كثيرًا على الدروس الصارمة للقس إرسليف الذي كان يرغمها على تلاوة مقاطع من الإنجيل عن ظهر قلب ويخضعها للامتحانات أمام كل التلامذة في الصف. لم تكن آنّا تحبّذ ذلك وغالبًا ما كانت تشعر بالحرّ والأعين كلّها مسلطة عليها، وهي تتلعثم أثناء تلاوتها عبارات غير مألوفة.

ولعلّ أكثر ما كان يبعث في نفسها الراحة هو أن زوجة القس، السيدة إرسليف، كانت تتعامل معها بلطف وصبر وهي تعلّمها التراتيل للمشاركة في جوقة الكنيسة. وغالبًا ما كانت تسند إليها، في تلك الأيام، دور الغناء منفردة. والغناء بالنسبة إلى آنّا، أسهل بكثير من القراءة؛ إذ يكفي أن تغمض عينيها وتفتح فمها، ليخرج منه صوت يثير إعجاب كلّ من يسمعه.

وكم من المرات حلمت بالغناء أمام جمع محتشد في إحدى الكنائس الكبيرة في كريستيانيا. وفي حين أن آنّا لم تكن تشعر بقيمتها إلا خلال الغناء، كانت والدتها تذكرها باستمرار بأن موهبتها، بصرف النظر عن غنائها للأبقار والتهويدات

في المستقبل لأطفالها، لم تكن بحسب رأيها ذات نفع كبير. فكل نظيراتها في جوقة الكنيسة توقّفنَ عن الغناء إما لارتباطهنّ استعدادًا للزواج، أو لكونهنّ قد تزوجنَ بالفعل، ويعانين من عواقب ذلك الزواج. والمقصود بذلك الغثيان وازدياد الوزن، اللذان سينتج عنهما طفل أحمر الوجه وكثير الصراخ.

خلال حفل زواج شقيقها الأكبر سنًّا نيلز، كثر الهمز واللمز من الأسرة الكبيرة عن زواجها المستقبليّ، ولكن بالنظر إلى أنه لم يتقدّم أحد لخطبتها بعد، ستمضي هذا الشتاء بمفردها شأنها شأن كل عانس عجوز، وهو اللقب الذي كان شقيقها الأصغر سنًّا كنوت يطلقه على نساء القرية المتقدّمات في السنّ اللواتي بقينَ من دون زواج.

غالبًا ما كان والدها أندرز يناغشها قائلًا:

- ستعثرين، بإذن الله، على زوج تسحره عيناك الزرقاوان الجميلتان فيغض النظر عن الطعام الذي تقدمينه له.

كانت آنّا تدرك أنّ أفراد أسرتها يتساءلون في سرّهم إنْ كان لارس ترولسين، الذي يشارك بشكل منتظم في تناول أطباقها المحروقة، هو ذلك الرجل الشجاع. فبعد فقدانه والدته في سنّ السادسة، بقي لارس وحيدًا برفقة والده العليل في مزرعتهما في هيدال. وحرص شقيقاها على التعامل معه وكأنه شقيقهما الثالث بحيث كان ينضمّ في أغلب الأحيان إلى مائدة العشاء لدى أسرة لاندفيك. وما زالت آنّا تذكر كيف كانوا يلعبون كلّهم سويًا في أيام الشتاء الطويلة المثلجة. وكان شقيقاها المشاكسان المعروفان بطبعهما الخشن يستمتعان بطمر أحدهما الآخر في الثلج، بحيث لا يبقى ظاهرًا منه إلا شعره الأحمر المائل إلى الذهبي الذي تتميّز به أسرة لاندفيك. ولعلّ أكثر ما كان يثير استياءهما هو أن لارس، الأكثر رقّة منهما، كان يفضّل البقاء في الداخل وقراءة كتاب.

وفي حين كان المسار الطبيعيّ للأمور يحتم على نيلز، الابن الأكبر سنًّا، العيش مع زوجته الجديدة في منزل أسرة لاندفيك بعد زواجهما، وجد نيلز نفسه مرغمًا على الانتقال للعيش في مزرعة عائلة زوجته التي ورثتها عن والديها بعد وفاتهما،

في قرية تقع على بعد بضع ساعات عن هيدال، ليتمكّن من إدارة شؤونها. فوقعت بالتالي على عاتق كنوت مسؤولية البقاء في مزرعة لاندفيك لمساعدة والده على إدارة شؤونها.

وفي أكثر الأحيان، كانت آنّا تجد نفسها جالسة بمفردها مع لارس، الذي بقي ملتزمًا بزيارتهم بشكل منتظم. فكان يحدثها في بعض الأحيان عن كتاب يقرأه، فيما كانت آنّا تجاهد لتسمع صوته المنخفض وهو يخبرها قصصًا مشوّقة عن عوالم أخرى أكثر إثارة من هيدال.

قال لها في إحدى الأمسيات:

- أنهيت لتوّي قراءة رواية «بير جينت» الذي أرسله لي عمي من كريستيانيا. أظنّ أنك ستستمتعين بقراءتها لأنها بحسب رأيي، أفضل رواية كتبها أيبسن حتى اليوم.

نظرت آنّا إلى أسفل رافضةً الاعتراف بأنها لا تملك أدنى فكرة عمّن يكون أيبسن، ولكن لارس لم يحرجها وأخبرها بكلّ ما يعرفه عن أفضل كاتب مسرحي في النروج، المتحدر في الأصل من بلدة شين، المتاخمة لهيدال، والذي ساهم في نقل الأدب والثقافة النروجية إلى العالم. وأخبرها لارس أنه قرأ كلّ أعمال أيبسن، بينما تبين لآنّا أن لارس قد قرأ معظم الكتب التي ألّفها أيٌّ كان، مفضيًا إليها برغبته في أن يصبح كاتبًا بدوره في المستقبل.

وأشار قائلًا وقد التقت عيناه الزرقاوان عينيها:

- ولكن هذا الحلم لن يتحقّق في هذا المكان. فالنروج بلد صغير ومعظمنا يفتقر إلى التعليم. لكنني سمعت أنه يمكن للفرد تحقيق كلّ ما يرغب فيه في أميركا، شرط أن يبذل الجهد الكافي.

أدركت آنّا بأن لارس تعلّم قراءة اللغة الإنكليزية وكتابتها رغبة منه في الاستعداد لهذا الحدث. فقد ألّف بعض القصائد باللغة الإنكليزية، وقال إنه سيرسلها قريبًا جدًّا لأحد الناشرين. وفي كلّ مرّة كان يتحدث فيها عن أميركا، كانت آنّا تشعر بالأسى لأنها تدرك في قرارة نفسها أنه عاجز عن تحقيق ما يطمح إليه. فبعد إصابة

والده بالشلل نتيجة معاناته من التهاب المفاصل، وتيبّس يديه على شكل شبه قبضتين، بات على لارس، الذي ما يزال يقيم مع والده في منزل المزرعة المتداعي، أن يتحمّل مسؤولية إدارة شؤون المزرعة بمفرده.

وغالبًا ما كان والد آنّا يستغل الأمسيات التي يتغيّب فيها لارس عن العشاء للإعراب عن استيائه لما آلت إليه أراضي أسرة ترولسن نتيجة التراخي في الاعتناء بها كما ينبغي؛ فالخنازير تفتقر إلى الانضباط بحيث تزرع الفوضى في كل مكان، وتفسد التربة التي باتت قاحلة.

- لقد تحوّلت التربة مستنقعًا، خاصة بعد هطول الأمطار بغزارة في الآونة الأخيرة. ولكن ذلك الفتى يعيش في عالم كتبه، وليس على أرض الواقع الخاص بالحقول والمزارع.

وفي إحدى الأمسيات في الشتاء الماضي، كانت آنّا تحاول حل رموز ترتيلة جديدة طلبت منها السيدة إرسليف أن تتقنها. فرفع لارس عينيه عن الكتاب الذي كان يقرأه وراح يراقبها من الجهة الأخرى من طاولة المطبخ. سألها:

- هل أنتِ بحاجة إلى المساعدة؟

احمرّت خجلًا وقد أدركت بأنها كانت تردّد العبارات نفسها مرارًا وتكرارًا في محاولة منها للفظها بشكل صحيح. وفكّرت جليًّا إنْ كانت ترغب في أن يقف على مسافة قريبة منها خاصة وأنّ رائحة الخنازير النتنة تفوح منه دائمًا. وإذ أومأت في نهاية المطاف برأسها بخجل، نهض لارس من مكانه وانتقل ليجلس بقربها. فاستعرضا معًا كل العبارات إلى أن أصبحت قادرة على قراءة الترتيلة بسهولة من دون تأتأة. قالت له:

- أشكرك على المساعدة.

أجابها وقد تورّد خدّاه:

- إنه لمن دواعي سروري. أستطيع مساعدتك يا آنّا على تحسين قدرتك على القراءة والكتابة، شرط أن تعديني بالغناء لي بين الحين والآخر.

وافقت آنّا على الفور إدراكًا منها بأنّ قدرتها على الكتابة والقراءة قد تراجعت كثيرًا خلال السنوات الأربع الماضية بعد تركها المدرسة. وفي الشتاء الماضي، أمضيا أمسياتٍ كثيرةً جالسين إلى طاولة المطبخ، ورأساهما متقاربان، بحيث نسيت آنّا كلّيًا أعمال التطريز التي بدأت بها في مرحلة سابقة، مثيرةً بذلك سخط والدتها. وانتقلا بسرعة كبيرة من التراتيل إلى الكتب التي كان لارس يحضرها معه من المنزل، والمغلّفة بورق الشمع لحماية تلك الأوراق العزيزة على قلبه من الثلج والمطر المتساقطين بلا هوادة. وبعد انتهاء الدرس، كانا يضعان الكتب جانبًا، وتبدأ آنّا الغناء له.

وعلى الرغم من القلق الذي شعر به والداها للوهلة الأولى من أن تصبح مولعة بالكتب والمطالعة، كانا يجدان متعة كبيرة في الإصغاء إلى آنّا وهي تقرأ لهما في الأمسيات.

وفي إحدى الليالي، وبينما كانوا جالسين قرب الموقد، أعلنت بعد الانتهاء من قراءة أميرات وايت لاند الثلاث قائلة:

- تمكّنت من الفرار من الصيّادين بسرعة أكبر».

علّق كنوت قائلة:

- ولكن كان لأحد الصيّادين ستة رؤوس.

أجابته عابسة:

- والرؤوس الستة تبطئ حركتك.

وتمرّنت آنّا أيضًا على تحسين خطها بحيث انفجر لارس ضاحكًا عندما رآها تمسك القلم بإحكام ومفاصلها بيض من شدّة التوتر.

قال لها وهو يعدّل وضعية يدها حول القلم، واضعًا برقّة كل أصبع في المكان المناسب:

- لن يهرب القلم منك.

وفي إحدى الليالي، ارتدى معطفه المصنوع من جلد الذئب لدرء البرد القارس

وفتح الباب. وإذا بندفٍ من الثلج بحجم الفراشات تتسلّل من خلاله، وتختار إحداها أنف آنّا لتستقر عليه. فمدّ لارس يده بخجل ومسحها بسرعة عن أنفها قبل أن تذوب. وإذ شعرت بخشونة يده على بشرتها، سارع إلى إبعادها وإعادتها إلى جيب معطفه. دمدم قائلًا:

- تصبحين على خير. قبل أن ينطلق في ظلمة الشتاء، بينما كانت ندف الثلج تذوب على الأرض وهي تقفل الباب وراءه.



نهضت آنّا من مكانها لدى وصول روزا إليها بعد طول انتظار. داعبت أذنيّ البقرة المخمليّتين، ومن ثمّ طبعت قبلة على النجمة البيضاء في وسط جبينها، ولم تتمكّن من منع نفسها من رؤية الشعيرات الرمادية حول فم روزا الزهريّ. همست لها برقّة:

- أتوسّل إليك أن تبقي معنا حتى الصيف القادم.

ولما تأكّدت من أن روزا تشقّ طريقها ببطء في اتجاه البقرات الأخريات من القطيع، التي كانت ترعى بسلام على المنحدر المظلم في الأسفل، انطلقت آنّا في اتجاه الكوخ. وفي الطريق، وجدت آنّا نفسها غير مستعدّة بعدُ للتغيير؛ فجلّ ما كانت تريده هو أن تعود إلى هنا في كلّ صيف وتمضي وقتها في الحقول برفقة روزا. ربما تظنّ أسرتها أنها ساذجة، ولكن آنّا تعرف تمامًا ما هو مقدّر لها، إذ بقيت الطريقة الغريبة التي تصرّف فيها لارس في الصيف أثناء وداعه لها حيّة في ذاكرتها.

فبعد أن أعطاها قصيدة إيبسن، بير جينت، لتقرأها، أمسك بيدها برفق بينما كانت تحمل الكتاب. وإذا بها تتسمّر في مكانها، وقد شعرت بأن لمسته تنطوي على نمط جديد من الحميمية، مختلف كل الاختلاف عن علاقة الأخ بأخته التي لطالما كانت تعتقد أنها قائمة بينهما. ولاحظت، وهي تتأمل وجهه بدقّة، تعبيرًا مختلفًا في عينيه الزرقاوين الحادّتين، وكأنّه أصبح فجأة شخصًا غريبًا عنها. وحين أوت إلى

الفراش في تلك الليلة، أخذت ترتجف لمجرّد التفكير في النظرة التي رمقها بها، لأنها كانت تعي تمامًا ما تنطوي عليه.

وتبيّن لها في وقت لاحق أن ذويها على علم بنوايا لارس. إذ سمعت والدها يقول لوالدتها في إحدى الليالي:

- يمكننا شراء أرض ترولسن مهرًا لآنا.

أجابت بيريت بصوت خافت:

- طبعًا، يمكننا العثور على عائلة أفضل لآنا. فأسرة هاكونسينس لم تزوّج بعد ابنها المقيم في بو.

أجابها أندرز بحزم:

- أفضّل أن تبقى قريبة منا. فشراء أرض ترولسن يعني أنّنا لن نتمكّن من تحقيق أي أرباح قبل ثلاث سنوات على الأقل ريثما تتعافى التربة، ولكن في حال تعافيها، سيُسهم ذلك في مضاعفة غلّة المحاصيل. أظنّ أن لارس هو أفضل خيار يمكن أن نطمح إليه، بالنظر إلى عيوب آنّا.

أزعجها ذلك التعليق كثيرًا وأخذ امتعاضها يزداد يومًا بعد يوم بينما بدأ ذووها يتحدّثون صراحة عن خطط زواجها المُحتمَل من لارس. وتساءلت في سرّها إنْ كان يهمّهما أن يعرفا رأيها في مسألة الزواج من لارس. ولكن لم يقف أحد عند رأيها، فقرّرت آنّا الامتناع عن إخبارهما بأنها لم تكن مقتنعة بأنها قد تقع في حبّه حتى لو كانت معجبة به.

وفي حين أنها كانت تحاول في بعض الأحيان أن تتخيّل كيف سيبدو الأمر لو قبّلها رجل، لم تكن واثقة من أن ذلك سيروق لها. أما بالنسبة إلى المسألة الأخرى التي تجهلها كلّيًا، أو الممارسة التي لا بدّ منها لإنجاب الأطفال، لم يكن بإمكانها سوى التخمين. كانت بين الفينة والأخرى تسمع في الليل صوت طقطقة غريبة صادرة من غرفة والديها يرافقها نوع من الأنين، ولكن عندما سألت كنوت عن الأمر، تنحنح وأجابها قائلًا:

- إنها العملية التي تثمر عنها ولادتنا على هذه الأرض.

- إذًا كان الأمر يشبه ما يحدث عند التقاء الثور بالبقرة... امتعضت آنّا حين استعادت المشهد في رأسها، ورؤيتها ذلك المخلوق الخوّار يحاول ركوب الأنثى، وأحد العاملين في المزرعة يساعد على إدخال ذلك «الشيء» فيها لتنجب لهم عجلًا بعد بضعة أشهر.

تمنّت لو كان بإمكانها أن تسأل والدتها إنْ إذا كانت العملية التي تجري بين البشر مشابهة، ولكنها لم تكن تتحلّى بالشجاعة اللازمة لتفعل ذلك.

وما زاد الطين بلّة خلال ذلك الصيف هو أنها عانت الأمرّيْن لتقرأ رواية بير جينت، وبعد أن أمعنت التفكير فيها مليًا، لم تتمكّن من أن تفهم، بأيّ شكل من الأشكال، السبب الذي جعل الفتاة الريفيّة الصغيرة، التي تؤدّي دور الشخصية الرئيسيّة في الرواية، وتُدعى سولفيج، تضيّع عمرها كله في انتظار رجل مريع مثل بير يحب مغازلة النساء. ولدى عودته إليها، غفرت له ذنوبه وسمحت له بأن يريح رأسه المملوء بالكذب والغشّ على ركبتيها.

تمتمت في سرّها قائلة وقد شارفت على الوصول إلى المنزل: «لو كنت مكانها لاستخدمته كرة لتلعب فيفا بها».

- واتّخذت في ذلك الصيف قرارًا حاسمًا لا رجوع عنه بألّا تتزوج أبدًا من رجل لا تحبّه.

حين بلغت نهاية الطريق، لاح لها من بعيد الكوخ الخشبيّ المتين الذي لم يتغيّر على مدى الأجيال المتعاقبة. كان السقف المكسو بالخضير ينتصب كمربّع أخضر ساطع ضخم وسط الأوراق الداكنة لأشجار التنوّب في الغابة المحيطة به. أخذت آنّا قليلًا من المياه من البرميل الموضوع أمام الباب الأمامي وغسلت يديْها للتخلّص من رائحة الأبقار، ومن ثمّ دخلت غرفة الجلوس المبهجة المرفقة بالمطبخ، حيث كانت المصابيح الزيتيّة مشتعلة ونورها يغمر المكان، تمامًا كما توقعت.

كانت القاعة تضمّ طاولة كبيرة مغطّاة بشرشف مزيَّن بالمربّعات، وخزانة للأطباق من خشب الصنوبر المزخرف، وفرنًا قديمًا يعمل على الحطب، إضافة إلى مدفأة ضخمة مفتوحة، كانت تستخدمها مع والدتها لتسخين إناء القصدير المملوء

بالعصيدة لوجبتي الفطور والعشاء واللحم والخُضَر لوجبة الظهيرة. وتقع في الجهة الخلفية من الكوخ الغرف المخصّصة للنوم، منها غرفة نوم والديها، وغرفة نوم كنوت إضافة إلى غرفة النوم الصغيرة التي احتفظت بها لنفسها.

أخذت أحد المصابيح الموضوعة على الطاولة، وعبرت الأرضية الخشبيّة المتداعية متوجّهة إلى غرفتها. كانت المساحة واسعة بما يكفي لتحشر نفسها في الغرفة، خاصة وأن السرير يلتصق بالباب. وضعت المصباح على المنضدة، ونزعت القلنسوة تاركةً شعرها المجعّد المتلبّد ذا اللون البنّيّ المائل إلى البرتقاليّ ينسدل على كتفيها.

حملت آنّا مرآتها الباهتة وجلست على سريرها تتفقّد وجهها، ومسحت بقعة من الوحل عن جبينها حرصًا منها على أن تبدو في مظهر لائق قبل العشاء. تأمّلت صورتها المنعكسة على سطح المرآة المتصدّعة لبعض الوقت. لم تكن تعتبر نفسها فاتنة فعلًا؛ فأنفها صغير جدًا مقارنة بعينيها الزرقاوين الكبيرتين وشفتيها المنحنيتين الممتلئتين. ولعلّ الفائدة الوحيدة التي يحملها معه فصل الشتاء هي إسهامه في استرخاء النمش الذي يتناثر على أنفها وخدّيها خلال فصل الصيف ودخوله في حالة من السبات إلى حين حلول فصل الربيع التالي.

تنهّدت آنّا ووضعت مرآتها جانبًا، ومن ثمّ شقّت طريقها عبر الباب ودخلت المطبخ للتحقّق من الساعة المعلّقة على الحائط. كانت الساعة السابعة والمنزل خالٍ من أيٍّ من أفراد أسرتها، على الرغم من أنّها كانت تعلم بمجيء والدها وكنوت.

صاحت قائلة: «مرحبًا»، ولكن ما أجاب أحد. خرجت آنّا من الكوخ وسط الظلمة التي أخذت تلقي بظلّها بشكل سريع على المكان، وتوجّهت نحو الجهة الخلفية منه حيث كانت تنتصب طاولة صلبة من خشب السنديانٰ على الأرض القاسية. وكم كانت دهشتها عظيمة عندما رأت والديْها جالسيْن برفقة كنوت وشخص غريب عنها، يضيء الشعاع المنبثق من المصباح الزيتي وجهه.

سألتها والدتها وهي تنهض من مكانها:

- أينَ كنتِ بحقّ السماء يا صغيرتي؟

- كنت أُراقب البقرات أثناء نزولها من الجبل، تمامًا كما طلبت مني.

وبّختها بيريت قائلة:

- ولكن مضى على ذهابك ساعات عدة.

- كان عليّ أن أبحث عن روزا؛ فالبقرات الأخريات تركتها وحدها على بعد أميال.

المهم هو أنّك عدتِ الآن». وبدت لهجتها أكثر ارتياحًا وهي تضيف:

- جاء هذا الرجل برفقة والدك وشقيقك لرؤيتك.

نظرت آنّا إلى الرجل نظرة سريعة وهي تتساءل في سرها عن سبب مجيئه لرؤيتها. فهي لا تذكر أنّ أحدًا جاء لمقابلتها من قبل. وإذ أمعنت النظر فيه عن كثب، أدركت بأنه ليس من أبناء قومها. فقد كان يرتدي سترة داكنة مفصّلة على مقاسه مع طياتٍ بيضٍ عريضة، وربطة عنق من الحرير، إضافة إلى بنطال مصنوع من نسيج ناعم رقيق، ملطخ بالوحل عند حاشيته، ولكنه من النوع الذي لا يرتديه إلا أصحاب العقول الذكية المقيمين في المدن الكبيرة. أما شاربه العريض فكان ملتفًا عند كلّ طرف كالقرنين اللذين يعلوان رأس الماعز. أدركت آنّا من خطوط وجهه أنه في منتصف الخمسينات. وبينما كانت تتأمّله، لاحظت أنّه أمعن النظر إليها مطوّلًا، قبل أن يبتسم لها ابتسامة تنمّ عن القبول.

أشار إليها والدها وهو يملأ كوب القصدير الموضوع أمام الرجل من الجّعة المصنوعة منزليًا والموضوعة في إبريق كبير قائلًا:

- تعالي يا آنّا لأعرّفك إلى السيّد باير.

مشت آنّا بتردّد نحو الرجل الذي وقف على الفور ومدّ يده. مدّت يدها بدورها، وبدلًا من مصافحتها، أمسك بها بيديه الاثنتين.

-آنسة لاندفيك، إنه لشرف لي أن أتعرّف إليكِ.

أجابته قائلة وقد أذهلتها حفاوة ترحيبه:

- حقًا؟

عاتبتها والدتها قائلة:

- لا تتصرفّي بفظاظة يا آنّا.

فسارع الرجل إلى الردّ قائلًا:

- لا، أرجوك. أنا واثق من أن آنًا لم تكن تقصد ذلك. لا بدّ من أنها تفاجأت برؤيتي. أنا واثق من أن ابنتك لم تتعوّد العودة في كل يوم من ملاذها عند سفح التل، لتجد رجلًا غريبًا في انتظارها. حسنًا يا آنًا، أرجو منك أن تجلسي لأشرح لك سبب وجودي هنا.

كان والداها وكنوت يتطلّعان مثلها بفارغ الصبر إلى ما يريد قوله.

-اسمحي لي في بادئ الأمر أن أعرّفك إلى نفسي، اسمي فرانز باير، أعمل أستاذًا في التاريخ النروجي في جامعة كريستيانيا، كما أنني عازف بيانو ومدرّس موسيقا. وتعوّدت أن أمضي معظم فترة الصيف مع أصدقائي المتقاربين معي فكريًا في مقاطعة تلمارك، لإجراء أبحاث عن الثقافة الوطنية التي تمكّنتم من الحفاظ عليها بشكل جيد في هذه الأجزاء من البلاد، والبحث عن مواهب موسيقيّة شابّة لتمثيلها في العاصمة كريستيانيا. لدى وصولي إلى قرية هيدال، قصدت في بادئ الأمر الكنيسة حيث التقيت السيدة إرسليف زوجة القس، التي أخبرتني أنها مسؤولة عن الجوقة في القرية. ولما سألتها إنْ كانت الجوقة تضم بين صفوفها أيّ أصوات مميّزة، حدّثتني عن صوتك. فافترضت طبعًا بأنك تقيمين في الجوار، ولكنها أعلمتني بأنك تمضين فصل الصيف في هذا المكان، الذي يبعد مسافة نهار بكامله على الحصان والعربة. وأضافت بأن والدك قد يوافق على توفير وسيلة نقل لي، وهذا ما فعله بالضبط.

انحنى السيد باير لأندرز احترامًا وأردف:

- آنستي العزيزة، أعترف بأنّني تردّدت بعض الشيء عندما أطلعتني السيدة إرسليف على مكان إقامتك. لكنّها كانت مقتنعة بأن الرحلة تستحق العناء. إذ قالت لي إنّ صوتك ملائكيّ. ولهذا السبب...

وفتح ذراعيه وابتسم ابتسامة عريضة وتابع:

- جئت إلى هنا. وأظهر لي والداك حسن ضيافتهما أثناء انتظارنا عودتك إلى المنزل.

بينما كانت آنّا تجد صعوبة في استيعاب ما قاله السيد باير، أدركت أنها فتحت فمها على وسعه من شدة الدهشة، فسارعت إلى إطباقه. لم تكن بحاجة إلى شخص مثله مقيم في المدينة ليفترض بأنها فتاة قرويّة بسيطة وساذجة.

أجابته بكل ما تمكّنت من استجماعه من أدب وكياسة:

- إنه لشرف لي أن تكون قد تكبّدت كلّ هذا العناء لرؤيتي.

- حسنًا، إذا كانت مدرّسة الجوقة الموسيقيّة على حق، من دون أن ننسى ذويك الذين يؤمنون أيضًا بموهبتك، فالشرف لي.

ولم تخلُ نبرة السيد باير من الشهامة وهو يتابع:

- وما دمت الآن هنا، يسعدني أن أقول لك إن الفرصة متاحة أمامك لتثبتي أن كلامهم صحيح. أود منك يا آنّا أن تغنّي لي.

أجاب أندرز بينما لزمت آنّا الصمت من شدّة الارتباك:

- لا شكّ في أنها ستغنّي... آنّا؟

- ولكنّني لا أجيد سوى الأغاني الفولكلوريّة والتراتيل يا سيد باير.

أجابها مشجّعًا:

- أقسم لكِ بأنها ستفي بالغرض.

فاقترحت والدتها قائلة:

- غني بير سبيلمان.

أجابها السيد باير وهو يومئ برأسه:

- إنها تفي بالغرض كبداية.

- ولكنني لم أغنّها من قبل إلّا للأبقار.

أجاب السيد باير وقد ظهر في عينيه بريق عابث:

- تخيّلي إذًا أنّني بقرتك المفضّلة، وتريدين مناداتي للعودة إلى المنزل.

- حسنًا سيدي، سأبذل ما بوسعي.

أغمضت آنّا عينيها وحاولت أن تتخيّل نفسها عند سفح الجبل، تنادي روزا، على غرار ما كانت تفعل في كلّ أمسية. فأخذت نفسًا عميقًا وبدأت تغني. كانت الكلمات تطرأ على ذهنها بشكل تلقائيٍّ بينما كانت تغني قصّة عازف الكمان المسكين الذي تنازل عن بقرته ليسترجع كمانه. ومع تلاشي النغمة الأخيرة بين نسمات المساء، فتحت آنّا عينيها.

نظرت إلى السيد باير بتردّد تنتظر منه ردّ فعل لفظيًّا. غير أن الصمت خيّم لبضع لحظات بينما كان يتأمّلها بإمعان.

سألها في نهاية المطاف:

- ما رأيك بترتيلة؟ هل تعرفين «ربي وإلهي إليك نرفع المجد»؟

أومأت آنّا برأسها وفتحت فمها من جديد استعدادًا للغناء. ولكن عندما انتهت هذه المرة، رأت السيد باير يُخرج منديلًا كبيرًا ويمسح عينيه.

قال لها بصوت مشوب بالانفعال:

- آنستي الصغيرة، كان أداؤك مهيبًا، ويستحق حتمًا كلّ ساعة من ألم الظهر الذي سأعاني منه هذا المساء نتيجة الرحلة الشاقّة إلى هنا.

سارعت بيريت إلى القول:

- ستبيت الليلة عندنا. بإمكانك البقاء في غرفة ابننا كنوت وسينام هو في المطبخ.

- أشكرك جزيل الشكر سيّدتي، وسأقبل عرضك من دون تردّد لأنه ينبغي لنا مناقشة مسائل كثيرة. أرجو أن تعذريني على جرأتي، ولكن هل يمكن أن تقدمي قطعة من الخبز لهذا المسافر البائس الذي لم يتناول شيئًا منذ وجبة الفطور؟

ردّت بيريت بارتباك لكونها نسيت في خضمّ الحماسة مسألة الطعام:

- أرجو منك أن تعذرني سيّدي. سنعدّ أنا وآنا شيئًا لتأكله.

- أستطيع في هذه الأثناء أن أناقش مع السيد لاندفيك ما هي الخطوات الواجب اتخاذها لتمكين الجمهور النروجيّ من التعرّف إلى صوت آنّا.

اتسعت عينا آنّا حين سمعت كلامه، ولحقت بوالدتها بشكل آليٍّ إلى المطبخ.

- ماذا تُراه يقول عنّا؟ إننا لا نفهم بأصول الضيافة، أو لا نملك ما يكفي من المال، لتقديم الطعام لضيف جاء لزيارتنا! وبّخت بيريت نفسها بقسوة بينما كانت تعدّ طبقًا يحتوي على الخبز، والزبدة وشرائح من لحم الخنزير المملّح وأضافت:

- سيعود حتمًا إلى كريستيانيا ويخبر أصدقاءه بأن القصص التي سمعوها عن تصرفاتنا الهمجية صحيحة.

- يوحي السيد باير بأنّه رجل طيّب، وأنا واثقة من أنه لن يفعل شيئًا مماثلًا. في حال لم تعودي بحاجة إليّ، سأذهب لإحضار مزيدٍ من الحطب للمدفأة.

- لا تتأخري في العودة. عليكِ أن تجهّزي المائدة.

أجابتها آنّا:

- نعم يا أماه. وغادرت المكان حاملة سلّة من الأغصان تحت ذراعها. وبعد أن ملأتها بالحطب، وقفت قليلًا تتأمل الأنوار المتلألئة التي كانت تسطع بشكل متقطع عند سفح الجبل صوب البحيرة، مشيرة إلى وجود مساكن أخرى متفرّقة. كان قلبها ما يزال ينبض بسرعة تحت تأثير المفاجأة التي حصلت للتوّ.

لم تكن تملك أدنى فكرة عما يعني ذلك بالنسبة إليها، على الرغم من أنها سمعت رواياتٍ كثيرةً عن مغنين وموسيقيين انتقلوا إلى المدينة من قرى مختلفة في مقاطعة تلمارك بمساعدة أشخاص مثل السيد باير. وحاولت أن تفكّر في ما إن كانت ترغب فعلًا في الرحيل في حال طلب منها الذهاب معه. ولكن تجربتها بعيدًا من مزرعة الأبقار لا تجاوز انتقالها إلى هيدال أو رحلة عَرَضية إلى شين، وهذا ما جعلها عاجزة عن تصوّر ما يمكن أن تنطوي عليه هذه الخطوة.

وإذ سمعت والدتها تناديها، استدارت وعادت أدراجها إلى الكوخ.



في صباح اليوم التالي، وخلال تلك الثواني القليلة المشوبة بالنعاس، التي تفصل بين النوم العميق والاستيقاظ، تململت آنّا في سريرها عندما أدركت بأنّ شيئًا

مذهلًا قد حصل البارحة. وحين تذكّرت كلّ التفاصيل، نهضت من سريرها وباشرت العملية المرهقة التي تتمثّل في ارتداء ثيابها اليومية المؤلّفة من سروال داخليّ، وسترة، وبلوزة قشدية اللون، وتنورة سوداء وصدريّة ملوّنة مُغطّاة بالتطريز. وبعد أن اعتمرت قلنسوتها القطنية وأخفت شعرها في داخلها، انتعلت حذاءها.

في الليلة الماضية، وبعد الانتهاء من تناول الطعام، غنّت أغنيتين ورتّلت أخرى قبل أن تطلب والدتها منها الخلود إلى النوم. لم يكن الحديث الذي دار بينهم حتى تلك اللحظة يرتبط بآنا، بل بالطقس الدافئ على غير عادة، وحجم المحاصيل الزراعية التي يتوقّعها والدها في السنة القادمة. ولكنّ أصوات ذويها والسيد باير تناهت إلى مسمعها عبر الجُدُر الخشبية الرقيقة، وعلمت أنّهم يتناقشون في موضوع مستقبلها. وتجرّأت في مرحلة معيّنة على فتح باب غرفتها قليلًا لتتمكّن من استراق السمع.

سمعت والدها يقول: «في حال تركت آنّا المنزل وانتقلت إلى المدينة، أخشى ألّا تجد زوجتي، من يساعدها في الأعمال المنزلية».

علّقت بيريت: «صحيح أنّها ليست بارعة في الطبخ والتنظيف، ولكنها مجتهدة في عملها وتهتمّ بالمواشي».

ردّ السيد باير بصوتٍ هادئ: «أنا واثق من أنّ بإمكاننا التوصّل إلى ترتيبٍ معيّن. وأنا مستعد للتعويض عن خسارة عمل آنّا».

حبست آنّا أنفاسها عندما سمعت الرقم الذي ذُكر وهي لا تكاد تصدق أذنيها. فأغلقت الباب على مهل رافضةً أن تسمع مزيدًا، وراحت تتمتم في سرّها بغضب، وقد شعرت بالسخط لأنّ قرار والديها اقترن بمسألة النقود: «أصبحتُ عرضة للبيع والشراء تمامًا كالأبقار في السوق». وعلى الرغم من سخطها، لم تستطع كبح الإثارة التي أيقظت حواسها، ومنعتها من النوم إلا بعد مرور ساعات طويلة.

أثناء تناولهم العصيدة في ذلك الصباح، لزمت آنّا الصمت بينما كان أفراد أسرتها يتجادلون في عرض السيد باير، الذي ما زال نائمًا بعد تلك الرحلة المضنية التي قام بها. وبدا واضحًا أنّ الحماسة التي استولت عليهم مساء البارحة تلاشت

ليحلّ محلّها تساؤل عقلاني عمّا إذا كان مناسبًا السماح لابنتهم الوحيدة بالانتقال إلى المدينة مع رجل غريب.

قال كنوت، وقد بدا ممتعضًا لأنه اضطرّ للتخلّي عن سريره من أجل السيد باير:

- لا نستطيع الوثوق بكلمته فحسب. كيف نتأكّد من أنّ آنّا ستكون بأمان معه؟

أجابت بيريت التي كانت منهمكة بسكب طبقٍ جديدٍ من العصيدة لزائرها، مع الحرص على تزيين وجه الطبق بالتوت البريّ:

- حسنًا، إذا كانت السيدة إرسليف قد أرسلته إلينا بملء إرادتها، فلا بدّ من أن يكون رجلًا محترمًا وتقيًّا.

علّق أندرز قائلًا:

- أظنّ أنّ من الأفضل أن أذهب لمقابلة القس وزوجته عندما نعود إلى المنزل في الأسبوع القادم.

فأومأت بيريت برأسها بالموافقة، وأردفت قائلة:

- عليه إذن أن يمنحنا وقتًا للتفكير، ومن ثمّ يأتي لزيارتنا من جديد لمناقشة المسألة.

لم تتجرّأ آنّا على الكلام، لاسيما وأنّها تعي تمامًا أنّ مستقبلها على المحك، وليست واثقة إلى أين ستميل كفّة الميزان. فتسلّلت من المنزل خلسةً قبل أن تسند والدتها إليها مزيدًا من المهام، رغبة منها بإمضاء النهار مع الأبقار للتفكير بسلام وهدوء. أخذت تدندن في سرّها أثناء سيرها، وهي تتساءل عن سبب اهتمام السيد باير بها، في حين أن كريستيانيا تحفل حتمًا بمغنين أفضل منها بكثير. لم يكن قد تبقّى لها سوى بضعة أيام تمضيها في الجبال لتعود بعدها إلى هيدال لإمضاء الشتاء، وإذا بموجة من الحزن تغمرها لإدراكها أنّها قد لا تعود إلى هنا في الصيف المقبل. فعانقت روزا وقبّلتها، ومن ثمّ أغمضت عينيها وراحت تغني من جديد لتكبح دموعها.

* * *

عندما عاد أندرز إلى هيدال في الأسبوع التالي، قصد منزل القس إرسليف وزوجته، اللذين أكّدا له أنّ صفات باير البروفسور جديرة بالثقة. وتبيّن له أنه سبق للسيّد باير أن أخذ فتيات شابات كثيرات تحت جناحه، وأشرف على تدريبهنّ حتى أصبحنّ مغنّيات محترفات. وتحدّثت السيدة إرسليف بحماسة عن مشاركة إحداهنّ في الغناء مع الجوقة في مسرح كريستيانيا.

عندما قدم السيّد باير لزيارتهم بعد فترة قصيرة، أمضت بيريت ساعاتٍ طويلةً في المطبخ لتعدّ أفضل نوع متوافر لديها من لحم الخنزير لوجبة الغداء. وبعد الانتهاء من تناول الطعام، أرسلوا آنّا إلى الخارج لمواصلة أعمالها اليوميّة من إطعام الدجاج إلى ملء أحواض المياه. وقد حاولت مرات عدّة أن تحوم قرب نافذة المطبخ لعلّها تسمع ما يقولونه في الداخل، لكنّها لم تتمكّن من سماع شيء. وفي نهاية المطاف، خرج كنوت لإحضارها.

بينما كانت تخلع معطفها، لاحظت أنّ والديها مستأنسان بصحبة السيّد باير، ويحتسون معًا الجعّة التي يعدّها والدها منزليًا. رحّب بها السيّد باير بابتسامة مرحة بينما كانت تهم بالجلوس إلى المائدة مع كنوت.

- حسنًا يا آنّا، وافق والداك على السماح لك بمرافقتي إلى كريستيانيا لمدة سنة، حيث سأكون خلال هذه الفترة مرشدك ومدرّسك. ووعدت والدك بأن أتصرّف بحسن نيّة وأقوم مقام أهلك. ما رأيكِ بذلك؟.

حدّقت آنّا إليه من دون أن تجيب، وأبت أن تبدو أمامه في صورة الفتاة الجاهلة لكونها لا تملك أدنى فكرة عما كان يقصده «بالمرشد» و«القيام مقام الأهل».

بادرت بيريت إلى تفسير كلامه، وقد أراحت يدها على ركبة آنّا وكأنها تريد مواساتها:

- يقصد السيّد باير أنك ستقيمين معه في شقّته في كريستيانيا وسيعلّمك الغناء بشكل صحيح، ويعرّفك إلى أشخاص نافذين ويحرص على أن يهتم بكِ كما لو كنتِ ابنته.

حين لاحظ تعابير الارتباك التي بدت على وجه آنّا، سارع السيّد باير إلى طمأنتها أكثر قائلًا:

- أخبرت والديك بأن الترتيبات المعيشيّة ستكون في غاية اللياقة. فمدبّرة منزلي الآنسة أولسداتر تقيم معي في الشقّة أيضًا، وستبقى دائمًا حاضرة لمرافقتك وتلبية كل حاجاتك. وقد زوّدت والديك برسائل توصية من جامعتي وأخوية الموسيقا في كريستيانيا. فلا داعي للخوف أبدًا يا آنستي، أقسم لك بذلك.

- فهمت.

ركّزت آنّا نظرها على كوب القهوة الذي قدّمته لها والدتها وراحت ترشفها بهدوء.

سألها السيد باير:

- هل تروق لك هذه الخطّة يا آنّا؟

- أظنّ ذلك.

أردف والدها مشجعًا:

- والسيد باير مستعدّ أيضًا لتغطية كل مصاريفك. إنها فرصة مذهلة يا آنّا، فهو يؤمن بأنك تتمتّعين بموهبة عظيمة.

- هذا صحيح. فصوتك من أكثر الأصوات التي سمعتها في حياتي نقاوة. وسأعمل أيضًا على تثقيفك، ليس من الناحية الموسيقيّة فحسب، بل ستتعلّمين أيضًا لغاتٍ أخرى، وسأستخدم مدرّسين لتحسين مهاراتك في القراءة والكتابة.

لم تتمكّن آنّا من منع نفسها من مقاطعته قائلة:

- أرجو المعذرة سيّد باير، ولكنّني ضليعة في الكتابة والقراءة.

- يسعدني ذلك لأننا سنتمكّن، في هذه الحالة، من الانتقال إلى تدريب صوتك في وقت أسرع مما كنت أتوقّع. حسنًا، هل أنتِ موافقة يا آنّا؟

كانت آنّا تتوق إلى سؤاله لماذا يريد أن يدفع لوالديها المال مقابل الوقت

الذي سيخصّصه لرعايتها وتدريب صوتها، ناهيك بإقامتها معه في شقّته. لكنها لم تسمع أحدًا يسأله هذا السؤال، ووجدت أنه لا ينبغي لها أن تفعل ذلك.

- ولكن كريستيانيا بعيدة جدًّا والسنة طويلة جدًّا..

وخفت صوت آنّا وقد أدركت في تلك اللحظة ضخامة العرض المطروح عليها؛ عليها أن تتخلّى بين ليلة وضحاها عن كلّ ما تعوّدت منذ نعومة أظفارها. فهي مجرد فتاة بسيطة تعيش في مزرعة في هيدال، وعلى الرغم من أن حياتها ومستقبلها تسودهما الكآبة، شعرت بأن القفزة النوعية التي يطلبون منها الموافقة على القيام بها في غضون ثوانٍ قليلة تفوق قدرتها على التحمّل.

- حسنًا.

كانت أعين الجميع في الغرفة مسلّطة عليها.

- أنا..

سألها والداها والسيّد باير بصوت واحد:

- نعم؟

- عند رحيلي، عداني بألّا تأكلا لحم روزا في حال موتها.

وانفجرت آنّا لاندفيك فجأةً بالبكاء.

14

بعد مغادرة السيّد باير، أصبح منزل لاندفيك أشبه بخليّة نحل. بدأت والدة آنّا تخيّط لها حقيبة تحمل فيها مقتنياتها القليلة إلى كريستيانيا. غُسلت أفضل تنورتين وقميصين لديها فضلًا عن ملابسها الداخليّة وأُصلحت بعناية فائقة، فكما قالت بيريت، لا يمكن لابنتها أن تبدو مثل فلّاحة عاديّة بين أبناء المدينة المتعالين. أعطتها السيدة إرسليف، زوجة القس، كتاب صلاة جديدًا مع صفحات بيضاء رقيقة، وذكّرتها بأن تتلو صلاة الشكر كل ليلة وألّا تدع طرق المدينة «الكافرة» تغويها. واتُّفِق على أن يلقاها القس إرسليف في درامين ويرافقها على متن القطار إلى كريستيانيا، فسيُقام اجتماع كهنوتي هناك وهو مسافر لحضوره.

أما آنّا نفسها فبالكاد كان لديها لحظة فراغ لتجلس وتفكّر جيّدًا في قرارها. وكلّما شعرت بالشكوك التافهة تتسلّل إلى ذهنها، بذلت قصارى جهدها لتبعدها. أخبرتها أمها أنّ لارس سيأتي لرؤيتها في الغد فشعرت بقلبها يتخبّط في صدرها مسبّبًا لها الألم بينما هي تتذكّر حوار والديها الهامس بشأن زواجهما. يبدو أنه مهما يحمل لها المستقبل، سواءً هنا في هيدال أو في كريستيانيا، فهناك من يتّخذ القرارات بدلًا منها.



في صباح اليوم التالي، قالت بيريت معتقدةً أنّ آنّا لم تكن تصغي بقلق إلى صوت حذائه وهو يزيل عنه الوحول التي خلّفها مطر أيلول:

- وصل لارس، سأفتح الباب. لمَ لا تستقبلينه في صالة الاستقبال؟

أومأت آنّا مدركةً أنّ صالة الاستقبال هي الغرفة «الجديّة». فهي تحتوي على

الأريكة، وهي قطعة الأثاث الوحيدة المنجّدة لديهم، فضلًا عن خزانة ذات واجهة زجاجيّة، تضم أطباقًا وقطع زينة صغيرة، رأت أمها أنها جيدة بما يكفي لكي تعرضها. كما استضافت هذه الغرفة توابيت ثلاثة من أجدادها الذين رحلوا عن هذه الحياة. وخطر لآنا، بينما هي تعبر الرواق الضيّق متوجّهة إليها، أنّ هذه الغرفة لم تستضف أيّ شخص على قيد الحياة ويتنفّس إلا نادرًا، وذلك خلال حياتها كلها. وما أن فتحت الباب حتى طالعتها هبّة من الهواء العفن والخانق.

إنّ الحوار الذي ستجريه يستلزم، بحسب ما يبدو، هذه الأجواء الرصينة والوقورة. وقفت تتساءل أين ينبغي أن تتخذ لنفسها موقعًا بالتحديد بانتظار وصول لارس. وعند سماعها وقع الخطوات الثقيلة، سارعت آنّا للجلوس على الأريكة بوسائدها التي تكاد تكون قاسية، بقدر قساوة ألواح الصنوبر التي وُضِعت عليها.

سمعت طرقة على الباب فشعرت برغبة لا تُقاوَم في الضحك. لم يسبق أن طلب أحدهم الإذن منها للدخول إلى غرفة ليست غرفة نومها. ردّت:

- نعم؟

فُتح الباب وأطلّ وجه أمها المستدير قبل أن تعلن:

- لارس هنا.

راقبته آنّا وهو يدخل إلى الغرفة. كان قد بذل جهدًا؛ فسرّح شعره الأشقر الكثيف، وارتدى أفضل قميص عاجيّ اللون لديه مع بنطاله الأسود الذي لا يرتديه عادة إلا للذهاب إلى الكنيسة، فضلًا عن معطف لم يسبق لها أن رأته من قبل، وهو معطف أزرق داكن يتناسب كثيرًا مع لون عينيه بحسب ما خطر لآنا. افترضت أنه وسيم فعلًا لكنها عادت وفكّرت أيضًا بأخيها كنوت، وهي بالتأكيد لن ترغب في الزواج من هذا الأخير.

لم يرَ أحدهما الآخر منذ أن أعطاها لارس كتاب بير جينت. ابتلعت ريقها بعصبيّة وهي تتذكّر كيف أمسكت يده بيدها. وقفت ترحّب به:

- مرحبًا لارس.

سألت بيريت وهي تقف في الباب:

- هل ترغب في بعض القهوة يا لارس؟

- لـ.. لا، شكرًا لك سيدة لاندفيك.

فقالت أمها بعد فترة صمت وجيزة:

- حسنًا إذًا، سأدعكما وحدكما لتتحدثا.

سألت آنّا لارس بعد مغادرة بيريت:

- هل ترغب في الجلوس؟ فأجابها بنعم وجلس.

جلست آنّا بشكل أخرق في الطرف الآخر من الأريكة وقد وضعت يديها المعقودتين في حجرها.

- آنّا.

وتنحنح لارس قبل أن يسأل:

- هل تعلمين لمَ أنا هنا؟

ردّت:

- لأنك هنا دائمًا؟

أطلق ضحكة ناعمة عند سماعه جوابها ما خفّف التوتّر قليلًا.

- نعم، أفترض أني حاضر دائمًا. كيف كان صيفك؟

- ككل صيفٍ قبله وليس الأسوأ.

- لكن هذا الصيف كان مميّزًا بالنسبة إليك بالتأكيد؟

- أتقصد بسبب السيّد باير؟ الرجل من كريستيانيا؟

- نعم، فالسيدة إرسليف لا تنفك تخبر الجميع. وهي فخورة جدًّا بك... وأنا أيضًا. وأردف:

- أعتقد أنك على الأرجح أشهر شخص في مقاطعة تلمارك كلها. إذا ما استثنينا السيد إيبسن بالتأكيد. إذًا، ستذهبين؟

- حسنًا، يرى والداي أنها فرصة رائعة أُتيحت لي. يقولان إنّه لشرف لي أن يبدي رجل مثل السيّد باير استعداده لأن يساعدني.

- فعلًا، إنهما محقّان. لكنني أودّ أن أعرف إنْ كنت ترغبين في الذهاب؟

فكّرت آنّا في سؤاله. وقالت:

- أعتقد أنّني يجب أن أذهب. سيكون من الوقاحة أن أرفض، ألا ترى ذلك؟ خاصة بعد أن سافر اليوم بطوله عبر التلال ليسمعني أغنّي.

- نعم، أفترض ذلك.

نظر لارس إلى ما ورائها، إلى الجدار المغطّى بألواح من خشب الصنوبر وحدّق إلى صورة بحيرة سكايسوان المعلّقة هناك. ساد صمت طويل لم تعرف آنّا إن كان عليها أن تكسره أم لا. وأخيرًا، عاد لارس وركّز اهتمامه عليها.

- آنّا.

- نعم لارس؟

أخذ نفسًا عميقًا ولاحظت أنه أمسك بذراع الأريكة ليمنع يده من الارتجاف.

- قبل أن تغادري أثناء الصيف، تكلّمت مع أبيك عن إمكانية طلب يدك... للزواج. اتّفقنا على أن أبيعه أرض عائلتي وأن نعمل على زراعتها معًا. هل كنت على علم بأيّ من هذا؟

اعترفت قائلة:

- سمعت والديّ يتحدّثان في الموضوع.

- ما كان رأيك بالخطّة قبل قدوم السيّد باير؟

- أتعني بشأن شراء الأرض؟

- لا.

وارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه لارس قبل أن يضيف:

- عنيت بشأن الزواج مني.

- حسنًا، سأكون صادقة وأقول إنّي لم أكن أعتقد أنّك تريد الزواج بي. أنت لم تأتِ يومًا على ذكر الموضوع.

التفت إليها لارس مدهوشًا قبل أن يقول:

- آنا، لا بدّ من أنّه كان لديك فكرة ما عن مشاعري تجاهك؟ خلال الشتاء الماضي، حضرت إلى هنا ليلة تلو الأخرى وساعدتك في رسائلك.

- لكن يا لارس لطالما كنت هنا منذ صغري. أنت بمنزلة أخي.

ارتسمت على وجهه ومضة ألم وهو يعلن:

- الخلاصة يا آنّا هي أني أحبّك.

نظرت إلى لارس بذهول وحيرة. افترضت أنّه ينظر إلى أيّ زواج مقترح على أنه مسألة راحة، لاسيما وأنها بالكاد تُعتبر الشريك المثالي مع مهاراتها المنزليّة المحدودة. فانطلاقًا مما رأته في حياتها القصيرة، بدا لها أنّ معظم الزيجات تقوم على هذا الأساس. لكن لارس أخبرها الآن بأنّه يحبّها... وهو أمر مختلف في حدّ ذاته.

- هذا لطف كبير منك يا لارس. أعني أن تحبّني.

- هذا ليس لطفًا يا آنّا، إنّه...

قطع كلامه وقد بدا عليه الضياع والارتباك. وأثناء هذا الصمت الطويل، راحت آنّا تفكّر كم سيكون حوارهما على العشاء هادئًا إذا ما تزوّجا. سيركّز لارس على طعامه، وهذا ليس بالأمر الحسن فعليًا.

- أودّ أن أعرف يا آنّا إذا كنت لتقبلي عرض الزواج لو لم يطلب منك السيد باير أن ترافقيه إلى كريستيانيا؟

وعندما فكرت بكلّ ما فعله ليساعدها في الشتاء الماضي وكم كانت مولعة به، أدركت أنّ هناك إجابة واحدة يمكن أن تعطيها.

- كنت لأقول نعم.

قال وقد بدا الارتياح جليًا على تعابير وجهه:

- شكرًا لك. إذًا، ونظرًا للظروف لراهنة، اتفقنا أنا وأبوك أن نحرّر عقد شراء أرض عائلتي على الفور. بعدئذٍ، سأنتظرك عامًا بينما تذهبين أنت إلى كريستيانيا. وبعد عودتك سأتقدّم للزواج منك رسميًّا.

عند هذه النقطة، بدأت آنّا تشعر بالذعر، فقد أساء لارس فهمها. لو سألها إن كانت تحبّه كما قال إنه يحبّها لأجابت بالنفي.

- آنّا، هل توافقين؟

ساد صمت مطبق في غرفة الاستقبال بينما راحت آنّا تحاول أن تستجمع أفكارها.

أردف يقول بهدوء: «آمل أن تتعلّمي أن تحبّيني مثلما أحبّك. ولعلنا ذات يوم نسافر إلى أميركا معًا ونبدأ حياةً جديدةً هناك. والآن، هذه لك علامةً لوعدنا غير الرسميّ بأن أكون لك وتكوني لي. أعتقد أنه مفيد أكثر من الخاتم في الوقت الراهن على الأقل.

ومدّ يده إلى جيب معطفه وأخرج علبة خشبيّة طويلة ورقيقة أعطاها إياها.

- أنا... شكرًا لك.

مررت آنّا أصابعها على الخشب المصقول وفتحتها. كان في داخل العلبة أجمل قلم رأته يومًا في حياتها، وأدركت أنّه كلّفه كثيرًا من دون أدنى شك. كانت يد الريشة منحوتة من خشب الصنوبر الخفيف، وبشكل مقوّس أنيق لتتناسب تمامًا مع يدها، بينما انتهى رأس الريشة بنقطة ناعمة. حملتها مثلما علّمها لارس أن تفعل. وحتى لو لم تكن تحبّه أو ترغب في الزواج منه، إلا أنّ هديّته لمست قلبها وجعلت عينيها تغرورقان بالدموع.

- لارس، هذا أروع وأرقّ شيء امتلكته يومًا.

قال:

- سأنتظرك يا آنّا. بإمكانك أن تستخدمي قلم الحبر لتكتبي لي رسائل تصفين فيها حياتك الجديدة في كريستيانيا.

- بالطبع.

- وتوافقين على أن نصبح رسميًّا مخطوبين السنة القادمة عندما تعودين من كريستيانيا؟

بعد أن شعرت بقوة حبّه وأنزلت نظرها إلى قلم الحبر الجميل، شعرت آنّا أنها لا تستطيع أن تعطي إلّا جوابًا واحدًا.

- نعم.

ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وقال:

- إذًا، أنا راضٍ. الآن، سنجد والديك ونعلن لهما أننا توصلنا إلى اتفاق.

وقف لارس وأخذ يدها بيده ثم أحنى رأسه نحوها وقبّلها قبل أن يردف:

- آنّا. لنأمل أن يعاملنا الربّ بلطف.



بعد يومين، مُسِحت من ذهن آنّا كل الأفكار المزعجة بشأن لارس وما يمكن أن يحدث بعد عام من الآن بينما استيقظت باكرًا لتبدأ رحلتها الطويلة إلى كريستيانيا. شعرت بالغثيان من شدة توتّرها، وبالكاد استطاعت أن تجبر نفسها على ابتلاع الفطائر الخاصّة التي أعدّتها لها أمّها للفطور. وعندما أعلن أندرز أنّ وقت الانطلاق قد حان، وقفت آنّا وقدماها بالكاد تحملانها. تلفّتت من حولها تتأمّل المطبخ الصغير للمرة الأخيرة، وشعرت برغبةٍ مفاجئةٍ ويائسةٍ في أن تفرغ حقيبتها وتلغي المسألة كلّها.

قالت بيريت وهي تملّس على خُصل شعر آنّا الطويلة المجعّدة لتهدّئها بينما هما تتعانقان:

- لا بأس يا عزيزتي. ستعودين للزيارة أسرع مما تظنين. لا تنسي تلاوة صلواتك كل ليلة، والذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد وسرّحي شعرك جيّدًا.

قال كنوت بنبرة جافة وهو يأخذ أخته بين ذراعيه:

- توقّفي عن تدليلها وإلّا فلن تصل إلى هناك أبدًا.

ثم همس في أذنها قبل أن يمسح الدموع بإبهامه عن خدّيها:

- ولا تنسي أن تمرحي وتستمتعي بوقتك كثيرًا.

أوصلها والدها بعربتهم التي يجرّها حصان إلى مدينة درامن التي يتطلّب

الوصول إليها مدّة يوم تقريبًا، ليقلّها القطار إلى المدينة برفقة القسّ إرسليف. أمضيا ليلتهما في الخان المتواضع الذي يضمّ أيضًا إسطبلًا للجياد، بحيث يمكن لهما أن يستيقظا باكرًا ليصلا إلى محطة القطار قبل وقتٍ كافٍ من موعد قطار آنّا.

كان القس إرسليف بانتظارهما في المحطة التي امتلأت بالمسافرين. وعندما وصل القطار أخيرًا، شعرت بأن نفثات البخار المتصاعدة وأصوات المكابح الصارخة هزمتها وأنهكتها بينما سارع الركّاب للصعود إلى متنه. حمل أندرس الحقيبة الكبيرة بدلًا منها وهما يتبعان القس نحو القطار. همست:

- أبي، أنا خائفة.

أجابها بلطف:

- صغيرتي، إذا وجدت أنك لست سعيدة، تستطيعين بكل بساطة أن تعودي إلى البيت.

ومدّ يده يداعب خدّها قبل أن يردف:

- والآن، دعينا نجدْ لكما مكانًا على متن القطار.

صعدوا الدرجات المؤديّة إلى القطار ثم شقّوا طريقهم عبر العربة ليجدوا مقعدين مناسبين للمسافرين. وبعد أن رفع أندرز الحقيبة ووضعها على الرف المعدني فوق رأسها، أطلق الحارس صفّارته فانحنى والدها سريعًا ليطبع على خدّها قبلة الوداع قبل أن يقول:

- احرصي على أن تكتبي للارس بانتظام لنعرف كلّنا كيف تسير أمورك، وتذكّري الشرف العظيم الذي مُنح لك. أظهري لأبناء المدينة أنّ أخوتهم الريفيين يعرفون معنى حسن التصرّف.

- سأفعل يا أبي، أعدك بذلك.

- فتاة طيبة. سنراك في عيد الميلاد. ليباركك الله ويبقيك سالمة. إلى اللقاء.

قال القس إرسليف وهو يصافح أندرز:

- لا تقلق فسأسلّمها لعناية السيّد باير.

بذلت آنّا قصاري جهدها لئلا تبكي حين نزل والدها من القطار، وحين وقف على الرصيف ليلوّح لها عبر النافذة. لكن القطار انطلق بهزّة قويّة وسرعان ما اختفى وجه أبيها وراء سحب البخار.

وعندما فتح القس إرسليف كتاب صلاته، راحت آنّا تتسلى بتأمّل العربة وركّابها الآخرين وشعرت فجأة بأنها ملفتة للنظر بثوبها التقليدي. كان الركّاب الباقون من رجال ونساء يرتدون ملابس المدينة، ما جعل آنّا تشعر تمامًا كالقرويّة التي هي عليها. مدّت يدها إلى جيوب تنورتها، وأخرجت الرسالة التي أعطاها إياها لارس بالأمس حين ودّعها، وطلب منها حينذاك أن تعده بألّا تقرأها إلا بعد رحيلها. فتحت آنّا الختم في حركةٍ مبالغٍ فيها، لتظهر للركّاب الآخرين أنها تستطيع أن تقرأ حتّى لو كانت فتاة ريفيّة.

ستالسبرغ فانينغيسيت

تيندڤن

هيدال

18 أيلول 1875

عزيزتي آنّا،

أردت أن أخبرك أنّني فخور بك. استغلّي كل فرصة تُتاح لك لتحسّني صوتك ومعارفك حول العالم الرحب خارج هيدال. لا تخشيه، وتذكّري أنّ الملابس الأنيقة والأساليب المختلفة للأشخاص الذين ستلتقيهم تخفي خلفها مجرّد بشر مثلك ومثلي.

وفي هذه الأثناء، سأنتظرك أنا هنا وأتطلّع إلى اليوم الذي ستعودين فيه. أرجوك راسليني لتطمئنيني إلى أنّك آمنة في كريستيانيا. سنبقى بانتظار سماع أيّ تفاصيل مذهلة عن حياتك هناك.

أمّا الآن، فاعلمي أنّني المحب والمخلص على الدوام،

لارس،

طوت آنّا الرسالة بعناية وأعادتها إلى جيبها. وجدت صعوبة في أن توازي بين تصرّفات لارس الخرقاء والهادئة للغاية وبين فصاحة لسانه وسلاسة أسلوبه في كتابة هذه الرسالة. شقّ القطار طريقه نحو كريستيانيا بينما هي تراقب القس إرسيلف الذي غفا في المقعد المقابل لها، وقد علقت نقطة من السائل المخاطي على طرف أنفه من دون أن تسقط، وكبتت آنّا موجة الذعر التي تملكتها كلما خطرت لها فكرة الزواج القادم. لكن فترة سنة هي وقت طويل حيث يمكن أن تحدث أشياء كثيرة. يمكن للمرء أن يُصعق بالبرق أو أن يُصاب بذات الرئة ويموت. وخطر لها أنّها قد تموت إذا انعطف القطار نحو اليمين بشكل مفاجئ. أغمضت آنّا عينيها على هذه الفكرة في محاولة منها لكي ترتاح قليلًا.



- أهلًا بك أيها القس إرسيلف! وعزيزتي الآنسة لاندفيك، اسمحي لي أن أرحّب بك في كريستيانيا. هل تتكرمين وتسمحين لي بأن أناديك آنّا، ما دمنا سنعيش على مقربة، أحدنا من الآخر؟

طلب منها السيّد باير هذا بينما هو يأخذ الحقيبة من يدها ويساعدها على الترجّل من القطار. فردّت آنّا بخجل:

- نعم، بالطبع يا سيّدي.

سأل السيد باير القس المسنّ وهو يسير إلى جانبهما بشكل أعرج على الرصيف المزدحم:

- كيف كانت رحلتك أيها القس إرسليف؟

- كانت مريحة. شكرًا لك.

وأضاف بينما كان يلوّح لرجل قصير أصلع يرتدي ملابس مطابقة لملابسه:

- انتهت مَهمّتي الآن، وأرى أنّ القس أريكسون بانتظاري. إذًا، سأقول لك وداعًا يا آنّا.

- الوداع أيها القس إرسليف.

راقبت آنّا آخر ما كان يربطها بكل ما عرفته في حياتها يختفي عبر بوابات المحطة وفي زحام الشارع، حيث ينتظر عدد من العربات التي تجرها الجياد.

- حسنًا، نحن أيضًا سنستأجر إحدى هذه العربات لتنقلنا سريعًا إلى المنزل. أنا أستقلّ الترامواي في العادة لكنني أخشى ألّا تكوني قادرةً على التحمّل بعد رحلتك الطويلة.

وبعد أن أعطى التعليمات اللازمة للسائق، ساعد السيد باير آنّا على الصعود. فجلست على المقعد المنجّد بقماش أحمر ناعم، والمريح أكثر من أريكة عائلتها الخاصة في المنزل، وشعرت بسعادة غامرة لأنها تسافر بهذه العربة الفخمة.

علّق السيد باير قائلًا:

- الرحلة إلى شقتي قصيرة وقد أعدّت مدبّرة المنزل لديّ بعض الطعام. لا شكّ في أنك جائعة بعد رحلتك هذه.

أملت آنّا في سرّها أن تستغرق الرحلة في العربة وقتًا طويلًا. دفعت جانبًا الستائر المخمليّة القصيرة وراحت تنظر من النافذة بدهشة وعجب بينما هم يعبرون وسط المدينة. رأت، بدلًا من المسارات الوعرة والضيقة التي تتقاطع في مدينة شين، طرقاتٍ واسعةً تحفّ بها الأشجار وتكثر فيها الحركة. جاوزوا ترامًا يجرّه جواد، ارتدى الركّاب على متنه ملابس أنيقة واعتمر الرجال قبعات عالية لامعة، بينما تزيّنت النساء بابتكارات مترفة مزيّنة بالأزهار والشرائط. حاولت آنّا أن تتخيّل نفسها وهي ترتدي مثل هذه الملابس وتعتمر مثل هذه القبّعات فكبتت ضحكتها.

قال السيد باير:

- هناك أشياء كثيرة لنناقشها بالطبع لكن لدينا الوقت حتى...

سألته آنّا:

- حتّى ماذا يا سيدي؟

- آه، حتى تصبحي جاهزة لمواجهة جمهور أوسع أيتها الشابة العزيزة. والآن، ها قد وصلنا.

فتح النافذة ثم طلب من السائق أن يوقف العربة. رفعت آنّا عينيها تتأمل المبنى الحجريّ الشامخ الذي امتدت طوابقه المتعددة بنوافذها اللامعة نحو الأعلى، وكادت تلامس السماوات فوقها.

أخبرها، وهما يدخلان عبر الأبواب الكبيرة المزدوجة، ويقفان في المدخل ذي البلاط الرخامي الذي ردّد صدى صوته:

- للأسف، لم نتمكّن بعدُ من تركيب واحد من هذه المصاعد الجديدة، ما يعني أنّ علينا أن نصعد السلالم.

وعلّق السيد باير فيما هما يشرعان بصعود السلالم اللولبيّة ذات الدرابزين النحاسيّ اللامع:

- عندما أصل إلى الشقة، أشعر على الأقل أنني أستحقّ عشائي!

عدّت آنّا ثلاثة طوابق من السلالم فقط، وشعرت أنّ صعودها أسهل من تسلّق سفح جبل في يوم ماطر، قبل أن يقودها السيد باير عبر رواق عريض ويفتح أحد الأبواب.

صاح وهو يقودها عبر ممر إلى قاعة استقبال ضخمة، غُطّيت حيطانها بورق أحمر قانٍ واحتوت على مجموعة من أكبر النوافذ الزجاجية التي رأتها يومًا في حياتها:

- آنسة أولسداتر، لقد وصلت آنّا! أين ذهبت هذه المرأة؟ ومن ثمّ أردف قائلًا:

- اعذريني للحظة يا عزيزتي آنّا، سأذهب للبحث عنها. أرجو أن تجلسي وتتصرّفي على راحتك.

كانت آنّا متوتّرة إلى حدٍّ منعها من أن تبقى ساكنة، فاستغلّت الفرصة لتتأمّل الغرفة. انتصب إلى جانب إحدى النوافذ بيانو كبير، في أسفله طاولة من خشب الماهوجني غطّتها أكوام من أوراق الموسيقى. وتوسّطت الغرفة أريكة أكبر وأفخم بكثير من أريكة عائلتها، وقد وُضع قبالتها كرسيان أنيقان مغطّيان بقماش ملائم مخطّط باللونين الزهريّ والبنيّ وإلى جانبها طاولة منخفضة مصنوعة من الخشب الداكن الأنيق، حيث تراكمت الكتب ومجموعة من علب العطوس (التبغ الممزوج

بالزيت المعطّر). كانت الجدران مزيّنة بلوحات زيتيّة لمناظر ريفيّة، لا تختلف عن المشاهد والآفاق التي تحيط بمنزلها في هيدال. ورأت عددًا من الشهادات والرسائل الموضوعة في أُطرٍ. لفتت إحداها نظرها، فتوجّهت ناحيتها ونظرت إليها عن كثب.

الجامعة الملكيّة الهولندية

بروفسور دكتور بورن باير

أستاذ في التاريخ

16 تموز 1847

ورأت تحت الكلمات ختمًا أحمر وتوقيعًا، وتساءلت عن عدد السنوات التي قضاها معلمها في المدرسة ليحقّق هذا.

قال السيد باير وهو يعود بخفّة إلى الغرفة برفقة امرأة طويلة القامة ونحيلة، خطر لآنا أنها لربما كانت في مثل سنّ أمها:

- يا إلهي، بدأ الظلام يخيّم هنا على الرغم من أنّ الساعة بالكاد تجاوزت الخامسة!

ارتدت السيدة ثوبًا أسود من الصوف، بياقة عالية وتنورة طويلة مفصّلة بشكل أنيق لكنها بسيطة وغير مزيّنة إذا ما استثنينا مجموعة المفاتيح التي تتدلى من سلسلة رقيقة تلفّ خصرها. وقد جمعت المرأة شعرها البنيّ الفاتح في كعكة أنيقة عند أسفل عنقها.

- آنّا، هذه الآنسة أولسداتر، مدبّرة المنزل.

قالت آنّا وهي تنحني، كما قيل لها دائمًا أن تفعل، دليل احترام لمن هم أكبر سنًّا:

- يسرّني التعرّف إليك آنسة أولسداتر.

أجابت المرأة وقد ارتسمت شبه ابتسامة في عينيها البنيّتين الدافئتين وهي تراها ترفع رأسها بعد الانحناءة:

- وأنا أيضًا يا آنّا. أنا هنا لأخدمك وأهتمّ بك.

وشدّدت على الكلمة الأخيرة قبل أن تردف:

- بالتالي، يجب أن تعلميني إذا ما احتجتِ إلى أيّ شيء أو إذا لم يعجبك شيء ما.

- أنا...

شعرت آنّا بالإرباك، إذ لا يمكن لهذه السيدة بثوبها المرتّب أن تكون خادمة؟ وتابعت تقول:

- شكرًا لك.

أعطى السيد باير تعليماته للمرأة:

- هلّا أضأتِ المصابيح يا آنسة أولسداتر؟ آنّا، هل تشعرين بالبرد؟ يجب أن تخبريني إن كنت كذلك لنشعل المدفأة أيضًا.

احتاجت آنّا، دقيقة أو اثنتين لتجيب، إذ كانت مسحورة وهي ترى الآنسة أولسداتر تستخدم حبلًا طويلًا لتُنزل الثريّا التي تتدلّى من السقف، ومن ثمّ تمدّ قبضة من النحاس إلى الوسط قبل أن ترفع نحوها فتيلًا مشتعلًا. دبّت الحياة في ألسنة اللهب الناعمة الموزّعة على امتداد أذرع الثريا المزخرفة بشكل أنيق، فأضفت على الغرفة بريقًا ذهبيًا ناعمًا فيما هي تُرفع مجددًا إلى مكانها السابق فوقهم. بعدئذٍ، التفتت آنّا إلى المدفأة التي أشار إليها السيد باير؛ كانت مصنوعة من بلاط السيراميك القشديّ اللون، وقد ارتفعت مدخنتها لتصل إلى السقف العالي المشبّك بشكل رقيق بينما طُلي الرفّ الذي يعلوها باللون الذهبيّ. لم تكن هذه مدفأة إذا ما قارنتها بالمدفأة الفولاذيّة السوداء القبيحة في منزل والديها، بل هي تحفة فنيّة.

- شكرًا يا سيد باير فأنا أشعر بالدفء.

طلب السيّد باير:

- آنسة أولسداتر، رجاءً خذي معطف آنّا وضعيه في غرفتها مع حقيبتها».

فكّت آنّا الشريطة التي تحيط بعنقها بينما رفعت مدبّرة المنزل المعطف عن كتفيها. قالت بهدوء وهي تطوي المعطف وتضعه على ذراعها:

- لا بد من أنّ المدينة الكبيرة تبدو هائلة بالنسبة إليك. هذا ما شعرت به أنا عندما وصلت إليها للمرة الأولى قادمة من الوسند.

مع هذه الكلمات القليلة، عرفت آنّا على الفور أنّ الآنسة أولسداتر كانت فتاة ريفيّة هي أيضًا، وأنها تفهمها.

- إذًا، أيتها الشابة العزيزة، سنجلس ونحتسي قليلًا من الشاي. ما أن تتمكّني من إحضاره يا آنسة أولسداتر.

- حسنًا يا سيد باير.

وأومأت مدبّرة المنزل برأسها قبل أن ترفع حقيبة آنّا وتغادر الغرفة.

أشار إلى كرسيٍّ لتجلس عليه آنّا وجلس قبالتها تمامًا على الأريكة قائلًا:

- لدينا الكثير لنتحدث بشأنه، ولا وقت أفضل من الوقت الراهن. سأخبرك عن حياتك الجديدة هنا في كريستيانيا. قلتِ إنك تستطيعين أن تقرئي وتكتبي بمهارة وإتقان ما سيوفّر علينا وقتًا. فهل تستطيعين قراءة الموسيقا أيضًا؟

اعترفت آنّا:

- لا، لا أستطيع.

راقبت السيد باير وهو يسحب دفتر ملاحظات مغلّف بالجلد نحوه، ويختار قلمًا من الحبر جعل ذاك الذي أهداها إياه لارس يبدو وكأنه قطعة من الخشب الخام. غطس القلم في علبة حبر موضوعة على الطاولة المنخفضة وراح يكتب.

- أفترض أنك لا تعرفين لغاتٍ أخرى؟

- لا، لا أعرف.

وكتب مجدّدًا في دفتر الملاحظات قبل أن يسأل:

- هل سبق لك أن حضرتِ حفلًا- وأعني هنا حفلًا موسيقيًا- في المسرح أو في قاعة للحفلات الموسيقيّة؟

- لا يا سيدي، أبدًا. في الكنيسة فقط.

- إذن، يجب أن نصحّح هذا في أسرع وقت ممكن. هل تعرفين ما هي الأوبرا؟

- أعتقد ذلك. إنها حيث الأناس على المسرح يغنون القصة بدلًا من أن يروونها.

- حسنًا. وهل تجيدين العدّ؟

ردّت آنّا بفخر:

- أستطيع أن أعدّ حتّى المئة.

خنق السيد باير ابتسامته وقال:

- وهذا كل ما تحتاجين إليه في الموسيقا يا آنّا. على المغني أن يعرف كيف يعدّ النغمات. هل تجيدين العزف على آلة موسيقيّة؟

- يملك أبي كمانًا تقليديًا وقد تعلّمت أسس العزف عليه.

عندئذ، قال بنبرة رضا بينما عادت مدبّرة المنزل حاملةً صينيّة:

- حسنًا إذًا، يبدو أنك شابة متكاملة. سنحتسي الشاي الآن وبعدها ستتفضّل الآنسة أولسداتر بإرشادك إلى غرفتك. وعند الساعة السابعة، سنتناول العشاء معًا في غرفة الطعام.

لفت انتباه آنّا الأبريق الغريب الشكل الذي صبّت منه مدبّرة المنزل ما بدا لها قهوة خفيفة جدًّا.

فقال السيد باير:

- إنه شاي دارجيلنغ.

لم تشأ آنّا أن تبدو جاهلة، فرفعت الكوب الصينيّ الرقيق إلى شفتيها، مقلّدةً السيد باير. كان المذاق سارًّا، لكن من الصعب وصفه مقارنة مع القهوة الثقيلة التي تعدّها أمها في المنزل.

- ستجدين في غرفتك بعض الملابس العاديّة التي جعلت الآنسة أولسداتر تعدّها لك. ممّا لا شك فيه أني لم أستطع أن أحدّد مقاسك إلا بشكل تقريبي. وبعد رؤيتك الآن، لاحظت أنك أصغر حجمًا مما أتذكّر، ما يعني أنّ الملابس ستحتاج إلى بعض التعديل. وتابع السيد باير قائلًا: «ولا بُدّ من أنّك لاحظت، نادرًا ما يتم ارتداء الثوب النروجي التقليدي في كريستيانيا إلا في أيام الاحتفالات.

فأجابته آنّا بأدب:

- أنا واثقة من أنّ ما أعدّته الآنسة أولسداتر لي سيناسبني جيدًا يا سيدي.

- أيتها الشابة العزيزة، اعترف بأنّ تماسكك حتى الآن أثار إعجابي للغاية. ولأنني حظيت برفقة مغنياتٍ أخرياتٍ شاباتٍ من أنحاء البلاد، فأنا أدرك التغيير الكبير في الظروف بالنسبة إليك. لسوء الحظ أنّ كثيراتٍ منهنّ عدن سريعًا إلى ديارهنّ كما تعود الفئران إلى حجرها. لديّ شعور بأنّك ستختلفين عنهنّ. والآن يا آنّا، ستصحبك الآنسة أولسداتر إلى غرفتك لتستريحي بينما أعالج بعض الأعمال المكتبيّة التي لا تنتهي من الجامعة. سنلتقي مجدّدًا عند الساعة السابعة لتناول العشاء.

- كما تشاء يا سيدي.

نهضت آنّا فلاحظت أنّ الآنسة أولسداتر تنتظرها عند الباب. ودّعت السيد باير بانحناءة وغادرت الغرفة خلف الآنسة أولسداتر التي تقدّمتها في الرواق حتى توقّفت عند أحد الأبواب وفتحته.

هذه الغرفة ستكون لك يا آنّا. أرجو أن تجديها مريحة؛ التنانير والقمصان التي أعددتها لك معلّقة في الخزانة، جربيها في وقتٍ لاحقٍ وسنرى إن كانت تحتاج إلى تعديل.

قالت آنّا، وقد وقعت عيناها على السرير الضخم بغطائه المطرّز الذي يبلغ حجمه ضعف حجم السرير الذي يتشاركه والداها في المنزل:

- شكرًا لك.

ورأت قميص نوم جديدًا من الكتان موضوعًا عند أسفل السرير.

- أخرجتُ بعض مقتنياتك من الحقيبة ورتّبتها، وسوف أساعدك لترتيب ما تبقى لاحقًا. تجدين ماءً في الإبريق على المنضدة بجانب السرير إذا ما شعرت بالعطش، كما أنّ الحمّام في آخر الرواق.

لم تكن آنّا متعوّدة سماع كلمة «حمّام» فنظرت إلى الآنسة أولسداتر نظرة عدم يقين.

- الغرفة التي تحتوي المرحاض وحوض الاستحمام. زوجة السيد باير المتوفاة كانت أميركية وأصرّت على وسائل الراحة الحديثة هذه.

ورفعت مدبّرة المنزل حاجبها بشكل طفيف، في حركة لم تستطع آنّا أن تعرف ما إذا كانت تعني الاستحسان أم العكس، ثم أضافت قبل أن تغادر الغرفة على عجل:

- سنراك في غرفة الطعام عند الساعة السابعة.

توجّهت آنّا إلى الخزانة وفتحتها ثم أطلقت تنهيدة عجب وهي تتأمل ملابسها الجديدة. كان هناك أربعة قمصان من القطن الناعم تزيّنها عند الياقة أزرار صغيرة من اللؤلؤ، وتنّورتان من الصوف. لكن أكثر ما أثارها هو الفستان الرسمي بحمّالات المفصّل من قماش أخضر لامع افترضت أنه حرير. أغلقت آنّا الخزانة وقد سرت في جسمها قشعريرة من السرور، ثم اتّبعت إرشادات الآنسة أولسداتر وشقّت طريقها عبر الرواق لتصل إلى الحمّام.

ومن بين كل المشاهد والأشياء التي رأتها في هذا اليوم، ما شاهدته عيناها عندما فتحت الباب وبدا لها أعجوبة الأعاجيب. رأت في إحدى الزوايا كرسيًّا خشبيًّا عريضًا يضم مقعدًا من المينا مع فتحة في وسطه، وحلقة حديدية لسحب سلسلة تتدلى فوقه. وعندما شدّت السلسلة بحذر شديد، تدفّقت المياه بشكل آليّ فأدركت آنّا أنّ هذا مرحاض داخليّ. وكان هناك حوض استحمام أبيض، عميق ولامع وسط الأرضيّة المكسوّة بالبلاط، ما جعل الحمّام الصغير الذي تستخدمه عائلتها من حين إلى آخر في هيدال يبدو وكأنه صالح لغسل الشياه فيه فحسب.

عادت آنّا إلى غرفتها وهي تتساءل: كيف يمكن لهذه الأشياء أن تكون موجودة، وأعلنت الساعة أنّه لم يبقَ على موعد العشاء مع السيد باير سوى قرابة النصف ساعة. وعندما توجّهت إلى الخزانة لتختار إحدى قطع الملابس الجديدة لترتديها في هذه المناسبة، لاحظت أنّ السيدة أولسداتر وضعت أوراقًا للكتابة وقلم آنّا الخاص على الطاولة الصغيرة المصقولة الموضوعة تحت النافذة. عاهدت نفسها بالكتابة للارس ووالديها ما أن تُتاح لها الفرصة لتخبرهم بكل ما رأته حتى الساعة، ثم شرعت تستعد ليبدو مظهرها لائقًا في أول أمسيّة لها في كريستيانيا.

15

الشقة 4

10 شارع بوابة أولاف

كريستيانيا

24 أيلول 1875

أعزائي لارس، أبي، أمي وكنوت،

أرجو منكم أن تعذروني على الأخطاء الإملائية وسوء استخدام القواعد اللغويّة، ولكنْ آمل أن تلاحظوا أنّ خطّي قد تحسّن كثيرًا! انقضى على وجودي في هذا المكان خمسة أيام وشعرت بحاجة إلى أن أروي لكم عن مدى اندهاشي بحياة المدينة.

أودّ في البداية أن أشير، وأرجو ألّا تعتبروا هذه الإشارة تصرفًا غير لائق، إلى وجود أداة داخليّة مزوّدة بسلسلة يمكن شدّها لتصريف القذارة! وحوض استحمام يُملأ مرتين في الأسبوع بالمياه الساخنة من أجلي! أخشى أن تظنّ الآنسة أولسداتر، التي تعمل مدبّرة المنزل، والسيد باير، أنّني مصابة بمرض ما ولهذا عليّ أن أمضي ساعات في الحوض المملوء ماءً.

وتضمّ غرفة الجلوس مصباحًا يعمل على الغاز، ومدفأة أشبه بمذبح كنيسة ضخم تنبعث منها كمية فائقة من الدفء بحيث أنني غالبًا ما أشعر بالإغماء. تهتم الآنسة أولسداتر بتنظيم الإجراءات الروتينيّة للشؤون المنزليّة كما تعدّ الطعام وتقدمه، وتعاونها في ذلك خادمة تأتي كلّ يوم وتهتم بتنظيف المنزل وغسل الملابس وكيّها، وبالتالي عليّ الاعتراف بأنني لا أحرك ساكنًا مقارنة بالمهام التي كنت أقوم بها في المنزل.

نقيم في منزل في الطابق الثالث من مبنى في شارع يُعرف باسم بوّابة أولاف. ويطلّ المنزل على منظر جميل للمتنزّه الذي يقصده سكّان المنطقة كل نهار أحد للتنزّه. وبإمكاني، على الأقلّ، أن أرى من نافذة غرفتي شيئًا من الخضرة والأشجار التي، على الرغم من أنها بدأت تفقد أوراقها مع اقتراب فصل الشتاء، فإنها ما تزال تذكّرني بدياري. (من غير المألوف أن نرى في هذا المكان قطعة صغيرة من الأرض لا تزدحم بالطرق أو المنازل).

بالنسبة إلى الدروس التي أتابعها، بدأت أتعلّم العزف على البيانو. وفي حين يتحلّى السيد باير بكثير من الصبر في تعامله معي، أظنّ أنني في غاية الغباء. فأصابعي الصغيرة لا تنبسط على النوتات الموسيقيّة كما يرغب.

سأسرد لكم تفاصيل نهاري، لتتمكّنوا بعدها من الفهم بشكلٍ أفضل. عند الساعة الثامنة، تدقّ الآنسة أولسداتر على باب غرفتي لتوقظني، حاملةً معها صينية الفطور. لا بدّ من الاعتراف بأنني أشعر في تلك اللحظة وكأنني أميرة. أحتسي الشاي، الذي بدأت أتعوّد مذاقه شيئًا فشيئًا، وأتناول الخبز الأبيض الطازج الذي أخبرني السيد باير بأنه شائع في إنكلترا وفرنسا على حدٍّ سواء. وإلى جانب الخبز، قدر من الفاكهة المحفوظة التي يمكن مسح الخبز بها. بعد الانتهاء من تناول الفطور، ارتدي الملابس التي صنعتها الآنسة أولسداتر من أجلي، ويمكن وصفها بالحديثة الطراز مقارنة بتلك التي كنت أرتديها في المنزل، وأتوجّه بعدها إلى غرفة الجلوس حيث يجب أن أكون حاضرة عند الساعة التاسعة للبدء بدروس الموسيقا مع السيد باير. وبعد ساعة ونيّف من تعلّم النوتات الموسيقيّة على البيانو، نبدأ بدراسة النوتات الموسيقيّة على الورق. إذ عليّ أن أتعلّم كيفية توافق النوتات الموسيقيّة على الصفحات مع مفاتيح البيانو، وبفضل قدرات السيّد باير التعليميّة البارزة، بدأت أفهم الترابط بشكلٍ تدريجيّ. بعد انتهاء الدرس، يغادر السيد باير المنزل متوجّهًا إلى الجامعة حيث يشغل منصب أستاذ جامعيّ، أو يخرج في بعض الأحيان لتناول الغداء مع أصدقائه.

ويأتي بعدها الجزء المفضّل لديّ من النهار، حين أتناول وجبة منتصف النهار. في اليوم الذي تلى وصولي، تناولت وجبة الغداء التي أعدّتها لي الآنسة أولسداتر

في غرفة الطعام، التي تضمّ مائدة كبيرة جدًا عززت إحساسي بالوحدة. (سطحها مصقول بدرجة عالية بحيث تبدو أشبه بمرآة وأستطيع رؤية انعكاس صورتي فيها). بعد أن انتهيت من تناول الطعام، حملت طبقي وكأسي ودخلت المطبخ. فنظرت الآنسة أولسداتر إليّ بذهول قائلة إنها مسؤولة عن جمع الأطباق المتسّخة. لكنّني لاحظت بطرف عيني شيئًا لم تقع عليه من قبل، وهو عبارة عن موقد كبير للطهي مصنوع من الحديد الأسود. فشرحت لي الآنسة أولسداتر كيف تضع القدور عليه وتشعل شعلات الغاز تحتها لطهو الطعام، بدلًا من القيام بذلك على النار مباشرة.

يختلف المطبخ كل الاختلاف عن مطبخنا في المزرعة، ولكنه يذكّرني بدياري إلى حدّ أنني توسّلت إليها أن تسمح لي بتناول الطعام معها في الأيام التي لا يكون فيها السيد باير في المنزل عند الغداء. فنحن نتبادل الأحاديث كما لو كنا صديقتين، وهي تعاملني بلطف شديد، وتدرك أن هذه الحياة الجديدة تبدو غريبة جدًا بالنسبة إليّ.

في فترة بعد الظهر، يُطلب مني الاستراحة في غرفتي، وقراءة كتاب يوسّع آفاق ذهني. فأنا أقرأ (أو أحاول أن أقرأ) في الوقت الحالي الترجمة النروجية لمسرحيات ألّفها كاتب إنكليزيّ يُدعى ويليَم شكسبير. أنا واثقة من أنكم سمعتم عنه، ولكنه تُوفّي منذ زمن بعيد، والمسرحية الأولى التي قرأتها تتحدث عن أمير إسكتلندي يُدعى ماكبيث وكانت حزينة جدًا، فجميع أبطال الرواية يلقون حتفهم!

عندما يعود السيّد باير من الجامعة، أخرج من غرفتي لنتناول معًا الشاي من جديد بينما يحدّثني عمّا فعله خلال النهار. أبلغني بأنه سيصحبني في الأسبوع المقبل إلى مسرح كريستيانيا، حيث سنشاهد عرض باليه تقدمه فرقة روسية. وشرح لي أنّ الأمر يرتبط بعرض راقص حيث لا أحد يتكلم أو يغني (وحيث الرجال لا يرتدون سراويل لائقة، بل جوارب كالفتيات!). بعد احتساء الشاي، أعود إلى غرفتي وأرتدي ثوب المساء الذي صنعته الآنسة أولسداتر خصّيصًا من أجلي. ليتكم تستطيعون رؤيته! فهو جميل جدًا ولا يشبه أيًّا من الأثواب التي ارتديتها من قبل.

خلال العشاء، نحتسي النبيذ الأحمر الذي أمر السيد باير بإرساله من فرنسا،

ونتناول طبقًا كبيرًا من السمك المطهو مع الصلصة البيضاء، وهو طبق شائع جدًا في كريستيانيا بحسب ما أخبرني السيّد باير. بعد العشاء، يشعل السيّد باير سيجارًا، وهو عبارة عن كمية من التبغ ملفوفة بأوراق التبغ المجفّفة، ويشرب كأس براندي. في هذه المرحلة، أدخل إلى غرفتي وقد أضناني التعب، وأجد كوبًا من حليب البقر الساخن قرب سريري.

نهار الأحد، ترافقني الآنسة أولسداتر إلى الكنيسة. يقول السيّد باير إنه سيرافقنا في المستقبل، ولكنّه مشغول جدًا في الوقت الحالي. والكنيسة هنا توازي من حيث حجمها كاتدرائية حيث يجتمع المئات من الأشخاص. كما ترون، حياتي هنا مختلفة كليًا عمّا كنت متعوّدة في هيدال. أشعر في هذه اللحظة بالذات وكأنني أعيش في حلم، حلم لا شيء حقيقيّ فيه وموطني بعيد جدًا.

ظننت أنّ السيّد باير أحضرني إلى كريستيانيا من أجل الغناء. والحقيقة هي أن كلّ ما فعلته حتى الآن هو غناء ما يُعرف بالسلّم الموسيقيّ على البيانو، ما يعني تكرار النوتات الموسيقيّة بالترتيب، صعودًا ونزولًا ومن ثم صعودًا من جديد، من دون أي كلمات.

دوّنت عنواني في أعلى الرسالة وسأكون ممتنّة كلّ الامتنان إذا تفضّلتم بالردّ على رسالتي. أعتذر عن بقع الحبر، ولكنها الرسالة الأولى والأطول التي كتبتها في حياتي، واستغرق الأمر مني ساعات عدّة. إنني استخدم بالتأكيد القلم الذي قدّمته لي يا لارس، وأنا أحتفظ به أمامي على طاولة المكتب لأتمكّن من رؤيته دائمًا.

أرجو منك أن تخبر أمي وأبي وشقيقيّ بأنني اشتقت إليهم على أمل أن تقرأ لهم هذه الرسالة. لا أستطيع أن أكتب رسالة أخرى لأنّ الأمر استغرق مني وقتًا طويلًا بالإضافة إلى أنّهم ليسوا ماهرين في قراءة الرسائل.

أرجو أن تكون بخير وأن تكون خنازيرك بخير أيضًا.

آنا.

أعادت آنّا قراءة الرسالة بصعوبة بالغة. إنها النسخة النهائيّة ممّا مجموعه حوالى اثنتي عشرة مسوّدة بدأت بكتابتها خلال الأيام الخمسة الماضية، ومن ثمّ صرفت

النظر عنها. كانت تعي أنها استخدمت عبارات تتفوّه بها عند الكلام وخشيت ألّا تكون صحيحة. ولكن بعد تفكير مليّ، ارتأت بأن لارس يفضّل تلقي رسالة مشوبة بالأخطاء على ألّا يتلقى أي رسالة على الإطلاق. كانت تتحرّق شوقًا لإخبار عائلتها عن التحوّل الذي تشهده حياتها. طوت الرسالة بعناية، ونهضت من مكانها لتتفاجأ بانعكاس صورتها في المرآة. فوقفت تتأمّل وجهها لبعض الوقت.

سألت نفسها: «أتراني ما زلت أنا؟». وإذ لم تلقَ جوابًا، شقّت طريقها باتّجاه الحمّام.

في وقت لاحق من ذلك المساء، وبينما كانت جالسة في سريرها، راحت تسترق السمع إلى الأصوات والضحكات التي أخذت تتردّد على طول الرواق. كان السيّد باير يستضيف في تلك الليلة بعض الزوّار، ما حال دون تناولها العشاء برفقته على مائدة الطاولة المصقولة، بل في غرفتها على الصينية التي قدمتها لها الآنسة أولسداتر، التي أصبحت تعلم الآن أنها تُدعى ليز.

في وقت سابق من ذلك المساء، وبعد أن أبلغها بأنها لن تشارك في حفل العشاء، قال لها السيّد باير:

- سيدتي العزيزة الصغيرة، اسمحي لي أن أشرح لك شيئًا. لقد أحرزتِ تقدّمًا لافتًا وسريعًا، بل أسرع من التقدّم الذي أحرزه طلاب الموسيقا الذين كان لي شرف الإشراف على تدريبهم. ولكن أخشى أن أعرّفك إلى ضيوفي فيلحّون عليك للغناء لهم، خاصة بعد أن أخبرتهم عن قدراتك. ولا نستطيع تقديمك للناس إلا بعد اكتمال تكوينك، حيث بإمكاننا في تلك المرحلة انتزاعك من عزلتك والسير بك على طريق المجد.

لقد بدأت آنّا تتعوّد أسلوب السيّد باير المنمّق في الكلام، وتساءلت في سرّها عمّا يقصده «باكتمال تكوينها». أيُعقل أن تنمو لها يد أخرى؟ من المؤكّد أن ذلك سيساعد في دروس البيانو. أو ربما تجدي نفعًا أصابع قدم إضافية بنسبة أقلّ من الوضعية الملائمة.

وقد لفت انتباهها المخرج المسرحيّ، الذي وصل إلى الشقة بعد ظهر اليوم،

إلى هذا العيب؛ فقد أخبرها بأن السيّد باير استخدمه ليعلّمها ما يُعرف «بالحضور على المسرح»، استعدادًا لظهورها على المسرح. وتبيّن أن ذلك يرتكز، إلى حدّ بعيد، على رفع رأسها عاليًا وضمّ أصابع قدميها معًا داخل حذائها حرصًا على التأكد من وقوفها ساكنة كالصنم عند بلوغها الوضعية المنشودة.

- ومن ثمّ عليك الانتظار ريثما ينتهي التصفيق لتنحني انحناءة بسيطة بهذا الشكل..

وخفض الرجل رأسه باتّجاه صدره رافعًا ذراعه اليسرى باتجاه كتفه اليمنى ليظهر لها ما يقصده، وتابع:

- للتعبير عن تقديرك لتصفيقهم لك، ومن ثم تبدأين.

خلال الساعة التي تلت، طلب منها الرجل المشي ذهابًا وإيابًا في غرفة الجلوس، مع التمرّن على الحركات نفسها مرارًا وتكرارًا. ووجدت آنّا الأمر مملًا ومثبطًا، لاسيما وأنها كانت تظنّ حتى الآن على الأقلّ، أنها تجيد المشي بشكل متقَن، على الرغم من أنها لم تكن بارعة بالطهو أو الخياطة.

تقلّبت آنّا في سريرها الواسع مستمتعة بنعومة الوسادة وطراوتها تحت خدها، وهي تتساءل إنْ كانت ستتمكّن يومًا من أن تتحوّل إلى الفتاة التي يرغب السيد باير برؤيتها.

ذكرت في الرسالة التي وجّهتها إلى لارس بأنها كانت تظنّ أنه أحضرها إلى هنا من أجل موهبتها في الغناء. ومع ذلك، لم يطلب منها السيّد باير الغناء منذ قدومها. وتبيّن لها أن عليها أن تتعلّم أمورًا كثيرة، ولم يكن من الممكن أن تحظى بمرشد ومعلّم أكثر لطفًا أو صبرًا. ولكنّ آنّا كانت تشعر في بعض الأحيان وكأنها تخسر ذاتها القديمة، تلك الفتاة الساذجة وغير المتعلّمة التي عرفتها طوال حياتها. فهي اليوم عالقة بين عالمين مختلفين: عالم الفتاة التي، لأسبوع خلا، لم تكن قد رأت مصباحًا يعمل على الغاز أو مرحاضًا داخليًا، وأصبحت، على الرغم من ذلك، متعوّدة رؤية خادمة في انتظارها، واحتساء النبيذ الأحمر على العشاء مع أطباق السمك...

صاحت بصوت مرتفع لمجرد التفكير بكميات الأسماك الهائلة : «يا رب العرش».

لعلّ السيّد باير يعتبرها مغفّلة لأنها تجهل كليًّا نواياه. إلا أنها سرعان ما أدركت بأنه لم يحضرها إلى كريستيانيا لتمرين صوتها فحسب، بل ليجعل منها أيضًا سيدة ويتمكّن من تقديمها بهذه الصفة. فالحيل التي تعلّمتها تشبه تمامًا تلك التي يُمارسها الحيوانات في الكرنفالات التي كانت تُقام بين الحين والآخر في هيدال. وتذكّرت الليلة الأولى التي وصل فيها السيّد باير إلى كوخ عائلتها القائم عند سفح الجبل، حيث صرف الأمسية في الإطراء على الثقافة الإقليمية في النروج. ولذلك، ما تزال تجهل السبب وراء إصراره الشديد على تغييرها.

همست لنفسها بحزم: «لست حقل تجارب» قبل أن تتمكّن، في نهاية المطاف، من الاستغراق في النوم.



في صباح نهار بارد جدًّا من شهر تشرين الأول، دخلت آنّا كالعادة إلى غرفة الجلوس لمتابعة دروسها مع السيّد باير.

- عزيزتي آنّا، هل نمت جيّدًا؟

- أجل، شكرًا على اهتمامك سيّد باير.

- جيّد، جيّد. حسنًا. يسعدني القول إنني أشعر اليوم بأنك جاهزة للانتقال إلى مرحلة أخرى. لهذا سنبدأ بالغناء، اتفقنا؟

أجابت، والندم يعتصر قلبها، لتلك الأفكار السلبية التي استولت عليها منذ بضع ليالٍ:

- حاضر سيّد باير.

- هل أنت بخير يا آنّا؟ تبدين شاحبة الوجه.

- إنني بخير.

- حسنًا، لا داعي لإضاعة مزيد من الوقت. أريد منك أن تغني لي «بير سبيلمان» كما فعلت في الليلة الأولى التي التقينا فيها. وسأرافقك بالعزف على البيانو.

وقفت آنّا تحدق إلى السيّد باير بصمت وقد أصيبت بالذهول أمام هذا التحوّل المفاجئ للأحداث.

- هل أنت جاهزة؟

- آسفة. أجل، أنا جاهزة.

- جيّد. ابدأي إذن بالغناء.

خلال الخمس وأربعين دقيقة التالية، ردّدت آنّا الأغنية التي كانت تعرفها منذ نعومة أظفارها. وكان السيّد باير يطلب منها في مراحل مختلفة، التوقّف عن الغناء ليطلب منها استخدام مزيدٍ ممّا يُعرف بالـ«ڤيبراتو» في نوتات موسيقيّة محدّدة، أو عدّ الإيقاعات... بذلت وسعها للالتزام بتعليماته، لكنها وجدت صعوبة في ذلك، لاسيّما وأنها كانت تغني تلك الأغنية على هذا النحو منذ أن تعلّمتها لأربع عشرة سنة خلت.

عند الساعة الحادية عشرة بالضبط، دقّ جرس الباب. فسمعت أصواتًا خافتة في الرواق، ومن ثمّ دخلت الآنسة أولسداتر غرفة الجلوس ومعها رجل بارز المظهر داكن الشعر، أنفه معقوف كأنف الصقر وشعره منحسر عن جبينه. نهض السيّد باير من مكانه وتوجّه إليه مرحبًا به.

- أشكرك جزيل الشكر سيد هانوم على إعطائي قليلًا من وقتك. أقدّم لك الآنسة آنّا لاندفيك، الفتاة التي حدّثتك عنها.

التفت الرجل نحوها وانحنى قائلًا:

- آنسة لاندفيك، أقسم لك بأن السيّد باير كان يفيض سرورًا وهو يثني على صوتك.

- وستسمعه الآن بدورك.

عاد السيّد باير للجلوس أمام البيانو وأردف قائلًا:

- غنّي يا آنّا كما غنّيت لي في الليلة الأولى، التي التقينا فيها في تلك التلال.

نظرت آنّا إليه بارتباك. كيف يُعقل أن يطلب منها الغناء كما كانت تفعل في الماضي بعد أن صرف قرابة الساعة محاولًا تعليمها الغناء بشكل مختلف؟ غير أن الفرصة لم تسنح لها لسؤاله، مع تعالي عزف الفواصل الافتتاحية على البيانو، ما دفعها إلى البدء بالغناء مطلقة العنان لصوتها.

عندما انتهت من الغناء، نظرت إلى السيد باير بترقّب، وهي لا تعلم إنْ أجادت الغناء أم لا؟ فعلى الرغم من أنها تذكّرت بعض ما قاله لها، إلا أنّ الأفكار تشوّشت كلّها في رأسها.

سأل باير بينما كان يهمّ بالنهوض من مكانه:

- ما رأيك يا جوهان؟

- آنا تطابق تمامًا وصفك لها، وهذا يعني أنها متكاملة. من الواضح أنها لا تزال مبتدئة، ولكن هذا ما ينبغي أن تكون عليه.

أجاب السيد باير:

- لم أكن أتوقّع أن تبرز بهذه السرعة. سبق وأخبرتك بأنّ آنّا وصلت إلى كريستيانيا منذ أقلّ من شهر وبدأت بتمرين صوتها منذ فترة قصيرة جدًّا.

بينما كانت آنّا تصغي إلى الرجلين وهما يتناقشان حولها وحول قدراتها، شعرت وكأنها قطعة لحمٍ «نيئة» تمامًا مثل قطعة غير مطبوخة من لحم الخنزير ترميها أمها في القدر.

- لم أحصل على النتيجة النهائيّة بعد، ولكن فور حصولي عليها، سأحضرها لك وسنصحب بعدها آنّا إلى المسرح للغناء أمام السيّد جوزفسون. عليّ الآن أن أنصرف. آنسة لاندفيك.

انحنى جوهان هانوم لها من جديد وتابع:

- لقد كان من دواعي سروري أن أستمع لغنائك، وأنا واثق من أنّ الفرصة ستُتاح لي ولكثيرين أُخر للاستماع لك مجددًا في المستقبل القريب. أتمنّى لكما نهارًا طيّبًا.

وتمايل معطفه الفضفاض وراءه بشكل متموّج أثناء خروجه من الباب.

توجّه السيّد باير نحوها وأمسك بوجهها بين يديه ومن ثمّ قبّل خديها قائلًا:

- أحسنت يا آنّا!

- أرجو منك يا سيّدي أن تقول لي من هو هذا الرجل.

- ليس الأمر مهمًّا الآن. فالمهمّ هو أنّه أمامنا الكثير من العمل لتهيئتك.

- ما الذي تريد أن تهيئني من أجله؟

ولكن السيّد باير لم يكن يصغي لها، وحوّل نظره إلى الساعة قائلًا:

- عليّ أن أغادر في الحال لأن المحاضرة ستبدأ بعد نصف ساعة. ونادى الآنسة أولسداتر بصوت عالٍ قائلًا:

- أحضري لي ساعتي على الفور. وأثناء توجّهه إلى الباب، ابتسم لها من جديد وأردف:

- تستطيعين أن ترتاحي الآن يا آنّا. وسنبدأ بالعمل فور عودتي.



على الرغم من المحاولات الحثيثة التي قامت بها آنّا في خلال الأسبوعين التاليين لمعرفة من يكون السيد هانوم وما الذي يسعيان إلى تحقيقه، كان السيّد باير متحفّظًا حدّ الجنون. ولم تتمكّن أيضًا من فهم السبب وراء إصراره المفاجئ على أن تغني كل الأغاني الفلكلوريّة التي تعلّمتها، بدلًا من أن يعلّمها الغناء الأوبراليّ كما وعد والديها. ما الفائدة من هذا النوع من الموسيقى في هذه المدينة؟ وقفت أمام النافذة في ساعة الظهيرة بعد خروج السيّد باير من المنزل للمشاركة في أحد الاجتماعات، مستغرقة في أفكارها بكآبة. وإذ تعقّبت مسار قطرات المطر على الجهة الخارجيّة من النافذة، انتابتها فجأة رغبة ملحّة في الخروج إلى الهواء الطلق. ففي الشهر الفائت، لم يتسنَّ لها أن تخطو خطوة واحدة خارج المنزل إلّا للذهاب إلى الكنيسة في أيام الآحاد، ما جعلها تشعر وكأنها أشبه بحيوان مسجون في قفص. لعلّ السيّد باير نسي أنها ترعرعت وأمضت سنوات حياتها كلها في المساحات المفتوحة. فنفسها تتوق إلى الهواء النقيّ، والمرعى في مزرعة ذويها، والمساحات الشاسعة لتمشي وتجري بحرية.

«لست هنا سوى حيوان معدّ للتدريب».

ولم تكد تعلن ذلك لجدران الغرفة الفارغة، حتى دخلت الآنسة أولسداتر المكان لتقول لها إن الغداء أصبح جاهزًا. فلحقت آنّا بها إلى غرفة المطبخ.

ولما جلستا إلى المائدة وبدأت آنّا بارتشاف حساء السمك، علّقت الآنسة أولسداتر قائلة:

- ما الأمر يا عزيزتي؟ تبدين أشبه برنكة عالقة بصنّارة.

- لا شيء.

لم تكن آنّا ترغب في الإفصاح لمدبّرة المنزل عن مزاجها الحالي حتى لا تعتبرها مدلّلة وصعبة المراس. في مطلق الأحوال، لا بدّ من القول إن مكانها في منزلها أرقى بكثير من حيث الموقع والرفاهية. ومع ذلك، بقيت تشعر بعيني الآنسة أولسداتر الثاقبتين والذكيّتين مركّزتين عليها.

- «عليّ أن أذهب في الغد إلى السوق في الساحة لشراء اللحوم والخُضر. هل ترغبين في مرافقتي؟

أجابت آنّا وقد تأثرت كثيرًا لأن المرأة أدركت بالضبط ما خطبها:

- أجل! لا شيء أرغب فيه أكثر من ذلك.

- عليّ في هذه الحالة أن أصحبك معي، ومن الممكن أن نجد متّسعًا من الوقت للتنزّه في الحديقة العامة قبل الذهاب للتسوّق. سيكون السيّد باير غدًا في الجامعة بين الساعة التاسعة والثانية عشرة، ولن يعود إلى المنزل لتناول الغداء، لذا، سيكون أمامنا متّسع من الوقت. سنبقي الأمر سرًّا بيننا، اتّفقنا؟

- أجل.

وأومأت آنّا برأسها والارتياح بادٍ عليها وتابعت:

- شكرًا لكِ.

ومنذ ذلك اليوم، أصبح الخروج إلى السوّق أكثر تواترًا بمعدل يومين، بحيث أنّ آنّا كانت تنتظر حلول تلك الأيام بلهفة شديدة، بصرف النّظر عن أيام الآحاد التي تقصد فيها الكنيسة.

في نهاية شهر تشرين الثاني، أدركت آنّا بأنّه انقضى على وجودها في كريستيانيا أكثر من شهرين. فقد كانت تحسب على الروزنامة المؤقّتة التي رسمتها

بنفسها، الأيام المتبقّية لتعود إلى منزلها في هيدال في عيد الميلاد. ولعلّ أكثر ما زرع البهجة في نفسها هو أن الثلج بدأ يتساقط في كريستيانيا، والنساء اللواتي كنّ يتنزّهنَ في الحديقة الواقعة في الجانب الآخر من الشارع ارتدينَ معاطف وقبعاتٍ من الفرو كما حملنَ في أيديهنّ قطعًا من الفرو لتدفئتها. ولكن آنّا اعتبرت تلك الموضة الرائجة سخيفة جدًّا لأن من يريد حكّ أنفه، ستصاب أصابعه بالصقيع أثناء قيامه بذلك.

لم تطرأ أي تغييرات تُذكر على الروتين اليوميّ داخل المنزل، على الرغم من أن السيّد باير أعطاها في الأسبوع الماضي نسخة عن رواية هنريك إيبسن «بير جينت» وطلب منها قراءتها.

فأجابته مبتهجة:

- ولكنني قرأتها من قبل.

- هذا يصبّ في مصلحتك لأنك ستتمكّنين من فهمها بشكل أفضل عند قراءتها مرّة ثانية.

في الليلة الأولى، وضعت الكتاب جانبًا وهي تفكّر في الوقت الذي ستضيّعه في قراءتها من جديد بناء على طلب السيّد باير، في حين أنها كانت على دراية بالنهاية. ولكن في صباح اليوم التالي، طرح عليها أسئلة دقيقة عن الصفحات الخمس الأولى والقصيدة، وبالكاد تمكّنت من أن تتذكّر شيئًا، ما دفعها إلى اللجوء إلى كذبة واهية مدّعية بأنها اضطرّت للنوم باكرًا بسبب الصداع. وانكبّت بعدها على قراءة الرواية مرة أخرى، وكانت مسرورة جدًّا من نفسها لدى إدراكها مدى تحسّن مهاراتها في القراءة منذ الصيف الفائت. فعدد العبارات التي وجدت صعوبة في حلّ رموزها أصبح قليلًا جدًّا، كما أن السيد باير كان يساعدها بكل سرور كلّما تعذّر عليها فهم المعنى. ولكن ما علاقة هذه القصيدة بمستقبلها هنا في كريستيانيا؟ لم تكن آنّا تملك أي جواب عن هذا السؤال.



- عزيزتي آنّا، تلقّيت مساء وبعد طول انتظار اللحن الموسيقيّ الذي كنت أنتظره من السيد هانوم! وعلينا أن نبدأ بالتمرّن عليه على الفور!

لم تكن آنّا تملك أدنى فكرة عن نوع ذلك اللحن الموسيقيّ، لكنها لاحظت أن معلّمها يدندن من شدة الإثارة أثناء جلوسه أمام البيانو.

- لا أصدّق بأننا نملك نسخة عن هذا اللحن بين أيدينا! هيا يا آنّا، قفي بقربي وسأعزف لك.

فعلت آنّا ما طلبه منها وهي تحدّق إلى الورقة التي أمامها باهتمام شديد. ومن ثم قرأت العنوان المكتوب في الأعلى بصوت خافت: «أغنية سولفيج».

- أجل يا آنّا، ستكونين أول من يغنيها! ما رأيك في ذلك؟

تعلّمت آنّا من خلال تجربتها مع السيّد باير بأنه يتوقع منها الإجابة على هذا السؤال الذي يتكرر باستمرار بالإيجاب.

- يسعدني ذلك كثيرًا.

- جيّد. جيّد. كان مُتوقّعا أن يصل السيد غريغ شخصيًّا إلى كريستيانيا لمساعدة الأوركسترا والمغنين لتقديم هذه القطعة الموسيقيّة الجديدة، لكنّ والديه توفّيا معًا في حادث مؤلم وما يزال في حالة حداد. ما يعني أنه لن يتمكّن من القيام بتلك الرحلة من برغن.

- أتقصد القول إنّ السيّد غريغ هو من ألّف هذه القطعة الموسيقيّة؟

- أجل، بالضبط. طلب منه السيد إيبسن تأليف اللحن الموسيقيّ لمرافقة عرضه المسرحيّ المقبل لرواية بير جينت، التي ستقدّم للمرة الأولى في كريستيانيا في شهر شباط. يا سيدتي الصغيرة، أريدك أن تعلمي أن السيد هانوم، الرجل الموقّر الذي التقيته في هذا المنزل لبضعة أسابيع خلت سيتولى قيادة الفرقة الموسيقيّة هنا، في حين أنك ستغنين أغنية سولفيج.

- أنا؟

- أجل يا آنّا، أنت.

- ولكن.... لم أصعد إلى خشبة مسرح من قبل! فما بالك بأكثر المسارح شهرة في النروج!

- هذا مكمن الجمال في الأمر يا صغيرتي. فالسيّد جوزفسون، مدير المسرح والعرض المسرحيّ المُرتقَب اختار ممثلة معروفة لتؤدي دور سولفيج. ولكن المشكلة، بحسب ما أخبرني السيد هانوم مؤخّرًا، هي أن الممثلة التي وقع الاختيار عليها موهوبة، ولكن عندما تفتح فمها للغناء، تبدو أشبه بقطّة مبلّلة. لذا، نحتاج إلى صوت نقيّ، وشخص يقف خلف الستارة ويغني، بينما تحرك السيّدة هانسون شفتيها لتحاكي كلمات هذه الأغنية وأغنية أخرى بعد. هل فهمتِ ما أقصده يا عزيزتي؟

فهمت آنّا ما يقصده، ولم تستطع كبح ذلك الإحساس بخيبة الأمل الذي استولى عليها لدى إدراكها بأن أحدًا لن يراها. هذا وستحظى الممثلة التي يُشبه صوتها صوت القطة المبلّلة بالإطراء لأن الجميع سيظنّون أنها صاحبة الصوت الغنائي. لكنها شعرت في المقابل بكثير من الزهو لأن قائد الفرقة الموسيقيّة في مسرح كريستيانيا الشهير فكّر في إسناد صوتها للسيّدة هانسون. ولم تشأ أن تبدو وكأنها جاحدة أو ناكرة للجميل.

وتابع السيّد باير:

- إنّ الفرصة المتاحة لنا فريدة فعلًا. ولكنّ القرار النهائيّ لم يُتّخذ بعد. علينا أن نستعدّ لتقديم تجربة أداء أمام السيد جوزفسون، مدير المسرحية، ليتأكّد بنفسه من أنّ صوتك قادر على التعبير عن الروح الحقيقية لسولفيج. فأداؤك للأغاني يجب أن يكون مفعمًا بما يكفي من الإحساس والانفعال ليثير مشاعر الحاضرين ويسيل دموعهم. في الواقع، أخبرني السيّد هانوم إنّ صوتك هو آخر ما سيسمعه الجمهور قبل إسدال الستارة. ووافق السيّد جوزفسون على مقابلتنا بعد ظهر يوم الثالث والعشرين من كانون الأول قبيل مغادرته في عطلة الميلاد. وسيتّخذ قراره في حينه.

اعترضت آنّا قائلةً، وقد وجدت صعوبة في تمالك نفسها:

- ولكنّني سأتوجّه إلى هيدال في الواحد والعشرين منه. وإذا بقيت هنا لغاية

بعد ظهر يوم الثالث والعشرين، فلن أتمكّن من العودة إلى المنزل في عيد الميلاد. فالرحلة تستغرق يومين تقريبًا.. أنا... ألا يمكن أن يقابلنا السيّد جوزفسون في وقت آخر؟

- عليك أن تفهمي يا آنّا أنّ السيّد جوزفسون رجل شديد الانشغال، وموافقته على منحنا قليلًا من وقته هو لشرف عظيم لنا. أنا واثق من أنك لن تكوني سعيدة ببقائك هنا برفقتي خلال موسم الأعياد، ولكنّ الفرصة المُتاحة لكِ قد تكون الأفضل لتغيير مسار مستقبلك بشكل كليّ. فالحياة ما زالت أمامك، وتستطيعين أن تمضي الميلاد في سنوات أخرى برفقة أسرتك، ولكنها الفرصة الوحيدة أمامك لتؤدي دور سولفيج الغنائي في عمل مسرحيّ تلاقت فيه للمرة الأولى مهارات أبرز كاتب مسرحي ومؤلف موسيقيّ في النروج!

هز السيّد باير رأسه بإحباط نادرًا ما كان يظهره وتابع:

- عليكِ يا آنّا أن تحاولي أن تفهمي ما يعني ذلك بالنسبة إليك. وفي حال تعذّر عليكِ ذلك، من الأفضل أن تعودي في الحال إلى ديارك وتغنّي لأبقارك، بدلًا من الغناء لجمهور ليلة العرض الأولى في مسرح كريستيانيا الذي سيستضيف عرضًا أوّل سيتحدث عنه التاريخ حتمًا. والآن، أتريدين محاولة الغناء أم لا؟

أومأت آنّا برأسها ببطء وقد شعرت بمدى حقارتها وجهلها، تمامًا كما أرادها أن تفعل.

- أجل سيّد باير، بالتأكيد.

وفي تلك الليلة، ظلّت آنّا تبكي حتى غلبها النعاس من شدّة البكاء. صحيح أنها كانت على وشك «أن تدخل التاريخ» كما قال السيد باير، لكنّ بعدها عن أسرتها في عيد الميلاد كان أقوى من قدرتها على التحمّل.

16

كريستيانيا

16 كانون الثاني 1876

- جانس! أما تزال على قيد الحياة؟

استيقظ جانس هالفورسن على صوت والدته الذي كان يصدح عبر باب غرفة نومه.

- أعربت دورا عن قلقها من أن تكون قد وافتك المنيّة أثناء نومك، فهي لم تتلقَّ منك جوابًا طوال الصباح.

تأوّه جانس وهو يثب من فراشه ليقف أمام المرآة متأمّلًا انعكاس صورته بملابسه الشعثة التي لم يكن قد خلعها بعد. ومن ثمّ أجاب عبر الباب قائلًا:

سأنزل لتناول طعام الفطور في غضون عشر دقائق.

- حان وقت الغداء يا جانس. لقد فاتك موعد الفطور!

- سأنزل في الحال.

أمعن جانس النظر عن قرب كما يفعل في كلّ صباح، ليتأكّد من أنّ كتلة شعره المموّج، ذي اللون البنيّ المائل للحمرة، خالية تمامًا من أي أثر للشعر الرماديّ. لم يكن جانس قد جاوز العشرين من عمره، ولا يجدر بمسألة كهذه أن تشكّل مصدر قلق له. إلّا أنّه كان يستيقظ في كل صباح وفي داخله خوف من ذلك لأنّ شعر والده تحوّل إلى الأبيض بين ليلة وضحاها في سن الخامسة والعشرين، ومن المرجّح أن يكون مرد ذلك إلى الصدمة التي ألّمت به عقب زواجه من والدته في السنة عينها.

ولم تكد تمر عشر دقائق حتى دخل إلى قاعة الطعام مرتديًا ملابس جديدة، وطبع قبلة على خدّ والدته مارغريت قبل أن يجلس في مكانه إلى المائدة. وبدأت للحال دورا، الخادمة الأصغر سنًّا في المنزل، بتقديم طعام الغداء.

- أعتذر يا أماه. كنت أعاني من صداع مريع منعني من النهوض من فراشي هذا الصباح. وما أزال أشعر ببعض الألم الخفيف.

وتحوّلت للحال تعابير الغضب التي ارتسمت على وجه والدته إلى تعاطف. ومدّت يدها عبر المائدة لتلمس جبينه قائلة:

- هذا صحيح، جبينك دافئ. أتراك تعاني من الحمّى؟ يا طفلي الصغير، هل أنت قادر على تناول الغداء أم تفضّل أن تحمل لك دورا صينية الطعام إلى السرير؟

-بإمكاني أن أتدبّر أمري، ولكن عليك أن تعذريني لأنني لن أتمكّن من تناول كمية كبيرة من الطعام.

والحقّ يُقال إن جانس كان يتضوّر جوعًا. ففي الليلة الفائتة، التقى بعض الأصدقاء في إحدى الحانات، ومن ثمّ انتهى الأمر بهم في بيت دعارة قرب أرصفة الميناء، حيث اختتموا السهرة بشكل مرضٍ تمامًا. ولكنه أسرف كثيرًا في احتساء الشراب الإسكندنافيّ المسكر، وبالكاد يتذكّر العربة التي أقلّته إلى المنزل، وما عانى منه من غثيان وتقيّؤ في الخندق المجاور، وحتى محاولاته الحثيثة لتسلّق الشجرة المتاخمة لنافذة غرفة نومه، التي تعوّدت دورا تركها مفتوحة ليتمكّن من دخول المنزل عند عودته في ساعة متأخرة من الليل، بسبب سماكة الثلج المتجمّد على أغصانها، ما جعله يقرّ في سره بأنّ روايته تنطوي على جانب من الصدق. فقد كان في حالة مريعة عند الصباح، وتجاهل محاولات دورا الخجولة لإيقاظه. كان يعلم أنّ الخادمة واقعة في حبّه، ولا تتوانى عن التآمر معه لتأكيد ادعاءاته كلّما احتاج إلى مساعدتها.

قاطعت مارغريت سيل أفكاره قائلة:

- من المؤسف أنك خرجت من المنزل مساء البارحة يا جانس. فقد استقبلت على العشاء صديقي السيّد هانوم، قائد الفرقة الموسيقيّة في كريستيانيا.

كانت والدته من المناصرين المخلصين للفنون، حيث أنها تعوّدت تمويل هذا الشغف من دخل والده الفائض «من تجارة الجعّة» بحسب ما اتفقا سرًّا على تسميته.

- وهل كانت الأمسية ممتعة؟

- أجل، كانت ممتعة للغاية. أظن أنّني أخبرتك في وقت سابق أن السيّد غريغ قد ألّف قطعة موسيقيّة مذهلة لمرافقة قصيدة السيد إيبسن المتميزة.

- نعم يا أماه، سبق وأخبرتني بذلك.

- سيُقام العرض الأوّل في شهر شباط، ولكن المؤسف في الأمر بحسب ما قاله لي السيّد هانوم، هو أن الفرقة الموسيقيّة الحالية ليست على مستوى توقّعات السيّد غريغ، أو ربّما توقعاته الشخصيّة. إذ يبدو أن التركيب الموسيقيّ معقّد بعض الشيء، ولا يمكن أن يؤدّيه إلا فرقة موسيقيّة على درجة عالية من الثقة والاحتراف. والسيّد هانوم يبحث حاليًّا عن موسيقيين على درجة عالية من المهارة، قادرين على العزف على أكثر من آلة. أخبرته عن مهاراتك في العزف على البيانو والكمان والفلوت، فطلب مني إقناعك بالذهاب إلى المسرح لمقابلته.

التهم جانس لقمة كبيرة من سمك السلّور الذي أُحضر خصّيصًا من الساحل الغربي للنروج وأجاب قائلًا:

- ولكنّني أتابع حاليًّا دراستي في الجامعة في الكيمياء لأتمكّن بعدها من الاهتمام بشؤون مصنع الجعّة الخاص بالأسرة. تعلمين جيّدًا أنّ والدي لن يسمح لي بالعزف مع فرقة موسيقيّة، وأتوقع أن يستشيط غضبًا في حال علم بالأمر.

أجابت بهدوء:

- نستطيع إبلاغه بالأمر باعتباره أمرًا واقعًا، وسيكون في هذه الحالة أكثر ليونة.

شعر جانس فجأة بالتوعّك الذي تظاهر به منذ قليل وهو يسألها قائلًا:

- أتريدين مني أن أكذب؟

- ما أقصد قوله هو أنه عند بلوغك إحدى وعشرين سنة، ستصبح رجلًا،

وتستطيع اتخاذ قراراتك بنفسك من دون مراعاة أحد. وسيؤمن لك الأجر الذي ستحصل عليه في حال مشاركتك بالعزف مع الفرقة الموسيقيّة، وإنْ كان زهيدًا، شيئًا من الاستقلالية المادية.

- ولكن عيد ميلادي بعد ستة أشهر يا أماه. وما أزال في الوقت الراهن أعتمد على والدي وتحت سلطته.

- أرجوك يا جانس. يريد السيّد هانوم الاستماع لعزفك على المسرح غدًا عند الساعة الواحدة والنصف. أتوسّل إليك أن تقابله. فلا أحد يعلم ما يمكن أن يحصل.

أجابها على عجل:

- أشعر بالتوعّك. اعذريني يا أماه، ولكنني سأعود إلى غرفتي لأرتاح قليلًا.

راقبت مارغريت ابنها وهو يجتاز القاعة، ويفتح الباب ومن ثمّ يغلقه وراءه. لمست جبينها بأناملها وقد شعرت بصدغيها ينبضان بقوّة. كانت تدرك جيّدًا سبب خروج جانس بهذه الطريقة، ما دفعها للتنهّد من شدّة إحساسها بالندم.

مذ كان ابنها طفلًا يتهادى، تعوّدت أن تجلسه في حضنها وتعرّفه إلى مفاتيح البيانو. ولعلّ أجمل الذكريات وأكثرها ثباتًا في ذاكرتها من طفولته، هي صورة أصابع يده الصغيرة البدينة وهي تعبث على المفاتيح العاجيّة. وكمْ كانت تتمنّى لو أنّ طفلها الوحيد يرث موهبتها الموسيقيّة، تلك الموهبة التي لم تتمكّن من استخدام طاقاتها كاملة بسبب زواجها من والد جانس.

لم يكن زوجها جوناس هالڤورسن يتمتّع بأي حسّ فنيّ، حيث أنّ اهتماماته كلّها كانت تنصبّ بشكل حصريّ على حجم المبالغ بالكرونة على دفاتر حسابات مؤسسة هالڤورسن لصناعة الجعّة. ومنذ بداية زواجهما، لاحظ شغف زوجته بالموسيقى وحاول إحباطها، وسعى بحدّة إلى إثناء ابنه الوحيد عنها. ولكنْ في كلّ مرّة كان جوناس يغادر فيها المنزل متوجّهًا إلى مكتبه، كانت مارغريت تستغل الفرصة لتنمية مواهب جانس، ومع بلوغه سن السادسة، أصبح قادرًا على عزف السوناتا بشكل أفضل من عزف طالب عمره ثلاثة أضعاف عمره.

ومع بلوغه العاشرة، أقامت مارغريت في منزلها حفلًا موسيقيًّا، على الرغم من

معارضة زوجها، ودعت إليه العلماء والأخيار في المجال الموسيقيّ في كريستيانيا. فاندهش كلّ من استمع إلى طفلها وهو يعزف وتوقّع له مستقبلًا زاهيًا.

علّق يومها جوهان هانوم، الذي كان قد عُيّن حديثًا في منصب قائد الفرقة الموسيقيّة في كريستانيا:

- عليه أن يلتحق بالمعهد الموسيقيّ في لايبزيغ عند بلوغه السنّ المناسبة ليتمكّن من الارتقاء بمعارفه ومهاراته، لأنّك تدركين جيدًا بأن الفرص المتوافرة هنا في كريستيانيا محدودة. أظن أنه يملك طاقات عظيمة ويحتاج إلى التدريب الملائم فحسب.

نقلت مارغريت هذا الحديث إلى زوجها، فأجابها وهو يبتسم ابتسامة خافتة تنطوي على درجة عالية من القسوة: «زوجتي العزيزة، أدرك تمامًا مدى توقك إلى أن يصبح ابنك موسيقيًّا شهيرًا، ولكنّك تعلمين جيّدًا أن جانس سينضم إلى مؤسسة العائلة لدى بلوغه الحادية والعشرين. لم ننفق أنا وأجدادي ما يزيد على مئة وخمسين سنة في بناء هذه المؤسسة لتُباع وأنا على فراش الموت لأحد المنافسين لي. إذا كان جانس يرغب في العبث على آلاته الموسيقيّة خلال نشأته، سيكون ذلك من دواعي سروري. ولكنّ ابني لن يتّخذ من الموسيقى مهنة للمستقبل أبدًا.

لم ترتدع مارغريت، وحرصت خلال السنوات القليلة التالية على تعليم جانس العزف على الكمان والفلوت، إلى جانب العزف على البيانو، وذلك إدراكًا منها بأن الموسيقيّ لا يستطيع الانضمام إلى أيّ فرقة موسيقيّة إلّا في حال إتقانه العزف على أكثر من آلة. وعلّمته أيضًا اللغتين الألمانية والإيطالية، لتساعداه في التعامل مع الأعمال الأوركستراليّة والأوبراليّة المعقّدة.

واستمر والد جانس يتجاهل الأصوات الجميلة التي كانت تتعالى من غرفة الموسيقا ويتردّد صداها في كل أرجاء البيت، بكل عزم وثبات. ولم تتمكّن مارغريت من إرغامه على الاستماع إلّا أثناء عزف جانس على الكمان النروجيّ التقليديّ. وكانت تحثّه في بعض الأحيان على العزف لوالده بعد العشاء، وتراقب تقاسيم وجه جوناس وهي تسترخي شيئًا فشيئًا، بمساندة بضعة أكواب من النبيذ الفرنسي

الجيد، قبل أن ترتسم على ثغره ابتسامة حالمة وهو يدندن معه لحنًا فلكلوريًا مألوفًا.

وعلى الرغم من لامبالاة زوجها بموهبة جانس، ورفضه القاطع بأن يتّخذ من الموسيقا مهنة له، حافظت مارغريت على إيمانها بأنّها ستتمكّن من إيجاد سبيل للحل عندما يتقدم جانس في السنّ. غير أن الصبي الصغير الذي بقي مثابرًا على دروس الموسيقا، بدأ يكبر، وقرّر جوناس أن يأخذه تحت جناحه. وبدلًا من الساعتين اللتين كان يخصّصهما خلال النهار للتمرّن على العزف، اضطر جانس إلى مرافقة والده إلى مصنع الجعّة حيث كان يشرف على الإنتاج أو يجهّز الحسابات.

ولثلاث سنوات خلت، تبلورت الصورة أكثر مع إصرار جوناس على أن يدخل ابنه الجامعة ليدرس الكيمياء التي تتناسب، بنظره، مع وضعه المستقبليّ في مصنع الجعّة، على الرغم من أن مارغريت لم تتوانَ عن الركوع أمام زوجها، متوسّلة إليه السماح لجانس بالالتحاق بالمعهد الموسيقيّ في لايبزيغ.

قالت له في محاولة بائسة منها لاستدرار عطفه:

- ولكنّ الصبي لا يملك أي شغف بالكيمياء أو الأعمال، في حين أنه يملك موهبة موسيقيّة مميّزة.

نظر جوناس إليها ببرودة وأجاب:

- كنت حريصًا على مراعاتك بما يكفي حتى الآن، ولكن جانس لم يعد طفلًا، وعليه أن يدرك حقيقة مسؤولياته. فهو يمثّل الجيل الخامس من آل هالڤورسن الذي سيتولى إدارة مصنع الجعّة. كنتِ واهمة حين تصوّرت بأنّ تطلّعاتك الموسيقيّة حيال ابنك قد تأتي بثمارها. سيبدأ الفصل الدراسيّ في شهر تشرين الأوّل/أكتوبر. انتهى النقاش.



قال جانس لها بعد أن نقلت إليه ما دار بينهما وهي في حالة يُرثى لها:

- لا داعيَ للبكاء يا أماه. لم أكن أتوقّع منه أي شيء آخر.

لم يثابر جانس، تمامًا كما توقعت مارغريت أن يحصل، بعد إرغامه على

التخلّي عن الموسيقا من أجل دراسة مادة ليس بارعًا فيها ولا تثير اهتمامه، على متابعة الدراسة في الجامعة. وتمثّلت الخطورة الأكبر في روحه العالية وتصرفاته اللّامبالية التي قادته إلى طريق الضلال.

ولمّا كان نومها خفيفًا، وكلّ جلبة، وإن بسيطة، توقظها من سباتها، كانت تعلم أن ابنها غالبًا ما يعود إلى المنزل في ساعات الصباح الأولى. كان لجانس مجموعة كبيرة من الأصدقاء المنقادين وراء بهجة الحياة والإغراءات السهلة. وأدركت مارغريت أن ابنها كريم إلى أقصى حد، بحيث كان يقصدها قرابة منتصف الشهر ليخبرها بأنّه أنفق كلّ مخصّصات والده لشراء الهدايا للأصدقاء أو إقراضهم المال، ويسألها إنْ كان بإمكانها أن تمدّ له يد العون.

وفي حين كانت رائحة الكحول النتنة تفوح في كثير من الأحيان، من فمه، افترضت أن الإسراف في شرب الكحول يُسهم أيضًا في إفراغ جيوبه من النقود. كما كانت تشتبه بأن للنساء دورًا في مآثره الليلية. ففي الأسبوع الماضي، رأت بقعة أحمر شفاه على ياقة قميصه. لكنّ مارغريت كانت تعي على الأقل، من خلال تجربتها الشخصية، أن للشبان، كما للرجال المتقدمين في السنّ، حاجاتٍ ليس باستطاعتهم ضبطها، وهي حاجات نابعة من طبيعتهم الذكوريّة.

فالمشكلة، بحسب وجهة نظرها، بسيطة للغاية: في مواجهة مستقبل لا يرغب فيه، ومن دون موسيقاه العزيزة على قلبه، قرّر جانس الذي لم يتمكّن من تحقيق أحلامه، الانغماس في الشرب ومعاشرة النساء ليدفن أحزانه. نهضت مارغريت عن مائدة الطعام، وهي تصلّي في سرّها ليذهب جانس في الغد لمقابلة السيد هانوم. فهذه المقابلة، في رأيها، هي سبيل خلاصه الوحيد.



في هذه الأثناء، كان جانس مستلقيًا في سريره في الطابق العلوي ورأسه يضج بالأفكار نفسها التي كانت تراود والدته. فقد أدرك منذ زمن بعيد جدًّا أنّ حلمه بامتهان الموسيقا لن يتحقّق. فبعد أشهر قليلة، سيتخرّج في الجامعة ليستلم منصبه في مصنع الجعّة الخاص بوالده.

أثارت تلك الفكرة الرعب في نفسه.

لم يكن واثقًا تمامًا من يستحق شفقته أكثر بين أبويه: أهو والده، الذي استعبده حسابه المصرفيّ والمكائد المتواصلة التي تستهدف مصنع الجعّة الناجح؟ أم والدته التي حملت إلى هذا الرباط النسل الذي كان بأمس الحاجة إليه، ولكنها عاشت حياتها في قلق دائم وبؤس؟ بدا واضحًا لجانس أن زواجهما ليس سوى اتفاق قائم بينهما بهدف تحقيق مكاسب متبادلة. ولكن المشكلة بالنسبة إليه هي أنه الذرية الوحيدة، وغالبًا ما كانا يستخدمانه بيدقًا في لعبة الشطرنج العاطفية التي يمارسانها. وإذ تبيّن له منذ وقت طويل أنه لن يتمكّن من الفوز، لم يعدْ في الوقت الحالي يتكبّد حتى عناء المحاولة.

ولكن كلام والدته اليوم كان صائبًا. هل كان ممكنًا إعادة إحياء الحلم الذي لطالما عمل في صغره بجدٍّ لتحقيقه؟

وإذ سمع والدته تغادر المنزل بعد الغداء، تسلّل جانس إلى الطابق السفليّ، وقد تملّكته نزوة بدخول غرفة الموسيقا حيث كانت والدته تستقبل في بعض الأحيان طلابًا يبغون تعلّم العزف.

جلس على المقعد أمام البيانو الجميل الضخم، وقد اتّخذ جسده الوضعية الصحيحة بشكل تلقائيّ. ومن ثم رفع غطاء البيانو الخشبي الناعم الملمس، وأطلق العنان لأنامله على مفاتيح البيانو مدركًا بأنّه لم يعزف منذ أكثر من سنتين. بدأ بعزف سوناتا باثيتيك لبيتهوفن التي لطالما كانت المفضّلة لديه، مسترجعًا في ذهنه مدى تأنّي والدته في تعليمه العزف إلى أن أصبح سهلًا جدًّا عليه. قالت له في إحدى المرّات:

- عليك أن تُشرك جسدك بكامله عند العزف، إضافة إلى قلبك وروحك. فهذه التفاصيل تشكّل العلامات المميّزة للموسيقيّ الموهوب.

فقد جانس الإحساس بالوقت أثناء العزف. وفيما كانت الألحان ترتفع في الغرفة، نسي معاناته مع محاضرات الكيمياء التي كان يمقتها والمستقبل الذي كان يهابه، وأتاح لنفسه الغرق في بحر الموسيقا الخالد، كما تعوّد فعله في الماضي.

ومع تردّد صدى النوتات الأخيرة في أرجاء الغرفة، شعر جانس بالدموع تترقرق في عينيه، دموع الفرح الذي بعثه العزف على البيانو في داخله. وعقد العزم في تلك اللحظة على الذهاب في الغد لمقابلة السيد هانوم.



عند الساعة الواحدة والنصف من اليوم التالي، جلس جانس على المقعد أمام بيانو آخر في مكان جلوس أعضاء الفرقة الموسيقيّة في مسرح كريستانيا المقفر.

قال جوهان هانوم، القائد المحترم للفرقة الموسيقيّة:

- حسنًا سيد هالڤورسن، سمعتك تعزف للمرة الأخيرة يوم كنت في العاشرة من عمرك. أخبرتني والدتك بأنّك أصبحت موسيقيًا متميّزًا.

- والدتي متحيّزة قليلًا، سيدي.

- قالت لي أيضًا إنك لم تتابع أي تدريب رسميّ في المعهد الموسيقيّ.

- هذا من سوء حظّي، سيدي. التحقت بالجامعة منذ سنتين ونصف السنة لمتابعة دراستي في الكيمياء.

شعر جانس في تلك اللحظة بتململ قائد الفرقة الموسيقيّة لاعتقاده بأن تلك المقابلة مجرّد مضيعة للوقت. لا ريب في أنّ موافقته على رؤيته هي مجرّد اعتراف بالجميل لوالدته على التمويل السخي الذي تقدمه للأعمال الفنيّة.

- ولكنْ لا بدّ من الاعتراف بأن والدتي أشرفت على تعليمي العزف على مدى سنوات طويلة. وأظنّك تعلم بأنّها من أفضل مدرّسي الموسيقا.

- هذا صحيح. حسنًا، وما هي الآلة التي تعتبرها المفضّلة لديك بين الآلات الأربع التي أخبرتني والدتك بأنك تعزف عليها؟

- لا شك في أنّني أستمتع كثيرًا بالعزف على البيانو، ولكن مهاراتي في العزف على الكمان، والفلوت والكمان النروجي التقليديّ ليست أقلّ أهمية.

- لا يتوافر في الوقت الحاليّ، مكان لعازف بيانو في التنسيق الموسيقيّ للعمل الذي ألّفه السيد غريغ لمرافقة مسرحية بير جينت. لكنّنا نبحث عن عازف كمانٍ ثانٍ وعازف فلوتٍ آخر. تفضّل.

وناوله هانوم مدوّنة موسيقيّة وتابع:

- تمرّن على المقطع الخاص بالفلوت وسأعود إليك بعد قليل للاستماع إلى عزفك.

وأومأ قائد الفرقة الموسيقيّة له برأسه واختفى عبر باب قائم تحت المسرح.

ألقى جانس نظرة سريعة على المدوّنة: مقدمة موسيقيّة للفصل الرابع: «المزاج الصباحيّ». ومن ثمّ أخرج الفلوت من الصندوق وثبّته بإحكام. كانت حرارة المسرح تكاد توازي الحرارة الخارجية التي تدنّت إلى ما دون الصفر، ففرك أصابعه الخدرة معًا بقوة في محاولة منه لإعادة تنشيط الدورة الدمويّة. وضع بعدها الآلة على فمه وحاول عزف النوتات الست الأولى...

بعد مرور حوالى خمس دقائق، سمع جوهان هانوم يقول على عجل، لدى دخوله المكان المخصّص لجلوس الفرقة الموسيقيّة:

- حسنًا سيد هالڤورسن، هل نستطيع الاستماع لما لديك؟

شعر جانس بحاجة ملحة لإثارة إعجاب الرجل وإثبات قدرته على تولّي المَهمّة المُسنَدة إليه. فبدأ بالعزف شاكرًا ربّه على مهارته في القراءة الآنيّة، وهي مهارة كان يعتمد عليها باستمرار لإقناع والدته بأنّه تمرّن على العزف أكثر بكثير مما فعل في الواقع. ولم تكد تمر ثوانٍ قليلة حتى وجد نفسه منغمسًا في تلك الموسيقا الرائعة التي لا تشبه أي قطعة موسيقيّة سمعها من قبل. ولدى انتهائه من العزف، أبعد الفلوت عن فمه ونظر إلى السيد هانوم.

- بالنظر إلى أنها المحاولة الأولى، لا بأس بذلك على الإطلاق. خذِ الآن هذه.

وناوله مدوّنة أخرى وتابع:

- إنها المعزوفة المخصّصة لعازف الكمان الأول. أرِني مهاراتك في العزف.

أخرج جانس الكمان من الصندوق وضبطه. ومن ثمّ راجع النوتات الموسيقيّة لبضع دقائق وتمرّن عليها بهدوء قبل أن يبدأ بالعزف.

- أحسنت سيد هالڤورسن. لم تخطئ والدتك في وصفها مهاراتك، وأعترف

بأنني تفاجأت بك كثيرًا. فأنت من دون أدنى شك بارع في القراءة الآنيّة، ما يعتبر عاملًا أساسيًا في الأسابيع المقبلة، حيث سأباشر بجمع أفراد الفرقة الموسيقيّة المشتّتين معًا. لن يكون لديّ متسع من الوقت للتدليل. ودعني أؤكّد لك بأن العزف ضمن فرقة موسيقيّة مختلف كليًّا عن العزف المنفرد. وستحتاج إلى بعض الوقت لاستيعاب الاختلاف بينهما، ولا بدّ من أن أحذّرك من أنّني لا أتساهل مع أي تراخٍ من الموسيقيين. صحيح أنني شديد التحفّظ لجهة التعامل مع المبتدئين، ولكن الحاجة تقتضي ذلك. أريد منك أن تباشر بالتمرينات في غضون أسبوع. ما رأيك؟

حدّق جانس إلى الرجل بذهول وهو لا يكاد يصدق بأنّه يعرض عليه وظيفة. إذ كان واثقًا، كل الثقة، من أن افتقاره إلى الخبرة سيترتب عليه رفض قاطع. ولكنْ من المعروف أن الفرقة الموسيقيّة في كريستيانيا هي عبارة عن مزيج مختلط من الموسيقيين ذوي المهارات المحدودة، في ظل انعدام المدارس الموسيقيّة الملائمة وقلّة المواهب التي يتم الاختيار من بينها. أخبرته والدته أنّ صبيًّا في سنّ العاشرة شارك مرّة في العزف مع الفرقة.

- إنه لشرف لي أن أكون عضوًا في فرقتك الموسيقيّة والمشاركة في هذا العرض الأوّل الذي ينطوي على أهمية كبرى.

- يسعدني أن تنضمّ إلينا سيد هالفورسن. فأنت تتحلّى بكل عناصر الموسيقيّ الماهر. ولكن لا بدّ من أن ألفت انتباهك إلى أن الأجور ضئيلة، مع أنني واثق من أن هذا الأمر لا يطرح أي مشكلة بالنسبة إليك، وساعات التمرين المجدولة في الأسبوع المقبل ستكون طويلة وشاقّة. وأظنك لاحظت أن المكان يفتقر إلى وسائل الراحة، ولهذا أنصحك بارتداء ملابس دافئة.

- سأفعل ذلك، سيدي.

- ذكرت منذ قليل أنك تتابع حاليًا دراستك في الجامعة. أفترض أنك مسرور لأنك ستقدّم عملك في الفرقة الموسيقيّة على محاضراتك؟

ردّ جانس بالإيجاب، وهو واثق كل الثقة من رد فعل والده إزاء هذه المسألة؛ لكنه قرّر أن يترك لوالدته، التي كانت السبب في وصوله إلى ذلك المكان، مَهمّة

إخماد نيران الاعتراض التي قد تشتعل في المنزل. إنه سبيله الوحيد إلى الحرية وعليه أن يسلكه مهما يكلّف الأمر.

- أرجو منك أن تبلغ والدتك بأنّني ممتنٌّ لها لأنها أرسلتك لمقابلتي.

- سأفعل، سيدي.

- حسنًا، ستبدأ التمرينات في الأسبوع المقبل. وأتوقّع رؤيتك بكامل نشاطك وحيويتك صباح الإثنين عند الساعة التاسعة. عليّ الآن الذهاب للبحث عن عازف باسون مناسب لأنني فشلت في العثور على عازف في هذه المدينة اللعينة بالرغم من جميع محاولاتي. طاب نهارك سيد هالڤورسن، أظنّك تعرف طريق الخروج من هنا.

راقب جانس قائد الأوركسترا وهو يغادر مكان جلوس الفرقة الموسيقيّة، وقد استولى عليه الذهول إثر هذا التغيير الجذريّ المفاجئ الذي طرأ على مسار حياته. التفت ليتأمّل الظلمة الطاغية على القاعة. صحيح أنّه قصد هذا المكان مرات عدّة برفقة والدته لمشاهدة الحفلات الموسيقيّة وعروض الأوبرا، ولكن لدى جلوسه، على عجل، على كرسيّ البيانو، انتابه إحساس غامر. فقد أدرك أنّ أمواج القدر قذفته بعيدًا عن الخوف من التخرّج ومستقبله كصانع للجعّة، ليواجه ما تخبّئه له الأيام، كلّ يوم بيومه.

وبينما كان يعزف قطعة غريغ الموسيقيّة الجديدة، شعر بفتيل النشوة القديمة يشتعل في داخله. فقد تعوّد في صغره الاستلقاء في سريره محاولًا اختلاق نوتات في رأسه، ويبادر في صباح اليوم التالي إلى عزفها على البيانو. وفي حين أنه لم يدوّن تلك النوتات، كان شغفه بتأليف معزوفة خاصة به مصدر إلهامه الوحيد.

وفي عمق الظلمة التي ألقت بظلّها على مكان جلوس أعضاء الفرقة الموسيقيّة، وضع جانس أصابعه على مفاتيح البيانو الضخم وراح يسترجع في ذهنه الألحان التي ألّفها في صغره، ومنها لحن لا يختلف، من حيث تركيبته، عن مقطوعة غريغ الموسيقيّة الجديدة، ويماثل الأغاني الفلكلوريّة القديمة. فاستعان جانس بقوة ذاكرته وبدأ يعزف لقاعة المسرح الفارغة.

17

ستالسبرغ فانينشوتز

تيندفيغن

هيدال

14 شباط 1876

عزيزتي آنّا،

أشكرك على رسالتك الأخيرة. إنّ وصفك للحياة في كريستيانيا وكالعادة، مليء بالمعلومات ومسلٍّ في آن. لم يفشل يومًا في رسم ابتسامة على وجهي. وتأكدي من أنّ قدراتك الكتابية والإملائية تتحسّن في كل مرّة. هنا في هيدال، الأمور على حالها كما هي دائمًا. مرّ عيد الميلاد كالمعتاد، بل أسوأ، لأنك لستِ هنا لتحتفلي به معنا. كما تعلمين، إنها الفترة الأكثر برودة وظلمة في العام، حيث لا تدخل الحيوانات وحدها في حالة سبات بل نحن البشر أيضًا. دام الثلج لفترة أطول وكان أكثر سماكة من المعتاد واكتشفت تسرّبًا في سطح بيت المزرعة ما يتطلّب مني استبدال العشب عليه قبل ذوبان الثلوج في الربيع وإلا سيتشكّل لدينا بحيرة داخلية بإمكاننا التزلّج عليها. يقول أبي إنّه لم يُستبدل خلال حياته، وبالتالي أشعر على الأقل أنّه خدمنا طويلًا. وعدني كنوت بأن يساعدني في الربيع وأنا ممتنّ له لذلك.

بدأ هو نفسه يواعد شابة من قرية خارج سكاين، اسمها سيغريد، وهي لطيفة وجميلة ولكنها هادئة قليلًا. والخبر السار هو أنّ والديك موافقان عليها وستُقرع أجراس الزفاف في كنيسة هيدال هذا الصيف. أصلّي لكي تتمكّني من العودة إلى المنزل لحضور هذا الحدث.

أكاد لا أصدّق أنك تشاركين في العرض الأول لقصيدتي المفضّلة لإيبسن مع

موسيقى ألّفها خصّيصًا لهذه الغاية السيّد غريغ نفسه. هل رأيتِ السيّد إيبسن في المسرح؟ لا بدّ من أنه سيحضُر ليتحقّق من أنّ المسرحية كما يتمنّى أن تكون، علمًا بأنّني أعتقد أنه يقيم حاليًا في إيطاليا. قد لا يتسنّى لكِ أن تكتبي مجدّدًا قبل ليلة الافتتاح إذ إنها تصادف بعد عشرة أيام وأتخيّل أنك منشغلة على الدوام بالتمرينات. إن لم تكتبي، فدعيني أتمنّ لك ولصوتك الجميل الحظ السعيد.

المخلص مع إعجاب فائق،

لارس

ملاحظة: سأرفق إحدى قصائدي التي أرسلتها مؤخّرًا مع قصائد أخرى إلى ناشر يُدعى سكريبنر في مدينة نيويورك في أميركا. ترجمتها إلى النروجية من أجلك.

قرأت آنّا القصيدة التي حملت عنوان «قصيدة غنائية على شجرة بتولا فضيّة». ولم يكن لديها أيّ فكرة عن هذا النوع من القصائد. قرأتها على عجل، ولم تقدر على فهم كلمات كثيرة، ثم وضعتها إلى جانب طبقها لتكمل فطورها. تمنّت لو كانت حياتها مثيرة بقدر ما يتخيّلها لارس، فهي لم تزر مسرح كريستيانيا سوى مرتين حتى الساعة: في المرة الأولى، قصدته لتغني أمام السيد جوزفسون قبل عيد الميلاد مباشرة، حيث تم الاتفاق على أن تغني دور سولفيج. ومن ثمّ في الأسبوع الماضي مجدّدًا حين قام الممثلون بمحاولتهم الأولى للعرض على المسرح، وقد حضرت آنّا لتشاهد، من الأجنحة، بغية فهم المسرحيّة.

وبعد أن وقعت ضحيّة فكرة خاطئة تشكّلت لديها بأنّ مكانًا كبيرًا مثل المسرح سيكون مجهّزًا بالتدفئة اللازمة، أمضت آنّا نهارها جالسة على كرسيّ في جناح بارد، وهي تكاد تتجمّد من البرد حتى الموت. لم يتمكّنوا سوى من إنهاء الفصول الثلاثة الأولى قبل أن تحصل الأزمة إذ تعثّر هنريك كلوزن، وهو الممثل الذي يؤدي دور بير، بقماش أزرق طويل يخفي تحته عشرة فتية صغار راكعين يحرّكون أجسادهم ليعطوا الانطباع بأن بير يعبر بحرًا هائجًا. لوى كاحله بشكل خطر، فعُلّقت التمرينات لغياب الشخصيّة الرئيسيّة.

وفي وقت لاحق، أصيبت آنّا بنزلة برد مريعة ولزمت السرير في الأيام الأربعة

الماضية، بينما راح السيّد باير يحوم حولها ويثرثر كدجاجة عجوز قلقة على صوت صغيرها الناعق.

راح يئن قائلًا لها:

- لم يبقَ أمامنا سوى أسبوع! لا يمكن للتوقيت أن يكون أسوأ. يجب أن تتناولي من العسل قدر ما تستطيعين أيّتها الشابّة. ولنأمل أن يسهم هذا في إصلاح أوتارك الصوتية في الوقت المناسب.

في وقت مبكر من صباح هذا اليوم، حاولت أن تغنّي بضع نغمات من السلّم الموسيقيّ بعد جرعة العسل الإلزاميّة - شعرت كأنّ جوانح ستنبت لها وأنّ خطوطًا صفرًا وبنيّة ستظهر على جسدها بعد كميّة العسل التي ابتلعتها- وبدا أنّ السيّد باير يشعر بالارتياح.

- الحمد للّه، لقد عاد صوتك. ستصل السيدة ثورا هانسون، الممثلة التي تلعب دور سولفيج، بعد قليل بحيث تستطيعان أن تعملا معًا على التوقيت المناسب لتحرّك شفتيها بينما أنت تغنين. إنه لشرف عظيم أن توافق على الحضور إلى الشقة هنا لأنك لستِ على ما يرام في الوقت الحالي.

وأردف السيّد باير قائلًا:

- إنها واحدة من أشهر الممثلات في النروج كما تعلمين ويُقال إنها المفضّلة لدى إيبسن.

عند العاشرة والنصف، وصلت ثورا هانسون إلى الشقّة بمعطفها المخملي المبطّن بالفرو الجميل. دخلت مع عطرها الفرنسي الذي غلّفها كالضباب إلى غرفة الاستقبال حيث كانت آنّا تنتظرها بتوتّر.

- عزيزتي، اعذريني إن لم أقترب منك، فعلى الرغم من أنّ السيّد باير أخبرني أنّ مرضك لم يعد معديًا، لكنّني لا أتحمّل أن ألتقط أيّ عدوى.

قالت آنّا برزانة وهي تنحني لها:

- بالطبع يا سيدة هانسون.

ابتسمت ثم قالت:

- لن أستخدم صوتي هذا الصباح على الأقل، فأنت من سيقدّم الصوت السماويّ. أنا بالكاد سأفتح فمي وأطبقه وأبذل جهدي في التصوير البصريّ لأغاني السيد غريغ الجميلة.

- نعم سيدتي.

ودخل السيّد باير وبدأ يحوم حول السيدة هانسون، فاستغلّت آنّا الفرصة لتتأمّل الممثلة. لم ترها في المسرح إلا من بعيد وافترضت أنها مسنّة قليلًا. لكنها لاحظت، وهي تراها الآن عن قرب، أنّ السيدة هانسون شابة في الواقع، ولعلها لا تكبرها إلا ببضع سنوات فقط. كانت جميلة جدًّا بتفاصيل وجهها الناعمة وشعرها البني الداكن الكثيف. جاهدت آنّا لتصدّق أنّ هذه الشابة المحنّكة والراقية قادرة، حتى في اللباس التقليدي، على أن تُقنع الجمهور أنها مجرد فتاة ريفيّة بسيطة من التلال.

فتاة ريفيّة مثلها هي...

- حسنًا، هلّا بدأنا؟

وتابع السيّد باير كلامه ناصحًا:

- آنّا، رويدًا رويدًا. لا نريد أن نجهد صوتك أثناء عملية شفائه. إذًا، إنْ كنت جاهزة يا سيدة هانسون، فسنبدأ «بأغنية سولفيج» ومن ثم ننتقل إلى «أغنية المهد».

تمرّنت المرأتان في ما تبقّى من فترة الصباح على ما يُفترض أنه ديو على الرغم من أنّ أحد المغنييْن كان صامتًا. شعرت آنّا في لحظات مختلفة بإحباط الممثلة إذا ما فتحت فمها في الوقت غير المناسب، وجاء صوت آنّا متأخرًا قليلًا. واقترحت السيدة هانسون أن تغادر آنّا الغرفة بحيث يختبر السيّد باير الشعور إنْ كان الجمهور سيصدّق فعلًا أنّها هي من يغنّي. وقفت آنّا في الممر البارد وهي تحسّ بقرع في رأسها وبألم في حلقها من الغناء، وبدأت تشعر بأنها تكره الأغاني. كان عليها أن تلتزم بطول النغمات والوقفات نفسه بحيث تعرف السيد هانسون بدقّة متى تفتح فمها وتقفله. ولعل ما كانت تستمتع به عادة في الغناء هو أن تؤدّي الأغنية بطريقة مختلفة لمستمعيها في كل مرة، سواء كانوا من البشر

أو مجرّد بقر. وإذا ما أعادت النظر في الأمر لبدا ذلك أفضل من الغناء لباير كما تفعل الآن.

في النهاية، صفّق السيّد باير وقال:

- ممتاز! أعتقد أنّنا نجحنا. أحسنتِ يا سيدة هانسون. آنّا أرجو أن تعودي إلى الداخل مجدّدًا».

عادت آنّا إلى الغرفة فالتفتت السيدة هانسون نحوها وابتسمت.

- أعتقد أنّ الأمر سينجح نجاحًا رائعًا. عديني فقط بأنك ستغنين بالطريقة نفسها كل ليلة. ستفعلين ذلك، أليس كذلك يا عزيزتي؟

- بالطبع يا سيدة هانسون.

- آنّا، تبدين شاحبة. أعتقد أنّ المجهود الذي بذلته هذا الصباح أتعبك. سأخبر الآنسة أولسداتر أنك ستخلدين للراحة قليلًا وستحضر لك الغداء إلى غرفتك وبعض العسل لتطرّي صوتك.

ردّت بطاعة:

- نعم يا سيّد باير.

- شكرًا لك يا آنّا. سنلتقي بالتأكيد في المسرح في الأيام القليلة القادمة.

ابتسمت السيدة هانسون ابتسامة عذبة لآنا التي تمايلت وهي تنحني قبل أن تنسحب إلى غرفتها.

الشقة 4،

10 بوابة سان أولاف

كريستيانيا

23 شباط 1876

عزيزي لارس، أمي، أبي وكنوت

أكتب لكم على عجل لأنّ اليوم تجربة الأداء النهائية وغدًا ليلة افتتاح بير جينت. وددت لو كنتم جميعًا هنا في هذه المناسبة، لكني أدرك أنّ الكلفة تجعل مثل هذه الزيارة مستحيلة.

أنا متحمسة لكنّني متوتّرة أيضًا. قال السيّد باير إنّ الصحف كلها مليئة بقصص عن الغد، حتى أنّ هناك شائعات تقول إنّ الملك والملكة سيكونان من ضمن الحضور في المقصورة الملكيّة. (أشكّ شخصيًا في ذلك، فهما يعيشان في السويد، ومثل هذه الرحلة تُعدّ، حتى بالنسبة إلى العائلة الملكيّة، طويلة لمجرّد حضور مسرحيّة، لكن الشائعات والثرثرات تسير على هذا النحو هنا.) الجو في المسرح متوتّر. يعتقد السيد جوزفسون المدير، أنها ستكون كارثة؛ إذ علينا أن نؤدّي المسرحيّة كلها من دون أن نضطرّ للتوقّف لساعات، بينما يجرى حل بعض المشاكل التقنيّة.

والسيد هانوم، قائد الأوركسترا، الذي أحبه كثيرًا، والذي لطالما بدا هادئًا من قبل، يصرخ باستمرار ويوبّخ أفراد الأوركسترا لأنّهم لا يعدّون النغمات.

هل تصدّقون أنّني سأغني «أغنية المهد» في المسرح نفسه لأننا لم نتمكّن بعد من الوصول إلى آخر المسرحيّة؟ أكّد لي السيد هانوم أنّ هذا سيحصل اليوم من دون شك.

في هذه الأثناء، أقضي وقتي مع الأولاد الذين تم اختيارهم ليؤدّوا أدوارًا صغيرة، كالأقزام وما شابه. عندما وُجّهت أول مرة إلى غرفة ملابسهم، شعرت بالإهانة لأنّ السيدات الأخريات في الجوقة توجّهن إلى غرفة أخرى. لعلّهم لا يدركون كم أبلغ من العمر؟ لكنّني سعيدة الآن بهذا لأن الأولاد يجعلونني أضحك ونحن نلعب بالورق معًا لصرف الوقت.

لا يمكن لي أنْ أكتب أكثر الآن إذ عليّ أن أغادر إلى المسرح لكن عليّ أن أخبرك بأمر أعلم أنه سيحزنك كثيرًا يا لارس وهو أنّ السيد إيبسن لم يحضر بعد.

أرسل حبي لكم من كريستيانيا.

آنّا

وضعت آنّا الرسالة على الصينية الفضيّة في البهو، بينما هي تغادر الشقة متوجّهة إلى المسرح.



كانت تجربة الأداء النهائيّة تجري منذ حوالى الأربع ساعات، وكان جانس يشعر بالتعب والبرد والعصبيّة كحال أعضاء الأوركسترا الباقين. ازداد التوتّر في الحفرة وبلغ أوجه خلال الأيام القليلة الماضية. وقد صاح به السيد هانوم أكثر من مرة لكي ينتبه ويركّز، لكن جانس أحسّ بأنّ هذا التصرّف غير عادل لأنّ سيمن، عازف الكمان الأول والأكبر سنًّا الذي يجلس إلى جانبه، يغفو باستمرار. خطر له أنه بالتأكيد العضو الوحيد في الأوركسترا الذي لم يبلغ الخمسين من العمر، لكنّ الموسيقيين مجموعة ودودة وهو يستمتع برفقتهم المسلّية.

نجح حتى الساعة في أن يصل في الوقت المحدّد من كل يوم، على الرغم من آثار الثمالة بين الحين والآخر. ولمّا كان هذا، كما يبدو، هو حال من تبقّى من أفراد الأوركسترا، فقد شعر جانس بأنّه في المكان المناسب تمامًا. وهناك بالطبع سيدات الجوقة الجميلات ليتأملّهن على المسرح خلال واحدة من الاستراحات التي لا تنتهي، بينما السيد جوزفسن ينظّم الممثّلين كما يحلو له.

بعد أن عُرض عليه الانضمام إلى الأوركسترا، جعل سرور أمه العظيم عينيه تغرورقان بالدموع. سألها:

- لكنْ ما الذي سنقوله لأبي؟ تعلمين أنّ عليّ أن أفوّت محاضراتي في الجامعة لأحضر التمارين.

- أعتقد أنّ من الأفضل في الوقت الراهن ألّا يعلم بالتغيير المفاجئ. سندعه يعتقد أنك ما تزال تذهب إلى الجامعة. أنا واثقة من أنه لن يتصرّف بكثير من الحكمة على المدى القصير.

وأدرك جانس أنّ أمه، وبمعنى آخر، خائفة جدًّا من أن تطلعه على الأمر.

خطر له، بينما كان يضبط كمانه، أنّ الأمر لم يعد مهمًّا الآن؛ فإن كان تصميمه على عدم الالتحاق بمصنع الجعّة قويًّا من قبل، فقد أصبح الآن غير قابل للكسر. على الرغم من الساعات الطويلة والبرد وتعليقات هانوم اللاذعة غالبًا، أدرك جانس، بالتأكيد، أنّ الفرح الذي كان يشعر به من قبل بسبب موسيقاه قد عاد إليه. احتوت

موسيقا السيد غريغ على كثير من المقاطع الرائعة التي تثير المشاعر، بدءًا من «في قاعة ملك الجبل» المرحة والمليئة بالحيوية، وصولًا إلى «رقصة أنيترا» التي يكفي أن يغمض جانس عينيه خلالها ليستحضر في فكره المغرب وأجواءه المثيرة، بينما هو يعزف النغمات على الكمان.

لكن يبقى «مزاج الصباح» في مطلع الفصل الرابع مقطعه المفضّل. فهو يشكّل الأساس الموسيقيّ لهذا الجزء من المسرحية حين يستيقظ بير عند الفجر في أفريقيا وهو يعاني من آثار الثمالة وقد أدرك أنّه فقد كلّ شيء. عندئذ، تعود أفكار بير إلى النروج، إلى موطنه، وإلى الشمس التي تشرق على المضائق النروجيّة. لم يملّ جانس يومًا من عزفها.

في الوقت الحالي، يؤدي هو وعازف الفلوت الآخر، الذي يكبره بثلاثة أضعاف عمره، كلّ بدوره النغمات المرتعدة من الخانات الموسيقيّة الأربع الأولى. ومع عودة هانوم إلى الحفرة وضربه بعصاه لاسترعاء انتباههم، أدرك جانس أنه يريد أن يكون العازف الذي يعزفها في ليلة الافتتاح أكثر مما أراد أيّ شيء آخر في حياته.

أعلن قائد الأوركسترا بعد استراحة بين فصلَي المسرحية دامت لأكثر من ساعة:

- إذًا، سنبدأ الفصل الخامس. بيارت فرافورد ستكون عازف الفلوت الأول هذا الصباح.

وأضاف وهو يبتعد ليتشاور مع السيد جوزفسن، المخرج، قبل أن يبدأوا:

- خمس دقائق من فضلكم.

غمرت موجة من خيبة الأمل جانس. إذا عزف بيارت الجزء الأول في تجربة الأداء النهائية، فمن المرجّح أن يجعله هانوم يعزفه أيضًا غدًا في ليلة الافتتاح.

بعد بضع دقائق، وصل هنريك كلوزن الذي يؤدي دور بير جينت الرئيسي، واتّخذ موقعه عند طرف حفرة الأوركسترا، حيث يجب أن يدّعي أنّه يتقيّأ إلى الموسيقيين مع تعافي الشخصيّة التي يمثّلها من آثار الثمالة التي يُفترض أنّه يعاني منها.

توجّه هنريك بدماثة إلى الموسيقيين المتمركزين تحته:

- كيف حالكم الليلة أيّها الفتيان؟

تعالت همهمة جماعيّة مع ظهور هانوم مجدّدًا ورفع عصاه قائلًا:

- وعدني السيد جوزفسن أن ننهي الفصل الرابع مع أقل قدر ممكن من المقاطعة، بحيث نستطيع أخيرًا أن ننتقل إلى الفصل الخامس. هل الكل جاهزون؟

رفع هانوم عصاه وارتفع صوت فلوت بيارت من الحفرة. وخطر لجانس، بينما هو يضع الكمان تحت ذقنه ويستعد للعزف، إنه ليس بارعًا بقدري فعلًا.

وبعد ساعة، وباستثناء عقبة صغيرة بدا أنها حُلّت بسرعة، كانوا على وشك أن ينهوا الفصل الرابع. استرق جانس النظر إلى السيدة هانسون التي تؤدي دور سولفيج، فوجدها جذّابة للغاية على الرغم من زيّ الفلاحين الذي ترتديه، وأمل أن يتمكّن من التعرّف إليها في حفل ما بعد العرض مساء يوم غد.

عاد سريعًا يركّز انتباهه بينما رفع السيد هانوم عصاه مجدّدًا وانطلق عازفو الكمان يعزفون المقطع الأول المؤثّر من «أغنية سولفيج». أصغى جانس بينما راحت السيدة هانسون تغني. وكان الصوت صافيًا ومثاليًّا ومثيرًا للعواطف إلى حدّ جعل جانس يغيب ذهنيًّا وينتقل إلى الكوخ عند سفح التلّة حيث تعيش سولفيج مع حزنها. لم يكن يعلم أنّ السيدة هانسون يمكن أن تغنّي على هذا النحو. إنّه أحد أعظم الأصوات النسائية التي سمعها يومًا. بدا وكأنه يعكس الهواء الطلق النقي والشباب، فضلًا عن ألم الآمال والأحلام الضائعة.

كان طربًا وجذلًا إلى حدّ أنه استحق نظرة قاسية من هانوم عندما تأخّر بنغمة واحدة. وعندما بلغوا أخيرًا نهاية المسرحيّة وتردّدت النغمات الحزينة المؤلمة «لأغنية المهد»- التي تغنّيها سولفيج بعد أن يريح بير العائد والمعذّب رأسه في حضنها- في أرجاء المسرح، شعر جانس بقشعريرة تسري في جسده بسبب الكمال المطلق لأداء السيدة هانسن. عندما أُسدلت الستارة بعد بضع دقائق، تعالى تصفيق تلقائي من كل العاملين في المسرح الذين اجتمعوا ليشاهدوا ويسمعوا.

قال جانس لسيمن الذي كان يضع كمانه في صندوقه، استعدادًا للانتقال على عجل من الحفرة إلى مقهى أنغبريت في الجهة المقابلة من الشارع قبل أن يقفل أبوابه:

- هل سمعت هذا؟ لم أكن أعلم أنّ السيدة هانسون تتمتع بمثل هذا الصوت الجميل.

- ليباركك الربّ يا جانس! ما سمعناه للتوّ هو فعلًا صوت جميل، كما تقول، لكنه ليس صوت السيدة هانسون. ألمْ تستطع أن تلاحظ أنّها تحرّك فمها وحسب؟ لا يمكن لهذه المرأة أن تغني نغمة موسيقيّة واحدة، ما اضطرّهم للاستعانة بصوت امرأة أخرى ليعطوا الانطباع بأنها قادرة على الغناء. أنا واثق من أنّ السيد جوزفسن سيُسرّ لأنّ حيلته نجحت.

وضحك سيمن ضحكة خافتة وربّت كتف جانس بينما هو يغادر الحفرة.

صاح جانس بينما أدار سيمن ظهره مغادرًا واختفى تحت خشبة المسرح:

- من هي؟

وجاء الردّ من فوق كتف سيمن:

- أعتقد أنّ هذا هو السؤال. إنّه صوت شبح، ولا يملك أيّ منّا أيّ فكرة.



كانت صاحبة الصوت الذي أثار مشاعر جانس هالڤورسن إلى حدٍّ كبير تجلس في العربة التي ستوصلها إلى منزلها، إلى شقة السيّد باير. شعرت بأنّها تلفت النظر في الزيّ الوطنيّ الذي قال إنّ عليها أن ترتديه أثناء «تأديتها» بحيث تبدو مثل السيدات الأخريات في الجوقة اللواتي لبسن مثله، فسرّها أن تكون وحيدة في رحلة العودة إلى المنزل. إنّه يوم آخر طويل ومتعب وقد أحسّت بالامتنان عندما فتحت لها الآنسة أولسداتر الباب وأخذت معطفها.

سألتها وهي تقودها إلى غرفة نومها:

- لا بدّ من أنك متعبة يا عزيزتي آنّا. لكن أخبريني كيف كان غناؤك برأيك؟

- لا أعلم فعلًا. عندما أُنزلت الستارة، فعلت ما طلبه مني السيّد باير: توجّهت إلى باب المسرح وصعدت مباشرة إلى العربة. وها أنا ذا.

وتنهّدت وهي تترك الآنسة أولسداتر تساعدها في خلع ملابسها والصعود إلى السرير.

يقول السيّد باير إنه يُسمح لك أن تطيلي النوم صباح الغد. يريد أن تكوني أنت وصوتك مستعدَّيْن لليلة الافتتاح. والآن، تجدين الحليب الساخن والعسل على الطاولة قرب السرير.

رفعت آنّا الكوب بامتنان وقالت:

- شكرًا لك.

- تصبحين على خير آنّا.

- تصبحين على خير آنسة أولسداتر وشكرًا لك.



ظهر يوهان هانوم في الحفرة وصفّق ليسترعي انتباه الأوركسترا التي يقودها:

- هل الجميع مستعدّون؟

نظر قائد الأوركسترا إلى أعضائها باعتزاز، وفكّر جانس كم يبدو الجو مختلفًا في المسرح بالمقارنة مع الوقت نفسه في الأمس. فأفراد الأوركسترا ارتدوا البزّات الرسميّة الكاملة بدلًا من مجموعة الملابس اليوميّة العاديّة. وجمهور الليلة الأولى، الذي ينتظر بترقّب، دخل واحتل المقاعد في المسرح. خلعت النساء معاطف الفرو ليكشفنَ عن مجموعة من الفساتين الرائعة المزيّنة بأفخم المجوهرات التي راحت تلمع في نور الثريّا المزخرفة التي تتدلّى من وسط السقف.

تابع هانوم كلامه:

- أيها السادة، سنتشرّف الليلة بأن نحجز لأنفسنا مكانًا في التاريخ. على الرغم من أن السيد غريغ لا يستطيع الحضور لكننا نريد أن نجعله فخورًا. وسنعطي موسيقاه الأداء الذي تستحق. أنا واثق من أنكم ستخبرون أحفادكم يومًا أنكم كنتم جزءًا من هذا. سيد هالڤورسن، ستعزف الليلة الجزء الأول من الفلوت في «مزاج الصباح». حسنًا، إن كان الكل جاهزين..

وقف قائد الأوركسترا على قاعدته ليشير إلى الجمهور بأن العزف على وشك أن يبدأ. ساد الصمت بشكل مفاجئ بينما حبس الجمهور كله أنفاسه. وفي هذه اللحظة، رفع جانس صلاة شكر وامتنان، لأنّ أصدق وأهمّ أمانيه قد تحقّقت.



لا أحد ممّن انتظروا في الكواليس خلال أداء المسرحية عرف ما هو رأي الجمهور. سارت آنّا ببطء إلى الجناح لتؤدّي أغنيتها الأولى، يرافقها رود، أحد الفتيان الصغار الذي يؤدّي دورًا في مشاهد الحشود.

- تستطيعين أن تسمعي صوت الإبرة لو وقعت يا آنسة آنّا. راقبت الجمهور من مكان خفيّ في الجناح، وأعتقد أنّهم أحبّوا المسرحيّة.

اتّخذت آنّا موقعها إلى جانب المسرح، حيث تخفيها خشباته، ولكنها تبقى قادرة على رؤية السيدة هانسون، وشعرت فجأة بخوف شديد جعلها تجمد. فعلى الرغم من أنّ لا أحد يمكن أن يراها، ومن أنّ اسمها ورد فقط في البرنامج تحت اللائحة الطويلة التي سُميّت «جوقة»، لكنّها علمت أنّ السيد باير موجود في مكان ما في الخارج وهو يستمع إليها، حاله في ذلك حال كل شخص مهمّ في كريستيانيا.

شعرت بيد رود الصغيرة تضغط على يدها وهو يقول:

- لا تقلقي آنسة آنّا، فكلنا نؤمن بأنّ غناءك جميل.

بعدئذ، تركها وحدها فوقفت آنّا تراقب السيدة هانسون وتستمع بانتباه بانتظار إشارتها. وعندما بدأت الأوركسترا بعزف النغمات الأولى من «أغنية سولفيج»، أخذت آنّا نفسًا عميقًا. وتركت صوتها يسمو ويحلّق وهي تفكر في روزا وعائلتها هناك في هيدال.

بعد أربعين دقيقة ومع إسدال الستارة للمرة الأخيرة، كانت آنّا تقف في الجناح مجدّدًا، بعد أن انتهت للتو من إنشاد «أغنية المهد». ساد صمت مطبق بين الجمهور بينما تجمّع الممثلون على المسرح لأداء التحيّة. لم يُطلب من آنّا أن تشارك فبقيت في مكانها. وعندما ارتفعت الستارة لتكشف عن فريق العمل، تعالى تصفيق حاد كاد يصمّ أذنيها. كان الحاضرون يضربون الأرض بأقدامهم ويطالبون بمزيد.

وسمعت أحدهم يصرخ: «غنّي أغنية سولفيج مجدّدًا يا سيدة هانسون!»، وهو طلب رفضته الممثلة بلباقة بهزّة من رأسها وحركة أنيقة من يدها. أخيرًا، وبعد أن ظهر السيد جوزفسن على المسرح ليعتذر للحضور عن غياب كل من إيبسن وغريغ، وبعد انحناءة أخيرة، نزلت الستارة وبدأ الممثلون مغادرة المسرح. تجاهل الجميع آنّا بينما هم يمرّون بجانبها ويتجاوزونها، وقد بلغ بهم الحماس أشدّه وراحوا يتبادلون الأحاديث عما بدا أنه نجاح ساحق بعد أسابيع عدة من العمل.

عادت آنّا إلى غرفتها لتُحضر معطفها وألقت التحيّة على الفتية الذين كانت أمهاتهم الفخورات يساعدنهم في تبديل ملابسهم. قال السيّد باير إنّ العربة ستكون في انتظارها في الخارج، وإنّ عليها أن تغادر فور انتهاء العرض. واصطدمت بينما هي تشقّ طريقها في الممر باتجاه المخرج، بالسيد جوزفسن الذي خرج لتوّه من غرفة السيدة هانسون.

- آنّا، كان غناؤك جميلًا للغاية. أعتقد أنكِ أثرتِ مشاعر الجميع، وجعلت الدموع تترقرق في أعينهم. أحسنتِ.

- شكرًا لك يا سيد جوزفسن.

أضاف بإيماءة وانحناءة طفيفة قبل أن يبتعد عنها ويطرق باب غرفة هنريك كلوزن:

- أتمنّى لك رحلة آمنة إلى المنزل.

سارت آنّا نحو الباب وغادرت المسرح على مضض.



سأل جانس وهو يبحث بين الجموع التي احتشدت في البهو:

- إذًا، من هي الفتاة التي غنّت أغنية سولفيج؟

علّق إسحق، عازف التشيللو الذي بدا في حال مزرية:

- لا أعلم، فأنا لم أرها. إنّ صوتها ملائكيّ، لكن لعلّها تبدو عجوزًا شمطاء. من يعلم.

صمّم جانس على أن يعرف فاتّجه نحو قائد الأوركسترا.

قال هانوم وهو يربّت بقوّة كتفه، وقد بدا جليًا أنه يشعر بالابتهاج بعد النجاح الذي تحقّق الليلة:

- أحسنتَ يا بني. سرّني أنّ أملي بك لم يخبْ. يمكن لك أن تقطع شوطًا كبيرًا وأن تحقّق النجاح مع بعض الخبرة والتمرين.

- أشكرك يا سيدي. رجاءً قل لي من هي الفتاة الغامضة التي غنّت كلمات سولفيج بهذه الروعة هذا المساء؟ هل هي هنا؟

- أتعني آنًا؟ إنها سولفيج الحقيقية الآتية من التلال. أشكّ في أنها بقيت لحضور الحفلة. إنها تحت حماية ورعاية فرانز باير، وهي فتاة شابّة وغير متعوّدة على المدينة. إنه يحافظ عليها ويبقيها تحت سيطرته؛ وبالتالي أعتقد أن سندريلا سارعت إلى المنزل قبل أن تدقّ الساعة منتصف الليل.

- هذا مؤسف لأنني أردت أن أخبرها كم أثّر فيّ صوتها.

وتابع جانس كلامه مستغلًا الفرصة:

- كما أنني من المعجبين بالسيدة هانسون. فهل يمكن أن تقدّمني إليها لأهنئها على أدائها الليلة؟

وافق السيد هانوم:

- بالطبع. أنا واثق من أنّها ستُسرّ بالتعرّف إليك. اتبعني.

18

في صباح اليوم التالي، جلست «سندريلا» قبالة السيد باير في غرفة الجلوس تحتسي القهوة بينما كان يتصفّح التقييمات النقديّة لعرض ليلة أمس في صحيفة داغبلاديت، مردّدًا بصوت عالٍ الطُرف التي ظنّ أنها قد تروق لها.

- حقّقت السيدة هانسون نجاحًا منقطع النظير في دور الفلّاحة الصبورة سولفيج، كما أطربت بصوتها النقيّ العذب آذان الحاضرين.

ورفع نظره إليها قائلًا:

- حسنًا، ما رأيك بهذا التعليق؟.

أرادت آنّا أن تعبّر له عن الأفكار التي كانت تدور في رأسها، وتقول له صراحة إنّ مقدار سعادتها كان ليفوق الوصف لو أنّ اسمها هو المدوّن في صحف اليوم، وصوتها هو الذي يلقى كلّ هذا الثناء. ولكن في ظلّ الوضع الراهن، لم تكن تلك التعليقات تعني لها شيئًا.

وتمكّنت في نهاية المطاف من الردّ قائلة:

- يسرّني أن تكون المسرحية وأدائي الغنائيّ قد لقيا استحسانًا.

- لا ريب في أن النقّاد يستمدّون الإلهام من القطعة الموسيقيّة التي ألّفها السيد غريغ. فالطريقة التي اعتمدها لترجمة قصيدة السيد إيبسن الرائعة تتّسم بالرقيّ. حسنًا يا آنّا، لن يُقام العرض اليوم وبإمكانك أن تأخذي استراحة تستحقّينها عن جدارة. حريّ بك يا آنستي الصغيرة، أن تكوني فخورة بنفسك، لأنني لا أظنّ أنّ من الممكن أن يكون أداؤك الغنائيّ أكثر روعة. من المؤسف أنّني لن أنعم بالراحة اليوم، وعليّ أن أتوجّه في الحال إلى الجامعة.

ونهض من مكانه وتوجّه نحو الباب وأردف قائلًا:

- سنحتفل في المساء عند عودتي بنجاحنا على العشاء. أتمنّى لك نهارًا جميلًا.

بعد مغادرة السيّد باير، أنهت آنّا تناول قهوتها الدافئة وهي تشعر بالإحباط والسخط في آن. إذ يبدو الأمر وكأنّ الأحداث التي جرت خلال الأشهر القليلة الماضية كلّها تهيئ لهذه الأمسية. وبعد أن انتهى العرض، لم يتغير أيّ شيء. لم تكن واثقةً ممّا كانت تأمل أن يتغيّر، ولكنها لم تستطع كبح ذلك الإحساس المتنامي في داخلها الذي لا ينفكّ يردّد لها أن شيئًا يجب أن يتغيّر.

هل كان السيّد باير على علم بالحاجة الماسّة إلى مغنّية «خفيّة» عندما عثر عليها في الجبال في الصيف الماضي؟ أتراه أحضرها إلى المدينة لهذا السبب؟ كانت تدرك تمام الإدراك بأن جميع الحاضرين في المسرح تمنّوا لو أنها تختفي ليُسند صوتها إلى السيدة هانسون.

التقطت إحدى الصحف، وأشارت بأصبعها إلى المكان حيث ذُكر صوت الممثّلة «النقيّ» ومن ثمّ صرخت قائلة: «إنه صوتي! صوتي».

وارتمت على الكنبة تجهش بالبكاء كفرقعة سدّادة إحدى زجاجات الشمبانيا الفرنسيّة الخاصّة بالسيّد باير، ربما نتيجة الضغط الهائل الذي تعرّضت له مساء البارحة.

- ما الخطب يا حبيبتي آنّا؟

رفعت آنّا نظرها، ووجهها مبلّل بالدموع، ورأت الآنسة أولسداتر تدخل الغرفة بشكل غير متوقّع.

تمتمت وهي تسمح دموعها على عجل:

- لا شيء.

- لعلّك مُرهَقة ومُتعَبة من الحفل البارحة. ولا أظنك تعافيت كليًّا من الحمّى.

أجابت آنّا بحزم:

- لا، لا.... أنا بصحّة جيّدة، شكرًا لكِ.

- لعلّك اشتقتِ إلى أفراد أسرتك؟

- نعم، اشتقت إليهم. وإلى هواء الريف المنعش. أظنّ أنني أرغب في العودة إلى هيدال.

- إنني أفهمك تمامًا يا عزيزتي. فهذا حال كلّ من ينتقل من الريف للعيش في المدينة، حيث يكون وحيدًا.

سألتها آنّا:

- هل تشتاقين إلى أسرتك؟

- لم أعدْ أشعر بالشوق إليهم، لأنني تعوّدت على مرّ السنين العيش من دونهم. ولكن عندما انتقلت إلى المدينة للعيش، مررت بمرحلة مليئة بالشقاء. فقد عملت في بادئ الأمر لدى سيدة لئيمة كانت تعاملني والخادمات الأخريات معاملة أسوأ من معاملتها الكلاب. حاولت الفرار مرتين، وفي كلّ مرة كانوا يتمكّنون من العثور عليّ وإعادتي إليها. ومن ثمّ التقيت بالسيد باير الذي كان مدعوًّا للعشاء في منزل السيدة التي أعمل لديها. لعلّه شعر بشقائي، أو ربما كان بحاجة فعلًا إلى مدبّرة منزل، ولكن بصرف النظر عن السبب، عرض عليّ العمل في منزله في تلك الليلة. لم تمانع سيدة المنزل وأظنّ أنها كانت سعيدة بالتخلّص منّي. وأحضرني بعدها إلى هنا. وبغض النظر عن غرابة أطواره، عليك أن تكوني مطمئنة يا آنّا لأنه طيّب وصاحب أخلاق عالية.

- أعلم ذلك.

وشعرت آنّا فجأة بالذنب لأنها شعرت للحظات قليلة بالأسف على نفسها في حين كانت حياة الآنسة أولسداتر أكثر شقاءً من حياتها بكثير.

- لا أعلم إنْ كان كلامي سيريحك، ولكنني رأيت فتيات كثيرات أخذ السيّد باير على عاتقه رعايتهنّ، يدخلنَ من الباب الأماميّ للمنزل خلال سنوات خدمتي فيه. ولكنني لم أرَه متحمّسًا إلى هذا الحدّ إلّا لموهبتك. قال لي مساء البارحة إن الجميع انتشوا طربًا لدى سماعهم غناءك.

أجابت آنّا بصوت خافت:

- ولكن لا أحد يعلم أنني أنا صاحبة ذلك الصوت.

- ربّما ليس في الوقت الحاليّ، ولكنهم سيعلمون في يومٍ ما. ما زلت يافعة يا حبيبتي، ومحظوظة جدًّا لمشاركتك في عمل مماثل يبشّر بالخير. فقد استمتعت البارحة بصوتك الغنائيّ نخبة من أبرز الشخصيات في كريستيانيا. تحلّي بالصبر وثقي باللّه يرشدْك إلى قدرك. والآن، تأخّر الوقت وعليّ أن أذهب إلى السوق. هل ترغبين في مرافقتي لتنشّق بعض الهواء؟

أجابت آنّا وقد وثبت على قدميها:

- أجل، بكلّ سرور. وأشكرك على لطفك الفائق.



على بعد ميلين تقريبًا، كان جانس هالڤورسن مرتبكًا، يذرع أرض غرفته ذهابًا وأيابًا وهو يصغي إلى الأصوات المرتفعة التي كانت تتعالى منذ الصباح من الغرفة في الطابق السفليّ. فبعد أن تمكّن بمساعدة والدته من تضليل والده خلال الأسابيع القليلة الماضية، انكشفت خدعتهما هذا الصباح بينما كان والده يقرأ التقييمات النقديّة لبير جينت في الصحيفة، وهي تقييمات يرقص القلب لها فرحًا . فالناقد تفضّل بالإشارة إلى أنّ «لحن المزاج الصباحيّ» في بداية الفصل الرابع، هو بحسب رأيي، المعلم البارز في القطعة الموسيقيّة التي ألّفها غريغ، حيث عزف جانس هالڤورسن الموازين الافتتاحيّة المأثورة على الفلوت بشكل رائع.

بدت ملامح وجه والده أشبه بإبريق نحاسيّ وُضِع على الموقد وتُرك حتى يفور. وانفجر في وجه والدته قائلًا:

- لماذا لم يخبرني أحدكما بالأمر قبل الآن؟

أجابت مارغريت قائلة:

- لأنني اعتقدت أن الأمر ليس مهمًّا بالنسبة إليك. وأدرك جانس أن والدته كانت تهيئ نفسها لمواجهة ثورة غضب مريعة.

- اعتقدت أن الأمر ليس مهمًّا؟ أنا، الوالد، الذي كان يظن أن ابنه يدرس بجدّ في الجامعة، يكتشف عبر الصحيفة أنه يعمل بدوام جزئيّ عضوًا في الفرقة الموسيقيّة في كريستيانيا! أقلّ ما يمكن قوله هو أنّه تصرّف شائن!

- أقسم لك يا جوناس بأنه لم يتغيّب كثيرًا عن دروسه.

- اشرحي لي إذًا ما يقصده النقاد البارزون بوصفهم ما فعله السيد جوهان هانوم، قائد الفرقة الموسيقيّة في كريستيانيا، حيث صرف أشهرًا عدّة في جمع العازفين والتمرّن معهم، ليتمكّن من إنصاف المعزوفة الأوركسترالية المعقّدة التي ألّفها السيد غريغ. أتتوقّعين مني فعلًا أن أصدّق بأنّ ابننا، الذي ظهر اسمه في هذه الصحيفة نفسها، تعلّم عزف تلك المقطوعة من قبيل النزوة، بين ليلة وضحاها؟

هزّ جوناس رأسه بعنف وتابع:

- كنتما تظنّان أنني مجرّد مغفّل من الريف. من الأفضل لكما ألّا تتعاملا معي بهذه الطريقة أبدًا بعد اليوم.

التفتت مارغريت نحو جانس قائلة:

- أظنّ أنك لم تنجز واجباتك الدراسية. من الأفضل أن تصعد إلى غرفتك وتهتم بالأمر.

- حاضر يا أمّاه.

أومأ جانس برأسه لكلّ منهما، وغادر القاعة وقد اختلط في داخله إحساس بالذنب لتركه والدته وحيدة في مواجهة نوبة غضب والده وإحساس بالارتياح لكونه لم يعدْ مضطرًا لمواجهته بمفرده.

بينما كان يمشي جيئة وذهابًا في غرفته، وصوت والده المزمجر في وجه والدته يتردّد في أذنيه، رأى جانس أن حادثة الصحيفة كانت تنطوي على جانب إيجابيّ: إذ كان والده سيعلم لا محالة بالأنشطة التي يمارسها خارج السياق الدراسيّ في نهاية المطاف. وفي حين أنه شعر بشيء من الحزن لأن جوناس لم يستطع الاحتفاء بالثناء الذي حظي به ابنه بشكل خاص، إلا أنّه كان قادرًا على تفهّمه. فالموسيقيون في كريستيانيا لا يتمتعون بأي مكانة اجتماعيّة وأجورهم زهيدة جدًّا. ما يعني أنّ تلك المهنة لا تنطوي على أي ميزة يمكن لوالده أن يتغنّى بها. ناهيك بفكرة عزوف ابنه الوحيد عن استلام مكانه الطبيعيّ على رأس مؤسّسة هالفرسون لتصنيع الجعّة.

إلى جانب ذلك، لم يكن جانس مستعدًّا للسماح لوالده بإحباطه أو إرغامه على التخلي عن السعادة الغامرة التي كان يشعر بها. إذ استطاع من خلال تلك الفرصة

التي أتيحت له للانضمام إلى الفرقة الموسيقيّة في إيجاد طريقه للمستقبل بحيث شعر للمرة الأولى في حياته بالرضا. كما وجد في المودّة الصادقة التي أظهرها له الموسيقيون الآخرون، وحسّهم الفكاهيّ ومهاراتهم العالية في شرب الكحول التي كانوا يستعرضونها كلّ مساء عندما يجتمعون سويًّا في مقهى إينغبريت بعد انتهاء التمارين، عالمًا يوفّر له كل ما يحتاج إليه من الراحة. ناهيك بتعامل الممثلات الشابات اللواتي وقع الاختيار عليهنّ للمشاركة في العرض المسرحيّ، معه بلطف فائق..

ففي اللية الفائتة، نفّذ السيد هانوم ما طلبه جانس منه وعرّفه إلى السيدة هانسون. ومع مشارفة الاحتفالات بالعرض الأوّل على الانتهاء، لاحظ نظراتها المصوّبة نحوه، وعرض عليها مرافقتها إلى منزلها حرصًا على سلامتها. ولا ريب في أنّ الاستراحة كانت ممتعة بالفعل، بحيث أثبتت ثورا مدى خبرتها وشراهتها ولم يستطع جانس مغادرة سريرها إلا مع انبلاج ساعات الفجر الأولى من ذلك النهار الثلجيّ. عليه أن يفكّر في الغد بحيلة ملائمة للتخلص من تلك العلاقة العابرة التي أقامها مع فتاة الكورس الفاتنة هايلد أوميك. إذ لا يجوز أن تلتقط آذان السيدة هانسون أي شائعات عن تصرفاته العابثة في المسرح. وفي مطلق الأحوال، من المرتقب أن تدخل هايلد القفص الذهبيّ في غضون أسبوع..

سمع طرقًا على بابه فسارع إلى فتحه.

بدت والدته شاحبة الوجه وتقاسيم وجهها متشنّجة.

- بذلت قصارى جهدي يا جانس، ولكن والدك يريد رؤيتك في الحال.

- شكرًا يا أماه.

- سنتحدث مطوّلًا بعد مغادرته إلى مصنع الجعة.

وربتت كتفه قبل أن يتوجّه جانس إلى الأسفل حيث أبلغته دورا أن والده ينتظره في غرفة الجلوس.

تنهّد جانس وقد أدرك بأن كلّ المسائل الجدية المتعلّقة بأسرة هالفرسون تُعالج في غرف الجلوس ذات الطابع البارد والقاسي، تمامًا مثل والده. فتح الباب ودخل الغرفة. لم تكن النار مشتعلة كالعادة في الموقد، فيما الضوء الأبيض الصارخ المنعكس من الثلج المتراكم في الخارج يتسلّل عبر النوافذ الكبيرة.

كان والده يقف قرب إحدى النوافذ، فاستدار لدى دخول جانس الغرفة قائلًا له:

- اجلس. واشار بإصبعه إلى أحد المقاعد. نفذ جانس ما طلبه منه، محاولًا أن يضبط تعابير وجهه ليرتسم عليها مزيجٌ مؤاتٍ من مشاعر الندم والتمرّد.

جلس جوناس قبالة ابنه على كرسي جلديّ ضخم عالي الظهر وبدأ كلامه قائلًا:

- أود في البداية أن أقول لك إنني لا ألومك مطلقًا. فالذنب ذنب والدتك لأنها شجّعتك على هذه الفكرة السخيفة. لكنّك ستبلغ سنّ الرشد في شهر تموز يا جانس، وتصبح شخصًا بالغًا وقادرًا على اتخاذ قرارتك بنفسك. وعليك أن تتخذ قرارًا بالتحرّر من الأفكار التي تملأ والدتك رأسك بها.

- حاضر سيدي.

وتابع جوناس كلامه:

- سيبقى الوضع على ما هو عليه. وستستلم وظيفتك في مصنع الجعّة بعد إنهائك دراستك في فصل الصيف. عليك أن تتعلّم أصول العمل لتصبح المؤسسة يومًا ما ملكًا لك. فأنت تمثّل الجيل الخامس من آل هالڤورسن الذي سيتولى إدارة الأعمال التي أسّسها جدي الأكبر. أكّدت لي والدتك أن التمارين مع الفرقة الموسيقيّة لم تؤثّر في دروسك، مع أنني أشكّ بذلك شخصيًّا. ما رأيك أيها الشاب؟

اضطر جانس للكذب على والده قائلًا:

- والدتي محقّة. لم أتغيّب سوى عن بضع محاضرات.

- مع أنني أتمنّى لو كان بإمكاني تغيير مسار الأمور، ولكنّني أخشى على سمعة العائلة إذا ما انسحبت الآن من الفرقة الموسيقيّة، لاسيما وأنك التزمت مع السيد هانوم. ما يعني أنّنا أمام أمر واقع. اتّفقت مع والدتك على أن تستمر في العزف حتى انتهاء عرض بير جينت في أواخر الشهر المقبل. خلال هذا الوقت، أتوقّع منك أن تتقبّل ما هو مقدّر لك في المستقبل.

- نعم سيدي.

راقب جانس والده وقد توقّف عن الكلام ليمارس عادة طقطقة الأصابع التي كانت تثير عصبية جانس إلى درجة تفوق التصوّر.

- حسنًا، ها نحن ذا. بعد انتهاء هذه البدعة، أحذّرك بأنها المرّة الأخيرة التي أسامحك فيها على تصرّف من هذا النوع. في حال كنت ترغب في امتهان الموسيقا واحترافها، سأجد نفسي مرغمًا على حرمانك من المال وطردك من هذا المنزل على الفور. فرجال آل هالڤورسن لم يتعبوا ويجدّوا في العمل على مدى أكثر من مئة وخمسين سنة ليروا وريثهم الوحيد يتخلّى عن إرثهم من أجل العزف على الآلات الموسيقيّة.

عقد جانس العزم على ألّا يمنح والده متعة رؤية أمارات الذهول على وجهه.

- نعم سيدي، أتفهّم ذلك.

- عليّ أن أذهب إلى المصنع. لقد تأخرت ساعة عن العمل ومن المفترض بي أن أكون قدوة للموظّفين الآخرين، وأتوقّع منك أن تحذو حذوي عند انضمامك إلى العمل معنا. طاب نهارك يا جانس.

أومأ والده له برأسه وغادر المكان تاركًا جانس وحيدًا يفكّر في مستقبله. وإذ شعر بنفسه عاجزًا عن مواجهة والدته، أو حتى أي شخص آخر، أخذ زلاجته من الرواق، وارتدى سترته المصنوعة من الفرو، واعتمر قبعته ووضع قفّازيه في يديه، وغادر المنزل بحثًا عن مكان ينفّس فيه عن سخطه.



الشقّة 4

10 بوّابة سانت أولاف

كريستيانيا

10 آذار 1876

عزيزي لارس،

أمي، أبي، وكنوت،

أشكرك على رسالتك الأخيرة حيث أبلغتني أنّ أسلوبي الإملائيّ قد تحسّن. لستُ واثقة من ذلك، ولكنني أبذل قصارى جهدي. مضى أسبوعان منذ افتتاح

العرض المسرحيّ بير جينت على مسرح كريستيانيا (على الرغم من أنني لم أقف عليه). يقول لي السيّد باير إن الجميع في المدينة يتحدّثون عن العرض والقاعة أو «الدار» كما يسمونها هنا، المحجوزة بالكامل طوال فترة عرض العمل المسرحيّ. وسمعتهم يتحدّثون عن إمكانية تمديد فترة العرض نظرًا للإقبال الشديد.

الحياة هنا تسير بشكل طبيعيّ باستثناء أن السيّد باير يرغمني على تعلّم بعض الأغاني من الأوبرا الإيطالية التي أجدها في غاية الصعوبة. فقد استخدم مغنيًّا أوبراليًّا محترفًا يُدعى غونتار ليعطيني دروسًا فيها مرة في الأسبوع. إنه ألماني الجنسية ولا أفهم شيئًا ممّا يقوله بسبب لكنته الغريبة. كما تفوح منه رائحة ملابس غير مغسولة ويستخدم العطوس بشكل دائم، الذي غالبًا ما يتقطّر من أنفه ويستقر على شفته العليا. إنه مسنٌّ ونحيلٌ جدًّا، وأنا أشعر بالشفقة عليه.

لست واثقة ممّا سأفعله بعد انتهاء عرض العمل المسرحيّ بير جينت، باستثناء ما أفعله هنا كل يوم، أي تعلّم الغناء بشكل أفضل والمكوث في المنزل وتناول السمك. يبدأ موسم الأعمال المسرحية بعد عيد الفصح ويُقال إنّ من الممكن إعادة عرض بير جينت في المستقبل. أظنّك ستفرح حين تفرح بأنّه تسري بعض الشائعات عن إمكانية حضور السيد إيبسن من إيطاليا لمشاهدة العرض.

أرجو منك أن تشكر والدتي على السترات الجديدة التي حاكتها لي. فهي مفيدة جدًّا في هذا الشتاء الطويل. إنّني أتحرّق شوقًا للطقس الدافئ، وآمل أن أتمكّن من العودة إلى المنزل في أقرب فرصة ممكنة.

آنّا

طوت آنّا الرسالة وختمتها وهي تتنهّد. كانت تفترض أنّ عائلتها تنتظر بفارغ الصبر سماع ما لديها من أخبار عن المسرح، ولكنّ أخبارها لم تكن ذات أهمية. من أين لها أن تأتي بالأخبار الجديدة، وهي لا تغادر المنزل إلا لتتوجّه في المساء إلى المسرح وتعود منه على عجل؟

توجّهت إلى النافذة ورفعت نظرها إلى السماء مستمتعة بضوء النهار على الرغم من أنّ الساعة قاربت الرابعة من بعد الظهر. قريبًا يحلّ فصل الربيع ومن

ثمّ يليه فصل الصيف.. أسندت آنّا جبينها إلى اللوح البارد الذي يفصل بينها وبين الهواء المنعش. فالتفكير في إمكانية إمضاء الأشهر الدافئة من السنة مسجونةً في هذا المكان بعيدًا عن قريتها وروزا، كان يفوق قدرتها على التحمّل.



وصل رود بسرعة إلى المكان الذي تجلس فيه الفرقة الموسيقية لإنجاز مَهمّته المسائيّة.

قال له جانس:

- مرحبًا يا رود. كيف حالك اليوم؟

- إنني بخير سيّدي. أتريدني أن أسلّم أيّ كتاب أو رسالة؟

- أجل. تفضّل.

ومال قليلًا ليتسنّى له أن يهمس في أذن الصبي قائلًا:

- سلّم هذه الرسالة للسيدة هانسون. ودسّ في يده الصغيرة قطعة نقود ورسالة.

- شكرًا سيّدي. سأفعل.

- هذا جيّد.

وأردف جانس بينما كان رود يهمّ بالمغادرة:

- بالمناسبة، من هي تلك الشابة التي كانت برفقتك أثناء خروجك من باب المسرح الخلفيّ مساء البارحة؟ أهي حبيبتك؟

- صحيح أنها بنفس طولي، ولكنها في الثامنة عشرة من عمرها. وأظنّها مسنّة لفتى في الثانية عشرة من العمر مثلي.

وأضاف بجدية:

- إنها آنّا لاندفيك، إحدى المشاركات في العرض المسرحيّ.

- حقًّا؟ لم أتمكّن من التعرّف إليها، كانت الظلمة حالكة ولم أرَ سوى شعرها الطويل الأحمر.

- ولكنها لا تظهر على المسرح وتقتصر مشاركتها على مستوى الإعداد.

وتلفّت يمينًا ويسارًا بطريقة دراماتيكيّة، ومن ثمّ أشار إلى جانس ليقترب منه أكثر وهمس في أذنه قائلًا:

- إنها صوت سولفيج.

أومأ جانس برأسه وأجابه بنبرة جدية:

- فهمت. إذ لم يكن يخفى على أحد أنّ السيدة هانسون ليست صاحبة الصوت الغنائيّ؛ ولكنّ الجميع كانوا يدّعون العكس أمام العالم الخارجيّ.

- الآنسة جميلة جدًّا، أليس كذلك سيّدي؟

- لا ريب في أن شعرها جميل فعلًا. فهذا كلّ ما رأيته من الخلف.

- أشعر بالأسف نحوها، لأنهم لا يريدون لأحد أن يعلم أنّها صاحبة الصوت الجميل. كما أنّهم خصّصوا مكانًا لها في غرفة تبديل الخاصة بنا، نحن الأطفال.

وتابع رود بينما كان الجرس يرنّ مشيرًا إلى أن العرض سيبدأ بعد خمس دقائق:

- حسنًا، سأحرص على إيصال الرسالة بسلامة.

دسّ جانس قطعة نقود أخرى في يد الصبي قائلًا:

- حاولْ أن تؤخّر موعد خروج الآنسة لاندفيك من باب المسرح هذا المساء، لأتمكّن من إلقاء نظرة عن كثب على مغنّيتنا المجهولة.

- أظنّ أنّ بإمكاني القيام بذلك سيدي.

وهرع رود مسرعًا مثل فأر هائم في المدينة، وقد بدت عليه علامات الرضا من المكسب الذي حقّقه هذا المساء.

- يبدو أنك عدت تمارس ألاعيبك، أليس كذلك يا بير؟

لم يكن سيمين، عازف الكمان الأوّل، أصمّ بالقدر الذي يبدو عليه ولا بدّ من أنه سمع أطراف الحديث. فقد أصبح جميع الحاضرين في المكان المخصّص للفرقة الموسيقيّة يتبادلون النكات حول طرائف جانس مع المشاركين في العمل المسرحي من الإناث ومدى تشابهها مع طرائف بطل المسرحية التي سُميت على اسمه.

تمتم جانس قائلًا وقد رأى هانوم يصل إلى المكان المخصّص للفرقة الموسيقيّة:

- هذا بعيد الاحتمال. وفي حين أن اللقب الذي أُطلق عليه كان في بادئ الأمر مصدر تسلية له، إلا أنه ما لبث أن فقد بريقه.

- أظنك تدرك مدى إخلاصي للسيدة هانسون.

- لعلني أفرطت في شرب البورتو، ولكنني واثق من أنني رأيتك مساء البارحة تغادر مقهى إينغبريت برفقة جوريد سكروفسيت.

- أنا واثق من أن تأثير البورتو كان قويًا.

ورفع جانس الفلوت إلى شفتيه فيما كان هانوم يشير إليهم بالاستعداد للبدء.

بعد انتهاء العرض في ذلك المساء، خرج جانس من باب المسرح الخلفيّ، حيث بقي يتسكّع منتظرًا خروج رود برفقة الفتاة الغامضة. فقد كان متعوّدًا على التوجّه مباشرة إلى مقهى إينغبريت لينتظر ثورا ريثما تنتهي من الترحيب بمعجبيها وتبديل ملابسها في غرفة تبديل الملابس. وبعد أن تصعد إلى عربتها بمفردها، تقلّه معها على بعد بضعة أمتار عند آخر الطريق، آملة ألا يراهما أحد معًا.

كان جانس يدرك بأن منزلته المتواضعة بصفته عازفًا موسيقيًا جعلتها ترفض، بشكل قاطع، أن يرافقها أثناء تجولها في المدينة. ما عزّز لديه الإحساس بأنه أشبه بعاهرة رخيصة يحتاج الجميع إلى خدماتها الجسديّة، ولكنها لا تصلح أبدًا للخروج معها في العلن. غير أنّ ذلك مثير للسخرية تمامًا، لاسيما وأنه يتحدّر من إحدى العائلات المحترمة في كريستيانيا ويعتبر الوريث الوحيد لإمبراطورية هالفرسون لصناعة الجعّة. غالبًا ما كانت ثورا تردّد على مسمعه أنها لا تعاشر إلا الشخصيات البارزة في أوروبا، وأن إيبسن مغرم به ويناديها بملهمته. ووجد جانس نفسه مرغمًا على تحمّل تصرّفاتها المغرورة لأنها كانت تعوّض عليه خلف جدران غرفة نومها، عن كلّ الإذلال الذي يعاني منه. ولكن جانس لم يعدْ الآن قادرًا على تحمّل مزيدٍ من الإذلال.

رأى في نهاية المطاف طيفين يخرجان من باب المسرح الخلفيّ. توقفا لبضع ثوانٍ عند العتبة، والضوء الساطع من مصباح الغاز الموضوع في الرواق الخلفيّ ينير

وجهيهما، فيما كان رود ينبّه الآنسة الشابة إلى شيء ما. فراح جانس يحدق إليها خلسة من تحت غطاء رأسه.

كانت الفتاة في غاية الرقّة، عيناها الزرقاوان ساحرتان، وأنفها صغير ومستدق، وشفتاها زهريتان بلون البراعم، ووجهها صغير على شكل قلب يتوّجه شعر برتقالي مائل للبني ينسدل بشكل متموّج على كتفيها. لم تكن تشبه أي فتاة قابلها من قبل، ما أثار لدى جانس رغبة في البكاء لدى رؤيتها. فهي أشبه بنسمة من هواء الجبال النقي بحيث تبدو أمامها كلّ النساء الأخريات دمى من الخشب المزخرف والمزيّن.

تسمّر في مكانه منتشيًا وهو يسمعها تقول برقّة لرود:

- تصبح على خير. قبل أن تمر من أمامه وتصعد إلى العربة التي كانت تنتظرها.

- هل رأيتها سيّدي؟

بعد انطلاق العربة التي كانت تقلّ آنًا، رصدت عينا رود الثاقبتين جانس الواقف في الظلمة.

- فعلت ما بوسعي، ولكنّني لم أتمكّن من إبقائها لوقت أطول. فوالدتي تنتظرني في غرفة تبديل الملابس. قلت لها إنّ عليّ تسليم رسالة للبواب.

- نعم. هل تغادر المسرح دائمًا فور انتهاء العرض؟

- في كلّ ليلة سيّدي.

- عليّ أن أجد طريقة لأتمكّن من مقابلتها.

- أتمنّى لك حظًا سعيدًا سيّدي، ولكنْ عليّ أن أنصرف الآن.

بقي رود واقفًا في مكانه إلى أن وضع جانس يده في جيبه وأخرج منها قطعة نقدية أخرى وأعطاه إياها.

- شكرًا لك. تصبح على خير، سيّدي.

توجّه جانس إلى مقهى إنغبريت وطلب لنفسه شرابًا اسكندنافيًا مسكرًا، ومن ثمّ جلس على الكرسيّ أمام المشرب يحدّق إلى الفضاء.

سأله إينار، عازف الصنج، الذي انضم، إليه على المشرب:

- هل أنت بخير يا فتى؟ تبدو شاحبًا. أتريد كأسًا أخرى؟

كان جانس من أشد المعجبين بإينار لما يتحلّى به من قدرة مميّزة على مغادرة مكانه في الفرقة الموسيقيّة في منتصف العرض وهو يعدّ ضربات الإيقاع، ليتوجّه إلى مقهى إنغبريت حيث يحتسي كأسًا من الجعّة، مع الاستمرار بالعدّ. ومن ثم يعود إلى مكانه قبل أن يحين دوره ليضرب على الصنج. كان أعضاء الفرقة جميعهم يترقبون الليلة التي سيتأخر فيها إينار في العودة إلى مكانه، إلا أنه لم يفعل على مدى أكثر من عشر سنوات.

- أجب على السؤالين.

ورفع جانس كأسه إلى شفتيه وارتشف محتواها كلّه دفعة واحدة. وبعد أن زُوّد بكأس أخرى، راح يتساءل في سره إنْ أصابه داء ما، لاسيما وأن الاضطراب لم يفارقه منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناه على آنّا لاندفيك. وأدرك في تلك اللحظة بأنّ السيدة هانسون ستعود إلى شقّتها بمفردها، أقلّه في تلك الليلة .

19

- آنسة آنّا، أحمل رسالة لك.

رفعت آنّا عينيها عن أوراق اللعب لتنظر إلى رود الذي كان يبتسم ابتسامة عريضة ثم ناولها بسريّة ورقة مطويّة. كانا في غرفة ملابس الأولاد غارقين بصخب الاستعدادات لعرض هذا المساء.

كانت على وشك أن تفتح الورقة حين همس لها رود:

- ليس هنا. قيل لي إنّ عليك أن تقرأيها حين تكونين وحدك.

شعرت آنّا بالارتباك والتشوّش وسألته:

- من طلب منك ذلك؟

بدا رود غامضًا بما يتناسب مع الوضع وهزّ رأسه قبل أن يجيبها:

- ليس من حقيّ أن أقول. فأنا مجرّد رسول.

- لمَ قد يرغب أحدهم في أن يكتب لي رسالة؟

- عليك أن تقرئيها لتكتشفي ذلك.

عبست آنّا في وجهه بقدر ما استطاعت من الصرامة وطالبته:

- أخبرني.

- لن أخبرك.

- إذًا، لن أستمر في لعب الورق معك.

- لا يهمّ، فعليّ في أيّ حال أن أرتدي زيّ المسرحية.

وهزّ الفتى كتفيه باستخفاف ثم وقف وترك الطاولة.

أرادت أن تضحك من سلوك رود الغريب. إنه مشاكس صغير، يبحث دائمًا عن

تسليم رسالة أو مدّ يد المساعدة لقاء قطعة نقديّة أو بعض الشوكولا. خطر لها أنه سيصبح مفاوضًا ناجحًا، أو ربّما جاسوسًا، عندما يكبر لأنه منبع الثرثرات والشائعات كلها في المسرح. أدركت أنّه يعرف جيّدًا هويّة مرسل هذه الرسالة الغامضة ولعلّه قرأ أيضًا محتواها، نظرًا للبصمات القذرة التي خلّفها حول الختم المكسور. دسّت الرسالة في جيب تنورتها بعد أن قررت أن تقرأها عندما تكون وحدها في سريرها هذا المساء ثم وقفت وذهبت لتستعد لعرض الليلة.

مسرح كريستيانيا

15 آذار *1876*

عزيزتي الآنسة لاندفيك،

اعذريني على هذه الرسالة الجريئة وعلى الطريقة التي أُرسلت بها، لأننا لم نتقابل ولم أتعرّف إليك شخصيًا. والحقيقة هي أنني ومنذ سمعتك تغنّين للمرّة الأولى، ليلة التجارب النهائية، فُتنت بصوتك. ومن ذاك الحين، وفي كل ليلة، كنت أستمع إليك بنشوة وطرب. فهل من الممكن أن نلتقي في الغد عند باب المسرح قبل بدء العرض- لنقل عند السابعة والربع- بحيث يمكن أن نتعارف رسميًا؟

أرجوك أن تحضري.

مع احترامي وتقديري الصادقَين

مُعجَب.

بعد أن قرأت الرسالة مجدّدًا، وخبّأتها في درج سريرها، خمّنت آنا أنّ من كتبها رجل، فسيكون من المُستغرَب أن تكتب امرأة مثل هذا الكلام. أخفضت ضوء قنديل الزيت واستعدّت للنوم، بعد أن توصّلت إلى استنتاج بأنّ كاتب الرسالة هو على الأرجح رجل مسنّ، مثل السيّد باير... ما يشكّل سيناريو بعيدًا كل البعد عن الإثارة.



سألها رود بوجه هو مثال للبراءة:

- هل ستلتقينه الليلة؟

- من؟

- تعلمين من؟

- لا، لا أعلم. أنّى لك أن تعرف حتى أني مدعوّة للقاء أحدهم؟

استمتعت آنّا برؤية الانزعاج على وجهه وقد أدرك أنه أقرّ بفعلته عن غير انتباه. أردفت قائلة:

- أقسم لك الآن أنّي لن ألعب معك مجدّدًا أيّ لعبة بالورق، سواء لقاء مال أو حلويات، إن لم تخبرني اسم كاتب الرسالة.

- لا أستطيع يا آنسة آنّا. سامحيني.

ورفع رأسه وراح يهزّه قبل أن يضيف:

- المسألة ستكلّفني كثيرًا. أقسمت لمرسل الرسالة أنّي لن أبوح باسمه.

- حسنًا، إنْ كنت لا تستطيع أن تطلعني على اسم هذا الشخص، فلعلّك تستطيع، على الأقل، أن تجيب على بعض الأسئلة «بنعم» أم «لا»؟

وافق قائلًا:

- هذا ممكن.

- هل من كتب الرسالة هو رجل؟

- نعم.

- هل هو دون الخمسين من العمر؟

- نعم.

- دون الأربعين؟

- نعم.

- دون الثلاثين؟

- لا أستطيع أن أجزم بشأن عمره يا آنسة آنّا، لكنّني أعتقد ذلك.

وخطر لها أنّ هذا أمر حسن على الأقل، ثم تابعت تسأله:

- هل هو من الجمهور الذي يحضر بانتظام؟

- لا... حسنًا، في الواقع...

وحكّ رود رأسه قبل أن يضيف:

- نعم، بطريقة ما. على الأقل، هو يسمعك تغنين كل ليلة.

- إذًا، هو عضو في الفرقة؟

- نعم، لكن بطريقة مختلفة.

- هل هو موسيقي يا رود؟

- آنسة آنّا، أشعر أني تورّطت.

وتنهّد رود تنهيدة يأس دراميّة قبل أن يضيف:

- لا أستطيع أن أقول أكثر.

قالت آنّا التي شعرت بالرضا والسرور لنجاح استجوابها:

- حسنًا، أتفهّمك.

والتفتت إلى الساعة القديمة المعلّقة على الحائط والتي لا يمكن الاعتماد عليها، ثم سألت إحدى الأمهات التي جلست في إحدى الزوايا تطرّز بهدوء عن الساعة بحسب تقديرها.

- أعتقد أنها قرابة السابعة يا آنسة لاندفيك. كنت للتو في الممر وقد صادف وصول السيد جوزفسن.

وتابعت تقول:

- إنه دقيق دائمًا في مواعيده.

- شكرًا لكِ.

نظرت مجدّدًا إلى الساعة على الحائط، وقد شعرت بالارتياح لأنها دقيقة نسبيًا

الليلة. هل عليها أن تذهب؟ في النهاية، إن كان هذا الرجل دون الثلاثين من عمره، فلعلّه يريد لقاءها لأسباب غير لائقة وليس بدافع الإعجاب الصادق بصوتها. واحمرّت آنّا رغمًا عنها. فكرة أنّ هذا السلوك قد يكون غير مناسب وغير لائق- وأنّ صاحب الرسالة قد يكون شابًّا نسبيًّا- أثارتها أكثر مما ينبغي.

مرّت الثواني على الساعة ببطء شديد كما لو أنها تنازع. وعند الساعة السابعة وثلاث عشرة دقيقة، قررت أن تذهب. وعند السابعة وأربع عشرة دقيقة، قررت أنها لن تذهب...

وعند الساعة السابعة وخمس عشرة دقيقة بالتحديد، وجدت نفسها تقطع الممر وتتوجّه نحو باب المسرح لتجد المكان خاليًا تمامًا.

فتح هالبرت البوّاب نافذة مقصورته ليسألها عمّا تريد. هزّت رأسها واستدارت لتعود أدراجها إلى غرفة الملابس حين لفحتها الرياح الباردة بعد أن فُتح باب المسرح خلفها. وما هي إلا ثوانٍ حتى شعرت بيد توضع بلطف على كتفها.

- آنسة لاندفيك.

- نعم.

- سامحيني لأني تأخّرت بضع ثوانٍ.

التفتت آنّا ووجدت نفسها تحدّق إلى أعماق العينين العسليّتين لصاحب الصوت. اعتُصرت معدتها بشكل قويّ وغريب، كما تفعل قبل أن تغني. وبينما كان هالبرت يجلس في مكانه المعتاد، ينظر إليهما وكأنهما أبلهان، راحا يتبادلان النظرات.

بدا الشاب الذي وقف أمام آنّا في مثل سنّها تقريبًا، وكان وجهه وسيمًا فعلًا يكلّله شعر بنيّ اللون تجعّد فوق ياقته البيضاء. لم يكن طويل القامة، لكنّ كتفيه العريضتين منحتاه مظهرًا رجوليًّا. شعرت آنّا فجأة وكأنّ كلّ ما فيها- جسديًّا، وفكريًّا وعاطفيًّا- يُستنزف منها ويُصبّ في ذاك الكائن الحيّ الآخر الذي لا تعرفه. كان أغرب إحساس، ما جعلها تترنّح قليلًا.

- هل أنتِ بخير يا آنسة لاندفيك؟ تبدين شاحبة وكأنكِ رأيتِ شبحًا.

- نعم، أنا بأتمّ خير، شكرًا لك. شعرتُ بضعف بسيط، هذا كل ما في الأمر.

قُرع الجرس في إشارة إلى الدقائق العشر المتبقيّة أمام الممثلين والأوركسترا قبل رفع الستارة. همس بأنفاس متقطّعة وهو يرى هالبرت يحدّق إليهما باهتمام من فوق نظارته:

- أرجوك، ليس لدينا وقت طويل. دعينا نتحدّثْ على انفراد في الخارج، حيث تستطيعين على الأقل أن تتنشقّي بعض الهواء النقيّ.

وضع جانس ذراعه حول كتفيها ولاحظ كيف اندسّ رأسها بشكل مثالي في كتفه، ثم فتح باب المسرح وقادها بلطف إلى الخارج. إنها صغيرة جدًا وكاملة للغاية وفائقة الأنوثة إلى حدّ جعله يشعر على الفور بالحاجة إلى حمايتها، بينما هي تستند إليه قليلًا، وكأن هذا هو السلوك الأكثر طبيعيّة في العالم.

وقفت آنّا إلى جانبه على الرصيف بينما كانت ذراع الشاب لا تزال تحيط بكتفيها وأخذت بضع أنفاس عميقة من هواء الليل البارد.

- لمَ أردت رؤيتي؟

طرحت عليه هذا السؤال بعد أن تمالكت نفسها وأدركت أنّ من غير اللائق أن تكون على هذا القدر من القرب الجسديّ من رجل غريب تمامًا. لكن لو شاءت أن تكون صادقة مع نفسها لاعترفت بأنها لم تشعر أنّه غريب مطلقًا...

- سأكون صريحًا معك وأقول إني لست واثقًا تمامًا. في البدء، سحرني صوتك. بعدئذ، دفعت المال لرود ليحرص على إبقائك قليلًا خارج باب المسرح بحيث أستطيع أن أنظر إليك خلسةً... آنسة لاندفيك، عليّ أن أذهب الآن وإلا فسينتزع السيد هانوم أحشائي على الأرجح، لكن متى أستطيع أن أراكِ مجدّدًا؟

- لا أعلم.

- الليلة، بعد العرض؟

- لا فالسيّد باير يرسل العربة لتنتظرني وأغادر المسرح على الفور.

- خلال النهار؟

- لا.

ووضعت يدًا على وجهها، وقد احمرّت وجنتاها على الرغم من برد المساء قبل أن تردف:

- لا أستطيع أن أفكّر. كما أنّ..

- ماذا؟

- هذا غير لائق. لو علم السيّد باير بلقائنا، فسوف...

وقُرع جرس الدقائق التنبيهيّة الخمس الأخيرة قبل بدء العرض.

توسّل إليها جانس قائلًا:

- أتوسّل إليك أن تلاقيني هنا غدًا عند الساعة السادسة. أخبري السيّد باير أنه تم استدعاؤك في وقت أبكر من المعتاد من أجل التمارين.

- عليّ... عليّ أن أتمنّى لك ليلة سعيدة.

أدارت له آنّا ظهرها وبدأت تسير عائدة نحو باب المسرح. فتحته وشرعت تجتازه، وبينما هو يُغلق خلفها، شاهد أصابعها الصغيرة تمسك بحافّة الباب وتدفعه ليُفتح من جديد.

- هل لي أن أعرف على الأقل اسمك يا سيدي؟

- سامحيني. اسمي جانس. جانس هالڤورسن.

رجعت آنّا إلى غرفة الملابس وهي في حالة ذهول، وجلست لتتمالك نفسها. وبعد أن تماسكت، قررت أنّ عليها أن تجمع كل ما يمكن من معلومات عن جانس هالڤورسن قبل أن تورّط نفسها بأيّ لقاءات أخرى.

في تلك الليلة، وأثناء العرض، سألت كل شخص تثق به وحتى أولئك الذين لا تثق بهم، عما يعرفونه عنه.

وعرفت حتى الآن أنّه يعزف على الكمان والفلوت ضمن الأوركسترا، وأنّ سمعته مع النساء في المسرح سيئة. وهي سيئة إلى حدّ أن الأوركسترا منحته على ما يبدو لقب «بير» نظرًا للشبه بينه وبين سلوك الممثّل «بير» فاتن النساء.

وأكّدت إحدى الفتيات في الجوقة أنه شوهد مع كل من هيلد أومفيك وجوريد سكروفست. ولعلّ الأسوأ من هذا كلّه هو الشائعة التي تقول إنّه عشيق السيدة هانسون السريّ.

عندما وقفت إلى جانب المسرح لتغني «أغنية المهد»، كانت مشوّشة إلى حدّ جعلها تصمت لفترة أطول من المعتاد عند إحدى النوتات الموسيقيّة ما جعل السيدة هانسون تطبق فمها قبل الوقت اللازم بنغمتين. لم تجرؤ على النظر إلى حفرة الأوركسترا لئلا تقع عيناها عليه.

في تلك الليلة، قالت آنّا لنفسها بتصميم وهي تطفئ قنديل الزيت الموضوع إلى جانب سريرها: «لن أفكر فيه. فمن الواضح أنه رجل مخيف ومتحجّر القلب».

وأضافت بينما هي تتمنّى لو أنّ أخبار سلوكياته لا تثيرها وتشوّقها: «كما أنني ملتزمة بوعد بالزواج».

في اليوم التالي، اضطرّت لأن تستعين بكل إرادتها لئلّا تطلب العربة في وقت مبكر وتخبر السيّد باير بأنّ لديها تمارين إضافيّة. وعند وصولها إلى المسرح في موعدها المعتاد عند السادسة وخمس وأربعين دقيقة، رأت آنّا الرصيف أمام باب المسرح خاليًا. ووبّخت نفسها بقسوة بسبب موجة خيبة الأمل التي اجتاحتها.

عندما دخلت إلى غرفة الملابس، حيّتها مجموعة الأمهات المعتادة اللواتي جلسن يطرّزنَ في إحدى الزوايا، والأطفال الذين ركضوا نحوها ليروا إنْ أحضرت لهم شيئًا جديدًا يلهون به. ولد واحد بقي في الخلف ولاحظت بينما هي تعانق الجميع، عينيّ رود الحزينتين على غير عادتهما من فوق رؤوس الآخرين. تم استدعاء الممثّلين لبدء المسرحيّة، فغادر رود غرفة الملابس ليأخذ مكانه على المسرح للافتتاح بعد أن رمقها بنظرة أسف أخيرة. وأثناء الفاصل، استطاع أن يختلي بها.

أخبرني صديقي أنك لم تلتقيه الليلة. كان حزينًا جدًّا، وأرسل لك رسالة ثانية.

وناولها رسالة مختومة فأبعدتها آنّا قائلة:

- أرجوك أن تخبره بأنّني لست مهتمّة.

- لماذا؟

- لست مهتمة يا رود، وهذا كل ما في الأمر.

أصرّ قائلًا:

- لكن يا آنسة آنّا، الليلة رأيت البؤس في عينيه بعد أن انتظرك ولم تأتِ».

- رود، أنت فتى موهوب جدًّا كممثّل، وفي الحصول على المال من البالغين أيضًا. لكنّ هناك أمورًا لم تفهمْها بعدُ...

وفتحت آنّا الباب وغادرت غرفة الملابس، لكنه تبعها بإصرار وسألها:

- مثل ماذا؟

ردّت بنفاد صبر بينما هي تتابع طريقها نحو الأجنحة:

- أمور تخصّ الراشدين.

لم يكن عليها أن تغنّي بعد، لكنّها أرادت أن تفرّ من استجواب الفتى المتواصل.

- إنّني أعرف بأمور الراشدين يا آنسة آنّا. وأدرك ما هي الشائعات والثرثرات التي سمعتها منذ أن عرفت من هو الشخص المعجب بك.

- إذًا، ما دمت تعرف كل شيء عنه، لمَ تستمر في استعطافي لأقابله؟

والتفتت إلى رود وأوقفت تقدّمه خلفها قبل أن تردف:

- إنّ سمعته مشينة! كما أنّ لديّ شابًا آخر، وذات يوم..

وأدارت له آنّا ظهرها وتابعت طريقها نحو الأجنحة وهي تضيف:

- سوف نتزوّج.

- أنا سعيد من أجلك، لكن السيّد المعني نواياه نبيلة تجاهك، أقسم لك.

- آه، بالله عليك يا فتى! دعني وشأني!

- سأفعل، لكنْ عليك أن تقابليه يا آنسة آنّا. العمل هو العمل كما يمكن لك أن تدركي، لكنّ ما أخبرتك به للتو هو مجانيّ. خذي، اقرئي رسالته على الأقل.

وقبل أن تتمكّن من الاعتراض، دسّ قصاصة الورق في يدّ آنّا ثم هرول مبتعدًا عنها في الممر. وقفت في أحد كواليس المسرح، في مكان يخفيها عن الأنظار،

وراحت تستمع بينما الأوركسترا تستعد للفصل الثاني. نظرت خلسة إلى الحفرة فرأت جانس هالفُورسن يحتلّ مكانه ويُخرج الفلوت من صندوقها. وبينما هي تسترق النظر بحذر، رفع ناظريه والتقت أعينهما للحظة عابرة. عكست تعابير وجهه خيبة أمل كبيرة إلى حدّ أثار أعصابها وأخافها فاندفعت آنّا نحو الكواليس ثم عادت أدراجها إلى غرفة الملابس وهي في حالة من الذهول، متجاوزة السيدة هانسون في طريقها. انتشر العطر الفرنسيّ المألوف في الرواق مع مرور الممثلة فيه. وبالكاد عرفت المرأة آنّا التي تذكّرت الشائعات التي سمعتها عن عشيقها السريّ فقررت أن تقسّي قلبها. جانس هالفُورسن ليس سوى نذل، رجل يسحر النساء، وسيقودها بالتأكيد نحو الهلاك. ومع دخولها إلى غرفة الملابس، وعدت أن تلعب بورق اللعب مع الأولاد خلال الفاصل التالي وقد أدركت أنّ عليها أن تبقي نفسها مشغولة.

في تلك الليلة، وعند وصولها إلى الشقة، توجّهت على الفور إلى غرفة الاستقبال الخالية. وبسيطرة عظيمة على النفس، أخرجت الرسالة من جيب تنورتها ورمتها من دون أن تفتحها في نيران المدفأة.



استمر رود في حمل رسالة جديدة لها من جانس هالفرسون كل ليلة على مدى الأسبوعين التاليين، لكن آنّا كانت تحرقها حين تصل إلى المنزل. وهذه الليلة، ازداد تصميمها وقويت عزيمتها أكثر بعد أن سمعت، هي وكل شخص موجود على امتداد رواق الكواليس، نحيبًا صاخبًا يتردّد في المكان، ترافق مع صوت تحطّم زجاج. أدرك كل فريق العمل أنّ هذه الأصوات تأتي من غرفة ملابس السيدة هانسون.

سألت رود:

- ما الذي يجري هناك؟

ردّ بعناد، وهو يطوي ذراعيه على صدره:

- لا أستطيع أن أخبرك.

- بل تستطيع بالطبع فأنت تخبرني كل شيء.

وتابعت تعرض عليه:

- سأدفع لك المال.

- لن أخبرك حتى لقاء المال. سيعطيك هذا انطباعًا خاطئًا وحسب.

- عن ماذا؟

هزّ رود رأسه وابتعد عنها. وفي وقت لاحق بدأت النميمة تتنقّل بحريّة من شخص إلى آخر أثناء العرض، وأخبرتها إحدى فتيات الجوقة أنّ السيدة هانسون اكتشفت أنّ جانس هالڤورسن شوهد مع جوريد وهي فتاة أخرى من الجوقة قبل أسبوعين. لم تتفاجأ آنّا لأنها سمعت القصّة من قبل، لكن يبدو أنّ السيدة هانسون هي الوحيدة في هذا المبنى التي لا علم لها بالأمر.



عند وصولها إلى المسرح من أجل العرض الأول في الأسبوع التالي، رأت آنّا باقة ورود حمراء ضخمة تستريح على منضدة المقصورة إل جانب باب المسرح. وكانت قد جاوزتها لتكمل طريقها نحو غرفة الملابس حين سمعت هالبرت البوّاب يناديها.

- آنسة لاندفيك؟

- نعم.

- هذه الورود لك.

- أنا؟

- نعم، أنت. خذيها من فضلك فهي تحتل المساحة كلها في مقصورتي.

استدارت وعادت أدراجها نحوه وقد احمرّت وجنتاها بقدر احمرار الورود.

رفع هالبرت حاجبه في حركة عدم رضا، بينما حملت آنّا الباقة الضخمة من دون أن تجرؤ على رفع نظرها إليه.

- حسنًا يا آنسة لاندفيك، يبدو أنّ لديك معجبًا. أتساءل من هو يا ترى؟

قالت في سرّها وهي تسير في الممر وتتوجّه مباشرة إلى المراحيض الباردة

والكريهة الرائحة التي تتشاركها السيدات في المسرح: «حسنًا! يا لوقاحته! خصوصًا مع وجود السيدة هانسون وجوريد سكروفست في المبنى. إنه يلهو معي».

تمتمت لنفسها بغضب بينما هي تصفق الباب وتقفله على نفسها: «الآن وبعد أن اكتشفت السيدة هانسون سلوكه، يظنّ أنّه يستطيع أن يفتن القرويّة البسيطة ويدير رأسها ببضع أزهار.

قرأت الرسالة القصيرة المرفقة بالزهور.

أنا لستُ كما تتخيّلين. أتوسّل إليك أن تمنحيني فرصة.

ها!

مزّقت آنّا البطاقة إلى قطع صغيرة جدًّا ورمتها في المرحاض. سيكون هناك تساؤلات كثيرة في غرفة الملابس بشأن الورود وأرادت أن تتخلّص من أيّ دليل يشير إلى مصدرها.

قالت إحدى الأمهات عندما دخلت إلى غرفة الملابس:

- يا إلهي يا آنّا! أليست جميلة؟

وسألت أخرى:

- من أرسلها لك؟

ساد الصمت المطبق في الغرفة بينما انتظر الجميع ردّها.

- حسنًا، بالطبع...

وابتلعت آنّا ريقها بعد لحظة صمت وأردفت:

- إنها من لارس، الشاب الذي ينتظرني في هيدال.

وتردّدت صيحات الإعجاب في الغرفة كلها.

سألت أمٌّ أخرى:

- هل من مناسبة خاصة؟ لا بدّ من أنّ الأمر كذلك لينفق هذا القدر من المال على هذه؟

كذبت آنّا بشكل يائس:

- إنه... عيد ميلادي.

عندئذ، راحت الأمهات يتكلّمنَ في وقت واحد وكأنهن جوقة ويسألنَ:

- عيد ميلادك؟ ولمَ لمْ تخبرينا!

وخلال ما تبقّى من الأمسية، تلقّت آنّا التهاني وتم احتضانها ، وعبّر كل واحد من الموجودين عن عاطفته على عجل، فيما بقيت تتجاهل طيلة الوقت الابتسامة التي ارتسمت على وجه رود، والتي تقول إنه يعرف الحقيقة.



- والآن يا آنّا وكما تعلمين، سوف ينتهي قريبًا عرض بير جينت. سوف أنظّم سهرة صيفيّة هنا في الشقّة في شهر حزيران وسأدعو إليها خيرة القوم في كريستيانيا ليحضروا ويستمعوا إلى غنائك. أخيرًا، سنشرع بترتيب شؤون العمل ونبدأ بإطلاق مسيرتك المهنيّة. والأجمل في هذا كلّه أنّ الصوت الشبح سيتمكّن أخيرًا من أن يكشف هويته!

- حسنًا. شكرًا لك يا سيد باير.

- آنّا.

وتوقّف عن الكلام وعبس فيما هو يدرس تعابير وجهها ثم أردف:

- تبدين غير واثقة.

- أنا متعبة وحسب. لكنّني ممتنّة جدًّا لاهتمامك.

- أدرك أنّ الأشهر القليلة الماضية كانت صعبة عليك يا آنّا، لكنْ تأكّدي أنّ كثيرًا من معارفي من الموسيقيين يعلمون سرًّا لمن يعود فعلًا صوت سولفيج الجميل. والآن، ارتاحي يا آنّا فأنت تبدين شاحبة قليلًا.

- نعم يا سيّد باير.

راقب فرانز باير آنّا وهي تغادر الغرفة وقد تفهّم إحباطها، لكن ماذا كان بمقدوره أن يفعل سوى هذا؟ أن تبقى آنّا مجهولة الهوية هو جزء من الصفقة

التي اتّفق عليها مع لودفيك جوزفسن ويوهان هانوم. لكنّ الاتفاق شارف على الانتهاء الآن وقد خدم الهدف المنشود. سيكون إغراء لقاء صاحبة الصوت الغامض التي غنّت سولفيج بهذه الطريقة الرائعة كافيًا ليجذب كل الأشخاص النافذين في مجتمع كريستيانيا الموسيقي إلى شقّته للمشاركة في السهرة. إنّ لديه مشاريع كبيرة للشابة آنّا لاندفيك.

20

بعد مرور أسبوع على انتهاء عرض بير جينت، استيقظ جانس وهو يشعر باكتئاب شديد. فعلى الرغم من الوعد الذي قطعه له هانوم بأن يؤمّن له مكانًا دائمًا في الفرقة الموسيقيّة، حين زيارة فرق الأوبرا والباليه التي تحتاج إلى عازف فلوت، سيبقى جانس عاطلًا عن العمل حوالى الشهر حتّى يبدأ الموسّم الجديد. أضفْ إلى ذلك أنّه لم يكن مهيأً على الإطلاق لإجراء الامتحانات النهائيّة في الجامعة حيث أن عدد المحاضرات التي شارك فيها لا يتجاوز الست. ما جعله على يقين بأنه لن يتمكّن من نيل درجة البكالوريوس.

في الأسبوع الفائت، وقبيل العرض الختاميّ، استجمع كل ما أوتي من شجاعة وعرض على هانوم المقطوعات التي أمضى ساعات في تأليفها في الوقت الذي كان يُفترض فيه أن ينجز دروسه. وبعد أن عزفها له، علّق قائد الفرقة الموسيقيّة قائلًا:

- إنها مشتقّة من أغنية أخرى، ولكنها ليست سيئة بالنسبة إلى مؤلّف مبتدئ مثلك.

وأضاف هانوم قائلًا:

- أتسمح لي أيّها الشاب بأن أنصحك بالسفر لمتابعة دراستك الموسيقيّة؟ فأنت تتمتّع بموهبة تأليف الموسيقا، ولكن عليك أن تتعلّم كيفية «الإصغاء» إلى النوتات التي تدوّنها لدى عزفها على كلّ آلة على حدة. على سبيل المثال، هل يمكن الافتتاح بهذه القطعة...».

وأشار هانوم إلى المدوّنة الموسيقيّة وتابع:

- بكل أعضاء الفرقة الموسيقيّة؟ أم ربما..

وعزف الموازين الأربعة الأولى التي بدت لأذنيّ جانس المتحيّزتين أشبه بتكريم لقطعة «المزاج الصباحيّ» التي ألّفها السيد غريغ.

- أو ربما على الفلوت؟

وابتسم السيد هانوم ابتسامة ساخرة جعلت وجه جانس يحمرّ خجلًا.

- فهمت سيدي.

- وعند الانتقال إلى المقطع التالي، هل ينبغي عزفه على آلات الكمان؟ أو ربما على التشيللو أو الكمان الأوسط؟

أعاد هانوم المدوّنة إلى جانس وربّت كتفه وأردف قائلًا:

- أنصحك، في حال كنت جادًا في السير على خطى السيد غريغ وأصدقائه المؤلفين البارزين، بالذهاب لتعلّم ذلك كما ينبغي، من الناحية الفكريّة والكتابيّة.

- ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك هنا، لعدم توافر وسائل التعليم المطلوبة في كريستيانيا.

- كلّا. عليك أن تسافر إلى الخارج، على غرار كبار الموسيقيين والمؤلفين الإسكندنافيين. تستطيع الذهاب إلى ليبزيغ كما فعل السيد غريغ.

انصرف جانس وهو يلعن في سرّه سذاجته. فقد كان واثقًا بأنه لن يتمكّن من توفير المال اللازم لتسديد الأقساط المترتّبة على التحاقه بمعهد الموسيقا، خاصة إذا ما نفّذ والده تهديده له وحرمه من المال. كما بدأ يدرك أنّ موهبته الموسيقيّة الفطريّة أوصلته إلى تلك المرحلة، ولكنها لم تعد كافية. وعليه أن يتعلّم التقنيات الملائمة إذا ما كان يطمح بأن يصبح مؤلّفًا. عليه أن يجتهد لتحقيق طموحه.

ومع دخوله من باب المسرح الخلفيّ، وبّخ جانس نفسه على المبالغ الضخمة التي أنفقها خلال السنوات الثلاث الماضية على النساء والكحول، وهي مبالغ كان حريًّا به ادّخارها لمستقبله. وتملّكه إحساس بالبؤس حين أدرك أنّ الندم لن يجدي الآن نفعًا. لقد أفسد كلّ الفرص التي أُتيحت له ولا يمكن له أن يلوم أحدًا إلا نفسه.



على الرغم من تصميمه على ألّا ينجرف من جديد وراء أهوائه بعد انتهاء عرض بير جينت، كان جانس يعاني من صداع مؤلم. ففي الليلة الفائتة، قصد مقهى إنغبريت من شدّة يأسه، حيث يمكنه أن يدفن أحزانه برفقة أي موسيقيّ قد يلتقيه هناك.

كان الصمت يخيّم على المنزل، صمت يدلّ على أن والده توجّه إلى مصنع

الجعّة، بينما خرجت والدته لاحتساء القهوة مع أحد معارفها. رنّ الجرس لدورا، وقد شعر بحاجة ماسة إلى احتساء القهوة، وجلس ينتظر وصولها. ولم يكد يمرّ وقت قصير، حتى قرعت الباب. ولمّا سمح لها بالدخول، فوجئ بها تدخل متجهّمة الوجه، وتضع الصينية على السرير محدثةً قعقعةً غير لازمة.

سألها جانس:

- كم الساعة الآن؟

- إنها الحادية عشرة والنصف سيّدي؟ هل أنت بحاجة إلى أي شيء آخر؟

نظر إليها مدركًا أنها مستاءة لأنه لم يكن يعيرها اهتمامًا في الآونة الأخيرة. وبينما كان يتساءل في قرارة نفسه إنْ كان عليه أن يبذل قليلًا من الجهد في محاولة إرضائها، خاصة وأنها تُساعده على تيسير شؤونه في المنزل، ارتشف قهوته وصورة آنّا لا تغادر خياله، وقرّر ألّا يفعل ذلك.

- لا، شكرًا لك يا دورا.

أشاح بنظراته عن وجهها الحزين، والتقط الصحيفة الموضوعة على الصينية متظاهرًا بقراءتها إلى أن غادرت الخادمة الغرفة. وضع بعد انصرافها، الصحيفة جانبًا وتنفّس الصعداء. كان يشعر بالخجل من نفسه لأنّه شرب حتى الثمالة ليلة أمس، ولكنه أراد أن ينسى همومه كلّها ويتخلّص من مشاعر الاكتئاب والحيرة التي استولت عليه . ولم تساعد آنّا لاندفيك في تحسين مزاجه.

سأله سيمين ليلة أمس:

- ماذا أصابك؟ لا شكّ في أنّك تواجه مشكلة مع إحدى النساء.

- إنها الفتاة التي تؤدّي أغاني سولفيج. لا أستطيع التوقّف عن التفكير فيها. إنها المرة الأولى التي أقع فيها في الحب يا سيمين.

انفجر سيمين حين سمع هذا الكلام بالضحك.

- ألا تستطيع أن تدرك حقيقة ما يجري يا جانس؟

- كلا. وما الذي يضحكك؟

- إنها الفتاة الوحيدة التي رفضتك! ولهذا السبب تخال أنّك مغرم بها! صحيح أنّ تصرّفاتها الريفيّة البريئة سحرتك، ولكنك تدرك في أعماق نفسك بأنها لا تلائم فتى من المدينة مثقفًا مثلك.

- أنت مخطئ! لا يهمّني إنْ كانت فتاة أرستقراطيّة أو من الريف! فصوتها هو أروع صوت سمعته في حياتي، كما أنها تملك وجهًا ملائكيًا.

نظر سيمين إلى كأس جانس الفارغة قائلًا:

- أظنّ أنّ الشراب الذي تحتسيه يجعلك تتكلّم على هذا النحو. ثق بي يا صديقي، فأنت تعاني من أوّل تجربة رفض فحسب، ولست واقعًا في الحب.

تساءل جانس أثناء ارتشاف القهوة الدافئة إنْ كانت وجهة نظر سيمين صحيحة. ومع ذلك، كانت ذكرى وجهها الساحر، وصوتها الرائع تقضّ عليه مضجعه. وفي خضم كلّ المعضلات التي يواجهها في الوقت الحاليّ، تمنّى لو أنّ عينيه لم تقعا على آنّا لاندفيك ولو أنّ أذنيه لم تسمعا صوتها.



قال السيّد باير لآنا أثناء وجودهما معًا في غرفة الجلوس بعد مرور بضعة أيام على انتهاء العرض الأخير لمسرحية بير جينت:

- سيُقام الحفل في الخامس عشر من حزيران، أي في تاريخ عيد ميلاد السيد غريغ. سأرسل إليه دعوة للقاء «سولفيج» للمرة الأولى، مع أنني أظنّ أنّه في الخارج. علينا أن نعدّ برنامجًا يضمّ أغانيه الفلكلوريّة إلى جانب تلك العائدة لمسرحية بير جينت. ومن ثمّ «ڤيوليتا» من أوبرا «لا تارفيتا»، يليها ترنيمة، ربما « ليد، ميلد لجوس». أريد أن يستمتع الجميع بغنائك بكل الأنواع الموسيقيّة.

سألته آنّا وقد بدأت تخشى أن تختنق إذا لم يتسنَّ لها أن تتنشّق هواء الريف المنعش في أقرب فرصة ممكنة:

- هل سأتمكّن من العودة إلى منزلي في هيدال للمشاركة في حفل زفاف شقيقي؟

- طبعًا يا عزيزتي. بإمكانك السفر إلى هيدال بعد الحفل لإمضاء فصل الصيف هناك. والآن، علينا أن نباشر التمرينات في الغد. أمامنا شهر واحد لتهيئتك للحفل وتهيئة صوتك ليكون متقنًا.

حرص السيّد باير، في إطار تهيئتها لتلك المَهمّة، على حشد مجموعة من المدربين الذين ارتأى أنهم قادرون على توفير التوجيهات الخبيرة للأغاني التي ستؤدّيها. وعاد غونتر للتركيز على الأغاني الأوبراليّة، بينما وصل قائد كورس من الكاتدرائية، بأظفاره المقضومة ورأسه الأصلع اللمّاع، ليشارك خبرته في الترانيم، في حين كرّس السيّد باير يوميًا ساعة من وقته لتدريبها على التقنيات الصوتيّة. ووصل خيّاط لأخذ المقاسات وتزويدها بمجموعة من الملابس الأنيقة التي تليق بالنجمة الشابّة الناشئة. ولعلّ أكثر ما أفرح قلب آنّا هو أن السيّد باير بدأ يسمح لها بالخروج من المنزل لحضور الحفلات الموسيقيّة والغنائيّة.

وفي إحدى الأمسيات، وقبيل التوجّه إلى مسرح كريستيانيا لحضور العرض الافتتاحيّ لأوبرا «حلّاق إشبيلية» لروسيني التي ستقدّمها إحدى فرق الأوبرا الزائرة، دخلت آنّا قاعة الجلوس وهي ترتدي فستانًا من الحرير الأزرق الداكن من مجموعة فساتينها الجديدة الرائعة المخصّصة للسهرات.

نهض السيّد باير من مكانه فور دخول آنّا رافعًا يديه مصفّقًا وقال:

- يا آنستي العزيزة، تبدين متألّقة هذا المساء. فهذا اللون يليق بك كثيرًا. اسمحي لي أن أضفي عليه مزيدًا من السحر.

وقدّم إليها علبة من الجلد، في داخلها عقد من الياقوت منسّق مع قرطين منسدلين من اللون نفسه. كانت الحجارة المتلألئة المنحوتة تتدلى من قاعدة من الذهب المتشابك، قاعدة هي ثمرة عمل حرفيّ متمرّس. حدّقت آنّا إلى المجوهرات وهي لا تعرف ما عليها أن تقوله.

- سيّد باير...

- كانت لزوجتي. ويسعدني أن تتزيّني بها هذا المساء. هل تسمحين لي بمساعدتك على وضع العقد؟

وقبل أن يتسنّى لآنا الرد بالقبول أو الرفض، أخرج السيّد باير العقد من العلبة، وشعرت بلمسة أصابعه على عنقها بينما كان يثبت العقد حوله.

وأعلن بارتياح:

- إنها تليق بك. وتابع وهو يقف على مسافة قريبة منها بحيث كانت تشمّ رائحة فمه العفنة:

- يمكن لنا الآن الانطلاق لنقدّم أنفسنا إلى الحاضرين في مسرح كريستيانيا.



بذلت آنّا ما بوسعها، خلال الشهر التالي، للتركيز على دروسها في الموسيقا والاستمتاع بجولاتها في كريستيانيا. كانت تراسل لارس بشكل منتظم وتتلو صلواتها بحماس في الليل. لكنّ صورة جانس هالڤورسن الشرير، كما اختارت أن تسمّيه، علّ ذلك يلقّن قلبها الغدّار درسًا، ما انفكّت تعود إلى ذهنها بطريقة تلقائيّة أشبه بحركة الساعة. وكم كانت آنّا تتمنّى لو كان باستطاعتها التحدث إلى صديقة لها عن هذا البلاء. لا بدّ من وجود دواء لهذا البلاء.

عندما أنهت في إحدى الليالي صلاتها، صرخت متنهدة: « إلهي! أظنّ أنّني مريضة جدًّا».

مع اقتراب الخامس عشر من حزيران، لاحظت أنّ السيّد باير يعيش في حالة من الإثارة الشديدة.

وفي اليوم المقرّر للحفل، قال لها:

- اسمعي يا عزيزتي، لقد استخدمت عازف كمان وعازف تشيللو لمرافقتك أثناء الغناء. وسأتولى بالطبع العزف على البيانو بنفسي. سيحضر العازفان هذا الصباح للتمرّن معنا. وبإمكانك أن تحظي بقسط من الراحة خلال فترة بعد الظهر استعدادًا للأمسية العظيمة.

عند الساعة الحادية عشرة، رنّ جرس الباب، وسمعت آنّا، التي كانت جالسة في قاعة الجلوس، الآنسة أولسداتر تفتح الباب مرحبة بالعازفيْن. نهضت من مكانها بينما كان السيد باير يدخل المكان برفقتهما.

- اسمحي لي أن أقدّم لك السيد إيساكسين، عازف التشيللو، والسيد هالڤورسن عازف الكمان. لقد استخدمتهما بناء على توصية خاصّة من صديقي السيد هانوم.

شعرت آنّا بموجة جديدة من الدوار بينما كان جانس هالفورسون يجتاز الغرفة ليلقي التحية عليها.

- إنه لشرف لي آنسة لاندفيك أن أشارك في الحفل الذي سيُقام خصّيصًا من أجلك هذا المساء.

لملمت آنّا شتات نفسها وأجابت وقد لاحظت بريق التسلية يومض في عينيه:

- شكرًا لك. وإذ استمر قلبها بالخفقان بسرعة بين أضلعها، لم تجد ما يدعو للضحك في هذا الموقف.

اقترح السيد باير وقد استقر العازفان على مسافة قريبة منه عند البيانو:

- حسنًا، سوف نبدأ بأعمال فريدي. هل سمعت ما قلته يا آنّا؟

- أجل سيّد باير.

- فلنبدأ إذًا.

أدركت آنّا أنها لم تقدّم أفضل ما عندها أثناء التمرين وشعرت بانزعاج السيّد باير لنسيانها كل ما تعلّمته وانقطاع نفسها عند نهاية نوتات الفيبراتو. وأقرّت في سرّها بأنّ السبب في ذلك هو جانس هالڤورسن الشرير.

- أظنّ أن ذلك كافٍ في الوقت الحالي. أرجو أن نكون أكثر تناغمًا في المساء. أريد منكما الحضور عن الساعة السادسة والنصف بالضبط لأن الحفل سيبدأ عند السابعة.

أومأ جانس ورفيقه برأسيهما بتهذيب، ومن ثم انحنيا بسرعة أمام آنّا وغادرا القاعة، فيما كانت عينا جانس العسليّتان ترمقانها بنظراتٍ عابثة.

سألها السيّد باير:

- ماذا أصابك يا آنّا؟ لا أظنّ أن العزف المرافق هو السبب في ارتباكك. لقد تعوّدت الغناء مع كامل الفرقة الموسيقيّة أثناء عرض بير جينت.

- سامحني سيّد باير، ولكنني أشعر بالصداع.

- وأظنّ أنّك تعانين من نوبة توتّر يمكن فهمها يا آنستي الصغيرة.

ولانت تعابير وجهه وهو يربّت كتفها قائلًا:

- تناولي غداءً خفيفًا ومن ثمّ خذي قسطًا من الراحة. وسنحتسي معًا كوبًا من النبيذ قبل الحفل لتهدئة أعصابك. فأنا على يقين من أنّ الحفل سيحقّق نجاحًا منقطع النظير، ومع حلول الغد ستكونين موضع ثناء الجميع في كريستيانيا.

عند الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك النهار، دخلت الآنسة أولسداتر إلى غرفة آنّا حاملة كوبًا من الماء إضافة إلى العسل الدائم الحضور.

- ملأت الحوض ماء يا عزيزتي. وسأجهز ملابسك أثناء استحمامك. يرغب السيّد باير في أن ترتدي الثوب الأزرق الداكن وتضعي مجوهرات زوجته المصنوعة من الياقوت. كما اقترح أن ترفعي شعرك إلى الأعلى. سأساعدك على ارتداء ملابسك لدى عودتكِ.

- شكرًا لكِ.

استرخت آنّا في الحوض ووضعت قطعة من القماش الرقيق على وجهها، في محاولة منها لتهدئة خفقان قلبها الذي لم يتوقف عن إحداث ضجيج منذ وقعت عيناها على جانس هالڤورسن في وقت سابق من ذلك النهار. فرؤيته كانت كافية لتثير ردّ فعل جسديًا مستفحلًا في ركبتيها، وحنجرتها وقلبها. فتضرّعت إلى اللّه وهي تجفّف نفسها قائلة: «إلهي، هبْني القوة والشجاعة لأواجه هذه الأمسية. وسامحني لأنّني تمنّيت أن يُصاب بنوبة الصفراوية ولا يتمكّن من الحضور هذا المساء من شدّة الألم».

بعد أن ارتدت ملابسها وسرّحت الآنسة أولسداتر شعرها، اجتازت الرواق متوجّهة إلى قاعة الجلوس حيث وجدت ثلاثين كرسيًّا مصنوعة من المخمل الأحمر المزخرف باللون الذهبيّ مرتبة ضمن صفوف نصف دائريّة قبالة البيانو في المساحة البارزة قرب النافذة. كما رأت جانس هالڤورسن وعازف التشيللو في القاعة يدردشان مع السيد باير، الذي أشرق وجهه لدى رؤيتها.

قال لها باستحسان وهو يناولها كأسًا من النبيذ:

- تبدين رائعة يا آنستي الصغيرة. فلنشرب معًا نخب هذه الأمسية قبل أن يبدأ الهرج والمرج.

بينما كانت ترتشف النبيذ، شعرت بنظرات جانس تستقران للحظات قليلة على فستانها المقوّر الصدر؛ فعلت الحمرة خدّيْها مع أنها لم تكن واثقة إنْ كان يتأمّل المجوهرات المتألّقة أو جسدها العاري تحتها.

رفع السيد باير كأسه قائلًا:

- نخبك يا آنّا.

وسارع جانس إلى القول رافعًا كأسه نحوها:

نخبك آنسة لاندفيك.

- تستطيعين الآن الانتظار في المطبخ مع السيدة أولسداتر ريثما آتي وأناديك.

- حاضر سيّد باير.

همس جانس بصوت خافت فيما كانت تسير نحو الباب وتغادر القاعة: «حظًّا سعيدًا يا حبي».

ومع تردّد صدى النوتة الأخيرة في القاعة الغارقة في السكون، أدركت آنّا أنها قدّمت أفضل ما عندها، ربما تحت تأثير النبيذ الذي احتسته، أو بسبب وجود جانس هالڤورسن الشرير الذي حرص على مرافقتها على آلته الوتريّة بشكل تفاعليّ في تلك الليلة.

وبعد جولة من التصفيق الحماسيّ، تجمهر المدعوون، بمن فيهم جوهان هانوم، حولها، لتهنئتها والإغداق عليها بالدعوات لتقديم عروض في قاعة فريماسون وقاعات الاجتماعات العامة. وقف السيد باير بقربها وهو يبتسم لها ابتسامة مشرقة وكأنه يتمتّع بحقوق ملكيتها، بينما بقي جانس يحوم في الخلف. ولما ابتعد السيد باير عنها قليلًا، استغل جانس الفرصة ليتحدث إليها.

- آنسة لاندفيك، اسمحي لي أن أهنئك بدوري على أدائك هذا المساء.

- شكرًا سيّد هالڤورسن.

وأضاف بنبرة خافتة:

- أرجوك يا آنّا، أتوسّل إليك... فأنا أتعذّب منذ وقعت عيناي عليك. لا أستطيع التوقّف عن التفكير فيك، حتى أنني أحلم بك... ألا ترين أنّ القدر قد تآمر علينا ليجمعنا معًا؟

لفظ جانس اسمها الأوّل بكثير من الحميمية، ما دفعها للإشاحة بنظرها بعيدًا حتى لا تلتقي عيناهما فتفقد القدرة على السيطرة على نفسها. فالحق يُقال إنّ كلماتها عبّرت عما يخالجها بالضبط.

- هل يمكننا أن نلتقي؟ في أي مكان، في أي وقت... أنا...

أجابت آنّا وقد لملمت شتات نفسها:

- سيد هالڤورسن، سأعود إلى بلدتي هيدال قريبًا جدًّا لحضور حفل زفاف شقيقي.

- اسمحي لي إذًا بمقابلتك بعد عودتك إلى كريستيانيا. آنّا، أنا...

وإذ رأى السيّد باير يدنو منهما، انحنى لها انحناءة تقليديّة وتابع:

- استمتعت كثيرًا بهذه الأمسية آنسة لاندفيك.

والتقت عيناها عينيه وقرأت فيهما مسحة من القنوط.

ضرب السيّد باير كتف جانس بيده قائلًا:

- ألم تكن مذهلة؟ فتلك الطبقات المرتفعة في الوسط والمدى الصوتيّ العلويّ والڤيبراتو المتميّز... إنها المرّة الأولى التي تقدّم فيها أداءً بهذه الروعة.

- هذا صحيح، غنّت الآنسة لاندفيك بشكل جميل هذا المساء. والآن، عليّ أن أنصرف.

ونظر جانس إلى السيّد باير بترقّب.

- بالتأكيد، بالتأكيد. اعذريني يا عزيزتي آنّا، ولكن عليّ أن أسوّي حسابي مع عازف الكمان الشاب.

عندما صعدت إلى غرفتها بعد حوالى الساعة، شعرت آنّا بالدوار واختلال التوازن. لعلها النشوة التي أثارها أداؤها في تلك الأمسية، أم كأس النبيذ الثانية

التي وافقت على احتسائها برعونة، إلا أنها أدركت في أعماقها، بينما كانت الآنسة أولسداتر تساعدها في خلع ملابسها، أن جانس هالڤورسن هو السبب. لا ريب في أنّ التفكير في أنّه معجب بها، تمامًا كما كانت هي معجبة به، مبهج.



ستالزبرغ فانينغشوسيت

تينديفيغان

هيدال

30 حزيران 1876

عزيزتي آنّا،

أكتب إليك وأنا أحمل أخبارًا حزينة. تُوفّي والدي نهار الثلاثاء الفائت. حمدًا لله أنّه توفي بسلام. وأظنّ أنّ ذلك أفضل له، لأنه، وكما تعلمين، كان يتألّم كثيرًا. عند استلامك هذه الرسالة، ستكون مراسم الدفن قد أقيمت، ولكنّني رأيت أنه ينبغي عليّ إبلاغك بذلك.

طلب مني والدك إخبارك بأن محصول الشعير يبدو جيدًا ومخاوفه لا أساس لها من الصحة. عند عودتك يا آنّا لحضور حفل زفاف شقيقك، علينا أن نناقش أمورًا كثيرة ترتبط بمستقبلنا. على الرغم من الأخبار الحزينة، أنتظر بفارغ الصبر اللحظة التي سأمتّع فيها نظري برؤيتك من جديد.

حتى ذلك الحين،

مع كل الحبّ،

لارس.

بعد أن قرأت الرسالة، استلقت آنّا على وسادتها وهي تشعر بأنها ليست أفضل بكثير من جانس هالڤورسن الشرير. فمنذ أن قابلته مجدّدًا في تلك الأمسية، وهو يستحوذ على كلّ تفكيرها. وعلى الرغم من أنّ السيّد باير أبلغها بفرح عامر

بالحفلات الموسيقيّة التي رتّبها لها، لم تتمكّن من حثّ ذاتها على إظهار الحماسة المتوقّعة منها.

في الليلة الفائتة، طلب منها موافاته إلى غرفة الجلوس صباح اليوم التالي عند الساعة الحادية عشرة. فتأنّقت وتوجهّت إلى غرفة الجلوس عبر الرواق الطويل، وفي داخلها حزن كبير. ولم تكد تدخل المكان حتى أدركت أنّ مرشدها في حالة من الإثارة المفرطة.

- ادخلي يا آنّا لأبلغك بالأخبار المثيرة. التقيت هذا الصباح جوهان هانوم ولودفيك جوزفسون. أظنّك تذكرين أن السيد هانوم شارك في الأمسية التي أقمتها من أجلك وأخبرني بأنه، نظرًا للإقبال الشديد الذي لاقته مسرحية بير جينت، من المرجّح إضافة العمل المسرحيّ إلى قائمة الأعمال التي ستُعرض خلال فصل الخريف، واقترحا عليّ أن تجسّدي دور سولفيج من جديد.

حملقت آنّا إليه وفي عينيها مزيج من الذهول واليأس.

- أتقصد القول إنّني سأقف من جديد في الجانب الخلفيّ من المسرح وأؤدي الأغاني، بينما تدّعي السيدة هانسون أنّ صوتي هو صوتها؟

- حبًّا بالله يا آنّا! هل كنت تتصوّرين أنني قد أقبل بهذا الاقتراح؟ كلّا، يا آنستي الصغيرة، لقد عرضا عليّ أن تؤدّي الدور بالكامل. فالسيدة هانسون ليست متفرّغة في الوقت الحالي، كما أنهما يتشوّقان لرؤيتك تؤدّين الدور على المسرح خاصة بعد التداول في الأوساط الموسيقيّة في كريستيانيا بأنك المغنية الموهوبة صاحبة الصوت الشبح. والأفضل من ذلك كلّه هو أن السيد غريغ أعلن منذ قليل عن رغبته في الحضور إلى كريستيانيا لمشاهدة العمل. ولمّا كان كلّ من السيّدين هانوم وجوزفسون يدركان أن أداءك لأغانيه لا يمكن أن يكون أفضل، طلبا مني أن تشاركي في تجربة أداء نهار الخميس المقبل ليقرّرا إن كنت تتمتعين بموهبة التمثيل. هل تتذكّرين أيًّا من السطور التي تردّدها سولفيج في المسرحية؟

- أجل سيّد باير. كنت أتمتم بها أثناء تفوّه السيدة هانسون بها.

وشعرت آنّا بقشعريرة الإثارة تسري على طول عمودها الفقريّ. أيُعقل أن

يجعلوا منها نجمة العرض؟ أيُعقل أن يكون جانس هالڤورسن الذي لم يعد في نظرها شريرًا إلى هذا الحدّ مشاركًا كعضو في الفرقة الموسيقيّة..؟

- ممتاز! سننسى اليوم أمر الموازين والمقطوعات الأوبراليّة التي كنت أنوي أن أعلّمك إياها، وسأقرأ الأجزاء الأخرى من بير جينت بينما تتصفّحين أنت سطور سولفيج.

والتقط نسخة من المسرحية كانت موضوعة على مكتبه وفتحها، وتابع:

- تفضّلي بالجلوس. كما تعلمين، إنها مسرحية طويلة، ولكننا سنبذل ما بوسعنا. هل أنت جاهزة؟

أجابت آنّا وهي تحاول التركيز لتتمكّن من تذكّر العبارات:

- نعم سيّد باير.



قال لها السيّد باير بعد مرور حوالى الساعة وهو يتأملها بإعجاب:

- حسنًا! حسنًا! يبدو أنك لا تملكين صوتًا جميلًا فحسب، بل أيضًا مهارة عالية في تجسيد الشخصية. وأمسك يدها وقبلّها وأردف قائلًا:

- آنستي الصغيرة، اسمحي لي أن أقول لك إنك لا تتوقّفين عن إدهاشي.

- شكرًا لك.

- لا تقلقي بشأن تجربة الأداء يا آنّا. ما عليكِ سوى أن تؤدي الدور تمامًا كما فعلت اليوم وستحصلين عليه. والآن، تعالي معي لنتناول الغداء سويًّا.



عند الساعة الثانية من نهار الخميس، التقت آنّا السيد جوزفسون في المسرح، وجلسا معًا يقرآن النص. ولدى أدائها السطور الأولى، سمعت شيئًا من الارتعاش في صوتها، ولكن ثقتها بنفسها أخذت تزداد شيئًا فشيئًا مع مواصلتها القراءة. قرأت المشهد حيث تلتقي سولفيج بير للمرة الأولى في حفل زفاف، ومن ثم المشهد الأخير حين يعود إليها بعد قيامه بجولة حول العالم وسولفيج تسامحه.

قال لها السيد جوزفسون باستحسان:

- ممتاز آنسة لاندفيك! لا أظنّ أنني بحاجة إلى سماع مزيد. عليّ الاعتراف بأنني لم أكن موافقًا على هذه الفكرة التي طرحها عليّ السيّد هانوم، ولكنّك أثبتّ نفسك خير إثبات من التجربة الأولى. علينا أن نعمل بجدّ لتحسين قوة صوتك والتعبير الذي ينطوي عليه، ولكنني موافق على إسناد دور سولفيج إليك في الموسم المقبل.

صرخ السيّد باير الذي كان جالسًا في مدرّج المسرح يشاهد ويصغي بانتباهٍ شديدٍ:

- آنا! أليس ذلك رائعًا؟

- ستبدأ التمارين في شهر آب استعدادًا للافتتاح في شهر أيلول. آمل ألّا تكون لديك أي خطط للسفر خارج البلاد خلال هذه الفترة؟

أجاب السيّد باير بالنيابة عنها:

- كن مطمئنًا، ستكون آنّا هنا. ولكن علينا الآن أن نناقش مسألة الأجر ونتّفق على المبلغ الذي ستتقاضاه الآنسة لاندفيك مقابل أدائها هذ الدور البارز.

بعد مرور عشر دقائق، عادا معًا إلى العربة حيث اقترح السيد باير عليها التوجّه إلى فندق غراند لشرب الشاي والاحتفال بنجاح آنّا الجديد.

- إلى جانب الإيجابيات الأخرى، من المحتمل أن يأتي السيد غريغ خلال فصل الخريف لمشاهدة أدائك. فكّري في الأمر جيّدًا يا آنستي الصغيرة! وفي حال أُعجب بك، يمكن أن تُتاح لكِ فرصة السفر إلى الخارج للوقوف على خشبات المسارح الأخرى أو القاعات المخصّصة للحفلات الموسيقيّة.

كانت أفكار آنّا قد انجرفت بعيدًا وهي تتخيّل جانس هالڤورسن جالسًا في المكان المخصّص للفرقة الموسيقيّة، ينظر إليها وهي تردّد عبارات سولفيج عن الحب.

قال لها السيّد باير في ذلك المساء بينما كانا يتناولان العشاء:

- سأكتب رسالة إلى ذويك لأزف إليهما الخبر السعيد وأتوسّل إليهما السماح لي ولمدينة كريستيانيا بالاستمتاع ببقائك معنا لبضعة أشهر أخرى لتتمكّني من

أداء دورك في مسرحية بير جينت. بإمكانك السفر إلى بلدتك لحضور حفل زفاف شقيقك في شهر تموز شرط أن تعودي في شهر آب. وسأغادر بدوري كريستيانيا وأمضي كالعادة بعض الوقت في منزل أسرتي الصيفيّ في دروبك برفقة شقيقتي ووالدتي المريضة المسكينة.

- أهذا يعني أنني لن أتمكّن من الذهاب إلى الريف؟

كانت آنّا تدرك أنّ سؤالها ينطوي على مسحة من النكد، ولكنها أرادت التأكّد بنفسها من أن روزا لا تزال على قيد الحياة.

- ستُتاح لك فرص كثيرة يا آنّا لتمضي الصيف في الريف وتغني للأبقار، ولكن لن تُتاح لك سوى فرصة واحدة لتؤدّي الدور الرئيسيّ في عرض مسرحي مثل بير جينت على خشبة مسرح كريستيانيا. عليّ أن أعود أيضًا إلى هنا عندما تبدأين التمارين.

- أنا واثقة من أنّ الآنسة أولسداتر قادرة على الاهتمام بي في حال لم تتمكّن من العودة. لا أريد أن أفرض حاجاتي عليك.

- لا تتحدّثي بهذه الطريقة يا آنستي الصغيرة. فحاجاتك في هذه الأيام هي بمنزلة حاجاتي.

شعرت آنّا بالارتياح عندما عادت إلى غرفتها في ذلك المساء. فاندفاع السيد باير الفطريّ هو من الصفات الإيجابيّة المحبّبة، ولكن التعايش معها، يومًا بعد يوم، يصبح مزعجًا نوعًا ما. وخطر لها في تلك اللحظة، وهي تجثو لتتلو صلاتها، أن طبع لارس هادئ على الأقل. أدركت أنّها ستقابله قريبًا جدًّا وعليها أن تتذكّر كلّ صفاته الحميدة. وفي حين أنها كانت تتحدث مع اللّه عن لارس، كانت أفكارها تدور في العادة حول جانس هالڤورسن.

«أتوسّل إليك يا إلهي أن تغفر لقلبي لأنني أظنّ أنّني وقعت في حب الرجل غير المناسب. ساعدني لأقع في حب الرجل الذي يُفترض بي أن أقع في حبه».

وأضافت قبل أن تقف على قدميها، وهي تحاول أن تجد شيئًا بعيدًا عن الأنانية: «هل يمكن لروزا أن تبقى على قيد الحياة إلى الصيف المقبل؟»

21

ومع مغادرة آنّا كريستانيا إلى هيدال، حمل جانس مجموعة من أثمن مقتنياته إلى وسط المدينة. شعر بأنه مُستنزَف ومُرهَق من كابوس الساعات القليلة الماضيّة.

ففي غرفة الطعام وأثناء تناول وجبة الفطور في ذاك الصباح، جلس جانس مستقيمًا وفخورًا قدر ما استطاع، من دون أن يلمس الطعام والخبز الموضوعَين أمامه. أخذ نفسًا عميقًا، وقال ما أراد أن يقوله بصوت عالٍ: «بذلت قصارى جهدي لأحقّق تطلّعاتك وتوقّعاتك يا أبي، لكنّ مستقبلي، وبكل بساطة، ليس في مجال تصنيع البيرة. أودّ أن أتفرّغ لأصبح موسيقيًا وآمل أن أصبح يومًا مؤلّفًا موسيقيًا. أنا آسف لكنني لا أستطيع أن أغيّر حقيقتي وما أنا عليه».

استمرّ جوناس في رشّ الملح على البيض أمامه ثم قضمه قبل أن يجيب:

- فليكنْ. لقد اتخذتَ قرارك. وكما أخبرتك في أول مرة ناقشنا فيها الموضوع، لن تحصل مني على مزيدٍ من المال، ولن أترك لك شيئًا في وصيتي. أنت لم تعد ابني اعتبارًا من هذه اللحظة. لا أستطيع أن أتحمّل رؤية ما تضيّعه وكيف أقدمت على خيانتي. بالتالي، وكما اتفقنا من قبل، أتوقّع منك أن تترك المنزل؛ فلا أجدك فيه عند عودتي من المكتب هذا المساء.

وعلى الرغم من أن جانس أعدّ نفسه لردّ أبيه إلا أنّه أحسّ بصدمة. ونظر عبر الطاولة إلى وجه أمه المرتعب.

- لكن يا عزيزي جوناس، عيد ميلاد ابننا الحادي والعشرين يصادف بعد بضعة أيام وقد اتّفقنا كما تعلم على تنظيم عشاء بهذه المناسبة. بإمكانك بالتأكيد أن تمنحه بضعة أيام ليحتفل مع والديه وأصدقائه؟

- بالكاد أشعر أنّ أيًا منّا سيحتفل، بالنظر إلى الظروف الراهنة. وإذا ظننتِ أنّ عزيمتي ستلين مع مرور الوقت، فأنت للأسف مخطئة.

طوى جوناس صحيفته مرتين كما يفعل دائمًا قبل أن يضيف:

- والآن، عليّ أن أذهب إلى المصنع. أتمنّى لكما يومًا سعيدًا.

ولعل الجزء الأسوء من القصة بأسرها هو رؤية أمه تنهار وتبكي ما إن صُفق الباب خلف أبيه. حاول أن يواسيها قدر استطاعته.

- لقد خذلتُ أبي. ربما عليّ أن أبدّل رأيي و....

- لا، لا.... عليك أن تتبع شغفك. أتمنّى لو أنّني فعلت هذا حين كنت في مثل سنّك. سامحني يا عزيزي جانس، لكن لعلّي أعيش في جنّة الأغبياء. اعتقدت أنّ والدك سيغيّر رأيه عندما يحين الوقت.

- حسنًا، أنا لم أعتقد ذلك وبالتالي كنت مستعدًا لما حصل. إذًا، عليّ أن أفعل ما طلبه وأترك المنزل. سامحيني يا أمي، عليّ أن أوضّب حاجياتي.

- لعلي أخطأت حين شجّعتك. واعتصرت مارغريت يديها قبل أن تتابع قائلةً:

- وحين عملت بعكس خططه لك كان عليّ أن أتقبّل فوزه.

- لكنه لم يفز يا أمي. أنا أفعل هذا بملء إرادتي. ولا يسعني سوى أن أقول: كم أنا ممتنٌّ لك لأنك منحتني هبة الموسيقا. فمستقبلي سيكون أكثر بؤسًا من دونها.

وبعد ساعة، نزل جانس السلالم ووصل إلى البهو عند المدخل حاملًا حقيبتين ملأهما بكل المقتنيات التي يمكن له حملها.

لاقاه وجه أمه الذي بدت آثار الدموع واضحة عليه عند باب غرفة الاستقبال.

وضعت رأسها على كتفه وبكت قائلة:

- آهٍ يا بُني. لعلّ والدك سيندم بعد حين على ما فعله اليوم، ويطلب منك أن تعود إلى المنزل.

- أعتقد أنّ كلينا يعلم أنه لن يفعل.

- إلى أين ستذهب؟

- لديّ بعض الأصدقاء في الأوركسترا، وأنا واثق من أنّ أحدهم سيأويني بشكل مؤقت. أنا قلق أكثر عليك يا أمّي. أشعر أنّ عليّ ألّا أتركك وحدك معه.

- لا تقلق بشأني يا عزيزي. عِدني فقط أن تراسلني وأن تعلمني أين ستكون.

وافق قائلًا:

- بالطبع.

عندئذ، دسّت أمّه صرّة صغيرة في يده وقالت:

- بعت عقد الألماس والأقراط التي أهداني إياها أبوك بمناسبة عيد ميلادي الأربعين، على سبيل الاحتياط في حال نفَذ وعيده. المال موجود هنا. كما أنّي وضعت خاتم زواج أمي الذهبي الذي تستطيع أن تبيعه أيضًا إذا ما اقتضت الحاجة.

- أمّي....

- اصمتِ الآن. إنها لي وإذا سألني عنها فسأخبره الحقيقة. المال كافٍ لكي تدفع قسط سنة في ليبزيغ حيث بإمكانك أن تؤمّن منامتك ومعيشتك. جانس، اقسم لي أنك لن تبذّد المال كما تعوّدت في الماضي.

- أمّي.

وغمرت المشاعر جانس الذي أضاف:

- أعدك ألّا أفعل.

وقبل أن ينهار تمامًا، أخذها بين ذراعيه وطبع قبلة وداع حنون على رأسها.

قالت بابتسامة حزينة:

- آمل أن أتمكّن ذات يوم من الجلوس في مسرح كريستيانيا لأشاهدك، وأنت تقود الأوركسترا وهي تعزف الموسيقى التي ألّفتها.

- هذا وعد يا أمي. وسأفعل كل ما يتطلّبه الأمر لأفي به.

بعدئذ، غادر منزله للمرة الأخيرة وهو يشعر بالذهول، لكن بالانتعاش أيضًا، بسبب قراره هذا. وقد أدرك أنه لم يضع أيّ خطة بشأن المكان الذي سيلجأ إليه في حال حصول الأسوأ، على الرغم من الكلمات المطمئنة التي قالها لأمه. حسنًا، لقد حصل. وتوجّه جانس إلى إنغبريت مباشرة على أمل أن يجد هناك موسيقيًّا يعرفه يمكن أن يستضيفه الليلة. وتفضّل سيمن عليه بذلك، فكتب له عنوانه وقال إنه سيراه هناك في وقت لاحق.

بعد احتساء بضع كؤوس من البيرة ليتعوّد على جسامة ما فعله لتوّه، وجد جانس نفسه يسير نحو ناحية من المدينة لم يطأها قط من قبل. شعر أنّه ملفت كثيرًا للنظر في ملابسه المفصّلة بشكل أنيق، وأحسّ بألم في ذراعيه من حمل حقيبتَيه الثقيلتَين، لكنه شقّ طريقه بأسرع ما يمكنه، مجتنبًا النظر إلى كل من مرّوا به.

لم يسبق له أن ابتعد إلى هذا الحدّ خارج حدود المدينة حيث يبدو أنّ البيوت الخشبيّة، وخلافًا لما هو الحال في وسط كريستيانيا، لم تُمنع بعد بسبب خطر تعرّضها للحريق. أصبحت المساكن متباعدة أكثر فأكثر بينما هو يسير، وفي النهاية، توقّف أمام منزل قديم مؤطّر بالخشب، وتحقّق مرتين من العنوان الذي أعطاه إياه سيمن في أنغبريت. وبعد أن طرق الباب، سمع همهمةً وصوت أحد يبصق في الداخل. فُتح الباب ورأى سيمن، الثمل كالمعتاد، يبتسم له.

- ادخل، ادخل يا فتى، أهلًا بك في منزلي المتواضع. هو ليس كبيرًا لكنه بيت.

دخل إلى المنزل الذي فاحت من غرفته الأماميّة الصغيرة ذات الجو الخانق رائحة الأكل المتعفّن والتبغ الذي يدخّنه سيمن في غليونه. لاحظ جانس أنّ كل إنش من مساحة الغرفة مليء بالآلات الموسيقيّة. آلتا تشيللو، وكمان وبيانو وكمانات كثيرة...

- أشكرك على هذا يا سيمن. أنا ممتنٌّ جدًّا لاستضافتك لي.

- تجاهل سيمن امتنانه وقال: «أرجوك، المسألة لا تستحق الذكر. أيّ شاب يتخلّى عن كلّ شيء حبًّا بالموسيقا يستحق كل المساعدة التي يمكن أن أقدّمها له. أنا فخور بك يا جانس، حقًّا. والآن، اتبعني إلى الأعلى لنجعلك تستقر.

قال جانس وهو يشقّ طريقه بحذر عبر فوضى الآلات ويصعد درجات السلم الخشبيّة الضيّقة:

- يا لها من مجموعة لديك هنا.

شرح سيمن بينما كانت الدرجات تصدر طقطقة اعتراض عندما رفع جانس حقيبتَيه ووضعهما عليها:

- لا أستطيع أن أقاوم رغبتي في شرائها. عمر إحدى آلتَي التشيللو مئة عام تقريبًا.

وصلا إلى غرفة تحتوي على بضعة كراسٍ متهالكة وطاولة يعلوها الغبار ومغطاة ببقايا بضعة أيام من الطعام والشراب.

هناك فراش في مكان ما هنا، بإمكاني أن أقدّمه لك لتنام عليه. أنا واثق من أنه ليس ما تعوّدته لكنّه أفضل من لا شيء. والآن يا صديقي، هل نحتسي بعض الشراب للاحتفال باستقلاليتك؟

ورفع سيمن زجاجةً وكأسًا قاتمة عن الطاولة. وبعد أن اشتمّ الكأس، سكب القطرات القليلة المتبقيّة فيها على الأرض.

- شكرًا لك.

قبل جانس الكأس القذرة. إنْ كانت حياته الجديدة من هذا القبيل، فعليه أن يتقبّلها قبولًا مطلقًا. شرب كثيرًا في تلك الليلة حتى ثمل واستيقظ على صداع مروّع بسبب الكحول وآلام في عظامه كلها جراء النوم على الفراش القاسي. وأدرك أنّ ما من دورا لتدخل الآن حاملة معها القهوة لتهدئ آلامه.

تذكّر مذعورًا صرّة المال من والدته، فمد جانس يده إلى سترته يتفقّد جيبه حيث وضعها عندما غادر المنزل. وجدها آمنة، ففتحها ورأى الخاتم ومبلغ المال الذي كان بالفعل كافيًا ليؤمّن له قسط سنة في ليبزيغ. أو سريرًا مريحًا في فندق لبضع ليالٍ قادمة...

لا. حدّث جانس نفسه. لقد وعد أمه وهو لن يخيّب أملها ولن يخذلها بتبديد المال هباءً.



صعدت آنّا إلى القطار الذي سينقلها في المرحلة الأولى من رحلتها إلى المنزل. كان الليل قد حلّ عندما وصلت إلى محطة درامن، وحين ترجّلت من العربة، رأت والدها بانتظارها على الرصيف.

- أبي! آه، أبي! أنا سعيدة جدًا برؤيتك.

وتفاجأ أندرس للغاية حين أحاطت عنقه بذراعيها في سلوك عاطفي غير معهود.

- هيّا يا آنّا. أنا واثق من أنك منهكة بعد رحلتك هذه. تعالي، دعينا نعدْ إلى النُّزُل. بإمكانك الليلة أن تنامي ملء جفنَيْك، وفي الغد سنعود إلى البيت في هيدال.

في صباح اليوم التالي، وبعد ليلة من النوم المنشّط، صعدت آنّا إلى العربة ونقر أندرس الحصان لكي يتحرّك قائلًا:

- تبدين مختلفة قليلًا في ضوء النهار. أعتقد أنك كبرت وأصبحت امرأة يا ابنتي. أنت جميلة.

- حقًّا يا أبي، أنا واثقة من أنّني لست كذلك.

الجميع ينتظرون وصولك ويتطلّعون إليه. أمك تعدّ وجبة عشاء مميّزة لهذه الليلة وسينضمّ إلينا لارس. تلقينا رسالة السيّد باير حيث أخبرنا عن نجاحك على مسرح كريستيانيا. أخبرنا أنّ سولفيج هو الدور الرئيسي.

- نعم، إنه كذلك. لكن هل تمانع إذا بقيت في كريستيانيا لمدة أطول يا أبي؟

أجاب أندرس بهدوء:

- لن يكون عادلًا أن نشتكي بعد كل ما فعله السيّد باير من أجلك. يقول إنك ستصبحين مشهورة وإنّ صوتك هو حديث المدينة. نحن فخورون بك.

قالت آنّا وقد احمرّت وجنتاها:

- أعتقد أنّه يبالغ يا أبي.

- أشكّ في أنه يبالغ. عليك بالطبع أن تتحدثي إلى لارس يا آنّا. فهو غير مسرور لأنّ خطوبتكما وزواجكما تأجّلا مرة أخرى، لكننا نأمل أن يهتمّ لأمرك بما يكفي لكي يتفهّم.

شعرت آنّا بمعدتها تنقبض عند ذكر لارس. وبعد أن صمّمت على ألّا تدع هذا يُفسد يومها الأول في بيتها، بذلت قصارى جهدها لكي تُبعد هذه الأفكار وتتناساها.

ومع خروجهما من درامن إلى الريف الواسع، أصبح النهار مشرقًا فأغمضت آنّا

عينيها، لتركّز على سماع وقع حوافر الحصان الصغير وزقزقة العصافير على الأشجار. تنشّقت الهواء المنعش والصافي كحيوان كان مسجونًا في قفص وأُطلق سراحه فجأة في البراري، وقرّرت أنها قد لا تعود ثانية إلى كريستيانيا.

أخبرها أندرس أنّ البقرة روزا تمكّنت من البقاء وتجاوزت شتاءً آخر ما جدّد إيمان آنّا بأن صلواتها قد استُجيب لها. بعدئذ، تحدّث عن خطط زواج كنوت وعن جنون الطبخ والخبز الذي غرقت فيه أمها حاليًا.

علّق أندرس قائلًا:

- سيغريد فتاة لطيفة وأعتقد أنها ستكون زوجة صالحة لكنوت. والأهم هو أنّ أمك تحبّها أيضًا وهو أمر جيّد لأنّ الزوجين السعيدَين سيعيشان تحت سقفنا. بعد أن تتزوّجي لارس، ستنتقلين إلى منزله وسنفكّر في بناء منزل آخر في العام القادم.

عندما وصلا إلى المزرعة في وقت متأخر من بعد الظهر، خرج الجميع للترحيب بها حتى جيردي، القطة العجوز، ركضت بأسرع ما يمكنها على سيقانها الثلاث وتبعها فيفا الكلب وهو يعرج، وراح يقفز حول آنّا بفرح.

عانقتها أمها عناقًا طويلًا وقالت:

- انتظرت طيلة النهار حتى أراك. كيف كانت رحلتك؟ يا إلهي، تبدين نحيلة! لقد طال شعرك كثيرًا وأعتقد أنه يحتاج إلى قصّ..

استمعت آنّا إلى حديث أمها المتواصل بينما هم يتوجّهون إلى المنزل. طالعتها الرائحة المألوفة والمطمئنة للخشب المحترق وبودرة والدتها والنقانق وملأت أنفها بينما كانت تتوجّه إلى المطبخ.

نادت بيريت كنوت وهي تضع الإبريق على المدفأة لتعدّ القهوة:

- ضعْ حقيبة آنّا في غرفتها. آمل ألا تمانعي يا آنّا لكننا نقلنا أغراضك إلى غرفة كنوت. إنها أصغر من أن تسع السرير المزدوج الذي سيتشاركه كنوت وسيغريد بعد زواجهما. أخرج والدك الأسرّة وأعتقد أنّ الغرفة مريحة بسرير واحد. ستلتقين أختك الجديدة غدًا عندما تحضر لتناول العشاء معنا. آه يا آنّا، أنا واثقة من أنك ستحبّينها.

إنها لطيفة جدًّا وتطريزها رائع. يمكنها أيضًا أن تطهو ما سيساعدني كثيرًا لأنّ داء المفاصل أتعبني باستمرار هذا الشتاء.

استمعت آنّا على مدى الساعة التالية إلى حديث أمها عن سيغريد، وأزعجها أنها طُردت من دون سابق إنذار ومن دون مقدّمات من غرفة نومها، فبذلت قصارى جهدها لئلا تشعر بأنّ هذه الأيقونة من الكمال في التدبير المنزلي قد شرّدتها. وبعد أن شربت قهوتها، اعتذرت آنّا لتتوجّه إلى غرفتها وتفرغ حقيبتها قبل العشاء.

عندما دخلت إلى غرفتها، وجدت مقتنياتها كلها مكدّسة في السلال التي تستخدمها أمها لحمل الدجاج إلى السوق. جلست على فراش أخيها القاسي، وراحت تتساءل عمّا حلّ بسرير طفولتها الخاص. وخلصت وفقًا لما تبدو عليه الأمور هنا، إلى أن يكون والدها قد قطّعه واستخدمه حطبًا للمدفأة. بدأت آنّا تفرغ حقيبتها وهي تشعر باستياء تام.

أخرجت من حقيبتها غطاء المخدّة الذي أمضت ساعات في تطريزه لتقدّمه هدية زفاف منذ أن علمت بخطوبة كنوت وسيغريد. أمضت ليلة تلو الأخرى تخز أصابعها أو تفكّ خيوط قطبة خاطئة، فأصابها اليأس والإحباط من افتقارها للمهارة اللازمة. بسطته على السرير وحدّقت إلى الثقوب المرتخية في القماش حيث اضطرّت لأن تجري تغييرًا في القطب. وحتّى لو خصّصت زوجة أخيها المثالية والكاملة الوسادة لسلّة الكلب، فإن آنّا كانت تعلم بأنّها قطّبت كل قطبة بكثير من الحب.

غادرت غرفتها رافعةً رأسها عاليًا لتنضم إلى عائلتها لتناول العشاء الترحيبي.

وصل لارس فيما هي تساعد والدتها في تقديم الطعام. رمقته آنّا التي كانت تحمل قدر البطاطا بنظرة وهو يدخل إلى المطبخ ويلقي التحيّة على كنوت ووالديها. ولم تستطع أن تمنع نفسها من أن تقارنه على الفور، وبشكل مزعج، بجانس هالفورسن، الرجل السيئ. كانا متناقضين على الصعيد الجسدي، وفي حين كان جانس محور الاهتمام على الدوام، جلّ ما أراده لارس هو الاختفاء عن الأنظار.

وبّختها أمها قائلة:

- آنا، باللّه عليك، ضعي هذه البطاطا من يدك وسلّمي على لارس.

وضعت آنّا طبق البطاطا على الطاولة ومسحت يديها بمئزرها وهي تتقدّم نحوه.

قال بصوت ناعم وهادئ:

- مرحبًا آنّا. كيف حالك؟

- أنا بخير، شكرًا لك.

- هل كانت رحلتك إلى هنا مريحة؟

- جدًا، أشكرك.

شعرت بارتباكه يتصاعد وهو يحدّق إليها، ويبحث عما ينبغي أن يقوله تاليًا. واستطاع أخيرًا أن يقول:

- تبدين... بصحة جيدة.

تدخّلت بيريت قائلة:

- حقًّا؟ أعتقد أنها تبدو نحيلة جدًّا. والسبب هو كل ذاك السمك الذي يتناولونه في المدينة. لا دهن فيه.

منحها لارس ابتسامة دعم قبل أن يجيب:

- لطالما كانت آنّا هيفاء... هكذا أرادها الرب أن تكون.

- آسفة لوفاة والدك.

- أشكرك على مواساتك.

قال أندرس:

- هلّا جلسنا يا بيريت؟ كانت رحلة طويلة ذهابًا وإيابًا وزوجك جائع.

أجابت آنّا، وهم يتناولون الطعام، عن أسئلة لا تنتهي عن حياتها في كريستيانيا. بعدئذ، انتقل الحديث إلى زواج كنوت وترتيبات المدعوّين.

قال لارس:

- لا بدّ من أنّك متعبة من السفر يا آنّا.

وافقته الرأي:

- نعم، أنا متعبة.

قالت بيريت:

- إذًا، أخلدي إلى النوم. أمامنا أعمال كثيرة في الأيام القليلة القادمة ولن يكون لدينا وقت للنوم.

عندئذ، وقفت آنّا قائلة:

- تصبحون على خير، إذًا.

لم يبعد لارس عينَيْه عنها للحظة بينما هي تغادر المطبخ متوجّهة إلى غرفتها. بدأت تخلع ملابسها لتستعدّ للنوم حين تذكّرت فجأة أنّ ما من حمام في منزل والديها. فعادت وارتدت ملابسها مجدّدًا وخرجت من المنزل لتستخدم المراحيض. وعندما استلقت أخيرًا في الفراش، كافحت آنّا لتشعر بالراحة. كانت الوسادة المصنوعة من شعر الخيل قاسية كالصخرة مقارنة مع وسادة ريش الإوز التي تعوّدت النوم عليها في شقّة السيّد باير، وبدا السرير ضيّقًا والفراش متكتّلًا. راحت تفكّر في الأمور التي أصبحت تعتبرها من المسلّمات من دون أن تدرك ذلك. ففي كريستيانيا، لم يكن عليها أن تقوم بأيّ أعمال منزليّة، وكان هناك خادمة تسهر على راحتها وخدمتها.

وبّخت نفسها: «آنا، أعتقد أنك اصبحت مدلّلة». وعلى هذه الفكرة، سرعان ما غطّت في النوم.



مرّ الأسبوع الذي سبق الزواج بزوبعة من الطبخ والتنظيف، وانشغل الجميع بالتحضيرات الأخيرة.

وعلى الرغم من أنها تمنّت ألّا تحب عروس أخيها من حيث المبدأ بسبب الأعمال المنزليّة التي تبرع فيها، لكنّها وجدت سيغريد تمامًا كما أخبرتها أمها عنها. لم يكن جمالها خارقًا، لكنّ طبيعتها الهادئة وازنت هستيريا بيريت مع اقتراب اليوم الموعود. أما سيغريد فكانت مذهولة بآنا وبالحياة الفخمة التي تعيشها في كريستيانيا، وعاملتها بكثير من الاحترام، وانحنت أمام آرائها من دون أيّ اعتراض.

وصل نيلز، شقيق آنّا الأكبر قبل يوم من موعد الزفاف، مصطحبًا معه زوجته وولديه. لم ترهما آنّا منذ أكثر من عام فسرّها أن تتقرّب من ولدَي أخيها الصغيرَين.

وفي غمرة فرحتها باجتماع العائلة كلها، كان يدور في ذهنها أمر واحد: بدا أنّ الجميع يفترضون أنها عندما ستعود من كريستيانيا بعد عرض بير جينت، ستنتقل إلى منزل ترولسن المتهالك بصفتها زوجة لارس. وتشاركه ليس الغرفة وحسب بل السرير أيضًا. وهذه الفكرة بالتحديد جعلت آنّا تشعر بالغثيان وزادت من أرقها ليلًا.

في صباح يوم الزفاف، ساعدت آنّا سيغريد في ارتداء ملابس العروس وهي تتألف من تنورة ذات لون أحمر قان وقميص أبيض تُضاف إليه سترة قصيرة سوداء اللون مزيّنة بقطع ثقيلة من المعدن الذهبي اللون. تأمّلت التطريز الرائع والمتقن على المئزر القشديّ اللون المثبّت فوق الجهة الأماميّة من التنورة.

- الورود مطرّزة بشكل معقّد جدًّا، ولا أستطيع أن أطرّزها كما تفعلين. أنت ذكيّة جدًّا.

أجابتها سيغريد:

- آنا، أنت ببساطة لا وقت لديك مع انشغالك في المدينة. تطلّب جهازي أمسيات كثيرة من أشهر الشتاء لأخيطه. لكنّني لا أستطيع أن أغني كما تفعلين. ستغنين في حفل الزفاف الليلة، أليس كذلك؟

إذا أردت مني أن أفعل، فنعم. ولعلّه من الأفضل أن نقول إنّ هذه هي هديتي بمناسبة زفافكما أنت وكنوت.

وأضافت معترفة:

- لقد طرّزت لكما شيئًا لكنه رهيب.

- لا يهم يا أختي، أعلم أنه مصنوع بكثير من الحب وهذا كل ما يهمّ. والآن، هلّا أعطيتِني التاج وساعدتِني في وضعه؟

أخرجت آنّا تاج الزفاف الثقيل المطليّ بالذهب من علبته. هذا التاج تملكه الكنيسة منذ ثمانين سنة، وقد وضعته كل عروس تزوّجت في القرية. وضعته على رأس سيغريد، فوق شعرها الأشقر وقالت بينما كانت سيغريد تحدّق إلى صورتها في المرآة: «أنتِ الآن عروس بالفعل».

أطلّت بيريت برأسها من الباب قائلة:

- حان وقت الذهاب يا عزيزتي. ولا يسعني إلا أنْ أقول إنك تبدين جميلة للغاية.

وضعت سيغريد يدها على ذراع آنّا وقالت:

- شكرًا على المساعدة يا أختي. سيحين دورك تاليًا عندما تتزوّجين لارس.

هذه الفكرة جعلت آنّا ترتعش لاإراديًا وهي تتبع سيغريد إلى العربة المنتظرة التي نُثرت عليها الورود النضرة المقطوفة من المروج.

في الكنيسة، راقبت أخاها وهو يقف أمام المذبح مع سيغريد والقسّ إرسليف. فكّرت في أنّ كنوت سيصبح ربّ أسرة الآن وسيُرزق بأولاد ذوي شعر أحمر، واستغربت هذه الفكرة. استرقت النظر إلى لارس الذي كان يصغي بانتباه ولا ينظر إليها هذه المرّة.

بعد مراسم الزواج، تبع أكثر من مئة شخص عربة العريس والعروس عائدين إلى منزل عائلة لاندفيك. دعت بيريت الربّ على مدى أسابيع لكي تكون السماء صافية لأنّ المكان لا يتّسع للجميع داخل المنزل، وقد استُجيبت دعواتها. وسرعان ما امتلأت الطاولات الخشبيّة الموضوعة في المرج المجاور بالطعام الذي أسهم في إعداد معظمه الضيوف أنفسهم. امتلأت البطون بأطباق من لحم الخنزير المملّح والحار، ولحم العجل الطريّ المشويّ على نار هادئة بالإضافة بالطبع إلى أطباق سمك الرنكة، وساعدت في امتصاص البيرة المصنوعة يدويًا، وشراب الأكوافيت التقليدي، الذي سال دون ضوابط وقيود خلال الاحتفال.

في وقت لاحق، وعندما شارفت الشمس على المغيب، أُضيئت المصابيح وعُلّقت على أعمدة خشبيّة لتشكّل ساحةً مؤقّتة وبدأ الرقص. انطلق الموسيقيون يعزفون لحن رقصة الهالينغ المبهج، فهلّل الجميع وأفسحوا دائرة في الوسط. تقدّمت شابة إلى الوسط ورفعت أمامها قبعةً على عصا وراحت تتحدّى الرجال أن يتقدّموا ويركلوا القبعة. تدافع شقيقا آنّا وكانا أول من تقدّم إلى الدائرة ليرقصا ويقفزا حول الفتاة، يرافقهما صراخ الجموع وتهليلهم.

التفتت آنّا التي تقطّعت أنفاسها من الضحك لترى لارس يجلس حزينًا ووحيدًا إلى إحدى الطاولات.

ظهرت سيغريد إلى جانبها وسألتها:

- آنّا، هل ستفين بوعدك وتغنين لنا؟

وانضم كنوت اللاهث إليها في التماسها قائلًا:

- نعم، عليك أن تغنّي.

وصاح شخص ما من بين الحضور:

- غنيّ أغنية سولفيج!

وتعالت همهمة جماعيّة توافق على هذا الاقتراح. سارت آنّا نحو منتصف ساحة الرقص، وتمالكت نفسها ثم راحت تغني. وفي هذه الأثناء، عادت أفكارها فجأة إلى كريستيانيا، إلى الموسيقيّ الشاب الذي سحره صوتها حدّ الاستمرار في ملاحقتها...

«وسوف نلتقي مجدّدًا يا حبي، ولن نفترق أبدًا. ولن نفترق أبدًا..».

اغرورقت عيناها بالدموع مع تلاشي النوتة الأخيرة، وبقي المستمعون صامتين. ثم راح أحدهم يصفّق فتبعه الباقون حتى تعالى التصفيق والتهليل من المرج كلّه.

غنّي أغنية أخرى يا آنّا!

نعم! إحدى أغنياتنا.

وعلى مدى نصف الساعة التالية، رافقها والدها على الكمان التقليدي، فلم يعد لديها الوقت لتتعامل مع مشاعرها الخاصّة وهي تغني الأغاني الشعبيّة التي يعرفها الحضور عن ظهر قلب. بعدئذ، حان الوقت لكي يغادر العريس والعروس لقضاء ليلتهما، فاختفى كنوت وسيغريد داخل المنزل يرافقهما سيل من التعليقات الساخرة والنابعة من قلوب طيبة ومحبّة، فضلًا عن الصفير، وبدأت الجموع تتفرّق.

شعرت آنّا بأنها مُستنزَفة ومُشوّشة وهي تساعد في التنظيف. راحت تتحرّك

بشكل آليّ فتنقل الأطباق والصحون إلى البرميل المليء بالماء الذي سُحب من البئر في وقت سابق لهذه الغاية.

- تبدين متعبة يا آنّا.

- شعرت بلمسة يد خفيفة على كتفها فالتفتت ورأت لارس يقف خلفها. ردّت وقد تمكّنت من رسم ابتسامة ضعيفة على وجهها:

- أنا بألف خير.

- هل استمتعت بالزفاف؟

- نعم، كل شيء كان جميلًا. سيغريد وكنوت سيكونان سعيدين معًا.

وعندما استدارت لتركّز على عملها، شعرت بيده تنزلق عن كتفها. واستطاعت أن تراه من زاوية عينها، وقد أحنى رأسه ووضع يديه في جيبيه.

قال بصوت خافت بالكاد سمعته:

- آنا، اشتقت إليك. هل... ألم تشتاقي إليّ على الإطلاق؟

جمدت مكانها وانزلق الطبق المغطّى بالصابون من بين أصابعها قبل أن تجيب:

- بالطبع، اشتقت للجميع هنا لكنني كنت منشغلة جدًّا في كريستيانيا.

علّق بنبرة قاطعة:

- أفترض مع كل أصدقائك الجدد.

ردّت بسرعة وهي تتابع غسل الطبق وتتمنى في سرّها لو يذهب:

- نعم، كالآنسة أولسداتر والأطفال في المسرح.

حام لارس حولها متردّدًا لبضع ثوانٍ واستطاعت أن تشعر بعينيه عليها. وأخيرًا تكلّم قائلًا:

- كان يومًا طويلًا بالنسبة إلى الجميع. عليّ أن أستأذن وأغادر... لكن عليّ أولًا يا آنّا أن أطرح عليك سؤالًا، إذ أعلم أنك ستعودين إلى كريستيانيا غدًا. أرجو منك أن تجيبيني بصدق، من أجلنا نحن الاثنين.

استطاعت آنّا أن تلتمس الجديّة الكامنة في صوته، فاعتصرت معدتها وردّت:

- بالطبع يا لارس.

- هل... هل ما زلتِ ترغبين في الزواج منّي؟ نظرًا لما تغيّر وسيتغيّر أكثر بالنسبة إليكِ. أقسم أنني سأتفهّم إذا لم ترغبي في ذلك.

- أنا...

وأخفضت رأسها فوق الأطباق وزمّت عينيها وأطبقتهما متمنيّة لو أنّ هذه اللحظة تختفي ثم أردفت:

- أعتقد ذلك.

- لكنّني لا أعتقد أنك تريدين ذلك. آنّا، أرجوك، من الأفضل لكل واحد منّا أن يعرف موقف الآخر. أستطيع أن أنتظر بعد إن كان هناك أمل. لكنّ هناك شعورًا لا يفارقني بأنك لم تكوني مرتاحة لفكرة ارتباطنا المقترح منذ البداية.

- لكن ماذا عن أمي وأبي والأرض التي بعتها لهما؟

أطلق لارس تنهيدة عميقة قبل أن يجيبها:

- آنا، لقد أخبرتني للتو بكل ما أريد معرفته. سأغادر الآن، لكنني سأكتب لك رسالة لأخبرك كيف علينا أن ننظّم الأمور. لا حاجة لأن تخبري والديك فأنا سأتولّى المسألة كلّها.

وانحنى ومدّ يده ليخرج إحدى يديها من الماء. رفعها إلى شفتيه وطبع قبلة عليها مضيفًا:

- الوداع يا آنّا وليباركِكِ الرب.

راقبته وهو يبتعد ليبتلعه الظلام، وأدركت أنّ خطوبتها مع لارس ترولسن انتهت، بحسب ما يبدو، قبل أن تبدأ.



آب 2007

"Solveig's Song"



22

كان الوقت قد جاوز الظهيرة عندما رفعت عينيّ عن شاشة الكمبيوتر المحمول فتراقص ورق الحائط المقلّم خلفه قبل أن يثبت مكانه مجدّدًا ببطء. وعلى الرغم من أنه لم يكن لديّ فكرة عن علاقتي بقصّة جرت قبل مائة وثلاثين سنة، إلا أنّ ما قرأته حتى الآن سحرني. تعلّمت في معهد الموسيقا في جنيڤ عن حياة مؤلّفين موسيقيين كُثُر ودرست روائعهم، لكن هذا الكتاب صوّر تلك الحقبة بطريقة تنبض بالحياة. وسُحرت بفكرة أنّ جانس هالفرسون كان عازف الفلوت الذي عزف الحقول الموسيقيّة الأربعة الأولى الشهيرة في العرض الأول لواحدة من المقطوعات الموسيقيّة المفضّلة لديّ.

عندئذ، فكّرت في رسالة أبي وتساءلت ببساطة: هل أرادني أن أقرأ قصّة بيرجينت لينعش فيّ حبي الموسيقا من جديد. كما لو أنه علم أنني قد أحتاج ذلك...

نعم، العزف في حفل تأبين ثيو أراحني وواساني. وحتى الوقت الذي احتجت إليه لكي أتمرّن على القطعة شكّل فترة ارتحت خلالها من التفكير فيه. ومنذ ذاك الحين، تعوّدت إخراج الفلوت من علبتها والعزف من أجل المتعة، أو لعلّ الأصح هو أني كنت أعزف لأسكّن الألم.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل هناك علاقة أعمق مما تبدو عليه، وهل هناك رابط دم بيني وبين آنّا وجانس. رابط يمتد كخيط رفيع من الحرير على مدى مائة وثلاثين عامًا...

وتساءلت: هل عرف پاپا سولت جانس أو آنّا حين كان أصغر سنًّا بكثير؟ كان بابا في أواخر الثمانينات من عمره حين تُوفّي فافترضت أنّ هناك احتمالًا واردًا،

وذلك بحسب تاريخ وفاة جانس وآنا. لكن الأمر المزعج هو أنّ هذه المعلومات لم تكن في الوقت الحالي متوفرة لديّ.

قاطع أفكاري هذه رنين هاتف المنزل الحاد. ولمّا كنت أعلم أنّ المجيب الآلي القديم لدى سيليا معطّل، ما يعني أنّ الهاتف سيرن بشكل متواصل، غادرت غرفة النوم وهرعت إلى الأسفل لأجيب.

- مرحبًا؟

- أوه، مرحبًا، هل سيليا موجودة؟

أجبت وقد عرفت الصوت الذكوريّ ذا اللكنة الأميركيّة:

- ليس في الوقت الراهن. أنا آلي. هل ترغب في أن تترك لها رسالة؟

- حسنًا، مرحبًا آلي. أنا بيتر، والد ثيو. كيف حالك؟

أجبت بشكل مباشر:

- أنا بخير. يُفترض أن تعود سيليا الليلة قرابة موعد العشاء.

- سيكون الوقت قد تأخّر بالنسبة إليّ، لسوء الحظ. اتّصلت فقط لأخبرها أني سأغادر هذا المساء عائدًا إلى الولايات المتحدة. شعرت بأنّ عليّ أن أتحدّث إليها قبل رحيلي.

- حسنًا، سأخبرها أنك اتصلت يا بيتر.

- شكرًا لكِ.

وساد الصمت بيننا قبل أن يردف:

- آلي، هل أنتِ مشغولة الآن.

- لا، ليس فعليًّا.

- إذًا، هل نستطيع أن نلتقي قبل أن أتوجّه إلى المطار؟ أنا في فندق دورشستر؛ بإمكاني أن أقدّم لك كوبًا من الشاي. إنه على بُعد خمس عشرة دقيقة من منزل سيليا إذا ما ركبتِ سيارة أجرة.

- أنا...

- رجاءً؟

وافقت على مضض:

- حسنًا.

- هل تناسبك الساعة الثالثة في برومناد؟ عليّ أن أتوجّه إلى المطار عند الرابعة.

قلت وأنا أضع السمّاعة وأتساءل عمّا أحمله معي من ملابس يمكن أن أرتديها لأحتسي الشاي في فندق دورشستر:

- ألقاك حينذاك يا بيتر.

عندما دخلت إلى الفندق بعد ساعة، شعرت بالذنب بشكل غريب كما لو أنني أخون سيليا. لكن بابا سولت لطالما ربّاني على ألّا أحكم على أيّ شخص بناءً على الكلام الذي أسمعه عنه. وبيتر هو والد ثيو، وعليّ بالتالي أن أمنحه فرصة.

ناداني وهو يلوّح لي من على طاولة في القاعة الفخمة ذات الأعمدة الرخاميّة التي تطلّ على بهو الفندق. وقف ليرحّب بي عندما تقدّمت منه وصافح يدي بقبضة دافئة وحازمة وهو يقول:

- أرجو أن تجلسي. لم أكنْ واثقًا ممّا قد ترغبين فيه، ولأن وقتنا ضيّق، سمحت لنفسي بأن أطلب كل ما لديهم.

وأشار إلى الطاولة المنخفضة التي غطّتها أطباق صينيّة من السندويشات الصغيرة والمقطّعة بدقّة، وإلى حامل حلوى من ثلاث طبقات امتلأ بالمعجنات وأنواع الكعك الفرنسيّة الهشّة، والتي ترافقت مع أطباق صغيرة من المربى والكريما المحلّاة. قال:

- هناك بالطبع غالونات من الشاي أيضًا. واو، فالإنكليز يحبّون شايهم!

قلت وأنا أجلس على المقعد قبالته، من دون أن أشعر بأيّ جوع:

- شكرًا لك.

تقدّم مني على الفور نادل بقفّازين ناصعي البياض ليسكب لي كوبًا من الشاي،

فاستغللت هذه الفرصة لأتأمّل والد ثيو جيّدًا. كانت عيناه داكنتين، وبشرته شاحبة، وبالكاد تتناسب مع سنّه- هو على الأرجح في بداية الستينات من عمره- وبنيته مفتولة العضلات تحت سترته الكحليّة غير الرسميّة والمفصّلة بأناقة وبكلفة عالية. لاحظت أنه صبغ شعره باللون البني غير الطبيعيّ، وقررت أنّ ثيو لا يشبه أباه أبدًا حتى ابتسم بيتر لي. كان رسم فمه غير المتوازن يشبه فم ابنه إلى حدٍّ جعلني أحبس أنفاسي.

سألني بعد أن انسحب النادل:

- حسنًا يا آلي، كيف تسير أمورك؟ هل بدأت تتكيّفين؟

- أفترض أني أعيش لحظات جيّدة وأخرى سيّئة. ماذا عنكَ؟

- إذا أردتِ الحقيقة يا آلي فسأقول إني لا أتكيّف كما يجب. ما حصل صعقني. لا أنفكّ أتذكّر ثيو حين كان طفلًا، وكم كان ولدًا جميلًا ولطيفًا. أن يموت ولدك قبلك ليس هو التسلسل الصحيح للأحداث. أتعلمين هذا؟

- أفهمكَ.

تعاطفتُ مع هذا الرجل الذي وصفه كلٌّ من سيليا وثيو بشكل سلبي أثار فضولي. استطعت أن أرى أنّه يحاول أن يتماسك، لكنني شعرت بألمه الذي كان يشعّ منه وكأنّه شيء ملموس. سألني:

- كيف تتعامل سيليا مع الأمر؟

- كحالنا كلنا... بكثير من الصعوبة. كانت لطيفة للغاية معي.

- لعله مفيد لها أن تجد شخصًا آخر تعتني به. ليتني وجدت أحدهم مثلها.

قلت وأنا آخذ سندويش السلمون المدخّن وأقضمه:

- يجب أن أخبرك أنّ سيليا قالت لي إنه كان علينا أن ندعوك لكي تأتي وتجلس معنا في المقعد الأمامي في الكنيسة لو علمت أنك موجود.

- حقًّا؟

أشرق وجه بيتر قليلًا وأردف:

- يسرّني أن أسمع هذا يا آلي. ربما كان عليّ أن أخبرها بأنّني قادم لكنّني علمت أنها مفجوعة ولم أشأ أن أزيد من استيائها. لا بد من أنّك أدركتِ من قبل أنني لستُ على رأس قائمة أصدقائها وأحبابها.

- لعلّها تجد صعوبة في أن تغفر لكَ... أنتَ تعلم ما فعلتَه بها.

- حسنًا أيتها الشابة، كما قلت لك ذلك اليوم بعد الجنازة؛ هناك دائمًا وجه آخر لأيّ قصة، لكنّنا لن نتطرّق إلى الأمر الآن. نعم، أنا أتحمّل جزءًا كبيرًا من المسؤوليّة واللوم. إنّني ما زلت أحبّ سيليا، وهذا سرٌّ بيني وبينك.

تنهّد بيتر قبل أن يردف:

- أنا أحبّها كثيرًا إلى حدٍّ يسبّب لي ألمًا جسديًّا. أعلم أنّني خذلتها وقمتُ بأشياء سيئة، لكنّنا تزوّجنا في سنٍّ يافعة، وعند التفكير في ما حدث، كان عليّ أن أتصرّف بشكل جامح وخليع قبل الزواج وليس خلاله. سيليا... حسنًا...

وهزّ بيتر كتفيه ثم تابع كلامه:

- كانت سيدة حقيقية، إذا ما فهمت ما أقصده. كنّا نقيضين على هذا الصعيد. في أيّ حال، لقد تعلّمت درسي.

قلت من غير رغبة في متابعة هذا التفسير أكثر:

- نعم. في الواقع، أعتقد أنّها ما تزال تحبّك أيضًا.

رفع بيتر حاجبيه في حركة مشكّكة وقال:

- حقًّا؟ من المؤكّد أنّ هذا ليس ما توقّعت سماعه منك.

- لا، على الأرجح لا. لكنّ هذا يظهر في عينيها عندما تتحدّث عنك، حتى عندما تقول شيئًا سلبيًّا. قال لي ابنك ذات مرّة إنّ هناك خيطًا رفيعًا بين الحب والكراهية.

- لا شكّ في أنّه أشار إلى ذلك. هذا هو الشاب الحذق والذكيّ عاطفيًّا الذي كان عليه. أتمنّى لو كنت أتمتّع بنصف فهمه للطبيعة البشريّة.

تنهّد بيتر وأضاف:

- لم يرث هذا منّي بالتأكيد.

أدركتُ أنني على الأرجح، غصتُ في موضوع عميق جدًا. لكنني، وما دمت غارقة فيه حتى عنقي، قررت أن أسير مع التيار فقلت:

- أتعلم، أعتقد أنّ ثيو كان يحب فكرة أن يلتقي والداه وأن يسويّا قضايا الماضي. وإن كان هذا هو الشيء الجيّد الوحيد الذي يمكن أن نحصده من هذه المأساة، نكون على الأقل قد حقّقنا شيئًا.

حدّق بيتر إليّ وأنا أرتشف الشاي وقال:

- أعتقد أنّني أفهم تمامًا لماذا أحبكِ ابني بهذا القدر. أنتِ مميّزة يا آلي. لكن، ومهما تكن نواياك جيدة، فأنا لم أعدْ أؤمن بالمعجزات.

- أنا أؤمن بها. نعم، أنا أؤمن. لم أبق مع ثيو سوى بضعة أسابيع، لكنّه غيّر حياتي. إنّ لقاءنا وانسجامنا بهذا الشكل الممتاز معجزة، وأعلم أنّه جعل مني شخصًا أفضل بالرغم من كل الألم.

وجاء دوري لكي أذرف الدموع، فمدّ بيتر يده عبر الطاولة وربّت يدي.

- حسنًا يا آلي. أنا معجب بكِ بالتأكيد لأنكِ تحاولين أن تستخلصي الإيجابي من السلبي. هكذا كنتُ أنا منذ زمن بعيد.

- تستطيع بالتأكيد أن تكون كذلك مجدّدًا؟

- أعتقد أنّني خسرت هذا كلّه خلال مرحلة الطلاق. في أيّ حال، أخبريني عن مشاريعك للمستقبل. هل ترك لكِ ابني ما يكفيكِ؟

- نعم، لقد فعل. هو، في الواقع، عدّل وصيّته قبل السباق. ترك لي قارب سانسيكر ومزرعة قديمة على جزيرة أنافي، قرب منزلكم الجميل. صدقًا، وعلى الرغم من أنّني أحببت ثيو كثيرًا، لكنّني لست واثقة من أنّني أستطيع أن أرى نفسي ذاهبة إلى «مكانٍ ما»، كما كنّا نسمي أنافي، لأواجه السلطات اليونانيّة بغية بناء منزل أحلامه.

- هل ترك لك حظيرة الماعز المجنونة تلك؟

وأرجع بيتر رأسه إلى الخلف وضحك قبل أن يضيف:

- اعلمي أنّني عرضت على ثيو مراتٍ عدّة أن أشتري له منزلًا خاصًا، لكنّه رفض رفضًا قاطعًا.

قلت مع حركة طفيفة من كتفي:

- كبرياء.

عارضني بيتر قائلًا:

- أو غباء. ابني كان رياضيًّا يلاحق شغفه. علمتُ أنّه يحتاج إلى مساعدة ماليّة لكنه رفض قبولها مني. أراهن على أنكِ لم تشتري منزلًا خاصًا بكِ أنتِ أيضًا يا آلي. كيف يمكن لأيّ شاب، أو شابة، أن يفعل هذا في أيامنا حتّى وإن كان دخله عاديًّا؟

أجبته بابتسامة:

- لا، لم أفعل. مع العلم بأنّني أصبحت أملك الآن حظيرة الماعز.

- حسنًا الآن، أودّ أنْ أقول لكِ بدايةً أنكِ إذا رغبتِ في أن تذهبي إلى منزلي على الجزيرة فأنت أكثر من مرحّب بكِ في أيّ وقت. تعلم سيليا أنّها تستطيع أن تستخدمه متى شاءت أيضًا، لكنها ترفض الذهاب إلى هناك. يبدو أنّ لقرارها علاقة بشيء قلتُه لها حين كنا معًا هناك في ذاك الحين. ولا تسأليني ما هو لأنني لا أستطيع أن أتذكّر. دعيني أخبركِ يا آلي بأنّني الرجل المناسب إذا ما احتجتِ يومًا للمساعدة في أي قضية تعود إلى سلطات التخطيط المحليّة. لقد استثمرتُ أموالًا كثيرةً في تلك الجزيرة بحيث ينبغي تعييني رئيسًا لبلديتها! هل أصبحت حجج الملكيّة بحوزتك؟

- ليس بعد. لكنْ ما إنْ تنتهي عملية إثبات الإرث بالنسبة إلى العقار حتى يرسلوا لي الأوراق.

- حسنًا، إذا احتجتِ أيّ شيء أيتها الشابة فاعلمي أنّني موجود ومستعد للمساعدة. هذا أقل ما يمكن لي أن أفعله، أن أعتني بالفتاة التي أحبّها ابني.

- شكرًا لك.

وجلسنا صامتَين لبعض الوقت، شاعرَين بأنّنا نفتقده.

وفي النهاية قال بيتر:

- إذًا، لم تخبريني بعد عن مشاريعكِ المستقبليّة.

- هذا لأنّني لستُ واثقة منها.

- قال ثيو إنّك بحّارة ماهرة وإنك ستتدرّبين مع الفريق الأولمبي السويسريّ.

- لقد انسحبت. ولا تطلب مني أن أشرح السبب، أرجوك يا بيتر، لا أستطيع أن أفعل هذا.

- لا حاجة للتفسير. وإذا سمحت لي سأقول إنّ هناك خياراتٍ أخرى متاحةً أمامكِ. أنتِ موسيقيّة بارعة يا آلي. تأثّرتُ كثيرًا بعزفكِ على الفلوت في حفل التأبين.

- إنه لطف كبير منك يا بيتر أن تقول هذا. لكنني كنت صدئة فعلًا. لم أعزف كما ينبغي منذ سنوات.

- حسنًا، لم يبدُ عزفك كذلك بالنسبة إليّ. لو كنتُ أتمتّع بموهبة مثل موهبتكِ لاهتممتُ بها ورعيتها. هل هذا وراثيّ في العائلة؟

- لست واثقة... ربما. توفيّ والدي منذ أسابيع فقط....

بدا بيتر مذعورًا وقال:

- آلي! يا إلهي! كيف تحملتِ فقد الرجلين اللذين في حياتك؟

- بصراحة... لا أعلم. ابتلعت ريقي وقد اكتسحتني موجة من المشاعر.

- أنا بخير طالما لا يُظهر أحد تعاطفه لي. وتابعت كلامي قائلة:

في أيّ حال، القصد هو أنني متبنّاة، أنا وشقيقاتي الخمس. وهديّة الوداع التي تركها لي أبي هي بعض الإشارات عن ماضيّ. ومن القليل الذي أعرفه حتى الساعة، يتبيّن أنّ الموسيقا موجودة في جيناتي.

- فهمت. ونظر إليّ وقد امتلأت عيناه الداكنتان بالتعاطف ثم أردف سائلًا:

- هل تنوين اكتشاف مزيد؟

- لستُ واثقة بعد. لم أكن أنوي ذلك بالتأكيد حين كان ثيو موجودًا. كنتُ أتطلّع إلى المستقبل.

- هذا طبيعي. أليس لديكِ أيّ مشاريع للأسابيع القليلة القادمة؟

- لا، لا شيء.

- حسنًا إذًا، هذا هو جوابكِ: اذهبي واتبعي الإشارات التي أُعطيت لك. أنا كنت لأفعل هذا بالتأكيد. وأعتقد أنّ ثيو كان ليرغب في أن تفعلي ذلك. والآن...

التفت إلى ساعته قبل أن يضيف:

- يحزنني أن أضطر لتركك، لكنّني سأفوّتُ رحلتي إن لم أفعل. الحساب مدفوع فأرجو أن تبقي وتنهي طعامك إذا شئت. وأعود وأكرّر: إن احتجت أيّ شيء يا آلي، أعلميني وحسب.

ووقف، فوقفت مثله. عندئذ، وبشكل تلقائي، ضمّني بين ذراعيه في عناق شديد وقال:

- آلي، أتمنّى لو تسنّى لنا مزيد من الوقت لكي نتحدّث، لكنْ يسرّني أنّني تعرّفت إليك. هذا اليوم هو الشيء الإيجابي الوحيد الذي خرجت به ممّا حصل وأنا أشكركِ على ذلك. وتذكّري ما قاله لي أحدهم ذات مرة: إنّ الحياة لا ترمي إليك إلا بما تشعر أنك قادر على التعامل معه ومواجهته. وأنت شابة مذهلة بالفعل.

بعدئذ، أعطاني بطاقة قبل أن يضيف:

- ابقي على اتّصال بي.

وعدته قائلةً:

- سأفعل.

فلوّح لي بحزن وغادر.

جلست، ورحت أتأمل الأصناف الفخمة الموضوعة أمامي، ومن ثمّ مددت يدي من دون حماسة إلى كعكة، غير قادرة على تحمّل فكرة أن يذهب الطعام هباءً. أنا أيضًا تمنّيت لو تحدّثنا لوقت أطول. فقد أحببته بغض النظر عما قالته لي سيليا عن زوجها السابق، وبغض النظر عما فعله بها. فعلى الرغم من كل ثرائه المعروف وسلوكه السيئ، شعرت بشيء من الضعف الطبيعي فيه.

عندما وصلتُ إلى المنزل، وجدتُ سيليا في غرفة نومها، توضّب حقيبة. سألتني:

- هل قضيتِ وقتًا ممتعًا بعد الظهر؟

- نعم، شكرًا لكِ. التقيت بيتر واحتسينا الشاي معًا. اتصل بالمنزل ليتحدّث إليكِ بعد أن غادرتِ هذا الصباح فأجبتُ أنا على الهاتف.

- حسنًا، اتصاله فاجأني. فهو لم يفعل هذا من قبل عندما يكون في المملكة المتحدة.

- لأنّه لم يخسر ابنه من قبل. في أيّ حال، هو يرسل لك حبه.

عندئذ، قالت بنبرة مبالغ فيها من الزهو:

- حسنًا. والآن يا آلي، سأغادر في الصباح الباكر من يوم غد كما تعلمين. أرحّب ببقائك هنا بقدر ما تشائين؛ عليكِ فقط أن تشغّلي جهاز الإنذار ضد السرقة، وترسلي لي مفاتيح الباب الرئيسي عبر البريد عندما تقرّرين الرحيل. هل أنت واثقة تمامًا من أنك لا ترغبين في مرافقتي؟ توسكانا جميلة جدًّا في مثل هذا الوقت من السنة. وكورا ليست أقدم صديقة لديّ فحسب، بل هي أيضًا عرّابة ثيو.

- أشكركِ جزيل الشكر على السؤال، لكني أعتقد أنّ الوقت قد حان لأخرج وأجد لنفسي هدفًا في الحياة.

- حسنًا، تذكّري أنّ الوقت ما يزال مبكرًا. فقد طلّقتُ بيتر منذ عشرين عامًا ولم أستعد زمام حياتي بعد على ما يبدو.

وهزّت كتفَيها بحزن قبل أن تردف:

- في أيّ حال، ابقي هنا بقدر ما تريدين.

- أشكرك. لقد تسوّقت قليلًا في طريق عودتي إلى المنزل وأودّ أن أعدّ الطعام الليلة على سبيل الشكر. لن أعدّ طبقًا فخمًا بل المعكرونة وحسب، لكنّني آمل أن تجعلك في مزاج مناسب لإيطاليا.

- كم أنتِ لطيفة يا عزيزتي آلي. سيكون هذا جميلًا.

جلسنا على الشرفة لتناول آخر وجبة عشاء معًا. لم تكن شهيّتي مفتوحة على الطعام، ولاحظت، بينما كنت أبذل قصارى جهدي لأتناول قليلًا بالشوكة، أنّ

رؤوس ورود سيليا الحانية تفقد لونها وأنّ أطراف البتلات بنيّة ويابسة. حتى رائحة الهواء بدت مختلفة؛ كان الهواء أثقل ممّا كان قبلًا وكأنه يُنذر باقتراب الخريف. وأثناء تناولنا الطعام، غرقت كل واحدة منّا في أفكارها كما لو أننا أدركنا أننا نفقد دردشاتنا التي تعوّدنا تسكين آلامنا بها، وأنّ علينا أن نواجه العالم من جديد.

قالت سيليا بينما كنّا نحمل الأطباق الفارغة إلى المطبخ:

- أريد أن أشكرك يا آلي على وجودكِ هنا. لا أعرف ما كنت لأفعله من دونكِ.

قلت بينما شرعت سيليا بغسل الأطباق وأمسكت أنا بفوطة لتجفيفها:

- وأنا أيضًا لم أكن أعرف ما كنت لأفعله من دونك.

- وأريدك أن تعرفي أيضًا أنك تستطيعين أن تعتبري هذا البيت بيتكِ كلما حضرتِ إلى لندن يا آلي.

- شكرًا لكِ.

- أكره أن أذكر هذا، لكني سأتسلّم رماد ثيو عندما أعود من إيطاليا. علينا أن نحدد موعدًا للذهاب إلى لومينغتون لننثره معًا.

ازدردت ريقي وأجبت:

- نعم، بالطبع.

- سأشتاق إليك يا آلي. أشعر فعلًا وكأنك الإبنة التي لم أُرزق بها.

وأضافت بصوت خشن:

- من الأفضل أن أخلد إلى النوم. ستصل سيارة الأجرة عند الرابعة والنصف، ولا أتوقّع منك بالتأكيد أن تكوني مستيقظة في مثل هذا الوقت. وبالتالي سأودّعك، لكن ابقي على اتصال بي، هلّا فعلت؟

سأفعل بالطبع.

كان نومي متقطّعًا في تلك الليلة وقد شغلت الصفحات البيض الفارغة لمستقبلي القريب أحلامي. عرفت حتى اليوم ما أريده بالتحديد وما أفعله، ولكن هذا الشعور بالفراغ والخمول الذي أعيشه حاليًّا جديد عليّ.

همهمتُ وأنا أجرجر نفسي لأترك السرير في صباح اليوم التالي:

- لعلّ هذا ما يشعر به المُصاب بالاكتئاب.

أجبرت نفسي على أن أستحم بالرغم من شعوري بشيء من الغثيان. وبينما كنت أجفّف شعري بالمنشفة، طبعت على محرّك البحث اسم «جانس هالڤورسن». كان المكتوب عنه باللغة النروجية قليلًا، وهو أمر مزعج، فانتقلت إلى موقع مختص ببيع الكتب بالتجزئة عبر الإنترنت، حيث بحثت عن أيّ كتاب بالفرنسية والإنكليزية يمكن أن يأتي على ذكره.

ووجدته.

تلميذ غريغ

الكاتب: توم هالڤورسن

تاريخ الإصدار (طبعة الولايات المتحدة) 30 آب 2007

حرّكت الفأرة نزولًا لأجد الملخّص القصير.

«توم هالڤورسن، عازف كمان شهير في أوركسترا بيرغن الفيلهارمونية، كتب سيرة جدّه الأكبر، جانس هالڤورسن. وهو يعرض حياة مؤلّف وموسيقيّ موهوب تعاون تعاونًا وثيقًا مع إدوارد غريغ. وبفضل ذكريات عائلية مذهلة، نرى غريغ من جديد عبر عينيْ أحد الذين عرفوه عن كثب».

طلبتُ الكتاب على الفور، علمًا بأنّهم ذكروا أنّ التوصيل من الولايات المتحدة يتطلّب أسبوعين. وخطرت لي فكرة رائعة، فأخرجت بطاقة بيتر من محفظتي وكتبتُ له رسالة إلكترونية شكرته فيها على الشاي ثم شرحت له بأنّني بحاجة للحصول على كتاب لا يتوفّر سوى في أميركا، وسألته إن كان بإمكانه أن يجده لي؟ لم أشعر بذنبٍ لأنّني طلبت منه ذلك؛ كنت واثقة من أنّ لديه مساعدين كُثُرًا رهن إشارته وعلى استعداد لأن يبحثوا عنه.

بعدئذ، طبعت «بير جينت» وبحثت في المراجع المختلفة فصادفت متحف إيبسن في أوسلو - أو كريستيانيا كما عرفها آنّا وجانس- وأمينه إيرك إيفدرسون. بدا أنه خبير معروف عالميًّا في ما يتّصل بهانريك إيبسن ولعلّه مستعدّ لأن يساعدني إذا ما راسلته.

كنت متشوّقة لأن أتابع بحثي وأقرأ ما تركته من ترجمة الكتاب، لكنني أطفأت الكمبيوتر المحمول على مضض عندما أدركت أنّ لديّ موعدًا في باترسي لأتناول الغداء مع ستار بعد نصف ساعة.

أوقفت سيارة أجرة من أمام المنزل واجتزنا نهر التايمز عبر جسر زهريّ اللون جميل ومزخرف، وقرّرت أنّني بدأت أقع في حبّ لندن. هناك شيء أنيق وفخم بشكل طبيعي فيها، لا يشبه الطاقة المحمومة لمدينة نيويورك أو خدر جنيڤ. تبدو المدينة ككل شيء آخر في إنكلترا، واثقة كل الثقة من تاريخها الخاص وفرادتها.

توقّفت سيّارة الأجرة أمام ما يبدو أنّه كان مستودعًا في الماضي. يقع المكان على ضفة النهر، وهو ما كان يسهّل في الماضي الوصول إلى المراكب لتنزيل حمولتها من شاي وحرير وتوابل. سدّدت الأجرة للسائق وقرعت الجرس قرب الرقم الذي أعطتني إياه ستار. فُتح الباب بزرٍّ إلكتروني وتناهى إليّ صوتها وهي تطلب مني أن أستخدم المصعد لأصل إلى الطابق الثالث، وهذا ما فعلته، فوجدت ستار تنتظرني عند الباب الخارجي.

سألتني ونحن نتعانق:

- مرحبًا يا عزيزتي، كيف حالك؟

كذبت وأجبتها:

- أتكيّف.

قادتني إلى غرفة معيشة بيضاء على شكل كهف، مع نوافذ تصل من السقف إلى الأرضيّة وتطلّ على التايمز.

قلتُ وأنا أتجوّل لأتأمّل المشهد:

- واو! هذا المكان مذهل!

قالت ستار وهي تهزّ كتفيها باستخفاف:

- سيسي اختارته. هناك مساحة واسعة لتعمل والضوء جيّد أيضًا.

التفتُّ حولي ولاحظت التصميم المفتوح للمكان، والأثاث القليل الموزّع على ألواح الخشب الأشقر الذي يغطي الأرضيّة والسلالم اللولبية الصغيرة، التي افترضتُ أنها تفضي إلى غرف النوم. ما كنتُ شخصيًا لأختار مثل هذا المكان لأنه بعيد كلّ البعد عن الدفء والحميميّة، لكنّه بالتأكيد مبهر.

سألتني ستار:

- هل أقدّم لك كأسًا من الشراب؟ لدينا نبيذ من كلّ الألوان ولدينا بيرة بالطبع.

قلتُ وأنا أتبعها إلى المطبخ المجهّز بأجهزة حديثة من الستانلس ستيل والزجاج البلّوري:

- سأشرب ما تشربينه يا ستار.

فتحتْ أحد بابَي الثلاجة الضخمة وبدا عليها التردّد، فاقترحت:

- نبيذ أبيض.

- نعم، فكرة جيدة.

راقبت شقيقتي الصغرى وهي تنزل كأسين من إحدى الخزائن وتفتح زجاجة النبيذ، وخطر لي مجدّدًا كم أنّ ستار لا تعبّر عن رأيها الخاص أو تتّخذ أيّ قرار بنفسها. ناقشنا أنا ومايا مطوّلًا إن كانت شخصيّة ستار الطبيعيّة هي التي تجعلها تذعن للآخرين؟ أم أنّ سلوكها ناجم عن دور سيسي المهيمن في علاقتهما.

- الرائحة لذيذة. قلت هذا وأنا أشير إلى قدر تغلي على صفيحة التسخين ذات الحجم الضخم. واستطعت أن أرى شيئًا يُشوى في الفرن ذي الواجهة الزجاجيّة.

- سأستخدمك فأر تجارب يا آلي. أنا أجرّب وصفة جديدة وهي تكاد تكون جاهزة.

- عظيم. في صحتك كما يقولون هنا في إنكلترا.

- نعم، في صحتك.

ارتشفنا قليلًا من الخمر، لكنني وضعتُ كأسي على الطاولة، إذ سرعان ما

استحال حمضيًّا في معدتي. فكّرت، وأنا أراقبها تحرّك محتويات القدر، كم تبدو ستار يافعة بشعرها الأشقر المائل إلى البياض الذي يصل إلى كتفيها، وغرّتها الطويلة التي غالبًا ما تنزل على عينيها الزرقاوين الكبيرتين فتخفيهما وتخفي تعابيرهما كستارة حاجبة تحميهما. وجدت صعوبة في تذكّر أنّ ستار امرأة شابة في السابعة والعشرين من عمرها.

سألتها:

- إذًا، كيف تسير أمورك في مدينة لندن؟

- على ما يُرام، بحسب ما أعتقد. أنا أحبّ المكان.

- وكيف حال دروس الطهو؟

- أنهيتها، وكانت جيدة.

وتابعت الكلام على أمل أن أحصل منها على جواب أكثر تفصيلًا:

- إذًا، هل تعتقدين أنّ مسيرتك المهنيّة ستكون في مجال الطهو؟

- لا أعتقد أنّ هذا يناسبني.

- فهمت. هل لديك أيّ فكرة عما قد تفعلينه تاليًا؟

- لا أعلم.

عندئذ، ساد الصمت كما هو الحال غالبًا في الأحاديث مع ستار. وفي النهاية، تابعتْ قائلة:

- إذًا، كيف حالك فعليًّا يا آلي؟ إنّ ما حصل لك مريع جدًا لاسيّما وأنه حصل بعد موت بابا بفترة قصيرة.

- لست واثقة من حالي صراحة. ما حصل غيّر كل شيء. كان مستقبلي مُخطّطًا له بالكامل وفجأة تلاشى. أخبرت مدير الفريق الوطني السويسريّ بأنني لن أشارك في تجارب الألعاب الأولمبيّة. لا أستطيع أن أواجه ذلك في الوقت الراهن. بعضهم قالوا لي إني مخطئة وأشعر بالذنب لأنني لا أتمتّع بالقوة اللازمة لأستمر. لكن الأمر لا يبدو مناسبًا وحسب. ما رأيك أنتِ؟

رفعت ستار غرّتها عن عينيها ونظرت إليّ بحذر قبل أن تجيب:

- أعتقد أنّ عليك أن تتبعي مشاعرك وتفعلي ما تمليه عليك يا آلي. لكنّ هذا صعب جدًّا في بعض الأحيان، أليس كذلك؟

- نعم، إنه كذلك. لا أريد أن أخذل أحدًا.

- صحيح تمامًا.

وأطلقت ستار تنهيدة صغيرة وهي تشيح بنظرها ناحية النوافذ الطويلة قبل أن تعود إلى الفرن، حيث بدأت تسكب محتويات القدر في طبقين. سألت:

- هل نتناول الطعام في الخارج؟

- لمَ لا؟

وجّهت انتباهي إلى النهر وإلى الشرفة التي تمتد على طول النوافذ، وتساءلت بنوع من السوء عن مقدار المال الذي كلّفه استئجار هذا المكان. فهو بالكاد يشبه الشقة التقليديّة لطالبة فنون مفلسة وشقيقتها التائهة التي لم تجد وجهتها في الحياة. يبدو جليًّا أنّ سيسي تمكّنت من أن تتملّق وتخدع جورج هوفمان ليعطيها بعض الأموال في ذاك الصباح الذي زارته فيه مع ستار في جنيڤ.

حملنا الطعام إلى الخارج ووضعناه على الطاولة التي تقوم قرب مجموعة كبيرة من النباتات العطرة التي تفيض من أحواض عملاقة اصطفّت على طرف الشرفة.

أشرتُ إلى حوض يحتوي على مجموعة صاخبة من الأزهار البرتقاليّة والبيضاء والزهرية وقلت:

- هذه الأزهار جميلة. ما هي؟

- إنّها شقائق النعمان. تُعرف أيضًا باسم «ويندفلور»، لكنّني لا أعتقد أنها تحب النسيم من النهر. إنها تنتمي فعليًّا إلى زاوية محميّة في حديقة إنكليزيّة.

سألتها وأنا أتناول شيئًا من طبق النودلز مع ثمار البحر الذي أعدّته ستار كطبق رئيسيّ:

- هل زرعتِها بنفسكِ؟

- نعم، فأنا أحبّ النباتات. لطالما أحببتها. تعوّدت مساعدة پاپا سولت في حديقته في أتلانتيس.

- حقًّا؟ لم يكن لديّ أدنى فكرة. يا إلهي، هذا لذيذ يا ستار.

وجهّت لها هذا الإطراء بالرغم من أنني لم أكن جائعة فعلًا ثم أردفت:

- لقد اكتشفت اليوم المواهب الخفيّة المختلفة التي تتمتّعين بها. مهاراتي في الطبخ محدودة وتقتصر على الأساسيات، ولا أستطيع حتى أن أزرع الخردل في حوض، فكيف بهذا كله.

وأشرت إلى المزروعات الكثيفة التي تحيط بنا على الشرفة.

ساد صمتٌ مشحونٌ من جديد، لكنّني كبحت رغبتي في ملء هذا الصمت.

قالت ستار بتردّد:

- كنتُ أتساءل مؤخّرًا عن الموهبة وماهيّتها. أعني، هل العمل الذي تقومين به بسهولة هو هبة؟ هل كان عليكِ مثلًا أن تجرّبي لتتمكّني من عزف الفلوت بهذا القدر من البراعة والجمال؟

- لا، أفترض أني لم أفعل. ليس في بادئ الأمر على الأقل. لكنْ كان عليّ لاحقًا أن أتدرّب كثيرًا لأحسّن أدائي. لا أعتقد أنّ التمتّع بالموهبة وحده يمكن أن يعوّض العمل الدؤوب. أعني، انظري إلى المؤلّفين العظام: لا يكفي أن تسمعي النغمات في ذهنك؛ بل عليكِ أن تتعلّمي كيف تخطّينها على ورق، وكيف تجعلين المقطوعة متناغمة. وهذا يتطلّب سنوات من التمرين والممارسة وتعلّم حرفتك. أنا واثقة من أنّ الملايين من البشر يملكون مهارة طبيعيّة في عمل ما، لكن، إنْ لم نصقل هذه المهارة ونكرّس أنفسنا لها فلن نتمكّن من بلوغ قدرتنا القصوى.

أومأت ستار برأسها موافقة ببطء ثم سألت وهي تنظر عبر الطاولة إلى طبقي الذي بالكاد لمسته:

- هل أنهيتِ طعامك يا آلي؟

- نعم، أنهيته. أنا آسفة يا ستار. كان الطعام رائعًا فعلًا، لكنّ شهيتي ليست مفتوحة على الطعام في الآونة الأخيرة.

بعدئذ، تحدّثنا عن شقيقاتنا وعمّا يفعلنَه. أخبرتني عن سيسي وكيف أنّ تجهيزاتها تبقيها مشغولة. وعلّقت على انتقال مايا المفاجئ إلى ريو، وكم هو رائع أن تجد السعادة أخيرًا.

قلت مبتسمة:

- أسعدني هذا فعلًا. وسرّني أيضًا أن أراكِ أنتِ يا ستار.

- وأنت؟ إلى أين ستذهبين الآن، برأيك؟

- في الواقع، قد أذهب إلى النروج وأتحرّى عن المكان الذي تشير إليه إحداثيات پاپا سولت على أنه مكان ولادتي الأصليّ.

أنا واثقة من أنني بدوت متفاجئة من الكلام الذي تفوّهت به لتوّي أكثر من ستار نفسها، وذلك مع وصول الفكرة إلى دماغي للمرّة الأولى وبدء ترسّخها فيه.

قالت ستار:

- جيّد، أعتقد أنّ عليك أن تفعلي ذلك.

- أتعتقدين هذا؟

- ولمَ لا؟ فالإشارات التي تركها بابا يمكن أن تغيّر حياتك. لقد غيّرت حياة مايا و...

وتوقّفت ستار عن الكلام قبل أن تعود وتقول:

- وربّما حياتي أنا أيضًا.

- حقًّا؟

- نعم.

وعاد الصمت من جديد، وأدركت أن السعي للحصول على تفاصيل أكثر من ستار حول ما كشفته للتو لن يجدي نفعًا. فقلت:

- أعتقد فعلًا أنّ عليّ أن أغادر الآن. أشكرك جزيل الشكر على الغداء.

وقفت وقد تملّكني فجأة شعور بالتعب وحاجة ملحّة للعودة إلى ملجئي. سألتها وهي ترافقني إلى الباب الرئيسيّ:

- هل من السهل أن أعثر على سيارة أجرة من هذا المكان؟

- نعم، استديري إلى اليسار لتصلي إلى الشارع الرئيسيّ. وداعًا يا آلي.

قالت هذا وهي تقترب مني لتطبع قبلة على كل خدّ ثم أردفت:

- أعلميني إذا ذهبتِ إلى النروج.



عندما عدت إلى منزل سيليا الساكن، صعدت إلى غرفة نومي وفتحت العلبة التي تحتوي على الفلوت. حدّقت إليها طويلًا كما لو أنها قادرة على أن تجيب عن كلّ الأسئلة التي تعتمل في ذهني. ولعل السؤال الأكثر إلحاحًا هو: إلى أين سأذهب من هنا. أدركت أني أستطيع بالتأكيد أن أذهب وأدفن نفسي في «مكانٍ ما». يكفي أن أجري اتصالًا واحدًا ببيتر وسيكون منزله الجميل في أنافي تحت تصرّفي بقدر ما أرغب. بإمكاني أن أقضي العام المقبل في التركيز على تجديد حظيرة الماعز العزيزة على قلب ثيو. وخطر لي فيلم ماما ميا، ذاك الفيلم الغنائي الذي يتضمّن أغنيات فرقة آبا، فضحكت وهززت رأسي. ومهما تكن العودة إلى شرنقة «مكانٍ ما» مغرية، لكنّني أدركت أنّها لن تجعلني أمضي قُدُمًا، بل ستجعلني أعيش في عالمي وعالم ثيو، الذي كان فيما مضى، لكنّه لم يعد موجودًا بعد الآن.

من ناحية أخرى، هل تناسبني العودة إلى أتلانتيس؟ هل بقي لي شيء هناك الآن؟ لكن ما قد أجده لاحقًا في النروج يعود إلى ماضيّ أيضًا وأنا أتطلّع إلى المستقبل. ومع وجود «الحاضر» في وضعيّة انتظار، ربما كان عليّ أن أقلب الترتيب لأتقدّم. قررت أنّ خياري يتراوح بشكل صارخ بين العودة إلى أتلانتيس أو السفر إلى النروج. لعلّ بضعة أيام من التأمّل في بلد جديد- بعيد عن كل شيء وعن الجميع- ستفيدني. لا أحد هناك يعرف قصتي، وسيمنحني البحث عن الماضي شيئًا أركّز عليه على الأقل، حتى لو لم أصل إلى أيّ نتيجة.

بدأت أبحث عن الرحلات المتوجّهة إلى أوسلو، فوجدت واحدة تقلع هذا المساء وهناك مقاعد شاغرة على متنها. أدركت أنّ عليّ أن أغادر على الفور لأتمكّن

من الوصول إلى مطار هيثرو في الوقت المناسب. وحدّقت إلى الفضاء في محاولة منّي لاتّخاذ القرار.

قلت لنفسي بقسوة بينما كان إصبعي يحوّم فوق الزر لتأكيد السفر: «هيّا يا آلي. ماذا لديك لتخسريه؟».

لا شيء.

كما أني جاهزة لمعرفة الحقيقة.

23

بينما كانت الطائرة تحلّق عاليًا متوجّهة إلى الشمال في تلك الأمسية من أواخر شهر آب، ألقيت نظرة سريعة على المعلومات التي في حوزتي عن متحف إيبسن والمسرح الوطنيّ في أوسلو. وقرّرت أن أقصدهما صباح الغد لعلّني أجد من يستطيع مساعدتي في إلقاء مزيد من الضوء على المعلومات التي استخلصتها من كتاب جانس هالڤورسن.

ترجّلت من الطائرة في مطار أوسلو، وشعرت بخفّة غير متوقّعة في خطواتي وبشيء أشبه بالإثارة. بعد إنجاز الإجراءات الجمركيّة، توجّهت مباشرة إلى مكتب الاستعلامات وطلبت من الشابّة الجالسة خلف الطاولة أن تدلّني على فندق مجاور لمتحف إيبسن، فأشارت إلى فندق غراند أوتيل. اتّصلت بهم على الفور، ومن ثم أبلغتني بأن الغرفة الوحيدة الشاغرة تقع ضمن القسم المخصّص للغرف الأغلى ثمنًا.

قلت لها:

- لا بأس، سأقبل بما هو متوافر. فناولتني قصاصة ورق لتأكيد الحجز، ومن ثمّ طلبت لي سيارة تاكسي وزوّدتني بكل التوجيهات اللازمة لأتمكّن من الوصول إلى بوابة الخروج.

أثناء اجتيازنا شوارع أوسلو، لم أستطع وسط ظلمة الليل الدامس رؤية معالم المدينة أو تكوين أيّ انطباع عنها. ومع وصولنا إلى مدخل الفندق المهيب المضاء بالمصابيح، هرعت بسرعة إلى الداخل، حيث أُنجزت كل الإجراءات الرسميّة وتوجّهت إلى غرفتي التي تبيّن لي أنها تحمل اسم «جناح إيبسن».

سألني حمّال الحقائب بالإنكليزية وهو يناولني المفتاح:

- هل أعجبتك الغرفة سيدتي؟

جلت بنظري في قاعة الجلوس الجميلة حيث تدلّت من السقف ثريّا أنيقة وزُيّنت الحيطان المخمليّة المقلّمة بصور مختلفة لهنري إيبسن، وقد ارتسمت على ثغري ابتسامة رضا عن تلك المصادفة.

- إنها رائعة، شكرًا لك.

بعد أن أعطيت الحمّال إكرامية وغادر الغرفة، جلت في الجناح منذهلة، وفي داخلي استعداد مطلق إلى الانتقال للعيش فيه دائمًا. ولم أكد أنهي الاستحمام، حتى تناهت إلى مسمعي أصوات أجراس الكنائس معلنةً حلول منتصف الليل، فشعرت بسعادة غامرة لوجودي في ذلك المكان. تسلّلت بين الملاءات الكتانيّة المجعّدة، واسترسلت في نوم عميق.

استيقظت باكرًا صباح اليوم التالي، وخرجت إلى الشرفة الصغيرة لرؤية المدينة في وضح ذلك النهار الجديد المنعش. رأيت في أسفل ساحة كبيرة تصطفّ الأشجار على جانبيها، ويضفي مزيج الأبنية الحجرية القديمة والحديثة المحيطة بها، سحرًا مميّزًا عليها. وحين رفعت نظري إلى أعلى، لاحت لي من بعيد قلعة ورديّة اللون تجثم على أعلى تلّ.

دخلت الغرفة من جديد ورحت أجول فيها، وأدركت فجأة أنّني لم آكل شيئًا منذ وقت الغداء أمس. فطلبت إرسال وجبة فطور إلى غرفتي، وجلست على السرير مثل أميرة في قصر مُكتشَف حديثًا. تفحّصت الخارطة التي زوّدتني بها عاملة الاستقبال ليلة البارحة وتبيّن لي أنّ متحف إيبسن يقع على بعد خطوات مشيًا على الأقدام.

بعد الفطور، ارتديت ملابسي واستخدمت المصعد للنزول إلى الطابق السفليّ، متسلّحة بخارطتي. لدى عبوري الجادة الواقعة أمام الفندق، عبقت في أنفي رائحة البحر المألوفة، وتذكّرت عندها أن أوسلو مبنيّة على مضيق. لاحظت العدد الهائل من ذوي البشرة البيضاء والشعر الأحمر الذين كانوا يمرّون بقربي. فخلال سنوات الدراسة في سويسرا، تعرّضت لكثير من السخرية بسبب بشرتي الشاحبة والنمش

الذي يعلو وجهي وخُصل شعري الذهبيّ المائل للحمرة. وكم كنت أتألّم من تلك التعليقات المؤذية، حتى أنني سألت ماما إنْ كان بإمكاني أن أصبغ شعري.

- لا يا عزيزتي، فشعرك يمثل الهالة التي تحيط بك. وأنا واثقة من أن أولئك الفتيات المزعجات سيحترقن يومًا ما غيرةً منه.

وأدركت في قرارة نفسي، بينما كنت أتابع سيري، أنني لن أعاني من تلك المشكلة في هذا المكان.

توقّفت فجأة أمام مبنى مذهل من الآجر البالي، مدخله قائم على أعمدة حجرية رمادية اللون، وقد حُفرت على واجهته الأماميّة الأنيقة العبارة التالية: «المسرح الوطنيّ»، في حين حُفرت تحته على صفائح من حجر أسماء إيبسن ورجلين آخرين لم أسمع بهما من قبل. أيُعقل أن تكون مسرحية بير جينت قد عُرضت للمرّة الأولى في هذا المبنى؟ وكم كانت خيبة أملي عظيمة عندما تبيّن لي أنّ المسرح مقفل في الوقت الحاليّ! فتابعت سيري في الشارع العريض المزدحم إلى أن بلغت الباب الأماميّ لمتحف إيبسن. وعندما دخلت المكان، وجدت نفسي في متجر صغير للكتب، وعلى الجدار الواقع إلى يساري لوحة عرض طُبعت عليها تواريخ الأحداث البارزة في الحقبة الذهبيّة من حياة إيبسن المهنيّة. بدأ قلبي يخفق بشدّة عندما قرأت التاريخ: «24 شباط 1876 - العرض الأوّل لمسرحية بير جينت على خشبة مسرح كريستيانيا».

سألتني الفتاة الجالسة خلف طاولة المكتب باللغة النروجية:

- صباح الخير! كيف أستطيع أن أساعدكِ؟

- هل تتحدثين الإنكليزيّة؟

أجابت مبتسمة:

- أجل. هل بإمكاني مساعدتك؟

- أجل، أو آمل ذلك على الأقل.

وأخرجت من حقيبتي صورة غلاف الكتاب ووضعتها على طاولة المكتب أمامها.

- اسمي آلي دابليز وأنا بصدد إجراء بحث عن مؤلف موسيقيّ يُدعى جانس هالڤورسن ومغنية تُدعى آنّا لاندفيك. شارك الاثنان في العرض الأوّل لمسرحية بير جينت على خشبة مسرح كريستيانيا، وكنت أتساءل إنْ كان من الممكن أن يزوّدني أحد بمعلومات مفصّلة عنهما.

اعترفت الفتاة قائلة:

- آسفة، ولكنني لا أستطيع مساعدتك لأنني ما أزال طالبة وأعمل هنا بصفة أمينة صندوق. ولكنني سأصعد إلى الطابق العلويّ لأتأكد إن كان مدير المتحف، إيريك، لا يزال هنا.

- شكرًا لك.

واختفت الفتاة عبر باب في الجهة الخلفيّة من المكتب. فاستغللت الفرصة لأقوم بجولة في المتجر حيث عثرت على ترجمة إنكليزيّة لرواية بير جينت. فخطر لي أنه ينبغي عليّ، على الأقل، أن أقرأها.

- نعم، السيد إيريك موجود حاليًا، وسينزل لمقابلتك.

شكرت الفتاة ودفعتُ لها ثمن الكتاب.

ولم تكد تمر بضع دقائق، حتى ظهر رجل أنيق أبيض الشعر.

- مرحبًا آنسة دابليز، أنا إيريك إيدفاردسين.

ومدّ يده مصافحًا وتابع:

- قالت لي إينغريد إنك مهتمة بقصة جانس هالڤورسن وآنا لاندفيك.

صافحته بدوري قائلة:

- أجل. ومن ثم ناولته صورة غلاف الكتاب.

أخذ الصورة وحملّق إليها مومئًا برأسه.

- أظنّ أنني أحتفظ بنسخة عن الكتاب في الطابق العلوي في المكتبة. هلّا رافقتني من فضلك؟

وقادني عبر أحد الأبواب إلى قاعة مدخل كئيبة، فشعرت وكأنني عدت بالزمن إلى الوراء مقارنة بالزخرفة الحديثة لمتجر الكتب. فتح البوابة القديمة الطراز

المؤدية إلى المصعد، ثم أقفلها خلفنا وضغط على الزر. وأثناء صعودنا إلى أعلى، أشار إلى أحد الطوابق قائلًا:

- هذه هي الشقة حيث أمضى إيبسن السنوات الإحدى عشرة الأخيرة من حياته. فنحن نعتبر أنفسنا محظوظين جدًا لأننا نملك حق الوصاية عليها. وتابع بينما كنا نغادر حجرة المصعد لندخل إلى غرفة جيدة التهوية جدرانها مغطاة من الأرض إلى السقف بالكتب:

- حسنًا، هل أنت اختصاصية في علم التاريخ؟

أجبته على عجل:

- يا إلهي! كلا، لست كذلك. ولكنني ورثت الكتاب عن أبي الذي تُوفي لبضعة أسابيع خلت. بإمكانك اعتبار الكتاب دليلًا لأنني لست واثقة بعد من طبيعة صلته بي. فقد طلبت ترجمته من النروجيّة إلى الإنكليزية، ولم يتسنَّ لي بعد إلّا قراءة الجزء الأوّل. وكلّ ما أعرفه هو أن جانس كان موسيقيًا وعزف الموازين الافتتاحيّة لقطعة «المزاج الصباحيّ» في العرض الأوّل لمسرحية بير جينت. أما آنّا، فكانت تؤدي أغاني سولفيج في الخلفية.

- لست واثقًا بصراحة، إلى أي مدى يمكنني مساعدتك لأن المحور الأساسي لاهتماماتي هو إيبسن وليس غريغ. أظنّك بحاجة إلى شخص مطّلع على حياة غريغ، وأظنّ أن الشخص الوحيد القادر على مساعدتك هو القيّم على متحف غريغ في برغن. ولكن...

وتابع بينما كان يدقّق في رفوف الكتب:

- أودّ أنْ أريك شيئًا. ها هو. وأخرج كتابًا ضخمًا عن الرفوف مضيفًا:

- ألّف هذا الكتاب رودولف راسموسن، المعروف برود، الذي كان من بين الأطفال المشاركين في النسخة الأصليّة لبير جينت.

-أجل، قرأتُ عنه في الكتاب. كان الوسيط المسؤول عن تأمين تبادل الرسائل بين جانس وآنا في المرحلة الأولى لعلاقتهما عندما التقيا في المسرح.

أجاب إيريك بينما كان يقلّب صفحات الكتاب:

- حقًّا؟ انظري، هذه صور من العرض الافتتاحيّ، مع كل أعضاء فريق العمل في الأزياء الخاصة بالمسرحية.

وإذ ناولني الكتاب، رحت أحدّق بارتياب في وجوه الأشخاص الذين كنت أقرأ عنهم. ورأيت في إحدى الصور هنريك كلوسن، الذي أدّى دور بير جينت وثورا هانسون التي أدّت دور سولفيج. وحاولت جاهدة أن أتخيّلها في صورة النجمة المتألّقة بعيدًا عن ملابس سولفيج القرويّة. ورأيت في صور أخرى فريق العمل برمّته، مع أنني كنت واثقة من أنني لن أرى آنّا في أي منها.

اقترح إيريك عليّ قائلًا:

بإمكاني أن أنسخ لك الصور لتتمكّني من التمعّن فيها على راحتك.

- سيكون ذلك رائعًا، شكرًا لك.

أثناء انتظاري في إحدى الزوايا ريثما ينتهي إيريك من نسخ الصور، وقعت عيناي على مطبوعة قديمة خاصة بأحد المسارح. فعلّقت قائلة في محاولة مني لخرق الصمت:

- مررت اليوم أمام المسرح الوطنيّ، وحاولت أن أتخيّل كيف كان المكان خلال الحفل الافتتاحيّ لمسرحية بير جينت.

- لم يُفتتح العمل المسرحيّ على خشبة المسرح الوطنيّ ولكن على خشبة مسرح كريستيانيا.

- آه! حسبت أنه المبنى نفسه ولكن جرى تعديل الاسم.

- يؤسفني القول إن مسرح كريستيانيا لم يعد له وجود وقد حُوِّل إلى متحف. وهو يقع في بانكبلاسن، على بعد ربع ساعة تقريبًا من هنا.

حملقت إلى إيريك وقد فتحت فمي بانشداه:

- أيُعقل أنك تقصد بذلك متحف الفن المعاصر؟

- بالضبط. أُقفل مسرح كريستيانيا عام 1899 ونُقلت كلّ الأدوات الموسيقيّة إلى المسرح الوطنيّ الذي تم بناؤه حديثًا. تفضّلي.

وناولني الصور التي نسخها.

- حسنًا، أنا واثقة من أنني أخذت كثيرًا من وقتك، لكنّني أشكركَ جزيل الشكر على استقبالكَ لي.

- قبل أن تنصرفي، اسمحي لي أن أزوّدك بعنوان القيّم على متحف غريغ. قولي له إنك آتية من قِبَلي. وأنا متأكد من أنه سيتمكّن من مساعدتك أكثر مني بكثير.

أجبته بينما كان منهمكًا بتدوين العنوان الإلكترونيّ:

- أقسم لك يا سيد إيدفاردسن بأنّك ساعدتني كثيرًا.

قال لي مبتسمًا وهو يقودني باتجاه المصعد:

- لا بدّ من الانحناء إجلالًا لمجرد الإدراك بأن الموسيقا التي ألّفها غريغ لمرافقة مسرحية بير جينت قد تخطّت شهرة القصائد بحدّ ذاتها، وأصبحت رمزًا للإبداع في كل أرجاء العالم. الوداع آنسة داپلييز، وسأكون سعيدًا إن علمت أنك تمكّنت من حلّ اللغز. تستطيعين دائمًا العثور عليّ في هذا المكان في حال احتجت إلى مزيد من المساعدة.

- شكرًا لك.

عندما غادرت المتحف، كنت على وشك أن أضيّع طريق العودة إلى فندق غراند أوتيل. فالإحداثيات المحفورة على الكرة المزوّدة بحلقات أصبحت أخيرًا مفهومة. وعند دخولي إلى مقهى غراند كافيه الذي يشغل الركن الأماميّ من الفندق، حدّقت إلى لوحة إيبسن الأصليّة المعلّقة على الحائط وعرفت يقينًا بأن لجانس وآنا علاقةً بقصتي.

خلال العشاء، أرسلت رسالة إلكترونيّة إلى القيّم على متحف غريغ، كما اقترح إيريك عليّ. ومن ثمّ ركبت سيارة أجرة، وتوجّهت بدافع الفضول إلى موقع مسرح كريستيانيا القديم. كان مبنى متحف الفن المعاصر قائمًا في ساحة كبيرة خلف نافورة للمياه مبنية في الوسط. لم يكن الفن المعاصر يستهويني، خلافًا لسيسي التي كانت تعشقه، فقرّرت ألّا أدخل المكان. ومن ثمّ رأيت مقهى إنغبريت في الجهة الأخرى من الساحة، فسرت إليه وفتحت الباب.

ألقيت نظرة سريعة على المكان المزوّد بطاولات وكراسٍ خشبيّة ريفيّة الطابع، وأدركت أنّه مطابق تمامًا للصورة التي رسمتها له في خيالي من خلال وصف جانس في الكتاب. كان الهواء يعبق برائحة غريبة، هي عبارة عن مزيج من الكحول الفاسدة، والغبار والرطوبة. أغمضت عينيّ ورحت أتخيل جانس وأصدقاءه من الفرقة الموسيقيّة في هذا المكان لأكثر من قرن مضى، يصرفون ساعات طويلة في احتساء الشراب الإسكندنافي المسكر لينسوا همومهم وأحزانهم. جلست إلى المشرب وطلبت فنجان قهوة، ورحت احتسي السائل الساخن والمر وفي داخلي شعور بالإحباط لأنني لن أتمكّن من متابعة قراءة القصة إلى أن ترسل لي المترجمة الأجزاء المتبقية من الكتاب.

غادرت مقهى إنغبريت، وأخرجت الخارطة من حقيبتي وقد قرّرت العودة إلى الفندق سيرًا على الأقدام، وأنا أتخيّل آنّا وجانس يتنزّهان سويًّا في هذه الشوارع نفسها. صحيح أنّ المدينة شهدت تطوّرًا واسعًا منذ ذلك الوقت، واتّسم بعض أجزائها بالحداثة الفائقة، لكنّ كثيرًا من المباني القديمة الساحرة بقيت على حالها. لدى وصولي إلى فندق غراند أوتيل، سلّمت بأنّ لأوسلو جاذبية فطريّة. فصغر حجمها يوحي بالراحة إلى حدّ أنني شعرت وكأنني في دياري.

حين صعدت إلى الغرفة، فتحت بريدي الإلكترونيّ لأجد رسالة من القيّم على متحف غريغ جاء فيها:

عزيزتي الآنسة دايليز،

أجل، إنني على علم بقصة جانس وآنا هالفورسن. كان إيدفارد غريغ بمنزلة مرشد لهما، كما أظنّك تعلمين. تستطيعين العثور عليّ في ترولدهوجن، في ضواحي برغن، يوميًّا من الساعة التاسعة إلى الساعة الرابعة. يسعدني أن ألتقيك لأساعدك في بحثك.

تحياتي،

إيرلينغ داهل جونيور

لم أكن أملك أدنى فكرة عن موقع برغن، فقرّرت البحث في غوغل عن خارطة للنروج حيث تبيّن لي أنها تقع على الساحل في الجهة الشماليّة الغربيّة من أوسلو؛ ما يعني أن الانتقال إليها يتطلّب مني السفر بالطائرة. لم أكن على بيّنة من مساحة البلاد من قبل، وتفاجأت كثيرًا عندما رأيت قسمًا كبيرًا منها يمتدّ إلى ما بعد برغن وصولًا إلى القطب الشماليّ. وعقدت العزم على أن استقلّ الرحلة الصباحيّة وأرسل كتابًا إلى السيد داهل لأبلغه بأنّني سوف أصل إلى برغن في منتصف نهار غد.

كانت الساعة قد جاوزت السادسة، ونور النهار ما يزال ساطعًا في الخارج. رحتُ أتخيّل أيام الشتاء الطويلة في هذا المكان حيث تغيب الشمس بعد موعد الغداء، والثلج يتساقط بكثافة ملقيًا برداء أبيض على كل ما يقع عليه. وتذكّرت في تلك اللحظة تعليقات شقيقاتي على مدى قدرتي على تحمّل البرد، بحيث كنت متعوّدة فتح النوافذ باستمرار ليدخل الهواء المنعش. لطالما كنت أظنّ أنني متعوّدة عليه بسبب ممارستي لرياضة الإبحار. ولكنْ، إذا فكّرت مليًّا بقدرة مايا على تحمّل الحر مهما تبلغ درجة حرارته، حتّى أنّ بشرتها تكتسب سمرة مثيرة في غضون دقائق قليلة، مقارنة ببشرتي التي تتحوّل إلى الورديّ المخمر، أستنتج أنّ الشتاء هو جزء من إرثي، تمامًا كما أن المناخ المشمس جزء من إرث مايا.

تحوّلت أفكاري من دون سابق إنذار إلى ثيو، كما تعوّدت كلّما حلّ الليل. وأدركت أنه كان سيتحمّس لمرافقتي في هذه الرحلة، ويحلّل ردّ فعلي في كل موقف نتعرّض له. لجأت إلى فراشي الذي بدا لي في تلك الليلة كبيرًا جدًّا لأنام فيه وحدي، وأنا أتساءل إن كنت سألتقي في المستقبل شخصًا يحلّ محله. ولكنّني شككت في إمكانية حصول ذلك. وقبل أن أنساق وراء العواطف الجيّاشة، ضبطتُ المنبّه على الساعة السابعة من صباح الغد، وأغمضت عينيّ وحاولت النوم.

24

كان منظر النروج من الجو رائعًا. فالغابات الخضر الداكنة المصطفّة على جانبي المضائق بمياهها الزرق الداكنة كانت تمتدّ في أسفل، وإلى جانبها جبال غطّت قممَها طبقةٌ من الثلج الأبيض الناصع وبقيت متجمّدة على الرغم من بدء شهر أيلول. حين وصلت إلى مطار برغن، أقلتني سيارة أجرة طلبت من سائقها أن يأخذني مباشرة إلى ترولدهوجن، مقر إقامة غريغ، حيث حُوّل منزله متحفًا. كان منظر الأرياف من المسربَيْن المتعاكسَيْن المزدحمَيْن بالسيارات مثل سلسلة من الأشجار الممتّدة إلى ما لانهاية، ولكننا انعطفنا في نهاية المطاف عن الطريق الرئيس وسلكنا طريقًا ريفيًّا ضيّقًا.

اقتربت سيارة الأجرة من ڤيلا ساحرة جدرانها مكسوة ألواحًا خشبيّة باللون الأصفر الباهت، فدفعت للسائق أجرته وترجّلت من السيارة وأنا أحمل حقيبتي على كتفي. تسمّرت في مكاني بضع دقائق لأتأمّل الواجهة الخارجيّة للڤيلا، ووجدت نفسي مسحورة بالنوافذ الكبيرة ذات الإطارات المطلية باللون الأخضر، والشرفة المشبّكة البارزة من الطابق العلويّ. ولم أغفل عن البرج المرتفع في إحدى الزوايا والعلم النروجيّ المرفرف في أعلى عمود طويل.

لاحظت أنّ الڤيلا جاثية على سفح تلّ يطلّ على بحيرة تحيط بها منحدرات مكسوّة بالعشب وأشجار الراتنج العالية الشامخة. دخلت المبنى الحديث وقد أدهشني الجمال الطبيعيّ والساكن للموقع، لأجد نفسي في قاعة مدخل المتحف، فعرّفت عن نفسي للفتاة الجالسة خلف طاولة المكتب في المتجر المخصّص للهدايا التذكاريّة. وبينما كنت أسألها إنْ كان القيّم على المتحف موجودًا، حبست أنفاسي عندما وقع نظري على صندوق العرض الزجاجيّ تحت طاولة المكتب.

همست قائلة : «يا إلهيّ!»، وقد وجدت نفسي أتحدّث بلغتي الأم تحت تأثير الصدمة. فصندوق العرض كان يحتوي على مجموعة من الضفادع البنيّة الصغيرة المشابهة للضفدع الذي وجدته في مظروف بابا.

قالت لي الفتاة بعد أن أعادت سماعة الهاتف إلى مكانها:

- سيقابلك إيرلينغ، القيّم على المتحف، في الحال.

- شكرًا لكِ. هل بإمكاني أن أسألك لمَ تبيعين هذه الضفادع في متجر الهدايا التذكاريّة؟

شرحت لي الفتاة قائلة:

كان غريغ يحتفظ بالنسخة الأصليّة معه طوال الوقت باعتبارها تعويذة الحظ. كان يحتفظ بها في جيبه حيثما يذهب ويقبّلها قبل النوم متمنّيًا لها ليلة سعيدة.

وظهر فجأة بقربي رجل جذّاب ذو شعر فضيّ قائلًا:

- مرحبًا آنسة دايليز، أنا إيرلينغ داهل. كيف كانت رحلتك إلى هنا؟

- كانت جيّدة، شكرًا لك.

وبذلتُ جهدًا لاستجمع أفكاري بعد انكشاف سرّ الضفدع. أضفت قائلة:

- أرجو منك أن تنادِني آلي.

- حسنًا يا آلي، هل تسمحين لي بأن أسألك إن كنت تشعرين بالجوع؟ بإمكاننا التوجّه إلى المقهى المجاور، بدلًا من الجلوس في مكتب ضيّق، حيث بإمكاننا التحدث أثناء تناولنا الشطائر. تستطيعين أن تتركي حقيبتك مع إلسي.

وأشار إلى الفتاة الجالسة خلف طاولة المكتب.

وافقته الرأي قائلة:

- إنها فكرة جيّدة. وناولتها حقيبتي مومئة برأسي تعبيرًا عن شكري، ومن ثمّ لحقت به عبر مجموعة من الأبواب.

كانت القاعة التي دخلنا إليها مزوّدة بجُدُر زجاجيّة، تطلّ على منظر خلّاب للبحيرة عبر الأشجار. فحدّقت إلى ذلك الامتداد من المياه المتلألئة، التي تكثر على طول حوافّها الجزر الصغيرة، قبل أن تنحسر عند الشاطئ البعيد في الأفق الضبابيّ.

قال إيرلينغ:

- لا ريب في أن بحيرة نورداس مذهلة، أليس كذلك؟ فنحن ننسى في بعض الأحيان مدى حسن حظنا لأننا نعمل في مكان مماثل.

أجبته لاهثة:

- إنها رائعة فعلًا. ولا شكّ في أنك محظوظ.

بعد أن طلبنا القهوة والشطائر، سألني إيرلينغ:

- كيف أستطيع مساعدتك. فأخرجت من جديد النسخ التي أحتفظ بها عن كتاب پاپا سولت وشرحت له ما أرغب في معرفته.

حمل الأوراق بين يديه وراح يتفحّصها.

- لم أقرأ هذا الكتاب مع أنني أعرف ما يتضمّنه. فقد ساعدت مؤخّرًا توم هالڤورسن، الحفيد الأصغر لجانس وآنا في البحوث التي كان يقوم بها لإصدار سيرة ذاتية جديدة.

- هذا صحيح. لقد سبق أن طلبتها من الولايات المتحدة ولكنني لم أستلمها بعد. هل تعرف توم هالڤورسن؟

- بالتأكيد. فهو يقيم على بعد دقائق من هنا، كما أن عالم الموسيقا في برغن ضيّق. فهو عازف كمان في الأوركسترا الفيلهارمونية، ورُقّي مؤخّرًا إلى منصب مساعد المايسترو.

سألته أثناء تقديم الشطائر:

- هل بإمكانك أن تعرّفني إليه؟

- من دون أدنى شك، ولكنني أخشى أن يكون مسافرًا حاليًا في جولة مع الأوركسترا إلى الولايات المتحدة، وأتوقّع أن يعود في غضون خمسة أيام. حسنًا، إلى أين وصلت في بحثك؟

- لم أنجز قراءة السيرة الذاتيّة الأصليّة بعد، في انتظار استلامي ترجمة الأجزاء المتبقّية منها. وصلت إلى النقطة حيث تلقّى جانس تهديدًا بطرده من منزل الأسرة بينما تلقّت آنا عرضًا لأداء دور سولفيج.

- فهمت.

ابتسم لي إيرلينغ، ومن ثمّ تحقّق من ساعته وأردف قائلًا:

- يؤسفني أن أقول لكِ إنه لم يعد أمامي وقت لأخبرك مزيدًا عنهما لأن موعد الغداء لأعضاء الحفل الموسيقيّ بعد نصف ساعة من الآن. لكنّني أظنّ أنّ من الأفضل أنْ تقرأي ما كتبه جانس بنفسه، ونستطيع بعدها أن نتحدّث معًا.

- أين يُقام الحفل الموسيقيّ؟

- في قاعة المبنى المخصّص لهذه الغاية والمعروفة باسم ترولدسالن. فنحن نستقبل طوال أشهر الصيف عازفي بيانو زائرين لعزف موسيقا غريغ. ويتضمّن العرض هذا المساء كونشيرتو بيانو للسلّم الموسيقيّ الصغير.

- حقًّا؟ هل تسمح لي بالمجيء للاستماع إلى العزف؟

- بكل سرور.

ونهض من مكانه وتابع:

- ما رأيك أن تنهي الشطيرة ومن ثمّ تتوجّهي إلى المبنى الخاص بالحفل الموسيقيّ، بينما أذهب للتأكّد إنْ كان كل شيء يسير على ما يُرام مع عازف البيانو؟

- يسرّني ذلك، شكرًا لك يا إيرلينغ.

بعد أن أرغمت نفسي على التهام ما تبقى من الشطيرة، تتبّعت الإشارات على جانب المنحدر ذي الأحراج الكثيفة وصولًا إلى المبنى المستكين بشكل مريح وسط أشجار الصنوبر. مع دخولي المكان، شققت طريقي عبر سلّم مدرّج المسرح المائل بشكل حادّ، وتفاجأت حين رأيت المكان ممتلئًا بنسبة الثلثين. وكانت خشبة المسرح الصغيرة حيث ينتصب في الوسط بيانو ضخم من نوع شتينواي المميّز، محاطةً أيضًا بمزيدٍ من النوافذ الزجاجيّة الكبيرة التي تشكّل خلفية مذهلة لأشجار الشوح والبحيرة الكامنة وراءها.

بعد أن وجدت لنفسي مكانًا، ظهر إيرلينغ على المسرح مع شاب هزيل البنية، داكن الشعر، لافت جدًّا للنظر على الرغم من بعد المسافة. خاطب إيرلينغ الجمهور

أولًا باللغة النروجيّة، ومن ثمّ باللغة الإنكليزيّة بالنظر إلى العدد الكبير من السيّاح الحاضرين.

«إنه لشرف لي أن أقدّم لكم عازف البيانو ويليَم كاسباري. فهذا الشاب نجح في ترك بصمته من خلال العروض الموسيقيّة التي قدمها في مختلف أنحاء المعمورة، منها مشاركته مؤخّرًا في مهرجان البرومز في قاعة البرت الملكيّة في لندن. إننا ممتنّون له لموافقته على تشريفنا بحضوره في هذه الزاوية الصغيرة من العالم».

صفّق الجمهور مرحّبًا بويليم الذي أومأ برأسه بلامبالاة قبل أن يجلس على مقعد البيانو منتظرًا أن يخيّم السكون على مدرّج المسرح. وما إن بدأ بعزف الموازين الافتتاحيّة حتى أغمضت عينيّ، وتركت الموسيقا تنقلني إلى تلك الأيام التي أمضيتها في المعهد الموسيقيّ في جنيف، حيث كنت أحضر الحفلات الموسيقيّة الأسبوعيّة وأشارك في أكثر الأحيان فيها بنفسي. فشغفي بالموسيقا الكلاسيكيّة بلغ في مرحلة معيّنة من حياتي حدّ الولع، ومع ذلك شعرت بالخزي عندما أدركت أنني لم أشارك حتّى في أكثر الحفلات بساطة منذ أكثر من عشر سنوات. ولاحظت أنّ التوتر الذي كنت أعاني منه في الآونة الأخيرة أخذ ينحسر أثناء عزف ويليَم، ورحت أتأمّل أنامله الماهرة وهي تتحرك بخفّة على المفاتيح. أقسمت لنفسي في تلك اللحظة بأن أبذل، من الآن فصاعدًا، جهدي لتصحيح هذا الوضع.

بعد انتهاء الحفل الموسيقيّ، جاء إيرلينغ للبحث عني واصطحبني إلى خشبة المسرح ليعرّفني إلى ويليَم كاسباري. كانت بِنية عظام وجهه البارزة بشكل مثير، وبشرته البيضاء المشدودة بإحكام حول عظام وجنتيه المرتفعة تكشفان عن عينين زمرديّتين وشفتين ورديّتين ممتلئتين. فلا ريب في أنّ المظهر الخارجيّ لهذا الرجل لا غبار عليه، بدءًا من شعره الداكن المسرّح بأناقة وصولًا إلى حذائه الأسود اللامع، ما ذكّرني بمصّاص دماء جذاب ووسيم.

قلت لويليَم:

- شكرًا على العرض الذي قدّمته. كان في غاية الروعة.

أجابني وهو يمسح يديه بمنديل أبيض ناصع كالثلج قبل أن يصافحني:

- هذا من دواعي سروري، آنسة داپليز.

وحدّق إليّ متفحّصًا وأضاف:

- أتعلمين شيئًا، أنا واثق من أنّنا التقينا من قبل.

- حقًّا؟

وشعرت بالخجل من نفسي لأنني لم أتمكّن من التعرّف إليه.

- أجل. كنت طالبًا في المعهد الموسيقيّ في جنيڤ. وأظنّ أنك التحقت بالمعهد عندما كنت في السنة النهائيّة. وبصرف النظر عن أنّني أملك ذاكرة قوية في ما يتّصل بالوجوه، ما أزال أذكر شهرتك، لأنني وجدتها فريدة من نوعها في ذلك الوقت. أظنّك تعزفين على الفلوت، أليس كذلك؟

أجبته متفاجئة:

- أجل، أو أعلى الأقل كنت أفعل.

- أهذا صحيح يا آلي؟ لم تذكري لي ذلك عندما التقينا في وقت سابق.

- حسنًا، لقد مضى على ذلك وقت طويل.

سألني ويليَم بينما كان يسوّي ياقته بتأنّق مثل عادة روتينيّة أكثر منها محاولة لإثارة الإعجاب:

- أهذا يعني أنك توقّفت عن العزف؟

- نوعًا ما، أجل.

- إن لم تخنّي ذاكرتي، حضرت مرة «ريسيتال» شاركت فيه. وأذكر أنك عزفت «سوناتا الفلوت والبيانو».

- أجل، هذا صحيح. لا بدّ من أنك تملك ذاكرة مميزة.

- نعم، ولكن في الأمور التي أرغب في تذكّرها. أؤكّد لك أنّ لهذا الأمر حسناته وسيئاته.

تدخّل إيرلينغ قائلًا:

- كم إنّ هذا مثير للاهتمام، خاصة وأنّ الموسيقيّ الذي تجري آلي بحثًا عنه كان أيضًا عازف فلوت.

سألني ويليم وعيناه المشعتان مسلطتان عليّ:

- ومن هو العازف الذي تجرين بحثًا عنه، إذا كنتِ لا تمانعين سؤالي؟

- مؤلف موسيقيّ نروجيّ يُدعى جانس هالڤورسن، وزوجته آنّا التي كانت مغنية.

- لا أعرفهما.

قال إيرلينغ:

- ذاع صيتهما في النروج، وخاصّة آنّا. في أي حال، يسرّني أن أرافقك في جولة لإلقاء نظرة على منزل غريغ، وزيارة الكوخ عند سفح الجبل حيث كان يؤلّف موسيقاه، إذا لم يكن لديك أي خطط أخرى.

- أجل، بكل سرور.

سألني ويليّم، بينما كانت عيناه لا تزالان تتفحّصاني بإمعان:

- هل تسمحين لي بمرافقتك؟ وصلت إلى برغن مساء أمس، ولم تسنح لي الفرصة بعدُ للتجوّل في المكان.

أجبته على عجل:

- بالتأكيد. وقد ارتأيت أنّ من الأفضل أن أسير إلى جانبه بدلًا من البقاء واقفة أمامه وهو يحدّق إليّ بشكل عالي التركيز، على الرغم من لامبالاته الظاهريّة.

علّق إيرلينغ على عجل:

- سأدعكما تقومان بالجولة سويًا. أرجو منكما أن تمرّا بمكتبي لتوديعي قبل مغادرتكما. وشكرًا على العرض المدهش الذي قدمته اليوم يا ويليّم.

غادرنا القاعة برفقة إيرلينغ قبل أن نصعد الدرج الممتدّ عبر الأشجار وصولًا إلى المنزل. دخلنا الڤيلا وتوجّهنا إلى غرفة الاستقبال ذات الأرضية الخشبيّة، حيث وُضع بيانو ضخم من نوع شتينواي بجانب الجدار. كانت الغرفة تزدحم بمزيج انتقائيّ من قطع الأثاث الريفيّة الطابع إلى جانب مزيد من القطع الأنيقة المصنوعة من خشب الجوز والماهوجني. كما أنّ اللوحات الفنيّة ورسوم المناظر الطبيعية، المعلّقة على الحيطان الطريّة المكسوة بخشب الصنوبر، تتزاحم لجذب الانتباه إليها.

قلت لويليَم:

- يبدو المكان وكأنه منزل حقيقيّ.

فوافقني الرأي قائلًا:

- معك حق.

ولفتت انتباهي صور غريغ وزوجته نينا المزوّدة بإطارات والموزّعة في كل أنحاء الغرفة، وخاصّة تلك التي يظهران فيها واقفين قرب البيانو. كانت نينا تبتسم برقّة بينما بدت تعابير وجه غريغ مُبهمَة تحت حاجبَيْه الكثيفَيْن وشاربه العريض.

- يبدوان نحيلين جدًا مقارنة بالبيانو، مثل دميتَيْن صغيرتَيْن.

- من الواضح أنّ طولهما لا يتجاوز خمس أقدام. هل تعلمين أن غريغ يعاني من انخماص الرئة؟ تعوّد وضع وسادة صغيرة داخل سترته لتبدو ممتلئة في الصور. ولهذا السبب، كان يضع يده باستمرار على صدره لتثبيتها في مكانها.

همست قائلة وأنا أتجوّل في أرجاء الغرفة، متفحّصة المعروضات المختلفة:

- كم إنّ هذا مذهل.

سألني ويليَم فجأة، مردّدًا النمط الحواريّ الذي بدأت أتعوّده:

- حسنًا، لماذا تخلّيتِ عن الموسيقى؟

خُيّل إليّ وكأنّه يضع في ذهنه إشارة في خانة «تمت معالجة هذا البند» قبل أن ينتقل إلى الموضوع التالي المدرج على القائمة. أجبته:

- قرّرت أن أمتهن الإبحار.

- أهذا يعني أنك استبدلت بالفلوت المزمار القرنيّ؟

وضحك ضحكة مُقتضَبة وتابع:

- ألا تشتاقين إلى العزف؟

- لم يتسنّ لي بصراحة الوقت للتفكير في هذا الأمر خلال السنوات القليلة الماضية. فالإبحار كان يملأ حياتي.

قال ويليَم مشيرًا إلى بيانو غريغ:

- لا أستطيع أن أتخيّل حياتي من دون موسيقا. فهذه الآلة الموسيقيّة هي شغفي، وألمي، والقوة المحفِّزة في حياتي. غالبًا ما تراودني الكوابيس لخوفي من أن أصاب بالتهاب المفاصل في أصابعي. فأنا لا أملك أيّ شيء من دون الموسيقا.

- لعلّ إيمانك القويّ بقدراتك يفوق إيماني. شعرت أثناء وجودي في المعهد الموسيقيّ وكأنني وصلت إلى طريق مسدود. فعلى الرغم من متابعتي التمارين بشكل منتظم، لم أشعر بأي تحسّن.

- هذا ما كنتُ أشعر به في كل يوم على مدى سنوات طويلة يا آلي. أظنّ أنّ ذلك يشكّل جزءاً من الموضوع. كان عليّ أن أؤمن بأنني أحرز تحسّنًا حتى لا أقتل نفسي. ما رأيك لو نلقي الآن نظرة على الكوخ، حيث ألّف هذا الرجل العظيم عددًا من مقطوعاته المتميّزة؟

كان الكوخ يقع على مسافة قريبة من الفيلا. ورأيت عبر الألواح الزجاجيّة للباب الأماميّ بيانو موضوعًا بقرب الجدار، وبجانبه كرسيّ هزّاز وطاولة مكتب موضوعة مباشرة أمام النافذة الكبيرة المطلّة على البحيرة. وإذ وقع نظري على ضفدع آخر صغير، مشابه لضفدعي، موضوع على طاولة المكتب، ارتأيت ألّا أشارك أفكاري مع ويليَم.

قال متنهّدًا:

- يا له من منظر رائع! فهذا المنظر يكفي ليلهم أيّ شخص.

- ولكنّ المكان معزول قليلًا، ألا تظنّ ذلك؟

هزّ كتفيه بلامبالاة وأجاب قائلًا:

- ما كنت لأمانع. فالوحدة تثير في داخلي نوعًا من الراحة لأنني أتمتّع بالاكتفاء الذاتيّ.

- وأنا أيضًا، ولكنّني أظنّ أن العيش في مكان مماثل يمكن أن يدفعني إلى الجنون.

وابتسمت له وتابعت:

- هلّا عدنا أدراجنا؟

- أجل.

نظر ويليَم إلى ساعته:

- لديّ موعد مع أحد الصحافيين في الفندق الذي أنزل فيه عند الساعة الرابعة. قالت لي عاملة الاستقبال هنا إنها ستطلب لي سيارة أجرة. في أي فندق تنزلين؟ بإمكاني أن اقلّك معي إلى المدينة.

أجبته أثناء عودتنا عبر منحدر التلّ:

- لم أحجز في الواقع في أي فندق بعد. ولكنني واثقة من أنني سأجد مكانًا عبر مركز المعلومات السياحيّة في المدينة.

- تستطيعين البقاء في الفندق الذي أقيم فيه. فهو نظيف إلى أقصى حدّ، ويقع قرب الواجهة الأماميّة للمرفأ القديم، مع إطلالة رائعة على المضيق البحريّ.

وأضاف بينما كنا ندخل قاعة الاستقبال الرئيسيّة:

- لقد أثرت إعجابي كثيرًا في تراخيك في اختيار مكان إقامة لك. فخلال أسفاري، أحجز غرف الفندق قبل أسابيع عدّة لأكون على بيّنة من المكان الذي سأنزل فيه لئلّا أُصاب بانهيار حادّ.

- أظنّ أنّ السنوات الطويلة التي أمضيتها في ممارسة الإبحار نمّت لديّ شيئًا من المرونة في التصرّف بحيث أستطيع أن أنام في أيّ مكان.

- من جهتي، أظنّ أنّني شديد المراعاة للتفاصيل بحيث لا أستطيع ذلك. فهوسي بالتنظيم يثير توتّر كلّ من يعرفني.

أخذت حقيبتي من إلسي، الفتاة التي تعمل أمينة صندوق، ومن ثمّ انتظرت في الردهة ريثما ينجز ويليَم الإجراءات اللازمة لتأمين سيارة الأجرة. وقفت أراقبه بحذر في حين كان توتّره الداخلي يتجلّى بشكل ماديّ من خلال تصرّفاته التي تنمّ عن ثقته بنفسه: إذ بدا أشبه بجندي، وكان كل وتر عضلي من يديه ينقبض وينبسط بشكل متواتر بينما كانت إلسي تتحدّث مع شركة سيارات الأجرة.

ولم أجد عبارة لوصفه أفضل من .... مسعور.

سألني ويليَم بعد أن وصلت سيارة الأجرة وركبنا فيها:

- حسنًا، أين تقيمين في الأوقات التي لا تمارسين فيها رياضة الإبحار أو تتنقّلين من بلد إلى آخر بحثًا عن معلومات عن موسيقيين متوفين وزوجاتهم؟

- في جنيڤ، في منزل الأسرة.

- ألا تملكين محل إقامة دائمًا خاصًا بك؟

- كلا، لستُ بحاجة إلى مكان خاص بي، لأنني كثيرة السفر.

- هذه نقطة اختلاف أخرى بيننا، فشقتي في زوريخ هي ملاذي. اعذريني، أظنّ أنّ عليّ أن أتوقّف عن الطلب من الأشخاص خلع أحذيتهم أو مسح أيديهم بمناديل مضادة للبكتيريا حين يأتون لزيارتي.

وعدت بالذاكرة إلى الطريقة التي نظّف بها يديه خلسةً، بعد انتهائه من العزف على البيانو في وقت سابق.

تابع بنبرة دمثة:

- أعلم بأنّني غريب الأطوار. ولا داعي للشعور بالحرج بسبب تفكيرك في ذلك.

- معظم الموسيقيين الذين التقيتهم في حياتي غريبو الأطوار. ما يدفعني للاعتقاد بأنّ ذلك يشكّل جزءاً من حزمة العمل في المجال الفنيّ.

- أو يمكن القول إنهم «مصابون بالتوحّد»، كما يقول لي طبيبي النفسي. ربما يوجد خيط رفيع بينهما. تقول والدتي إنني لن أتمكّن من ترتيب أموري إلا في حال عثوري على نصفي الآخر، ولكنني لا أتصوّر أن أحدًا قادر على تحمل زلّاتي. هل أنت مرتبطة؟

أجبته وقد أشحت بنظري بعيدًا خارج نافذة السيارة:

- كنت... ولكنّه تُوفي منذ بضعة أسابيع.

-آسف يا آلي. تعازيّ الحارة.

- شكرًا لك.

- لا أجد ما يمكن لي أن أقوله.

أجبته مواسية:

- لا تقلق، لا أحد يجد ما يقوله.

- ألهذا السبب أتيت إلى النروج؟

- أجل، أفترض ذلك.

خفّف سائق سيارة الأجرة السرعة على طول جانب المرفأ القديم، المحاط بمبانٍ ذات واجهات خشبية، مطلية بدرجات من الأبيض، والأحمر الأرجوانيّ، والأصفر المائل للذهبيّ والأصفر، ومزوّدة بسقوف مميزة من القرميد الأحمر المثلّث الشكل. غير أنّ الألوان كلّها تحوّلت فجأة إلى ضبابية أمام عينيّ اللتين اغرورقتا بدموع حارقة.

تنحنح ويليَم بعد أن خيّم عليه الصمت لفترة طويلة قائلًا:

- حسنًا، لم أتعوّد التحدّث في هذه الأمور، ولكنني مررت بتجربة مماثلة لتجربتك وأدرك تمامًا ما تعانين منه. فقد تُوفّي شريكي لخمس سنوات خلت، بعد عيد الميلاد. وأؤكد لك أنها ليست ذكرى جميلة.

- إنني آسفة بدوري.

وربتُّ قبضته المضمومة بينما أشاح بنظره بعيدًا.

- بالنسبة إليّ، كانت وفاته أشبه بالخلاص المبارك. إذ اشتدّ المرض على جاك في المراحل الأخيرة. ماذا عنكِ؟

- تُوفّي في حادث إبحار. رحل ثيو في لمح البصر.

- لست أدري أيًّا من الحالتين أسوأ. صحيح أنني حظيت بمتّسع من الوقت لتقبل الواقع المرير، لكنّني لم أجد مفرًّا من رؤية من أحبّه يتألّم ويحتضر. أعتقد أنّني لم أتمكّن بعد من التعافي من تلك التجربة. في أي حال، لا أريد أن أكون السبب في إحباطك أكثر مما أنتِ محبطة، أرجو منكِ أن تعذريني.

أجبته، بينما كانت سيارة الأجرة تتوقّف أمام مبنى شاهق من الطوب:

- لا داعيَ للاعتذار. فمن المريح كثيرًا أن نعلم بوجود أشخاص آخرين مرّوا بتجربة مماثلة.

- هذا هو الفندق الذي أنزل فيه. ما رأيك في أن تدخلي وتسألي إن كانت تتوافر لديهم أي غرف شاغرة؟ لا أظنّ أنك ستعثرين على مكان أفضل.

وافقته الرأي قائلة:

- من المؤكد أنّني لن أفعل.

عندما ترجّلت من السيارة، تبيّن لي أنّ فندق هافنيكونتوريت يقع على بعد أمتار قليلة من حافّة الرصيف، حيث كان يرسو مركب شراعي جميل مزوّد بصاريتَيْن مزدوجتَيْن.

تمتمتُ قائلة:

- كان ثيو ليحب هذا المكان. وقد شعرت بشيء من السرور لأنني أصبحت قادرة على قول ذلك، وأنا أدرك بأنّه قادر على أن يتفهّمني.

- نعم. دعيني أحمل حقيبتك.

طلبت من سائق الأجرة الانتظار قليلًا، ومن ثمّ لحقت بويليَم إلى الفندق وسألت مكتب الاستقبال إن كانت تتوافر لديهم أي غرف شاغرة. بعد إنجاز معاملات حجز الغرفة، خرجت من جديد وطلبت من سائق الأجرة الانصراف.

قال لي ويليم بينما كان يحوم في قاعة الاستقبال قلقًا:

- حسنًا، يسرني أنك تمكّنت من تنظيم أمورك. يبدو أن الصحافية قد وصلت. صحيح أنني أكره أمثالها، ولكن ما باليد حيلة. أراكِ في وقت لاحق.

- بالتأكيد.

ورأيته يتوجّه نحو امرأة كانت تنتظره في البهو.

بعد تسليم بطاقة الاعتماد الخاصّة بي، والحصول على كلمة المرور للوصول إلى خدمة الواي فاي، توجّهت بالمصعد إلى غرفتي، الواقعة عند طرف المبنى مع مشهد خلاب للمرفأ. كان الليل قد بدأ يسدل ستاره، فخلعت بنطالي الجينز واستبدلت به سروالًا مريحًا وقميصًا ثقيلًا مزوّدًا بقلنسوة، ومن ثمّ أشعلت كمبيوتري المحمول. وأثناء انتظاري ريثما يتم التواصل، رحت أفكّر في ويليَم ومدى إعجابي

به على الرغم من غرابة أطواره. وحين فتحت بريدي الإلكتروني، وجدت رسالة أخرى من المترجمة ماغدالينا جانسن.

من: magdalenajensen1@trans.no

إلى: Allygeneva@gmail.com

الموضوع: غريغ، سولفيج وأنا.

الأول من أيلول 2007

عزيزتي آلي،

تجدين طيّه ترجمة الأجزاء المتبقّية. سأرسل النسخة الأصلية للكتاب إلى عنوانك في جنيف. آمل أن تستمتعي بالقراءة لأن القصّة مثيرة فعلًا.

مع تحياتي،

ماغدالينا.

ضغطتّ على خانة «فتح المرفقات»، ورحت أراقب بنفاد صبر عملية تحميل الشريحة الباقية من الصفحات، ومن ثمّ بدأت القراءة من جديد...

آنّا

كريستيانيا، النروج

آب 1876

25

- عزيزتي آنّا، كم تسرني عودتك إلينا.

قادت الآنسة أولسداتر آنّا إلى داخل الشقة وأخذت منها معطفها وتابعت:

- بعد رحيل السيد باير إلى دروباك، بات المنزل خاليًا. هل أمضيت وقتًا ممتعًا في الريف؟

أجابت آنّا وهي تلحق بالآنسة أولسداتر إلى غرفة الجلوس:

- استمتعت بوقتي كثيرًا، شكرًا على سؤالك. مع أن الإجازة كانت قصيرة.

- أترغبين في شرب الشاي؟

- بكل سرور. ردّت آنّا.

- سأحضره لك.

بعد مغادرة الآنسة أولسداتر الغرفة، اعترفت آنّا في سرها بمدى سعادتها بالعودة إلى كريستيانيا حيث تعتني بها مدبّرة المنزل خير اعتناء. «لا يهمّني إن أصبحت مدلّلة»، قالت في نفسها، وأطلقت تنهيدة ارتياح لكونها ستنام هذا المساء على سرير مريح، وتستيقظ صباح الغد لتجد طعام الفطور جاهزًا قرب سريرها.. ناهيك بفكرة الاستحمام بالمياه الساخنة.

قاطعت الآنسة أولسداتر أفكارها مع عودتها إلى غرفة الجلوس وهي تحمل صينية الشاي. قالت لها وهي تسكب الشاي في كوب مزخرف وتقدّمه لها:

- أريد أن أخبرك شيئًا. يبدو أنّ السيّد باير لن يتمكّن من العودة إلى كريستيانيا في الوقت الحالي. فوالدته المسكينة مريضة جدًّا، ولا يستطيع تركها. قال لي إنها على مشارف الموت، ويفضّل البقاء بقربها في أيامها الأخيرة. لهذا، ستبقين في رعايتي إلى حين عودته.

أجابت آنّا:

- يؤسفني أن يكون المرض قد اشتدّ على والدته إلى هذا الحدّ. في حين أنها لم تكن آسفة على الإطلاق لتأجيل عودة السيّد باير.

- ستُقام التمارين خلال النهار، لذا عليّ مرافقتك في الترامواي في طريق الذهاب إلى المسرح والعودة منه. بعد أن تنهي الشاي، أريدك أن تصعدي لتلقي نظرة على ملابسك الجديدة. تسلّمنا الملابس الشتوية التي طلب السيّد باير من الخيّاط تجهيزها. إنها رائعة بالفعل. كما تركت لك في الغرفة رسالة وصلت إليك.

بعد مرور عشر دقائق، فتحت آنّا خزانة ملابسها لتجدها ممتلئة بمجموعة من الملابس الجميلة المصنوعة بحسب الطلب. فإلى جانب القمصان المصنوعة من الحرير والموسلين، والمواكبة لأحدث صيحات الموضة، وجدت تنانير من الصوف الرقيق الناعم، وفستانين مصمّمين بعناية وأناقة؛ الأوّل باللون الياقوتيّ والثاني باللون الورديّ الداكن. كما وجدت أيضًا قطعتي كورسيه، وسراويل داخلية كثيرة وجوارب رقيقة كشبكات العنكبوت.

اقشعرّ بدنها لمجرّد تفكيرها بأن السيّد باير قد أمر بإحضار هذه القطع الحميمية لها، لكنّها طرحت تلك الأفكار جانبًا، وحاولت أن تقنع نفسها بأن الآنسة أولسداتر هي من اختارتها لها. ولم تغفل عن زوجي الأحذية القابعَيْن على أحد الرفوف والمزوّدَيْن بكعب عالٍ؛ الأول زهريّ داكن بلون الفستان ومزّين بمشبك فضيّ، والثاني عاجيّ ناعم مطرّز بالأبيض. وبينما كانت تجرب الحذاء الزهريّ، وقعت عيناها على علبة للقبعات. فحملتها على مهل وفتحت الغطاء وقد انقطعت أنفاسها. كانت العلبة تحتوي على قبعة تتناسب مع فستانها الزهري ومنسّقة بمجموعة من الأرياش والأشرطة في منتهى الأناقة. وتذكّرت آنّا لحظة وصولها للمرّة الأولى إلى محطة السكة الحديد في كريستيانيا ومدى انبهارها بقبعات السيدات. وما لبثت أن أدركت، وهي تضع القبعة على رأسها بعناية، أنّ تلك القبعة تضاهي كل القبعات. وبينما كانت تتمرّن على المشي في غرفتها بحذائها الجديد وغطاء رأسها، شعرت بنفسها أطول قامة وأكبر سنًّا، وفكّرت بمدى التغيير الذي طرأ عليها منذ وصولها إلى هذا المكان.

جلست بعدها على سريرها والقبعة جاثمة على رأسها، وأخذت الرسالة التي

تركتها لها الآنسة أولسداتر. تنهّدت آنّا عندما عرفت أن الرسالة من لارس، ومن ثمّ فتحتها بحذر وهي تخشى من مضمونها.

ستالسبرغ فاينغشوسيت

تيندفيغين

هيدال

22 تموز 1876

عزيزتي آنّا،

وعدتك بأن أكتب إليك لأشرح لك بشكل مفصّل الحديث المُقتضَب الذي دار بيننا عشية حفل زفاف شقيقك.

خلال الأشهر القليلة الماضية، بات واضحًا بالنسبة إليّ أنّ إقامتك في كريستيانيا غيّرت تطلعاتك ورؤيتك للمستقبل. وأرجو منك يا عزيزتي آنّا ألّا تشعري بالذنب بسبب ذلك. فمن الطبيعيّ أن تتغيّر كلّ الأمور، لأنك تتمتّعين بموهبة متميّزة، والأهم من ذلك كلّه هو أن تلك الموهبة يحتضنها أشخاص على قدر كبير من الأهمية، وقادرون على تنميتها وتقديمها للعالم.

وعلى الرغم من أنّ والدَيْك يعتقدان أنك تغيّرت قليلًا، إلا أنني أدرك أنك تغيّرت كثيرًا.

فظهورك على خشبة مسرح كريستيانيا خلال فصل الخريف المقبل لتؤدّي دور سولفيج سيشكّل فرصة جديدة لإحداث مزيدٍ من التغيّرات في شخصيتك. ومهما يكن ذلك صعبًا، عليّ أن أتقبّل بأنّ فكرة زواجك مني لم تعدْ تستهويك. هذا إذا افترضنا أنها كانت تستهويك من قبل، وهو أمر أشكّ فيه.

أدرك تمام الإدراك أن قلبك الطيب وأخلاقك العالية ما كانت لتسمح لك بالتعبير عن حقيقة مشاعرك. فبصرف النظر عن حرصك على عدم إيذائي، كنت

حريصة أيضًا على عدم المجازفة بأن تخيّبي آمال أبويك. وبالتالي، قرّرت، كما سبق واتفقنا، أن أخبرهم بأنني لم أعدْ قادرًا على انتظارك لوقت أطول. فوالدك اشترى مني الأرض وهذا الترتيب الماليّ يناسبني تمامًا. فأنا لا أحبّذ العمل مزارعًا، كما أنك لا تحبين الأعمال المنزليّة، وبعد وفاة والدي لم يعدْ لديّ أيّ سبب يرغمني على البقاء هنا.

ويبدو أن هناك خيارًا آخر.

أود أن أخبرك يا آنا بأن سكريبنر، الناشر الأميركيّ الذي أخبرتك بأنني أرسلت قصائدي إليه في نيويورك، قد تواصل معي. يبدو أنهم يرغبون في نشر القصائد، وعرضوا عليّ دفعة مُسبقَة للقيام بذلك. أظنّك تذكرين أنني كثيرًا ما حلمت بالسفر إلى أميركا. وبفضل النقود التي دفعها لي والدك ثمن الأرض، سأتمكّن من حجز تذكرة السفر. ليس بإمكانك أن تتصوّري مدى حماستي للسفر، كما أن نشر قصائدي هناك يمثّل شرفًا عظيمًا لي. صحيح أنّ أغلى أمنياتي كانت أن أصحبك معي، بصفتك زوجتي، لنتمكّن من بناء حياة جديدة معًا في أميركا، غير أن التوقيت ليس ملائمًا لك. ولا بدّ من الاعتراف يا آنا بأنّني أدرك أنك لن تتمكّني في مطلق الأحوال من أن تحبيني بقدر حبّي لك.

لا أحمل أيّ ضغينة ضدك ولا أتمنّى لك سوى الخير. وأشعر بأنّ الله أتاح لنا بطريقة غريبة، الفرصة للتحرّر والمضي قُدُمًا، كلٌّ على الدرب الذي اختاره، حتى لو لم نكن مرتبطَيْن.

آمل أن نبقى صديقَيْن على الرغم من أنّ القدر لم يشأ أن نكون زوجَيْن.

سأسافر إلى أميركا في غضون ستة أسابيع.

لارس،

وضعت آنا الرسالة بجانبها على السرير، وقد شردت في أفكارها بعيدًا، بينما كانت تتخبّط في داخلها مشاعر التأثّر والانزعاج في آن.

أميركا... لامت آنا نفسها لأنها لم تأخذ لارس يومًا على محمل الجدّ وظنّت

أن حلمه مستحيل. ولكن قصائده ستُنشر في تلك البلاد، ما يضعه أمام احتمال أن يتمكّن يومًا ما من السير على خُطى السيد إيبسن نفسه.

ولم تعد آنا، للمرّة الأولى، تنظر إلى لارس على أنّه ضحية، أو كلب حزين يحتاج إلى من يداعبه. وعلى الرغم من أنه باع أرضه إلى والدها لتكون مهرًا لها، كما أخبرها في رسائله، أُتيحت له اليوم الفرصة للفرار من هدال والسعي لتحقيق أحلامه، مثلها تمامًا.

ووجدت في تلك الفكرة عزاءً لها.

هل كانت لتوافق على السفر معه إلى أميركا لو أنّه عرض عليها ذلك؟

«كلّا».

تمتمت شفاهُها الجوابَ من دون استئذان. فاستلقت على سريرها تاركة قبعتها الحريريّة الجديدة تميل إلى الأمام وتغطّي عينَيْها.



الشقّة رقم 4

10 ستريرت أولاف غايت

كريستيانيا

4 آب 1876

عزيزي لارس،

أشكرك على رسالتك، وأودّ أن أعبّر لك عن مدى سعادتي بالفرصة الجيّدة التي حصلت عليها، آملةً أن تراسلني من أميركا. كما أرجو أن تقبل شكري على كلّ ما فعلته من أجلي. فقد ساعدتني على تحسين قدراتي في القراءة والكتابة ما سهل عليّ الحياة في كريستيانيا.

أبلغ حبّي لأبي وأمي. آمل ألا يغضبا منك عندما تخبرهما أنّ زواجنا مستحيل، وأنا ممتنّة لك لأنّك ستتحمّل اللوم كلّه.

أتمنّى أن تجد في أميركا زوجة أفضل منّي. كما آمل أن نبقى صديقَيْن.

أرجو ألّا تعاني من دوار البحر أثناء رحلتك.

آنّا.

بينما كانت آنّا تضع الختم على الرسالة، أدركت فجأة تأثير كلامه عليها. فبعد أن أصبح لارس الآن مجرّد صديق لها، وعلى أهبّة السفر إلى أميركا، شعرت بأنها ستشتاق إليه.

سألت نفسها وهي تنهض من مكانها وتتوجّه إلى النافذة لاختلاس النظر إلى الشارع في أسفل: «هل كان يُفترض بي أن أتزوّجه؟ كان يعاملني في غاية الطيبة واللطف. ومن المؤكد أنّه سيبني مستقبلًا باهرًا هناك، في حين أنني قد أموت هنا عجوزًا عانسًا..».

وبينما كانت تجتاز الرواق، في وقت لاحق، لتضع الرسالة على الطبق الفضيّ لتُرسَل بالبريد، شعرت بأنّ الخيط الأخير والدقيق الذي كان يربطها بحياتها القديمة قد انقطع.



مع بدء التمارين بعد ثلاثة أيام استعدادًا لعرض مسرحية بير جينت، تعرّفت آنّا إلى أفراد فريق العمل، الذين شاركوا بمعظمهم في العرض الأصليّ، وأظهروا لها كثيرًا من اللطف والتعاون. وبينما وجدت آنّا سهولة مُطلَقة في تعلّم الأغاني وتأديتها، تبيّن لها أن التمثيل أكثر تعقيدًا ممّا كانت تتصوّر. إذ كانت في بعض الأحيان، تنتقل إلى المكان الصحيح على خشبة المسرح، ولكنها تنسى بعدها سطورها؛ كما كانت تتذكّر في أحيانٍ أخرى كلّ ما سبق، ولكنها تفشل في التعبير عن الانفعال المطلوب من خلال قسمات وجهها. وعلى الرغم من أنّ السيّد جوزفسون كان يتعامل معها بصبرٍ فائقٍ، شعرت آنّا وكأنّ عليها أن تفرك بطنها، وتربّت رأسها وترقص البولكا في آن.

وفي اليوم الرابع من التمارين، بدأت تتساءل، وقد بلغ الإحباط منها مبلغًا، إذا كانت ستتمكّن من النجاح في أداء الدور. وبينما كانت تهمّ بمغادرة المسرح، صرخت مصعوقةً عندما شعرت بيد تمسك بذراعها أثناء توجّهها نحو الباب الخلفيّ للمسرح وسمعت صوت جانس هالڤورسن الشرّير يقول لها:

- آنسة لاندفيك، سمعت أنك عدت إلى كريستيانيا. كيف كانت إجازتك في الريف؟

أخذ قلب آنّا يخفق بقوة لدى اقترابه منها، وعلى الرغم من أنّه أرخى قبضته على ذراعها، ترك يده تستريح عليها. فشعرت بحرارتها عبر كُمّ ردائها، ما جعلها تبتلع اعتراضها على مضض. وحين التفتت نحوه، أصيبت بصدمة لدى رؤيتها التغيير الطارئ على مظهره الخارجيّ. فشعره المجعّد الذي تعوّدت رؤيته لامعًا ومسرّحًا بعناية، بدا باهتًا ومتدليًا على وجهه، في حين كانت ملابسه الفاخرة قذرة ومتغضّنة. وكان واضحًا أنّه لم يستحم منذ عدّة أسابيع، حيث أن حاسة الشمّ لديها أكدت لها ذلك.

قالت هامسة:

- وصيفتي تنتظرني في الخارج. أرجو منك أن تدعني وشأني.

- سأفعل، ولكنْ ليس قبل أن أقول لك إنّني اشتقت إليك حدّ الجنون. أظنّ أنني أثبتُّ لك حبي وإخلاصي؟ أرجوك، أتوسّل إليك أن تقولي لي إنك موافقة على مقابلتي.

- كلّا، لن افعل.

- حسنًا، لا شيء سيمنعني من المجيء لرؤيتك هنا في المسرح، أليس كذلك آنسة لاندفيك؟

سمعته يناديها باسمها بينما كانت تهرع عبر باب المسرح الخلفيّ وتقفله وراءها بقوة.

حرص جانس خلال الأسبوع التالي على انتظار آنّا يوميًّا أثناء مغادرتها المسرح بعد انتهاء التمارين.

قالت له بصوت خافت، وقد رأت البواب هالبرت يشغل مكانه المعتاد في الصف الأماميّ متهيئًا لمشاهدة مسرحيتهما الغزلية:

- تصرفاتك بدأت تثير سخطي سيد هالفورسن.

- ممتاز! بإمكانك الآن أن تكوني أكثر ليونة وتوافقي على احتساء الشاي برفقتي.

أجابته على عجل وهي تتسلّل بخفة أمامه محاولة كبح ابتسامة كادت أن ترتسم على ثغرها:

- ستسرّ وصيفتي كثيرًا بالانضمام إلينا. أرجو منك أن تبلغها طلبك.

والحق يُقال إنها كانت تتطلّع إلى لقاءاتهما اليوميّة بشوق كبير بحيث بدأت تسترخي قليلًا لإدراكها بأنهما كانا يمارسان لعبة القط والفأر المضنية. وبالنظر إلى أن لارس لم يعد ينتظر عودتها، ناهيك بصرفها ليالي الصيف الطوال في التفكير في جانس، شعرت آنّا بجُذُر عزمها تتزعزع على الرغم من جهودها الحثيثة.

في يوم الاثنين الذي تلى عطلة نهاية الأسبوع الطويلة حيث لازمت آنّا خلالها المنزل، أعلنت الآنسة أولسداتر عن اضطرارها إلى مغادرة المدينة للاهتمام بأمور خاصّة بالسيد باير، معتبرة آنّا مسؤولة بما فيه الكفاية لتستقل الترامواي بمفردها. ولدى مغادرة آنّا المسرح، أدركت أنّ الوقت قد حان للاستسلام.

كان جانس بانتظارها كالعادة في الزقاق قرب الباب الخلفيّ للمسرح. فسألها أثناء مرورها بقربه بنبرة تدعو للرثاء لحاله:

- متى ستوافقين يا آنسة لاندفيك؟ عليّ الاعتراف بأنّ رفضك بدأ يستنفد عزيمتي على الرغم من قدرتي على التحمّل.

أجابته على عجل:

- اليوم.

- أنا...حسنًا... لا بأس.

وجدت آنّا متعة لا توصف لدى رؤيتها وقع الصدمة عليه.

قال لها:

- سنذهب إلى مقهى إنغبريت في الجهة الأخرى من الساحة. إنه على بعد دقيقة من هنا سيرًا على الأقدام.

كانت آنّا قد سمعت عن ذلك المقهى، وظنّت أنه مكان فاخر.

- ولكن ماذا لو رآنا أحدهم سويًّا؟ سيسيئون الظنّ بنا لأنّ الوصيفة ليست برفقتي.

ضحك جانس ضحكة خافتة وأجابها:

- هذا الأمر بعيد الاحتمال. فلا يرتاد هذا المقهى سوى المتشرّدين والموسيقيين السكارى الذين لن يحرّكوا ساكنًا حتى لو خلعت ملابسك ورقصت عارية على الطاولة! أقسم لك بأن لا أحد سيرانا. هيّا بنا آنسة لاندفيك، لا نريد أن نضيع الوقت.

- لا بأس.

وشعرت آنّا برعشة الإثارة تسري في جسدها.

غادرا المسرح بصمت وعبرا الساحة متوجّهين إلى المقهى، حيث أشارت آنّا إلى طاولة في الزاوية الأكثر ظلمة وهدوءًا. وبعد أن طلب جانس الشاي لكليهما، سألها:

- أخبريني يا آنّا، كيف كانت إجازة الصيف؟

- أدركت عندما رأيتك أنها كانت أفضل بكثير من إجازتك. تبدو بحالة سيئة.

- حسنًا، أشكرك على تعبيرك عن ذلك بشكل لائق.

وضحك ضحكة خافتة من فظاظتها، وتابع:

- لست مريضًا، ولكنّني معدم في الوقت الحالي، وأحتاج إلى الاستحمام وتبديل ملابسي. يقول سيمين، وهو عضو مثلي في الفرقة الموسيقيّة، إنني قد أصبحت موسيقيًّا محترفًا. كان في غاية اللطف معي وأمّن لي مأوى بعد أن اضطررت لمغادرة منزل الأسرة.

- يا للهول! لماذا؟

- عارض والدي تطلّعاتي الموسيقيّة، لأنه كان يتمنّى أن أسير على خطاه وأتولّى إدارة مصنع الجعّة كما فعل أسلافي من قبلي.

حدّقت آنّا إليه بمزيد من الإعجاب. لا بدّ من أنّ التخلّي عن العائلة، ووسائل الراحة المنزليّة من أجل الفن، يتطلّب قوة شخصية عظيمة.

أردف جانس قائلًا:

- في أيّ حال، بدأ موسم العروض المسرحيّة في المدينة وبإمكاني الآن أن أجني نقودًا من شأنها أن تخوّلني الانتقال إلى منزل أكثر ملاءمة. قال لي البارحة أوتو، عازف الأوبوا، إنه سيؤجّرني غرفة في شقته. فقد توفّيت زوجته مؤخرًا، ونمي إليّ أنها كانت ثرية، وبالتالي أتوقّع أن أنتقل قريبًا إلى حيٍّ راقٍ. تقع شقته على بعد خمس دقائق سيرًا على الأقدام من منزلك. سأصبح قريبًا جارك، وباستطاعتك المجيء لزيارتي واحتساء الشاي برفقتي.

أجابت بخجل:

- يسرّني أن أعلم بأنك ستنتقل إلى مكان مريح أكثر.

- في حين كنت أتدحرج نحو الحضيض، أخذ نجمك يسطع بسرعة البرق! لعلّك تصبحين يومًا ما المطربة الثرية العطوفة التي يحتاج إليها كلّ موسيقيّ.

وأضاف مناغشًا لدى وصول الشاي:

- انظري إلى ملابسك المترفة وقبّعتك الباريسيّة الطراز. إنك تمثّلين الصورة المثالية للفتاة الشابة الثريّة في هذه الأيام.

- من الممكن أن ينطفئ نجمي بالسرعة التي سطع فيها. أظن أنّني فاشلة في التمثيل، وسأخسر حتمًا عملي في القريب العاجل.

وشعرت فجأة آنّا بالارتياح لاعترافها بذلك لأحد.

- وأنا واثق تمامًا من أن ذلك غير صحيح. فعند اجتماع أفراد الفرقة الموسيقيّة للمرة الأولى البارحة، سمعت السيد جوزفسون يقول لهانوم إنك تبلين حسنًا.

- لست أفهم ما يحدث لي سيّد هالفورسن. لم أشعر يومًا بالقلق من الوقوف

أمام الجمهور والغناء، ولكن التفوّه بالأسطر وتمثيل الشخصيات أمر مختلف. وأظنّ أنّني أعاني من رهبة المسرح.

وتابعت آنّا وهي تعبث، شاردة الذهن، بمسكة فنجان الشاي:

- لا أعرف كيف سأجد الشجاعة الكافية للظهور أمام الجمهور في ليلة الافتتاح.

- آنّا... ما رأيك لو أناديك آنّا وأنت تنادينني جانس؟ أظنّ أنّنا تعارفنا بما يكفي للسماح بذلك.

- أجل... أفترض ذلك. أقلّه عندما نكون وحدنا.

- شكرًا لكِ. بالعودة إلى حديثنا يا آنّا، أنا واثق من أنك ستبدين في غاية الجمال وتغنّين بشكلٍ ساحرٍ بحيث لن يلاحظ أحد ما تقولينه.

- هذا لطف منك... ولكنني أعجز عن النوم في الليل يا جانس. لا أريد أن أخذل أحدًا.

- وأنا واثق من أنك لن تفعلي. أخبريني الآن، كيف حال خطيبك الذي تركتِه في قريتك؟

أشاحت بنظرها بعيدًا وهي تجيبه بحذر:

- قرّر السفر إلى أميركا، من دوني. ونكسنا عهدنا بالارتباط.

- يؤسفني سماع ذلك، ولكن عليّ الاعتراف بأنكِ جعلتِ مني أسعد رجل في العالم. فأنا لم أتوقّف عن التفكير فيك منذ لقائنا الأخير، وصورتكِ المحفورة في خيالي هي التي كانت تمدّني بالشجاعة والصبر لأتحمّل الظروف الصعبة التي مررت بها خلال فصل الصيف. حتى أنّني وجدت نفسي مغرمًا بك من دون أن أدري.

تأمّلته آنّا للحظات قليلة قبل أن تجيب قائلة:

- كيف يعقل أن يحدث ذلك؟ فأنت بالكاد تعرفني، حتى أننا لم نتبادل يومًا الحديث لأكثر من دقائق معدودة. إذ لا يمكن أن تغرم بأحد إلا إذا كنت معجبًا بشخصيته. ولا يمكنك أن تعجب بشخصيته إلا إذا أُتيحت لك الفرصة للتعرّف إليه عن كثب.

- كوني على يقين من أنّني أعرف عنك أمورًا أكثر بكثير ممّا تتصوّرين. فقد أدركت مثلًا مدى تواضعك لأن الحمرة علت خدّيك عندما نهض الحاضرون وصفّقوا لكِ بعد النجاح الباهر الذي حققتِه في تلك الأمسية. وأدركت أيضًا أنّكِ لا تأبهين كثيرًا لمظهرك الخارجيّ لأنّك لا تضعين مساحيق التجميل على وجهكِ. كما أعلم أنّك تقيّة ومخلصة، وتتمتّعين بأخلاق عالية، ما جعل مغازلتك أكثر صعوبة. ودفعني هذا الأمر إلى التأكّد من أنّكِ عنيدة جدًّا ولا تعودين عن القرارات التي تتّخذينها. ومن خلال تجربتي في الحياة، من النادر جدًّا مقابلة امرأة يمكن أن ترمي رسائل رجل طالب للزواج في النار، من دون أن تلقي نظرة سريعة عليها، حتى لو كانت تعتبر أن سعيه الحثيث لمغازلتها غير لائق.

حاولت آنّا ما بوسعها لإخفاء اندهاشها بهذه النظرية، وبلعت ريقها بصعوبة وهي تجيبه قائلة:

- حسنًا، هناك أمور كثيرة لا تعرفها. فوالدتي مثلًا فقدت الأمل من مهاراتي في الشؤون المنزليّة، لأنني لا أجيد الطهو والخياطة. يقول والدي إنه ليس بإمكاني الاعتناء سوى بالحيوانات، وليس البشر.

ردّ جانس وعلى محيّاه ابتسامة رضى:

- نستطيع الاكتفاء بالحب وشراء هرّة.

- اعذرني، ولكن عليّ أن ألحق بالتراماوي وأعود إلى المنزل.

ونهضت من مكانها وأخرجت من حقيبة يدها حفنة من القطع النقديّة ووضعتها على الطاولة قائلة:

- أرجو منك أن تدفع ثمن فنجان الشاي الذي شربته. إلى اللقاء... جانس.

أمسك بيدها وهي تهمّ بالرحيل قائلًا:

- متى أستطيع مقابلتك ثانية يا آنّا؟

- أظنّك تعلم أنّ بإمكانك أن تجدني كل يوم في المسرح ما بين الساعة العاشرة والرابعة.

قال لها بصوتٍ مرتفعٍ بينما كانت تخرج مسرعة من الباب:

- سأحضر غدًا عند الرابعة.

بعد مغادرتها، نظر جانس إلى القطعة النقديّة التي تركتها وتبيّن له أنّها تكفي لدفع ثمن الشاي بالإضافة إلى طبق من الحساء وكأس شراب.

بعد صعودها إلى الترامواي، أغمضت آنّا عينيها وظهرت على ثغرها ابتسامة حالمة. فأثناء وجودها مع جانس وحدهما، خالجها إحساس رائع. إذ لم يعد في نظرها ذلك الفتى المتغطرس، المعتدّ بنفسه، ربّما بسبب الظروف الجديدة التي طرأت على حياته أو بسبب مثابرته على مطاردتها.

وفي تلك الليلة، تضرّعت إلى الرب قائلة: «إلهي، أرجو منك أن تسامحني إذا قلت إنني أظنّ أنّ جانس هالڤورسن الشرّير لم يعدْ شرّيرًا إلى هذا الحدّ. فقد أقلع عن تصرّفاته السيئة بعد أن دخل في التجربة. أظنّك تعلم أنني سعيت جاهدة لأجتنب الوقوع في التجربة ولكن...». وعضّت آنّا شفتها مضيفة: «أظنّ أنّني وقعت الآن. آمين».



خلال التحضيرات لليلة الافتتاح، كانت آنّا وجانس يلتقيان يوميًا بعد التمارين. وحرصًا منها على اجتناب أيّ لغو في المسرح، اقترحت آنّا أن ينتظرها في مقهى إنغبريت الذي غالبًا ما يكون شبه خالٍ من الروّاد في الساعات المتأخرة من بعد الظهر. وسرعان ما بدأت آنّا تشعر بالاسترخاء بحيث لم تعد تأبه بالحفاظ على المظاهر. وفي أحد الأيام، مدّ جانس يده من تحت الطاولة ليمسك بيدها، فلم تمانع، ما شكّل سابقة بالفعل، وأصبحا بعدها يجلسان معًا وأصابعهما متشابكة طوال الوقت. صحيح أنّ سكب الحليب والشاي ليس سهلًا بيد واحدة، ولكن الأمر كان يستحق العناء.

بدأ جانس يستعيد ذاته القديمة شيئًا فشيئًا. فقد انتقل إلى شقة أوتو، حيث خضع، بحسب التعابير التي استخدمها، لعملية مكثّفة لإزالة القمل من شعره. كما

اهتمت الخادمة التي تعمل في المنزل بغسل ملابسه كلها، وشعرت آنّا بالارتياح لأن رائحته أصبحت أطيب.

ولكنْ، بعيدًا عن هذا كله، كانت ذكرى لمسته، التي كانت بريئة ظاهريًا ولكنّها تنطوي على أمور واعدة كثيرة، لا تفارق خيالها ليل نهار. وأدركت في نهاية المطاف ما كانت تشعر سولفيج به، وسبب تضحياتها التي لا تُعدّ ولا تُحصى من أجل بير.

غالبًا ما كانا يجلسان معًا من دون أن يتفوّها بكلمة أو يحتسيا الشاي، مكتفيَيْن بتبادل النظرات بفرح غامر. وفي حين كانت آنا تردّد لنفسها بضرورة توخي الحذر، أدركت في أعماقها بأنّها استسلمت بكليّتها له. وكانت تغرق كل يوم أكثر فأكثر في بحر افتتانها العميق به.

26

قبل ثلاثة أيام من افتتاح الموسم الجديد لبير جينت على مسرح كريستيانيا، انطلقت مجدّدًا عملية جمع الأوركسترا وفريق التمثيل المضنية. وهذه المرّة، لم تكن آنّا تتشارك الغرفة في الكواليس مع رود وغيره من الأولاد، بل انتقلت إلى غرفة السيدة هانسون القديمة التي غطّت المرايا جدارًا كاملًا منها، والتي تحتوي على أريكة مغطّاة بالمخمل الأحمر لتستلقي عليها وتستريح إذا شعرت بالتعب.

علّق رود وهو يلقي نظرة على المكان من حوله:

- إنها جميلة جدًّا، أليس كذلك يا آنّا؟ يبدو أنّ أحدنا ارتقى مستواه في العالم خلال الأشهر القليلة الماضية. هل تمانعين إذا جئت إلى هنا في بعض الأحيان لأبقى بصحبتك؟ أم أنك أصبحتِ الآن أكبر من أن تقبلي بصحبتي؟

أخذت آنّا خدّيه الممتلئين بين يديها وضحكت قبل أن تجيب:

- قد لا يكون لديّ الوقت للعب الورق معك لكنني أرحّب بمجيئك وبزيارتك متى شئت.

في ليلة الافتتاح، دخلت إلى غرفة الملابس لتجدها مليئة بالورود والرسائل التي تتمنّى لها الحظ السعيد. وجدت حتى واحدة من أهلها وكنوت، وقد أرفقوا بها رسالة ستشير بالتأكيد إلى انفصالها عن لارس. وضعت الرسالة جانبًا على أن تقرأها في وقت لاحق. وبينما كان أينغبورغ، خبير التجميل، يضع الماكياج على وجهها، راحت تقرأ البطاقات الأخرى مقدّرة الكلمات اللطيفة والودودة التي كتبها الناس. بطاقة واحدة أُرفقت بوردة حمراء وحيدة، بُعثت بشكل حرّك الإثارة فيها عند قراءتها.

سأكون حاضرًا، أراقب ارتقاءكِ نحو النجوم الليلة.

وسأشعر بكل نبض ينبضه قلبكِ.

غنّي يا طائري الجميل. غرّدي!

ج.

ومع سماع آنا النداء الموجّه إلى «المبتدئين بالمسرحيّة» أرسلت صلاة إلى الأعالي. «أرجوك أيّها الرب، لا تجعلني أجلب العار لنفسي أو لاسم عائلتي الليلة. آمين». بعدئذٍ، وقفت وسارت باتجاه الكواليس.



مرّت لحظات في تلك الليلة علمت آنا أنها ستنطبع من دون أدنى شكٌّ في ذاكرتها، ومنها تلك اللحظة المرعبة عندما صعدت على المسرح في الفصل الثاني ونسيت كل ما حفظته. التفتت إلى الأسفل، إلى حفرة الأوركسترا بيأس حيث كان جانس يذكّرها بالكلام. أملت أن تكون قد تمالكت نفسها في الوقت المناسب بحيث لم يلحظ الجمهور ما حدث، لكنّ هذا الأمر وتّر أعصابها لما تبقّى من الوقت. ولم تستعد ثقتها بنفسها إلا أثناء أدائها «أغنية المهد» في النهاية، حين كان رأس بير يستريح على ركبتيْها وقد بقيا وحيدين على المسرح. فأطلقت العنان لصوتها ومشاعرها وتركتها تسمو.

بعد انتهاء النوتة الأخيرة، استُدعوا إلى المسرح مرات عدّة استجابة لطلب الجمهور، للتحيّة، وقُدّمت باقات الورود لها ولماري التي لعبت دور والدة بير، أيز. وغادرت آنا المسرح مع إسدال الستارة للمرة الأخيرة، وانفجرت بالبكاء بصوتٍ عالٍ على كتف السيد جوزفسون.

هدّأها قائلًا:

- أرجوكِ يا عزيزتي، لا تبكي.

- لكنّني كنت فظيعة الليلة! أعلم أنّي كنت كذلك!

- لا، أبدًا يا آنّا. ألا ترين أنّ تردّدك الطبيعيّ عزّز في الواقع صورة سولفيج الضعيفة؟ وفي النهاية... حسنًا، كان الجمهور مسحورًا. يبدو هذا الدور وكأنه كُتب لك، وأنا واثق من أن السيد إيبسن والسيد غريغ كانا ليشعرا بالرضا لو رأياكِ. لقد غنّيتِ بشكل رائع كالحلم، كما تفعلين على الدوام. والآن...

ووضع إصبعًا على خدّها ليمسح دمعة قبل أن يضيف:

- اذهبي واحتفلي بإنجازك.

كانت غرفة ملابس آنّا مليئة بالمهنّئين عندما وصلت إليها، فالجميع يرغبون في أن يكونوا حاضرين عند تتويج أميرة جديدة ومحلّيّة جدًّا، وبذلت آنّا قصارى جهدها لكي تقول الكلام الصحيح والمناسب للجميع. بعدئذ، دخل السيد هانوم وأخرج الجميع من الغرفة.

- سرّني جدًّا أن أقود الأوركسترا الليلة، وأن أشهد على خطواتكِ الأولى على المسرح يا آنّا. لا، لم تكوني ممتازة كممثّلة، لكنّك ستتعلّمين هذا مع ازدياد ثقتك بنفسكِ، وأعدكِ أنّ هذا سيحصل. أرجوكِ، حاولي أن تستمتعي بمديح كريستيانيا وإطرائها فأنتِ تستحقّين ذلك. سيحضر السيد جوزفسون بعد قليل ليرافقك إلى حفل الليلة الأولى في البهو بعد خمس عشرة دقيقة.

بعدئذٍ، انحنى أمامها وتركها بسلام وحدها.

وبينما هي تبدّل ملابسها، أعلنت طرقة قصيرة على الباب وصول رود الذي قال:

- أنا آسف يا آنسة آنّا، لكن طُلب منّي أن أسلّمك رسالة.

ومدّ يده بالرسالة مع ابتسامة وقحة قبل أن يتابع كلامه:

- اسمحي لي أن أقول إنّك تبدين جميلةً جدًّا الليلة. هل بإمكانكِ أن تسألي أمي إن كان باستطاعتي أن أحضر الحفلة؟ قد تسمح لي بذلك لو أتى الطلب منك.

- تعلم أنّني لا أستطيع ذلك يا رود. لكن ما دمت هنا فهل يمكن أن تقفل لي سحّاب فستاني؟

استُقبلت آنّا بالتصفيق عندما دخلت البهو برفقة السيد جوزفسون. راقبها جانس من بعيد، وخطر له أنّه لم يحبّها يومًا بقدر ما يحبّها اليوم، وقد أخبرها بهذا في الرسالة التي بعثها لها بعد العرض مع رود. لاحظ كيف كانت تبتسم وتجري أحاديث قصيرة، وخطر له كم أنّ طائره حلّق بعيدًا منذ أن سمعها تغنّي للمرّة الأولى.

واعتصر قلبه حين رأى وجهًا مألوفًا يدنو منها، بشاربه الضخم الذي يكاد يتراقص فرحًا لرؤية الجميع يتراجعون ويفسحون له المجال ليمرّ.

- آنّا! أيتها الشابة العزيزة، حتى مرض أمي لم يمنعني من أن أكون حاضرًا لأشاهدك في هذه الليلة المجيدة. كنتِ رائعة يا عزيزتي، رائعةً فعلًا.

لاحظ جانس شيئًا من الفتور يرتسم على ملامح آنّا، ثم رأى كيف تمالكت نفسها ورحّبت بالسيّد باير بحرارة. عندئذ، غادر جانس وهو يشعر بالاكتئاب، فمع ظهور راعيها لن يتمكّن من أن يخبرها شخصيًا كم هو فخور بها.

خطر له بالطبع، وهو يغرق بؤسه في كأس من شراب الأكوافيت في أنغبريت، أنه قادر على أن يرى أين تتوجّه الأمور، حتى وإن كانت آنّا غير قادرة على ذلك. لعلّها تخلّصت من ذلك المزارع العاشق، لكن بدا جليًا للجميع أنّ السيد باير مغرم بها. وهو قادر على أن يمنحها كل ما يمكن أن تتمنّاه. وخطر لجانس أنّه كان قادرًا على أن يفعل الشيء نفسه قبل بضعة أشهر.

وتساءل للمرة الأولى ما إذا كان قد ارتكب خطأً فظيعًا.



«لعلّ الآنسة لاندفيك لا تتمتّع بثقة السيّدة هانسون المتمرّسة في دور سولفيج، لكنّها تعوّض عن ذلك ببراءتها، وشبابها وأدائها الرائع لأغاني سولفيج».

«وفي الإصدار الصباحيّ من داغبلادت، علّق الناقد مجددًا على جمالك وشبابك و...».

لم تعد آنّا تستمع إلى السيّد باير. شعرت بالسعادة لأنّها استطاعت أن تتخطّى

الليلة الأولى، لكنّ فكرة أن تعيد الكرّة في الليلة التالية لم تكن بالشيء الذي تستطيع أن تركّز عليه الآن.

قال السيّد باير وهو يطوي الصحيفة:

- والآن يا آنّا. بإمكاني أن أبقى في كريستيانيا حتى الصباح فقط إذ عليّ، وللأسف، أن أركب العبّارة لأعود إلى أمي وأبقى إلى جانبها.

- كيف حالها؟

- ليست أفضل وليست أسوأ.

وتنهّد قبل أن يتابع كلامه قائلًا:

- لطالما تمتّعت أمي بمعنويات عاليّة، وهذا فقط ما يبقيها على قيد الحياة. لا أستطيع أن أفعل شيئًا، سوى أن أكون معها في آخر أيامها. يكفي كلامًا في هذا الموضوع. أتمنّى الليلة يا آنّا أن نتشارك عشاءً مميّزًا، حيث تستطيعين خلاله أن تخبريني بكلّ ما جرى منذ رأيتك آخر مرة.

- طبعًا، يسرّني هذا، لكنّني أشعر ببعض التعب. إن كنّا سنتناول العشاء معًا الليلة، فهلّا أذنت لي لأرتاح الآن؟

- بالطبع أيّتها الشابة العزيزة. وأعود وأكرر تهانيّ.

راقب فرانز باير آنّا وهي تغادر الغرفة، وتعجّب للشوط الذي قطعته خلال العام الفائت، ومنذ رآها آخر مرة بالتأكيد. لطالما كانت برعمًا يستعدّ لأن يتحوّل وردةً، وها هي الآن قد تفتّحت تمامًا. إنها جميلة وقد اكتسبت تحت رعايته الرشاقة والكياسة والحنكة.

وعلى الرغم من أنّ آنّا اعترفت بتعبها لكنه رأى أنّ هناك رونقًا جديدًا فيها لم يستطع أن يحدّد ماهيّته. أمل ألّا يكون لذلك أيّ علاقة بعازف الكمان ذاك الذي بدا جليًا أنّها كانت مأخوذة به في تلك السهرة في شهر حزيران. في الليلة الفائتة، أغاظه السيد جوزفسون بشيء من المكر حين قال له إنه أحسن صنعًا حين عاد إلى المدينة. ذكر السيد جوزفسون أنّ الشابة التي يرعاها شوهدت أكثر من مرّة تحتسي الشاي مع المذكور في أنغبيرت.

لقد انتظر اللحظة المناسبة حتى الساعة غير راغب في أن يخيفها. لكن وبعد ما قاله السيد جوزفسون له، خطر له أنّه من الأفضل أن يجعل نواياه واضحة.



- أيّتها الشابّة العزيزة، كم تبدين رائعة الليلة!

رحّب السيّد باير بآنا عند دخولها إلى غرفة الطعام في ثوب السهرة الأصفر. مهما يقلِ الناس إنها تبدو جميلة-خصوصًا الرجال منهم، كما خطر لها- إلا أنهم سيعتبرون على الأرجح أنّها تبدو عاديّة، إذا ما رأوها من دون بودرة الوجه السحريّة، وإذا برز النمش الذي يغطي وجهها من جديد.

وردًّا على كياسة السيّد باير، لم تجدْ آنّا ما تقوله سوى أن تبدي إعجابها بربطة عنقه الأنيقة بنقش البيزلي، آملة ألا يلاحظ التردّد في صوتها.

سألها:

- كيف كان حال عائلتك عندما زرتِهم في الصيف؟

- عائلتي بخير، أشكرك. والزفاف كان جميلًا.

- علمت من الآنسة أولسداتر أنك وذاك الشاب فسختما خطوبتكما.

- نعم. شعر لارس أنه لم يعد قادرًا على انتظاري أكثر.

- وهل يحزنك هذا يا آنّا؟

ردّت آنّا بدبلوماسيّة وهي تتناول قليلًا من السمك:

- أعتقد أنّ هذا أفضل لكلينا.

جلّ ما أرادته فعلًا هو أن تخلد باكرًا إلى النوم وتحلم بجانس.

بعد احتساء القهوة في غرفة الاستقبال، أحضرت الآنسة أولسداتر كأسًا من البراندي للسيّد باير، لكنّها أحضرت أيضًا دلوًا من الثلج يحتوي على زجاجة من الشمبانيا، ما جعل آنّا تُصاب بالذعر. كان الوقت متأخرًا جدًّا بالنسبة إليها لتفكّر في احتساء الكحول، فتساءلت على الفور ما إذا كان السيد باير ينتظر أيّ ضيوف آخرين.

قال للآنسة أولسداتر:

- أغلقي الباب خلفك.

وفعلت مدبّرة المنزل ما طلب منها.

- والآن يا آنّا، أيتها الشابّة العزيزة، لديّ ما أقوله لك.

وتنحنح قبل أن يضيف:

- لا بدّ من أنكِ لاحظتِ كم ازداد إعجابي بكِ خلال الفترة التي عشتِ فيها معي هنا. وآمل أن تكوني مقدّرة الجهود التي بذلتها في قيادة مسيرتك المهنيّة.

- بالطبع أقدّرها يا سيّد باير. ليس بمقدوري أن أشكرك كفاية.

- دعينا نتخلّ عن الرسميّات. رجاءً يا آنّا، ناديني فرانز. أصبحتِ تعرفينني جيّدًا الآن....

راقبت آنّا السيّد باير وهو يصمت فجأة. بدا، ولأوّل مرّة منذ عرفته، عاجزًا عن إيجاد الكلمات. وفي النهاية، تمالك نفسه وتابع كلامه:

- اسمعي يا آنّا، لم أفعل هذا كله لكي أنمّي موهبتك وحسب بل لأني... لأني وجدت نفسي أيضًا واقعًا في حبك. ولأنني سيّد نبيل، لم يكن بإمكاني أن أعبّر عن مشاعري وأنتِ مخطوبة لرجل آخر، لكنك الآن حرّة، حسنًا... أدركت عمق مشاعري نحوك هذا الصيف عندما رحلتِ. كما أعلم أيضًا أنّ عليّ أن أتركك وحدك هنا من جديد لأعود إلى جانب أمي، من دون أن يكون لديّ فكرة كم سيطول هذا الغياب. بالتالي، خطر لي أنّه من الأفضل أن أعرب عن نواياي الآن.

توقّف لثانية عن الكلام وأخذ نفسًا عميقًا وأردف:

- آنّا، هلّا شرّفتني بقبول الزواج مني؟

نظرت إليه مصدومة، عاجزة عن التفوّه بأيّ كلمة، وعاجزة عن منع الرعب من أن يرتسم على وجهها.

تنحنح مجدّدًا وقد لاحظ التعبير الذي ظهر على وجهها على الفور ثم قال:

- أدرك أنّ عرض الزواج هذا فاجأك. لكن يا آنّا، ألا تستطيعين أن تري ما

يعني أن نكون معًا؟ لقد خدمتكِ جيّدًا حتى الساعة في ما يتّصل بمسيرتكِ المهنيّة وبلغت أنتِ القمم هنا في كريستيانيا، إلا أنّ النروج بلد صغير، وأصغر من أن يحمل موهبتك. سبق أن راسلتُ كثيرًا من مدراء الفرق الموسيقيّة ولجان البرامج في الدانمرك وألمانيا وباريس وأخبرتهم عن موهبتك. وممّا لا شكّ فيه أنهم سيسمعون بأنفسهم عنك بعد الليلة الفائتة. إذا تزوّجنا، بإمكاني أن أسافر معك ونجول في أوروبا حيث تظهرين على مسارح أعظم الدور التي تقدّم الحفلات الموسيقيّة. بإمكاني أن أحميكِ وأن أعتني بك... انتظرت سنين طوالًا لأجد موهبةً كموهبتك. وبالطبع...

وأضاف على عجل:

- كما أنكِ خطفتِ قلبي.

ازدردت آنّا ريقها وهي تدرك أنّ عليها أن تجيب:

- حسنًا.

- من المؤكّد أنّك مولعة بي؟

- نعم، وأنا.... ممتنّة.

- أعتقد أنّنا نشكّل شراكة جيدة، سواء على المسرح أو خارجه. في النهاية، أنتِ عشتِ تحت سقفي حوالى العام وتعرفين عاداتي السيّئة كلها.

وضحك ثم تابع:

- وآمل أن تكوني قد عرفت بعض الجيّدة منها. وبالتالي، لن يكون زواجنا تلك القفزة الكبيرة كما تتخيّلينها، كثير من أمور حياتنا ستبقى على حالها كما هي الآن.

ارتجفت آنّا في داخلها، وقد أدركت كل الأمور التي يتوقّع السيّد باير أن تتغيّر.

- بقيتِ صامتة يا عزيزتي آنّا. أرى أنّني فاجأتك. أنا اعتبرت هذا تدرُّجًا طبيعيًّا لكلينا، لكن لعلّك لم تجرؤي على التفكير في الأمر.

وخطر لآنا: أنت بالتأكيد محقٌّ بهذا الشأن. فقالت بصوتٍ عالٍ: «لا».

- لعلّ إحضار الشمبانيا فيه شيء من الغرور من ناحيتي. أرى الآن أنّ عليّ أن أمنحك بعض الوقت لتفكّري في عرضي. هلّا فكرتِ فيه يا آنّا؟

وتمكّنت أخيرًا من أن تهمهم:

- بالطبع يا سيّد باير... فرانز. عرضك يشرّفني.

- سأغيب لأسبوعين وربّما أكثر، ولعلّ هذا الغياب يمنحك فرصة لتفكّري مليًا في الأمر. لا أستطيع إلّا أن آمل وأن أصلّي ليكون ردّك إيجابيًا. وجودك معي هنا جعلني أدرك كم كنتُ وحيدًا منذ وفاة زوجتي.

بدا حزينًا للغاية في تلك اللحظة بحيث أرادت آنّا أن تواسيه، تمامًا كما كانت لتفعل مع والدها. أبعدت الفكرة عن ذهنها وهبّت واقفةً بعد أن شعرت بأنّه لم يبقَ لديهما ما يُقال.

- سأفكّر مليًا في ما طلبته مني، وستحصل على الردّ عند عودتك. عمت مساءً.... فرانز.

أجبرت آنّا نفسها على ألّا تركض هاربةً من غرفة الاستقبال إلّا أنّها سرّعت خطاها ما أن أصبحت في الممر خارجها. عندما وصلت إلى غرفة نومها، أغلقت الباب وأقفلته بالمفتاح. ارتمت على سريرها ووضعت رأسها بين يديها غير قادرة بعدُ على استيعاب ما حصل للتو. أجهدت ذهنها بالتفكير في ما فعلته عن غير قصد لتجعل السيد باير يعتقد أنها يمكن أن تتزوّجه يومًا. كانت واثقة من أنها تصرّفت بطريقة لائقة في كل المناسبات. ولا تذكر حتّى أنها لاطفته ولو لمرة واحدة أو «رمقته بنظرة إعجاب وإغراء»، على حدّ تعبير فتيات الجوقة في بير جينت.

لكنّ آنّا اعترفت بأنّ والدَيْها وافقا على أن تعيش تحت سقفه وعلى أن يؤمّن لها الطعام والملابس والفرص التي ما كانت لتحلم بها، ناهيك بالمبلغ الذي دفعه لوالدها. لمَ لا يمكنه أن يفترض، بعد كلّ ما فعله من أجلها، أنّ مكافأته على جهوده كلّها تكمن في ارتباطهما الدائم؟

ناحت: «آه يا إلهي، بالكاد أستطيع أن أتحمّل هذا..».

بدت النتائج المُحتمَلة لعرض الزواج من السيد باير كثيرة. إذا رفضت عرضه، فسيكون من المستحيل أن تبقى في بيته. عندئذٍ، إلى أين ستذهب؟

وفي تلك اللحظة، أدركت آنّا كم أنّها تعتمد عليه. وأنّ كثيرًا من الشابات، أو حتّى النساء الأكبر سنًّا مثل الآنسة أولسداتر، يتمنّون أن يغتنموا فرصة الزواج منه. إنه ثريّ ومثقّف ومقبول ضمن الطبقات الراقية في مجتمع كريستيانيا. كما أنه لطيف ومحترم، لكنّه أكبر منها بثلاثة أضعاف سنّها تقريبًا.

ولعل الأهمّ من هذا كلّه... وتذكّرت آنّا الوعد الذي قطعته على نفسها؛ إنّها لا تحبّ السيّد باير. إنّها تحبّ جانس هالڤورسن .

27

بعد عرض الليلة التالية الذي بدا سطحيًا وبلا روح، مقارنة مع عرض ليلة الافتتاح، وجدت جانس بانتظارها أمام باب المسرح.

همست غاضبةً:

- ما الذي تفعله هنا؟

رأت العربة التي تنتظرها فبدأت تسرع الخُطى نحوها وهي تتابع كلامها قائلة:

- قد يرانا أحد.

- لا تقلقي يا آنّا، لا أنوي أن أسيء إلى سمعتك. أردت فقط أن أقول لك بنفسي كم كنتِ رائعة في الليلة الأولى. وأردت أيضًا أن أسألكِ إن كنتِ على ما يرام اليوم؟

عندئذ، توقّفت واستدارت نحوه لتسأله:

- ما الذي تعنيه بكلامك؟

- لاحظت وأنا أشاهدك الليلة أنّك لم تكوني أنتِ نفسك. أؤكّد لكِ أن لا أحد غيري لاحظ هذا. كان أداؤك ممتازًا.

سألته والدموع تتدفّق إلى عينيها ارتياحًا لأنه عرف بطريقة ما:

- أنّى لك أن تعرف ما أشعر به؟

فأجابها مع وصولهما إلى العربة وفيما السائق يفتح الباب ويدعوها للصعود:

- إذن، أنا محقّ. هل بإمكاني أن أقدّم أيّ مساعدة؟

- أنا... لا أعلم... عليّ أن أعود إلى المنزل.

قال بصوت خفيض بحيث لا يسمع السائق كلامه:

- أفهمك، لكن أرجوك، علينا أن نتكلّم وحدنا. خذي على الأقل عنواني.

ودسّ في يدها الصغيرة قصاصة ورق قبل أن يردف:

- سيذهب أوتو، مالك المنزل، إلى بيت أحد تلامذته الذين يعطيهم دروسًا خصوصيّة غدًا. سأكون وحدي في الشقة بين الساعة الرابعة والساعة الخامسة.

همست:

- سأرى.

ثم ابتعدت عنه وصعدت الدرجات المؤدّية إلى داخل العربة. أغلق السائق الباب وغاصت آنّا في المقعد. رأت جانس يلوّح بيده ثم مدّت رقبتها لتراقبه عبر نافذة العربة وهو يقطع الطريق متوجّهًا إلى أنغبريت. كانت تدرك تمامًا أنّ من غير اللائق أن تزور رجلًا يقيم وحده في شقّته، لكنّها أدركت أيضًا أنّ عليها أن تتحدّث إلى شخص ما عمّا حصل مع السيد باير ليلة أمس.



قالت آنّا للآنسة أولسداتر أثناء تناولها الفطور:

- سأذهب اليوم إلى المسرح عند الساعة الرابعة بعد الظهر. دعانا السيد جوزفسون لإجراء تمارين لأنه لم يكن راضيًا عن أحد مشاهد الفصل الثاني.

- هل ستعودين عند العشاء؟

- آمل ذلك، نعم. لا أتخيّل أنّ المسألة ستتطلّب أكثر من ساعتين.

لعلّها مخيّلة آنّا، لكن الآنسة أولسداتر رمقتها بتلك النظرة التي كانت أمّها لترمقها بها عندما تعلم أنّ ابنتها تكذب.

- حسنًا جدًّا. هل ترغبين في أن أرسل العربة لتقلّك لاحقًا؟

- لا، فالتراموای يعمل في مثل هذا الوقت وباستطاعتي أن أعود إلى المنزل بسهولة.

وقفت آنّا وابتعدت بقدر ما استطاعت من هدوء عن طاولة الفطور. ولكنها لم تكن بهذا الهدوء عندما غادرت الشقة في وقت لاحق.

عندما صعدت إلى متن الترامواي، كان قلبها يتخبّط في صدرها بقوة بحيث تفاجأت بأنّ الراكب إلى جانبها لم يسمعه. ترجّلت في المحطة التالية وسارت على عجل نحو العنوان الذي أعطاها إياه جانس. حاولت أن تبرّر العمل الذي ستُقدم عليه بأن تقول لنفسها إنه صديقها الوحيد في كريستيانيا والشخص الوحيد الذي تستطيع أن تثق به.

قال جانس بابتسامة وهو يفتح باب الشقّة:

- لقد أتيتِ. تفضّلي بالدخول.

- شكرًا لك.

تبعته آنّا إلى الداخل، عبر الرواق الذي يفضي إلى غرفة استقبال واسعة مؤثّثة بشكل أنيق، ولا تختلف كثيرًا عن غرفة الاستقبال في شقة السيّد باير.

هل ترغبين في بعض الشاي؟ إنما أحذّرك من أنّه عليّ أن أعدّه بنفسي لأن الخادمة غادرت عند الثالثة.

- لا، شكرًا لك. احتسيت الشاي قبل مغادرة المنزل. والرحلة إلى هنا لم تكن بعيدة.

فقال وهو يشير إلى كرسي:

- تفضّلي، اجلسي.

- شكرًا لك.

جلست ممتنّة لأنّ الكرسيّ قريب من المدفأة إذ كانت ترتجف من البرد والقلق، وجلس جانس قبالتها.

باشرت الكلام قائلة:

- تبدو هذه الشقّة مريحة جدًا.

- لو رأيت أين كنت أعيش من قبل...

وهزّ جانس رأسه ثم ضحك قبل أن يضيف:

- حسنًا، لنقل إني سعيد لأنني وجدت مكانًا بديلًا. لكن دعينا لا نهدر الوقت على أحاديث سطحيّة. آنّا، ما الأمر؟ هل بمقدورك أن تتحدّثي عنه؟

- يا إلهي!

ووضعت آنّا يدًا على جبينها قبل أن تردف:

- إنها... المسألة معقّدة.

- هكذا تكون المشكلات في العادة.

- المشكلة هي أنّ السيد باير طلبني للزواج.

- فهمت.

أومأ جانس برأسه وقد حافظ على هدوئه الخارجي، لكنّ يديه تكوّرتا في قبضتين وتابع يقول:

- وماذا كان ردّك؟

- غادر إلى درورباك في وقت مبكر من صباح أمس؛ والدته تحتضر ويجب أن يكون إلى جانبها. عليّ أن أعطيه جوابي عندما يعود.

- ومتى سيعود؟

- أفترض أنه سيعود بعد وفاة والدته.

- أجيبي عن سؤالي بصدق: كيف شعرتِ عندما عرض عليك الزواج؟

- شعرت بالرعب... وبالذنب أيضًا. عليك أن تفهم كم كان السيّد باير لطيفًا معي. لقد منحني أشياء كثيرة.

- آنّا، موهبتكِ هي التي منحتك كل ما لديكِ الآن.

- نعم، لكنه رعاني وأعطاني فرصًا ما كنت لأحلم بها يومًا حين كنت أعيش في هيدال.

- إذًا، أنتما متعادلان.

أصرّت آنّا:

- لا يبدو الأمر كذلك. أين سأذهب عندما أرفضه؟

- إذًا، أنت لا ترغبين فيه؟

- بالطبع! سيكون الأمر أشبه بالزواج من جدّي! لا شكّ في أنه جاوز الخمسين من عمره. لكن سيجب عليّ أن أترك الشقّة وسأجعل منه عدوًّا لي بالتأكيد.

تنهّد جانس وقال:

- لديّ كثير من الأعداء يا آنّا، وممّا لا شكّ فيه أنّ معظمهم من صنيعتنا. لكن السيّد باير أقلّ نفوذًا في كريستيانيا مما تظّنين أنتِ أو يظن هو.

- ربما، لكن أين سأذهب يا جانس؟

عندئذٍ ساد الصمت فيما راحا يفكران في ما قيل وفي ما لم يُقل. وكان جانس من خرق الصمت أولًا وقال:

- آنّا، من الصعب جدًّا عليّ أن أقول أيّ شيء بشأن مستقبلكِ. قبل هذا الصيف، كان بإمكاني أن أقدّم لك كل ما يمكن للسيّد باير أن يقدّمه، وأتقبّل أنّك امرأة، وأنّ هناك حدودًا تفرضها الحياة. لكنْ عليك أن تتذكّري أنك ناجحة الآن بفضل جهودك الخاصة. أنت النجمة الحاليّة في سماء كريستيانيا. أنت لا تحتاجين السيّد باير بقدر ما تتخيّلين.

- حسنًا، لن أكتشف كم أحتاجه إلا بعد أن أتّخذ القرار، أليس كذلك؟

ابتسم جانس لتفكير آنّا الواقعيّ والعمليّ وأجاب:

- لا. أنت تعرفين شعوري نحوك يا آنّا، وعلى الرغم من أنّ قلبي يتمنّى أن يقدّم لك كل شيء، لكنني لا أعرف كيف ستكون ظروفي الماديّة في المستقبل. عليك أن تدركي أني سأكون الرجل الأكثر بؤسًا في كريستيانيا إذا ما مضيت قُدُمًا وتزوجتِ السيّد باير. والأمر لا علاقة له بدوافعي الأنانية وحسب، بل بك أنت أيضًا لأني أعرف أنّك لا تحبينه.

أدركت آنّا كم أنّ هذا فظيع بالنسبة إلى جانس الذي اعترف لها بحبّه بكلّ صراحة وحريّة في حين أنّها لم تحذُ حذوه بعد. شعرت بالاضطراب فوقفت واستعدّت للمغادرة.

- سامحني يا جانس، ما كان عليّ أن أحضر إلى هنا. هذا تصرّف...

وبحثت عن الكلمة التي كان السيد باير ليستخدمها ثم أضافت:

- غير لائق أبدًا.

- أعترف بأنّني أجد صعوبة في تقبّل فكرة أنّ رجلًا آخر قال لك إنه يحبّك، علمًا بأنّ كريستيانيا بغالبيتها ستهلّل لقبولك الزواج منه.

- نعم، أنا واثقة.

واستدارت مبتعدة عنه وتوجّهت نحو الباب وهي تردف:

- أنا آسفة حقًّا، لكن عليّ أن أذهب.

فتحت الباب لكنها شعرت بيده تمسك بيدها، وشدّها إلى الغرفة من جديد.

- أرجوك، مهما تكن الظروف، دعينا لا نضيّعْ هذه اللحظة الثمينة التي نكون فيها لأول مرّة وحدنا.

ودنا منها خطوة أخرى وأخذ وجهها بين راحتيه بلطف مضيفًا:

- أحبك آنّا. ولا أستطيع أن أقول هذا كفاية. أحبك.

وللمرة الأولى، صدّقت فعلًا أنه يحبّها. كانا متقاربين بحيث شعرت بالحرارة تشعّ منه.

- لعلّ من المهم لكي تتّخذي القرار الصائب أن تعترفي لنفسك ولي أنا، لماذا جئتِ إلى هنا. اعترفي يا آنّا، أنت تحبّينني، تحبّينني..

وقبل أن يتسنّى لها أن تمنعه، راح يقبّلها. وفي لمح البصر، وجدت آنّا شفتيها تتجاوبان معه بشكل كليّ ومن دون إذنها. كانت تعلم كم أنّ تصرّفها هذا خاطئ لكنّ الأوان فات، فالشعور رائع وجارف إلى حدّ عظيم وما من سبب واحد يجعلها تضع حدًّا له.

توسّل إليها وهي تستعد للرحيل:

- والآن، هلّا أخبرتِني؟

التفتت صوبه وردّت:

- نعم يا جانس هالڤورسن . أنا أحبّك.



بعد ساعة، استخدمت آنّا مفتاحها لتفتح باب شقة السيّد باير. وكانت مستعدة للمواجهة، كالممثّلة التي أصبحت عليها، عندما وقعت في كمين الآنسة أولسداتر وهي في طريقها إلى غرفة نومها.

- كيف كانت التمارين يا آنّا؟

جرت على ما يُرام، شكرًا لك.

- في أيّ وقت ترغبين في تناول العشاء؟

- هل يمكن أن أحصل عليه على صينية في غرفتي الليلة، إن لم يكن في الأمر أيّ إزعاج؟ أشعر بالتعب من عرض الليلة الماضية ومن التمارين اليوم.

- بالطبع. لمَ لا املأ لك المغطس بالماء لتستحمي؟

ردّت آنّا وهي تدخل إلى غرفتها وتقفل الباب خلفها:

- سيكون هذا رائعًا، شكرًا لك.

ارتمت على السرير وعانقت نفسها في نشوة أثارتها ذكرى شفتيّ جانس على شفتيْها، وأدركت أنّ عليها أن ترفض عرض السيد باير مهما تكن النتيجة.



بدأت شائعة جديدة تسري في أنحاء المسرح في الليلة التالية.

- سمعت أنه قادم.

- لا، لقد فاته القطار من بيرغن.

- حسنًا، سُمع السيد جوزفسون وهو يتحدّث إلى السيد هانوم، وقد استُدعيت الأوركسترا باكرًا بعد ظهر اليوم...

علمت آنّا أنّ شخصًا واحدًا يمكن أن يؤكّد الشائعات التي سمعتها فأرسلت في طلبه. وصل رود إلى غرفة ملابسها بعد بضع دقائق.

- أردتِ رؤيتي يا آنسة آنّا؟

- نعم. هل الكلام صحيح؟ القصّة المتداوَلة في المسرح الليلة؟

- عن حضور السيد غريغ لمشاهدة العرض؟

- نعم.

- حسنًا.

وعقد رود ذراعيه على صدره النحيل قبل أن يضيف:

- بحسب المصدر الذي تستمعين إليه.

تنهّدت آنّا ودسّت قطعة نقديّة في راحة يده فابتسم لها ابتسامة عريضة وقال:

- أستطيع أن أؤكّد أنّ السيد غريغ جالس مع السيد هانوم والسيد جوزفسون في المكتب فوق. لا أستطيع أن أجزم لك ما إذا كان سيشاهد العرض، لكن هذا مرجّح لوجوده في المسرح.

قالت فيما هو يتوجّه نحو الباب:

شكرًا على المعلومات يا رود.

- من دواعي سروري يا آنسة آنّا. أتمنّى لك حظًّا سعيدًا الليلة.

عند استدعاء المشاركين في المشهد الأول وبعد أن اتّخذ فريق العمل أماكنه في الكواليس، أكّد التصفيق الصاخب الذي تعالى من الناحية الأخرى للستارة أنّ شخصًا مهمًّا بالفعل وصل لتوّه إلى الصالة. ومن حسن الحظ أنّ آنّا لم يكن لديها وقت لتفكّر في النتائج والتبعات، لأنّ الأوركسترا بدأت بعزف المقدّمة وابتدأ العرض.

قبل صعودها الأول إلى المسرح، شعرت بيدٍ تربّت ذراعها. استدارت لترى رود يقبع إلى جانبها. وضع راحتيه حول فمه ليهمس لها فانحنت قليلًا نحوه:

- تذكّري يا آنسة آنّا، وكما تقول لي أمي دومًا، حتى الملك يحتاج لأن يقضي حاجته.

كلامه هذا جعل آنّا تضحك بصوت خافت، ضحكة بقيت آثارها ظاهرة على ملامحها عندما ظهرت على خشبة المسرح. ومع وجود جانس المحبّ في حفرة الأوركسترا في الأسفل، استرخت آنّا وقدّمت أفضل ما عندها. وعندما أُسدلت

الستارة بعد ثلاث ساعات، انفجر المسرح كلّه في تصفيق يكاد يكون هستيريًّا بينما حيّاها غريغ نفسه بانحناءة من مقصورته. ابتسمت آنّا لجانس وهي تقف على المسرح وتتلقّى باقات الورود الواحدة تلو الأخرى.

حرّك شفتيه هامسًا:

- أحبك.

عندما أسدلت الستارة للمرة الأخيرة، طُلب من الممثلين أن ينتظروا على المسرح وخرج أفراد الأوركسترا من الحفرة لينضموا إليهم. التقت عينا آنّا عينيّ جانس فأرسل لها قبلة.

وفي نهاية المطاف، ظهر على المسرح رجل نحيل، بالكاد يكون أطول منها، يرافقه السيد جوزفسون. صفّق له فريق العمل بحرارة، وأدركت آنّا وهي تتأمّله، أنّ إيدفارد غريغ أصغر سنًّا بكثير مما تخيّلت. كان شعره أشقر متموّجًا مرفوعًا إلى الخلف ليكشف عن وجهه، وشاربه ينافس شارب السيّد باير. وتفاجأت آنّا حين رأته يتوجّه نحوها مباشرةً لينحني أمامها ثم يأخذ يدها ويطبع عليها قبلة.

- آنسة لاندفيك، صوتك هو كل ما تمنيّته عندما ألّفت رثاء سولفيج.

بعدئذٍ، استدار وتوجّه بالحديث إلى هنريك كلوزن، الممثل الذي يلعب مجددًا دور بير وإلى أصحاب الأدوار الرئيسيّة الآخرين.

- أشعر أنّ عليّ أن أعتذر من الممثّلين والموسيقيين كلّهم لغيابي عن المسرح حتّى الساعة. كان هناك...

صمت وقد بدا أنّه يحتاج إلى استجماع القوة من مكان ما قبل أن يكمل:

- ثمة ظروف أبقتني بعيدًا. جلّ ما يمكن أن أفعله هو أن أعبّر عن شكري الجزيل لكلٍّ من السيد جوزفسون والسيد هانوم لوضعهما انتاجًا يشرّفني أن أكون جزءًا منه. أودّ أن أهنئ الأوركسترا لتحويلها مؤلّفاتي المتواضعة إلى شيء ساحر، وقد جعل الممثّلون والمغنّون الحياة تدبّ في الشخصيّات. أشكركم جميعًا.

ووقع نظر إيدفارد غريغ على آنّا مجدّدًا بينما راح الموسيقيون والممثلون يغادرون المسرح. عاد نحوها وأخذ يدها مرة ثانية ثم دعا لودفيك جوزفسون ويوهان هانوم للانضمام إليهما.

- أيها السيدان، لقد شاهدت العرض الآن وسنتحدّث غدًا عن بعض التعديلات الطفيفة، لكنّني أشكركما على هذا العمل المتقن في ظل الظروف التي أعلم أنها كانت ضاغطة. سيد هانوم، الأوركسترا أفضل بكثير ممّا حلمت به. لقد حقّقت معجزة. أما في ما يتّصل بهذه السيدة الشابة...

وصمت لحظة ثم أضاف وعيناه الزرقاوان المعبّرتان تحدّقان إلى عينيّ آنّا:

- من اختارها لتؤدّي دور سولفيج عبقريّ.

فقال هانوم:

- شكرًا يا سيد غريغ. آنّا بالفعل موهبة جديدة عظيمة.

وهنا، دنا السيد غريغ أكثر من آنّا ليهمس في أذنها:

- علينا أن نتحدّث أكثر يا عزيزتي، باستطاعتي أن أساعدك لكي يسطع نجمك.

بعدئذ، أفلت يدها مع ابتسامة والتفت ليتحدّث إلى السيد جوزفسون. نزلت آنّا عن المسرح وهي تشعر بالرعب يكتسحها مجدّدًا للمنحى الذي اتخذته حياتها، فقد أشاد أشهر مؤلّف موسيقيّ في النروج الليلة علنًا بموهبتها. وبعد أن بدّلت ملابسها وأزالت المساحيق عن وجهها، بدا صعبًا عليها أن تصدّق أنها الفتاة الريفيّة نفسها التي كانت تغني للأبقار في بلدتها قبل عام من الآن.

لكنّها لم تعد الفتاة نفسها بالطبع.

همست لنفسها وقد هدّأ من روعها وقع الخطوات الرتيب للجواد الذي يجرّ العربة التي تحملها إلى شقة السيّد باير: «كائنًا من أكن الآن، فهذا أنا».

* * *

على غير عادته، انضم هانوم إلى بقية الأوركسترا في أنغبريت بعد عرض الليلة.

أعلن السيد هانوم لأصحاب الهتافات الصاخبة:

- يعتذر السيد غريغ عن غيابه وعدم انضمامه إلينا، لكنه، كما تعلمون، لا يزال في فترة حداد على والديه. لكنه أعطاني ما يكفي من المال لكي تبقى معنوياتكم عالية على مدى أشهر على الأقل.

كان الموسيقيون في حالة نشوة أسهمت كؤوس الكحول المتتالية في جزء

منها، وزادتها معرفتهم أيضًا بأنّ حياة الشحّ التي يعيشونها بسبب رواتبهم الهزيلة، من دون تقدير للجهود التي يبذلونها، تغيّرت الليلة بفضل التقدير الصادق الذي أظهره المؤلّف الموسيقيّ نفسه.

أومأ إليه السيد هانوم قائلًا:

- سيد هالڤورسن ، اقترب، أريد التحدّث إليك لحظة.

اقترب جانس كما طلب قائد الأوركسترا.

- خطر لي أنك قد ترغب في معرفة أني أخبرت السيد غريغ بأنّك مؤلّف ناشئ وواعد، وأنني سمعت بعض مؤلّفاتك. وقد سبق لسيمن أن أخبرني بأنك أمضيت الصيف في العمل على مقطوعات أخرى.

- هل تعتقد بأن السيد غريغ يمكن أن يقتنع بإلقاء نظرة على ما ألّفته حتى الآن؟

- لا أضمن ذلك لكنني أعلم أنّه مدافع كبير عن المواهب النروجيّة المحليّة ما يعني أنّ الأمر ممكن. أعطني ما لديك من قطع موسيقيّة، وسأعرض عليه مؤلّفاتك غدًا صباحًا عندما يحضر لرؤيتي.

- سأفعل يا سيدي ولا أستطيع أن أشكرك كفاية.

- سمعت أيضًا من سيمن بأنك اتّخذت قرارًا صعبًا خلال الصيف. الموسيقيّ الذي يضحّي بكلّ شيء من أجل فنّه يستحق أيّ مساعدة أستطيع تقديمها. والآن، عليّ أن أنسحب. عمت مساءً سيد هالڤورسن .

أومأ يوهان هانوم برأسه لجانس وخرج من المقهى. احتضن هانس سيمن بين ذراعيه حين وجده.

سأله صديقه المذهول:

- ما الأمر؟ هل نفدت النساء وبدأت الآن تسعى خلف الرجال؟

مازحه جانس قائلًا:

- ربّما، لكنني أشكرك يا سيمن. أنا حقًّا أشكرك».



في اليوم التالي، وفي منتصف النهار، وصلت إلى الشقّة رسالة موجّهة إلى آنّا سُلّمت لها باليد.

سألت الآنسة أولسداتر بينما كانت آنّا تتأمّل الخطّ:

- من المرسل برأيك؟

ردّت وهي تفتح الرسالة وتبدأ بالقراءة:

- ليس لديّ أدنى فكرة.

وما هي إلا ثوانٍ قليلة حتى رفعت آنّا نظرها مذهولة.

- إنّها من السيد غريغ، المؤلّف الموسيقيّ. يرغب في أن يزورني في الشقّة بعد ظهر اليوم.

- يا إلهي!

والتفتت الآنسة أولسداتر بقلق إلى الطبق الفضيّ غير الملمّع على الطاولة، ومن ثمّ إلى الساعة المعلّقة على الحائط وسألت:

- في أيّ ساعة يرغب في الحضور؟

- عند الرابعة.

- يا له من شرف عظيم! ليت السيّد باير هنا ليلتقيه أيضًا. تعرفين أنه من داعمي موسيقى السيد غريغ إلى حدٍّ كبير. أرجو المعذرة يا آنّا، إن كنّا سنستضيف شخصًا عظيمًا مثله في منزلنا، فلا بدّ من أن أستعدّ للزيارة.

ردّت آنّا بينما كانت مدبّرة المنزل تغادر الغرفة بسرعة:

- بالطبع.

أنهت آنّا غداءها وقد بدأت معدتها تعتصر من شدّة التوتر. وعندما ذهبت لتبدّل ملابسها وترتدي ما يليق باحتساء الشاي مع مؤلّف شهير، حدّقت إلى مجموعة الملابس الكبيرة التي أصبحت تملكها. تجاهلت مختلف القمصان، إما لأنّها رثّة جدًّا أو كاشفةٌ جدًّا أو فخمة جدًّا أو عاديةٌ جدًّا، ووقع اختيارها أخيرًا على ثوب من الحرير ورديّ اللون.

دُقّ جرس الباب في الموعد المحدّد، وقادت الآنسة أولسداتر ضيفهما إلى غرفة الاستقبال. منذ ساعة الغداء، أُحضرت الورود، وأُعدّت قوالب الحلوى على عجل؛ إذ خشيت الآنسة أولسداتر أن يحضر مع حاشية.

نهضت آنّا لترحّب بإيدفارد غريغ الذي قدم وحده.

مدّ يده ليمسك بيدها ويقبّلها قبل أن يقول:

- عزيزتي الآنسة لاندفيك، أشكرك لأنك خصّصت بعضًا من وقتك لرؤيتي بالرغم من قصر مهلة الإشعار بالزيارة.

قالت متلعثمةً لأنها لم تتعوّد استقبال الضيوف بنفسها:

- أرجوك، تفضّل بالجلوس. ماذا بإمكاني أن أقدّم لك، شايًا أم قهوة؟

- كأسًا من الماء، من فضلك.

أومأت الآنسة أولسداتر برأسها ثم غادرت الغرفة.

- أخشى أن يكون وقتي ضيقًا إذ ينبغي أن أعود إلى بيرغن في الغد، ولديّ زيارات كثيرة يجب أن أقوم بها هنا في كريستيانيا كما تتخيّلين. لكنّني أردت أن أراكِ أنتِ. آنسة لاندفيك، أنت تملكين صوتًا من أروع الأصوات، ولن أدّعي أنّني أول من قال لك هذا. في الواقع، سمعت أنّ السيد باير قادك في مسيرتك المهنيّة.

أقرّت قائلة:

- لقد فعل.

وقد قام بعمل ممتاز بحسب ما سمعته الليلة الفائتة. لكن حدوده محصورة في ما يتّصل بمنح قدرتك كل الفرص التي تستحقّها. من حسن حظّي أنّني قادر على أن أعرّفك شخصيًّا إلى مخرجين موسيقيين في كل أنحاء أوروبا. سأسافر إلى كوبنهاغن وإلى ألمانيا قريبًا جدًّا وأستطيع أن أحدّث من أعرفهم هناك عن موهبتك. آنسة لاندفيك، عليكِ أن تدركي أنّ النروج في الوقت الراهن مجرد بقعة صغيرة في المشهد الثقافي الأوروبيّ.

وتوقّف عن الكلام، ثم ابتسم بعد أن رأى نظرة عدم الفهم التي ارتسمت على وجه آنّا وأضاف:

- ما أحاول أن أقوله يا عزيزتي هو أنّني أرغب في مساعدتك لتتقدّمي في مسيرتك المهنيّة خارج موطننا.

- هذا لطف فائق منك يا سيدي، وشرف عظيم.

سألها، مع دخول الآنسة أولسداتر حاملة معها إبريق ماء وكأسين:

- لكن عليّ أن أسألك أولًا إنْ كنتِ حرّة لكي تسافري؟

- نعم، ما أن ينتهي عرض بير جينت، فليس لديّ أيّ التزامات أخرى في النروج.

قال مع مغادرة مدبّرة المنزل الغرفة:

- عظيم، عظيم. وأنت لست متزوّجة أو مخطوبة لأيّ شابٌ في الوقت الحاليّ؟

- لا يا سيدي.

- أتخيّل أنّ لديك كثيرًا من المعجبين، فأنت لست صاحبة موهبة عظيمة وحسب بل أنت جميلة أيضًا. أنت تذكّرينني من نواحٍ عديدة بزوجتي العزيزة نينا. هي أيضًا كانت صاحبة صوت طائر مغرّد. إذًا، سأراسلك من كوبنهاغن وأرى ما يمكن فعله لتقديم صوتك الاستثنائيّ إلى العالم الأوسع. والآن، عليّ أن أغادر.

قالت له آنّا حينما وقف:

- شكرًا على قدومك يا سيدي.

- اسمحي لي أن أهنئك مرة أخرى على أدائك. لقد ألهمتِني. سنلتقي مجددًا يا آنسة لاندفيك، أنا واثق من ذلك. إلى اللقاء.

قبّل يدها ثم نظر إليها بطريقة تعلّمت آنّا أن تميّزها على أنها تشير إلى اهتمامه بها كامرأة.

قال وهو ينحني ويغادر الغرفة:

- إلى اللقاء.



- ماذا تعني بأنه غادر كريستيانيا؟

- تمامًا كما قلت، لقد عاد إلى بيرغن.

- إذًا، ضاع كل شيء! وحده الربّ يعلم متى سيعود.

أرجع جانس ظهره إلى الخلف في كرسيّه غير المريح في حفرة الأوركسترا وراح ينظر إلى السيد هانوم بشكل بائس وحزين.

- الخبر الجيّد هو أنّني استطعت أن أجعله يستمع إلى مؤلّفاتك الموسيقيّة قبل أن يغادر. وقد أعطاني هذا لأسلّمه لك.

وسلّم السيد هانوم جانس مغلّفًا موجّهًا «إلى من يهمّه الأمر».

حدّق جانس فيه وسأل:

- ما هذا؟

- إنها رسالة توصية منه إلى معهد الموسيقا في لايبزيغ.

سدّد جانس لكمة في الهواء لشدّة فرحه. فهذه الرسالة هي جواز سفره إلى المستقبل.

28

راح جانس يرجوها، وهما يجلسان سويًّا في غرفة الاستقبال في شقة أوتو، وقد لفّ ذراعه حول كتفيها الرقيقتين:

- سأغادر إلى لايبزيغ بعد انتهاء عرض بير جينت. تعالي معي يا آنّا، أرجوك. أرفض أن أتركك هنا في كريستيانيا، في قبضة السيّد باير. لست واثقًا من أنّه سيتصرّف كرجل نبيل ومحترم بعد أن ترفضي عرضه.

وطبع قبلة رقيقة على جبينها قبل أن يضيف:

- دعينا نفعل ما يفعله كل العشّاق من الشباب في القصص ونهرب معًا. قلتِ إنه يحتفظ بأجركِ في خزنة؟

- نعم، لكنني واثقة من أنه سيسلّمني المال إذا طلبت منه ذلك.

وعضّت آنّا شفتها وتردّدت ثم أردفت:

- جانس، سيكون هذا خيانة عظيمة للسيّد باير بعد كل ما فعله من أجلي. وماذا سأفعل في لايبزيغ؟

- لايبزيغ هي محور عالم الموسيقا في أوروبا ومركزه! قد تكون فرصة رائعة لك. السيد غريغ نفسه قال لك إنّ العالم هنا في كريستيانيا ضيّق، وإنّ موهبتك تستحقّ جمهورًا أكبر.

وتملّقها جانس قائلًا:

- ناشره الموسيقيّ يقيم هناك، وهو نفسه يقضي وقتًا طويلًا في المدينة. وبالتالي، لن يمنعك شيء من أن تجدّدي معرفتك به في المستقبل. أرجوك يا آنّا أن تفكّري في الأمر. أعتقد أنه الحلّ الوحيد بالنسبة إلينا. لا يسعني أن أفكّر في حلّ آخر في الوقت الراهن.

نظرت آنّا إلى جانس في ضيق واضطراب. لقد احتاجت سنة لتتعوّد الحياة في

كريستيانيا. ماذا لو لم تستطع أن تفعل هذا في مكان آخر؟ كما أنها اكتسبت الآن ثقة أكبر، وبدأت تحبّ أن تؤدّي دور سولفيج ، فضلًا عن أنها ستشتاق إلى الآنسة أولسداتر ورود... لكن، وعندما حاولت أن تتخيّل الحياة في كريستيانيا من دون جانس، اعتصر قلبها ألمًا.

قال وقد قرأ أفكارها:

- أعلم أنّ ما أطلبه منكِ كثير، ونعم، بإمكانك أن تبقي هنا وتصبحي أشهر سوبرانو في النروج. أو بإمكانك أن تطمحي لما هو أكثر، أن تعيشي حياة حبّ معي وأن تحقّقي النجاح على نطاق أوسع. لكن المسألة لن تكون سهلة بالطبع إذ ليس لديك مال، وأنا لا أملك سوى قليل منه، إلى جانب ما أعطتني إياه أمي لأغطّي نفقات القسط والإقامة في لايبزيغ. سنعيش على الموسيقا والحب والإيمان بموهبتنا فحسب.

- جانس، ما الذي سأقوله لوالديّ؟ سيضطر السيّد باير لأن يخبرهما بما فعلت. سأجلب العار لاسمنا. لا أستطيع تحمُّل أن يعتقدا....

وخفت صوت آنّا التي وضعت أصابعها على جبهتها وأردفت:

- دعني أفكّر في الأمر، يجب أن تترك لي الوقت الكافي لأفكّر...

وافقها جانس الرأي بلطف:

- يجب أن تفكّري بالطبع. أمامنا شهر حتى انتهاء عروض بير جينت.

قالت آنّا وقد اكتسى وجهها صبغة حمراء لأنها اضطرّت حتّى إلى ذكر هذا الأمر:

- كما لا يمكن لي.... لا يمكن لي أن أكون معك إذا لم نتزوّج. سأتعفّن في الجحيم إلى الأبد، كما أنّ أمي ستفضّل أن تغلي نفسها في قدر الطعام على أن تواجه مثل هذا العار.

كبت جانس ابتسامة كادت ترتسم على وجهه من مخيّلة آنّا الجامحة، وقال بعد أن أخذ يديها في يده:

- إذًا، آنسة لاندفيك، هل تحاولين أن تكسبي عرضًا ثالثًا في سلسلة عروض الزواج؟

- بالطبع لا! كل ما أحاول أن أقوله هو أنّ....

- آنّا...

وقبّل يديها الصغيرتين قبل أن يتابع كلامه:

- أعلم ما تحاولين قوله وأتفهّمه. وأقسم بأنّني أرغب في أن أطلب يدك، سواء هربنا إلى لايبزيغ أم لم نفعل.

- حقًّا؟

- نعم، بالفعل. إذا قرّرنا الذهاب إلى لايبزيغ فسنتزوّج في السرّ قبل أن نغادر، أعدك بذلك. أنا لا أريد أن أسيء إلى أخلاقياتك.

- شكرًا لك.

شعرت آنّا بالارتياح لأنّ عرض جانس جديّ على الأقل. فإنْ قرّرا الهروب- وسرت قشعريرة في جسد آنّا عندما خطرت لها هذه الفكرة- سيكونان زوجًا وزوجةً أمام الرب.

سألها:

- أخبريني، متى سيعود السيد باير؟ أنا متلهّف لسماع ردّك.

- ليس لديّ أدنى فكرة، لكن...

والتفتت إلى الساعة المعلّقة على الجدار فارتفعت يدها لتغطي فمها بعد أن أدركت الوقت وتابعت تقول:

- ما أعلمه هو أنّ عليّ أن أغادر لأتوجّه إلى المسرح الآن. يجب أن أكون هناك قبل ساعة ونصف الساعة من رفع الستارة لكي يضعوا لي الماكياج.

- بالطبع. لكن أرجوك يا آنّا، عليكِ أن تدركي أنك لو رفضت عرض السيد باير وحتى لو لم أكن أنوي الانتقال إلى لايبزيغ، فلديّ شعور بأنه لن يجعل حياتنا سهلة في كريستيانيا. تعالي، اقتربي وقبّليني قبل أن تغادري. سأراك لاحقًا على المسرح، لكن عديني بأن تعطيني ردّك قريبًا.



عادت آنّا إلى الشقة بعد العرض وهي تشعر بأنها مُستنزَفة تمامًا. جلّ ما أرادته هو أن تتوجّه مباشرة إلى سريرها لتنام.

- آنّا، كيف كانت أمسيتك؟

نظرت الآنسة أولسداتر إليها مُستفهِمة بعد أن أحضرت لها كوبًا من الحليب الساخن وساعدتها في خلع ثوبها.

- جرت الأمور على ما يُرام.

- حسنًا، أنا سعيدة من أجلك يا عزيزتي. عليّ أن أخبرك أنني تلقيّت برقيّة من السيد باير هذا المساء. لقد فارقت والدته الحياة في وقت سابق من هذا اليوم. عليه أن يبقى هو وأخته من أجل الجنازة، ثم سيعود إلى كريستيانيا نهار الجمعة.

خطر لآنا أنها ثلاثة أيام فحسب. قالت:

- يؤسفني سماع هذا الخبر.

- نعم، لكن لعلّه من المريح أن نعلم أنّ السيدة باير ارتاحت أخيرًا من الألم.

وكذبت آنّا حين قالت، فيما الآنسة أولسداتر تغادر غرفتها:

- وأنا أتطلّع لرؤية السيّد باير عند عودته.

وبعد أن استقرّت في سريرها، شعرت بمعدتها تتشنّج وتنقبض من فكرة عودة السيّد باير.

وفي صباح اليوم التالي، توجّهت آنّا لتناول الفطور وهي لا تزال تفكّر مكتئبة في ورطتها.

سألتها الآنسة أولسداتر:

- تبدين شاحبة يا عزيزتي آنّا. هل نمتِ جيدًا؟

- لديّ... هناك أمور تشغل بالي.

- لعلك ترغبين في أن تشاركيني همومك. قد أتمكّن من مساعدتك.

تنهّدت آنّا وقالت:

- لا يمكن لأحد أن يفعل شيئًا.

- حسنًا.

وتأمّلتها الآنسة أولسداتر عن كثب، لكنها لم تضغط عليها أكثر، بل أردفت:

- هل أعدّ لك الغداء؟

- لا، عليّ أن أذهب إلى المسرح في وقت مبكر اليوم.

- حسنًا جدًّا يا آنّا. أراك على العشاء.

قامت الآنسة أولسداتر، والخادمة التي تحضر يوميًّا لمساعدتها، على مدى الأيام الثلاثة التالية، بحملة تنظيف واسعة في المنزل. وأمضت آنّا وقتها تتدرّب على الطريقة التي ستشرح بها للسيد باير لماذا لا يمكن لها أن تقبل بعرض الزواج الذي تقدّم به.

لم تكن ساعة وصوله معروفة، لكن عند الساعة الثالثة والنصف لم تعد آنّا قادرة على تحمّل التوتّر في الشقّة، فارتدت معطفها وأخبرت الآنسة أولسداتر أنها ستخرج للتنزّه في الحديقة العامة. رمقتها مدبّرة المنزل بإحدى تلك النظرات- مزيج من عدم التصديق والقبول البارد- التي أصبحت التعبير المعتاد في الآونة الأخيرة.

جعلها الهواء النظيف والبارد، وكعادته، تستعيد نشاطها. نظرت إلى البُحيرة من مقعدها المفضّل، ورأت المياه الفضيّة اللامعة في ضوء الغسق الذي بدأ يحل.

قالت في سرّها: أنا حيث أنا، وليس في يدي ما أفعله سوى أن أتصرّف بامتنان وكياسة، كما تربّيت أن أفعل.

التفكير في والديها وهي تنهض من مكانها جعل الدموع تترقرق في عينيها. كتبا لها رسالة موجزة، لكن داعمة، لمواساتها بعد فسخ لارس ارتباطهما وسفره المفاجئ إلى أميركا مؤخّرًا. في تلك اللحظة، تمنّت لو أنّ السيّد باير لم يجدها أبدًا، وبقيت في أمان وسلام في منزلها في هيدال، وتزوّجت من لارس.

قالت الآنسة أولسداتر وهي تستوقفها عند الباب بعد عودتها إلى المنزل:

- سيعود السيد باير في الوقت المناسب لينضمّ إليك على العشاء. ملأت لك حوض الاستحمام بالماء وحضّرت لك فستانك.

- شكرًا لك.

وجاوزتها آنّا ومضت لتستعدّ للمواجهة.



قال يحيّيها بحميميّة مع دخولها إلى غرفة الطعام:

- آنّا، يا عزيزتي!

وأخذ يدها في يده العريضة وطبع عليها قبلة ترافقت مع وخز شعر شاربه الخشن قبل أن يضيف:

- تعالي واجلسي.

حدّثها أثناء تناولهما الطعام عن وفاة أمه المؤسف وعن تفاصيل الجنازة. وأملت آنّا بشكل مبهم أن يكون قد نسي مسألة عرضه الزواج عليها بسبب حزنه. وعندما توجّها إلى غرفة الاستقبال ليحتسيا القهوة والبراندي، شعرت بأنّ الجوّ تغيّر.

- حسنًا أيتها الشابة العزيزة، هل فكّرت في السؤال المهم الذي طرحته عليك قبل أن أغادر؟

ارتشفت آنّا قهوتها، واستغلّت هذه اللحظة لتستجمع أفكارها قبل أن تتكلّم، رغم أنها تدرّبت في الحقيقة مئات المرات على الكلمات التي ستقولها.

- سيد باير، طلبك يسرّني ويشرّفني...

فأعلن بابتسامة عريضة:

- إذًا، أنا سعيد!

- نعم، لكن بعد أن فكّرت في الأمر، شعرت أنّ عليّ أن أرفض.

راقبت آنّا التعبير المرتسم على وجهه يتغيّر ورأت عينيه تضيقان وسألها:

- هل بإمكاني أن أسأل عن السبب؟

- أشعر بأنّني لا أستطيع أن أكون ما تريده في زوجتك.

- ما الذي تعنينه بهذا الكلام بحق الله؟

- أنا لست مستعدّة ولست مدرّبة لأدير منزلًا، كما أني لست مثقّفة بما يكفي لأستقبل ضيوفك وأهتمّ بهم أو...

- آنّا!...

لانت تعابير وجه السيّد باير عند سماعه كلماتها وأدركت آنّا أنّها اختارت بكل غباء المقاربة الخاطئة، وتابع يقول:

- إنّه للطف وتواضع منك أن تقولي مثل هذا الكلام لي، لكن عليك أن تدركي أنّ هذه الأمور ليست مُهمّة. موهبتك تعوّض عن كل الصفات التي تفتقرين إليها، وشبابك وبراءتك هما أحد الأسباب التي تجعلك عزيزة على قلبي. أرجوك أيّتها الشابّة العزيزة، لا داعيَ لأن تتواضعي أو تشعري بأنك غير جديرة. لقد بتّ مولعًا بك. أما طبخك... فالآنسة أولسداتر موجودة لهذه الغاية.

ساد الصمت بينما كافحت آنّا لكي تفكّر في أسباب أخرى تقدّمها، وقالت:

- سيّد باير...

- قلت لك يا آنّا، أرجوك نادني فرانز.

- فرانز، كما تشاء، على الرغم من أنّ عرضك يشعرني بالإطراء، إلا أنّه يؤسفني أن أقول إنّني لا أستطيع قبوله. وهذا كل ما في الأمر.

- هل من شخص آخر في حياتك؟

ارتجفت رغمًا عنها بسبب حدة صوته المفاجئة وردّت:

- لا، أنا...

- آنّا، قبل أن تكملي كلامك، عليك أن تعرفي أنّه على الرغم من غيابي عن كريستيانيا خلال الأسابيع القليلة الماضية، فلديّ جواسيسي. إن كنت ترفضين عرضي من أجل ذاك الفتى الوسيم الذي يعزف على الكمان في الأوركسترا، فعليّ أن أحذّرك من ذلك. ليس لأنّني رجل يحبّك ويتمنّى أن يؤمّن لك كل ما حلمت به، بل بصفتي مرشدك ومستشارك في عالم لا تزالين أكثر سذاجة من أن تفهميه.

لم تتفوّه آنّا بأيّ كلمة، لكنها أدركت أنّ الصدمة مرتسمة على ملامحها كلها.

- حسنًا!

وصفق السيد باير فخذيه المشدودتين وأردف:

- هذا هو الأمر. يبدو أنني أتنافس على حبك مع شخص مفلس، ولا جدوى منه في الأوركسترا. كنت أعلم ذلك.

وأرجع رأسه إلى الخلف وضحك ثم تابع كلامه:

- أعتذر يا آنّا، لكنك أثبتِّ لي الليلة مدى براءتك.

- سامحني، لكن.. نعم. نحن مغرمان أحدنا بالآخر!

حقيقة أنه سخر منها وقلّل من شأن العلاقة التي تجمعها بجانس، جعلت غضبها يتزايد فقالت وهي تنهض من مكانها:

- وهذه هي الحقيقة، سواء أعجبتك أم لم تعجبك. في ظلّ هذه الظروف، أظن أنّ من الأفضل أن أغادر المنزل. أودّ أن أشكرك على كل ما فعلته من أجلي وما قدّمته لي. وأنا آسفة لأن رفضي لم يرق لك.

وعندما بدأت تتحرك بسرعة متوجّهة نحو الباب، لحق بها بخطوتين عريضتين وأعادها إلى الوراء، قائلًا:

- انتظري يا آنّا، دعينا لا نفترق على هذا النحو. أرجوك أن تجلسي لنتحدّث. لطالما وثقت بي من قبل، وأودّ أن أثبت لك أن الطريق الذي تسلكينه خاطئ. أنا أعرف هذا الرجل؛ أنا أفهم من هو، والسحر الذي سحرك به. أنا لا ألومك بأيّ شكل من الأشكال. أنت بريئة للغاية، ونعم، أنت تعتقدين أنك مغرمة. وسواء قبلت الآن بعرضي أو رفضته فهذا غير مهم. هذا الرجل سيحطّم قلبك ويدمّرك، كما دمّر نساء كثيرات من قبل.

- لا، أنت لا تعرفه...

واعتصرت آنّا يديها في حركة يائسة وانهمرت دموع الإحباط على وجنتيها.

- اهدئي، اهدئي، حاولي أن تحافظي على هدوئك. أنت تتصرّفين بهستيريّة. أرجوك دعينا نجلس ونتحدّث.

استُنفدت طاقة آنّا بالكامل وسمحت له بأن يقودها مجدّدًا إلى كرسيّها.

شرع السيّد باير يقول بلطف:

- يا عزيزتي، يجب أن تكوني مدركة لعلاقات السيد هالڤورسن السابقة مع نساء أخريات.

- نعم، أعلم بشأنها.

- جوريد سكروفست من الجوقة تحطّم قلبها إلى حدّ أنها رفضت أن تعود إلى المسرح. والسيدة هانسون العظيمة نفسها وصلت إلى هذه الحالة من الضياع والمعاناة بحيث سافرت إلى خارج البلاد لتستعيد عافيتها. ولهذا السبب أنت تؤدّين حاليًّا دورها في مسرح كريستيانيا.

- سيدي، أنا أعرف من جانس أنّ...

قاطعها قائلًا:

- اعذريني، لكنّك لا تعرفين شيئًا عن هذا الرجل يا آنّا. أتقبّل أني لست والدك، ولست للأسف في الوقت الراهن خطيبك، بالتالي، لا سلطة ولا تأثير لي على قراراتك. لكني سأقول لك الآن، لأني أهتم بأمرك إلى حدّ كبير، أنّ جانس هالڤورسن لا يسبب سوى المتاعب. سيحطّمك يا آنّا كما حطّم كل امرأة وقعت، لسوء حظها، في شباكه. إنه رجل ضعيف ونقطة ضعفه هي النساء والشراب. أخشى عليك، فعلًا، وقد خشيت عليك منذ أن سمعت لأول مرّة بهذه العلاقة.

همست آنّا التي وجدت نفسها عاجزة عن أن تنظر إليه:

- متى سمعت بها؟

- منذ أسابيع. وأودّ أن أنبّهك إلى أنّ المسرح كلّه يعرف. ونعم، هذا الاكتشاف هو ما دفعني لعرض الزواج عليك لأنني أردت بكل بساطة أن أنقذك وأنقذ موهبتك من نفسك. اعلمي أنك إذا ذهبت إليه فسيهجرك سريعًا من أجل امرأة أخرى. ولا يمكن لي أن أتحمّل فكرة أن تتخليّ عن كل شيء من أجل زير نساء أنانيّ بعد كل الجهد الذي بذلناه معًا.

بقيت آنّا تلتزم الصمت بينما سكب السيد باير كأسًا أخرى من البراندي قبل أن يتابع كلامه:

- ما دمتِ لا تجيبينني، سأخبرك بما عليك أن تفعليه برأيي. إن كنت تنوين

البقاء مع هذا الرجل، ولأني لا أستطيع بكل بساطة أن أتحمّل رؤية النهاية الدراميّة التي لا مفرّ منها، أوافق على أن تتركي الشقة في الحال. بعدئذ، اذهبي معه إلى لايبزيغ بعد انتهاء عرض بير جينت.

لاحظ تعبير الدهشة الذي ظهر على وجه آنّا فأردف:

- إذا قررتِ أنّ هذا فعلًا ما تريدين القيام به، فسأعطيك الأجر الذي كسبته في المسرح وأدعك ترحلين. لكن إذا وجد ما قلته أيّ أصداء لديك لأنه كلام صادق وصريح، وأبديت استعدادًا للتخليّ عن السيد هالڤورسن والزواج منّي بعد أن تنتهي فترة الحداد اللازمة على أمي، فأرجو أن تبقي هنا. لا داعيَ للعجلة، فكل ما أحتاجه هو النيّة. أرجوك يا آنّا، أتوسّل إليك أن تفكّري جيدًا في قرارك. فهذا القرار سيغيّر حياتك نحو الأفضل أو الأسوأ.

سألته بصوت ضعيف:

- إن كنت تعرف هذا كله، فلمَ لمْ تتكلّم من قبل؟ لا بدّ من أنك علمت أني سأرفض عرضك؟

- لأني بكل بساطة ألوم نفسي على ما حصل. لم أكن هنا في كريستيانيا لأحميك منه. والآن وقد عدت، أستطيع أن أقول لك إني سوف أحميكِ. لكن شرط أن تلغي جانس هالڤورسن من حياتك على الفور. إن كنت ترفضينني من أجل عريس آخر، ربّما كنت لأتقبّل هذا برضى. لكنّني لا أستطيع في هذه الحالة لأني أعلم أنّه سيحطّمك.

قالت مجدّدًا من دون هدف:

- أنا أحبّه.

- أعلم أنّك تظنّين أنّك تحبّينه وأتفهّم مدى صعوبة أن تتقبّلي ما طلبته. لكنني آمل أن تدركي ذات يوم أنني أعمل من أجل مصلحتك. والآن، أعتقد أنّ الوقت قد حان لكي ينسحب كلانا. كانت الأسابيع القليلة الماضيّة مضنية وأشعر بأنني متعب جدًّا.

وأخذ يدها في يده وقبّلها قبل أن يختم بالقول:

- تصبحين على خير يا آنّا. أتمنّى لك نومًا هانئًا.

29

في مساء اليوم التالي، شعرت آنّا بالسرور لدى وصولها إلى المسرح، حيث وجدت كلّ شيء على حاله، كما كان دائمًا، ما بعث في داخلها إحساسًا بالراحة. لم يغمض لها جفن ليلة البارحة، وروحها ممزّقة بين قلبها وعقلها. فكثير ممّا قاله السيد باير كان صحيحًا، خاصة في ما يتّصل بذلك الفنّان الدخيل. ومنذ وقت ليس ببعيد، كانت تراودها أفكار مشابهة عن جانس، فلا يمكن لها أن تلوم الآخرين إذا ما نظروا إليه من المنظار نفسه. ومن المؤكّد أن الجميع سيشجعونها على الزواج من السيّد باير وليس من الموسيقيّ المعدم، لأنه القرار الصائب.

لكنّ هذا التحليل المنطقيّ لم يساعد على حلّ المعضلة، لأن فكرة التخلي عن جانس هالڤورسن بشكل نهائيّ كانت تفوق قدرتها على التحمّل، مهما تحاولْ أن تفعل.

قالت في نفسها، لدى مغادرتها غرفة تبديل الملابس متوجّهة إلى خشبة المسرح، إنها ستتمكّن على الأقل من رؤية جانس بعد بضع دقائق، وهو يرمقها من المكان المخصّص للفرقة الموسيقيّة بنظرات مليئة بالحب والدعم. كانت قد كتبت له رسالة صغيرة تطلب منه فيها أن يلتقيا هذا المساء بعد انتهاء العرض وأرسلت في طلب رود ليسلّمه الرسالة في الاستراحة الأولى بين الفصلين. عندما بدأ العرض، حاولت آنّا تهدئة نبضات قلبها المتسارعة والحفاظ على رباطة جأشها. ولم تكد تظهر على خشبة المسرح وتردّد كلماتها الأولى، حتى وجّهت نظرها خلسةً إلى الأسفل بحثًا عنه.

أصيبت بالذعر لدى اكتشافها أنّ جانس لم يكن موجودًا، وقد جلس مكانه رجل متقدّم في السنّ قصير القامة.

مع انتهاء الفصل الأول، دخلت إلى الكواليس مسرعة، وهي تشعر بالدوار من شدّة الخوف، واستدعت رود على عجل إلى غرفة تبديل الملابس.

- مرحبًا آنسة آنّا، كيف حالك؟

كذبت آنّا عليه قائلة:

- إنني بخير. هل تعرف مكان السيد هالڤورسن؟ لم أرَه يعزف هذا المساء.

- هل هذا صحيح؟ إنها المرّة الأولى التي تخبرينني فيها بأمر لا علم لي به. هل ترغبين في أن أذهب للبحث عنه؟

- إذا لم يكن لديك أي مانع.

- حسنًا، قد يتطلب الأمر بعض الوقت. سأعود لرؤيتك خلال الفاصل التالي.

انتظرت آنّا انتهاء الفصل الثاني وهي تعاني من لوعة الترقّب، وعند عودة رود إلى غرفة تبديل الملابس كما وعدها، خشيت أن يُغمى عليها من شدّة الخوف ممّا قد يقوله لها.

- لا أحد يعرف أي شيء عنه. لعله مريض يا آنسة آنّا. ولكن الحق يُقال أن لا أثر له في الجوار.

أنهت آنّا الفصول المتبقية من العرض وهي في حالة من الذهول. وما أن انحنى فريق العمل للجمهور للمرّة الأخيرة، حتى ارتدت آنّا ملابسها على عجل، وغادرت المسرح مسرعة ومن ثمّ صعدت إلى العربة وطلبت من السائق اصطحابها إلى منزل جانس. لدى وصولهما أمام المبنى، ترجلّت من العربة وأشارت إلى السائق أن ينتظرها، قبل أن تهرع داخل المبنى وتصعد السلّم. أخذت نفسًا عميقًا، ومن ثم قرعت الباب بقوة إلى أن سمعت صوت خطوات تقترب منه.

فُتح الباب وظهر جانس عند العتبة. فارتمت آنّا في أحضانه وقد تنفّست الصعداء.

- الحمد للّه...الحمد للّه.. أنا...

- آنّا.

ودفعها إلى داخل الشقّة وأحاط كتفيها المرتجفتين بذراعه وهو يقودها إلى قاعة الجلوس.

- أين كنتَ؟ ظنّنت أنك رحلت... أنا..

- أرجوك يا آنّا، حاولي أن تضبطي أعصابك. سأشرح لك.

وأجلسها على الأريكة ومن ثمّ جلس بقربها واستطرد قائلًا:

- وصلت كالمعتاد إلى المسرح، وتفاجأت كثيرًا عندما أبلغني جوهان هانوم بأنّهم لم يعودوا بحاجة إليّ في الفرقة الموسيقيّة، وبأنّهم عثروا على موسيقيّ يجيد العزف على الفلوت والكمان وسيبدأ بالعمل على الفور. سألته ما إذا كان هذا الترتيب مؤقّتًا، فأجاب بالنفي، ودفع لي أجري بالكامل وطلب مني الانصراف. أقسم لك يا آنّا بأنّني لا أملك أدنى فكرة عن سبب طردي.

- أنا أعرف السبب. يا إلهي...

وضعت آنّا رأسها بين يديها مضيفةً:

- الأمر لا يتّصل هذه المرّة، من باب التغيير، بسلوكك، بل بسلوكي. فمساء البارحة، أخبرت السيّد باير بأنّني لا أستطيع الزواج به. فأبلغني عندها بأنه على علم بعلاقتنا! وقال لي صراحة إنني لا أستطيع البقاء في منزله إلا في حال تنكّرت لك وعلى الفور. وإلا، فعليّ أن أغادر منزله.

- يا للهول.

وتنهّد جانس بشكل متعاطف وتابع:

- وتمثّلت الخطوة التالية في التخلي عن خدماتي في فرقة كريستيانيا الموسيقيّة. لا بدّ من أنه أقنع هانوم وجوزفسن بتأثيري السلبيّ على نجمتهما الناشئة باعتباري مصدر إلهاء لها.

- سامحني يا جانس. لم أكن أتصوّر أنّ السيّد باير قد يقدم على تصرّف مماثل.

أجابها جانس متمتمًا:

- كنت واثقًا من ذلك وحذّرتك منه. حسنًا، أصبحت الآن أعرف سبب الاستغناء عن خدماتي بهذه السرعة.

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- في الواقع، كنت أحزم حقائبي.

سألته آنّا وقد دبّ الذعر في قلبها:

- إلى أين ستذهب؟.

- إلى لايبزيغ بالطبع. بات واضحًا بطريقة أو بأخرى، بأنّني لن أتمكّن من بناء مستقبل لي في هذا المكان. لهذا السبب، قرّرت الرحيل في أقرب فرصة ممكنة.

- فهمت.

أخفضت آنّا عينيها، وهي تحاول جاهدة ضبط نفسها حتى لا تنفجر بالبكاء.

- كنت أنوي أن أكتب لكِ رسالة وأتركها عند باب المسرح الخلفيّ.

- أتقسم بذلك؟ أم أنك تقول هذا الكلام لمواساتي في حين كنت تنوي الاختفاء من دون أن تقول شيئًا؟

- حبيبتي آنّا، اقتربي مني.

ضمّها بين ذراعيه ممسّدًا ظهرها بحنان، وتابع:

- أعلم بأنّك تمرّين بأوقات عصيبة، ولكن هانوم أبلغني بقرار إنهاء خدماتي منذ ساعات قليلة. ومن المؤكّد أنني كنت أنوي إخبارك بمكاني. وما الذي يمنعني من ذلك؟ أنسيت أنني أنا من طلب منك أن تأتي معي؟

- أجل، أجل... معك حق.

مسحت آنّا دموعها مضيفة:

- إنني مجهدة، ونيران الغضب تتأجّج في داخلي لأنك عوقِبت بسبب أفعالي.

- لا داعيَ للغضب. كنت تدركين بأنني أنوي الرحيل في مطلق الأحوال، ولكن موعد الرحيل جاء أبكر مما كنت أتوقّع. هل صبّ السيّد باير جام غضبه عليك يا حبي؟

- كلّا، لم يكن غاضبًا على الإطلاق. قال لي إنه لا يريدني أن أفسد حياتي من خلال علاقتي بك، وتمنّى عليّ ألّا أقابلك أبدًا مرّة ثانية.

- ولهذا السبب بالذات طُرِدت من دون أي سبب وجيه من المكان المخصّص للفرقة الموسيقيّة حتى لا يتسنّى لك رؤيتي ثانية. ماذا تنوين أن تفعلي؟

- أمهلني السيد باير يومًا بكامله للتفكير في الأمر. كيف يجرؤ على التدخّل في حياتي وحياتك بهذا الشكل؟

- كلانا في حالة من التوتّر الشديد.

وتنهّد مضيفًا:

- حسنًا، عليّ أن أغادر المدينة في الغد؛ فالفصل الجديد في المعهد الموسيقيّ بدأ منذ أسبوعين، ما يعني أنه لم يفتني الكثير. وبإمكانك الانضمام إليّ في لايبزيغ بعد انتهاء عرض مسرحية بير جينت.

- لن أتمكّن من العودة إلى المسرح بعد ما فعلوه بك يا جانس!

وارتعشت آنّا وهي تتابع:

- سأسافر معك في الحال.

نظر جانس إليها وقد بدت على محيّاه تعابير الذهول.

- هل أنتِ واثقة يا آنّا من أنك تتصرّفين بعقلانية؟ في حال انسحبت من العرض المسرحيّ قبل انتهائه، لن تتمكني من العمل ثانية في مسرح كريستيانيا. وسيُدرج اسمك إلى جانب اسمي على اللائحة السوداء.

ردّت آنّا وعيناها تبرقان من شدّة السخط:

- لا أظنّ أنّني أريد العمل في هذا المكان ثانية. أرفض أن أسمح لأحد، مهما تكنْ منزلته ومهما يعلُ شأنه وتبلغْ ثروته، أن يتعامل معي كما لو أنني ملك له.

ابتسم جانس لدى رؤيته تلك التعابير الشرسة في عينيْها.

- أظنّك تخفين تحت هذا المظهر الخارجي الرقيق شعلة متّقدة، أليس كذلك؟.

- تعلّمت منذ نعومة أظفاري أن أميّز ما بين الصح والخطأ، وأنا أدرك تمامًا بأنّ ما ارتكبوه بحقّك يُعتبر إجحافًا.

- هذا صحيح يا حبيبتي، ولكن المؤسف في الأمر هو أننا لا نستطيع أن نفعل

شيئًا في هذا الشأن. اسمعي يا آنّا، لا بدّ من أن أنبّهك إلى أمر مهمّ. مهما يبلغ حجم سخطك، فكّري مليًا بقرار السفر معي في الغد. لا أريد أن أكون السبب في خراب حياتك المهنيّة. واعلمي...

وسارع إلى إسكاتها عندما فتحت فمها لتتكلّم وتابع:

- لا أقول ذلك لأنّني لا أرغب في أن تأتي معي. ولكنّني أخشى أن نستقلّ في الغد العبّارة إلى هامبورغ، ومن ثمّ القطار الليليّ المتوجّه إلى لايبزيغ ونحن لا نعلم ما إذا كنّا سنتمكّن من تأمين مأوى لنا لدى وصولنا، أو ما إذا كانوا سيوافقون على طلب التحاقي بالمعهد الموسيقيّ.

- من المؤكد أنهم سيفعلون يا جانس. فأنت تحمل رسالة توصية من السيد غريغ.

- هذا صحيح، ومن المُحتمَل أن يوافقوا، ولكنّني رجل وقادر على تحمل الحرمان الجسديّ، أما أنت فآنسة ولديك... بعض الحاجات.

- آنسة وُلدت في مزرعة ولم ترَ مرحاضًا داخليًا إلا لدى وصولها للمرّة الأولى إلى كريستيانيا. أتعلم شيئًا يا جانس؟ يخالجني شعور بأنّك تحاول أن تبذل قدر المستطاع لإقناعي بعدم مرافقتك.

- حسنًا، لا تقولي عند وصولنا إلى هناك إنني لم أحذّرك.

وابتسم فجأةً لها مضيفًا:

- حاولت قدر المستطاع إقناعك بالعدول عن قرارك، ولكنّك رفضتِ الإصغاء إلى ما يشغلني. ما يعني أنّ ضميري مرتاح. وسنغادر المدينة معًا في الغد عند الفجر. اقتربي مني يا آنّا. نتعانق ونستمد القوّة، واحدنا من الآخر، استعدادًا للمغامرة التي نحن بصدد أن نخوضها.

قبّلها بشغف وتلاشت مع تلك القبلة مخاوفها من تحفظه والقرار الذي اتخذه. وبعد أن افترقت شفاههما، وأراحت آنّا رأسها على صدره، راح يداعب شعرها قائلًا:

بقي أمر أخير لا بدّ من أن نناقشه معًا. علينا أن نعرّف عن أنفسنا على أنّنا متزوّجَيْن أمام كلّ من نلتقي به في رحلتنا، ولدى وصولنا إلى لايبزيغ بالتأكيد، يجب

أن تصبحي بين ليلة وضحاها السيدة هالڤورسن في نظر العالم كلّه، وإلا لن يرضى أيّ مالك أن يؤجّرنا غرفة في حال علموا بأننا غير متزوّجَيْن. ما رأيك بذلك؟

- أظنّ أنّه حريّ بنا أن نتزوّج فور وصولنا إلى لايبزيغ. إذ لا يمكنني أن أسمح..

وأخذ صوتها يتضاءل شيئًا فشيئًا. ما دفع بجانس إلى القول:

- هذا أمر مفروغ منه. ولا داعيَ للقلق يا آنّا، حتى لو تشاركنا السرير نفسه، وأرجو منك أن تصدّقي بأنّني سأتصرّف كرجل نبيل. والآن...

وغادر جانس الغرفة ثم عاد بعد دقائق قليلة حاملًا علبة مخمليّة صغيرة واستطرد قائلًا:

- عليك أن تضعي هذا. إنه خاتم الزواج الخاص بجدتي. أعطتني إياه والدتي قبل مغادرتي المنزل وطلبت مني بيعه في حال احتجت إلى المال. هل تسمحين لي بأن أضعه في أصبعك.

حدّقت آنّا إلى الخاتم الذهبيّ الهزيل. لم يخيل إليها يومًا بأن يكون زواجها على هذا النحو، ولكن ذلك سيفي بالغرض في ظل الظروف الراهنة.

قال لها وهو يضع الخاتم في أصبعها برقّة:

أحبك سيدة هالڤورسن، وأعدك بأن نتزوّج فعليًا في لايبزيغ. عليك الآن أن تعودي إلى المنزل وتجهّزي نفسك من أجل الرحلة. هل تستطيعين الحضور إلى هنا عند الساعة السادسة صباحًا؟

أجابته وهي تسير في اتجاه الباب الأماميّ:

- أجل، سأكون هنا عند السادسة. في أي حال، أشك بأن يغمض لي جفن هذه الليلة.

- هل تملكين مالًا يا آنّا؟

عضّت آنّا شفتها وردّت قائلة:

- كلا. وليس من اللائق أن أطلب الآن من السيّد باير تسديد الأجر الذي يدين لي به، لاسيّما وأنّني سأخذله وأخذل الباقين بشكل شنيع.

هزّ كتفيه بلا مبالاةٍ وقال:

- هذا يعني أنّنا سنعاني من الفقر المدقع تمامًا كالشحاذين إلى أن نتمكّن من إيجاد مخرج لنا.

ردّت بصوت خافت:

- نعم. عمت مساءً يا جانس.

- عمت مساءً يا حبي.



كانت الشقّة غارقة في صمت مطبق عندما وصلت آنّا إلى المنزل. وأثناء تسلّلها عبر الرواق الطويل، رأت وجه الآنسة أولسداتر القلق يطلّ من باب غرفتها.

- كنتُ في غاية القلق يا آنّا.

وأضافت هامسة وهي تتوجّه نحوها:

- لحسن الحظ أنّ السيّد باير قد أوى إلى فراشه باكرًا هذا المساء لأنه يشكو من الحمّى. أين كنتِ؟

أجابت آنّا:

- كنت خارج المنزل. وأدارت مقبض الباب ودخلت غرفتها لعدم رغبتها بتبرير تصرّفاتها لأحد.

- ما رأيك لو ندخل المطبخ؟ سأعدّ لك كوبًا من الحليب الساخن.

- أنا...

شعرت آنّا بالخجل. فتلك المرأة عاملتها في مُنتهى اللطف وسيكون من العيب أن ترحل من دون إخبارها.

- شكرًا لك.

وتركتها تقودها عبر الرواق إلى المطبخ.

أثناء احتسائها الحليب الساخن، أخبرت آنّا الآنسة أولسداتر القصة بكاملها. وشعرت بالارتياح الشديد لدى انتهائها من إخبارها كلّ التفاصيل.

- حسنًا، حسنًا.

وتابعت الآنسة أولسداتر بصوت هامس:

- يا لك من محطِّمة للقلوب يا عزيزتي، فجميع الرجال يتهافتون للتودّد إليك. ومع ذلك، قررت الرحيل واللحاق بعازف الكمان إلى لايبزيغ!

- ليس أمامي خيار آخر. فالسيّد باير طلب مني الرحيل إذا لم أكن مستعدّة للتخلّي عن علاقتي بجانس على الفور. وبعد ما فعله السيد هانوم بجانس بناء لطلبه، لم أعدْ أرغب في البقاء في كريستيانيا.

- ألا تظنين يا آنّا أنّ السيّد باير يحاول حمايتك، ويضع مصلحتك فوق كلّ اعتبار؟

- ولكنّه لا يفعل! فهذا ما يريده هو، وليس ما أريده أنا.

- ماذا عن مهنتك؟ أرجوك يا آنّا، ليس باستطاعتك أن تضحّي بالموهبة العظيمة التي تتمتّعين بها، حتى من أجل الحب.

- ولكنني مُرغمَة على ذلك. لا يمكن لي البقاء في كريستيانيا من دون جانس.

وتابعت آنّا بإصرار:

- كما أستطيع الغناء في أي مكان في العالم. فالسيّد غريغ قال لي إنه على استعداد لمساعدتي إذا ما لجأت إليه يومًا.

وافقتها الآنسة أولسداتر قائلة:

- وهو فاعل خير وصاحب نفوذ. وماذا تنوين أن تفعلي للحصول على النقود؟

- قال السيّد باير إنه على استعداد لدفع الأجر الذي يُفترض بي أن أتقاضاه مقابل عملي في المسرح. ولكنّني قرّرت ألّا أطلب منه شيئًا.

- هذا تصرّف نبيل منك. ولكنّ الحبّ لن يكون كافيًا ليؤمّن لكما مأكلًا وسقفًا فوق رأسيكما.

ونهضت الآنسة أولسداتر من مكانها، وتوجّهت نحو الدرج في الخزانة

وأخرجت منه صندوقًا من الصفيح. وبعد أن أخذت من السلسلة المحيطة بخصرها مفتاحًا، فتحت الصندوق، وأعطت آنّا كيس النقود الموضوع فيه قائلة:

- تفضّلي. هذه مدّخراتي. لم أكن أنوي استخدامها في الوقت الحالي وأظنّك بحاجة إليها أكثر منّي. لا أستطيع السماح لك بمغادرة هذا المنزل والسير نحو مستقبل مجهول من دون أي فلس.

أجابت آنّا متوسّلة:

- آه، لا أستطيع..

قاطعتها الآنسة أولسداتر بنبرة حازمة:

- ستفعلين ما أقول لك. وفي اليوم الذي أعلم فيه بأنّك تغنين في دار الأوبرا في لايبزيغ، تستطيعين دعوتي لتسدّدي لي ديْني.

- شكرًا لك، هذا لطف منك

أثارت تلك المبادرة مشاعر آنّا إلى درجة تفوق الوصف، فأمسكت بيد الآنسة أولسداتر قائلة:

- لا بدّ من أنك تظنّين أنّ ما أنوي القيام به معيب.

- من أنا لأحكم عليك؟ وسواء كان قرارك لصالحك أم لا، فأنتِ فتاة شابة شجاعة وصاحبة مبادئ. وهذا هو سبب إعجابي بك. كلّ ما أرجوه منك هو أن تكتبي رسالة للسيّد باير بعد أن تهدأ الأمور قليلًا.

- أخشى أن يغضب منّي.

- لا يا آنّا، لن يغضب منك، ولكنه سيعاني من الحزن الشديد. ربّما كنت تنظرين إليه على أنه رجل مسنّ، ولكنْ تذكّري أنّه مهما يتقدّم الإنسان في السنّ، يبقى قلبه قادرًا على ممارسة وظيفته بالطريقة نفسها التي تعوّدها دائمًا. لا تلوميه لأنه وقع في حبّك وأمل أن تبقي بجانبه طوال العمر. والآن، أظنّ أنّ من الأفضل أن تأوي إلى الفراش وتنالي قسطًا من الراحة، ما دمت تنوين الاستيقاظ باكرًا في الغد.

- سأفعل.

- وأرجو منك يا آنّا أن تبعثي لي رسالة من لايبزيغ لأتأكّد من وصولك بالسلامة. فالسيّد باير ليس الشخص الوحيد في هذا المنزل الذي سيفتقد إلى وجودك. وتذكّري دائمًا بأنك تتمتعين بالشباب، والموهبة والجمال، فلا تضيّعي ذلك هباءً، اتّفقنا؟

- سأبذل ما بوسعي للحفاظ عليها. أشكرك على كلّ شيء.

سألتها الآنسة أولسداتر فجأة:

- ماذا ستقولين لأبويك؟.

- لا أعلم.

وتنهّدت، ومن ثمّ أضافت:

- لا أعلم حقًّا. الوداع.



بينما كانت العبّارة تتقدّم ببطء عبر المضيق، متوجّهة إلى هامبورغ، وهي تقذف الدخان والبخار، وقفت آنّا وحيدةً على سطح العبّارة، تراقب موطنها وهو يختفي خلف الضباب الخريفيّ، وهي تتساءل في قرارة نفسها ما إذا كانت ستعود إليه مرّة ثانية.

30

بعد أربع وعشرين ساعة، ترجّل جانس وآنا أخيراً من القطار، في محطة سكّة الحديد في لايبزيغ. كانت الشمس قد أشرقت لتوّها وكانت آنا متعبة جداً حتّى أنها بالكاد استطاعت أن تقف على قدميها، فحمل جانس حقيبته وحقيبتها. كان قطارهما من هامبورغ إلى لايبزيغ بأسرّة للنوم، لكنْ لم يشعر أيّ منهما بأنّ عليه أن ينفق ماله للحصول على هذه الراحة. فجلسا طيلة الليل مستقيمين على المقاعد الخشبيّة القاسية، وسرعان ما غفا جانس مسندًا رأسه إلى كتفها. ومع مرور الساعات، ازداد شكّ آنا في صحّة ما فعلته للتوّ وارتيابها.

كان الصباح مشرقًا على الأقل حين غادرا المحطة الصاخبة وسارا نحو وسط المدينة. ورغم تعبها، ارتفعت معنويات آنا بعض الشيء عندما رأت عيناها جمال لايبزيغ. كانت الأبنية الحجريّة الضخمة والعالية تمتد على جانبي الشوارع الواسعة المرصوفة، وبدا كثير منها مزيّنًا بالزخرفات أو النقوش أو صفوف النوافذ ذات الإطارات الأنيقة. سمعت المارّة يتحدّثون بلغة متقطّعة، هي نفسها التي سمعتها خلال الرحلة الطويلة في القطار من هامبورغ، وأدركت آنا أنها الألمانيّة. طمأنها جانس إلى أنه يتكلّم الألمانية بقدر مقبول من الكفاءة، لكنّها لم تستطع أن تفهم سوى كلمة أو اثنتين مشابهتين نسبيًّا للنروجيّة.

وفي النهاية، وجدا نفسيهما في ساحة السوق المركزية التي يبرز فيها مجلس المدينة الضخم ذو السطح الأحمر، الذي تنتصب عند واجهته قناطر حجريّة ويهيمن عليه برج بقبّة عالية يضم ساعة. كانت الساحة تمتلىء بالأكشاك وتحفل بالنشاط. توقّف جانس عند أحد الأكشاك حيث عرض الخبّاز مجموعة من الخبز الطازج. وعندما اشتمّت آنا الرائحة الزكيّة، أدركت كم هي جائعة.

لكن جانس لم يتوقّف من أجل الطعام.

- المعذرة من فضلك. هل تعرف أين يقع النزل في شارع السترستراد؟

لم يكن لدى آنّا أيّ فكرة عما عناه ردّ الخبّاز الخشن.

قال جانس:

- جيد، لسنا بعيدين عن النزل الذي اقترحه السيد غريغ.

تبيّن أنّ النزل هو عبارة عن مبنى متواضع يكسو الخشب نصفه ويقع في ممر ضيّق قرب شارع رأت آنّا أنّ اسمه السترستراد. وخطر لها بقلق أنّ جوّه بالتأكيد مختلف عن المباني الكثيرة الضخمة التي مرّا بها. بدا الحيّ فقيرًا بعض الشيء لكنها أجبرت نفسها على أن تتذكّر أنّ هذا كل ما يستطيعان تحمّل نفقته، فسارت خلف جانس الذي توجّه إلى الباب وضرب المقبض بقوة. بعد بضع دقائق، ظهرت امرأة تحاول أن تربط شريط مئزرها لتخفي ملابس النوم، وأدركت آنّا أنّ الساعة لم تتجاوز السابعة صباحًا.

همهمت المرأة:

- ما الذي تريده بحق السماء؟

ردّ عليها جانس بالألمانية وجلّ ما فهمته آنّا هو «السيد غريغ». عند سماع اسمه، استرخى وجه المرأة ودعتهما للدخول.

ترجم جانس لآنّا:

- تقول إنّ النزل ممتلئ بالنزلاء، ولكن ما دام السيد غريغ هو من أرسلنا، فهناك غرفة للخادمة في العلّية يمكن لنا أن نستعملها مؤقّتًا.

صعدا السلالم الخشبيّة الضيّقة التي راحت تصدر صريرًا تحت أقدامهما. ووصلا أخيرًا إلى الطابق العلويّ حيث فتحت المرأة بابًا أفضى إلى غرفة صغيرة جدًّا تقع تحت سطح المنزل. السرير النحاسيّ الضيّق كان الأثاث الوحيد فيها، فضلاً عن خزانة من أدراج مع حوض وإبريق فوقها، لكنها بدت نظيفة على الأقل.

جرى حوار آخر باللغة الألمانيّة بين جانس والمرأة حيث أشار إلى السرير فأومأت برأسها ثم غادرت الغرفة.

- قلت لها إننا سنأخذ الغرفة في الوقت الحالي حتى نجد مكان إقامة بديلًا. أخبرتها أنّ السرير ضيّق جدًّا ولن يتّسع لكلينا لكي ننام عليه، فذهبت لتجد لي فراشًا. سأنام على الأرض.

وقفا يتأمّلان الغرفة في صمت قلق حتى عادت المرأة حاملةً معها الفراش. عرض عليها جانس بعض المال من جيبه.

فقالت المرأة وهي تهزّ رأسها:

- فقط مارك، لا كرونة.

اقترح عليها جانس:

- خذي الكرونة الآن وسأبدّل بعض المال في وقت لاحق من هذا اليوم.

وافقت المرأة على مضض، ووضعت المال في جيبها وهي تصدر تعليمات إضافية، مشيرةً إلى تحت السرير، ثم غادرت الغرفة مجددًا.

جلست آنّا بحذر شديد. كان رأسها يدور من شدّة التعب، لكنّ ما أزعجها أكثر هو أنها تحتاج إلى استخدام الحمّام. سألت جانس وقد احمرّت وجنتاها عما إذا أخبرته المرأة عن مكان الحمام.

- أخشى أنه هناك.

وأشار إلى تحت السرير قبل أن يردف:

- سأنتظر في الخارج بينما...

وافقت آنّا التي غزت الحرارة وجنتيها. وما أن غادر حتى فعلت ما كانت في أشدّ الحاجة لأن تفعله منذ ساعات. ارتعدت وهي تغطي محتوى الوعاء بقطعة القماش الموجودة، ثم سمحت لجانس بأن يعود إلى الغرفة.

ابتسم وسألها:

- هل حالك أفضل؟

ردّت بتشنّج:

- نعم، شكرًا لك.

- حسنًا. والآن، أقترح أن ننال كلانا قسطًا من الراحة.

احمرّت وجنتا آنّا التي أشاحت بوجهها، بينما راح جانس ينزع ملابسه حتى بات يقف بسرواله وقميصه التحتيين القطنيين. واستلقى على الفراش مستخدمًا معطفه كغطاء وضعه على نفسه.

قال لها وهو يضحك:

- لا تقلقي، أعدك بألّا أسترق النظر. نومًا هنيئًا يا آنّا. سيشعر كلانا بالارتياح بعد النوم.

وأرسل لها قبلة من بعيد ثم استدار مشيحًا بنظره عنها.

فكّت آنّا ربطة معطفها ونزعت تنورتها الثقيلة وقميصها، وأبقت على قميصها وسروالها الداخليين. استطاعت أن تسمع شخير جانس الناعم يتعالى من على الفراش عندما اندسّت تحت الغطاء الصوفي الخشن وأراحت رأسها على الوسادة.

فكّرت في سرّها، ما الذي فعلته؟ كان السيّد باير محقًّا منذ البداية. إنها ساذجة وعنيدة ولم تتوقّف لتفكّر مليًّا في نتائج أعمالها. وقد أحرقت الآن كل جسور العودة وانتهى بها الأمر في هذه الغرفة الفظيعة والضيّقة إلى حدّ مخيف، تنام على بُعد إنشات قليلة من رجل لم تتزوّج به، وتضطر إلى القيام بأعمال خاصة وحميمة من دون أيّ خصوصيّة.

«أيها الربّ، أغفر لي لأني سبّبت الألم للآخرين» همست بهذا إلى السماوات حيث تخيّلت أنه ينظر إليها من أعلى في هذه اللحظة، ويحرّر لها بطاقتها إلى العالم السفليّ. وأخيرًا، غطّت في نوم مضطرب.



كانت آنّا قد استيقظت وارتدت ملابسها كاملة عندما تحرّك جانس، وهو في أمسّ الحاجة للحصول على كوب من الماء وتناول بعض الطعام.

سألها وهو يتمطّى ويتثاءب:

- هل السرير مريح؟

- سأتعوّد عليه.

قال جانس وهو يرتدي ملابسه، بينما أشاحت آنّا بنظرها عنه: «الآن، علينا أن نستبدل المارك الذهبيّ ببعض القطع النقديّة ونجد ما نأكله. لكن أولًا، هل يمكن لي أن أطلب منك مغادرة الغرفة وسأنضمّ إليك بعد أن أنهي ما عليّ فعله؟

فعلت آنّا ما طُلب منها وهي تشعر بالذعر من فكرة أنه سيرى ما هو موجود في الحوض. بعدئذ، هالها أن ترى جانس يخرج وهو يحمله.

قال وهو يجاوزها ويبدأ بنزول السلالم الخشبيّة:

- علينا أن نسأل صاحبة المكان عما علينا أن نفعله بالفضلات.

سارت آنّا خلفه وقد التهبت وجنتاها. لعلها كانت فتاة قرويّة بسيطة قبل أن تأتي إلى كريستيانيا لكنّها لم تصادف يومًا شيئًا مثيرًا للاشمئزاز وبعيدًا كل البعد عن النظافة مثل هذا. كان الحمّام في منزل والديها في هيدال خارج البيت، ويقتصر على ما هو أساسيّ، لكنه أفضل بكثير من هذا. وأدركت أنها بعد أن تعوّدت على الحمّام الحديث في شقة السيّد باير، لم يخطر لها أن تفكّر في كيفية تخلّص أهل المدينة من فضلاتهم.

وجدا صاحبة النزل في البهو وقدّم لها جانس الحوض كما لو أنه يقدّم لها قدرًا من الحساء. أومأت برأسها وأشارت إلى خلف المنزل، لكنها أخذته منه في أيّ حال.

قال جانس وهو يفتح الباب:

- حسنًا، انتهينا. لنخرج ونجد بعض الطعام.

بعد أن سارا في الشوارع المزدحمة، وجد جانس وآنّا حانة تطلّ على ساحة صغيرة فجلسا إلى إحدى الطاولات. طلب جانس البيرة ونظر كلاهما إلى اللوح الذي كُتبت عليه لائحة الطعام القصيرة بالطبشور. لم تتمكّن آنّا من قراءة أيّ كلمة.

قال جانس مترجمًا قائمة الطعام لها:

- حسنًا، لديهم نقانق. سمعت أنّها لذيذة جدًّا، لكنها دسمة أكثر من تلك التي تُعدّ في بلادنا بقليل. لديهم كنودل ولا تسأليني ما هي... ولحم مقدّد على ما أفترض..

قالت آنّا بضجر بينما كانت البيرة توضع على طاولتهما مع سلّة من الخبز الداكن اللون:

- أعتقد أني سأتناول ما تتناوله.

على الرغم من أنها كانت تفضّل أن تشرب الماء، لكنّها رفعت الكوب وشربت لتروي عطشها.

حدّقت من النوافذ القذرة تتأمل الساحة الصاخبة في الخارج. كانت النساء، بمعظمهن، يرتدين أثوابًا بسيطة داكنة اللون مع فوط بيضاء أو رماديّة على رؤوسهنّ أبرزت بشرتهنّ الشاحبة وملامحهنّ الألمانيّة المنحوتة. توقّعت آنّا أن ترى أناقة وزينة أكثر في لايبزيغ إذ قيل لها إنها إحدى أهم المدن في أوروبا. وشاهدت عربات غريبة تمرّ في الساحة، عرضت بشكل خاطف قبعة أنيقة وعصريّة مزيّنة بالريش، تعتمرها نساء أكثر ثراءً.

وصل غداؤهما فالتهمت آنّا البطاطا والنقانق الدهنيّة في مهلة قصيرة. كانت البيرة قد أدارت رأسها فابتسمت لجانس بمحبّة.

- كيف أطلب الماء؟

ردّ جانس قبل أن يركّز انتباهه مجددًا على الفرقة الموسيقيّة الصغيرة في الشارع، التي كانت تعزف الكمان وسط الساحة، وقد وضعت أمامها قبعة لجمع المال:

- تقولين: "*Ein Wasser, bitte*".

راقبته آنّا وهو يمدّ جسده باستمتاع وهو يستمع.

- أليس المكان رائعًا هنا؟ هنا يكمن قدرنا، أنا واثق من ذلك.

ومدّ يده عبر الطاولة ليمسك بيدها وأضاف:

- إذًا، كيف تجدين مغامرتنا حتى الساعة؟

- أشعر أني قذرة يا جانس. عندما نعود، هل تعتقد بإمكانية سؤال صاحبة النزل إنْ كان هناك أيّ مكان يمكننا أن نستحم فيه ونغسل ملابسنا؟

رمقها جانس بنظرة قاسية وأجاب:

- هيّا يا آنّا، قلت لي إنك فتاة ريفيّة وإنك متعوّدة على المشقّة. هل هذا كل ما لديك لتقوليه عن وجودنا في لايبزيغ؟

فكّرت بشوق وحنين بهيدال والثلج الأبيض النظيف، الذي يُجمع من الخارج في الشتاء ويُسخّن على النار للاغتسال. وفي السواقي العذبة والمنعشة التي يمكن الاستحمام فيها في فصل الصيف.

- سامحني. سأتدبّر أمري وأتعوّد، أنا واثقة من ذلك.

رفع جانس كوب البيرة الثاني وتجرّعه قبل أن يقول:

- عليّ أن أشكر السيّد باير لأنه أجبرني على أن أخطو أخيرًا نحو مستقبلي.

- أنا مسرورة لأنك سعيد جدًّا بوجودك هنا.

- أنا فعلًا سعيد. تنشّقي الهواء يا آنّا، إنه مختلف. والمدينة مشتعلة بالإبداع والموسيقا. انظري إلى الجموع من حول هؤلاء الموسيقيين! هل سبق أن رأيتِ أمرًا مماثلًا في كريستيانيا؟ هنا، يُحتفى بالموسيقا، ولا يُسخر منها على أنها لعبة رجل فقير وفاشل. وأستطيع الآن أن أكون جزءًا من هذا الاحتفال.

وأنهى كوب البيرة حتى آخر نقطة ثم رمى بضع قطع نقديّة على الطاولة قبل أن يقف ويقول:

- والآن، سأحضر كتاب التوصية من السيد غريغ وأتوجّه إلى معهد الموسيقا مباشرة. هذه بداية كل ما حلمت به.

بعد أن عادا أدراجهما إلى مكان إقامتهما، فتّش جانس بين مقتنياته وأخذ الكتاب الثمين ثم قبّل آنّا وتوجّه نحو الباب.

- ارتاحي يا آنّا، وسأوقظك مع النبيذ والأخبار الطيّبة.

- وهل ستسأل إنْ كان من أحد هناك يمكن أن يسمعني أغنّي...

لكنّ الباب كان قد أُغلق خلفه.

ارتمت آنّا على السرير. أدركت الآن أنّ صدى هذه «المغامرة» مختلف تمامًا

ما بينها وبينه: فجانس يسعى خلف شيء ما، بينما هي تهرب من شيء ما. وفكّرت في أنه لم يعد بإمكانها الآن أن تفعل أيّ شيء حيال ما جرى ويجري، حتّى وإن كان خطأً.

عاد جانس من معهد الموسيقا بعد ساعات وقد ازدادت بهجته عن ذي قبل.

- عندما وصلتُ في بداية الأمر وطلبتُ مقابلة المسؤول، الدكتور شلينيتس، نظر إليّ البواب كما لو أنّني أبله القرية. بعدئذ، سلّمته الكتاب، وما أن قرأه حتى توجّه مباشرة إلى المكتب ليحضره! طلب مني الدكتور شلينيتس أن أعزف الكمان، ومن ثمّ إحدى مؤلّفاتي على البيانو. ولن تصدّقي...

وعند هذه النقطة، سدّد جانس لكمة في الهواء وتابع قائلًا:

- انحنى! نعم يا آنّا لقد حيّاني بانحناءة! تحدّث عن السيد غريغ وأخبرني أنّه لمن دواعي سروره أن يعلّم أيًّا من تلامذته. وبالتالي، سأبدأ غدًا دراستي في معهد لايبزيغ الموسيقيّ.

بذلت آنّا قصارى جهدها لكي تبدو سعيدة وهي تقول:

- آه جانس! هذا رائع!

- قصدت أيضًا الخيّاط في طريق عودتي واضطررت لأن أدفع له مبلغًا مضاعفًا لكي يجهّز لي ملابس مناسبة أكثر مع حلول صباح الغد. لا أريد لأيّ أحد أن يعتقد أنني رجل بسيط من بلاد المستنقعات. أليس هذا رائعًا؟

وضحك وهو يضع ذراعيه حول خصر آنّا، ويرفعها ويدور بها ثم يضيف:

- والآن، وقبل أن نخرج لنحتفل، علينا أن ننتقل إلى مكان إقامتنا الجديد.

- هل وجدت مكانًا لنا؟

- نعم، ليس قصرًا لكنه بالتأكيد أفضل من هذا المكان. سأنزل وأدفع لصاحبة النزل الماركات التي طلبتها بينما أنت توضّبين أغراضنا. أراكِ في الأسفل.

- أنا....

كانت آنّا على وشك أن تقول إنها تشكّ في أن تتمكّن من حمل الحقيبتين

وحدها، لكنه كان قد غادر. وبعد بضع دقائق، انضمّت إلى جانس وهي تلهث من التعب، بعد أن حملت متاعهما إلى البهو في الأسفل.

أعلن جانس:

- حسنًا، دعينا ننطلقْ إلى سكننا الجديد.

تبعته آنّا إلى الشارع والتفتت إليه متفاجئة، حين بالكاد اجتازه ودخل إلى البيت المقابل.

- رأيت علامة الشغور على النافذة وأنا في طريق العودة، وخطر لي أن أدخل واستطلع الوضع.

كان البيت شبيهًا بذاك الذي غادراه للتو، لكن الغرفة كانت في الطابق الأول، وهي على الأقل أكثر اتّساعاً وأفضل تهوئة من العلّيّة الضيّقة. رأت سريرًا نحاسيًّا كبيرًا يكاد يحتّل معظم المساحة، فانتفض قلب آنّا عندما أدركت أنّ ما من مكان لوضع فراش على الأرض.

- هناك حمام في الجهة المقابلة من المنزل، ما يعني أنّ هذه الغرفة مكلفة أكثر، لكنها على الأقل سترضيكِ. هل أنتِ سعيدة يا آنّا؟

أومأت برأسها برزانة وردّت:

- نعم.

- جيّد.

سلّم بضع قطع نقديّة للسيدة شنايدر، مالكة المنزل، التي بدا لآنا أنها على الأقل ألطف من المرأة الأخرى. قال بابتهاج:

- هذا يكفي لأول أسبوع إقامة لنا.

'Kochen in den Zimmern ist untersagt. Abendbrot um punkt sieben Uhr. Essen Sie hier heute Abend?'

قال جانس لآنا بصوت خافت:

- تقول إنّ الطهو ممنوع في الغرفة، لكنّنا نستطيع تناول العشاء كل مساء في الأسفل عند الساعة السابعة.

والتفت إلى السيدة شنايدر قائلًا:

- تبدو هذه فكرة ممتازة. وكم ستبلغ الكلفة الإضافيّة؟

وانتقل المال مجدّدًا من يد إلى أخرى قبل أن يُغلق الباب أخيرًا خلفهما.

ابتسم جانس وقال:

- إذًا، سيدة هالڤورسن، ما رأيك في مسكننا كعريسين جديدين؟

- أنا...

رأى جانس الخوف المرتسم على وجهها وهي تحدّق إلى السرير، فدعاها:

- آنّا، تعالي إليّ.

فعلت ما طلب فضمّها بين ذراعيه وتابع قائلًا:

- اهدئي، اهدئي. سبق أن وعدتك بأني لن ألمسك حتى تقولي لي إني أستطيع أن أفعل. لكن، على الأقل، يستطيع كلٌّ منّا أن يدفىء الآخر في ليالي لايبزيغ الباردة.

حثّته آنّا قائلةً:

- جانس، علينا فعلًا أن نتزوّج في أسرع وقت ممكن. علينا أن نجد كنيسة لوثريّة لتزوّجنا...

قاطعها قائلًا وهو يدنيها منه أكثر ويحاول أن يقبّل عنقها:

- سنفعل، لكنْ دعينا لا نقلقْ بشأن هذا في الوقت الحالي.

قالت وهي تصدّ مداعبته:

- جانس، ما نفعله هو خطيئة بحق الرب!

- بالطبع، أنتِ محقّة.

وتنهّد قرب بشرتها قبل أن يطلق سراحها ويضيف وهو يرفع ذقنها بإصبعه لكي تقابل عيناه عينيْها:

- الآن، يحتاج كلانا إلى حمّام. بعدئذٍ، سنخرج لنتناول الطعام والشراب. اتفقنا؟

ردّت وهي تبتسم في وجهه:

- نعم.

31

في الأسبوعين التاليين، بدأت آنّا بالتآلف مع الروتين اليوميّ. أو بدأت، على الأقلّ، نجد أمورًا من شأنها أن تلهيها في خلال ساعات طويلة من الوحدة يكون فيها جانس في المعهد الموسيقيّ.

كان الشتاء قد أرخى بثقله على المدينة فأصبحت غرفتهما شديدة البرودة في الصباح، ما كان يدفعها للعودة إلى الفراش بعد مغادرة جانس إلى المعهد الموسيقيّ، لتتقوقع تحت الأغطية الصوفيّة الدافئة ريثما تتأجّج نيران الفحم الذي أشعلته في الموقدة الصغيرة. تنهض بعدها من سريرها، وتغتسل وترتدي ملابسها، ومن ثمّ تخرج من النزُل متوجّهة إلى السوق في لايبزيغ لشراء الخبز وشرائح من اللحم المقدّد البارد للغداء.

وكانت الوجبة الساخنة الوحيدة المتاحة لهما تقتصر على ما تقدّمه لهما السيدة شنايدر في المساء. وغالبًا ما كانت تتألّف من السجق مع البطاطس أو فطائر الخبز غير المختمرة المغمّسة بصلصة لا طعم لها. وشعرت آنّا في قرارتها بشيء من الحنين إلى مذاق الخضر الطازجة والطعام الصحيّ، الذي كان متوافرًا لها في طفولتها.

صرفت آنّا ساعات طوال وهي تحاول أن تكتب لوالديْها والسيّد باير. وبينما كانت تحمل قلم لارس بين أصابعها، راحت تتساءل إنْ سافر عن طريق البحر إلى أميركا، كما قال لها إنه ينوي أن يفعل. وفي لحظات الإحباط القصوى، كانت تسأل نفسها إنْ كان ينبغي أن تسافر معه.

لايبزغ

الأوّل من تشرين الأول 1876

عزيزي السيد باير،

أظنّ أنك أصبحت على علم الآن، ما دمت لم أعدْ في المنزل، برحيلي إلى لايبزيغ. أودّ إبلاغك بأنني تزوّجت من السيد هالفورسن ونعيش معًا في سعادة. أريد أيضًا أن أشكرك على كلّ ما قدمته لي. وأرجو أن تحتفظ بالأجر الذي أستحقّه من عملي في مسرح كريستيانيا لتسديد بعض ما أُدين به إليك، وآمل أن تتمكّن من بيع الفساتين التي تركتها لأنها في غاية الترف.

أعتذر منك سيّد باير لأنني لم أتمكّن من أن أحبّك.

مع تحياتي،

آنا لاندفيك

ومن ثمّ، أخذت قصاصة أخرى من الورق وبدأت بكتابة الرسالة الثانية.

والداي العزيزان،

تزوّجت جانس هالفورسن وانتقلت للعيش معه في لايبزيغ، حيث يتابع زوجي دراسته في المعهد الموسيقيّ، وأهتمّ أنا بشؤون المنزل. إنني سعيدة جدًّا معه، ولكنني مشتاقة للجميع، وللنروج.

آنا

لم تدوّن آنّا عنوانها من شدّة إحساسها بالذنب وخوفها من تلقّي اتهاماتهم. خلال فترات بعض الظهر، تعوّدت آنّا التجوال في الحديقة العامة أو في شوارع المدينة، على الرغم من أن دثارها الرقيق لا يقيها الرياح العنيفة، رغبةً منها في الإحساس بأنّها لا تزال تشكّل جزءًا من البشرية. كانت الأدلّة على إرث لايبزيغ الموسيقيّ متناثرة في كل مكان، من الشوارع المختلفة التي تحمل أسماء مؤلّفين موسيقيين، إلى التماثيل التي تجسّد أشكالهم، وصولًا إلى المنازل التي أقام فيها مندلسون وشوپان.

ولا ريب في أنّ المكان المفضّل لديها هو مسرح نيوس الباهر، الذي يضمّ دار الأوبرا في لايبزيغ، بمدخله المزوّد بصفّ من الأعمدة الشاهقة ونوافذه المقوّسة الضخمة. وكم من مرّة وقفت تحدّق إلى ذلك المكان متسائلة في سرها إنْ كانت تتجرأ على أن تحلم بتقديم عرض غنائيّ في مكان مماثل. وفي أحد الأيام، استجمعت شجاعتها وقرعت باب المسرح الخلفيّ وحاولت التواصل مع البوّاب. ولكن على الرغم من استخدامها كل الإشارات اليدويّة المُحتمَلة، لم تنجح في أن تُفهم الرجل بأنها تبحث عن وظيفة كمغنية.

وإذ بلغ منها الإحساس بالقنوط وعدم الانتماء إلى المكان مبلغًا عظيمًا، بحثت عن ملاذ لها في توماسكيرش، وهو مبنى قوطيّ الطراز، يرتفع على سطحه برج للجرس باللون الأبيض الناصع. وعلى الرغم من أن المكان أكبر بكثير من الكنيسة الصغيرة في هيدال، فقد أعادت رائحته وأجواؤه إلى ذهنها صورة موطنها. وفي اليوم الذي وضعت فيه أخيرًا رسالة كل من السيّد باير وأبويْها في صندوق البريد، قرّرت اللجوء إلى ذلك المكان. فجلست على مقعد، وأحنت رأسها وراحت تصلّي طالبةً من اللّه أن يعفو عن ذنوبها ويمنحها القوة ويهديها.

«إلهي، سامحني على الأكاذيب المريعة في تينك الرسالتين. وأظن أن أسوأها هي...»، وبلعت ريقها بصعوبة وتابعت: «هي أنني سعيدة. لأنني لست كذلك على الإطلاق. ولكنّني أعلم بأنّني لا أستحق الشفقة أو المغفرة على ما فعلته».

وشعرت عندها بيد رقيقة على كتفها.

- لمَ أنت حزينة يا صغيرتي؟

وإذ رفعت نظرها، صعقت لدى رؤيتها كاهنًا عجوزًا يبتسم لها. فتذكّرت العبارات التي علّمها إياها جانس وبذلت جهدًا لتجيبه قائلة:

- لا أتكلّم الألمانية، بل النروجية فقط.

ردّ الكاهن:

- آه، أجيد النروجية قليلًا.

وعلى الرغم من أنّها فعلت ما باستطاعتها لتتحدث معه، لكنّ إلمامه باللغة النروجية كان محدودًا تمامًا كإلمامها باللغة الألمانية، وأدركت آنّا بأنه ينبغي على جانس التحدّث معه بشأن زواجهما وإقناع الكاهن بعمق إيمانهما.

وكانت آنّا تجد سعادة لا توصف خلال العشاء حيث يجتمعان معًا وتمضي الوقت بالإصغاء إلى كلام جانس عن المعهد الموسيقيّ، وعن الطلاب الآخرين القادمين من كل أنحاء أوروبا، وعن صفوف أجهزة البيانو من نوع بلوتنير المخصّصة للتمرّن عليها، وعن المدرّبين ذوي المهارات العالية، الذين كانوا، بمعظمهم، أعضاء في أوركسترا جيواندهاوس في لايبزيغ. وفي هذا المساء، كان جانس يتحدث بحماسة تفوق الوصف عن كمان ستراديفاريوس الذي سُمح له بالعزف عليه.

- إن الفرق في نوعية الصوت أشبه بالفرق بين ساقية في حانة تدندن وسوبرانو يؤدي الآريا.

وأضاف باندفاع:

- إنها تجربة متميّزة من كلّ النواحي! فالفرصة متاحة أمامي للعزف في كلّ يوم على البيانو إلى جانب العزف على الكمان، كما أنّني أتعلّم كثيرًا من صفوف التأليف الموسيقيّ، والإيقاع والتحليل الموسيقيّ. واطّلعت في صف تاريخ الموسيقا على أعمال لشوپان لم أكن قد سمعت عنها من قبل! وسأعزف قريبًا جدًّا شيرزو رقم 2 لشوپان خلال حفل للطلاب في قاعة جواندهاوس.

حاولت آنّا أن تتظاهر بالحماسة وهي تقول له:

- يسرّني أن أراك سعيدًا. ولكنْ هل يمكن أن تسأل أحدهم ما إن كان ممكنًا أن أجد عملًا كمغنية؟

أجابها جانس وهو يلتهم طعامه:

- أعلم يا آنّا بأنك تطلبين مني ذلك باستمرار. لكنني قلت لكِ إنك لن تتمكّني من إيجاد عمل لك في هذه المدينة إلا في حال تعلّمت اللغة الألمانية.

- لا بدّ من أنّ أحدهم قد يرغب بالاستماع إلى صوتي؟ أعرف الكلمات الإيطالية «لآريا فيوليتا»، وبإمكاني تعلّم الكلمات الألمانية في ما بعد.

- حسنًا يا حبي.

ومدّ جانس يده وأمسك بيدها مضيفًا:

- سأسعى من جديد للسؤال عن هذا الموضوع من أجلك.

وبعد العشاء يأتي الموعد المعتاد للإيواء إلى الفراش، والذي لا يوحي بالراحة على الإطلاق. فبعد أن تبدّل آنّا ملابسها وترتدي ثياب النوم في المرحاض، تتسلّل بسرعة تحت الغطاء حيث يكون جانس بانتظارها. فيحضنها بين ذراعيه، وتسند رأسها إلى صدره، وهي تتنشّق رائحته المسكيّة حتى الثمالة. ومن ثم يقبّلها، فتشعر بجسدها يتجاوب معه، كما يتجاوب جسده معها، فيركبان معًا موجة الرغبة التي تحثّهما على طلب مزيد... وفي تلك اللحظة، تدفعه بعيدًا عنها فيتنهّد بغضب.

قالت هامسة في ظلمة إحدى الليالي:

- لا أستطيع. فأنت تعلم أنّه علينا الزواج أولًا.

- أعلم ذلك يا حبيبتي. من المؤكّد أننا سنتزوّج في نهاية المطاف، ولكن بإمكاننا إلى حين ذلك أن...

- لا يا جانس! لا أستطيع. أتعلم شيئًا؟ وجدت في مكان قريب من هنا كنيسة نستطيع الزواج فيها، ولكن عليك أن تتحدث مع الكاهن من أجل الترتيبات اللازمة.

- ليس لدي متّسع من الوقت لأضيّعه يا آنّا. فدراستي تستحوذ على كلّ اهتمامي. هناك طلاب كُثُر في المعهد الموسيقيّ يأتون بأفكار جديدة. وبعض الطلاب المتطرّفين يقولون إنّ الكنيسة قائمة من أجل التحكّم في حياة الناس، ما جعلهم يبحثون عن وجهات نظر أكثر استنارة، منها تلك التي يطرحها غوته في مسرحية فاوست. تتطرّق القصة إلى كل الأوجه الروحية والماورائية. استعرت نسخة عن الرواية من صديق لي وسأصحبك خلال عطلة نهاية الأسبوع إلى أورباخس كيلر، الحانة التي كان غوته يرتادها وحيث استوحى روايته الكلاسيكيّة من أحد الجُذر.

لم تكن آنّا قد سمعت يومًا عن غوته وأعماله المستنيرة. جلّ ما تعرفه هو أنّ عليها الزواج أمام اللّه قبل أن تجمعها علاقة جسديّة بجانس.



مع اقتراب عيد الميلاد، أدركت آنّا أنّ ثلاثة أشهر قد مضت على انتقالها مع جانس للعيش في لايبزيغ. كانت ترغب في المشاركة في قداس منتصف الليل في الكنيسة، حيث أعطاها الكاهن ماير كتيّبًا عن التراتيل الألمانية التقليديّة، وراحت تدندن ترنيمة «الليلة الصامتة» لنفسها، وهي متحمّسة جدًّا لفكرة مشاركة الآخرين في الغناء، لكنّ جانس أصرّ على أن يمضيا عشية عيد الميلاد في منزل فريدريك، أحد أصدقائه من المعهد الموسيقيّ.

جلست آنّا صامتة قرب جانس على المائدة، وفي يدها كوب من النبيذ الألماني الساخن، تحاول عبثًا فهم العبارات الألمانية الحلقيّة. ولم يتكبّد جانس، الذي أسرف في الشرب حتى الثمالة، عناء ترجمة ما يدور من حولها من أحاديث. وعلى الرغم من أنّ بعض الحضور عزفوا على آلات موسيقيّة مختلفة بعد العشاء، لم يقترح جانس ولو مرّة، عليها الغناء.

أثناء رحلة العودة إلى المنزل في ظلمة تلك الليلة الباردة، سمعت آنّا صدى قرع الأجراس يتردّد عبر هدوء الليل، معلنًا بداية يوم عيد الميلاد. وتعالت أصوات المرنّمين في الكنيسة عند مرورهما من أمامها، فاختلست النظر إلى جانس لتجد وجهه شديد الحمرة، تحت تأثير الكحول التي شربها، والهتافات التي أطلقها خلال الأمسية. فأرسلت في سرّها صلاة إلى أسرتها التي كانت تحتفل بالعيد من دونها في هيدال، متمنّية من كلّ قلبها لو أنّها كانت معهم.



خلال شهري كانون الثاني وشباط، خشيت آنّا من أن تُصاب بالجنون من شدّة الملل. فالروتين اليوميّ، الذي وجدته في بادئ الأمر مُحتمَلًا، تحوّل فجأة عبئًا ثقيلًا يكاد يخنقها. ومع وصول الثلج إلى لايبزيغ، كانت تفقد في بعض الأحيان الإحساس

بأصابع يديها وقدميها من البرد. جلّ ما كانت تفعله خلال النهار هو جلب دلاء من الفحم لإشعال النار، وغسل الملابس في حجرة غسل الأطباق الشديدة البرودة، أو القيام بمحاولة بائسة لفهم ما كُتِب في رواية فاوست، نزولًا عند طلب جانس، لعلّ ذلك يفي بالغرض لتحسين لغتها الألمانية.

«إنّني في غاية الغباء».

وبخَت نفسها بقسوة في أحد الأيام، وأغلقت الكتاب بقوة، ومن ثمّ انفجرت بالبكاء من شدّة الإحباط، لتغرق في حالة من الكآبة باتت تراودها بشكل منتظم في الآونة الأخيرة.

مع مرور الأيام، أصبح جانس أكثر انغماسًا في شؤون المعهد الموسيقيّ وطلابه، وغالبًا ما كان يعود إلى المنزل بعد انتهاء الحفلات الموسيقيّة ورائحة الجعّة والتبغ تفوح منه. وفي كلّ مرة يحاول فيها مداعبة جسدها وإيقاظ حواسها عبر قميص النوم، كانت تتظاهر بالنوم. وكانت تسمعه وقلبها يتخبّط بين أضلاعها، وهو يشتم حابسًا أنفاسه، ومن ثم يستدير إلى الجهة الأخرى مزمجرًا ليبدأ بعدها بالشخير. وفي تلك اللحظة، تتنفّس آنّا الصعداء وتسترسل في النوم بدورها.

أصبحت في تلك الأيام تتناول طعام العشاء وحدها، وهي تختلس النظر إلى النزلاء الآخرين في المكان. فمعظمهم يتبدّلون كل أسبوع، ما جعلها تفترض أنهم من التجار الكثيري السفر. لكنّ الرجل النبيل المتقدّم في السنّ الذي كانت تراه في كلّ ليلة يتناول عشاءه وحيدًا، بدا وكأنه مقيم دائم مثلها تمامًا. كان يدفن رأسه باستمرار في الكتب ويحرص على ارتداء ملابس فاخرة، ولكن بطريقة قديمة الطراز.

وسرعان ما تحوّل الرجل النبيل إلى مصدر إعجابها خلال تناولها العشاء؛ وصرفت آنّا ساعات وهي تتساءل عن السبب الذي دفعه إلى إمضاء سنوات شيخوخته في هذا المكان. وفي الأوقات التي لا يشارك أحد سواهما في العشاء، كان يومئ لها برأسه قائلًا: «مساء الخير» لدى دخوله المكان و«تصبحين على خير» لدى خروجه منه. وأدركت آنّا بأنّه يذكّرها بالسيّد باير بشعره الأبيض الكثيف وشاربه الكثّ ودماثته اللافتة.

تمتمت في إحدى الليالي لنفسها وقد وجدت نفسها وحيدة في قاعة الطعام: «إذا كنت افتقد السيّد باير، فذلك يعني أنّني بائسة جدًّا».

بعد مرور بضع ليالٍ، نهض الرجل النبيل من مكانه واجتاز الغرفة حاملًا معه كتابه الذي لا يفارقه.

- تصبحين على خير

وأومأ لها برأسه مع اقترابه من الباب في طريقه لمغادرة الغرفة. لكنّه ما لبث أن عاد نحوها.

- هل تتكلّمين الألمانية؟.

- كلّا، النروجية.

أجابها باندهاش:

- أنت من النروج؟

- أجل.

وشعرت آنّا بشيء من البهجة لسماعه يتكلّم لغتها الأم بطلاقة.

- أنا دانماركيّ الأصل، ولكنّ والدتي كانت من كريستيانيا، وعلّمتني اللغة النروجية في صغري.

بعد أسابيع طويلة على وصولها إلى هذا المكان ومعاناتها من صعوبة التواصل مع أحد باستثناء جانس، شعرت آنّا برغبة في عناقه.

- يسعدني أن ألتقي بك سيّدي.

راقبت الرجل واقفًا عند الباب يتفحّصها بإمعان، وهو غارق في أفكاره.

- قلتِ إنكِ لا تتكلمين الألمانية؟

- لا أعرف سوى بضع كلمات.

- وكيف تتدبّرين أمورك في هذه المدينة؟

- لا أجيد ذلك بصراحة.

- وهل يعمل زوجك في لايبزيغ؟

- كلّا، إنّه طالب في المعهد الموسيقيّ.

- آه، موسيقيّ! لا عجب في أنّه نادرًا ما ينضمّ إليك على العشاء في المساء. هل بإمكاني أن أعرف ما اسمك؟

- آنّا هالڤورسن.

- ستيفان هوغارد.

وانحنى لها احترامًا وتابع:

- سررت كثيرًا بالتعرّف إليك. لا أظنّك تعملين سيدة هالڤورسن؟

- كلّا سيدي. مع أنني آمل أن أتمكّن في القريب العاجل من إيجاد عمل بصفتي مغنّية.

- حسنًا، أستطيع في الوقت الحاليّ، مساعدتك على تعلم الألمانيّة. أو مساعدتك، على الأقل، على إتقان معلوماتك الأساسية.

واقترح عليها قائلًا:

- بإمكاننا أن نلتقي هنا بعد الفطور، تحت سمع وبصر مالكة المكان، حتى لا يظنّ زوجك أنّ أمرًا مريبًا يحدث بيننا.

- هذا لطف منك سيدي، وسأكون في غاية الامتنان لمساعدتك. ولكنْ عليّ أن أنبّهك إلى أنّني تلميذة بطيئة، ولا أجيد كتابة الرسائل حتّى في لغتي الأمّ.

- حسنًا، علينا في هذه الحالة أن نعمل بجدّ، أليس كذلك؟ أراك في الغد عند العاشرة

- أجل، سأكون في انتظارك هنا.

خلدت آنّا للنوم في تلك الليلة وهي تشعر بشيء من البهجة، على الرغم من أنّ جانس لم يكن قد عاد بعد إلى المنزل، مدّعيًا بأنّه يتمرّن من أجل حفل موسيقيّ. كان يكفي أن يتسنّى لها الحديث مع شخص آخر لينتعش قلبها، وكلّ ما يمكن أن تقوم به لإضافة قليل من التنوّع إلى نهارها لا بدّ من أن يأتي بفائدة.

وإذا نجحت في تحسين لغتها الألمانية، وربّما تُتاح لها فرصة الغناء من جديد أمام الجمهور...



مع ظهور البراعم الأولى على الأشجار، كانت آنّا تمضي ساعات الصباح في الطابق السفليّ، تحاول أن تعلّم ذهنها العنيد كيفية حفظ العبارات التي يلقّنها إياها السيد هوغارد، وتكرارها. وخلال الأيام القليلة الأولى، أصرّ على مرافقتها خلال رحلتها النهاريّة إلى السوق، حيث كان يقف على مسافة بعيدة نسبيًّا، ويصغي إليها بانتباه شديد وهي تحاول الالتزام بإرشاداته، فتلقي تحية الصباح على البائع، لتعود بعدها وتطلب منه الأشياء التي تحتاج إليها وتدفع ثمنها قبل أن تلقي عليه من جديد تحية الوداع. وفي حين كانت هذه المهام تثير أعصابها في بادئ الأمر، بحيث أنها كانت تتعثّر في أغلب الأحيان بالجمل التي تعلّمتها، لكنّها بدأت شيئًا فشيئًا تكتسب مزيدًا من الثقة بالنفس.

وحين بدأت تسجّل تحسّنًا ملموسًا خلال الأسابيع القليلة التالية، اتسع نطاق رحلاتها إلى المدينة برفقة السيد هوغارد ليشمل طلب الطعام لكليهما في المطعم، مع إصرارها على تسديد الفاتورة كعربون شكر له.

لم تكن تعرف عنه أمورًا كثيرة بعد، باستثناء أنّ زوجته توفيت منذ سنوات خلت. وبعد أن أصبح أرملًا، قرّر الانتقال من الريف إلى المدينة ليستمتع بفوائد الساحة الثقافيّة في لايبزيغ، من دون أن يتكبّد عناء الاهتمام بنفسه بالشؤون المنزليّة.

- ما الذي أحتاج إليه أكثر من معدة ممتلئة، وملاءات نظيفة وملابس مغسولة بانتظام، وحفل موسيقيّ رائع على بعد دقائق قليلة لتحريك حواسي؟

لم يحاول السيد هوغارد أن يخفي عجبه من معرفة أنّ جانس لم يطلب منها حضور الحفلات الموسيقيّة الكثيرة التي ادّعى أنه كان يشارك فيها. فعلى الرغم من أنّه كان يزعم أمامها بأنه لا يملك النقود لدفع ثمن التذكرة، أكّد السيد هوغارد أنّها

غالبًا ما تكون مجانية. فالحق يُقال إنّ آنّا لم تعد ترى «زوجها» إلا لمامًا، حيث أنّه تخلّف مؤخّرًا مرات عدّة عن العودة إلى المنزل. وأكّدت لنفسها في صباح أحد الأيام، بينما كانت تفتح النافذة لتدع هواء الربيع يتسلّل إلى الغرفة قبل أن تنزل إلى الطابق لمتابعة درسها اليوميّ، بأنه كان يمكن أن ترمي بنفسها أمام الترامواي منذ أشهر عدّة خلت، لو لم يظهر السيد هوغارد في حياتها.

وخلال إحدى الرحلات التي كانا يقومان بها معًا إلى المدينة في وقت الغداء، صعقت آنّا عندما رأت جانس جالسًا قرب النافذة في أحد أرقى المطاعم في لايبزيغ، والمعروف باسم ثورينغر هوف. ففي هذا المكان بالذات، يجتمع أفراد الطبقة الأرستقراطيّة بملابسهم المترفة، وعرباتهم المصطفّة في الخارج، والتي تقودها أحصنة تنتظر بفارغ الصبر أن ينهوا وجباتهم الفاخرة لتعيدهم إلى منازلهم. ما أعاد إلى ذهنها ذكرى الحياة التي عاشتها في كريستيانيا وأثار في داخلها إحساسًا بالأسى.

بذلت آنّا قليلًا من الجهد لتنظر من بين العربات إلى الشخص الذي كان جانس يتناول الغداء برفقته. بدا واضحًا أنه كان برفقة امرأة من خلال القبعة القرمزيّة المزوّدة بأرياش، والتي كانت تتمايل كلّما تحدّثت السيّدة التي تعتمرها. ومع اقترابها أكثر، تحت ناظريّ السيد هوغارد العابثتين، رأت امرأة شعرها داكن وسماتها، على حد تعبير أمها، رومانيّة، ما يعني في جوهرها أنّ أنفها كبير.

- ما الذي تنظرين إليه يا آنّا؟.

ومشى السيد هوغارد وراءها وتابع:

- تبدين أشبه ببائعة الكبريت في قصة الأديب الدانمركي هانس كريستيان أندرسن. وأضاف ضاحكًا:

- هل ترغبين في الذهاب وإلصاق أنفك بالزجاج تمامًا كما فعلت بائعة الكبريت؟

- كلا.

وأشاحت آنّا بنظرها بعيدًا لدى رؤيتها جانس يميل مقتربًا من المرأة وتابعت:

- ظننت أنّني رأيت شخصًا أعرفه.

في تلك الليلة، أرغمت آنّا نفسها على البقاء مستيقظة إلى حين عودة جانس إلى المنزل، بعد منتصف الليل بساعات. فقد تعوّد، في الليالي التي يعود فيها متأخّرًا، خلع ملابسه في المرحاض والتسلّل إلى الفراش في الظلمة حتى لا يزعجها. إلا أنه كان يفعل، في كلّ ليلة.

- لمَ بقيت مستيقظة حتى هذه الساعة؟

بدا متفاجئًا جدًّا لدى رؤيته القنديل مشتعلًا عندما دخل الغرفة.

- أردت البقاء مستيقظة في انتظار عودتك. فلم يعد واحدنا يرى الآخر كثيرًا في الآونة الأخيرة.

أجاب جانس متنهّدًا:

- معك حق. وارتمى في السرير بجانبها وفاحت منه رائحة الكحول.

- من المؤسف القول إن حياة طالب الموسيقى في معهد لايبزيغ الموسيقيّ الشهير شاقّة. فأنا بالكاد أجد الوقت الكافي خلال النهار لأتناول طعامي!

- حتى وجبة الغداء؟

خرجت تلك الكلمات من فمها قبل أن تتمكّن من كبحها.

التفت جانس نحوها قائلًا:

- ما الذي تقصدينه بذلك؟

- شاهدتك اليوم تتناول الغداء في المدينة.

- حقًّا؟ ولمَ لمْ تأتي وتلقي عليّ التحية؟

- لأنّ ملابسي لم تكن مناسبة. كما كنتَ منسجمًا في الحديث مع تلك السيدة.

- نعم، إنها البارونة فون غوتفريد، من أبرز المتبرّعين للمعهد الموسيقيّ وطلابه. حضرت في الأسبوع الفائت حفلًا موسيقيًّا حيث أتيحت الفرصة لأربعة من المؤلفين الشبان بعزف مقطوعة قصيرة. إنها المعزوفة التي كنت أؤلّفها، أتذكرين؟

كلا، لم تكنْ تذكر شيئًا، ولكن جانس لم يعدْ موجودًا معها ليخبرها بكلّ ما يفعله.

- فهمت.

بلعت ريقها بصعوبة، ونيران السخط تفور في داخلها، وهي تتساءل عن السبب الذي منعه من دعوتها لحضور العرض الأوّل للمقطوعة الأولى التي ألّفها.

- دعتني البارونة إلى الغداء لمناقشة الخطط الممكنة لإيصال مؤلّفاتي الموسيقيّة إلى نطاق أوسع. لديها معارف كُثُر في المدن الأوروبية الكبرى كباريس، وفلورنس وكوبنهاغن....

وارتسمت على ثغره ابتسامة حالمة وهو يضع يديه خلف رأسه مضيفًا:

- هل بإمكانك أن تتخيّلي ذلك يا آنّا؟ مقطوعاتي الموسيقيّة تُعزف في أبرز القاعات الموسيقيّة في العالم؟ أظنّ أنّ ذلك سيشكّل مفاجأة للسيد هانوم، صح؟

- نعم، لا ريب في أن ذلك سيوفّر لك فرصة عظيمة.

سألها جانس وقد لاحظ نبرة صوتها الباردة:

- ما الأمر يا آنّا؟ هيا، هاتي ما عندك. تريدين أن تقولي لي شيئًا.

- نعم، هذا صحيح.

لم تعدّ آنّا قادرة على كبح لجام غضبها لحظة واحدة.

- من أسبوع لآخر، لم أعد أراك إلا لِمامًا، وها أنت تقول لي الآن إنك تقدّم عروضًا موسيقيّة لم تتكبّد عناء دعوة خطيبتك، أو زوجتك أمام الناس، لحضورها. وتعود إلى المنزل بعد منتصف الليل في أغلب الليالي، أو لا تعود إطلاقًا! بينما أبقى أنا هنا قابعة في انتظارك كالكلب الوفيّ، من دون أصدقاء، وليس لديّ ما أفعله سوى الأعمال المنزليّة من دون أي أمل في أن أتمكّن يومًا ما من استعادة حياتي المهنيّة كمغنية! وما زاد الطين بلّة هو أنني رأيتك في أحد أفخم المطاعم تتناول الغداء مع امرأة أخرى! حسنًا، هذا ما أردت قوله!

بعد أن فجّرت آنّا كلّ غضبها، نهض جانس من السرير قائلًا:

- حسنًا يا آنّا، سأقول لك ما عندي: هل تستطيعين أن تتصوّري ما أشعر به عندما أستلقي في كلّ ليلة قرب المرأة التي أحبّها، على مسافة قريبة جدًّا من

جسدها المثير من دون أن يُسمح لي بمداعبته أو تقبيله؟ وما تسمحين لي بالقيام به يزيد من إحباطي أكثر! وها أنا استلقي هنا في كل مساء أحلم بممارسة الحب معك، إلى حد يمنعني من معرفة طعم الراحة. ووجدت أنّ من الأفضل لي ولصحّتي النفسية ألّا أرقد بجانبك، وكلّ حواسي تتوق إليك، ولذلك كنت أعود في كلّ ليلة في ساعة متأخّرة، ثملًا، غارقًا في غياهب النسيان. أجل!

وطوى ذراعيه بتحدٍّ وأضاف:

- هذه الحياة التي نعيشها معًا هي عبارة عن مزيج غير متجانس. فأنتِ زوجتي، ولكنكِ لست زوجتي. وأصبحتِ دائمة التجهّم وتحبّين الانعزال وكأنك لا تبغين شيئًا سوى العودة إلى ديارك. أرجو منك أن تتذكّري يا آنّا بأنّك اتّخذت قرارك بنفسك. لمَ لا ترحلين يا آنّا؟ فمن الواضح للجميع أنّك لست سعيدة، وأنّني السبب في تعاستك!

- عليكَ الاعتراف بأنكَ تتصرّف بأنانية يا جانس! تعلم جيدًا أنّ أمنيتي الوحيدة هي أن نتزوّج ونبني معًا حياة لائقة كزوجين. ولكن في كلّ مرة أطلب منك فيها مرافقتي لمقابلة الكاهن، تدّعي بأنّك مرهق ومشغول جدًّا! كيف تجرؤ على أن تلومني على ما آلت إليها علاقتنا في حين أنّك السبب في ذلك؟

- هذا صحيح. معك حق في هذا الشأن.

ولانت تعابير جانس وهو يضيف:

- ولكنْ ما الذي يمنعني، بحسب رأيك، من الذهاب لمقابلة الكاهن؟

- لأنّك لا ترغب في الزواج بي؟

ردّ جانس ساخطًا:

- تعلمين يا آنّا أنني لا أرغب سوى في أن اصبح زوجك بالفعل. ولكنْ لا أظنّك تدركين حجم النفقات المترتّبة عن الحفل، من ثوب الزفاف، والمدعوّين، ومأدبة الزفاف... هذا ما تستحقّه كلّ عروس، وما أرغب في توفيره لك. ولكنّنا لا نملك النقود الكافية للقيام بذلك. وبالكاد نعيش عيشة الكفاف.

وأفرغت آنّا كل نيران الغضب الكامنة في قرارة نفسها وقد أدركت الآن سبب تريّثه.

- آه...ولكنني لا أحتاج إلى ذلك كلّه يا جانس. أريد الزواج بك فحسب.

- إذا كنتِ واثقة ممّا تقولينه، نستطيع الزواج في الحال. من المؤسف أنّ حفل الزفاف لن يكون مشابهًا لما حلمت به في صغرك.

بلعت آنّا ريقها بصعوبة وقد أدركت بأن لا أحد من أفراد أسرتها سيكون بجانبها في ذلك النهار.. لا أمها، ولا أبوها ولا كنوت وسيغريد. كما أن الكاهن إرسليف لن يترأس حفل الزفاف ولن تتمكّن من وضع تاج الزفاف الخاص برعية البلدة.

- أعلم ذلك. ولكنّه لا يهمني.

جلس جانس من جديد على السرير وقبّلها بحنان قائلًا:

- سنلتقي الكاهن ونحدّد موعدًا.

32

كانت مراسم الزواج في كنيسة القديسة توماس موجزة وبسيطة وخاصّة؛ ارتدت آنّا ثوبًا أبيض بسيطًا اشترته لهذه المناسبة من المال الذي أعطتها إياه الآنسة أولسداتر، ووضعت ورداً أبيض في شعرها. ابتسم القس ماير بينما كان ينطق بالعهود التي ستربطهما معًا حتى آخر العمر.

«نعم، أقبل»، هذا ما قاله كل واحد منهما بدوره، ودسّ جانس خاتم جدّته الذهبي البسيط في إصبعها بلمسة دافئة وواثقة. أغمضت آنّا عينيها عندما قبّلها بعفّة على شفتيها وشعرت بغفران الرب في قلبها، فارتاحت.

انتقل حفل الزفاف الصغير إلى حانة حيث عزف أصدقاء جانس من الموسيقيين معزوفة مرتجلة مع دخول العريسين الجديدين، بينما رفع الروّاد الآخرون أكواب البيرة على سبيل التهنئة. شعرت آنّا بلمسة زوجها المطمئنة على ركبتها وهم يتناولون وجبة بسيطة من الحساء الألماني المعدّ للزفاف. واستطاعت، بفضل السيد هوغارد، أن تشارك في نكات أصدقاء جانس وأنخابهم ولم تعد تشعر بأنها غريبة في عالم غريب.

ومع صعودهما السلالم إلى غرفتهما في وقت لاحق من تلك الليلة، استراحت أصابع جانس على أسفل عمودها الفقري، ما أرسل رعشات من التوقّع عبر جسدها كلّه.

همس، وقد بدت عيناه داكنتين من شدّة الرغبة وهو يغلق الباب خلفه:

- انظري إلى نفسك. كم أنت صغيرة وبريئة ومثاليّة...

ومدّ يده وشدّها إلى حضنه، بينما راحت يداه تجولان بجرأة على جسدها. وهمس في أذنها وهو يرفع وجهها إليه ليقبّلها:

- أريد زوجتي. لا عجب في أني بحثت عن المواساة والراحة في مكان آخر!

عند هذه الكلمات، ابتعدت عنه وسألته:

- ما الذي تعنيه؟

- لا شيء، لا شيء، فعلًا... أعني فقط أنّني أرغب فيك.

وقبل أن تتمكّن من أن تجيب، راح يقبّلها، وأخذت يداه تداعبان ظهرها، وردفيها وثدييها... وفجأة، ورغمًا عنها، شعرت بأنّه من الرائع والطبيعي أن تسقط أخيرًا ملابسها وكل الحواجز الأخرى التي فصلت بينهما وأبعدت كلًّا منهما عن الآخر بحيث يستطيعان أن يصبحا شخصًا واحدًا. حملها جانس إلى السرير ونزع ملابسه وانتقل ليستلقي فوقها. واستكشفت يدا آنّا بتردد عضلات ظهره القاسية. وعندما ولجها، كانت مستعدّة له، ومدركةً أنّ جسدها كان يتدرّب بشكل لا واعٍ على هذه اللحظة منذ أن وقعت عيناها عليه للمرّة الأولى.

كانت العمليّة غريبة بالنسبة إليها، لكن عندما تنهّد وارتمى على الوسادة قربها واضعًا رأسها على كتفه، تلاشت كل قصص الرعب التي سمعتها عن هذه اللحظة وأصبحت طيّ النسيان. والآن، أصبح فعلًا لها وهي أصبحت له.



خلال الأسابيع القليلة التالية، تعوّد جانس العودة في الوقت المناسب ليتناول العشاء معها، بينما يسعيان لإنهاء الطعام على عجل والصعود إلى غرفتهما في أعلى. بدا جليًّا لآنا أنّ زوجها خبير في فن ممارسة الحب. وبعد أن أصبح أقل تردّدًا معها، وبعد أن سمحت هي لنفسها بأن تسترخي، تحوّلت كل ليلة إلى مغامرة رائعة. اختفت وحدة الأشهر القليلة الماضية بعد أن أدركت آنّا تمامًا الفرق بين الصديقين والعشيقين. وبدا وكأنّ دورَيْهما السابقَيْن قد تبدّلا إذ تاقت باستمرار للإحساس بلمسته على جسدها.

قال في إحدى الليالي بعد أن استلقى لاهثًا إلى جانبها:

- باللّه عليك أيتها الزوجة. بدأت أتمنّى لو أنّني لم أعرّفك أبدًا إلى هذه اللعبة. أنت لا تشبعين بالتأكيد!

وكان هذا صحيحًا. فهذه اللحظات كانت الجزء الوحيد منه الذي تملكه بالكامل. عندما ترك حضنها في الصباح وارتدى ملابسه ليغادر إلى معهد الموسيقا، رأت تعابيره تتغيّر وشعرت بأفكاره تسرح بعيدًا عنها. تعوّدت مرافقته إلى المعهد حيث يعانقها ويقول لها إنه يحبها، قبل أن يختفي خلف أبواب العالم الآخر الذي يستهلك قواه.

«عدوّي»، هذا ما كان يخطر لآنا في بعض الأحيان حين تبتعد وتعود أدراجها إلى المنزل.

لاحظ السيد هوغارد الحيوية الجديدة في خطوتها وابتسامتها الجاهزة وهي تحييه عند حضورها لتأخذ دروسها في الصباح.

قال لها:

- تبدين أكثر سعادة الآن يا سيدة هالڤورسن، ويسرّني هذا.

وكانت إيجابيتها الجديدة حافزًا لها، فسرعان ما تحسّنت لغتها الألمانية. أضحت الآن تتكلّم بثقة هنّأها عليها السيد هوغارد. وأصبحت كل كلمة جديدة تحفظها موجةً تفضي بها إلى موجة من كلمات أخرى.

قرّرت ألّا تبقى مكتوفة اليدين تنتظر أن يجد لها جانس فرصةً للغناء، فكتبت رسالة إلى السيد غريغ تعلمه فيها أنها انتقلت إلى لايبزيغ وتطلب منه فيها أن يساعدها في الحصول على فرصة للغناء أمام أيّ شخص يعرفه في المدينة. وكان جانس قد سأل في المعهد عن عنوان ناشر أعمال السيد غريغ الفنيّة في لايبزيغ، سي. أف. بيترز. وبعد أن وجدت العنوان: الرقم 10 - شارع تالسريد، سلّمت الرسالة شخصيًّا لشاب يعمل في المتجر الواقع في الطابق الأرضي ويبيع أوراق الموسيقى. وفي كل ليلة تلت، كانت تصلّي لكي يتلقّى السيد غريغ رسالتها ويردّ عليها.



في أحد أيام شهر حزيران، وبعد أن تمكّنت من أن تجري محادثة لمدة خمس عشرة دقيقة باللغة الألمانيّة من دون أن ترتكب أيّ خطأ، انحنى السيد هوغارد انحناءة صغيرة لها على سبيل التقدير.

- سيّدة هالڤورسن، كان هذا رائعًا. أحييك.

ضحكت آنّا وردّت:

- شكرًا.

- وعليّ أن أخبرك أنّني سأغادر قريبًا إلى بادن-بادن لأستفيد من مياهها المعدنيّة وينابيعها، كما أفعل دومًا في أشهر الصيف. أصبح الجو حارًا جدًّا بالنسبة إليّ في المدينة، وبدأت أشعر مؤخّرًا بالتعب الشديد. هل ستغادران أنت والسيد هالڤورسن إلى النروج عند انتهاء فصله؟

- لم يقل لي إن كنّا سنفعل.

- سأغادر غدًا صباحًا، وسأراك مجددًا في الخريف إذا حالفني الحظ.

- نعم، آمل ذلك.

نهضت آنّا حين نهض، وتمنّت لو تستطيع أن تظهر له عاطفتها وامتنانها بطريقة أقل رسمية مما تتطلّبه قواعد التهذيب وأردفت قائلةً:

- أنا مدينة لك فعلًا يا سيدي.

قال وهو يستأذن للإنصراف:

- سيدة هالڤورسن، أؤكّد لك أنّه كان من دواعي سروري.

ومع مغادرة السيد هوغارد إلى بادن-بادن، لاحظت آنّا أيضًا تغيّراً في جانس. فلم يعد يرجع إلى المنزل كالمعتاد لتناول العشاء، وعندما يحضر، يبقى عصبيًّا ومتوتّرًا كقطّة على صفيح ساخن. وشعرت بمسافة جديدة تفصلهما عندما يمارسان الحب.

سألته ذات ليلة:

- ما الأمر؟ أعلم أنّ هناك خطبًا ما.

ردّ بحدّة وهو يبتعد عن حضنها ويستلقي بعيدًا:

- لا شيء. أنا متعب وحسب. هذا كل ما في الأمر.

- جانس، حبيبي، أنا أعرفك. أرجوك، أخبرني ما الأمر.

لم يتحرّك لبعض الوقت ثم استدار مجدّدًا ليواجهها وقال:

- حسنًا، أنا أواجه معضلة ولا أعرف ما العمل.

- إذًا، أخبرني ما الأمر بالله عليك. لعلّني أستطيع أن أساعدك.

- المشكلة هي أنك لن تحبّي أبدًا ما سأقول.

- فهمت. إذًا، من الأفضل أن تخبرني.

- حسنًا، هل تتذكّرين المرأة التي رأيتني أتناول الغداء معها؟

أجابت آنّا بنفور عند ذكرها:

- البارونة؟ وكيف لي أن أنساها؟

- طلبت منّي أن أرافقها لقضاء الصيف في باريس حيث تملك، هي وزوجها، قصرًا قرب قصر فرساي. إنها تقيم أمسيات موسيقيّة للنخبة في عالم الفنون، وترغب في أن تطلق مؤلّفاتي الموسيقيّة الجديدة هناك. إنها بالتأكيد أروع فرصة لكي يُسمع عملي. البارونة فون غوتفرايد تعرف الجميع، وكما قلت لك هي راعية عظيمة للمؤلّفين الشبّان. أخبرتني أنّ السيد غريغ عزف في إحدى أمسياتها.

- حسنًا إذًا، يجب أن نذهب بالتأكيد. لا أفهم لمَ تعتبر هذه المسألة معضلة.

كلامها هذا جعل جانس يتأوّه قبل أن يقول:

- آنّا، لهذا السبب لم أخبرك. المشكلة هي أنّني لا أستطيع أن أصطحبك معي؟

- آه. وهل يمكن أن أسأل عن السبب؟

- لأن...

وتنهّد جانس ثم أردف:

- البارونة غوتفرايد لا تعلم بوجودك. لم أذكر لها أنّني متزوّج. في الحقيقة، ظننت أنّ هذا قد يؤثّر سلبًا في أفضالها عليّ. عندما التقيتها، كانت الأمور بيني وبينك صعبة، وكنّا نعيش كأخٍ وأخته أو كصديقين. ولهذا ليس لديها أدنى فكرة عن وجودك.

- إذًا، لمَ لا تخبرها الآن أني موجودة؟

كان صوت آنّا خفيضًا وباردًا بينما هي تستوعب المعنى الكامن خلف ما يقوله زوجها.

- لأنني... خائف. نعم يا آنّا، جانس الذي تعرفينه خائف من ألّا ترغب البارونة في أن أرافقها إلى باريس إذا ما علمت بالأمر.

- تريد أن تعتقد البارونة بأنّك غير مرتبط حتى تساعدك في حياتك المهنيّة؟

- نعم يا آنّا. يا إلهي، كم أنا نذل...

- نعم، أنت كذلك.

راقبت آنّا جانس ببرودة وهو يسحب الوسادة ويضعها على رأسه ليدفن نفسه تحتها كطفل مشاغب عاقبته أمه.

- سامحيني يا آنّا، فأنا أكره نفسي فعلًا. لكنّني على الأقل صارحتك بالحقيقة كلها.

- ما هي المدة التي تريدك أن ترافقها فيها؟

أجاب جانس وهو يخرج رأسه من تحت الوسادة:

- لقضاء الصيف فحسب. عليك أن تفهمي أنني أفعل هذا كله من أجلنا، لأطلق مسيرتي المهنيّة وأكسب المال بحيث نستطيع أن ننتقل من هذه الغرفة ونمتلك منزلنا الخاص ذات يوم، تمامًا كما تستحقّين.

قالت في سرّها بقسوة: «وبحيث تستطيع أن تتذوّق طعم الشهرة التي تعتقد أنّك تستحقها». ثم قالت بصوتٍ عالٍ:

- إذًا، عليك أن تذهب.

- حقًّا؟

نظر إليها جانس مشكّكًا وتابع يسألها:

- لمَ، بحق السماء، ستسمحين لي بالذهاب؟

- لأنّك، وبكل بساطة، وضعتني في موقف لا يُحتمل. إذا منعتك، فستبقى هنا عابسًا طيلة فصل الصيف وتلومني على سوء حظك. وعلى الرغم من اقتناع الآخرين بعكس ذلك...

وأخذت آنّا نفسًا عميقًا قبل أن تتابع كلامها:

- أنا أثق بك.

- أتثقين بي حقًّا؟

بدا مذهولًا وقال:

- إذًا لا بدّ من أن تكوني إلهة بين النساء!

ردّت بحدة:

- جانس، أنت زوجي. ما الفائدة من هذا الزواج إن كنت لا أستطيع أن أثق بك؟

- شكرًا لكِ. شكرًا لكِ يا زوجتي العزيزة.



بعد بضعة أيام، غادر جانس تاركًا آنّا مع مبلغ من المال يجعلها مرتاحةً خلال الأسابيع القليلة التالية إلى حين عودته. كان امتنانه العظيم لكرمها كافيًا لكي يقنعها بأنّها اتّخذت القرار الصائب. وكل ليلة قبل أن يرحل، كانت تستلقي في السرير إلى جانبه وتراه يتأمّلها في عجب.

كان يقول ويعيد مرارًا وتكرارًا:

- أنا أحبّك يا آنّا، أنا أحبّك...

وفي صبيحة يوم مغادرته، أخذها بين ذراعيه، وشدّها إليه، وكأنّه لا يقوى على تركها.

- هل تعدينني بأن تنتظريني يا زوجتي العزيزة، مهما يحصل؟

- بالطبع يا جانس. أنت زوجي.



تمكّنت آنّا من أن تتحمّل صيف لايبزيغ الخانق بفضل عزمها وإصرارها. كانت تستلقي

عاريةً على السرير في الليل، وهي تتصبّب عرقًا، وكانت تترك النوافذ مفتوحة لتدخل منها أيّ نسمة هواء قد تصل إلى الشارع الضيّق بين البيوت.

أنهت قراءة «فاوست» لغوتيه واجتهدت لتقرأ أيّ كتاب آخر بإمكانها أن تستعيره من مكتبة المدينة لتحسّن لغتها الألمانية ومفرداتها. كما اشترت قماشًا من السوق، وحملت عدّة الخياطة إلى الحديقة العامة، حيث كانت تجلس تحت شجرة وارفة، وتعمل بجدّ على خياطة ثوب لها من القماش الثقيل، فضلاً عن وشاح للشتاء القادم. وعندما أخذت مقاساتها من أجل خياطة الثوب، شعرت بالقلق لأنها لم تبلغ العشرين من عمرها بعد، لكن محيط خصرها بدأ يكبر كما يبدو أنّه يحصل للنساء بعد الزواج. راحت تتردّد إلى كنيسة القديس توماس من يومٍ إلى آخر، لغاية روحانية وجسديّة أيضًا، فداخل الكنيسة البارد هو المكان الوحيد الّذي تستطيع أن تلجأ إليه هربًا من الحرّ.

تعوّدت أن تراسل جانس بانتظام على العنوان الذي زوّدها به قبل أن يسافر إلى باريس، لكنها لم تتلقَّ سوى رسالتين قصيرتَيْن وموجزتَيْن تشيران إلى أنه بخير وأنه منشغل بلقاء كثير من معارف البارونة فون غوتفرايد المهمّين. وقال إنّ مؤلّفاته لاقت نجاحًا في الحفل الموسيقيّ، وأنّه يعمل على شيء جديد في وقت فراغه.

«القصر يلهمني أفضل أعمالي! كيف يمكن للمرء ألّا يكون مبدعًا في مثل هذا المكان الجميل؟».

* * *

ومع استمرار الصيف إلى ما لانهاية، رفضت آنّا أن تستسلم للأفكار السود التي بدأت تتسلّل إلى عقلها، عن راعية جانس الثريّة وصاحبة النفوذ. قالت لنفسها بحزم إنه سيعود إليها قريبًا وسيتابعان حياتهما الزوجيّة معًا.

لم يحدّد لها جانس موعدًا لعودته، لكن السيدة شنايدر، مالكة المنزل، سألتها ذات صباح من شهر أيلول بينما هي تتناول فطورها، إن كان زوجها سيعود إلى لايبزيغ اليوم، مع بداية الفصل الجديد في المعهد الموسيقي غدًا.

ردّت آنّا بنبرة عادية، وقد صمّمت على ألّا تبدي دهشتها:

- أنا واثقة من أنّه سيعود، نعم.

صعدت إلى غرفتها في الأعلى على الفور، لتسرّح شعرها وتبدّل ملابسها وترتدي ثوبها الجديد. حدّقت إلى نفسها في المرآة الصغيرة التي وضعتها على المنضدة وقد أعجبها مظهرها. ممّا لا شكّ فيه أنّ خدّيها امتلآ منذ أن غادر جانس وأملت أن يعجبه ذلك. فهو، كما أفراد عائلتها، لطالما ضايقها بقوله إنها نحيلة جدًّا.

لم تغادر آنّا الغرفة الخانقة لما تبقى من النهار، وقد تملّكتها الحماسة والإثارة لفكرة أنّ زوجها سيعود.

لكن ومع حلول الغسق، هبطت معنوياتها. خطر لها أنّ جانس لا يمكن أن يفوّت اليوم الأول من الفصل الجديد في معهده الموسيقيّ الحبيب؟ ومع حلول منتصف الليل، ومع وصول صوت قرع الأجراس إلى أذنيها من بعيد معلنةً بدء يوم جديد، خلعت آنّا ثوبها واستلقت في السرير في ملابسها القطنيّة الداخليّة. علمت أن لا قطارات أخرى ستصل إلى محطة لايبزيغ الليلة.

وبعد مرور ثلاثة أيام، بدأت آنّا تشعر بالقلق. سارت إلى المعهد وانتظرت خروج الطلاب وهم يدخّنون ويتبادلون أطراف الحديث. وعندما رأت فردريك، ذاك الشاب الذي أمضيا معه ليلة عيد الميلاد الماضي، توجّهت إليه بخجل.

قالت آنّا التي لم تكن تعرف شهرته:

- أعذرني على الإزعاج يا سيد فردريك، لكن هل رأيت جانس في المدرسة هذا الأسبوع؟

حدّق فردريك إليها وقد احتاج لبضع ثوانٍ ليدرك من هي. بعدئذ، التفت نحو أصدقائه وكأنّ شيئاً ما يجري بينهم وأجاب:

- لا يا سيدة هالڤورسن، لم أرَه.

والتفت نحو المجموعة من حوله سائلًا:

- هل رآه أحدكم؟

هزّوا رؤوسهم بينما أشاحوا بأنظارهم بارتباك وإحراج.

أخشى أن يكون قد أصابه أيّ سوء في باريس، لأنني لم أتلقّ منه أيّ خبر منذ أكثر من شهر، وكان يُفترض به أن يعود مع بداية الفصل.

راحت آنّا تلهو بخاتم الزواج في إصبعها بعصبيّة قبل أن تتابع كلامها:

- هل من شخص آخر هنا في المعهد يمكن أن يعرف مكانه؟

- أستطيع أن أسأل أستاذه إذا ما كان يعرف أيّ شيء عنه. لكن عليّ أن أكون صادقًا معك يا سيدة هالڤورسن؛ فقد شعرت بأن خطّته هي الاستقرار في باريس. أخبرني بأنه لا يملك ما يكفي من المال إلا لتسديد أقساط سنة واحدة. علماً أنّ المدرسة بالطبع كان يمكن أن تقدّم له منحة ليبقى. فهل فعلتِ؟

- أنا...

شعرت آنّا بالعالم يدور من حولها وترنّحت قليلًا. أمسك فردريك بذراعها وثبّتها قائلًا:

- سيدة هالڤورسن، يبدو جليًّا أنك لست بخير.

ردّت وهي تبتعد عن قبضته، رافعةً ذقنها بكبرياء:

- لا، لا، أنا بألف خير. شكرًا يا سيد فردريك.

وأومأت برأسها شاكرة وابتعدت رافعة رأسها بقدر ما استطاعت.

همهمت وهي تكافح لتصل إلى المنزل عبر الشوارع المزدحمة بينما هي لا تزال تشعر بالدوار وتعجز عن التقاط أنفاسها: «آه يا إلهي العزيز، يا إلهي».

انهارت آنّا على السرير ومدّت يدها إلى كوب الماء الموضوع إلى جانبه، وشربته لعلّها تخفّف من إعيائها وعطشها.

لا يمكن لهذا أن يكون صحيحًا. لا يمكن أن يكون صحيحًا. إنْ كان ينوي البقاء في باريس فلمَ لمْ يرسل في طلبي لألحق به؟

لم يكن بمقدور حيطان الغرفة العارية أن تعطيها الإجابة التي تبحث عنها. وراحت تقنع نفسها: «لا يمكن أن يتخلّى عني، لا، لن يفعل. إنه يحبني وأنا زوجته...».

وبعد ليلة جفاها فيها النوم، ظنّت خلالها آنّا أنها قد تفقد صوابها بسبب الأفكار التي راودتها، جرجرت أذيالها إلى الأسفل لتناول الفطور فوجدت السيدة شنايدر تقف في البهو وتقرأ رسالة.

«صباح الخير سيدة هالڤورسن. تلقّيت للتوّ أخبارًا حزينةً جدًّا. يبدو أنّ صديقك السيد هوغارد، توفّي من جرّاء أزمة قلبيّة قبل أسبوعين. تريد أسرته منّي أن أحزم أمتعته وسترسل عربة لأخذها».

ارتفعت يد آنّا إلى فمها وقالت: «آه، لا، أرجوك، لا».

وعند هذه النقطة، استحال كل ما حولها سوادًا.



استيقظت لتجد نفسها في غرفة جلوس السيدة شنايدر الخاصة، مستلقية على الأريكة وعلى رأسها قطعة قماش باردة.

قالت السيّدة العجوز بصوت ناعم:

- اهدئي، اهدئي. أعلم أنّك كنت مولعة به كحالي أنا. لا بد من أنّ الخبر جاء مزعجًا جدًّا لك لاسيما وأنّ زوجك لا يزال غائبًا، وأنتِ في هذا الوضع.

تبعت آنّا نظر المرأة إلى بطنها وسألت:

- أنا... ما الذي تعنيه بـ «هذا الوضع»؟

- أعني حملك بالطبع. هل تعلمين متى يُفترض أن تلدي؟ أنت نحيلة جدًّا يا سيدة هالڤورسن وعليك أن تعتني بنفسك جيدًا.

شعرت آنّا بالعالم يدور من حولها من جديد وخطر لها أنها قد تتقيّأ على أريكة السيدة شنايدر المنجّدة بالمخمل الأحمر.

اقترحت السيدة شنايدر وهي تتقدّم نحوها وتقدّم لها كأسًا:

- لمَ لا تحاولي أن تشربي قليلًا من الماء؟

وهذا ما فعلته آنّا بينما استمرّت المرأة بالحديث.

- كنت سأتحدّث إليك عن المستقبل عند عودة زوجك. إحدى القواعد المتّبعة هنا هي عدم وجود أطفال، فبكاؤهم يزعج النزلاء الآخرين.

لو ظنّت آنّا أنّ الأمور لا يمكن أن تسوء أكثر، فيبدو أنها فعلت للتو.

وتابعت المرأة كلامها قائلةً بشهامة:

- لكن، وإلى حين عودته، أشعر أنه ليس من العدل أن أتركك في الشارع. وبالتالي، يسرّني أن تبقي هنا إلى حين الولادة.

همست آنّا، وهي تدرك أنّ لتعاطف المرأة القصير معها نهاية، وأنها تتمنى لو تتخلّص منها مع حلول الصباح:

- شكرًا.

ووقفت ثم أردفت:

- أنا بخير الآن. أشكرك على لطفك وأعتذر على الازعاج الذي تسبّبت به لك.

وأومأت برأسها للمرأة بأدب قبل أن تخرج لتعود إلى غرفتها.

استلقت من دون حراك على سريرها لما تبقّى من اليوم. إذا بقيت جامدة في مكانها وأبقت عينيْها مغمّضتين، فقد تختفي الأمور الفظيعة التي حصلت، وكل ما يحصل الآن. أمّا لو حرّكت عضلة واحدة فهذا يعني أنها لا تزال على قيد الحياة وتتنفس، وأنّ عليها أن تواجه الحقيقة والواقع.

راحت تدعو: «آه يا إلهي، أرجوك ساعدني».

وفي وقت لاحق، وبعد أن أُجبرت على النهوض لتتوجّه إلى الحمام، خلعت آنّا ثوبها ووقفت في ملابسها القطنيّة الداخليّة. رفعت قميصها الداخلي وأجبرت عينيْها على النظر إلى الأسفل وأقرّت بانتفاخ بطنها قليلًا. لمَ بحقّ الله لم تربط بين ازدياد وزنها والحمل؟

ناحت قائلةً: «أيّتها الغبيّة السخيفة! كيف لك ألّا تعرفي؟ أنت قرويّة ساذجة وغبيّة من الريف، تمامًا كما قال لك السيّد باير!».

وتوجّهت إلى أحد الأدراج لتأخذ قلم حبر وورقة، ثم جلست على السرير وبدأت تكتب رسالة لزوجها في باريس.



قالت السيدة شنايدر وهي تسلّم آنّا رسالة:

- ثمة رسالة لك هذا الصباح.

التفتت إليها الطفلة- هذا ما تعوّدت مالكة المنزل أن تصف به نزيلتها الصغيرة- بعينين غائرتَيْن، محاطتَيْن بهالات سود، ورأت السيدة شنايدر للمرّة الأولى بصيص أمل يلمع فيهما، فأضافت:

- ثمة طابع فرنسي عليها. أنا واثقة من أنها مرسلة من زوجِك.

- شكرًا.

أومأت السيدة شنايدر برأسها وانسحبت من غرفة الطعام لتمنح الطفلة بعض الخصوصيّة لتقرأ الرسالة. في الأسبوعين الماضيين، كان شبح آنّا من يخرج من غرفتها لينظر من دون اهتمام إلى ما تضعه السيدة شنايدر أمامها من طعام وترفعه مجدّدًا من دون أن تلمسه. تنهّدت السيدة شنايدر وهي تتوجّه إلى المطبخ لتغسل أطباق الفطور في البرميل الخشبيّ. لقد رأت هذا كلّه من قبل. وعلى الرغم من أنها شعرت ببعض التعاطف مع آنّا إلا أنها أملت أن تحلّ هذه الرسالة المشكلة. تعلّمت منذ زمن بعيد أنّ حياة نزلائها، مهما تكن يائسة، ليست مسؤوليتها.

عندما وصلت آنّا إلى غرفتها، فتحت الرسالة بأصابع مرتجفة. كتبت إلى جانس منذ أسابيع لتخبره عن الطفل ولعل هذه هو ردّه.

باريس

13 أيلول 1877

عزيزتي آنّا،

سامحيني لأنني تأخرت في الكتابة إليك، لكنني أردت أن أستقرّ هنا قبل أن أكتب شيئًا. أنا أعيش في شقة في باريس، وأتابع دروسًا في التأليف الموسيقيّ

مع أوغسطس ثيرون، وهو أستاذ موسيقا معروف. إنه يساعدني على التحسّن كثيرًا.

كانت البارونة فون غوتفرايد كريمة جدًّا بتولّيها رعايتي والإحسان إليّ، وبتقديمي لكل من بإمكانه أن يساعدني. كما أنها نظّمت سهرة في تشرين الثاني لكي أعزف أعمالي للمجتمع المخمليّ في باريس.

كما أخبرتك من قبل، شعرت أنه من غير المناسب أن أخبرها عنّا، لكن الحقيقة هي أني لم أشأ أن أسبّب لك القلق يا آنّا عندما رحلت. في الواقع، لم يتبقَّ لديّ مال، ولولا كرم البارونة لكنّا الآن في الحضيض. تركت لك كل ما كان بحوزتي في لايبزيغ وأعلم أنك تملكين المال الذي أعطتك إياه الآنسة أولسداتر فأرجو الله ألا تعيشي أيّ معاناة.

أدرك يا آنّا أنه لا بدّ من أنك تعتبرين رحيلي وعدم عودتي خيانة عظيمة لحبّنا. لكنّني أرجو أن تصدّقي أنني أحبّك فعلًا. وما فعلته، إنما فعلته من أجلنا ومن أجل مستقبلنا. عندما تصبح موسيقاي معروفة وتلفت الأنظار، سأصبح قادرًا على أن أعيلك وأعيل نفسي بشكل مستقل وسأعود من أجلك يا حبي. أقسم على الكتاب المقدّس الذي تحبين أنني سأفعل. وأقسم على اتّحادنا.

أرجوك يا آنّا وأتوسّل إليك أن تنتظريني كما وعدت. حاولي أن تفهمي أنّ ما أفعله هو من أجلنا كلينا. قد يبدو هذا صعبًا وقاسيًا، لكن آمني بي وثقي بي وبأنّ هذه هي الطريقة الأفضل.

أشتاق إليك يا حبي، كثيرًا جدًّا.

أحبّك من كل قلبي.

المخلص

جانس

تركت آنّا الرسالة تقع على الأرض وأخذت رأسها بين يديها في محاولة منها لاستجماع الأفكار التي تتسارع في رأسها. لم يأتِ على ذكر الطفل! ألم يتلقَّ رسالتها؟ وكم من الوقت عليها أن تنتظره؟

هذا الرجل سيحطّم فؤادك ويدمّرك... تردّدت كلمات السيّد باير في رأسها، مقوّضة قرارها بأن تثق بزوجها.



استطاعت آنّا بطريقة ما أن تمرّر الشهر التالي. وراقبت القطع النقديّة التي أعطتها إياها الآنسة أولسداتر تقلّ وقرّرت أنّ عليها أن تبحث في المدينة عن عمل ما، ما دامت لا تملك فكرة متى سيعود جانس.

جالت على مدى أسبوع في شوارع لايبزيغ، تسأل إن كان بإمكانها أن تصبح نادلة أو أن تغسل الأطباق والقدور. لكن ما أن يرى صاحب العمل بطنها الذي بدأ بالانتفاخ حتى يهزّ رأسه ويرفض تشغيلها.

وفي أحد الأيام، سألت مالكة المنزل:

- سيدة شنايدر، هل تحتاجين إلى أيّ مساعدة في المطبخ أو في التنظيف يا تُرى؟ لقد رحل السيد هوغارد وأنا أنتظر عودة زوجي، وأشعر بالملل. ظننت أنّ بإمكاني أن أكون مفيدة.

ردّت مالكة المنزل وهي تتأمّلها بعناية:

- العمل ليس مثاليًّا هنا، لكن إن كنت واثقة فنعم. يمكن أن أحتاج بعض المساعدة.

بدأت العمل لدى السيّدة شنايدر في المطبخ، فراحت تعدّ الفطور، ما يعني أنّ عليها أن تستيقظ في الخامسة والنصف صباحًا. بعد غسل القدور والأطباق، كان عليها أن تصعد إلى غرف النزلاء وتغيّر ما يحتاج إلى تغيير من بياضات. أما فترات بعد الظهر فكانت خاصّة لها، على أن تعود إلى المطبخ عند الساعة الخامسة، فتقشّر البطاطا وتعدّ العشاء. خطر لآنا أنّ وضعها مثير للسخرية، نظرًا لافتقارها إلى الموهبة في الأعمال المنزليّة. كان العمل شاقًّا لا ينتهي، وكانت تجرجر بطنها بألم وهي تصعد السلالم وتنزلها، لكن الجهد المضني الذي تبذله يجعلها على الأقل تنام طيلة الليل.

سألت نفسها ذات ليلة بينما هي مستلقية على السرير: «ما الذي أصبحت عليه؟ حديث كريستيانيا تحوّلت إلى خادمة تعمل على غسل الأطباق في غضون بضعة أشهر».

بعدئذ، صلّت كما تعوّدت أن تفعل كل ليلة ليعود زوجها: «أيها الرب، أرجوك. فليكن ايماني وحبّي لزوجي صحيحين. ولا تجعل كل الذين شكّكوا فيه على حق».



ومع بدء هبوب رياح تشرين الثاني الباردة، شعرت آنّا في منتصف الليل، بألم مفاجئ في بطنها. وبعد أن تعثّرت لتضيء قنديل الزيت الموضوع إلى جانب سريرها، وقفت لعلّها تخفّف الألم الذي تشعر به فهالها أن ترى الدم يغطي الأغطية. وتحوّل الألم في بطنها إلى تشنّجات منتظمة وكبحت صراخ الألم المبرّح. عانت آنّا من المخاض وحدها ولساعات طويلة، خوفًا من أن تصرخ طلبًا للمساعدة فتزعج السيدة شنايدر وتثير استياءها. ومع حلول الفجر، نظرت لترى جنينًا صغيرًا يستلقي من دون حراك بين ساقيْها.

لاحظت قطعة من الجلد متصلة بسرّته، وقد بدت متصلة بها هي أيضًا، فلم تستطع أن تكبت رعبها أكثر، وصرخت من شدة الألم والخوف والتعب. وما هي إلا ثوانٍ حتى ظهرت السيدة شنايدر في الباب، فألقت نظرة واحدة على المجزرة التي وقعت على السرير، وخرجت على الفور من الغرفة لتُحضر القابلة.

استيقظت آنّا من نومها المحموم والمنهك على يدَيْن ناعمتَيْن تملّسان على شعرها، وتضعان قماشًا بارداً على جبينها.

همس الصوت بلطف:

- اهدئي، اهدئي يا حبيبتي، سأقطع حبل السرّة وأنظّفك.

وصل صوت السيدة شنايدر المألوف إلى وعي آنّا وهي تسأل:

- هل ستموت؟ علمت أنّه كان عليّ أن أطلب منها الرحيل لحظة رأيت أنها حامل بطفل. هذا ما يحصل عندما أسمح لقلبي الرقيق بأن يتحكّم في عقلي.

- لا، ستكون السيدة الشابة بخير، لكن الطفل ولد ميتًا للأسف.

- حسنًا، هذا مؤسف جدًّا.. عليّ أن أذهب.

وعند هذا، غادرت السيدة شنايدر الغرفة مع نظرة نفور.

بعد ساعة، كانت آنّا قد ترتّبت وجلست على بياضات نظيفة. لفّت القابلة الطفل في قطعة من القماش وسلّمته إلى آنّا لتودّعه.

- إنها فتاة صغيرة يا عزيزتي. حاولي ألّا تتضايقي. أنا واثقة من أنّك ستُرزقين بأطفال آخرين في المستقبل.

حدّقت آنّا إلى ملامح ابنتها وإلى البقع الزرق التي بدأت تظهر على بشرتها. قبّلت الطفلة بحنان على جبهتها الصغيرة، وقد أصابها ضعف منعها حتّى من أن تبكي، ثم سمحت للقابلة بأن تأخذها من بين ذراعيها.

33

قالت السيّدة شنايدر وهي تبعد طبق الفطور الذي لم يُمسّ عن حضن آنّا:

- يبدو لي أنّك استعدت قواك، ولهذا أرغب في التحدّث إليك.

على الرغم من مرور حوالى الأسبوع، كانت آنّا ما تزال طريحة الفراش من شدّة الوهن، ولكن السيدة شنايدر طفح كيلها.

أومأت آنّا برأسها بفتور، وهي تدرك كلّ الإدراك ما ستقوله المرأة. لم يكن يهمّها إذا ما رمتها في الشارع، لأنها لم تعدْ تأبَه لأي شيء بعد اليوم.

- لم تتلقّي أي رسالة من زوجك منذ أوائل فصل الخريف.

- كلا.

- هل أخبرك متى ينوي العودة؟

- كلّا، ولكنّه اكتفى بالقول إنه سيعود.

- أما تزالين تصدّقين كلامه؟

- وما الذي قد يدعوه للكذب عليّ؟

حدّقت السيدة شنايدر إلى آنّا وهي تتأفّف من شدّة سذاجتها.

- أتملكين ما يكفي من النقود لدفع إيجار الأسبوع الماضي؟

- أجل.

- ماذا عن الأسبوع المقبل؟ والأسبوع الذي يليه؟

- لم أتحقّق من علبة نقودي سيّدة شنايدر. سألقي نظرة عليها في الحال.

وبحثت آنّا تحت الملاءات عن علبة نقودها حتى عثرت عليها.

لم تكن السيّدة شنايدر بحاجة إلى من يقول لها إن علبة النقود ليس فيها سوى مبلغ زهيد. ولكنها وقفت تراقب الفتاة وهي تفتح العلبة، ورأت سحابة الهلع التي عبرت عينيها الزرقاوين. أخذت آنّا قطعتين من النقود وناولتهما لصاحبة النُزل، ومن ثمّ عادت وأقفلت العلبة.

- شكرًا لك. ماذا عن المبلغ الذي تقاضته القابلة؟ هل تستطيعين تسديده أيضًا؟ تركت لي الفاتورة قبل مغادرتها. ولا يمكن أن ننسى أيضًا تكاليف دفن طفلتك. ما تزال الطفلة ترقد في مستودع الجثث في المدينة. وعليك أن تؤمني نفقات مراسم الدفن وإيجار قطعة الأرض في فناء الكنيسة، إلا في حال كنت ترغبين في دفنها في مقبرة جماعيّة.

- كم تبلغ تكلفة ذلك؟.

- لا أستطيع أن أخبرك. فمن الواضح لكلتينا أن المبلغ يفوق ما في حوزتك بكثير.

وافقتها آنّا الرأي والكآبة بادية على وجهها.

- لستِ امرأة سيئة يا صغيرتي، ولكنّني لستُ قدّيسة أيضًا. أعترف بأنّني تعلّقت بك وأدركت أنك فتاة طيبة، تقيّة للرب، ولكنّ حياتك انتهت إلى الحضيض بسبب وقوعك في حب رجل. ولست عديمة الشفقة لأرميك في الشارع بعد كلّ ما قاسيته. ولكن علينا أن نواجه الأمر القائم بواقعية. فأنت تشغلين حاليًا أفضل غرفة في النزُل والمبلغ الذي تتقاضينه مقابل الأعمال المنزليّة لا يكفي لتسديد إيجار ليلتين من الإيجار الأسبوعيّ. هذا إضافة إلى ديونك الأخرى.

نظرت السيدة شنايدر إلى آنّا لعلّها تأتي بأي ردّ فعل، ولكنّ عينيها اللتين فقدتا بريقهما لم يرتعش أي جفن فيهما. فتابعت كلامها متنهدة:

- لهذا، أقترح عليك الاستمرار في مساعدتي في أعمال النزُل، والعمل بدوام كامل إلى حين عودة زوجك، هذا إذا افترضنا أنه سيعود. ستشغلين الغرفة المخصّصة للخادمة في حجرة غسل الأطباق في الجهة الخلفيّة من المنزل بدلًا من أن تتقاضي أجرًا. وستحصلين أيضًا على بقايا الطعام من وجبتي الفطور والعشاء، كما سأقرضك

مبلغًا من المال لتتمكّني من تسديد فاتورة القابلة ونفقات مراسم دفن طفلتك بحسب الطقوس المسيحيّة. ما رأيك بذلك؟

لم تتمكّن آنّا من التفوّه بكلمة. فالأفكار التي تدور في رأسها بعيدة المنال، ووجودها الجسديّ في ذلك المكان فُرض عليها رغمًا عنها لعدم توافر أي خيار آخر أمامها. فاكتفت بالإيماء برأسها بالموافقة بشكل تلقائيّ.

- حسنًا، اتّفقنا إذًا. بإمكانك أن تنقلي أشياءك إلى الغرفة الأخرى صباح الغد. فقد أعرب أحد الرجال النبلاء عن رغبته باستئجار هذه الغرفة لمدة شهر.

توجّهت السيدة شنايدر نحو الباب وأمسكت المقبض بيدها الضخمة، ثم التفتت نحوها مقطّبة الوجه.

- ألن تشكريني يا صغيرتي؟ كان يمكن أن أرميك بكل بساطة في المجاري.

أذعنت آنّا لطلبها وردّدت كالببّغاء قائلة:

- شكرًا سيّدة شنايدر.

تمتمت المرأة شيئًا وهي تفتح الباب وتغادر الغرفة، فأدركت آنّا بأنّها لم تظهر لها الامتنان الكافي. أغمضت عينيها هربًا من الواقع، إلى المكان الوحيد حيث يمكن لها أن تكون في أمان من دون أن يتمكّن أحد من الوصول إليها.

ومع تحوّل الهواء إلى قارس في بداية شهر كانون الأول، قصدت آنّا مقبرة جوهانس ووقفت وحيدة قرب ضريح ابنتها.

سولفيج آنّا هالفورسن.

فاللّه الذي لطالما آمنت به، والحب الذي ضحت بكلّ شيء في سبيله، وطفلتها الصغيرة... كلّ ذلك لم يعدْ له أيّ وجود.



خلال الأشهر الثلاثة التالية، صمدت آنّا لتبقى موجودة فحسب. فقد استغلت السيّدة شنايدر الترتيب الماليّ الذي فرضته على آنّا في مرحلة عجزها إلى أقصى حدّ، وتركت الفتاة البائسة تعمل من الفجر للغسق، بحيث كانت تتسكّع طوال

النهار في غرفة الجلوس الخاصة بها، مثقلة كاهلها بمزيد من الأعمال المنزليّة. ومع حلول المساء، كانت تستلقي على سريرها الحقير في الغرفة الضيقة العابقة برائحة الطعام الفاسد المنبعثة من حجرة غسل الأطباق، والماء الآسن من أنبوب التصريف الضيّق في الفناء الخارجيّ، وتستغرق في النوم من شدّة الإرهاق من دون أن تراودها أي أحلام.

فأحلامها كلّها ذهبت هباء.

وعندما استجمعت شجاعتها وسألت كم من الوقت يلزمها لتسدّد ديونها بالكامل، ولتبدأ بتقاضي الأجر الذي تستحقّه، ردّت السيّدة شنايدر بالصراخ غاضبة:

- فتاة جاحدة! أمّنت لك المأوى والمأكل وما زلت تريدين مزيدًا.

أكّدت آنّا لنفسها بأنّ من يريد مزيدًا هي السيدة شنايدر ، وليس هي. وإذ أدركت بأنها باتت مسؤولة بشكل كامل عن كل الأعمال في النُزل، كان لا بدّ من أن تبحث عن وظيفة أخرى تؤمّن لها أجرًا ولو بسيطًا. خلعت فستانها ووقفت تتأمّل وجهها المتسخ في المرآة، ووجدت في تلك اللحظة أوجه شبهٍ كثيرةً بينها وبين جرذ المجاري: فهي تتضوّر جوعًا، وترتدي ملابس رثة، وتفوح منها رائحة نتنة. ومن الصعب أن يرضى أيّ رب عمل بتوظيفها عند رؤيتها بهذا المظهر.

خطر لها أن تبعث رسالة للآنسة أولسداتر، أو أن تستنجد بأبويها طالبة منهما أن يرأفا بها. ولكن عندما سألت متجر الرهن عن المبلغ الذي يمكن أن تحصل عليه مقابل الآلة الكاتبة التي تركها لارس لها، استولى اليأس عليها حين عرفت أن المبلغ لا يكفي لتغطية كلفة إرسال رسالة بالبريد إلى النروج. ونبّهها ما تبقّى لديها من عزّة النفس إلى أنها السبب في الشقاء الذي أصابها، وما فعلته يجعلها غير جديرة بالعطف.

بعد حلول عيد الميلاد وانتهاء فترة الأعياد، أطفأت أيام كانون الثاني الشديدة البرودة كلّ شعلات الأمل والإيمان في قلب آنّا وحوّلتها رمادًا. وتحوّلت معها الصلوات، التي كانت تتلوها في السابق طلبًا للخلاص الروحيّ، دعاء تتمنّى فيه

الموت. وهمست لنفسها قائلة: «لا وجود لله، إنه مجرد كذبة... كل شيء مجرد كذبة». واسترسلت بعدها للنوم خائرة القوى.

في إحدى الأمسيات من شهر آذار، كانت آنّا في المطبخ تقطّع الخضار وتجهز وجبة العشاء للنزلاء، عندما دخلت السيدة شنايدر وقد بدا عليها الارتباك.

- ثمة رجل نبيل يسأل عنك يا آنّا.

التفتت آنّا نحوها وقد ارتسمت على وجهها تعابير الارتياح الصرف.

- كلا، ليس زوجك. أدخلت الرجل إلى صالة الاستقبال. لذا، عليك أن تخلعي مئزرك، وتغسلي وجهك وتدخلي لمقابلته على وجه السرعة.

تساءلت آنّا، وهي تشعر بشيء من خيبة الأمل، إن كان السيد باير قد جاء ليسخر من حالها. ولكنها عادت وفكرت بأنّها لا تأبه إذا ما فعل. اجتازت الرواق الطويل متوجّهة إلى قاعة الاستقبال الخاصة بالسيدة شنايدر. ومن ثم قرعت الباب بيد مرتعشة، وانتظرت ريثما طُلب منها الدخول.

- آنسة لاندفيك! أم حريٌّ بي أن أناديك الآن سيدة هالڤورسن. كيف حالك يا طائري المغرّد؟

- أنا..

حدّقت آنّا إلى الرجل مصعوقة، وراحت تتفحّصه بإمعان كأنّه قطعة عرض من متحف حياتها الماضية.

وبّختها السيدة شنايدر قائلة:

- هيا يا صغيرتي، تحدثي مع السيد غريغ. ومن ثمّ علّقت بشكل لاذع:

- لا تردّ إلا حين يحلو لها ذلك.

- أجل، لطالما كانت فتاة جريئة وتعرف جيدًا ما تريده. ولكن هذا هو المزاج الفنيّ.

- المزاج الفنيّ؟ نظرت السيّدة شنايدر إلى آنّا باستخفاف وأضافت:

- كنت أظنّ أنها إحدى سمات زوجها الغائب.

- ربما كان زوج هذه المرأة موسيقيًا متميّزًا، ولكن هذه السيدة الشابة هي صاحبة الموهبة الفعلية في الأسرة. هل سمعتها وهي تغني يا سيّدتي؟ إنها تملك أجمل صوت سمعته في حياتي، بصرف النظر عن صوت زوجتي نينا.

لزمت آنّا الصمت وهي تصغي إلى حديثهما عنها، مستمتعة بأمارات الذهول التي ظهرت على وجه السيّدة شنايدر.

- حسنًا، لو كنت على علم بالأمر لجعلتها تغنّي للنزلاء في هذه القاعة بينما أرافقها بالعزف على البيانو. فأنا من هواة الموسيقا، وشديدة الولع بها.

وأشارت السيدة شنايدر إلى الآلة الموسيقيّة القابعة في إحدى الزوايا، والتي لم تسمعها آنّا تعزف عليها منذ اليوم الذي وصلت فيه إلى هذا المكان.

- أنا واثق من أنك تستخفّين بقدراتك سيدتي.

وحوّل انتباهه إلى آنّا قائلًا باللغة النروجية حرصًا على ألّا تتمكّن السيدة شنايدر من فهم ما يُقال:

- طفلتي الصغيرة، وصلت لتوي إلى لايبزيغ وتلقيت رسالتك. تبدين خائرة القوى وتتضوّرين جوعًا. أرجو منك أن تسامحيني، لو كنت على علم بظروفك لأتيت قبل الآن.

- لا تشغل بالك بي سيّد غريغ، إنني بخير.

- يبدو جليًا أنك لست كذلك، وإنه لمن دواعي سروري أن أساعدك بأي طريقة ممكنة. أتدينين لهذه المرأة الحقيرة بأي نقود؟

- لا أظنّ ذلك سيّدي. لم أتقاضَ أي أجر خلال الأشهر الستة الماضية وأعتقد بأنني سددت ديوني منذ فترة طويلة. ولكنها لا تنفكّ تدّعي العكس.

- يا طفلتي المسكينة.

وحرص غريغ على خفض نبرة صوته لئلّا تتمكّن السيدة شنايدر من التقاط ما يقوله:

- سأطلب منك بعد قليل كأس ماء وستذهبين لإحضارها لي. ومن ثمّ ستصعدين

إلى غرفتك وتحزمين أشياءك. أحضري بعدها كأس الماء، وخذي أمتعتك وغادري المنزل. سأوافيك إلى بيركيلير عند زاوية الشارع. وفي هذه الأثناء، سأهتمّ بأمر السيّدة شنايدر.

وتكلّم بعدها باللغة الألمانية قائلًا:

- كنت أقول لآنا إنني أعاني من عطش مستعر، ولا شيء يخفّف من حدته. وعرضت عليّ السيّدة هالڤورسن أن تحضر لي كأس ماء.

وإذ أومأت السيّدة شنايدر برأسها بالموافقة، غادرت آنّا الغرفة وهرعت عبر حجرة الأطباق لتحزم أمتعتها تمامًا كما طلب منها السيد غريغ. ملأت بعدها كأس ماء من الإبريق، ومن ثمّ حملته وتوجّهت إلى قاعة الاستقبال. وقبل أن تدخل القاعة حاملة الكأس، تركت حقيبتها في الخارج.

قال لها غريغ وهي تناوله الكأس:

- شكرًا لك يا عزيزتي. تستطيعين الآن الانصراف لإنجاز أعمالك. سأمر لرؤيتك قبل انصرافي.

وبينما كان يلتفت إلى السيّدة شنايدر، تمكّن من غمز آنّا التي سارعت إلى مغادرة القاعة، ومن ثم حملت حقيبتها وخرجت من المنزل.

انتظرت آنّا قرب بيركيلير حوالى عشرين دقيقة، وهي في حالة من الذهول المطلق من هذا التحوّل غير المتوقّع لمسار الأحداث، قبل أن تظهر قامة منقذها المألوفة وهو يجتاز الشارع بخفّة متوجّهًا نحوها.

- حسنًا سيدة هالڤورسن، آمل أن يتمكّن زوجك الغائب يومًا من تسديد كلّ ما تكبّدته لإطلاق سراحك.

- آه سيدي! هل دفعت لها المال؟.

- كلّا، فهي تخطت حدود ذلك بأشواط. لقد أصرّت على أن أؤدّي قطعة موسيقيّة بسلم موسيقيّ صغير على تلك الآلة المريعة. حريّ بها أن تستخدمها حطبًا للموقدة لتبقى دافئة في فصل الشتاء.

وقهقه غريغ وهو يلتقط حقيبة آنّا.

- وعدتها بأن أزورها ثانية لأغني لها السيريناداً، ولكنّني أؤكّد لك بأنني لن أفي بذلك الوعد. حسنًا، علينا الآن أن نجد عربة لتقلّنا إلى تالستراس، وتستطيعين إخباري في الطريق عن كلّ ما قاسيته على يد السيّدة شنايدر الشريرة. خُيّل إليّ وكأنّك سندريلا وتلك المرأة هي زوجة والدك الخبيثة، التي قرّرت نفيك إلى المطبخ لتجعل منك خادمتها. جلّ ما كان ينقص هما الشقيقتان القبيحتان.

مدّ غريغ يده لآنّا لمساعدتها على صعود العربة. فشعرت في تلك اللحظة وكأنها بالفعل إحدى أميرات القصص الخياليّة، التي جاء أمير أحلامها لينقذها.

قال لها غريغ:

- سنقصد منزل صديقي العزيز، الناشر الموسيقيّ ماكس أبراهام.

- هل يتوقّع حضوري؟

- كلا، ولكن عندما يعلم بمعاناتك يا سيدتي العزيزة، سيكون أكثر من مسرور بتوفير مأوى لك. حين آتي إلى لايبزيغ، أقيم في إحدى الغرف المتاحة لديه. وأنا واثق من أنك ستجدين في المكان كل وسائل الراحة اللازمة إلى حين ترتيب مسكن آخر لك. بإمكاني النوم على البيانو الضخم إذا ما اقتضى الأمر.

- أرجوك سيدي، لا أريد أن أسبّب لك أيّ ازعاج أو مشكلة.

- أؤكد لك بأنك لا تزعجينني يا سيدتي العزيزة. كنت أمزح فحسب.

وابتسم لها برقّة مضيفًا:

- هناك غرف كثيرة شاغرة في منزل ماكس. حسنًا، أخبريني الآن، ما الذي أدّى إلى سقوطك من أعلى سلّم المجد الذي كنت قد وصلت إليه في المرة الأخيرة التي قابلتك فيها؟

- سيدي، أنا...

- لا داعيَ لأن تجيبي.

ورفع غريغ يده ليمسّد شاربه وتابع:

- دعيني أحزر! لم تتمكّني من تحمّل مجاملات السيّد باير. لعلّه طلب منك الزواج، ورفضت لأنك مغرمة بعازف كمان وسيم يطمح أن يصبح مؤلّفًا موسيقيًا، ولكنه غير جدير بالثقة. أخبرك عن سفره إلى لايبزيغ لمتابعة دراسته، فقررت الزواج به والسفر معه. هل أنا محق؟

- أرجوك سيّدي، لا داعيَ لإغاظتي.

وأخفضت آنّا رأسها مضيفة:

- من الواضح أنّك على علم بقصتي. فكلّ كلمة تفوّهت بها صحيحة.

- سيّدة هالڤورسن... أتسمحين لي بأن أناديك آنّا؟

- طبعًا.

- أخبرني السيد هانوم مؤخّرًا عن اختفائك المفاجئ، على الرغم من أنني لم أكن على علم بالتفاصيل. واتّضح لي من خلال ما سمعته في كريستيانيا بأن نوايا السيّد باير تجاهك تخطت حدود المهنة. أما زال زوجك عازف الكمان في باريس؟

أجابت آنّا وهي تتساءل في سرها كيف تراه علم بالأمر:

- أجل، أظن ذلك.

- وأتخيّل أنّه مقيم في شقة السيّدة الثرية المحسنة المعروفة باسم البارونة فون غوتفرايد.

- لا أعرف محل إقامته سيّدي. لم يصلني منه أي خبر منذ أشهر عدة، ولم أعدْ أعتبره زوجي.

أمسك غريغ بيدها مواسيًا وقال:

- عزيزتي آنّا، لقد ذقت الأمرّين. والمؤسف هو أن البارونة تتعقّب المواهب الموسيقيّة الشابة بشغف، وتميل إلى الشبان الجذابين.

- سامحني سيّدي، ولكنّ هذه التفاصيل لا تهمّني.

- هذا صحيح. وأعتذر لعدم مراعاتي شعورك. ولكن الخبر الجيّد هو أنها ستسأم منه قريبًا وتبدأ بالبحث عن فريسة جديدة، فيعود عندها إلى أحضانك.

ورماها بنظرة بطرف عينه مضيفًا:

- كنت أردّد باستمرار أنك تبعثين الروح في شخصية سولفيج. وستفعلين مثلها تمامًا وتنتظرين عودته إليك.

- كلا سيدي.

وتصلّبت ملامحها وهي تضيف:

- لست سولفيج، ولن أنتظر عودة جانس. لم يعد زوجي، ولم أعد زوجته.

- لن نتكلّم في هذا الموضوع ثانية يا آنّا. أصبحتِ الآن بأمان معي، وسأبذل قصارى جهدي لمساعدتك.

توقّف عن الكلام حين توقّفت العربة أمام منزل جميل مطليّ بالأبيض، مؤلّف من أربعة طوابق، ومزوّد بصفٍّ من النوافذ الشاهقة المقوّسة بلباقة. فأدركت آنّا أنّه منزل الناشر الموسيقيّ حيث تركت رسالتها لغريغ منذ أمد بعيد جدًّا.

- حفاظًا على المظاهر، من الأفضل أن يعتقد الآخرون بأنك مررت في ظروف صعبة أثناء انتظار عودة زوجك من باريس. هل فهمت ما أقصده يا آنّا؟

والتقت عينا غريغ ذواتا اللون الأزرق المثير عينَيْها لبرهة من الزمن بينما شدّ قبضة يده على يدها.

- نعم سيدي

-أرجوك، ناديني إيدفارد. لقد وصلنا الآن.

وحرّر يد آنّا من قبضته وتابع:

- فلندخل المنزل ونعلن عن وصولنا.

في خضمّ ذهولها من الأحداث التي وقعت في ذلك النهار، قادت الخادمة آنّا إلى غرف العلّية المبهجة حيث كان الهواء يتدفّق إلى الداخل، وأتاحت لها أن تغرق في حوض الاستحمام الذي حضّرته لها. وبعد أن أزالت عنها وسخ الأشهر القليلة الماضية، ارتدت فستانًا من الحرير الذي ظهر بطريقة سحريّة على السرير المزوّد بغطاء. والغريب في الأمر هو أنّ الفستان الزمرديّ توافق مع قامتها الدقيقة بشكل مثاليّ.

تأمّلت بإعجاب المشهد الجميل لمدينة لايبزيغ من النافذة الكبيرة، وبدأت ذكرى سجنها في ذلك النُزل الضيّق تزول من ذهنها وسط انبهارها بالفخامة المحيطة بها. نزلت السلم كما طُلب منها أن تفعل، وهي تشكر اللّه في سرّها على ظهور السيد غريغ في حياتها، وإلا لكانت الآن في مطبخ السيّدة شنايدر القذر، تقشّر الجزر.

قادتها الخادمة إلى قاعة الطعام، ووجدت نفسها جالسة إلى مائدة طويلة بين السيد إيدفارد، كما طلب منها أن تناديه، ومضيفها السيد أبراهام. بعد أن رحب بها في منزله، رأت آنّا خلف النظارة المزوّدة بعدستَيْن دائريّتَيْن عينَيْن متلألئتَيْن. ولاحظت وجود عدد من الموسيقيين الآخرين حيث تعالت الضحكات وتوالت الأطباق الشهيّة. وعلى الرغم من أنها كانت تتضوّر جوعًا، لم تتمكّن من تناول كبيرة من الطعام لأن معدتها لم تعدْ متعوّدة على هضمه. فجلست في وسطهم تصغي إلى الأحاديث التي يتبادلونها وهي تقرص ساعدها بين الحين والآخر للتأكّد من أنها موجودة بينهم بالفعل.

قال السيد غريغ وهو يرفع كأس الشمبانيا باتجاهها:

- هذه السيّدة الفاتنة، هي أبرز مغنية في النروج وصاحبة موهبة متميّزة. انظروا إليها! صورة مثالية عن سولفيج، ومصدر إلهام كثير من الأغاني الشعبيّة التي ألّفتها هذه السنة.

فسارع الضيوف إلى مطالبته بعزف تلك الأغاني الجديدة بينما تغنّيها آنّا.

- ربما في وقت لاحق يا أصدقائي، لأن آنّا مرهقة جدًّا. لقد كانت مُحتجزَة لدى أكثر النساء شرًّا في لايبزيغ حيث ذاقت مرّ العذاب.

وبينما كان إيدفارد يروي لهم الأحداث التي تُوِّجت بإنقاذ آنّا، كان الضيوف يحبسون أنفاسهم في اللحظات الأكثر تشويقًا، بينما حاولت آنّا ألّا تدع الذكرى المريرة لما قاسته تطغى عليها.

- حسبت أنّ ملهمتي قد اختفت! لكنّها كانت حية تُرزق وتعيش على مسافة قريبة منا في لايبزيغ!

وختم حديثه بعبارات منمّقة:

- نخب آنّا.

- آنّا.

ورفع الجميع كؤوسهم البلورية عاليًا وشربوا نخبها.

بعد انتهاء العشاء، أشار إيدفارد إلى البيانو ووضع أمامها بعض النوتات الموسيقيّة قائلًا:

- والآن يا آنّا، في مقابل عملية الإنقاذ البطولية التي قمت بها، هل تستطيعين استجماع قواك والغناء؟ أسميت الأغنية «زهرة الربيع الأولى»، ومع ذلك لم يغنّها أحد بعد، لأنّ لا أحد سيجيد غناءها سواكِ. تعالي.

وربّت المقعد الخاص بالبيانو وتابع:

- اجلسي بقربي وسنتمرّن معًا لبضع دقائق».

تمتمت قائلة:

- سيدي.... إيدفارد.. أنا لم أغنِّ منذ شهور طويلة.

- هذا يعني أنك لم ترهقي صوتك وسيصدح كالطائر. أصغي الآن إلى الموسيقى.

امتثلت لطلبه، مع أنها كانت تتمنّى لو كانا وحيدين حتى لا تشعر بالارتباك في حال أخطأت أمام هذا الحضور المهيب. ومع إعلان إيدفارد عن استعدادهما للبدء، التفت الحاضرون نحوهما بترقّب.

- من الأفضل أن تقفي يا آنّا لتتمكّني من التحكّم في تنفّسك. هل بإمكانك رؤية الكلمات من وراء ظهري؟

- نعم يا إيدفارد.

- فلنبدأ إذًا.

ارتعش جسدها من شدّة التوتّر بينما كان منقذها يعزف النوتات الافتتاحيّة. فحبالها الصوتيّة بقيت هاجعة لفترة طويلة، ولم تكن تملك أدنى فكرة عما سيخرج

من فمها عندما تفتحه. وعلى الرغم من أنّ النوتات القليلة الأولى كانت صحيحة، إلا أنّها افتقرت إلى التوازن. ولكن الموسيقا الجميلة سرعان ما بدأت تملأ روحها، وعلا صوتها صادحًا وقد اكتسب مزيدًا من الثقة.

لم تكد آنّا تتوقّف عن الغناء، حتى أدركت أنّ أداءها كان جيدًا بما يكفي. إذ تعالى التصفيق في الغرفة ومعه الهتافات المطالبة بمزيد.

- أحسنتِ يا عزيزتي آنّا، تمامًا كما كنت أتوقّع. هل بإمكانك أن تنشر هذه الأغنية في الفهرس يا ماكس؟

- بالتأكيد، ولكن علينا أن نقيم رسيتال في غويندهاوس لعرض الأغاني الفولكلورية الأخرى التي ألّفتها، في حال وافقت آنّا صاحبة الصوت الملائكيّ على أدائها. من الواضح أن تلك الأغاني لا تليق إلا بصوتها فحسب.

وانحنى ماكس أبراهام لها احترامًا.

أجاب إيدفارد:

- سنجري الترتيبات اللازمة في هذا الشأن. وارتسمت على ثغره ابتسامة عريضة، وهو يتأمّل آنّا التي كانت تحاول قدر المستطاع كبح التثاؤب.

قال لها ماكس، باعثًا الارتياح في نفسها:

- يظهر جليًّا أنّك مُرهَقة. وأنا واثق من أنّ جميع الحاضرين هنا سيعذرونك على انسحابك إلى غرفتك باكرًا. فبعد ما سمعناه منك، لا ريب في أنّك مررت بأوقات عصيبة.

نهض إيدفارد من مكانه وقبّل يدها قائلًا:

- عمت مساء يا آنّا.

صعدت آنّا إلى غرفتها في الطابق العلويّ حيث وجدت الخادمة تُذكي النار، ورأت ثوب نوم على السرير الكبير المزدوج.

- هل تسمحين لي أن أسألك لمن تعود هذه الملابس؟ فهي تتوافق مع مقاسي تمامًا.

أجابت الخادمة وهي تحلّ أزرار فستان آنّا وتساعدها على خلعه:

- إنها ملابس نينا، زوجة إيدفارد. أخبرني السيد غريغ بأنّك لا تملكين أي قطعة ملابس، وطلب مني إخراج بعض منها من خزانة السيدة غريغ.

لم تتعوّد آنّا تلقّي المساعدة من أحد. شكرت الخادمة قائلة:

- شكرًا لك. باستطاعتك الانصراف الآن.

- عمتِ مساءً سيّدة هالڤورسن.

بعد مغادرة الخادمة الغرفة، خلعت آنّا فستانها وارتدت ثوب النوم المصنوع من البوبلين الناعم، ومن ثمّ تسلّلت بين ملاءات السرير النظيفة تغمرها حالة من النشوة.

وللمرّة الأولى منذ أشهر طويلة، شكرت اللّه، بعد الانقطاع الطويل عنه، وطلبت منه أن يسامحها على قلّة إيمانها. وأغمضت بعدها عينَيْها، وقد بلغ منها الإرهاق مبلغًا، ولم تعد قادرة على التفكير، واستغرقت في نوم عميق.



تحوّلت قصة إنقاذ غريغ لآنا من براثن السيّدة شنايدر الشريرة حديث الناس في لايبزيغ، وأصبحت أكثر تنميقًا في الأسابيع التي تلت. وبينما حرص راعيها الجديد على تقديمها إلى كل الأوساط الاجتماعية والموسيقية في المدينة، كانت الأبواب كلّها تُفتح على مصاريعها أمامهما. فشاركا في عدد من حفلات العشاء الضخمة في أفخم المنازل في لايبزيغ، حيث كان يُطلب من آنّا، بحسب قول إيدفارد، الغناء لقاء وجبة العشاء، بالإضافة إلى حفلات موسيقيّة ضيّقة النطاق بحضور عدد من المؤلفين والمغنّين الآخرين.

وتعوّد إيدفارد في كلّ مرة أن يعرّف عنها على أنها « النموذج المثالي لكلّ ما هو نقيّ وجميل في بلدي الأم» أو «ملهمتي النروجية المثاليّة». وبينما كانت آنّا تؤدي أغانيه عن الأبقار، والأزهار، والمضايق والجبال، كانت تتساءل في بعض الأحيان إن كان ينبغي لها ارتداء العلم الوطني لبلدها، علّه يتمكّن من التلويح بها

أمامه. والحق يُقال إنها لم تكن لتمانع ذلك؛ فهي تشعر بالفخر لأنه كرّس لها كلّ هذا الاهتمام. كما تعتبر كلّ لحظة من حياتها الجديدة معجزة، مقارنةً بالحياة التي عاشتها سابقًا في لايبزيغ.

وخلال تلك الأشهر القليلة، التقت كثيرًا من المؤلّفين الموسيقيين العظماء، وأبرزهم بيتر تشايكوفسكي، الذي كانت تعشق موسيقاه المطعّمة بالرومنسية والشغف. فجميعهم كانوا يتردّدون على منزل ماكس أبراهام، الذي يُشرف على إدارة مؤسسة سي.أف. بيترز، ونجح في تحويلها إلى أبرز شركة لنشر الموسيقا في أوروبا.

تعوّد ماكس إدارة أعماله من المبنى نفسه، وكانت آنّا تحب النزول إلى الطوابق السفليّة وتصفّح كتب النوتات الموسيقيّة المغلّفة تغليفًا جميلًا بأغطيتها المتميّزة ذات اللون الأخضر الفاهي، وهي تعرب عن اندهاشها بالمؤلّفات الموسيقيّة للمشاهير أمثال باخ وبيتهوفن. كما وجدت نفسها مفتونة بآلات الطباعة الميكانيكية في الدور السفليّ، وما يخرج منها، بسرعة لا تُصدّق، من صفحات متقنة من المدوّنات الموسيقيّة.

وبفضل ما كانت تحظى به من طعام صحيّ، وساعات طويلة من الراحة، بالإضافة إلى الرعاية المبنيّة على الحبّ والعطف اللذين أظهرتهما لها الأسرة كلّها، تمكّنت آنّا من استعادة قوتها الجسديّة وثقتها بنفسها. وعلى الرغم من أنّ الجرح الذي أحدثته خيانة جانس لها في قلبها لا يزال ينزف، مسبّبًا في تأجّج نيران الغضب العارم في داخلها، لكنّها بذلت كل ما باستطاعتها لإطفاء تلك النيران، وإبعاد جانس عن ذهنها. فهي لم تعد تلك الطفلة الساذجة التي آمنت بالحب، بل تحوّلت امرأة توفّر لها موهبتها كلّ ما تحتاج إليه.

ومع ورود الدعوات إليها بشكل منتظم لتقديم العروض الموسيقيّة في ألمانيا وفي الخارج، على حدٍّ سواء، نجحت آنّا أيضًا في الإمساك بزمام شؤونها الماليّة، رافضةً الاعتماد على رجل مرّة ثانية. وكانت تدخّر كلّ فلس تكسبه، رغبة منها في شراء شقّة خاصة بها. ووجدت في إيدفارد كلّ ما كانت تحتاج إليه من تشجيع ومؤازرة، والأهم من ذلك كلّه هو أن التقارب بينهما كان يزداد يومًا بعد يوم.

كانت آنّا تستيقظ في بعض الأحيان، في ساعات الصباح الأولى، على الأصوات المؤرِّقة والحزينة المتصاعدة من البيانو الضخم في الطابق الأرضيّ، حيث كان يجلس إيدفارد غالبًا لتأليف الموسيقا في وقت متأخّر من الليل.

وفي إحدى الليالي، في أواخر فصل الربيع، هرعت آنّا من غرفتها بعد أن قضّت مضجعها صورة طفلتها المسكينة وهي ترقد وحيدة تحت التراب، وجلست عند أسفل السلّم خارج غرفة الاستقبال تستمع إلى اللحن الحزين الذي كان إيدفارد يعزفه. وحين اغرورقت عيناها بالدموع، وضعت رأسها بين يديها وانفجرت بالبكاء، تاركة لوعة الفقد تتدفّق مع دموعها.

- ما الأمر يا فتاتي؟

أجفلت آنّا لدى إحساسها بيد تربّت كتفها ورأت عينَيْ إيدفارد الزرقاوين تحدّقان إليها برقّة.

- سامحني، ولكن الموسيقا الساحرة لامست روحي.

- أظنّ أنّ الأمر أكبر من ذلك. تعالي معي.

وقادها إيدفارد إلى قاعة الاستقبال وأقفل الباب وراءهما.

- تعالي واجلسي بقربي.

ومن ثم ناولها منديلًا كبيرًا من الحرير وأضاف:

- وامسحي دموعك بهذا.

أثارت محاولات إيدفارد لمواساتها سيلًا جديدًا من الدموع التي لم تستطع كبحها. وإذ شعرت بالارتباك، رفعت نظرها إليه وهي تدرك في قرارة نفسها بأنّها تدين له بتفسير. وأخذت في نهاية المطاف نفسًا عميقًا وأخبرته عن خسارتها طفلتها.

- فتاتي المسكينة، لا بدّ من أنّ هذه التجربة التي قاسيتِها وحدك كانت فظيعة. أظنّك تعلمين أنّني خسرت طفلتي أيضًا.. عاشت ألكسندرا حتى بلغت عمر السنتين. وكانت أرق، وألطف وأغلى إنسان في حياتي. وعندما خسرتها، تحطّم

فؤادي، وفقدت مثلك إيماني بالله وبالحياة بحدّ ذاتها. وعليّ الاعتراف بأنّ ذلك انعكس سلبًا على زواجي. فنينا أبت أن تتعزّى وبات مستحيلًا علينا أن نواسي واحدنا الآخر.

أجابت آنّا بنبرة جافّة:

- حسنًا، لم أكن مضطرّة على الأقل إلى مواجهة هذه المشكلة.

ضحك إيدفارد وقال لها:

- عزيزتي آنّا، تعلمين أنّك أصبحت عزيزة جدًّا على قلبي. فأنا معجب بروحك وشجاعتك إلى حدٍّ لا تستطيعين تصوّره. فكلانا مررنا بتجربة حطّمت الفؤاد وربّما من الأفضل أن نجد العزاء في موسيقانا و...

كانت عينا إيدفارد مسلطتَيْن عليها ويده ممسكة بيدها وهي يتابع:

- .. وربما واحدنا في الآخر.

أجابت آنّا وقد فهمت تمامًا ما يقصده:

- نعم يا إيدفارد، أظنّ أنّ بإمكاننا ذلك.



بعد مرور سنة، تمكّنت آنّا بمساعدة إيدفارد، من ترك المنزل في تالستراس والانتقال إلى منزل خاصّ بها في سيباستيان باخستراس، الواقعة في إحدى المناطق الراقية من لايبزيغ. وأصبحت قادرة على التنقّل حيثما تريد في العربات، وحجز أفضل الطاولات في أكثر المطاعم ترفًا في المدينة. ومع تزايد شهرتها في ألمانيا، سافرت برفقته إلى برلين، وفرانكفورت ومدن أخرى كثيرة لتقديم العروض الموسيقيّة. وإلى جانب أداء المقطوعات الغنائية التي يؤلّفها إيدفارد، باتت قائمة أعمالها تضمّ «أغنية الجرس» من أوبرا لاكميه التي كانت تُعرض للمرة الأولى، «وداعًا يا سكان التلال والحقول الأصليين» من أوبرا تشايكوفسكي الشهيرة عذراء أورليز.

وُدعيت لإحياء حفل موسيقيّ في كريستيانيا، على خشبة المسرح حيث بدأت آنّا حياتها المهنية. فبعثت، قبل الموعد المحدّد، رسالة إلى أبوَيْها وأخرى

إلى السيدة أولسداتر لدعوتهم لحضور العرض، وأرفقت الرسالتين بكمية كافية من النقود لتسديد نفقات السفر، كما حجزت لهم غرفًا في فندق غراند أوتيل حيث كانت تنزل.

بعد كلّ ما حصل والإحساس بالسوء الذي استولى عليها، لكونها خذلت الجميع، ترقّبت آنّا ردودهم بكثير من الخوف. غير أنّ قلقها لم يكن في محلّه، لأن الجميع قبلوا الدعوة ووجدوا فيها فرصة سعيدة للمّ الشمل من جديد. وخلال حفل العشاء الاحتفاليّ الذي تلى العرض الموسيقيّ، أبلغتها الآنسة أولسداتر بوفاة السيّد باير. فأعربت لها آنّا عن أسفها لسماع الخبر، وتوسّلت إليها أن ترافقها إلى لايبزيغ لتكون مدبّرة منزلها.

وكم سُرّت آنّا لموافقة ليز على طلبها. فهي كانت تدرك، بأنّه في ظل الظروف الراهنة، كانت بحاجة إلى شخص تثق به ثقة مطلقة ليعمل في منزلها.

أما في ما يتّصل بزوجها الشريد، فلم تكن آنّا تفكر فيه إلا لمامًا. فقد بلغها أن البارونة قد شوهِدت في لايبزيغ وسمعت بعض الشائعات عن احتضانها مؤلّفًا موسيقيًّا شابًّا، غير أنّ أحدًا لم يسمع أيّ خبر عن جانس لسنوات طويلة. وفي حين كان إيدفارد يعلّق مازحًا بأنّه اختفى كالجرذ في مجارير باريس، تمنّت آنّا في سرّها أن تكون قد وافته المنية. فعلى الرغم من أنّ نمط حياتها لم يكن تقليديًّا، لكنها كانت سعيدة.

استمرّ ذلك حتى شتاء العام 1883 حين وصل إيدفارد إلى لايبزيغ بناء على الرسالة العاجلة التي بعثتها له.

- أظنّك تدركين ما علينا أن نفعله يا عزيزتي، من أجلنا جميعًا.

أجابت آنّا بإذعان بصوت شبه مكتوم:

- أجل، أدرك ذلك.



بحلول ربيع العام 1884، عاد من غياهب النسيان. ففي أحد الأيام، قرعت الخادمة باب قاعة الاستقبال لتبلغ آنّا بأنّ أحدهم يطلب مقابلتها.

- طلبت منه التوجّه إلى مدخل التجار، ولكنّه رفض أن يحرّك ساكنًا قبل أن يقابلك. إنه ينتظرك عند العتبة على الرغم من أن الباب الأماميّ موصد.

وأشارت الخادمة إلى الشخص المكوّم عبر النافذة الكبيرة وأضافت:

- هل أستدعي الشرطة سيدة هالڤورسن؟ من الواضح أنّه متسوّل، أو لصّ أو ربما أسوأ من ذلك.

نهضت آنّا من المكان الذي كانت تجلس فيه وسارت نحو النافذة، لترى رجلًا جالسًا عند الباب الأمامي واضعًا رأسه بين يديه.

أخذ قلبها يخفق بشدّة بين أضلعها، وتوسّلت اللّه أن يمنحها مزيدًا من القوة. فوحده اللّه يعلم كيف ستتمكّن من تحمّل الوضع، لكنّها لم تجد أمامها، في ظل الظروف القائمة، حلًّا آخر.

- أرجو منك إدخاله على وجه السرعة. يبدو أنّ زوجي قد عاد.



أيلول 2007

"In the Hall of the Mountain King"



34

شعرتُ بالتوتّر عندما قرأت أنّ جانس عاد إلى آنّا، وقلّبتُ الصفحات القليلة التالية على عجل لأعرف ما حصل بعد عودته. لكن جانس اختار أن يختصر الكلام عمّا يُفترض أن يكون أشهرًا قليلة صعبة إلى حدّ الألم، وركّز أكثر على عودتهما بعد عام إلى بيرغن وإلى منزل يحمل اسم فروسكهوست، على مقربة من ملكيّة غريغ الخاصة التي حملت اسم ترولدهوغن. كما تحدّث عن عرضه الأول لأعماله الخاصة في بيرغن. انتقلت بعد ذلك إلى ملاحظة الكاتب في الصفحة الأخيرة:

«هذا الكتاب إهداء إلى زوجتي الرائعة آنّا لاندفيك هالڤورسن، التي توفّيت، للأسف، جرّاء إصابتها بذات الرئة في وقت سابق من هذا العام وهي في سن الخمسين. لو لم تكن مستعدّة لأن تسامحني وترضى بأن أعود إليها عندما وقفت على بابها بعد مرور سنوات عديدة على هجري لها، لابتلعتني مجاري باريس. بفضل صفحها وتسامحها، استطعنا أن نستمتع بحياة سعيدة معاً، ومع ابننا الغالي هورس.

آنا يا ملاكي ويا مصدر إلهامي... علّمتني كل ما يُهِمّ فعلاً في الحياة.

أحبّك وأشتاق إليك.

المخلص جانس».

شعرتُ بالاضطراب والتشوّش عندما أغلقت جهاز الكمبيوتر المحمول. ووجدت صعوبة كبيرة في أن أصدّق أنّ آنّا، صاحبة الشخصيّة القويّة والمبادئ الأخلاقيّة الثابتة- هذه الأدوات التي ساعدتها على أن تصمد وتقاوم وتستمر بعد ما فعله جانس بها- سامحته بهذه السهولة وتقبّلت عودته إليها زوجًا.

قلت لحيطان الفندق، وقد شعرت بغضب شديد من نهاية قصّة آنّا المذهلة: «كنت لأطرده وأتطلّق منه في أسرع وقت ممكن». علمت أنّ الأمور كانت مختلفة حينذاك لكن بدا لي أنّ جانس هالڤورسن- وهو التجسيد الحيّ لبير جينت نفسه- خرج من القضية من دون أيّ عقاب.

التفتُّ إلى ساعتي فوجدتُ أنها تجاوزت العاشرة ليلًا ثم وقفتُ لأتوجّه إلى الحمام وأغلي الماء لأعدّ كوبًا من الشاي.

بعد أن أغلقت الستائر السميكة لتختفي أضواء ميناء بيرغن المتلألئة، فكّرت جديًا في ما إذا كنت لأسامح ثيو لو هجرني. وهذا ما أفترض أنه فعله بالطريقة الأكثر رعباً وحسماً. نعم، أدركت أني كنتُ أنا أيضًا غاضبة وعليّ أن أسامح الكون. وخلافًا لقصة جانس وآنا، انتهت قصتي، أنا وثيو، حتّى قبل أن تبدأ، لأسباب خارجة عن إرادتنا نحن الاثنين.

تحقّقت من الرسائل الإلكترونية التي وصلتني لكي أمنع نفسي من أن أصبح حزينة وعاطفيّة، وأغرتُ على صحن الفاكهة، إذ شعرت بأنّي متعبة إلى حدٍّ يمنعني من أن أنزل إلى الأسفل. كما أنّ خدمة الغرف لا تعمل بعد الساعة التاسعة مساءً. وجدت رسائل من ماما ومايا، وواحدة من تيغي تقول فيها إنها تفكّر فيّ. كما بعث بيتر، ووالدة ثيو، برسالة يعلمني فيها بأنّه تمكّن من تأمين نسخة من كتاب توم هالڤورسن وأراد أن يعرف إلى أيّ عنوان يرسله. فأرسلت له إجابة، وسألته إن كان بمقدوره أن يرسله بالبريد السريع فيداكسبرس على عنوان الفندق، وقررت أن أبقى هنا في بيرغن إلى حين استلامه.

سأخرج غدًا وأبحث عن منزل جانس وآنا، وقد أعود لأرى إيرلنغ، القيّم الودود على متحف غريغ، لأسمع مزيدًا من قصتهما. أحببت المكان هنا في بيرغن، حتّى لو توقّفت تحرّياتي في الوقت الراهن.

وفجأة، تعالى رنين الهاتف إلى جانب سريري، ما جعلني أقفز من مكاني.

- ألو؟

- أنا ويليّم كاسباري. هل أنت بخير؟

- نعم، أنا على ما يُرام، شكرًا لك.

- جيّد. آلي، هل تودّين أن تتناولي الفطور معي غدًا صباحًا؟ لديّ فكرة أودّ أن أعرضها عليك.

- نعم، لا بأس بذلك.

- ممتاز. أتمنّى لك نومًا هانئًا.

أُقفل الخط من دون مقدمات، فوضعت السمّاعة مكانها وقد تملّكني شعور غامض بعدم الارتياح لأني وافقت على طلب ويليَم. حاولت أن أفهم السبب، ثم اعترفت بأنه الشعور بالذنب. لو أردت أن أكون صادقة مع نفسي، لاعترفت بوجود وميض صغير في داخلي يخبرني بأنّي منجذبة جسديًا إليه. وحتى لو منع قلبي وعقلي ذلك، لكنّ جسدي عصى أوامرهما وقام بردّ فعل وفقًا لحساباته الخاصة. لكنه بالكاد يكون «موعدًا». ولأكون أكثر دقّة، بدا لي جليًّا أنّ ويليَم شاذٌّ جنسيًا، ممّا قاله عن جاك، شريكه الذي فارق الحياة.

سمحت لنفسي بأن أطلق ضحكة وأنا أستعد للنوم. إنه انجذاب آمن على الأقل، ولعلّه مرتبط بموهبته كعازف بيانو أكثر من أيّ شيء آخر. أدركت أنّ هذا عامل إثارة قويّ، وسامحت نفسي لأنّي وقعت في شباكه.



إذًا، ما رأيك؟

حدّقت عينا ويليَم الشديدتا الزرقة إلى عينيّ بينما كنّا نتناول الفطور في صباح اليوم التالي.

- متى موعد الحفل الموسيقيّ؟

- مساء السبت. لكنّك عزفت المقطوعة من قبل، ولدينا ما تبقّى من الأسبوع لكي نتمرّن.

- يا إلهي، يا ويليَم، حصل ذلك قبل عشر سنوات. أشعر بالإطراء لأنك طلبت مني، لكن...

- «سوناتا للفلوت والبيانو» جميلة جدًّا ولم أنسَ كيف عزفتِها تلك الليلة في المعهد الموسيقي في جنيف. وبالتالي، أن أتذكّرك وأن أتذكّر عزفك بعد عشر سنوات، يعني أنّ الأداء كان مذهلًا.

اعترضتُ قائلة:

- أنا لا أرقى إلى مستواك في الموهبة أو النجاح. بحثت عنك في الإنترنت، وأنت شخص مهمّ يا ويليَم. لقد عزفت في قاعة كارنيغي العام الماضي! لذا، أشكرك جزيل الشكر على سؤالك. لكن لا، شكرًا».

راقبني وراقب فطوري الذي لم ألمسه. كنت أشعر بغثيان شديد فعلًا. سألني:

- تشعرين بالتوتّر، أليس كذلك؟

- بالطبع أنا متوتّرة! هل تتخيّل كم ستكون صدِئًا بعد مرور عشر سنوات من دون أن تلمس يداك المفاتيح؟

- نعم، لكنّني سأعزف أيضًا بهمّة وحيويّة جديدتين. لا تكوني جبانة وحاولي على الأقل. لمَ لا تنضمّين إليّ بعد حفلي الموسيقي عند الظهر وبإمكاننا أن نعزف المقطوعة معًا؟ أنا واثق من أنّ إيرلنغ لن يمانع، حتى وإن اعتبر أنّ عزف فرانسيس بولنك في عقر دار غريغ ضرب من التجديف. إنّ مسرح لوغان حيث سيُقام الحفل الموسيقيّ نهار السبت، مكان جميل. هذه هي الطريقة المثاليّة لتسهيل عودتك إلى العزف.

قلت، وقد أصبحت على وشك أن أبكي:

- أنت تضايقني يا ويليَم وترهبني. لمَ أنت متحمّس إلى هذا الحد لكي أفعل هذا؟

- لو لم يجبرني أحدهم على العودة إلى العزف بعد موت جاك، لما عزفت على الأرجح أيّ نوتة أخرى على البيانو مجدّدًا. وبالتالي، يمكن لك أن تقولي إنّ الكارما تدفعني لأن أعيد المعروف. أرجوك؟

وافقت، وقد شعرت بأنني أُجبرت على الاستسلام:

- آه، حسنًا إذًا. سأحضر إلى ترولدهوغن بعد ظهر اليوم وأجرّب.

صفّق ويليَم بيديه مستمتعًا بالردّ وقال:

- عظيم.

- ستشعر، على الأرجح، بالرعب عندما تسمع عزفي. لقد عزفت في مأتم ثيو، لكنّ الوضع كان مختلفًا.

فقال وهو يقف:

- إذًا، سيصبح الأمر سهلًا وممتعًا بعدئذٍ. أراك عند الساعة الثالثة.

راقبت ويليَم وهو يغادر، بقامته النحيلة التي تكذّب الفطور الضخم الذي رأيته يلتهمه لتوّي. بدا جليًا أنه يعيش تمامًا على الأدرينالين. وعند عودتي إلى غرفتي بعد عشر دقائق، فتحت علبة الفلوت على سبيل التجربة وحدّقت إليها وكأنها عدو سأحاربه.

همست وأنا أُخرج القطع وأجمعها، وأفتل الوصلات ببطء معًا وأنسّق الآلة بشكل صحيح: «ما الذي فعلته؟». بعد تعديلها وعزف بعض النوتات السريعة، حاولتُ أن أعزف المقطع الأول من السوناتا من الذاكرة. لم تكن المحاولة الأولى سيّئة جدًّا، هذا ما خطر لي وأنا أمسح بشكل آلي أيّ فائض رطوبة وأنظّف ما تحت المفاتيح قبل أن أعيد الفلوت إلى علبتها.

بعدئذٍ، خرجت في نزهة على طول الرصيف البحري، وتوقّفت عند أحد المتاجر الخشبيّة لأشتري كنزة من الصوف، لأنّ الحرارة بدأت بالانخفاض ولم أكنْ أحمل في حقيبة الظهر سوى ملابس صيفيّة.

بعد أن عدت إلى الفندق لأحضر الفلوت، أقلّتني سيارة أجرة إلى التلال، وسألت السائق إنْ كان يعرف منزلًا يحمل اسم فروسكهاوست، على الطريق نفسه الذي يؤدّي إلى متحف غريغ. أجاب بأنه لا يعرف، لكن يمكن لنا أن ننظر إلى أسماء المنازل التي نمرّ بها. وكما هو متوقّع، وجدنا المنزل على بُعد دقائق قليلة أسفل المتحف.

تركت سيارة الأجرة ترحل ونظرت إلى المنزل الخشبي الجميل، المطلي بلون أبيض مائل إلى الصفرة كالكريما، والتقليدي في تصميمه. وعندما وصلت إلى البوابة، رأيت أنه يبدو متداعيًا، وكان طلاء خشبه متقشّرًا وحديقته غير منسّقة. تجوّلت في الخارج، فشعرت وكأني لصّ يخطّط لعملية سطو، وتساءلت عمّن يعيش فيه الآن، وإنْ كان عليّ أن أدقّ الباب لاكتشف هوية سكّانه. اخترت ألا أفعل وأكملت طريقي نحو متحف غريغ في أعلى التل.

توجّهت نحو المقهى وقد شعرت بشيء من الغثيان مجدّدًا. فقدت شهيّتي منذ أن توفّي ثيو وأدركت أنّني فقدت بعضًا من وزني. وعلى الرغم من أنّني لم أكن أشعر بالجوع لكنني طلبت شطيرة من التونة وأجبرت نفسي على أن أتناولها.

ابتسم إرلينغ وهو يتقدّم مني ويلقي عليّ التحيّة في زاوية المقهى:

- مرحبًا آلي. سمعت أنّ لديك تمرينًا مرتجلًا بعد الحفل الموسيقي في قاعة الحفلات بعد ظهر هذا اليوم؟

- إنْ كنت لا تمانع يا إرلينغ.

أكّد لي:

- أنا لا أمنع أيّ شخص يعزف الموسيقى الجميلة هنا. هل قرأت مزيدًا من قصة حياة جانس هالفورسن؟

- في الواقع، أنهيتها ليلة أمس. ذهبت لتوّي لرؤية المنزل الذي عاش فيه هو وآنا في الماضي.

- آه، إنّه المنزل الذي يعيش فيه اليوم توم هالفورسن، كاتب قصة حياة جانس، وحفيده الأصغر. إذًا، هل تظنين أنّ هناك صلة لك بعائلة هالفورسن؟

- إن كان هناك أيّ صلة، فلا أستطيع أن أرى كيف. ليس في الوقت الحالي على الأقل.

- حسنًا، لعلّ توم سيتمكّن من مساعدتك عندما يعود من نيويورك في وقت لاحق من هذا الأسبوع. هل ستحضرين حفل ويليّم اليوم؟

- نعم. إنه موهوب للغاية، أليس كذلك؟

- نعم بالفعل. لعلّه أخبرك أنّه عاش مأساة منذ فترة ليست ببعيدة. أعتقد أنّ هذه التجربة جعلته أكثر نضجًا كعازف بيانو. أحداث الحياة يمكن أن تقتل أو أن تشفي، إذا فهمت ما أعنيه.

أجبت بانفعال:

- أفهمك.

- أراك هناك يا آلي.

وأومأ إرلينغ برأسه قبل أن يبتعد.

بعد نصف ساعة، عدت مجدّدًا إلى قاعة ترولدسالن الموسيقيّة لأستمع إلى عزف ويليَم. اختار هذه المرّة مقطوعة أقل شهرة من سواها تحمل اسم «تقلّبات مزاج»، وقد كتبها غريغ في أواخر أيام حياته عندما كان بالكاد قادرًا على مغادرة المنزل بسبب المرض، لكنه بقي يقصد المقصورة ليكتب. عزفها ويليَم عزفًا رائعًا، وتساءلت: «لمَ، بحق الله، أفكّر حتى في العزف مع عازف بيانو على هذا القدر من البراعة والاحتراف. ولعلّ الأصح «ما الذي فكّر فيه حين اقترح عليّ أن أرافقه في العزف».

عند انتهاء الحفل، وبعد أن خرج الجمهور الذي قدّر موهبته، دعاني ويليَم إلى المسرح فانضممت إليه بعصبيّة.

قلت له:

- لم أسمع هذه المقطوعة من قبل. إنها رائعة وقد عزفتها بشكل جميل.

- شكرًا لكِ.

وانحنى انحناءة قصيرة ثم توقّف ليتأمّلني:

- آلي، أنت شاحبة جدًّا! لذا، وقبل أن يصيبك الجبن وتهربي مني، دعينا نجرّب. هلّا فعلنا؟

قلتُ، وأنا التفت إلى الأبواب في آخر القاعة:

- لا يمكن لأحد أن يدخل، أليس كذلك؟

- يا إلهي يا آلي! بدأت تبدين مذعورة بشدّة مثلي تمامًا.

همهمت وأنا أخرج الفلوت وأجمعها قبل أن يعطي ويليَم إشارة البداية:

- آسفة.

شعرت بالفخر لأنني تمكّنت من إنهاء الاثنتي عشرة دقيقة من دون أن أخطئ بنوتة واحدة، لكن مواكبة ويليَم البديهيّة والصوت العميق لبيانو شتينواي ساعداني كثيرًا.

عندما صفّق لي ويليَم، تردّد الصوت عاليًا في أرجاء القاعة الفارغة. وقال:

- حسنًا، إنْ كنت تعزفين بهذه الطريقة بعد عشر سنوات من الانقطاع، فأعتقد أني سأطلب منهم مضاعفة ثمن تذكرة الدخول إلى حفل ليلة السبت.

- لطف كبير منك أن تقول مثل هذا الكلام، لكنّ عزفي لم يكن مثاليًّا.

- لا، لم يكن كذلك، لكنّها بداية رائعة. والآن، أقترح أن نعيد عزف المقطوعة معًا ببطء أكبر. علينا أن نسوّي بعض المسائل المتعلقة بالتوقيت.

وخلال نصف الساعة التالية، تمرّنّا على مجموعات المقطوعة الثلاث، الواحدة تلوَ الأخرى. وبعد أن وضّبت الفلوت وسرنا معًا لنخرج من القاعة، أدركت أنّني لم أفكّر في ثيو ولو لمرة واحدة خلال الدقائق الخمس وأربعين الماضية.

سألني ويليَم:

- هل ستعودين إلى المدينة؟

- نعم.

- سأطلب سيارة أجرة إذاً.

وفي طريق العودة إلى وسط بيرغن، شكرت ويليَم وأكّدت له أنّني سأعزف معه نهار السبت.

فأجاب وهو يحدّق من النافذة بذهن مشتّت:

- يسعدني قرارك. بيرغن مكان مميّز فعلًا، أليس كذلك؟

- نعم، لديّ الشعور نفسه أنا أيضًا.

- أحد الأسباب التي جعلتني أوافق على المجيء وتقديم هذه الحفلات الموسيقيّة في ترولدهوغن هو أنه طُلب مني أن أنضمّ إلى أوركسترا بيرغن الفيلهارمونية كعازف بيانو أساسيّ. أردت أن أختبر الأجواء لأنّ هذا القرار يعني ترك معقلي في زوريخ والانتقال إلى بيرغن بدوام كامل تقريبًا. وبعد ما أخبرتك به بالأمس، تعلمين مدى صعوبة الأمر بالنسبة إليّ.

- هل كان جاك يعيش معك في زوريخ؟

- نعم، ولعل الوقت قد حان لبداية جديدة.

وأضاف قائلًا:

- النروج على الأقل نظيفة.

- نعم، هي كذلك.

وضحكت ثم تابعت قائلة:

- الناس هنا ودودون جدًّا. لكن لا بدّ من أنّ تعلّم اللغة صعب للغاية.

- من حسن حظي أنّ أذني تلتقط بسرعة. النغمات الموسيقيّة واللغات والأحاجي الحسابيّة، من حين إلى آخر، هي ميداني. كما أنّ الجميع هنا يتكلّمون الإنكليزية.

- حسنًا، أعتقد أنّ الأوركسترا ستكون محظوظة جدًّا بانضمامكَ إليها.

- شكرًا لكِ.

ومنحني ابتسامة نادرة قبل أن يسألني مع وصولنا إلى الفندق ودخولنا إليه:

- إذًا، ما هي مشاريعك هذا المساء؟

- لم أفكّر في الأمر بعد.

- هل تنضمين إليّ لتناول العشاء؟

لاحظ تردّدي على الفور فقال:

- أنا آسف، أنت متعبة على الأرجح. أراك في الغد عند الساعة الثالثة. إلى اللقاء.

ابتعد ويليّم عني بشكل مفاجئ، وتركني أقف وحيدة وقد تملّكني شعور بالذنب والتشوّش. لكنّني لم أكن على ما يُرام فعلًا، وهذا ما لا يشبهني مطلقًا. وبعد أن ذهبت إلى غرفتي واستلقيت على سريري، خطر لي كم أنّ هناك أمورًا كثيرة «لا تشبهني» في الوقت الراهن.

35

كان لا بدّ لي من الذهاب إلى برغن لشراء ثوب رسميّ ومحتشم يتناسب مع الحفل الموسيقيّ. وعندما ارتديت الفستان الأسود البسيط استعدادًا للذهاب إلى الرسيتال، طردت من ذهني ذكرى ارتدائي ثوبًا مشابهًا للمشاركة في مراسم دفن ثيو. فوضعت قليلًا من الماسكارا، وقد بدأت أشعر بتدفّق الأدرينالين بقوة جعلتني أميل فوق فتحة المرحاض وأتقيّأ. وبعد أن مسحت الدموع التي كانت تنهمر بغزارة من عينيّ، وقفت من جديد أمام المرآة لإصلاح الكحل الذي سال وإضافة قليل من أحمر الشفاه. ومن ثمّ التقطتُ معطفي وحقيبة الفلوت، وركبت المصعد لأنزل إلى بهو الفندق لموافاة ويليّم.

إلى جانب شعوري بالتوعّك الجسديّ، لم أتمكّن من التحكّم بالاضطراب الذي خالجني منذ دعوة ويليّم لي للعشاء. فخلال التمرينات التي جمعتنا عقب ذلك، أحسست بشيء من البرودة تنبعث منه، في ظل حرصه الشديد على ألّا يتخطّى الحديث المتبادل بينهما إطار «العمل»، حيث أن المناقشات التي كانت تدور بينهما في سيارة الأجرة تركّزت بشكل أساسيّ على الموسيقا التي تمرّنا على عزفها.

فُتح باب المصعد، ورأيته ينتظرني في ردهة الاستقبال وقد بدا وسيمًا في ربطة العنق والبذلة الرسميّة السوداء. وتمنّت في سرها ألا تكون قد أساءت إليه برفضها. إذ كنت أشعر بالإرباك الذي اختبرته في بداية علاقتي بثيو، ولكن بدرجات خفيفة، وحدّثني حدسي بأن ويليّم ليس شاذًا جنسيًا...

قال لي وقد نهض من مكانه وتوجّه نحوي:

- تبدين فاتنة يا آلي.

- شكرًا، ولكنني لا أشعر بذلك.

علّق بنبرة جافّة أثناء خروجنا من باب الفندق متوجّهين إلى سيارة الأجرة التي حجزها مسبقًا:

- إنه الجواب التقليديّ الذي أسمعه من كل النساء.

خيّم الصمت علينا في السيارة، وتملّكني شعور بالإحباط إزاء التوتّر الذي شاب علاقتنا، بحيث بدا ويليَم باردًا ومتشنّجًا.

لدى دخولنا إلى مسرح لوغين، التقى ويليَم منظّمة الحفل التي كانت في انتظارنا في ردهة المدخل.

- تفضّلا بالدخول، تفضّلا بالدخول.

قادتنا إلى قاعة أنيقة سقفها عالٍ، وأرضيتها مجهّزة بصفوف من المقاعد، في حين كانت الشرفة الضيّقة البارزة في أعلى مضاءة بالثريات المتلألئة. ولاحظت أن خشبة المسرح خالية إلا من بيانو ضخم وحاملة النوتات الموسيقية المخصّصة لي، بينما كانت الأضواء تُنار وتُطفأ أثناء وضع مهندسي الإضاءة لمساتهم الأخيرة على الإنارة.

قالت لنا المرأة:

- سأدعكما تقومان بمراجعة أخيرة. ستفتح الأبواب أمام الجمهور قبل خمس عشرة دقيقة من موعد البدء بالعرض الموسيقيّ، ما يعني أنّ لديكما حوالى ثلاثين دقيقة لتقيّما الهندسة الصوتيّة.

شكرها ويليَم ومن ثمّ صعد السلّم المؤدّي إلى خشبة المسرح متوجّهًا نحو البيانو الضخم. وبعد أن رفع الغطاء، مرّر أصابعه صعودًا ونزولًا على المفاتيح، فانشرح صدره وقال:

- إنه ستينواي بي، وصوته جيّد. ما رأيك بمراجعة سريعة؟

أخرجت الفلوت من الصندوق وجمعت أجزاءها معًا بيدين مرتعشتين. عزفنا معًا السوناتا، ومن ثمّ قصدت المرحاض تاركة ويليَم يتمرّن على المقطوعات التي سيعزفها وحيدًا. فقد شعرت من جديد بالغثيان، ودخلت لأغسل وجهي بالماء البارد. وكم سخرت من نفسي حين رأيت انعكاس وجهي الشاحب في المرآة. إذ

يُفترض بي أن أكون صاحبة المعدة القادرة على تحمّل أقسى الظروف في البحار من دون أن تشعر بأي انزعاج. وها أنا الآن على اليابسة، استعدّ للعزف على الفلوت أمام الجمهور لمدة لا تتجاوز اثنتي عشرة دقيقة، وأبدو أشبه ببحّارة مبتدئة تعاني من دوار البحر في مواجهة أول عاصفة بحريّة.

حين عدت إلى الكواليس، استرقت النظر إلى القاعة فوجدتها تغصّ بالحاضرين. نظرت إلى ويليَم بطرف عيني، فرأيته على بعد بضع خطوات مني يمارس طقسًا معيّنًا، يشمل كثيرًا من التمتمة والمشي، إضافة إلى تمارين خاصة بالأصابع، فقرّرت أن أدعه بسلام. ولسوء الحظ أن «سوناتا الفلوت والبيانو» هي المعزوفة التي سيُختتم الرسيتال بها، ما يعني أنني سأبقى منتظرة في الكواليس، في حالة من الترقّب والقلق.

قال لي ويليَم هامسًا: «هل أنت بخير؟»، بينما كانت منظِّمة الحفل تعرّف عنه، وتقرأ عبر مكبّر الصوت المراحل المهمّة من سيرته الذاتية.

أجبته وسط موجة التصفيق التي غمرت القاعة:

- إنني بخير، شكرًا لك.

- أود الاعتذار رسميًّا عن دعوتي الجريئة للعشاء. لم يكن تصرّفي لائقًا في ظل الظروف الراهنة. أعلم جيدًا أن مشاعرك في مكان آخر، وسأحرص من الآن فصاعدًا على احترام ذلك. آمل أن نبقى صديقين.

صعد بعدها ويليَم إلى المسرح، وانحنى للجمهور احترامًا، ومن ثمّ جلس على البيانو، وافتتح الرسيتال بمعزوفة شوبان السريعة والمعقّدة «دراسة رقم 5» مستخدمًا الصول المنخفض الكبير.

بينما كنت أستمع إلى عزف ويليَم، رحت أتأمّل الرقصة المعقّدة التي لا ينفكّ الرجال والنساء يمارسونها. ومع تأثّر القاعة بالنوتات الأخيرة للمقطوعة، أقررت في سرّي بأن جزءًا منّي خاب أمله لدى إعراب ويليَم عن أمله في أن نبقى صديقين. ناهيك بالإحساس بالذنب الذي كان يعشّش في ذهني لمجرّد التفكير في ردّ فعل ثيو إزاء ارتباكي من انجذابي إلى ويليَم...

بعد مكوثي في تلك الزاوية لما شعرت به وكأنّه لحظة سرمديّة، كنت أذرع خلالها المكان الضيّق جيئة وذهابًا، سمعت ويليَم يعرّف عني طالبًا مني الانضمام إليه على خشبة المسرح. فابتسمت له ابتسامة عريضة تعبيرًا عن شكري على عطفه وتشجيعه لي خلال الأيام القلية الماضية. ورفعت بعدها الفلوت إلى شفتي، وأشرت له إلى استعدادي وبدأنا بالعزف معًا.

بعد أن عزف ويليَم القطعة الموسيقيّة الأخيرة لتلك الأمسية، انضممت إليه من جديد على خشبة المسرح وشعرت بالغرابة وأنا أنحني معه للجمهور. كما قدّم لي منظّمو الحفل باقة من الورد تعبيرًا عن تقديرهم. وعند مغادرتنا خشبة المسرح، هنّأني ويليَم قائلًا:

- أحسنتِ يا آلي، كان أداؤك جيدًا. لا بل جيّدًا جدًّا.

- أوافقك الرأي تمامًا.

والتفتُّ نحو الصوت المألوف ووجدت أمامي إرلينغ، القيّم على متحف غريغ، واقفًا في الكواليس ومعه رجلان آخران.

رحّبت به بابتسامة عريضة:

- مرحبًا، وشكرًا لك.

- أقدّم لك يا آلي توم هالڤورسن، الحفيد الأصغر لجانس هالڤورسن وكاتب سيرته الذاتية. هذا فضلًا عن أنّه عازف كمان موهوب ومساعد قائد أوركسترا بيرغن الفيلهارمونية. كما أقدّم لك دايڤد ستيوارت، قائد الفرقة الموسيقيّة.

قال لها توم في حين التفت دايڤد ستيوارت نحو ويليَم:

- تشرفت بمعرفتك يا آلي. أخبرني إرلينغ بأنك تقومين ببعض البحوث عن أجداد أجدادي؟

شعرتُ وأنا أتأمّل توم وكأنني أعرفه من قبل، ولكنني لم أستطع أن أتذكّر أين تعرّفتُ إليه. كان توم نروجيًّا بامتياز في شعره المائل للحمرة، والنمش الذي يعلو أنفه، وعينيه الزرقاوين الواسعتين.

- نعم، هذا صحيح.

- يسعدني أن أقدّم لك المساعدة بأي طريقة ممكنة. ولكن أرجو منك أن تسامحيني، إذا لم أكن على سجيّتي هذا المساء. فقد عدت لتوي من نيويورك، حيث وجدت إرلينغ في انتظاري في المطار ليقلّني مباشرة إلى هنا، ويتسنّى لي الاستماع إلى عزف ويليّم.

- الاختلاف بالتوقيت مهلك.

تفوّهنا بذلك في آن معًا، ومن ثمّ تبادلنا الابتسام بخجل.

أضفت قائلة:

- هذا صحيح.

وفي تلك اللحظة، التفت دايفد ستيوارت نحونا قائلًا:

- يؤسفني القول إنني مضطرٌ للانصراف. لهذا عليّ أن أودّعكم. اتّصلْ بي يا توم في حال كانت الأخبار جيدة.

ولوّح لنا بيده مودّعًا وغادر المكان.

- أظنّك تعلمين يا آلي أنّنا نحاول إقناع ويليّم بالانضمام إلى الأوركسترا الفيلهارمونية. هل فكّرت في الأمر يا ويليّم؟

- أجل. وأود طرح بعض الأسئلة يا توم.

- اقترح في هذه الحالة أن نتوجّه معًا إلى أقرب مطعم لنتناول الطعام ونحتسي كأسًا.

والتفت نحوي ونحو إرلينغ سائلًا:

- هل ترغبان في الانضمام إلينا؟

أجاب إرلينغ متحدّثًا بالنيابة عني وعنه:

- في حال كنت تريد التكلم مع ويليّم على انفراد، من الأفضل ألّا نزعجكما.

- إطلاقًا. يكفي أن يقول لي ويليّم إنه موافق لنفتح بعدها زجاجة الشمبانيا.

ولم تكد تمر عشر دقائق حتى وجدنا أنفسنا في مطعم صغير مضاء بالشموع،

وتوم وويليَم منحنيَيْن فوق المائدة وهم مستغرقان في حديث جدّيّ، فلم أجد أمامي سوى التحدث مع إرلينغ الجالس قبالتي.

- أحسنتِ العزف هذا المساء يا آلي. وحريٌّ بك ألّا تهملي هذه الموهبة المميّزة والمتعة التي يبعثها العزف في نفسك.

سألته:

- هل أنت عازف أيضًا؟

- أجل. أنا أتحدّر من عائلة من الموسيقيين، تمامًا مثل توم. وأعزف على التشيللو مع فرقة موسيقيّة صغيرة في المدينة. فالموسيقى هي شريان الحياة في هذه البلدة. وأوركسترا بيرغن هي من أقدم الفرق الموسيقيّة في العالم.

قاطعنا ويليم قائلًا:

حسنًا، بإمكاننا أن نطلب زجاجة الشمبانيا! وافق ويليَم على الانضمام إلينا.

قال ويليَم بحزم:

- أشكرك على هذه اللفتة، ولكنّني لا أشرب الكحول بعد الساعة التاسعة.

أجابه توم مناغشًا:

- عليك أن تغيّر عاداتك عند انتقالك للعيش في النروج. فلا شيء أفضل من الكحول لتحمّل أيام الشتاء الطويلة في هذا المكان.

أجاب ويليَم بلطف وقد ظهر النادل حاملًا الزجاجة:

- حسنًا، سأنضمّ إليكم للاحتفال بهذه المناسبة.

ومع وصول أطباق الطعام، رفعنا كؤوسنا قائلين بصوت واحد:

- نخب ويليَم.

- يكفي أن أحتسي كأسًا من الشمبانيا لأستعيد نشاطي. ومن ثمّ ابتسم توم لي وتابع:

- حسنًا، حدثيني عن الرابط بينك وبين جانس وآنا هالڤورسن.

شرحت له بشكل مقتضب قصة إرث پاپا سولت، الذي شمل السيرة الذاتية

لجانس هالڤورسن وزوجته آنّا، والإحداثيات المدوّنة على الاسطرلاب الكرويّ التي قادتني أولًا إلى أوسلو، ومن ثمّ إلى بيرغن ومتحف غريغ.

- مذهل. وأضاف وهو يتأمّلني بتمعّن:

- ربما كانت تربط بيننا علاقة قربى. ولكنّني، بصراحة، لا أستطيع إيجاد الرابط بالنظر إلى أنني أجريت مؤخّرًا أبحاثًا عن تاريخ أسرتي.

شعرت فجأة بالانزعاج خشية أن يظنّ أنني فتاة حقيرة تبحث عن أصولها من أجل المال فأجبته قائلة:

- ولا أنا أيضًا. بالمناسبة، قمت بطلب كتابك وشحنه من الولايات المتحدة.

- هذا لطف منك يا آلي، ولكنّني أملك نسخة إضافية في المنزل في حال كنت ترغبين في إلقاء نظرة عليها.

- شكرًا لك، أو يمكنك على الأقل أن توقّع نسختي. وما دمت التقيتك شخصيًا، أظن أنّ بإمكانك مساعدتي لتوضيح بعض التفاصيل. هل تعلم ما حلّ بأسرة هالڤورسن في السنوات اللاحقة، بعد انتهاء السيرة الذاتية التي وضعها جانس؟

- نوعًا ما. يؤسفني القول إنها مرحلة غير سعيدة من تاريخ البشرية، لاسيما مع قرع طبول الحربين العالميّتَيْن الأولى والثانية. التزمت النروج الحياد في الحرب العالمية الأولى، ولكنها حظيت بنصيبها من الاحتلال الألماني في الحرب العالمية الثانية.

- حقًّا؟ لم أكن على علم بتعرّض النروج للاحتلال. فالتاريخ لم يكن من المواد المفضّلة لديّ في المدرسة. ولم يخطر على بالي يومًا التأمّل في عواقب الحرب العالمية الثانية على الدول الصغيرة البعيدة عن نطاق الدول الرئيسة. خاصة هنا، في هذا البلد المسالم، الجاثم على قمة العالم.

- ولكنّ الجميع يتعلّمون تاريخ بلادهم في المدرسة، صح؟ ما هو بلدك؟

- سويسرا

وضحكت بصوت خافت وقد رفعت نظري إليه، بينما كنّا نردّد في آن معًا:

- بلد حيادي.

وتابع توم قائلًا:

- حسنًا، تعرّضنا للغزو في العام 1940. والحقّ يُقال إنّني وجدت سويسرا مشابهة للنروج يوم ذهبت إلى لوسرن للمشاركة في حفل موسيقيّ منذ سنتين تقريبًا. ولست أتحدّث عن الطقس الجليديّ والثلجيّ فحسب، بل عن تلك السمة التي توحي وكأنهما منقطعان عن باقي العالم.

- أجل.

رحت أتأمّل توم وهو يلتهم طعامه، محاولة إيجاد السبب الذي جعله يبدو في نظري مألوفًا إلى هذا الحدّ، وتبيّن لي في نهاية المطاف أنني وجدت فيه بعض العلامات الجينية التي حفظتها من صور أسلافه.

- وهل تمكّن آل هالڤورسن من النجاة من الحربَيْن العالميتَيْن؟

- إنها قصّة حزينة جدًّا وشديدة التعقيد، ولا أظنّ أنّ ذهني المتعب نتيجة الاختلاف في التوقيت قادر على روايتها لك. ولكن بإمكاننا أن نلتقي لاحقًا، ربما بعد ظهر غد في منزلي؟ أقيم في المنزل الذي عاش فيه جانس وآنا، وبإمكاني أن أريك المكان الذي عاشا فيه أسعد الأوقات في علاقتهما.

رفع توم حاجبه، وشعرت بشيء من الإثارة لإدراكي بأنه على علم بقصّتهما.

- في الواقع، رأيت المنزل منذ بضعة أيام في الطريق إلى ترولدهوغن.

- هذا يعني أنك تعرفين العنوان. أرجو منك الآن أن تعذريني يا آلي لأنني أريد أن أخلد إلى النوم.

نهض توم من مكانه وحوّل انتباهه إلى ويليَم قائلًا:

- أتمنى لك رحلة طيّبة إلى زوريخ، وأنا واثق من أن المُشرف سيتواصل معك من أجل العقد. تستطيع الاتصال بي في حال احتجت إلى أي شيء آخر. حسنًا يا آلي، غدًا عند الساعة الثانية في فروسكهاوست؟.

- نعم، شكرًا يا توم.

سألني ويليَم بعد أن تمنّينا ليلة سعيدة لإرلينغ الذي كان سيأخذ توم إلى المنزل:

- ما رأيك لو نتمشّى قليلًا؟ فالفندق ليس بعيدًا من هنا.

- أظنّ أنّ ذلك يناسبني.

وافقت على اقتراحه رغبة مني في تنفّس بعض الهواء المنعش الذي يخفّف من الارتجاج في رأسي. سرنا في الشوارع المرصوفة بالحصى وصولًا إلى الميناء، حيث توقّف ويليَم أمامه قائلًا:

- بيرغن... منزلي الجديد! أتراني اتّخذت القرار الصحيح يا آلي؟

- لستُ أدري، ولكن من الصعب إيجاد مكان أكثر روعة للعيش فيه. من الصعب أن أتصوّر حدوث أمر سيئ في هذا المكان.

- هذا بالضبط ما يثير قلقي. أتراني اخترت الانسحاب والفرار من جديد، بعيدًا عمّا أصاب جاك؟ كنت أسافر بشكل جنونيّ منذ وفاتها، ما يدفعني للتساؤل إنْ قصدت هذا المكان للاختباء فحسب.

وتنهّد ويليَم بينما كنّا نسير على طول الرصيف متوجّهَيْن إلى الفندق.

تعجّبت في سري من إشارته إلى شريكه بصيغة المؤنّث، فاقترحت عليه قائلة:

- بإمكانك النظر إلى المسألة من منظار إيجابيّ واعتبارها خطوة إلى الإمام، تمهيدًا لفتح صفحة جديدة في حياتك.

- نعم، هذا ممكن. أود في الحقيقة أن أطرح عليك سؤالًا يا آلي. هل كانت تتردّد في ذهنك فكرة كيف لي أن أعيش بعد وفاتها؟

- من دون أدنى شك، وما تزال الفكرة تراودني. ثيو هو من أرغمني على النزول من المركب أثناء السباق، قبل وقت قصير من غرقه. أمضيت ساعات لا تُعدّ ولا تُحصى في التفكير في أنّه كان بإمكاني أن أنقذه لو بقيت على متن المركب، مع أنّني واثقة من أنّه لم يكن بوسعي ذلك.

- نعم... إنه طريق مسدود. وأدركت أنّ الحياة هي عبارة عن سلسلة من

الأحداث العشوائيّة. فبعد أن تركنا أحباؤنا، كان علينا أن نتعايش مع فقدانهم. يقول لي المعالج النفسي إن ذلك هو السبب في ظهور أعراض اضطراب الوسواس القهري لديّ. عند وفاة جاك، شعرت بأنني فقدت القدرة على التحكّم في الأمور، ولهذا كنت أفرط في التعويض عن ذلك. أظنّ أنّني أحرزت تحسّنًا بسيطًا، والدليل على ذلك هو احتسائي كأس الشمبانيا بعد الساعة التاسعة.

وهز ويليَم كتفيْه وتابع:

- التقدّم بطيء يا آلي، بطيء جدًّا.

- نعم. بالمناسبة، ما هو اسم جاك الكامل؟

- جاكلين، تيمُّنًا بجاكلين دو بريه. كان والدها عازف تشيللو.

- عندما تحدّثتَ عنها للمرة الأولى، حسبت أنها ذكر.

- آه! إنه أحد أشكال التحكّم، ومن الواضح أنّه يجدي نفعًا. فهذا الأمر يحميني من النساء الشرهات اللواتي يعترضنَ طريقي. إذ يكفي أن أتحدّث عن صديقي جاكي ليبتعدنَ عني. قد لا أكون نجم روك، لكنني أُحاط بعد كلّ عرض موسيقيّ بمجموعة من المعجبين والمعجبات الذين يطلبون رؤية الآلة التي أعزف عليها. أخبرتني مرة إحداهنّ أنها غالبًا ما تحلم بي أعزف لها السيمفونية رقم 2 لرخمنينوف وهي عارية.

- حسنًا، أرجو ألّا تكون قد اعتبرتني واحدة منهنّ.

- طبعًا لا. في الواقع....

وتوقّفنا أمام الفندق حيث راح ويليَم يتأمّل المياه الهادئة وهي تلطم الرصيف برفق.

- على العكس. وكما قلت لك من قبل، لم تكن دعوتي للعشاء لائقة. وهذا تصرّف متوقّع مني. وتنهّد وقد تعكّر مزاجه فجأة وأضاف:

- على أي حال، أشكرك على مرافقتي في العزف هذا المساء، وآمل أن نبقى على اتصال.

- أنا من يجب عليها أن تشكرك لأنّك أعدتني إلى عالم الموسيقا. والآن، عليّ أن أخلد للنوم قبل أن أتكوّر وأنام على الرصيف.

قال لي أثناء دخولنا البهو الذي بدا في تلك الساعة مهجورًا:

- سأغادر الفندق صباح الغد. هناك أمور كثيرة تحتاج إلى الترتيب في زوريخ. فتوم يريدني أن انضمّ إلى الأوركسترا في أقرب فرصة ممكنة.

- متى تنوي العودة؟

- في شهر تشرين الثاني، ليتسنّى لي المشاركة في التمارين استعدادًا للحفل الموسيقيّ الذي سيُقام بمناسبة الذكرى المئوية لغريغ.

سألني عندما توقّفنا أمام المصعد:

- هل ستمكثين هنا وقتًا طويلًا؟

- لست واثقة يا ويليَم.

- حسنًا.

دخلنا المصعد وضغط على زر الطابق المتوافق مع غرفة كلٍّ منا، وأضاف:

- هذه بطاقتي الشخصية. أعلميني بما تنوين القيام به.

- سأفعل.

توقف المصعد عند طابقه.

- الوداع يا آلي.

ورماني بابتسامة خاطفة مومئًا لي برأسه، ومن ثمّ خرج من المصعد.

عندما أطفأت المصباح قرب سريري بعد مرور حوالى عشر دقائق، تمنّيت في سرّي أن نبقى أنا وويليَم على اتصال. فالرجل يعجبني بالفعل على الرغم من أنّني لم أكن عازمة على الدخول في علاقة جديدة قبل سنوات طويلة. وبعد ما قاله لي منذ قليل، خُيّل إليّ أنّه يبادلني هذا الإعجاب.

36

قال توم مبتسمًا وهو يفتح باب فروسكهاوست لأتبعه إلى الداخل:

- مرحبًا بكِ. تفضّلي إلى غرفة الاستقبال. هل ترغبين في شرب شيء ما؟

- لا بأس بكوب من الماء، شكرًا.

تأمّلت غرفة الاستقبال بعد أن غادرها توم. كان ديكورها راقيًا وجذّابًا من طراز نروجي فريد: بسيط ومريح جدًّا. احتوت الغرفة على خليط من الكراسي المريحة غير المتطابقة، وعلى أريكة مع غطاء من الدانتيل على ظهرها، وقد وُضعت حول مدفأة ضخمة من الفولاذ، قادرة باعتقادي على أن تُبعد البرد ليلًا. الشيء الوحيد اللافت في الغرفة هو البيانو الكبير ذو اللون الأسود اللامع، الموضوع أمام النافذة التي تطل على البحيرة الرائعة تحتنا.

وقفت لألقي نظرة من قرب على مجموعة الصور المؤطّرة الموضوعة على طاولة قديمة في الزاوية. صورة محدّدة جذبتني وهي لولد صغير في الثالثة من عمره تقريبًا - أفترض أنه توم- يجلس في حضن امرأة قرب البحيرة، تحت أشعة الشمس الساطعة. تشاركا ابتسامة عريضة، وعينين ملوّنتين، واسعتين ومعبّرتين. ومع عودة توم، استطعت أن أرى بقايا الصبي الصغير الذي في الصورة على وجهه.

قال توم:

- آسف بشأن المنزل، فأنا لم أنتقل إليه إلّا منذ بضعة أشهر عندما توفيت أمي ولم يتّسع لي الوقت بعد لأغيّر الديكور. أنا أفضّل البساطة وأميل إلى الطراز الإسكندنافي الحديث؛ هذا الأثر من الماضي لا يشبهني.

- في الواقع، كنت أفكّر لتوّي كم أحببت هذا المكان. إنه...

- حقيقيّ!

نطقنا بهذه الكلمة في الوقت نفسه. وأردف توم:

- أنت تقرئين أفكاري. وما دمت تبحثين في حياة جانس وآنا، فمن الأفضل أن تري داخل المنزل الأصلي قبل أن أتخلّص من معظم الأثاث. يعود كثير من هذا الأثاث لهما ما يعني أنّ عمره حوالى مئة وعشرين عامًا الآن، على غرار كل شيء في المنزل بما في ذلك التمديدات الصحيّة. اشتريا الأرض- أم عليّ أن أقول إنّ آنّا هي التي اشترتها - في العام 1884 واحتاجا عامًا لكي يبنيا المنزل.

قلت بنبرة اعتذار:

- لم أسمع بأيّ منهما يومًا قبل أن أقرأ الكتاب.

- حسنًا، كانت آنّا معروفة أكثر منه في أوروبا، لكن جانس كان مهمًّا في زمانه، لاسيما في بيرغن. لقد حقّق نجاحًا فعليًا بعد وفاة غريغ في العام 1907، على الرغم من أن موسيقاه متفرعة إلى حدّ كبير من موسيقى المايسترو ونسخةً أقل قيمة عنها بصراحة. لا أعلم مدى المعلومات التي تعرفينها عن تدخّل غريغ في حياة جانس وآنّا...

- أعرف كثيرًا، بعد أن قرأت كلمات جانس نفسه. أعرف خصوصًا ما فعله من أجل آنّا، حيث أنقذها من النزل الذي عاشت فيه في لايبزيغ.

- نعم. حسنًا، ما دمت لم تقرئي كتابي بعد، فلم تعرفي أنّ غريغ هو من وجد جانس الذي كان يعيش مع عارضة للرسم في «مون مارتر». لقد تخلّت عنه راعيته، البارونة، وراح يجني لقمة عيشه من عزف الكمان، وهو ثمل ومنتشٍ من تعاطي الأفيون في معظم الأحيان، كما هو حال كُثُرٍ في مجتمع البوهيميين في باريس حينذاك. يبدو أنّ غريغ وجّه إليه كلامًا قاسيًا ثم دفع ثمن تذكرة عودته إلى لايبزيغ وطلب إليه بعبارات واضحة، لا لبس فيها، بأن يذهب ويضع نفسه تحت رحمة آنّا.

- من أخبرك هذا؟

- جدي الأكبر هورست الذي أخبرته آنّا القصّة وهي على فراش الموت.

- إذًا، متى عاد جانس؟

- في العام 1884 أو قرابة ذلك.

- بعد بضع سنوات من إنقاذ غريغ لآنا في لايبزيغ؟ سأكون صريحة يا توم؛ لقد شعرت بالاكتئاب حين وصلت إلى نهاية الكتاب. ولم أستطع أن أفهم لماذا رضيت آنّا بأن يعود جانس إليها بعد سنوات الهجر هذه كلها. والآن لا أفهم أيضًا لماذا بحثَ غريغ عن جانس في باريس. لا بدّ من أنه عرف شعور آنّا تجاهه. هذا غير منطقيّ.

تأمّلني توم وكأنّه يفكّر في أمر ما ثم قال في النهاية:

- حسنًا، هذه المشكلة مع التاريخ وقد اكتشفتها عندما كنت أبحث عن تاريخ أسرتي. أنت تحصلين على الوقائع، لكن من الصعب أن تعرفي دوافع الإنسان الحقيقيّة. تذكّري أنّ جانس هو من كتب المذكّرات. ولا نقرأ فيها آراء آنّا في الموضوع. وقد نُشِر الكتاب بعد وفاتها وكان تكريمًا لها من زوجها.

- شخصيًّا، كنت لأستخدم ساطور اللحم إذا ما تسلّل جانس عائدًا إليّ. لقد خطر لي أنّ لارس، خطيبها الأول، كان خيارًا أفضل بكثير.

- لارس ترولسن؟ تعرفين أنه سافر إلى أميركا وأصبح شاعرًا معروفًا نسبيًّا؟ تزوّج من فتاة من الجيل الثالث لعائلة نيويوركيّة ذات أصول نروجيّة ورُزق بعدد من الأولاد.

- حقًّا؟ هذا يجعلني أشعر بالارتياح. شعرت بالأسف حياله لكننا، نحن معشر النساء، لا نختار دومًا الرجل المناسب، أليس كذلك؟

ردّ توم ضاحكًا:

- لا أظنّ أنّني سأعلّق على هذا الكلام. جلّ ما أستطيع أن أقوله أنهما، بعين المراقب من بعيد، عاشا سعيدين معًا لما تبقّى من حياتهما. يبدو أنّ جانس بقي ممتنًّا إلى الأبد لغريغ لأنّه أنقذه من ملاهي باريس، ولآنا لأنّها سامحته. وما لا شكّ فيه أنّ جانس وآنا أمضيا وقتًا طويلًا مع غريغ بحكم الجيرة. وعندما توفّي غريغ، ساهم جانس في إنشاء قسم للموسيقا في جامعة بيرغن بفضل إرث غريغ الموسيقي. إنه الآن أكاديمية غريغ وهي المكان الذي درست فيه.

- أنا لا أعرف شيئًا عن العائلة بعد العام 1907، وهو العام الذي اختتم فيه جانس كتابه، كما أنّني لم أسمع يومًا أيًا من مؤلفاته.

- لم يكتب ما يستحقّ الاستماع إليه برأيي. لكنْ عندما كنت أرتّب ملفات الموسيقا الكثيرة التي تعود إليه، والتي كانت موضّبة في صناديق، وموضوعة في العليّة لسنوات، وقعت على شيء مميّز؛ إنه كونشيرتو على البيانو، كتبه لكنه لم يُعزف أمام الجمهور على حدّ علمي وبحسب أبحاثي.

- حقًّا؟

- ولمّا كانت الذكرى المئويّة لغريغ ستقام هذا العام، فقد جرى تنظيم فعاليات عديدة، بما في ذلك حفل موسيقيّ كبير هنا في بيرغن سيقام كحفل ختامي لسنة الاحتفالات.

- نعم، لقد أتى ويليَم على ذكر هذا.

- بإمكانك أن تتخيّلي أنّ الموسيقا النروجيّة ستحتلّ حيّزًا كبيرًا في جدول الأعمال وسيكون رائعًا أن يُعزف عمل جدّي الأكبر للمرة الأولى في هذا الحفل. تحدّثتُ إلى اللجنة المنظّمة، وإلى أندرو ليتون نفسه، وهو قائد الأوركسترا المبجّل لدينا، ومعلّمي في قيادة الأوركسترا في الوقت الحالي. سمعوا المقطوعة المدهشة برأيي، وقد أُدرجت في البرنامج ضمن الحفل الموسيقيّ الذي سيُقام في السابع من كانون الأول. ولأنني لم أجد سوى موسيقا البيانو في العليّة، فقد أرسلت المقطوعة ليوزّعها وينسّقها أوركستراليًا شاب موهوب جداً أعرفه. لكن عندما عدت إلى المنزل من نيويورك أمس، وجدت رسالة منه على المجيب الآلي يقول فيها إنّ أمّه أُصيبت بالمرض منذ أسابيع قليلة ولم يبدأ بالعمل على المقطوعة.

وتوقّف توم عن الكلام، واستطعت أن أرى خيبة الأمل على وجهه، ومن ثمّ أردف قائلًا:

- لا أعتقد فعلًا أنّها ستكون جاهزة في الموعد المناسب في كانون الأول. يا لها من خسارة... إنّها أفضل ما ألّفه جانس بحسب رأيي الخاص. كما أنّ تقديم عرض أول لعمل أصلي ألّفه الشخص من أسرة هالفورسن الذي عزف في العرض الأول لبير

جينت سيكون مثاليًا. في أيِّ حال، كفانا حديثًا عن مشكلاتي أنا. ماذا عنك يا آلي؟ هل سبق لكِ أن عملتِ ضمن أوركسترا؟

- يا إلهي، لا. لا أظنّ أنّ عزفي على الفلوت يرقى إلى هذا المستوى. أنا هاوية سعيدة.

- لن أوافقك الرأي، بعد أن سمعتك الليلة الماضية. يقول ويليَم إنك درست العزف على الفلوت لأربع سنوات في معهد الموسيقا في جنيڤ.

وتابع منتقدًا:

- وبعد كل هذا تقولين إنك بالكاد هاوية سعيدة يا آلي؟

- ربّما لا، لكنّني كنت حتى أسابيع قليلة خلت بحّارة محترفة.

- حقًّا؟ وكيف؟

وبينما رحت أحتسي كوبًا من الشاي بالأعشاب أحضره لي توم، أخبرته قصة حياتي الكاملة والأحداث التي قادتني إلى بيرغن. أدركت أنّني أصبحت متعوّدة تكرار الحكاية بشكل واقعيّ وليس بشكل عاطفي. ولم أعلم إنْ كان هذا علامة جيّدة أم سيّئة.

- يا إلهي يا آلي! ظننت أنّ حياتي معقّدة، لكنّ حياتك... حسنًا. لا أعلم كيف تمكّنت من التآلف والتعايش مع الوضع خلال الأسابيع القليلة الماضية. أرفع لك القبّعة، فعلًا.

أجبته بصرامة، في محاولة مني لتغيير الموضوع:

- أبقيت نفسي مشغولة بالنبش في ماضيّ. والآن، وبعد أن جعلتك تضجر بتفاصيل حياتي السخيفة، هل تعتقد أنك تستطيع أن تردّ لي المعروف وتخبرني عن أسرة هالڤورسن المعاصرة أكثر؟

وأضفت على عجل، وأنا أدرك أنّ هذه العائلة هي عائلة توم:

- إن لم يكن لديك مانع.

لم أشأ أن يعتقد أنني أفرض عليه أيّ مطالبة دائمة، فتابعت:

- أعني إنْ كان هناك أيّ صلة لي بالعائلة ومهما يكن نوعها، فلا بدّ من أنها مرتبطة بالماضي القريب لأنني في الثلاثين من عمري.

- وأنا كذلك في الواقع. أنا وُلدت في حزيران. وأنت؟

- في الواحد والثلاثين من أيار، هذا ما أخبرني به والدي بالتبنّي.

قال توم:

- حقًّا؟ وأنا في الأول من حزيران.

علّقت ضاحكة:

- يوم واحد يفصلنا. في أيّ حال، تفضّل، كلي آذان صاغية.

- حسنًا...

وأخذ توم رشفة من قهوته قبل أن يكمل كلامه:

- ترعرعتُ هنا في بيرغن، وقد ربّتني أمي التي توفّيت قبل عام. ولهذا السبب أعيش هنا في فروسكهاوست.

- أنا آسفة يا توم. أعرف شعور من يفقد أحد والديه كما أخبرتك منذ قليل.

- أشكرك. كان الأمر مروّعًا حينها لأننا مقرّبان جدًّا. أمي أم عزباء ولم يكن هناك أب يرعانا ويعيلنا.

- هل تعرف من هو؟

رفع توم حاجبه قبل أن يجيب:

- آه نعم. إنه قريب جانس هالڤورسن وثمّة رابط دم بينهما. فليكس، والدي هو حفيده الأصغر. لكن، وخلافًا لجانس الذي عاد على الأقل إلى آنّا في نهاية المطاف، لم يتحمّل أبي مسؤولياته مطلقًا.

- هل ما يزال حيًّا؟

- نعم ما يزال، علمًا أنه كان أكبر من أمي بحوالي عشرين سنة حين التقيا. أبي برأيي أكثر شخص موهوب على الصعيد الموسيقي بين رجال عائلة هالڤورسن من كل الأجيال. وعلى غرار آنّا، كانت أمي تتمتّع بصوت غنائي جميل. قصدت في

الأصل أبي لتتلقى دروسًا في البيانو فسحرها. حملت منه وهي في العشرين من عمرها، ورفض أن يعترف بأنّني ابنه، ونصحها بأن تجهضني.

- يا له من وضع رهيب. هل هذا ما أخبرتك به أمك؟

فأجاب توم بشكل قاطع:

- نعم. وأنا أصدّقها تمامًا لأنّني أعرف فليكس. مرّت بظروف صعبة بعد ولادتي، فوالداها تبرّآ منها ونبذاها. إنها تتحدّر من أسرة ريفيّة من الشمال، وهم محافظون جدًّا في هذه الأمور. كانت مارتا، والدتي، شبه مُعدَمة. عليكِ أن تتذكري أنّ هذ الأحداث جرت قبل ثلاثين عامًا حين كانت النروج لا تزال بلدًا فقيرًا نسبيًّا.

- كم هذا مريع يا توم. إذًا، ماذا فعلت؟

- لحسن الحظ إنّ جديّ الأكبرين، هورست وإستريد، تدخّلا وعرضا علينا أن نعيش معهما. لكنني أشعر أنّ أمي لم تتعافَ يومًا ممّا فعله أبي بها. بقيت تعاني من حين إلى آخر من نوبات اكتئاب حاد لما تبقّى من حياتها. ولم تستعد أبدًا قدرتها كمغنيّة.

- وهل يعترف فيلكس بك كابن له الآن؟

أجاب توم بوجه عابس:

- لقد اضطرّ إلى ذلك عندما أمرت المحكمة بإجراء فحص الحمض النووي حين كنت في سن المراهقة. توفّيت جدتي الكبرى وتركت المنزل وديعةً لي وليس لفليكس، حفيدها الأصغر. اعترض فليكس على الوصيّة وطعن فيها، قائلًا إنّني وأمي محتالان نسعى خلف المال، لذا تم إجراء فحص الحمض النووي. وجاءت النتيجة الصاعقة! دليل لا يقبل الشكّ على أنّ دماء هالفورسن تجري في عروقي. وهذا لا يعني أني اعتقدت للحظة عكس ذلك. لا يمكن لأمي أن تكذب في مسألة كهذه.

- صحيح. حسنًا، أودّ أن أقول أوّلًا إنّ ماضيك يبدو دراميًّا بقدر ماضيّ أنا.

وأضفت مع ابتسامة ارتحت حين رأيت توم يبادلني إياها:

- وهل ترى والدك؟

- في المدينة بين الحين والآخر، إنما ليس في العلن وبين الناس.

- إذًا، هو يعيش هنا؟

- نعم بالتأكيد. يعيش في التلال مع زجاجات الويسكي وقافلة لا تنتهي من النساء اللواتي يسلكن الطريق إلى بابه. في الواقع، هو فعلًا التجسيد الحيّ لبير جينت، الذي لم يرَ أيّ خطأ في تصرفاته وأسلوب عيشه.

وهزّ توم كتفيه بحزن فقلت:

- أنا مشوّشة قليلًا... تحدّثت عن جدّيك الأكبرين، لكن يبدو أنّ ثمة جيلًا مفقودًا. ما الذي حصل لجدّيك؟ والد فيلكس ووالدته؟

- هذه هي القصة الذي ذكرتها لك الليلة الفائتة. في الواقع، لم أعرفهما أبدًا. فقد توفيا قبل أن أولد.

- أنا آسفة يا توم.

وتفاجأت بانهمار الدموع من عينيّ بينما سارع توم ليقول:

- يا إلهي يا آلي، لا تبكي. أنا بخير وأتابع حياتي. لقد واجهتِ أنتِ ما هو أسوأ مؤخّرًا.

- أعلم أنّك بخير يا توم. أنا آسفة لكنّ القصة أثّرت فيّ، هذا كل ما في الأمر.

قلت هذا من دون أن أفهم تمامًا لماذا تأثّرت إلى هذا الحدّ.

- هذا ليس بالأمر الذي أتكلّم فيه غالبًا كما يمكن لك أن تتخيّلي. في الحقيقة، أنا متفاجئ لأنّني استطعت أن أتحدّث معك بهذه الصراحة والصدق.

- وأنا ممتنّة لك لأنك شاركتني قصتك يا توم، فعلًا. لديّ بعد سؤال واحد: هل استمعت يومًا إلى جانب والدك من القصة؟

نظر إليّ توم باستغراب:

- كيف يمكن أن يكون هناك جانب آخر للقصة؟

- آه، أنت تعلم...

- أتقصدين إلى جانب أنه سافل وعديم الفائدة وأنانيّ، ترك أمي وتخلّى عنها وهي حامل؟

- نعم.

وأخذت نفسًا عميقًا، مدركةً أنني أقف الآن على أرض متزعزعة. وتراجعت على عجل:

- بناءً على ما قلته، أنت على الأرجح محقٌّ، لا شيء يمكن إضافته إلى ذلك.

اعترف قائلًا:

- هذا لا يعني أنّني لا أشعر بالأسف حيال فليكس في بعض الأحيان. إنّ حياته فوضى عارمة، وقد أهدر موهبته الرائعة. من حسن الحظ أنّني ورثت اليسير منها وسأبقى ممتنًا لذلك دائمًا.

رأيت توم يتحقّق من ساعته فاعتبرتها إشارة إلى أنّ عليّ أن أغادر. قلت:

- عليّ أن أذهب. فقد أخذت ما يكفي من الوقت.

- لا يا آلي، أرجو ألّا تذهبي. في الحقيقة، خطر لي للتو كم أنا جائع. إنه تقريبًا موعد الفطور في نيويورك. هل ترغبين في تناول بعض الفطائر المحلّاة؟ إنها تقريبًا الشيء الوحيد الذي يمكن أن أعدّه من دون كتاب طبخ.

- أرجوك يا توم أن تخبرني إنْ كنت ترغب في طردي.

- سأفعل، لكنّني لا أرغب في ذلك. تستطيعين أن تأتي معي إلى المطبخ لتكوني مساعدة الطاهي. اتّفقنا؟

- اتّفقنا.

راح توم يسألني عن حياتي بينما كنّا نعدّ الفطائر.

- يبدو ممّا قلتِه من قبل أنّ والدك بالتبنيّ رجل مميّز جدًّا.

- نعم، كان كذلك.

- وكل أخواتك... لم تفتقري يومًا إلى الصحبة بالتأكيد. لقد عانيتُ أحيانًا من الوحدة الشديدة لأني طفل وحيد. كنت بحاجة ماسّة إلى أخوة وأخوات أثناء نشأتي.

- الشيء الوحيد الذي لم أعانِ منه يومًا هو الوحدة. فهناك دومًا من يمكنك أن تلعب معه، وهناك شيء تفعله. كما تعلّمت المشاركة مع الآخرين.

قال وهو يضع الفطائر في الطبقين:

- على عكسي أنا، حيث كان كل شيء لي، وقد كرهت أن أكون وليّ العهد بالنسبة إلى والدتي. لطالما شعرت بضغط من ناحيتها لأكون على قدر توقّعاتها. كنت كل ما لديها في الحياة.

علّقت على كلامه ونحن نجلس إلى طاولة المطبخ لنأكل:

- شُجّعنا أنا وشقيقاتي على أن نكون على طبيعتنا وكما نودّ أن نكون. هل شعرت بالذنب لأنّ أمك اضطرّت لأن تعاني كثيرًا لتأتي بك إلى العالم؟

- نعم. وأقول لك بصراحة إنها عندما كانت تعاني من نوبات الاكتئاب وتقول لي إنّ حياتها ضاعت وخربت بسببي، كنت أرغب في الصراخ في وجهها بأنني لم أطلب منها أن أولد، وأنّ الخيار كان خيارها.

- حسنًا، يا لنا من ثنائي، أليس كذلك؟

رفع ناظريه إليّ بعد أن وضع شوكته وأجاب:

- نعم يا آلي، هذا صحيح. في الواقع، من الجيد أن يكون هناك شخص قادر على أن يفهم ظروف عائلتي الغريبة.

- وأنا أيضًا.

ونظرت إليه عبر الطاولة ثم ابتسمت له فبادلني الابتسام، فتملّكني شعور قويّ جدًّا بأنّ هذا الوضع مألوف لي وقد شاهدته من قبل.

وما هي إلا ثوانٍ حتى علّق توم متأملًا:

- هذا غريب. أشعر وكأنّني أعرفك منذ زمن بعيد.

وافقته الرأي:

- أعرف ما تعنيه.

وفي وقت لاحق، أوصلني توم إلى المدينة وإلى الفندق الذي أقيم فيه.

سألني:

- هل أنت متفرّغة غدًا صباحًا؟

- ليس لديّ أيّ خطط.

- عظيم. سآتي لاصطحابك وسنقوم بجولة في قارب صغير حول المرفأ. سأخبرك بما حصل لجديّ بيپ وكارين. إنه فصل صعب ومؤلم في تاريخ أسرة هالڤورسن، كما سبق وأخبرتك.

- حسنًا، هل تمانع لو فعلنا هذا على اليابسة؟ اختفت قدرتي على تحمّل الإبحار منذ وفاة ثيو.

- أفهمك. لمَ لا تأتين لزيارتي مجدّدًا في فروسكهاوست؟ سآتي لاصطحابك عند الساعة الحادية عشرة. عمت مساءً يا آلي.

- تصبح على خير يا توم.

لوّحت له من أمام الفندق ثم صعدت إلى غرفتي. وقفت أمام النافذة أتأمّل المياه، وأتعجّب من صرف وقت طويل أنا وتوم ونحن نتحدّث عن أيّ شيء، وكل شيء، وكيف فعلنا هذا بشكل طبيعيّ ومن دون جهد. أخذت حمّامًا وأويت إلى السرير، وأنا أفكر بأنّه أصبح لديّ على الأقل أصدقاء جدد، وصداقات كوّنتها بينما أنا أبحث عن ماضيّ، وبغض النظر عن النتيجة التي ستُفضي إليها تحرّياتي.

واستغرقت في النوم على هذه الفكرة.

37

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، هرعت إلى المرحاض لأتقيّا وقد شعرت بالأسف لأنّ السكينة التي غمرتني ليلة البارحة هجرتني سريعًا. عدت إلى السرير مترنحةً، واستلقيت فيه والدموع تملأ عينيّ، وفي ذهني يتردّد ألف سؤال وسؤال عن السبب وراء هذا الشعور المريع. فلطالما اعتبرت الصحّة الجيدة التي أتمتّع بها أمرًا مفروغًا منه، ولم أعانِ من أيّ مرض من الأمراض التي تصيب الأطفال، وكنت دومًا الفتاة القوية البِنيَة التي تقدّم يد العون لماما كلما انتشرت عدوى خبيثة بين شقيقاتي.

ولكنّ هذا التوعّك الصباحيّ جعلني أتساءل إن كانت نوبة الغثيان الأولى التي أصابتني في ناكسوس ناجمةً عن فيروس في المعدة لم أُشفَ منه بعد، خاصّة وأنّني لم أذق طعم الراحة منذ ذلك الحين. ولعلّ أكثر ما أثار قلقي هو أنّ حالتي كانت تزداد سوءًا... وسلّمت في سري بأن ذلك ناجم عن التوتّر الذي عانيت منه خلال الأسابيع القليلة الماضية. من الأفضل أن أتناول شيئًا، لأن مستويات السكر في دمي منخفضة على الأرجح. فقرّرت أن أطلب وجبة فطور أوروبيّة وألتهمها كلها. جلست على السرير ووضعت صينية الطعام على ركبتيّ وصمّمت على تناول أكبر قدر ممكن من الطعام وأنا أقول في نفسي: إنه أفضل علاج للدوار والغثيان يا آلي.

ولم تكد تمرّ عشرون دقيقة، حتى وجدت نفسي أتقيّأ كلّ ما أكلته. ارتديت بعدها ملابسي وأنا أتمايل من شدّة التعب؛ فتوم سيصل في غضون نصف ساعة، وبإمكاني أن أطلب منه أن يصحبني لمراجعة أحد الأطباء في المدينة لأنّ المرض بادٍ عليّ بشكل جليّ. وفيما كنت أفكر في ذلك، رنّ هاتفي الجوّال.

- آلو؟

- آلي؟

- تيغي، كيف حالك؟

- أنا.. بخير. أين أنت؟

- ما زلت في النروج.

ساد الصمت لبضع ثوانٍ قبل أن تعلّق قائلة:

- آه.

- ما الأمر يا تيغي؟

- لا شيء... لا شيء على الإطلاق. كنت أود التأكّد إنْ عدت إلى أتلانتيس.

- كلا، لم أرجع بعد. هل كلّ شيء على ما يُرام؟

- نعم، كل شيء على ما يُرام، على أفضل ما يُرام. اتّصلت بك لأطمئنّ عليك فحسب.

- انني بخير، واكتشفت أشياء كثيرة عن الإشارات التي تركها لي بابا.

- جيّد. اتّصلي بي عند عودتك من النروج لنتمكّن عندها من أن نتقابل.

وأضافت بنبرة تنطوي على بهجة زائفة:

- أحبّك يا آلي.

- وأنا أيضًا أحبّك.

ركبت المصعد متوجّهة إلى الطابق السفليّ، وذهني مشوّش من الطريقة الغريبة التي تحدثت تيغي بها معي. كنت متعوّدة رزانتها، وقدرتها على تحسين مزاج كل المحيطين بها عبر نشر ذبذبات خاصّة بها من الأمل المبطّن. ولكنها بدت هذه المرة في صورة مختلفة تمامًا. فعاهدت نفسي على أن أرسل إليها برسالة إلكترونيّة في وقت لاحق.

- مرحبًا.

رأيت توم مقبلًا نحوي لدى خروجي من المصعد. فأجبته مبتسمة وأنا أبذل ما بوسعي لألمّ شتات نفسي:

- مرحبًا.

- هل أنتِ بخير يا آلي؟ تبدين شاحبة.

- أجل، حسنًا. كلا، لست بخير.

وأضفت أثناء توجهنا نحو مخرج الفندق:

- أشعر بالتوعّك. ولكي أكون صادقةً معك، كنت أشعر بالانزعاج منذ بضعة أيام. أنا واثقة من أنّ الأمر ليس خطيرًا، ومن الممكن أن يكون مجرد التهاب في المعدة، هل تعرف طبيبًا أستطيع استشارته.

- بالتأكيد. هل أصحبك لمراجعته الآن؟

- لا، لا داعيَ لذلك، ليس الأمر بهذا السوء، ولكنني لست... على ما يرام.

قال لي وهو يساعدني على الصعود في سيارته القديمة من نوع رينو:

- تبدين في حالة مزرية يا آلي.

والتقط هاتفه الجوّال وتابع:

- ما رأيك لو أحجز لك موعدًا لوقت لاحق اليوم؟

أجبته متمتمة:

حسنًا، شكرًا لك. إنني آسفة حقًّا.

ورأيته يتصل برقم عبر هاتفه المحمول، ويتحدّث مع الشخص على الطرف الآخر من الخط باللغة النروجية.

- حسنًا، حجزت لك موعدًا عند الرابعة والنصف.

وحدّق إلى ملامح وجهي الشاحبة وأضاف مبتسمًا:

- من الأفضل الآن أن نتوجّه مباشرة إلى فروسكهاوست حيث تستطيعين الاسترخاء تحت لحاف دافئ على الأريكة. وسأدعك بعدها تقرّرين إنْ كنت تفضّلين الاستماع إلى قصة جديّ أو إلى عزفي على الكمان.

- ألا يمكن لنا القيام بكلا الأمرين؟

وابتسمت له ابتسامةً واهيةً وأنا أتساءل في سري كيف تُراه علم بأنّ جلّ ما كنت أحتاج إليه في هذا النهار الخريفيّ البارد، والغثيان الذي ينغّص عليّ حياتي، هو التقوقع تحت لحاف دافئ، والاستماع إلى قصة وبعض الموسيقا.

وبعد مرور حوالى نصف ساعة، وجدت نفسي مسترخيةً على الأريكة، أستمتع بالدّفء المنبعث من الموقد الحديديّ الضخم، فطلبت من توم أن يعزف لي على الكمان.

- ما رأيك لو نبدأ بالقطعة الموسيقيّة المفضّلة لديك؟

- حسنًا.

وتنهد تنهيدة ساخرة وأضاف:

- بالنظر إلى حالتك اليوم، لا أريدك أن تظنّي أنها ذات صلة بذلك، بأيّ شكلٍ من الأشكال.

أجبته وقد أثار تعليقه حيرتي:

- لن أفعل، أعدك بذلك.

- حسنًا.

وضع توم الكمان برفق تحت ذقنه، وقام بضبطه لبضع ثوانٍ، ومن ثمّ بدأت ألحان إحدى المقطوعات الموسيقيّة المفضّلة لديّ تتدفقّ من آلته. فانفجرت بالضحك وقد فهمت ما كان يقصده بكلامه.

توقّف توم عن العزف، وقال لي وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

- سبق أن نبّهتك.

- هذا صحيح، «البجعة التي تحتضر» هي من الأعمال الموسيقيّة المفضّلة لديّ أيضًا.

- جيّد.

قال ذلك وعاد إلى العزف من جديد، بينما كنت مستلقية على الأريكة، أنعم بالدّفء والراحة، واستمتع بالألحان الجميلة التي يعزفها لي عازف كمان موهوب بالفطرة، ما جعلني أشعر بالفخر لأنّه تكرّم عليّ بهذا الرسيتال الخاص. ولم يكد ينهي عزف النوتات الأخيرة حتى ضممت يديّ معًا ورحت أُصفّق له.

- شكرًا لك. ماذا ترغبين في أن أعزف لك الآن؟

- أعزف كلّ ما تجد متعة في عزفه وتجيده بإتقان.

- حسنًا، فلنبدأ.

استمعت خلال الأربعين دقيقة التالية إلى عزف توم مجموعة مختارة بعناية من الأعمال الموسيقية المفضّلة لديه، بما فيها افتتاحية كونشيرتو الكمان لتشايكوفسكي على السلّم الموسيقي الكبير، وسوناتا معزوفة الشيطان لتارتيني، ولاحظت كيفية انتقاله إلى عالم آخر، عالم يدخله كل موسيقيّ محترف قابلته في حياتي، أثناء عزفه. وتساءلت في سرّي من جديد كيف تمكّنت من العيش بعيدًا عن الموسيقا والموسيقيين خلال السنوات العشر الأخيرة من حياتي، لاسيما وأنّني اختبرت أيضًا هذا الشعور ذات مرّة. ويبدو أن النعاس غلبني في مرحلة معيّنة فاستسلمت للنوم من شدّة الإحساس بالاسترخاء والأمان والدّفء. وإذ بيدٍ تربّت كتفي برفق.

فتحت عينيّ ووجدت توم ينظر إليّ بقلق.

- آسفة، آسفة.

- كان يمكن أن أشعر بالإهانة لأنّ جمهوري المؤلّف من شخصٍ واحدٍ قد غطّ في النوم، ولكنّني لن آخذ الأمر على محمل شخصيّ.

- لا يُفترض بك أن تفعل. أقسم لك بأنّه نوع من الإطراء ولكنْ بأسلوب ساخر قليلًا.

وانسللت ببطء من تحت اللحاف قائلة:

- هل أستطيع دخول الحمّام؟

- أجل، إنه في آخر الرواق إلى اليسار.

- شكرًا.

عند عودتي من الحمّام، وقد غمرني شعور بالراحة لأنّ حالتي الصحية أفضل ممّا كانت عليه في الصباح، وجدت توم في المطبخ وقد وضع على الموقد قدرًا تحدث بقبقة.

سألته:

- ما الذي تفعله؟

- أعد الغداء. فالساعة جاوزت الواحدة. تركتك نائمة لأكثر من ساعتين.

- يا إلهي! لا عجب في أنّك شعرت بالإساءة. إنّني في غاية الأسف.

- لا بأس يا آلي. أدركت من خلال ما قلته لي أنك قاسيت الأمرّين في الآونة الأخيرة.

- هذا صحيح.

واعترفت له قائلةً، من دون الإحساس بأي خجل:

- اشتقت إلى ثيو كثيرًا.

- أنا واثق من ذلك. أعلم أنّ كلامي سيبدو غريبًا، ولكنّني أحسدك نوعًا ما.

- كيف ذلك؟

- أحسدك على هذا الشعور الذي لم أشعر به بعد تجاه أيّ امرأة. صحيح أنّ علاقاتي كانت كثيرة، ولكنّها لم تأتِ ثمارها لأنّني لم أجد بعدُ «توأم روحي» الذي يتحدّث عنه الجميع.

- ستجدها يا توم، أنا واثقة من ذلك.

- ربما، ولكن عليّ الاعتراف بصراحة بأنّني بدأت أفقد الإيمان في ذلك مع تقدمي في السنّ. يبدو أنّ الأمر يحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ يا آلي.

- ستظهر إحداهنّ في حياتك تمامًا كما ظهر ثيو في حياتي، وستدرك بأنها المرأة التي كنت تبحث عنها. والآن، ماذا تطهو؟

- الطبق الوحيد الذي لا أخفق فيه... الباستا على طريقة توم.

أجبته محاولة إغاظته:

- حسنًا، لا أملك أدنى فكرة عن المكوّنات التي ستستخدمها، ولكنّني واثقة من أن طبق الباستا الخاص بي أفضل بكثير من طبقك. إنه الطبق الذي أجيد إعداده.

- حقًّا؟ لا أظن أنّه يضاهي طبقي. فالناس يتوافدون من تلال بيرغن لتذوّقه.

وأضاف بينما كان يصفّي الباستا ويضيف إليها نوعًا من الصلصة ويحرّكها:

- اجلسي لو سمحتِ.

تناولت قليلًا منها بتردّد، لأنني لم أكن أرغب في زيارة المرحاض من جديد. ولكنّ طبق توم المؤلّف من مزيج من الجبن، والأعشاب واللحم المقدّد، كان سهل الهضم على معدتي.

سألني وهو يحدّق إلى طبقي الفارغ:

- حسنًا، هل هو شهي المذاق؟

- ممتاز. أعترف بأنّ طبق الباستا الخاص بك بعث فيّ النشاط من جديد. أنا مستعدّة الآن لسماع كونشيرتو جدّك الأكبر. هذا في حال كنت ترغب في العزف لي؟

- بالتأكيد. ولكن عليك أن تعلمي أنّ البيانو ليس الآلة الموسيقيّة المفضّلة لديّ، وبالتالي لن أتمكّن من إيفائه حقّه.

عدنا إلى قاعة الجلوس وألقيت بثقلي من جديد على الأريكة، ولكنّني اخترت الجلوس هذه المرة بشكل مستقيم بينما كان توم يجلب النوتات الموسيقيّة عن الرف.

- هذه هي النوتات الموسيقيّة الأصلية؟

- أجل.

وتابع قائلًا وهو يرتّب النوتات على الحاملة:

- حسنًا، أريد منك مساندتي في هذا التحدّي، اتفقنا؟

ما أن بدأ توم بالعزف، حتى أغمضت عينيّ وركّزت انتباهي على الموسيقا. كانت نغمات غريغ التوافقية شديدة الوضوح، إلا أنها كانت ممزوجة بشيء فريد، ومشوبة بلحن جذّاب رائع، لحن ذكّرني برخمانينوف ومسحة من سترافينسكي. أنهى توم عزف المقطوعة والتفت نحوي قائلًا:

- ما رأيك؟

- ما يزال اللحن يطنّ في ذهني. إنه فتّان يا توم.

- أعتقد ذلك أيضًا، ودايفد ستيوارت وأندرو ليتون. سأبذل ما باستطاعتي في الغد للبحث عن شخص قادر على مطابقتها مع توزيع الموسيقا. لست واثقًا إن كان باستطاعته القيام بذلك ضمن الوقت المحدّد، ولكنّ الأمر يستحق العناء. بصراحة، لست أدري كيف استطاع أسلافنا القيام بذلك. فعلى الرغم من أن وسائل الحوسبة الحديثة أصبحت حاليًا متوافرة، لكنّ الأمر صعب بما فيه الكفاية، ولا بدّ من أنّ تدوين كل نوتة موسيقيّة لكل آلة من الآلات الموسيقيّة في الأوركسترا على المدوّنات هي مَهمّة عسيرة بالفعل. ولا عجب في أنّ كبار المؤلّفين الموسيقيين استغرقوا وقتًا طويلًا جدًّا لتسجيل السيمفونيات والكونشيرتو. لا بدّ لي من أن أحيي جانس وأسرته وأعرب عن إعجابي الشديد بهم.

- لا ريب في أنك تتحدّر من سلالة عريقة، أليس كذلك؟

قال توم ببطء:

- السؤال الأهم الذي يطرح نفسه هو: هل أنتِ أيضًا تتحدّرين من تلك السلالة يا آلي؟

وتابع بعدها:

- عندما انصرفت مساء البارحة، فكّرتُ مليًا في صلة القربى الممكنة بينك وبين عشيرة هالفورسن. ولمّا كان والدي فليكس ولدًا وحيدًا، ولم يكن لأيّ من جدّي أي أشقاء، توصّلت إلى استنتاج وحيد.

- ما هو؟

- أخشى أن تشعري بالإهانة يا آلي.

ألححت عليه قائلة:

- قل ما عندك يا توم، باستطاعتي تقبّل ما ستقوله.

- حسنًا، بالنظر إلى تاريخ والدي الحافل بالعلاقات مع النساء، كنت أتساءل إنْ أثمرت إحدى تلك العلاقات عن طفل غير شرعي، طفل لا علم له بوجوده.

حدّقت إلى توم بينما كنت أحاول أن أوازن في ذهني ما قاله.

- نعم، أظنّ أنّها فرضية مُمكِنة. ولكن لا تنسَ يا توم أنّنا لا نملك بعدُ أيّ دليل على وجود صلة دم بيني وبين آل هالڤورسن. وأشعر بالانزعاج الشديد لأنّني ظهرت من العدم وتطفّلت على تاريخ أسرتك.

- أصغي إليّ، كوني واثقة من أن كتابي سيصبح أكثر متعة إذا ازداد عدد أفراد أسرة هالڤورسن.

- لن نتمكّن من التأكّد من ذلك، إلا في حال سألت والدك.

ردّ توم بمرارة:

- أنا واثق من أنه سيكذب كما يفعل دائمًا.

- بعد ما سمعت عنه منك، أتمنّى ألّا تربطني به أيّ علاقة قُرْبى على الإطلاق.

علّق توم باستهجان:

- لا أريد أن أبدو سلبيًّا يا آلي. ولكنّني لا أرى أيّ جانب إيجابيّ.

- لا بأس.

وإذْ لم أجد مفرًّا من تغيير منحى الحديث، أضفت قائلة:

- دعنا نرسم شجرة العائلة؛ أنجب جانس وآنا طفلًا أسمياه هورست.

- هذا صحيح.

وتوجّه توم نحو طاولة المكتب وأحضر كتابًا كان موضوعًا عليه.

- هذه هي السيرة الذاتية التي كتبتها، كما رسمت شجرة أسرة هالڤورسن. انظري.

ناولني الكتاب وأضاف:

- تجدينها في ختام الكتاب قبل التشكّرات.

- شكرًا.

وتابع توم بينما كنت أبحث عن الصفحة:

- كان هورست عازف تشيللو موهوبًا وسافر إلى باريس بدلًا من لايبزيغ لمتابعة دراسته. ولدى عودته إلى النروج، انضمّ إلى أوركسترا بيرغن الفيلهارمونية حيث أمضى الجزء الأكبر من حياته. كان رجلًا وسيمًا جدًا، وعلى الرغم من أنه كان في الثانية والتسعين من عمره عند ولادتي، أذكر أنه كان لا يزال في كامل نشاطه. وأخبرتني أمي بأنّه كان أول من وضع أصابعي على الكمان عندما كنت في الثالثة من عمري. توفي عن عمر يناهز المئة سنة وسنة، من دون أن يعاني من أيّ مرض في حياته. آمل أن أكون قد ورثت جيناته.

- ماذا عن أولاده؟

- تزوج هورست أستريد، التي كانت تصغره بخمسة عشر عامًا، وعاشا معظم أيام حياتهما هنا في فروسكهاوست. وأنجبا طفلًا أسمياه جانس تيمّنًا بجدّه، على الرغم من أن الجميع كانوا يعرفونه باسم بيپ، لسببٍ ما.

سألته وقد بدأت تتشوّش أفكاري أثناء تفحصي شجرة العائلة:

- وماذا حلّ به؟

- هذه هي القصّة التي ذكرتها يا آلي، ولكنّها مفجعة بعض الشيء. وبالنظر إلى حالتك الصحّية، هل أنتِ واثقة من أنّكِ قادرة على تحمّل ذلك؟

أجبته بحزم:

- أجل.

- حسنًا، أثبت جانس الابن أنه موسيقيّ موهوب، وقصد لايبزيغ ليتابع دراسته، تمامًا كما فعل جدّه الذي سُمّي على اسمه، من قبله. ولكن في تلك المرحلة من العام 1936 كان العالم قد بدأ يتغيّر...

بيب

لايبزيغ، ألمانيا

تشرين الثاني 1936

38

سار جانس هورست هالڤورسن- المعروف أكثر باسم «بيپ»، وهو لقب أُعطي له حين كان بذرة صغيرة في بطن أمه- بخطى سريعة نحو المبنى الكبير ذي الحجارة الباهتة اللون الذي يضم المعهد الموسيقي في لايبزيغ. لديه هذا الصباح درس مهمّ مع هيرمن إبندروث، قائد أوركسترا لايبزيغ غيواندهوس، الشهير، وهو يشعر بالإثارة تسري في جسده وتدغدغه. منذ أن أتى إلى لايبزيغ قبل عامين ونصف العام وابتعد الحدود الموسيقيّة الضيّقة لمسقط رأسه بيرغن، انفتح أمامه عالم جديد، على الصعيدين الإبداعي والشخصيّ.

وبدلًا من الموسيقا الجميلة- إنما القديمة الطراز برأي بيپ - لأمثال غريغ وشومان وبرامز التي تعوّد الاستماع إليها مع والده، هورست، منذ الطفولة، عرّفه المعهد إلى مؤلّفين موسيقيين ما يزالون أحياءً الآن. والمؤلّف الموسيقي المفضّل لديه حاليًا هو رخمانينوڤ، صاحب مقطوعة رابسودي على موضوع البيانو التي عُزفت للمرّة الأولى قبل عامين في أميركا، وهو من ألهم بيپ في بادئ الأمر لكي يكتب موسيقاه الخاصة. وراح يصفّر اللحن بصوت خافت بينما هو يسير في شوارع لايبزيغ العريضة. ساهمت دراسته للبيانو والتأليف في إذكاء نار مخيّلته الإبداعيّة، وفتحت المجال أمام أفكار موسيقيّة تقدميّة. وفضلاً عن إعجابه بألمعيّة رخمانينوڤ، كان مسحورًا بمقطوعة سترافينسكي «طقوس الربيع»، وهي مقطوعة حديثة وجريئة إلى حدّ أنها ما تزال وبعد أكثر من عشرين عامًا على عزفها للمرة الأولى في باريس في العام 1913، تدفع والده وهو عازف التشيلو الماهر، إلى وصفها «بالفاحشة».

كان بيپ دائم التفكير في حبّ حياته الآخر أي كارين؛ مصدر الإلهام الذي

دفعه قُدُمًا لكي يحسّن نفسه. وصمّم أنه في أحد الأيام، سيجعل إحدى المقطوعات إهداءً لها.

التقيا منذ أكثر من عام في حفل موسيقيّ في قاعة حفلات غيواندهوس في إحدى أمسيات شهر تشرين الأول الباردة. كان بيپ قد بدأ لتوّه سنته الثانية في المعهد الموسيقي فيما كانت كارين في سنتها الأولى. وفي بهو غيواندهوس وبينما كانا ينتظران لكي يحتلّا مكانيهما في الصف الخلفي للحضور، أوقعت قفازًا من الصوف فالتقطه بيپ وأعاده إليها. التقت أعينهما وهو يعيد لها القفاز ولم ينفصلا منذ ذلك الحين.

كانت كارين مزيجًا مدهشًا فرنسيًا وروسيًا، وقد نشأت في منزل بوهيمي مميّز في باريس. كان والدها نحّاتًا فرنسيًّا ذا شهرة، ووالدتها مغنيّة اوبرا ناجحة. وتجلّى إبداعها الخاص في عزف المزمار فكانت واحدة من النساء القلائل اللواتي يدرسن في المعهد الموسيقي. بشعرها الأسود الحريري كمعطف من جلد النمر، وعينيها الداكنتين اللامعتين اللتين تعلوان عظمتيّ الخدين الرفيعتين، كانت بشرة كارين حتى في عزّ حرارة الصيف، شاحبة وبيضاء بقدر بياض ثلوج النروج. كانت فريدة في أسلوب لبسها، إذ اجتنبت الأزياء النسائيّة المعهودة وفضّلت ارتداء بنطال مع ثوب فنان أو سترة مفصّلة خصّيصاً لها. ولم تكن ملابسها هذه تضفي عليها مظهرًا رجوليًّا، بل على العكس من ذلك، فقد أبرزت جمالها المثير. ولعلّ العيب الجسديّ الوحيد المحسوس- والذي تعوّدت الشكوى منه على الدوام- هو أنفها الذي ورثته، بحسب ما يبدو، من والدها اليهوديّ. وما كان بيپ ليأبه حتى لو بلغ حجم أنفها حجم أنف بينوكيو بعد أن يكذب، فهي بنظره كاملة، كاملة فحسب.

سبق أن ناقشا مستقبلهما معًا: سيبذلان قصارى جهدهما لكي يجدا عملًا في أوركسترا في أوروبا، وأملا أن يدّخرا ما يكفي من المال ليسافرا إلى أميركا ويبدآ حياة جديدة هناك. كان هذا حلم كارين أكثر مما هو حلمه، لكنه فهم السبب الذي يجعلها ترغب في الرحيل. فهنا في ألمانيا، تعاظمت الدعاية المعادية لليهود التي يبثّها الحزب النازي وينشرها، كما راح اليهود في أنحاء أخرى من البلاد يتعرّضون للمضايقات والملاحقات باستمرار.

ومن حسن الحظ أنّ عمدة لايبزيغ، كارل فرديريك غوردلير، ما يزال معارضًا عنيدًا وشرسًا للروحيّة النازيّة. كان بيپ يطمئن كارين يوميًا إلى أنها لن تتعرّض لأيّ أذى هنا، وأنه سيعتني بها ويحميها. بالإضافة إلى أنها ستحمل عندما يتزوّجان اسمًا نروجيًا بدلاً من شهرتها الحاليّة التي تشير بشكل جليّ إلى أصولها «روزنبلوم». وكان يغيظها باستمرار بشأن شهرتها كلّما تحدّثا في الموضوع.

لكن اليوم هو يوم مشمس ورائع، وقد بدا الهدير المتوتّر للخطر النازي بعيدًا ومبالغًا فيه. قرّر في ذلك الصباح، وعلى الرغم من الهواء البارد، أن يقطع المسافة التي تستغرق عشرين دقيقة من مكان إقامته في جوهانيسغاس إلى المعهد الموسيقيّ سيرًا على قدميه، بدلًا من أن يستقلّ الترامواي. وفكّر كم تغيّرت المدينة وكبرت منذ أيام والده. وعلى الرغم من أن هورست هالڤورسن عاش معظم حياته في بيرغن إلا أنّه وُلِد هنا في لايبزيغ، ومعرفة بيپ بوجود صلة عائليّة جعلته يشعر بانتماء إضافيّ إلى المدينة.

ومع اقترابه من المعهد الموسيقيّ، تجاوز التمثال البرونزي لفليكس ماندلسون، مؤسس مدرسة الموسيقا، الذي ينتصب أمام قاعة غواندهوس للحفلات الموسيقيّة. أمال قبعته في ذهنه تحيّةً للرجل العظيم قبل أن يلتفت إلى ساعته ويسرّع خطواته، وقد أدرك أنه تأخّر.

وقف اثنان من أصدقائه المقرّبين، هما كارستن وتوبيا، ينتظرانه، وقد استندا إلى أحد أعمدة القناطر التي تشكّل مدخل المدرسة.

استفهم كارستن بابتسامة خبيثة:

- صباح الخير أيها الكسول. هل أبقتك كارين مستيقظًا حتى وقت متأخر الليلة الماضية؟

ردّ بيپ بلطف على مضايقات صديقه:

- لا، رافقتها بالأمس سيرًا على القدمين، وتأخرتُ أكثر مما توقّعت.

قاطعهما توبيا:

- أسرعا أنتما الاثنين، باللّه عليكما. هل ترغبان فعلًا في أن تتأخّرا على درس السيد إبندروث؟

انضمّ الأصدقاء الثلاثة إلى الدفق المتواصل للطلاب الذي بدأ بالدخول إلى قاعة غروبر، وهي قاعة واسعة ذات سقف مقبّب يستند إلى صفّ من الأعمدة ورواق علويّ يشرف على الطابق الأرضيّ والمسرح. وتُستخدم هذه القاعة للمحاضرات ولإقامة الحفلات الموسيقيّة على حدّ سواء. عندما جلس بيپ، تذكّر حفله الموسيقيّ الأول على البيانو هنا وكشّر، فزملاؤه الطلاب وأساتذته كانوا جمهورًا ناقدًا أكثر من أيّ جمهور يمكن أن يصادفه في قاعات الحفلات العامة في المستقبل. وأداؤه في ذلك الحين تعرّض للتحليل الدقيق ومُزّق إربًا إربًا بعد انتهائه.

أما الآن، وبعد مرور عامين ونصف العام، فقد شعر بأنّه محصّن ضدّ أيّ تعليقات وانتقادات لاذعة بشأن عزفه؛ فالمعهد يتباهى بتخريج موسيقيين محترفين، عُرِكوا وصُقِلوا ليصبحوا مستعدين للخروج منه والانضمام إلى أيّ أوركسترا في العالم.

همس توبيا بينما هم يجلسون في مقاعدهم:

- هل قرأتما الصحيفة هذا الصباح؟ توجّه عمدتنا إلى ميونيخ للاجتماع بالحزب. لاشكّ في أنه سيتعرّض لمزيد من الضغط لكي يستخدم أساليبهم المعادية للساميّة هنا في لايبزيغ. الوضع يزداد خطورةً يومًا بعد يوم.

تعالى التصفيق الحاد مع دخول هيرمان إبندروث إلى القاعة، لكن قلب بيپ راح يخفق بسرعة أكبر بينما هو يصفّق بسبب الأخبار التي أطلعه عليها توبيا للتوّ.

في ذلك المساء، التقى كارين وصديقتها المقرّبة إيل في مقهاهما المعتاد الواقع بين مكان إقامته ومكان إقامتهما. اجتمعت المرأتان معًا في الفصل الأول من دراستهما في المعهد الموسيقيّ بعد أن خُصّصت لهما غرفة واحدة لتتشاركاها. وتعزّزت علاقتهما على الفور لأنهما كانتا فرنسيّتيّ المولد وتجمعهما لغتهما الأم. أحضرت إيل معها الليلة صديقهما الشاب بو الذي لم يكن بيپ يعرف عنه شيئًا سوى أنّه طالب موسيقا في سنته الثانية أيضًا. بعد أن طلبا البيرة، دُهش بيپ للتناقض بين المظهر الآسر لكارين ذات العينين الداكنتين وبين جمال إيل الشقراء ذات العينين الزرقاوين. الغجرية والوردة، هذا ما خطر له مع وصول الشراب إلى الطاولة.

أخفضت كارين صوتها وهي تتحدّث إليه:

- أفترض أنك سمعت الأخبار، أليس كذلك؟

لم يكن أحد يعلم من يستمع إليه في هذه الأيام. فأجاب وقد لاحظ التوتر الذي علا ملامحها:

- نعم، سمعت.

همست كارين قبل أن تعود بانتباهها إلى صديقيها اللذين جلسا في الجهة المقابلة من الطاولة:

- إيل وبو قلقان أيضًا. فإيل يهوديّة أيضًا كما تعلم، حتى وإن كانت لا تبدو كذلك. وهذا من حسن حظها.

قالت إيل بهدوء:

- نعتقد أنها مسألة وقت فقط قبل أن يحدث هنا ما يحدث الآن في بافاريا.

طمأنهم بيپ قائلًا:

- علينا أن ننتظر ونرى ما سيتمكّن العمدة من فعله أثناء وجوده في ميونيخ. لكن حتى لو حصل الأسوأ، فأنا واثق من أنهم لن يلمسوا الطلّاب في مدرستنا. فالموسيقا تتربّع في قلوب الألمان وأرواحهم مهما كانت توجّهاتهم السياسيّة.

تمنّى وهو يتكلّم لو أنّ كلماته لا تبدو جوفاء بهذا القدر. نظر عبر الطاولة إلى بو الذي بدت عيناه الساكنتان كئيبتَيْن ومظلمتَيْن وهو يضع ذراعه حول كتفيّ صديقتها وكأنه يحميها، وسأله:

- كيف حالك يا بو؟

فأجاب:

- أنا بخير بما يكفي.

إنه رجل قليل الكلام وقد اكتسب لقبه لأنه يصرّ على أن يحمل معه علبة التشيللو أينما يذهب. كان بيپ يعلم أنه أحد أبرز عازفي التشيللو موهبة في المعهد، ويُتوقّع له مستقبل عظيم.

- أين ستمضون عطلة الميلاد؟

- أنا...

وفي تلك اللحظة، نظر بو من فوق كتف بيپ وانتفض جسده كالمصدوم، فيما شحب وجهه وأمسى من دون لون. التفت بيپ ليرى عنصرين من وحدات «الإس الإس» أو قوات الأمن الخاصة النازيّة في بذلتيهما الرماديتّيْن المميّزتَيْن يدخلان من الباب، ومسدساهما بارزان من حزاميْهما الجلدييْن حول خصريْهما. راقب بيپ ارتعاش بو وأشاح بنظره، فهذا المشهد أصبح مألوفًا في لايبزيغ في هذه الأيام.

تأمّل الرجلان روّاد المقهى ثم جلسا إلى طاولة على مقربة منهم.

ردّ بو بعد أن تمالك نفسه:

- لسنا واثقين من مخطّطاتنا بعد.

والتفت إلى إيل وهمس لها. وما هي إلا دقائق قليلة حتى وقفا واستعدّا للمغادرة.

تنهّدت كارين بينما راحت هي وبيپ يراقبانهما وهما يغادران من دون أن يلفتا الانتباه قدر الإمكان. قالت:

- إنهما خائفان.

- هل بو يهوديّ أيضًا؟

- إنه ينفي ذلك لكنّ كثيرًا من الناس يكذبون بهذا الشأن حتى لو كانوا يهودًا. إنه قلق على المرأة التي يحب. أعتقد أنهما قد يغادران المانيا قريبًا.

- وأين سيذهبان؟

- لا يعلمان، ربّما إلى باريس. علمًا بأنّ إيل تقول إنّ بو يخشى أن تصل الحرب إلى فرنسا أيضًا، في حال أعلنتها ألمانيا. ستصل إلى موطني.

ومدّت كارين يدها نحوه فأخذها بيپ بين يديه وشعر بها ترتجف.

كرّر بيپ كلامه:

- كما قلت سابقًا، دعينا ننتظرْ لنرى ما سيحصل عندما يعود العمدة غوردلير. إذا اضطرّنا الأمر فسنغادر نحن أيضًا.

في اليوم التالي، سار بيپ عبر ضباب تشرين الثاني الرمادي الناعم الذي أسدل ستاره على لايبزيغ هذا الصباح متوجِّهًا إلى المعهد الموسيقي. ومع اقترابه من غيواندهاوس، كادت ساقاه تنثنيان تحته وهو يحدّق إلى الحشد الذي تجمهر أمامه. وحيث كان بالأمس ينتصب بفخر التمثال المهيب لفليكس مندلسون، المؤسس اليهودي للمعهد الموسيقي الأول، لم يرَ سوى كومة من الحطام والغبار.

همهم في سرّه وهو يسرع الخطى متجاوزًا الجميع، وقد تعالت الهتافات المسيئة التي أطلقتها مجموعة كبيرة ترتدي زيّ الشباب النازي الموالي لهتلر والتي وقفت بين حطام التمثال: «آه، يا إلهي العزيز. لقد بدأنا».

عندما بلغ معهد الموسيقى، وجد مجموعة من التلامذة المصدومين تملأ البهو. رأى توبيا فتوجّه نحوه سائلًا:

- ما الذي حدث؟

- هايك، نائب العمدة، هو من أمر بتحطيم التمثال. خُطِّط لهذا كلّه أثناء وجود غوردلير في ميونيخ. الآن، سيُجبر بالتأكيد على الرحيل. بعدئذ ستضيع لايبزيغ.

بحث بيپ عن كارين بين الفوضى والصخب، فوجدها تحدّق إلى الخارج من إحدى النوافذ المُقنطَرة. انتفضت حين وضع يده على كتفها ورأى الدموع في عينيها عندما التفتت إليه. هزّت رأسها من دون أن تنطق بحرف واحد وهو يأخذها بين ذراعيه.

ألغى ناظر المعهد، والثر دافيسون، الصفوف كلها في ذلك اليوم؛ فالتوتّر كان على أشدّه في المنطقة واعتُبر الوضع شديد الخطورة على الطلاب. قالت كارين إنها ستلتقي إيل في مقهى عند شارع واسرستراد فعرض عليها بيپ أن يرافقها. وعندما وصلا، كانت إيل تجلس مع بو في زاوية منعزلة.

قالت كارين وهي تنضمّ مع بيپ إليهما:

- الآن، وبعد أن حصل هذا، لم يعد لدينا من يحمينا. كلّنا نعلم أنّ هايك معادٍ للساميّة. انظروا كيف حاول أن يطبّق تلك القوانين المريعة المتبعة في المناطق

الأخرى من ألمانيا. كم تبقّى من الوقت قبل أن يمنعوا الأطبّاء اليهود من ممارسة عملهم والآريين من استشارتهم هنا في لايبزيغ؟

نظر بيپ إلى الوجوه الثلاثة الشاحبة من حوله وقال:

- علينا ألّا نُصاب بالهلع، بل أن ننتظر إلى حين عودة غوردلير. تقول الصحيفة إنه سيعود بعد بضعة أيام. انتقل من ميونيخ إلى فنلندا في زيارة لغرفة التجارة. أنا واثق من أنه سيعود على الفور إلى لايبزيغ عندما يسمع بما جرى.

تدّخلت إيل قائلةً:

- لكنّ المزاج العام في المدينة مليء بالكراهية! الجميع يعرفون عدد اليهود الذين يدرسون في المعهد. ماذا لو قرّروا أن يتمادوا أكثر وهدموا المكان برمّته وجعلوه ركامًا، كما فعلوا بدور عبادة اليهود في المدن الأخرى؟

عاد بيپ وكرّر كلامه:

- المعهد هو معبد للموسيقا وليس سلطة سياسيّة أو دينيّة. أرجوكم، علينا أن نحاول الحفاظ على هدوئنا.

لكن إيل وبو كانا غارقين في نقاش عميق يدور همسًا بينهما.

علّقت كارين على كلامه بصوت خافت:

- من السهل جدًا عليك أن تقول مثل هذا الكلام، فأنت لست يهوديًا وأنت تبدو مثلهم.

وتأمّلت عينيه الزرقاوين الفاتحتين وشعره الأشقر المموّج المائل إلى الحمرة قبل أن تردف:

- الأمر مختلف بالنسبة إليّ. بعد تدمير التمثال، مررت بمجموعة من الشبّان أثناء توجّهي إلى المعهد فراحوا يصيحون: «عاهرة يهوديّة!».

أخفضت عينيها عندما عاودتها هذه الذكرى. وعرف بيپ معنى هذه العبارة التي قيلت باللغة الألمانية، فراح دمه يغلي في عروقه. لكن فقدانه لأعصابه لن ينفع كارين في شيء.

تابعت كلامها:

- والأسوأ هو أنني لا أستطيع التحدّث إلى والديّ فهما في أميركا حيث يعدّان للمعرض الجديد لمنحوتات أبي.

- سأبقيك بأمان يا حبي. لن يلحق بك أيّ أذى حتى لو اضطررت لأن آخذك معي إلى النروج.

وأمسك يدها بيده وأزاح خصلة شعر سوداء لامعة عن وجهها القلق.

- هل تعدني بذلك؟

قبّل بيپ جبينها بحنان وأجاب:

- أعدك بذلك.



هدأت الأمور خلال الأيام القليلة التالية ما أراح بيپ. وعاد غوردلير ووعد بإعادة بناء تمثال مندلسون. وفتح المعهد الموسيقي أبوابه مجدّدًا، وبذل بيپ وكارين قصارى جهدهما لكي يشيحا بنظرهما عن الحطام كلما مرّا به. بدت الموسيقا التي يعزفها الطلّاب مشبعة الآن بشغف وعاطفة متجدّدتين، وكأنهم يعزفون من أجل حياتهم.

حلّت عطلة الميلاد لكنّها لم تكن طويلة بما يكفي لتتيح لبيپ وكارين العودة إلى بلديهما. وبدلًا من ذلك، قضى الاثنان أسبوعًا في فندق صغير حيث نزلا بصفة زوج وزوجة. ولمّا كان بيپ قد نشأ في منزل لوثريّ ذي آراء متشدّدة بشأن الجنس قبل الزواج، تفاجأ بسلوك كارين المتساهل في هذا الشأن حين اقترحت أن يمارسا الحب بعد مرور أسابيع قليلة على لقائهما الأول. اكتشف أنها لم تكن عذراء كما هو حاله، ووجدت كارين خجله مسلّيًا عندما مارسا الحب للمرّة الأولى.

أغاظته حين وقفت أمامه عاريةً، وقد مدّت ساقيها الطويلتين البيضاوين بأناقة تلقائية، بينما برز ثدياها الصغيران المثاليان نحو الأعلى.

- إنها عمليّة طبيعيّة بين اثنين مغرمين.. إنّ أجسادنا موجودة لتمنحنا اللذة. فلمَ ننكرها ونرفضها؟

خلال الأشهر الماضية، تعلّم بيپ فنّ الحب الجسديّ وغرق بكل سعادة وفرح في ما يسمّيه كاهن رعيّته خطايا الجسد. إنّه أول عيد ميلاد يمضيه بعيدًا عن المنزل، ووجوده في السرير مع كارين أفضل بكثير من أيّ هديّة قد يتلقاها في منزله من القديس نيقولا ليلة عيد الميلاد.

كان يهمس باستمرار في أذنها وهو مستلقٍ إلى جانبها، سواء كانت نائمة أم مستيقظة: «أحبّك، أحبّك».



بدأ الفصل الجديد في كانون الثاني، وركّز بيپ، الذي أدرك أنّ الوقت المتبقّي له في المعهد لم يعد طويلًا، طاقته على استيعاب كل ما تعلّمه وغرسه في داخله. وخلال شتاء لايبزيغ الشديد البرودة، دندن ألحان رخمانينوڤ وبروكوفياف وسيمفونية المزامير لسترافينسكي بينما هو يشقّ طريقه عبر الثلج المتراكم. وبدأت ألحانه الخاصّة تتشكّل في عقله وهو يفعل ذلك.

تعوّد أن يصل إلى المعهد الموسيقي فيأخذ بعض أوراق الموسيقا البيض من حقيبته ويكتبها بيديه شبه المتجمّدتين لئلّا ينساها. وتعلّم تدريجيًا أنّ طريقة التأليف التي تفلح معه هي تلك التي تستند إلى التفكير الحر وإلى ترك مخيّلته تسرح على هواها، بدل الطريقة الأخرى التي يفضّلها الطلاب، والتي تتضمّن التخطيط الدقيق للمواضيع، وكتابة مقطع واحد مرتّب بعناية في كل مرّة.

عرض عمله على أستاذه الذي انتقده وشجّعه في آن. وعاش في حالة إثارة وحماسة عاليتَيْن، مدركًا أنّ هذا ليس سوى بداية مشواره الفريد. كانت الطاقة تنبض في دمه، الذي تدفّق بسرعة أكبر في شرايينه، عندما بدأ يستمع إلى إلهامه الداخليّ.

كانت المدينة ما تزال هادئة عندما ترشّح غوردلير للانتخابات مجددًا. سانده المعهد الموسيقيّ كله ودعمه، فراح الطلاب يوزّعون المنشورات والصور التي تدعو المدينة للتصويت، وبدت كارين واثقة من فوزه.

قالت بأمل وهما يرتشفان القهوة مع إيل بعد عودتهم من نهار طويل من فرز الأصوات:

- على الرغم من أنه لم يفلح بعد في إعادة بناء التمثال، لكنّ الرايخ لن يجد أمامه خيارًا آخر سوى أن يسانده في هذه العملية بعد أن يعبّر الناس عن رأيهم ويعيدون انتخابه.

عارضتها إيل قائلةً:

- نعم، لكننا كلنا نعلم أنّ هايك يعارض إعادة انتخابه بشكل علنيّ. وتدمير تمثال مندلسون يكشف بوضوح موقفه من اليهود.

وافقتها كارين الرأي:

- هايك يزيد التوتّر ليجهّز وكره النازيّ وحسب.

وفي ليلة فرز الأصوات واحتسابها، انضمّ بيپ وكارين وإيل وبو إلى الحشود التي تجمّعت أمام مبنى البلديّة، وهلّلوا ابتهاجًا عندما سمعوا أنّ غوردلير أُعيد انتخابه.

* * *

لكن، ولسوء الحظ، ومع تفتّح الأزهار على الأشجار في شهر أيّار، وبعد أن أشرقت الشمس أخيرًا لترسل الدفء، تبيّن أنّ النشوة في المدينة كانت قصيرة الأجل.

عمل بيپ طيلة الساعات التي منحه أياها الرب في غرفة التمرينات في المعهد، وكانت كارين تزوّده بآخر الأخبار. قالت له بأنفاس مقطوعة:

- جاء القرار من ميونيخ. لن يُعاد بناء التمثال.

- هذه أخبار فظيعة، لكن أرجوك يا حبّي، حاولي ألّا تقلقي. الوقت الذي يفصلنا عن انتهاء الفصل قصير وبإمكاننا بعدئذ أن نقوّم الوضع وأن نضع خطة مناسبة.

- لكن يا بيپ، ماذا لو تدهورت الأمور بسرعة أكبر؟

- أنا واثق من أنها لن تتدهور. والآن، عودي إلى المنزل وسأراك هذا المساء.

لكن كارين كانت محقّة. استقال غوردلير بعد أيام قليلة، وعادت المدينة لتعيش الفوضى والصخب من جديد.



كان بيپ منشغلًا بالتحضير لامتحاناته الرسميّة، وبالعمل على مقطوعته الأولى التي ستُعزف خلال الحفل الموسيقي للتخرّج الذي سيُقام قبل نهاية الفصل بقليل. كان يسهر حتى وقت متأخّر من الليل لكي يكمل التوزيع الأوركسترالي، ويكافح ليتمكّن من الاستراحة قليلًا وليواسي كارين اليائسة ويهدئها.

- تقول إيل إنها سترحل هي وبو عن لايبزيغ فور انتهاء الفصل بعد أسبوعين ولن يعودا. يعتبران أنّ البقاء هنا الآن خطر جدًّا، بعد أن أصبح حزب العمال القومي الاشتراكي حرٌّ في المطالبة بعقوبات ضد اليهود على غرار ما يحصل في المدن الأخرى.

- إلى أين سيذهبان؟

- لا يعلمان. إلى فرنسا على الأرجح. لكنّ بو قلق من أن تلحق بهما المشكلات والاضطرابات إلى هناك. فالرايخ لديه أتباع ومؤيّدون في كل أنحاء أوروبا. سأكتب رسالة إلى والديّ لأطلب منهما النصح. لكن إذا غادرت إيل، فسأحذو حذوها.

هذا الكلام لفت انتباه بيپ الذي سألها:

- لكنّني ظننت أنّ والديك في أميركا؟

- نعم هذا صحيح. يُفكّر والدي في أن يبقى هناك بينما تجتاح عاصفة معاداة الساميّة الدول الأوروبيّة.

شعر بيپ بنوبة هلع تسري في أحشائه وهو يسألها:

- وهل ستلحقين بهما؟

- إذا رأى والداي أنّ من الحكمة أن أفعل ذلك، نعم سأسافر.

قال والنحيب واضح في صوته:

- لكن... ماذا عنّا؟ ما الذي سأفعله من دونك؟

- بإمكانك أن ترافقني.

- كارين، تعلمين أنّني لا أملك ما يكفي من المال للقيام بهذه الرحلة إلى أميركا. وكيف سأكسب عيشي هناك إنْ لم أتخرّج من المعهد الموسيقي وأكسب بعض الخبرة قبل أن أسافر؟

- عزيزي، لا أعتقد أنك تفهم خطورة الوضع. سُحبت الجنسيّة من اليهود المولودين في ألمانيا والذين عاشوا هنا منذ أجيال. لا يُسمح لليهود بالزواج من الآريين أو بالانضمام إلى الجيش، كما يُمنعون من رفع العلم الألماني. سمعت أنهم يحاصرون أحياء اليهود في بعض المناطق ويعمدون إلى ترحيلهم. إذا سُمح لهذا كله أن يحصل، فمن يستطيع أن يعرف إلى أيّ حدّ يمكن أن تصل الأمور؟

ورفعت ذقنها في حركة تحدٍّ بينما كان يسألها:

- إذًا ستذهبين إلى أميركا وحدك وتتركينني هنا؟

- إن كان هذا سينقذ حياتي، نعم سأذهب. باللّه عليك يا بيپ، أعلم أنك مستغرق بإعداد معزوفتك، لكنّني أفترض أنك تفضّل أن أكون على قيد الحياة بدلاً من أن أكون ميتة؟

ردّ والغضب يتصاعد في صوته:

- بالطبع! كيف لك أن تشيري حتى إلى أني قد أفكر خلاف ذلك؟

- لأنك ترفض أن تأخذ الأمر على محمل الجدّ. في عالمك النروجي الآمن، لم تعرف يومًا معنى الخطر. أما نحن اليهود فندرك أننا معرّضون دائمًا للاضطهاد، كما كان حالنا على امتداد التاريخ، والوضع لا يختلف الآن. نحن كلّنا نشعر بذلك. لعلّ المسألة قبليّة، فحسب، لكنّنا نعلم عندما يكون الخطر داهمًا.

- لا أصدّق أنك قد ترحلين من دوني.

- بيپ، أرجوك أن تنضج! تعلم أنّني أحبّك وأنّني أريد أن أمضي ما تبقى

من حياتي معك، لكن هذا الوضع ليس جديدًا بالنسبة إليّ. لطالما كنّا مكروهين حتى قبل أن يجعل الرايخ ملاحقتنا أمرًا مشروعًا. في باريس، تعرّض أبي للرشق بالبيض في أحد معارضه قبل سنوات. المشاعر المعادية للساميّة موجودة منذ آلاف السنوات. عليك أن تفهم هذا.

- لكن لماذا؟

هزّت كارين كتفيها قليلًا وأجابت:

- لأنّ التاريخ يا عزيزي جعل منّا كبش فداء. لطالما خشي الناس أولئك الذين يختلفون عنهم، وقد أُجبرنا، على مدى العصور، على أن نترك موطننا لنبحث عن آخر. وأينما حللنا نستقرّ وننجح. نحن نتضامن سويًا ونلتصق بعضنا ببعض لأنّ هذا ما تعلّمناه. لقد تمكّنا من البقاء بفضل هذه الاستراتيجيّة.

أخفض بيپ عينيه وقد شعر بالإحراج. كانت كارين محقّة فعلًا. بعد أن أمضى معظم حياته في مكان آمن، في مدينته الصغيرة الواقعة عند قمة العالم، بدا له ما أخبرته به كارين أشبه بقصّة خياليّة من بُعد آخر. وعلى الرغم من أنه رأى بأمّ عينيه حطام تمثال مندلسون، فقد برّر التصرّف في ذهنه على أنّه مجرّد تصرّف من مجموعة من الشبان الذين أرادوا إظهار اعتراضهم. تمامًا كما يفعل الصيّادون أحيانًا، عندما ترتفع أسعار المحروقات التي يحتاجونها لقواربهم في حين يرفض تجّار الأسماك رفع سعر السمك.

وافقها الرأي قائلًا:

- أنت محقّة. سامحيني يا كارين، أنا مغفّل ساذج.

- أعتقد أنّ للأمر علاقة بأنك لا تريد أن ترى الحقيقة. أنت لا ترغب في أن يقوّض العالم الكبير والواسع أحلامك وخططك للمستقبل. لا أحد منّا يرغب في ذلك. لكن ها نحن ذا...

وتنهّدت قبل أن تردف:

- الحقيقة بكل بساطة هي أنّني لم أعد أشعر بالأمان هنا في ألمانيا. لذا، عليّ أن أرحل.

ووقفت قبل أن تضيف:

- سألتقي إيل وبو في مقهى بوم بعد نصف ساعة لنناقش الوضع. أراك لاحقًا.

وطبعت كارين قبلة على رأس بيپ ثم ابتعدت.

عندما غادرت، التفت بيپ إلى أوراق الموسيقى المنثورة على الطاولة أمامه. يُفترض أن تُعزف المقطوعة التي ألَفها بعد حوالى أسبوعين. وفي حين وبّخ نفسه على أنانيّته، لم يستطع أن يمنع نفسه من التساؤل الآن عمّا إذا كان الحفل سيُقام.

* * *

كانت كارين أكثر هدوءًا عندما التقيا مجدّدًا في وقت لاحق من ذلك اليوم.

- كتبت لوالديّ أسألهما النصيحة. في هذه الأثناء، لا خيار أمامي سوى أن أنتظر حتى أتلقّى الردّ. وبالتالي، قد أتمكّن من سماعك تعزف رائعتك الفنيّة.

مدّ بيپ يده عبر الطاولة وأخذ يدها قبل أن يسألها:

- هل بإمكانك أن تسامحيني لأنني كنت أنانيًا؟

- بالطبع أسامحك. أدرك أن التوقيت لا يمكن أن يكون أسوأ.

- كنت أفكّر...

- بماذا؟

- لعلّ أفضل حلٍّ بالنسبة إليك هو أن ترافقيني إلى النروج هذا الصيف. لن تقلقي على سلامتك هناك.

أغاظته كارين قائلةً:

- أنا؟ هل أذهب إلى بلاد الرنّة وأشجار الميلاد والثلج؟

أجاب بيپ وقد اتّخذ موقفًا دفاعيًّا على الفور:

- الثلج لا يتساقط طيلة الوقت هناك. أعتقد أنك ستجدين المكان جميلًا في الصيف. لدينا مجموعة من السكّان اليهود هناك الذين يُعامَلون تمامًا مثل أيّ مواطن نروجي آخر. ستكونين في أمان. وإذا اندلعت الحرب في أوروبا، فلن تصل إلى النروج ولن يصل إليها النازيون. الجميع في موطني يقولون إننا بلد صغير جدًّا

وغير مهم بالنسبة إليهم حتّى يلاحظوا وجودنا. ثمة أوركسترا جيدة جدًّا في بيرغن، إنها إحدى أقدم الفرق في العالم. وأبي يعزف على التشيللو فيها.

تأمّلته كارين بعينيها الداكنتين والدامعتين باهتمام شديد وسألته:

- أنت مستعد لأن تأخذني معك إلى موطنك؟

- بالطبع! والداي يعرفان كلّ شيء عنك وعن نيّتي الزواج منك.

- هل يعلمان أنّي يهوديّة؟

- لا.

شعر بيپ بالحمرة تغزو خدّيه، ثم أحسّ بالغضب لأنّ وجهه احمرّ وتابع كلامه قائلًا:

- ليس لأنّني لا أريد أن يعرفا بل لأن ديانتك غير مُهمّة بكل بساطة. إنهما مثقّفان يا كارين وليسا قرويين من التلال. تذكّري أنّ والدي مولود هنا في لايبزيغ وقد درس الموسيقا في باريس. ولطالما حدّثنا عن الحياة البوهيميّة في شوارع «مون بارناس» خلال الزمن الجميل.

جاء دور كارين لكي تعتذر فقالت:

- أنت محق، أنا أتصرّف بشكل سخيف. وربما...

ووضعت إبهامها على النقطة بين عينيها فوق أنفها تمامًا وفركتها كما تفعل دائمًا حين تفكّر ثم تابعت كلامها:

- لعلّ هذا هو الحلّ إن لم أتمكّن من الوصول إلى أميركا. شكرًا يا عزيزي. يسعدني أن أعلم أنّ ثمّة ملاذًا أستطيع أن ألجأ إليه إذا ساءت الأمور هنا في المستقبل.

وانحنت فوق الطاولة وقبّلته.

وعندما استلقى بيپ في الفراش في وقت لاحق من ذلك المساء، صلّى لكي ينتظر «المستقبل» إلى ما بعد تقديم تحفته الفنيّة.



على الرغم من أنّ الصحف أوردت أنّ يهودًا تعرّضوا للرشق بالحجارة عند خروجهم من الكنيست وعن حوادث أخرى عديدة مقلقة، لكنّ كارين بدت أقل قلقًا، ربما لأنّها باتت تعلم أنّ ثمة خطة بديلة. بالتالي، أخفض بيپ رأسه على مدى الأسبوعين التاليين وركّز على موسيقاه. لم يجرؤ على التفكير في اللحظة التي تلي انتهاء الفصل، وانتظر بعصبيّة جواب والدَي كارين حيث خشي أن يطلبا منها أن تسافر إلى أميركا. هذه الفكرة جعلته يرتعش لأنه يدرك أنّه لا يملك ما يكفي من المال لكي يلحق بها إلا إذا بدأ بكسب المال من عمله موسيقيًّا.

في استراحة الغداء في يوم حفل التخرّج، حيث يُفترض أن يعزف الطلّاب ستة أعمال قصيرة جديدة، بحثت عنه كارين.

قالت له:

- أتمنى لك حظًّا سعيدًا يا عزيزي. سنكون أنا وإيل حاضرتين لتشجيعك الليلة. يقول بو إنه يعتقد أنّ عملك هو الأفضل بين المؤلّفات كلها.

- هذا لطف كبير منه. وهو يسهم إسهامًا رائعًا في تحفتي بعزفه على التشيللو ضمن الأوركسترا. والآن، عليّ أن أحضر التمرين الأخير.

وطبع بيپ قبلة على أنف كارين وسار في الممر الطويل والبارد متوجّهًا إلى غرفة التمرين.

وفي تمام الساعة السابعة والنصف، جلس بيپ في الصفّ الأمامي في قاعة غروبر، برفقة المؤلفين الشبان الخمسة الآخرين. قدّمهم والتر دافيسون، ناظر المعهد الموسيقيّ للجمهور واعتلى المؤلّف الأول المسرح. كان بيپ آخر المؤلّفين وأدرك أنه سيتذكّر دائمًا أنه انتظر فترة عصيبة امتدت إلى ساعة ونصف الساعة قبل أن يحين دوره. لكن الوقت مرّ، ومع صلاة قصيرة أرسلها نحو الأعالي، ارتقى الدرجات آملًا ألّا يتعثّر ويقع لشدّة ارتجاف ساقيه. انحنى انحناءة صغيرة تحيّة للحضور ثم احتل مكانه أمام البيانو.

وجد نفسه في وقت لاحق عاجزًا عن أن يتذكّر التصفيق أو الهتافات التي ارتفعت بعد أن انضمّ إليه المؤلّفون الآخرون لإلقاء التحيّة معًا. كل ما عرفه هو أنه بذل قصارى جهده وأعطى أفضل ما لديه الليلة، وهذا كل ما يهمّ.

بعدئذ، أحاط به زملاؤه الطلّاب وأساتذته، وراح الجميع يربّتون ظهره ويخبرونه

أنّهم يتنبّؤون له بمستقبل عظيم. وطلب منه صحفي في إحدى الجرائد إجراء مقابلة معه.

قالت كارين بضحكة بعد أن تمكّنت من أن تشقّ طريقها بين الحشد لتصل إليه وتعانقه:

- غريغي أنا. عزيزي، إنّ مسيرتك المهنيّة اللامعة بدأت للتوّ.



شعر بيپ الذي أكثر من احتساء الشامبانيا بعد العرض، بالانزعاج عندما جرى إيقاظه في وقت مبكر من صباح اليوم التالي من قِبَل شخص راح يطرق بابه. نهض متعثّرًا من سريره ليفتح الباب، فطالعته صاحبة المنزل التي ما تزال ترتدي ملابس النوم وقد بدت عدم راضية ومغتاظة.

- سيّد هالڤورسن، هناك شابة تنتظر في الأسفل، وتقول إنها تريد أن تراك لسبب طارئ.

قال قبل أن يغلق الباب ويرتدي أول قميص وبنطال استطاع أن يجدهما:

- شكرًا، سيدة بريوي.

كانت كارين التي بدت شاحبة تمامًا تنتظره أمام المدخل. يبدو أنّ القاعدة التي وضعتها السيدة بريوي «يُمنع إحضار الشابات إلى المنزل» تبقى سارية حتّى في حالات الطوارئ.

- ما الأمر؟ ماذا حدث؟

- أُحرِقت ثلاثة منازل الليلة الماضية في لايبزيغ.. المقيمون في هذه المنازل كلها هم من اليهود. والمنزل الذي يقيم فيه بو هو أحدها.

- آه يا إلهي! هل هو...؟

- إنه حيّ. لقد تمكّن من الفرار. تسلّق نافذة الطابق الأول ثم قفز منها. حمل معه علبة التشيللو الغالية بالطبع.

ابتسمت كارين ابتسامة ساخرة حزينة قبل أن تضيف:

- بيپ، سيرحل هو وإيل عن لايبزيغ في الحال. وأشعر فعلًا أنّ عليّ أن أرحل أنا أيضًا. تعالَ، أحتاج إلى بعض القهوة ويبدو لي أنك تحتاجها أنت أيضًا.

كان المقهى الصغير القريب من معهد الموسيقا قد فتح أبوابه للتو، وبدا فارغًا من الرواد حين جلسا إلى إحدى الطاولات وطلبا القهوة. فرك بيپ وجهه في محاولة منه لاستعادة وعيه الكامل فهو لا يزال يعاني من آثار الكحول.

سألها:

- هل جاءك خبر من والديك؟

أجابت كارين بعصبيّة:

- تعلم أنّي لم أتلقّ أيّ ردّ حتى البارحة، والوقت لا يزال مبكرًا على وصول ساعي البريد اليوم. لم يمضِ سوى أسبوعين منذ أن أرسلت لهما رسالتي.

- ما الذي ينوي بو وإيل أن يفعلاه؟

- سيغادران ألمانيا في أسرع وقت ممكن، هذا مؤكّد. لكنهما لا يملكان من المال ما يكفي ليسافرا إلى مكان بعيد. لا أحد منّا يعلم أيّ مكان يمكن أن يكون آمنًا للجوء إليه. أما أنا، فقد أجّر والداي شقتهما في باريس خلال غيابهما في أميركا.

وهزّت كتفيها قبل أن تختم كلامها بالقول:

- ليس لديّ مكان أقصده.

- إذًا...؟

خمّن بيپ ما تشير إليه ضمنًا بينما ردّت قائلةً:

- نعم يا بيپ، إن كان عرضك لا يزال قائمًا، فسأرافقك إلى النروج، حتى أتلقّى جوابًا من والديّ على الأقل. هذا كل ما أستطيع أن أفعله. سينتهي الفصل بعد أيام قليلة وقد تم عرض المقطوعة التي ألّفتها؛ بالتالي، لا أرى سببًا للتأجيل. عندما قابلت إيل وبو هذا الصباح، قالا لي إنّ نزوح اليهود عن لايبزيغ سيبدأ بشكل جديّ بعد حرائق الليلة الماضيّة، وعلينا إذًا أن نرحل بينما لا تزال الفرصة متاحة أمامنا.

وافق بيپ قائلًا:

- نعم، بالطبع.

- و... لديّ طلب آخر أطلبه منك.

- ما هو؟

- أنت تعلم أنّ إيل أصبحت بمنزلة أخت لي منذ أن وصلت إلى لايبزيغ. قُتِل والداها في الحرب العالميّة، ووُضِعت هي وشقيقها في دار للأيتام. تبنّى أحد أخاها، وهو طفل صغير، وهي لم تَرَه منذ ذاك الحين. لم تكن إيل محظوظة مثله، ولم يكن لها أيّ مستقبل، لو لم تلاحظ مدرِّسة الموسيقا موهبتها في العزف على الفلوت والكمان، ودفعتها لتقديم طلب منحة دراسيّة إلى هنا.

- إذًا ليس لها منزل تعود إليه؟

- باستثناء الميتم، منزلها هنا في لايبزيغ، في الغرفة التي تتشاركها معي. أنا وبو العائلة الوحيدة التي تملكها. بيپ، هل يمكن لهما أن يأتيا معنا إلى النروج؟ حتى ولو لبضعة أسابيع فقط. يستطيعان أن يريا من مكان آمن كيف سيتطوّر الوضع في أوروبا وأن يقرّرا ما سيفعلانه. أعلم أنني أطلب منك أشياء كثيرة لكنّني لا أستطيع أن أتخلّى عن إيل وأتركها هنا. ولأنّها لن تترك بو فعليه أن يرافقنا أيضًا.

نظر بيپ إلى تعابير وجهها اليائسة، وفكّر في ما سيشعر به والداه لو عاد إلى البيت وأعلن أنّه أحضر معه ثلاثة من أصدقائه لقضاء العطلة في النروج. علم أنهما سيكونان كريمين وسيرحّبان بهم، لاسيما وأنهم موسيقيّون.

- نعم، يمكن لهما بالطبع مرافقتنا، إن كنتِ تعتقدين أنّ هذا أفضل يا حبي.

- هل نستطيع أن نرحل في أقرب فرصة ممكنة؟ كلما بكّرنا بالمغادرة كان ذلك أفضل. أرجوك؟ ستفوّت حفل التخرّج الرسميّ لكن....

أدرك بيپ أنّ كل يوم تقضيه كارين في لايبزيغ لا يشكّل عليها خطرًا وحسب، بل يقرّبها أكثر من جواب قد يصل من والديها يقترحان فيه عليها أن تلحق بهما إلى أميركا. فأجابها:

- بالطبع. نستطيع أن نغادر كلنا معًا.

- شكرًا لك!

وضعت كارين ذراعيها حول كتفيّ بيپ ورأى الارتياح الظاهر في عينيها وهي تضيف:

- تعالَ، دعنا نذهبْ ونخبرْ إيل وبو أنهما سيرافقاننا.

39

بعد مرور يومين، قاد بيپ أصدقاءه المُنهَكين عبر سلّم السفينة المتحرّك في ميناء بيرغن. فالاتصال الهاتفيّ المقتضب الذي أجراه مكتب مدير المعهد الموسيقيّ كان التحذير الوحيد الذي تلقاه والداه، بأنّ عددًا من الأشخاص سيحلّون بشكل مفاجئ ضيوفًا عليهم. وبعد سلسلة من عبارات الوداع والشكر التي أطلقها أصدقاؤه وأساتذته على عجل، ربّت المدير ظهره، مثنيًا على سلوك بيپ الراقي واتّخاذ المبادرة في إعادة أصدقائه إلى النروج.

قال بيپ أثناء مصافحته والتر دايڤدسون:

- يؤسفني أنني لن أتمكّن من البقاء حتى نهاية الفصل.

- أظنّ أنّ من الحكمة المغادرة في الحال. من يدري؟ قد تزداد الأمور صعوبة في الأيام المقبلة.

وتنهّد بحزن مضيفًا:

- من الأفضل أن تُسرع يا فتى. ابعث لي رسالة لدى وصولكم.

التفت بيپ إلى أصدقائه، الذين كانوا يحدّقون بملل إلى المنازل الخشبيّة المطلية بألوان زاهية والمصطفّة عند واجهة الميناء، كأنّهم يحاولون التكيّف مع محيطهم. بدا بو عاجزًا عن المشي، ووجهه مليء بالكدمات من جراء وقوعه على الأرض لدى قفزه من النافذة، وخشي بيپ من أن يكون قد كسر مرفقه. وفي حين نجحت إيل في تثبيت ذراعه اليمنى على صدره بوشاحها، لم يبدِ أي تذمر خلال الرحلة الطويلة، على الرغم من أنه لم يتمكّن من إخفاء أمارات الأسى التي بدت جليّة على وجهه.

حين رأى بيپ والده هورسْت واقفًا عند الرصيف، توجّه نحوه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة. أحاط والده كتفيه بذراعيه واحتضنه .

- أبي! كيف حالك؟

- إنني بخير، شكرًا لك. ووالدتك في صحّة جيدة أيضًا.

ورمى هورست الجميع بابتسامة حارّة مضيفًا:

- والآن، عرّفني على أصدقائك.

لبّى بيپ رغبته على الفور وصافح كلٌّ من أصدقائه يد والده بامتنان.

قال هورست:

- أهلًا بكم في النروج. يسعدنا أن نستقبلكم بيننا.

نبّهه بيپ قائلًا:

- تذكّر يا أبي، لا أحد من أصدقائي يجيد اللغة النروجية.

- بالتأكيد! أعتذر منكم. الألمانيّة أم الفرنسيّة؟

أجابت كارين:

- الفرنسيّة هي لغتنا الأم، ولكننا نجيد الألمانية أيضًا.

قال هورست مصفّقًا يديه كطفل متحمّس، وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

- فلنتحدثِ الفرنسيّة إذًا. لم تسنح لي الفرصة من قبل لإظهار لكنتي الجيّدة.

وبدأ التحدّث معهم بلغتهم أثناء توجّههم نحو سيارته.

استمر تبادل الأحاديث على طول الطريق المتعرّج الممتدّ عبر التلال الواقعة خلف بلدة بيرغن، وصولًا إلى منزلهما في فروسكهاوست، في حين شعر بيپ وكأنه غريب بينهم كونه لا يجيد الفرنسية. أثناء جلوسه في مقعد الراكب الأماميّ، راح يتأمّل والده بشعره الجميل المسرّح بعناية إلى الخلف، وسمات وجهه التي نحتتها سنوات طويلة من طلاقة الوجه، بحيث لا يذكر بيپ أنه رآه يومًا إلا مبتسمًا. وأثارت اللحية الصغيرة المشذّبة التي تركها هورست تنمو على ذقنه إلى جانب شاربه، في ذهن بيپ صورة لوحات الرسّامين الفرنسيين الانطباعيين. وعلى غرار ما توقّع، بدا هورست مبتهجًا بلقاء أصدقائه، وأدرك في سره بأن حبه لوالده تضاعف أمام حفاوة استقباله.

لدى وصولهم إلى المنزل، فتحت والدته أستريد، التي بدت فاتنة أكثر من أي وقت مضى، الباب ورحبت بهم بحرارة ولكن باللغة النروجية. ولفت انتباهها على

الفور بو الذي كان الإنهاك والألم قد بلغا منه مبلغًا، واستند إلى إيل لتساعده على الوقوف.

وضعت أستريد يدها على فمها صارخة:

- ماذا أصابه؟

أجابها بيپ قائلًا:

- قفز من النافذة بعد أن اشتعلت النيران في مسكنه.

- المسكين! اسمع يا هورست، أريد منك أن ترافق الضيوف الآخرين إلى قاعة الاستقبال مع بيپ... وأنت يا بو.

وأشارت بيدها إلى كرسي موضوع إلى جانب الهاتف في الردهة مضيفة:

- اجلس هنا لأتمكّن من إلقاء نظرة على جروحك.

قال بيپ هامسًا لكارين فيما كان يتبعان هورست وإيل عبر الرواق الطويل:

- والدتي ممرّضة مجازة. وأؤكد لك بأنك ستسمعين في مرحلة معينة قصة وقوعها في حب والدي أثناء رعايتها له عقب خضوعه لعملية استئصال الزائدة الدودية.

- تبدو أصغر منه سنًا.

- إنها تصغره بخمس عشرة سنة. كان والدي يردّد دائمًا بأن عروسه طفلة. فعندما حبلت بي، لم تكن قد تجاوزت الثامنة عشرة، من عمرها. أقسم لك بأنّهما هائمان في الحب.

- بيپ...

وشعر بأصابع كارين النحيلة والرقيقة على ذراعه.

- نعم.

- أود أن أشكرك نيابةً عنا جميعًا.



في تلك الأمسية، وبعد أن جرى الاتصال بالطبيب لتضميد جروح بو، وتحديد موعد في المستشفى للتأكّد إنْ كان مرفقه مكسورًا، ساعدت إيل وأستريد بو للصعود إلى الطابق العلويّ ووضعه في السرير في غرفة بيپ.

قالت أستريد لبيپ الذي رافقها إلى المطبخ لإعداد العشاء:

- مسكين ذلك الفتى! إنّه منهك تمامًا. لم يخبرني والدك كثيرًا عمّا حصل في لايبزيغ. هلّا ناولتني مبرشة البطاطا؟

- حاضر.

- يُخيّل إليّ أنهم لاجئون وليسوا مجرد أصدقاء قادمين لزيارة النروج.

- أظنّ أنّ الفرضيّتَيْن صحيحتان.

- وكم ستدوم إقامتهم هنا؟

- الحق يُقال إني لا أملك أدنى فكرة يا أماه.

- هل هم من اليهود؟

- كارين وإيل يهوديتان، ولكنني لست واثقًا بشأن بو.

- عليّ الاعتراف بأنّ من الصعب عليّ تصديق ما يحصل في ألمانيا. ولكن لا مفر من ذلك. فالعالم تحوّل إلى مكان وحشيّ.

وتنهّدت أستريد وتابعت:

- ماذا عن كارين؟ هل هي الفتاة التي كنت تحدثنا عنها باستمرار؟

- أجل.

وقف بيپ يراقب والدته وهي تقشّر البطاطا منتظرًا منها الإدلاء بمزيد من التعليقات.

- تبدو مُفعمَة بالحياة ومتّقدة الذكاء. وأتصوّر أنها قد تكون مشاغبة في بعض الأحيان.

أجاب بيپ وفي صوته مسحة من المشاعر الدفاعية:

- لا ريب في أنّها تثير في داخلي روح التحدّي. لقد تعلّمت كثيرًا عن العالم.

- هذا ما تحتاج إليه بالضبط؛ امرأة قويّة. فاللّه وحده يعلم ما كان سيفعله والدك من دوني.

وضحكت أستريد وتابعت:

- وأنا فخورة بما فعلته من أجل مساعدة أصدقائك. وسنبذل كل ما باستطاعتنا لمساعدتهم، مع أن...

- ماذا يا أماه؟

- كانت شهامتك السبب في إبعادك عن غرفة نومك إلى حين تعافي بو. ما يعني أنّ عليك أن تنام على الأريكة.



بعد تناول العشاء على الشرفة المطلّة على المضيق الخلّاب في الأسفل، صعدت إيل إلى الطابق العلويّ للاطمئنان على بو، الذي تناول عشاءه في وقت سابق في غرفته، ومن ثمّ أوت إلى فراشها. أعلن بعدها هورست وأستريد عن رغبتهما في الخلود للنوم وسمع بيپ ضحكاتهما الخافتة أثناء صعودهما السلّم. ولم يجد بدًّا من الاعتراف في سرّه بمدى افتخاره بوالده وامتنانه لكونه في النروج وهو يرى أمارات التوتّر تتلاشى عن وجه أصدقائه.

قالت كارين:

- عليّ أن أصعد إلى غرفتي أيضًا. أشعر بالتعب الشديد، ولكن المنظر ساحر جدًّا ولا أريده أن يفوتني. أتصدّقْ ذلك؟ قاربت الساعة الحادية عشرة ليلًا وضوء النهار ما يزال ساطعًا.

- وستشرق الشمس في الغد قبل استيقاظك بوقت طويل. سبق وقلت لك إن المكان جميل جدًّا.

ونهض بيپ عن المائدة وعبر الشرفة وصولًا إلى السياج الخشبيّ الذي كان يفصل المنزل عن أشجار الصنوبر الممتدّة إلى ما لا نهاية على طول التلال المنحدرة صوب المياه.

- هذا المكان ليس جميلًا فحسب، بل يخطف الأنفاس. ولست أقصد بذلك المنظر الطبيعي فقط، بل أيضًا استقبال أبويك، ودماثتهما. لقد غمراني بلطفهما حقًا.

أخذها بيپ بين ذراعيه فأسندت رأسها إلى كتفه مطلقة العنان لدموعها لتنفّس عن ارتياحها. ونظرت بعدها إليه وعيناها تبحثان عن عينيه.

- قلْ لي إنني لن أغادر هذا المكان أبدًا.

وحقّق لها مبتغاها.



صباح اليوم التالي، اصطحب هورست بو وإيل إلى المستشفى المحليّ، حيث شُخِّصت إصابة بو بخلع في المرفق وكسر مضاعف. ما استدعى إبقاءه في المستشفى إلى حين خضوعه لعملية جراحيّة. فبقيت إيل برفقته خلال الأيام القليلة التي أمضاها في المستشفى، وأتاحت بذلك الفرصة لبيپ بمرافقة كارين لرؤية مباهج مدينة بيرغن.

اصطحبها إلى ترولدهوغن، المنزل السابق لغريغ، الواقع على بعد مسافة قصيرة سيرًا على الأقدام من منزله، والذي جرى تحويله متحفًا. ووقف يراقب مدى انشراحها لدى زيارتهما الكوخ الجاثم عند جانب المضيق حيث ألّف المايسترو عددًا من مقطوعاته.

سألته:

- هل ستتّخذ مكانًا مماثلًا لنفسك عندما تصبح مشهورًا؟ بإمكاني أن أحضر لك الحلويات والنبيذ عند الغداء ونمارس معًا الحب على الأرض.

أغاظها قائلًا:

- أظنّ أنّني سأضطرّ لحبس نفسي. إذ لا يجوز إلهاء المؤلّف أثناء عمله.

أجابته وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة خبيثة:

- أظنّ أنني سأضطرّ إلى البحث عن عاشق آخر حتى لا أشعر بالوحدة أثناء انشغالك عني.

واستدارت مبتعدة عنه، ولكن بيپ سارع إلى الإمساك بها مقهقهًا، وأحاط خصرها بيده من الخلف وسمّرها في مكانها. همس قائلًا بينما كانت شفتاه تبحثان عن منحنى عنقها الرقيق:

- أبدًا. لن يكون لديك عاشق سواي.

أقلّهما القطار إلى وسط المدينة، حيث راحا يجولان الشوارع الضيّقة المفروشة بالحصى، قبل أن يتوقّفا عند أحد المقاهي لتناول الغداء حيث تذوّقت كارين الشراب الإسكندنافيّ المسكر للمرة الأولى.

انفجرا معًا بالضحك من عينَيْها الدامعتَيْن وأعلنت قائلة:

- إنه أقوى من «الأفسنتين» قبل أن تسارع إلى طلب كأس أخرى. أخذها بعد الغداء لمشاهدة المسرح الوطنيّ حيث شغل إيبسن منصب المدير الفنيّ، وتولّى غريغ قيادة الأوركسترا.

- أصبح اليوم للأوركسترا مكان خاص بها، هو كونسرت بالاس، حيث أمضى والدي الجزء الأكبر من حياته كعازف التشيللو الأوّل.

- أتظنّ أنّ بإمكانه أن يؤمّن عملًا لنا؟

- أجل، أنا واثق من أنّه سيقدّم توصية بحقّنا.

لم يشأ بيپ أن يثبط حماستها بإخبارها أنّ أوركسترا بيرغن الفيلهارمونية لم تضمّ يومًا بين صفوفها أنثى.

أقلّهما في اليوم التالي القطار الحبليّ الصغير وصعدا إلى جبل فلوين، أحد الجبال السبعة الشاهقة المحيطة ببيرغن. كان المكان يُشرف على منظر مدهش للمدينة الممتدّة في الأسفل، والمضيق الرائع بمياهه المتلألئة. تنهّدت كارين من شدّة البهجة بينما كانت تتأمّل الأسوار.

- لا أظنّ أنّه يمكن العثور على مشهد أكثر روعة في أي بقعة أخرى من العالم.

أحبّ بيپ حماستها الصادقة لمدينة بيرغن على الرغم من أن أحلامها كانت دائمًا تدور حول السفر إلى أميركا. طلبت من بيپ أن يبدأ بتعليمها بعض العبارات

النروجية الأساسيّة، وقد بلغ الإحباط منها مبلغًا لعجزها عن التواصل مع والدته من دون حضور مترجم.

- إنها تعاملني في غاية اللطف يا حبيبي، وأودّ أن أعبّر لها عن امتناني بلغتها.



عاد بو إلى المنزل وذراعه مربوطة بإحكام، وأصبحوا يمضون الأمسيات في الخارج على الشرفة، حيث يتناولون العشاء ويقيمون بعدها حفلًا موسيقيًا مرتجلًا. كان بيپ يجلس أمام البيانو الكبير في قاعة الجلوس، وأبواب الشرفة مفتوحة على مصاريعها، بينما تعزف إيل على الكمان أو الفلوت، بحسب المقطوعة الموسيقيّة المختارة، وكارين على الأوبوا، وهورست على التشيللو. وعلى الرغم من تنوّع المقطوعات التي كانوا يعزفونها بدءًا من الأغاني الفلكلوريّة النروجيّة البسيطة التي علمهم إياها هورست بتأنٍ، إلى مقطوعات كبار الموسيقيين أمثال بيتهوفن وتشايكوفسكي، مرورًا بالمعزوفات الحديثة التي تعود لأمثال بارتوك وبروكوفيف، رفض هورست بحزم عزف مؤلّفات سترافينسكي. وكان صدى الموسيقا يتردّد عبر التلال وصولًا إلى المضائق، بينما تحوّلت حياة بيپ إلى مزيج متناغم لكل ما يحبّه ويحتاج إليه، وشكر القدر الذي ساق أصدقاءه إلى النروج.

وفي إحدى الليالي، وبينما كان يرقد في السرير الضيق في الغرفة التي يتشاركها مع بو، وكل ذرة في جسده تتوق إلى جسد كارين العاري المثير، أقرّ في سرّه بأن لا شيء كامل.



مع اقتراب شهر آب المعتدل المناخ، جرت في منزل آل هالڤورسن محادثات كثيرة بشأن المستقبل، وأوّلها بين بيپ وكارين، في ساعة متأخّرة من الليل على الشرفة، بعد أن أوى الباقون إلى النوم. تلقّت كارين مؤخّرًا رسالة من والدَيها، اللذين قرّرا البقاء في أميركا إلى أن تتبدّد غيوم الحرب السود. ونصحها أبواها بألّا تعود إلى ألمانيا لمتابعة الفصل الدراسيّ التالي. كما أبلغاها بأنّه لا داعيَ لتكبّد عناء السفر

إلى أميركا في الوقت الراهن، لاسيما وأنّ الرحلة طويلة ومكلفة، معربين عن امتنانهما لكونها موجودة حاليًا في النروج في مكان آمن.

قالت كارين وهي تطوي الرسالة وتعيدها إلى المظروف:

- طلبا منّي إبلاغ والديك مدى امتنانهما وشكرهما. أتظن أن هورست وأستريد قد يمانعان في حال بقيت هنا لفترة أطول؟

- كلا، إطلاقًا.

وأضاف بيپ مبتسمًا:

- والدي واقع في حبك، أو على الأقل في أسلوبك في العزف على الأوبوا.

- ولكن في حال اخترت البقاء هنا، لا نستطيع استغلال حسن ضيافة والديك وقتًا طويًلا.

وتابعت كارين قائلة بصوت هامس، وقد مالت نحوه لتعضّ أذنه بأسنانها برفق:

- كما أنني مشتاقة إليك يا حبيبي.

وإذ راحت شفتاها تبحثان عن شفتيه، التقت في قبلة مشوبة بالشغف سارع بيپ إلى إنهائها لدى سماعه أحد الأبواب يُفتح في الطابق العلوي.

- إنّنا نقيم في منزل والديّ، وعليك أن تتفهّمي...

- إنني أتفهّم كل شيء يا حبيبي. لكنني كنت أفكر في البحث عن منزل خاص بنا . فأنا أتوق إلى عناقك ولمساتك...

وأمسكت كارين بيده ووضعتها على نهدَيْها.

أجابها بيپ مبعدًا يده عن نهدَيْها برفق خشية أن يدخل أحد على حين غرّة:

- وأنا مشتاق إليك يا حبي. ولكن على الرغم من إمكان أن يوافق والدي على أمور كثيرة ما تزال غير مقبولة في النروج، لن يتقبّلا أبدًا فكرة أن نتشارك السرير من دون زواج، سواء في منزلهما أو في أي مكان آخر. وسيعتبران هذا التصرف مسيئًا، خاصة بعد كلّ ما فعلاه من أجلنا.

- أعلم ذلك، ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل؟ كيف أتخلّص من هذه المعاناة؟

وأضافت كارين ممتعضة:

- أظنّك تدرك مدى حاجتي إلى هذا التقارب في علاقتنا.

- والأمر نفسه بالنسبة إلي.

كان بيپ يشعر في بعض الأحيان وكأنّه هو الأنثى وهي الذكر في علاقتهما الجسديّة.

- ولكننا لن نتمكّن من الزواج في النروج إلا في حال وافقتِ على التحوّل إلى دياناتي.

- أتريد مني أن أصبح مسيحيّة؟

- أريد منك على وجه التحديد أن تصبحي لوثريّة.

- يا إلهي. عليّ أن أدفع ثمنًا باهظًا لأتمكّن من مطارحتك الغرام. أنا واثقة من أنّ هذه القواعد غير موجودة في أميركا.

- ربما كنت محقّة، ولكننا لسنا في أميركا يا كارين. إننا نقيم في بلدة صغيرة في النروج. ومهما تبلغ درجة حبّي لك، لا أستطيع أن أعيش معك بشكل سافر تحت ناظرَيْ والديّ. هل تفهمين ما أقصده؟

- أجل، فهمت. ولكن الارتداد إلى دين آخر... حسنًا، أظن أنّ من العار أن أخون قومي. لكنّ والدتي لم تكن يهوديّة، وقد تحوّلت إلى اليهوديّة لتتزوّج والدي، ما يعني أنني من الناحية الجينية نصف يهوديّة. عليّ أن أراجع والديّ في هذا الشأن. بإمكاني الاتصال بهما على رقم هاتف المعرض حيث يعمل والدي، والذي زوّداني به للحالات الطارئة، وأظن أنّ هذه المسألة طارئة. هل نستطيع الزواج سريعًا في حال موافقتهما؟

- لست على بيّنة من القواعد المُعتمَدة يا كارين، وأظنّ أنّ القسّ سيطلب وثائق معموديتك.

- أظنك تعلم أنني لم أتعمّد. هل نستطيع القيام بذلك هنا؟

- هل توافقين على ذلك؟ أتريدين أن تتعمّدي لتصبحي لوثريّة؟

- لا يمكن لبضع قطرات من الماء وإشارة الصليب على جبيني أن تجعلا مني مسيحية بالفعل يا بيپ.

- كلا.. ولكن..

شعر بيپ وكأنّها لا تفهم المغزى المقصود.

- بصرف النظر عن أن ذلك سيتيح لنا ممارسة الحب، هل أنت واثقة من أنك ترغبين في الزواج بي؟

أجابت كارين مبتسمة:

- أرجو منك أن تعذرني يا بيپ. ولكن رغبتي في تيسير الأمور العملية تفوق الجانب الرومنسيّ في حديثنا. من المؤكّد أنّني أرغب في الزواج بك! وسأبذل كل ما يلزم لتحقيق ذلك.

تأثّر بيپ كثيرًا بكلامها الذي أوقد في داخله نار الحماسة، فسألها قائلًا وهو يدرك تمامًا كم كان إرثها مهمًّا بالنسبة إليها:

- هل توافقين فعلًا على التحوّل عن دينك من أجلي؟

- نعم، شرط موافقة والديّ على ذلك. يجب أن أتحلّى بالحكمة. وأنا واثقة من أنّ الله، سواء كان إلهك أم إلهي، سيغفر لي في ظل الظروف الحالية.

أغاظها بيپ قائلًا:

- خُيِّل إليّ لبعض الوقت أنّك تريدين الزواج بي من أجل جسدي.

- لعلّك محق.

وتابعت قائلة:

- سأسأل والدك في الغد إنْ كان يسمح لي بإجراء اتصال هاتفيّ إلى أميركا.

راقب بيپ كارين تغادر الغرفة، وهو يفكّر في سره بأنّها قادرة في كلّ مرة على أن تصدمه بمزاجها المتقلّب وتسلسل أفكارها الجامح. وتساءل ما إذا كان سيتمكّن يومًا ما من فهم طبعها المعقّد. وفي حال تمكّنا من الزواج، كان واثقًا من أنه لن يشعر أبدًا بالملل.

أجاب والدا كارين على اتصالها في مساء اليوم التالي.

قالت له بتجهّم:

- لم يعترضا إطلاقًا. ولم يوافقا على زواجنا فحسب، بل وجدا أنّ الأكثر أمانًا أن استخدم شهرتك في حال...

- إنني في غاية السعادة يا حبي.

وأخذها بين ذراعيه وقبّلها بحرارة.

أبعدت كارين نفسها عنه وقد ظهر في عينيها بريق أكثر تألّقًا.

-حسنًا، متى نستطيع إنجاز كل الترتيبات؟

- ما أن يتسنّى لك مقابلة القس وحصولك على موافقته على تعميدك.

سألته تاركة يدها تتسلّل بين فخذَيْه:

- في الغد؟

أطلق بيپ أنينًا خافتًا من لمستها، ومن ثمّ أبعد يدها برفق وقال لها موبّخًا:

- كوني جدّية. ولكن هل أنت موافقة على العيش في النروج في الوقت الراهن؟

- هناك أماكن كثيرة أسوأ منها، وعلينا في الوقت الحالي أن نعيش كل يوم بيومه وننتظر ما سيحدث. وأظنّك تعلم أنّني أحببت المكان، بصرف النظر عن اللغة المريعة.

- في هذه الحالة، عليّ أن أبدأ في الحال بالبحث عن عمل كموسيقي لأتمكّن من أعالتنا. باستطاعتي الانضمام إلى الأوركسترا هنا أو في أوسلو؟

- قد أتمكّن من العثور على عمل أيضًا.

- هذا ممكن في حال تمكّنت من تعلّم كلمات إضافية بصرف النظر عن «لو سمحت» و«شكرًا» بلغتنا المريعة.

- حسنًا، حسنًا! إنني أحاول.

- نعم.

وطبع بيپ قبلة سريعة على أنفها مضيفًا:

- أعلم أنك تحاولين.



أعدّت أستريد عشاءً احتفاليًا لستة أشخاص لدى إعلان بيپ وكارين رغبتهما في الزواج.

سألت:

- هل تنويان الاستقرار هنا في بيرغن؟

أجاب بيپ:

- أجل، في الوقت الحالي. المهم هو أن يساعدني أبي في إيجاد عمل كموسيقيّ.

ردّ هوست بينما نهضت أستريد من مكانها وأخذت زوجة ابنها المستقبليّة بين يديها:

- سأجري بعض الاتصالات.

- كفى كلامًا في الأمور العمليّة. إنّها أمسية مميّزة. تهانينا يا عزيزتي، وأهلًا بك في عائلة هالڤورسن. إنّني سعيدة للغاية لأنّني كنت أخشى أن يقرّر بيپ السفر إلى أوروبا أو أميركا، فنخسره ونخسر موهبته. لقد أعدت ابننا إلى دياره.

ترجم بيپ كلام والدته ورأى الدموع تترقرق في عينَيْها وعينَيْ زوجته المستقبليّة.

وفجأة أعلن بو وهو يرفع كأسه ليشرب نخبهما:

- تهانينا. نأمل إيل وأنا أن نتمكن من أن نحذو حذوكما في أقرب فرصة ممكنة.

كانت أستريد على علاقة جيّدة بالقسّ في الكنيسة المحلّيّة، فقصدته للتحدّث معه، محتفظة لنفسها بما قالته له عن إرث كارين اليهودي. ولكن القس وافق على أن يعمّدها على الفور، وشاركت أسرة هالڤورسن في الخدمة التي كانت مُقتضَبة نوعًا ما، وعادوا بعدها إلى المنزل، حيث أخذ هورست ابنه جانبًا.

- لا ريب في أن ما فعلته كارين اليوم خطوة جيّدة من نواحٍ عدّة. أخبرني زميل لي في الأوركسترا، عاد منذ فترة وجيزة من ميونيخ، حيث شارك في حفل موسيقيّ، بأن الحملة النازية ضد اليهود اتّسعت رقعتها.

- ولكن لا أظن أنها يمكن أن تصل إلى هنا؟

- قد يُخيّل إلينا بأنّ ذلك غير ممكن.

وتوقف هورست قليلًا عن الكلام وأضاف:

- ولكن أعمال ذلك الرجل المجنون تخطت حدود ألمانيا. ومن يدري إلى أين يمكن أن تصل.

ولم تكد تمر فترة وجيزة حتى أعرب بو وإيل عن رغبتهما في البقاء في بيرغن أيضًا. وعلى الرغم من إزالة الجص، بقيت كتف بو متيبّسة وأعاقت بذلك قدرته على العزف على التشيللو.

وفي إحدى الليالي، أسرّت إيل لكارين في غرفة النوم التي تتشاركانها: - نأمل أن يستعيد بو عافيته قريبًا، لأنّه صاحب موهبة عالية، وأحلامه كلّها تتوقّف على إمكانيّة شفائه. وجد في الوقت الحالي عملًا في متجر لرسم الخرائط في الميناء. وعُرض علينا الإقامة في شقة صغيرة تعلو المتجر. قلنا لهم إننا متزوّجان وسأساعد زوجة رسام الخرائط في أعمال التنظيف.

سألت كارين صديقتها بغيرة:

- وهل تستطيعان تحدّث النروجية بشكل جيّد للقيام بذلك؟

- بو يتعلّم اللغة بسرعة، وأنا أبذل جهدًا كبيرًا. كما أن رسام الخرائط ألماني الأصل، ونحن على إلمام جيد بلغته الأم.

- وهل تنويان الزواج فعلًا؟

- إننا نتطلّع إلى ذلك، ولكن علينا أن ندّخر النقود أولًا. لهذا، لم نجد بدًّا من أن نكذب في الوقت الحالي. يقول بو إن الحقيقة تكمن في القلب وليس على الورق.

- أوافقه الرأي.

ومدّت كارين يدها لتمسك بيد إيل وتابعت:

- عديني بأن نبقى مقرّبتين حتى بعد انتقالك إلى المدينة.

- من دون أدنى شك. فأنتِ شقيقتي التي لم تلدْها أمي يا كارين. أحبّك كثيرًا ولا أجد كلمات تعبّر عن مدى امتناني لك ولبيپ على ما فعلتماه من أجلنا.



في صباح اليوم التالي، وبينما كانت كارين تطلع بيپ على أخبار إيل وبو، سألته:

- وهل سنحظى مثلهما بمنزل خاص بنا؟

أجابها قائلًا:

- في حال جرت المقابلة المقرّرة في الغد كما أتمنّى، سنحصل على منزل خاصّ بنا.

كان هورست قد تمكّن من تحديد موعد له مع هيرالد هايد، قائد الفرقة الموسيقيّة الفيلهارمونية في بيرغن.

طبعت كارين قبلة على شفتيه وطمأنته قائلة:

- لا تقلق يا حبيبي. ستكون الأمور على ما يرام.



لدى وصوله إلى كونسرت بلاس، كان بيپ أكثر توتّرًا ممّا كان عليه يوم خضع للاختبار لدخول المعهد الموسيقيّ. وقال بسخرية لنفسه إن مردّ ذلك أنّ أداءه هذه المرة يترك أثرًا في العالم الحقيقي، في حين أنه كان في الماضي مجرّد فتى خالي

البال، من دون أي مسؤولية باستثناء الاعتناء بنفسه. عرّف عن نفسه للمرأة القابعة في كشك التذاكر والتي قادته بعدها عبر رواق طويل إلى قاعة فسيحة للتمرين، تضم بيانو ومجموعة من النوتات الموسيقيّة. وانضم إليه بعد وقت قصير رجل طويل القامة، عريض المنكبين، عيناه تومضان ببريق غريب وشعره أشقر كثيف، عرّف عن نفسه على أنه هيرالد هايد.

- أؤكّد لك أنّ والدك أثنى على مواهبك في مناسبات عديدة، سيد هالڤورسن. ولم يخفِ أيضاً مدى سعادته بعودتك إلى منزلك في النروج.

وصافح يد بيپ بحرارة مضيفاً:

- علمت أنكما تعزفان على البيانو والكمان.

- هذا صحيح سيدي، على الرغم من أن البيانو شكّل آلتي الموسيقيّة الرئيسيّة أثناء متابعة دراستي في لايبزيغ. آمل أن أصبح مؤلّفًا في أحد الأيام.

- حسنًا، فلنبدأ.

وأشار السيد هايد بيده لبيپ ليجلس أمام البيانو، في حين جلس بدوره على مقعد ضيّق يستند إلى أحد الحيطان في الغرفة.

- حينما تصبح جاهزًا سيد هالڤورسن.

ارتعشت يدا بيپ قليلًا عندما وضعهما على لوحة المفاتيح، غير أن التوتّر ما لبث أن تلاشى مع مباشرته بعزف سلسلة من الأنغام البطيئة الشبيهة برنين الأجراس، التي تمثل افتتاحيّة المقطع الأول من كونشيرتو البيانو لرخمانينوڤ بدو صغير. وامتلأت ذاته بشغف الموسيقا العاصف وقد أغمض عينيْه، وهو يسمع في ذهنه الأجزاء المرافقة للآلات الموسيقيّة الوتريّة، وآلات النفخ الخشبيّة، بينما كانت أصابعه ترقص على وقع التطوّر السريع للأصوات التتابعيّة التي تلت. كان في منتصف الطريق منطلقًا نحو المقطع الغنائي في مي منخفض كبير عندما طلب منه هايد التوقف.

- أظن أنّ ما سمعته يكفي. كان أداؤك رائعًا. إذا كنت تجيد العزف على الكمان على هذا النحو، فليس هناك أي مانع في انضمامك للعمل معنا سيّد هالڤورسن. فلنتوجّهْ معًا إلى مكتبي لنتمكّن من التحدّث في التفاصيل.

عاد بيپ إلى المنزل بعد حوالى الساعة منتشيًا من الفرح، وأبلغ كارين وأفراد أسرته على الفور بتوظيفه، بشكل رسميّ، في الأوركسترا الفيلهارمونية في بيرغن.

- سأكون «العازف الاحتياطيّ» الذي يحل محل عازف البيانو أو الكمان أثناء غيابه أو مرضه، ولكن السيّد هايد أخبرني أنّ عازف البيانو الحالي أصبح طاعنًا في السنّ وغالبًا ما يجد نفسه عاجزًا عن العزف. ما يعني أنه من الممكن أن يتقاعد قريبًا.

- فرانز وولف أشبه ببوابة قديمة تحدث صريرًا، كما يعاني من التهاب المفاصل في الأصابع. ما يعني أنه ستُتاح أمامك فرص كثيرة للعزف. أحسنت يا بنيّ.

ربّت هورست ظهره مضيفًا:

- سنعزف معًا في الفرقة الموسيقيّة نفسها، تمامًا كما كنت أفعل مع والدي جانس.

سألته كارين بإلحاح:

- هل أخبرته أنّك مؤلّف أيضًا؟

- أجل، ولكنّ روما لم تُبْنَ في يوم واحد. أشعر الآن بالامتنان لأنني سأتمكّن من إعالتك بعد زواجنا.

قالت كارين وقد ضمت شفتيها استياء:

- وربما أتمكّن يوماً ما من الانضمام إلى الفرقة الموسيقيّة. لا أظن أنّني سأنجح في أداء دور ربّة المنزل».

ترجم بيپ لوالدته ما قالته كارين، فابتسمت قائلة:

- لا داعيَ للقلق. سأحرص أثناء انهماكك أنت ووالدك بالعزف، على تعليم كارين كلّ ما يجب عليها أن تعرف عن كيفية الاهتمام بالمنزل.

وظهر بريق الفرح في عيني هورست وهو يقول:

- سينضم من جديد شخصان من آل هالڤورسن إلى الأوركسترا، وابني على وشك الزواج، وسينعم الله عليّ حتمًا بأحفادٍ كُثُرٍ في المستقبل.

رأى بيپ كارين ترفع حاجبيها دهشة وهي تنظر إليه. إذ غالبًا ما كان يسمعها تقول إنها لا تتمتّع بحسّ الأمومة، وأنانيّتها الفائقة لا تسمح لها بإنجاب الأطفال. لم يأخذ بيپ يومًا كلامها على محمل الجدّ، لاسيما وأنّه كان يدرك أنها تحاول من خلال ذلك إحداث صدمة عبر التفوّه بأمور لا يمكن تصوّرها، وهو ما كان يزيد من حبّه لها.



عقد بيپ وكارين قرانهما في اليوم السابق لعشية عيد الميلاد. كانت المدينة مغطّاة بطبقة من الثلج الأبيض النقيّ، والشوارع في وسط بيرغن مزيّنة بالأضواء المتلألئة، ما أضفى على حفل الزواج طابعًا شبيهًا بالقصص الخرافيّة، كانا متوجّهين معًا في عربة يجرّها حصان إلى فندق غراند ترمينوس.

بعد حفل الاستقبال الذي أصرّ هورست على دفع كل تكاليفه، تمنّى العريسان للضيوف ليلة سعيدة وصعدا إلى غرفتهما. ومع دخولهما الغرفة التي حجزها لهما إيل وبو كهدية زفافهما، ارتمى أحدهما في حضن الآخر بعد جوع شديد على مدى أكثر من ستة أشهر. وبينما كانا يتبادلان القبل، حرّر بيپ أزرار فستان كارين المخرّم بلون القشدة، لينزلق بعدها عن كتفيها وذراعيها، مهيّئاً الطريق أمام أصابعه التي انحدرت باتجاه عظم الترقوة الرقيقة قبل أن تتابع تسلّلها إلى حلمتَيْها الورديتَيْن. تأوّهت كارين وأحكمت قبضتها على حفنة من شعره، فأبعد بيپ فمه عن فمها، وأمال برأسه نحو نهدَيْها. فأخذت تلهث من شدّة اللذة، وقد أطبقت شفتاه على حلمتها. أبعدت على الفور ثوبها عن وركيها وتركته ينسدل على الأرض. عندها رفع بيپ ذراعيه وحملها إلى السرير، وقد تسارعت أنفاسه تقوده رغبة جامحة. وإذ وقف قرب السرير وبدأ بخلع ملابسه بشكل أخرق، ركعت كارين على الفراش وأوقفته قائلة على عجل : «كلا، حان الآن دوري». فكّت أوّلاً أزرار قميصه بلباقة ومن ثمّ فكّت أزرار سرواله. ولم تكد تمر بضع ثوانٍ حتى أمسكت به وجعلته يستلقي فوقها ليتوها بعدها في عالم الشغف.

بعد أن استلقيا جنبًا إلى جانب يصغيان إلى الساعة في ساحة المدينة تدّق

معلنة منتصف الليل، اتّكأت كارين على مرفقها مبتسمة وأعلنت قائلة، بينما كانت تداعب وجهه بأناملها:

- كان الأمر يستحقّ حتمًا التحوّل إلى دينك. وفي حال لم أقل لك ذلك من قبل، سأقولها لك الآن، بصفتي زوجتك منذ بضع ساعات، وأريدك ألّا تنسى ذلك أبدًا: أحبك يا حبيبي، ولا أذكر أنّني شعرت بهذا القدر من السعادة في أي وقت مضى.

- ولا أنا أيضًا.

وأبعد يدها عن خدّيه وضغط بها على شفتيه قائلاً:

- هذا من أجل البقاء معًا دائمًا.

- دائمًا.

40

1938

مع تساقط الثلج والمطر من دون توقّف على بيرغن خلال كانون الثاني وشباط وآذار، وساعات الضوء القصيرة التي سرعان ما تتحوّل ظلامًا، كان بيپ يصرف ساعات عدة كل يوم في التمارين مع أوركسترا بيرغن الفيلهارمونية. في بادئ الأمر، كان يُستدعى فقط للعزف في الحفلات المسائية مرة في الأسبوع حدًّا أقصى، لكن عندما راح فرانز المسكين، عازف البيانو العجوز، يأخذ إجازات أكثر بسبب داء المفاصل الذي ألمّ به وزادت أوجاعه، أصبح بيپ تدريجًا عضوًا ثابتًا في الأوركسترا.

في هذه الأثناء، خصّص أوقات فراغه لتأليف الكونشيرتو الأول الخاص به. ولم يطلع أحدًا على نتائج جهوده، ولا حتى كارين. عندما ينهي عمله، سيهديه لها. وفي فترات بعد الظهر بعد التمارين، غالباً ما كان بيپ يبقى في قاعة الحفلات. هناك، عمل على مقطوعته على البيانو في حفرة الموسيقيين، محاطاً بجو المسرح الذي يبدو وكأن الأشباح تسكنه من دون أوركسترا أو جمهور.

من ناحيتها، كانت كارين منشغلة باستمرار مع أستريد التي أصبحت تحبّها كثيرًا. وبدأت لغتها النروجيّة تتحسّن ببطء وبذلت قصارى جهدها لكي تتعلّم فن التدبير المنزلي تحت إشراف حماتها اللطيفة.

وعندما كان عمل إيل يسمح بذلك، تعوّدت كارين أن تلتقي صديقتها في الشقّة الصغيرة الواقعة فوق متجر الخرائط عند واجهة المرفأ، فتناقشان آمالهما وخططهما للمستقبل.

اعترفت كارين بينما هما تحتسيان القهوة ذات صباح:

- لا أستطيع أن أمنع نفسي من الشعور بالغيرة، لأنّك تملكين بيتك الخاص. أنا وبيپ متزوّجان الآن وما نزال نعيش تحت سقف والديه وننام في غرفة طفولته. إنه ليس المكان الأكثر سحرًا ورومنسية. علينا أن نحرص دومًا على التزام الهدوء، لكنّني أتوق إلى حريّة ممارسة الحب من دون قيود.

كانت إيل متعوّدة على تصريحات صديقتها الصريحة فابتسمت وقالت:

- سيأتي الوقت المناسب لذلك، أنا واثقة. أنت محظوظة لأنّ والدَيْ بيپ يدعمانك ويساندانك. لا يزال الأمر صعبًا بالنسبة إلينا. إنّ مرفق بو أفضل بكثير مما كان عليه لكنه لم يستعد عافيته تمامًا وبما يكفي ليتقدم بتجربة أداء للانضمام إلى الأوركسترا هنا أو في أيّ مكان آخر. إنه منهار لأنه عاجز عن متابعة شغفه في الوقت الراهن، كما هو حالي أنا أيضًا.

أدركت كارين تمامًا ماهيّة هذا الشعور الذي تحدّثت عنه صديقتها، فبعد أن التزمت ببيئة عائليّة منذ وصولها إلى بيرغن، اقتصرت مهاراتها الموسيقيّة على الحفلات التي تُقام في المساء بين الحين والآخر في فروسكهاوست. لكنها اعترفت أيضًا بأنّ مشاكلها تافهة للغاية مقارنةً مع التحدّيات التي تواجهها إيل وبو.

- أنا آسفة يا إيل، كنت أنانيّة.

- لست كذلك يا أختي. الموسيقا هي الدم الذي يبقينا أحياء ومن الصعب أن نعيش من دونها. هناك ناحية إيجابيّة على الأقل نجمت عن عدم قِدرة بو على العزف. إنه يستمتع بعمله مع صانع الخرائط وهو غارق في تعلّم طرق الإبحار. هو راضٍ في الوقت الراهن وكذلك أنا.

قالت كارين:

- أنا مسرورة وسعيدة لأننا ما نزال نعيش في المدينة نفسها ونتقابل كلّما رغبنا في ذلك. لا أعلم ماذا كنت لأفعل من دونك.

- وأنا كذلك.



في أوائل شهر أيار، أعلن بيپ لكارين أنه وفّر ما يكفي من المال ليتمكّنا من استئجار منزل صغير في شارع تياترغاتن، في قلب المدينة، على بُعد خطوات من المسرح وقاعة الحفلات الموسيقيّة.

عندما أخبرها، انفجرت كارين باكيةً وقالت:

- إنّ التوقيت جيّد جدًا يا عزيزي. فبصرف النظر عن كل شيء، عليّ أن أخبرك أني... يا إلهي! أنا حامل.

هتف بيپ وهو يسارع إلى جانب زوجته ويأخذها بين ذراعيه في عناق حنون:

- لكن هذا أجمل خبر!

وتابع يغيظها وهو يرفع ذقنها المرتعش بحيث التقت نظراتهما:

- حاولي ألّا تبدي مذعورة إلى هذا الحدّ. أنت، مع كل معتقداتك وقناعاتك الطبيعيّة، يجب أن تكوني أول من يعترف بأن الطفل هو بكل بساطة نتيجة قلبين ينبضان بالحب.

- أعرف هذا كلّه، لكني أعاني من الغثيان الشديد كل صباح. وماذا لو لم أحبّ الطفل؟ ماذا لو كنت أمًّا سيّئة له؟ ماذا لو...

- اصمتي الآن. أنت خائفة وحسب. كل الأمهات اللواتي يخضن تجربتهن الأولى يخفنَ.

- لا! النساء اللواتي عرفتهن يسعدنَ دومًا بحملهنّ. يجلسنَ كالأحصنة التي تُربّى للتناسل يربّتنَ على بطونهن الظاهرة ويستمتعن بذلك. أما أنا فكلّ ما أراه هو غريب في داخلي، يحرمني من بطني المسطّح ويستنزف طاقتي.

عند هذا الحدّ، انهارت كارين متكئة عليه في نوبة بكاء صاخبة أخرى.

كبت بيپ ابتسامته وأخذ نفسًا عميقًا، وبذل كل ما في وسعه لكي يواسيها.

في وقت لاحق من ذلك المساء، أخبر بيپ والديْه أنّهما سيصبحان جدّين، وأنه هو وكارين سينتقلان إلى منزلهما الخاص.

تلت ذلك موجة من التهاني، لكنّ هورست لم يقدّم لكارين كأسًا عندما فُتحت زجاجة الكحول.

اشتكت عندما صعدت إلى السرير واستلقت إلى جانبه:

- أرأيت؟ كل مصادر متعتي أصبحت من الماضي الآن.

ضحك بيپ وهو يأخذها بين ذراعيه ويمدّ يده تحت قميص نومها لتداعب البطن الصغير. خطر له أنّ الأمر أشبه برؤية الهلال للمرة الأولى في سماء مليئة بالنجوم. هو وهي صنعا هذا معًا. إنها معجزة.

- إنها ستة أشهر أخرى فقط يا كارين. وأعدك أن أُحضر ليلة الولادة زجاجة كاملة من الكحول وأضعها قرب سريرك وبإمكانك أن تشربيها كلها.



في بداية شهر حزيران، انتقلا إلى منزلهما الجديد في شارع تياترغاتن. وعلى الرغم من صغر حجمه، لكنّ المنزل كان جميلًا بواجهته الخشبيّة الخارجيّة ذات اللون الأزرق المائل إلى الخضرة وشرفته الخشبيّة الممتدّة أمام المطبخ.

خلال فصل الصيف، وأثناء وجود بيپ في عمله، عملت كارين جاهدة وبمساعدة أستريد وإيل على الديكور الداخلي للمنزل ووضعت أصصًا من زهور الخزامى والبيتونيا على الشرفة. وعلى الرغم من ميزانيّتهما المتواضعة، تحوّل المنزل تدريجًا جنّةً من الطمأنينة والسكون.



في ليلة عيد ميلاده الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول، عاد بيپ من المسرح إلى المنزل بعد حفلة مسائية ليجد كارين وإيل وبو يقفون في غرفة الجلوس.

قالت كارين وقد تراقصت عيناها حماسة، بينما انحنى الثلاثة جانبًا ليكشفوا عن بيانو وُضِع خلفهم في زاوية الغرفة:

- عيد ميلاد سعيد يا عزيزي. أعلم أنه ليس ستانوي لكنها بداية على الأقل.

سألها بيپ بذهول:

- لكن كيف...؟ لا نملك المال لشراء شيء كهذا؟

فردّت:

- هذا أمر عليّ أنا أن أقلق منه وعليك أنت أن تستمتع به. يجب أن يملك المؤلّف آلته الخاصة في متناول يده في أيّ وقت ليتابعْ حلمه. لقد جرّبه بو وقال إنّ نغمته جيدة. تعال يا بيب ودعنا نستمع لك وأنت تعزف.

- بالطبع.

اقترب بيب من البيانو ومرّر أصابعه على الغطاء الخشبي الذي يحمي المفاتيح، متأملًا بإعجاب الزخرفة البسيطة التي تزيّن الخشب الذهبيّ على اللوحة فوقه. لم يرَ علامةً تشير إلى المصنّع لكن الآلة مصنوعة بشكل جيد وفي حالة ممتازة، وقد بدا جليًا أنّها صُقلت بمحبّة. رفع الغطاء ليكشف عن مفاتيح لامعة، ثم التفت حوله بحثًا عن شيء يجلس عليه.

تقدّمت إيل على عجل وقالت وهي ترفع كرسيًا منجّداً من مخبئه خلف أحد الكراسي وتضعه أمام البيانو:

- وهذا هديّة منا. بو حفر الخشب بنفسه، وأنا قمت بخياطة وسادة المقعد.

تأمّل بيب قوائم المقعد المصنوعة بعناية من خشب الصنوبر، وعمل الخياطة المتقن على الوسادة، فشعر بفائض من الأحاسيس. قال وهو يجلس:

- أنا... لا أعلم ماذا أقول، سوى: شكرًا لكما.

قال بو بهدوء:

- هذا لا يُقارن بما فعلته أنت وعائلتك لنا يا بيب. عيد ميلاد سعيد.

رفع بيب أصابعه إلى لوحة المفاتيح وبدأ يعزف المقاطع القليلة الأولى من معزوفة تشايكوفسكي «نزوة في الشقة ج». كان بو محقًّا، فنغمة الآلة جميلة بالفعل. وراح يفكّر بحماسة كيف باستطاعته الآن أن يعمل على الكونشيرتو الخاص به في أيّ وقت من النهار أو الليل.



بينما راح بطن كارين يكبر، وأصبحت على بُعد أسابيع قليلة من موعد الولادة، جلس بيپ إلى آلة البيانو الحبيبة، يخربش بلهفة ويختبر النغمات والصيغ التوليفيّة المختلفة. أدرك أنّ البيت سيفقد سكينته إلى غير رجعة مع قدوم الطفل.

وفي 15 تشرين الثاني من العام 1938، وصل فيليكس ماندلسون إدوارد هالڤورسن - حمل اسمه الأول تيمّناً بوالد كارين- إلى هذه الدنيا سعيدًا وفي صحّة جيدة. وكما توقّع بيپ تمامًا، انتقلت كارين بعد كل مخاوفها السابقة إلى مرحلة الأمومة بشكل سلس وطبيعيّ. وفي حين أسعده أن يراها راضية وسعيدة إلى هذا الحدّ، كان عليه أن يعترف بأنه شعر أحيانًا بأنّه مستبعد من الرابط الوثيق بين الأم والطفل. كان اهتمام زوجته كلّه مركّزًا على ابنهما الغالي وقد أحبّ بيپ هذا التغيير في وجهة التركيز وكرهه بالمقدار نفسه. ولعل أصعب ما واجهه هو أنّ كارين، التي تعوّدت في السابق أن تشجّعه باستمرار على العمل على مؤلّفاته، راحت في هذه الأيام تسكته كلما جلس إلى البيانو قائلة:

- بيپ! الطفل نائم وستوقظه.

لكنّ هناك سببًا محدّدًا جعله سعيدًا بانشغال كارين بأمومتها؛ فهذا يعني أنها لا تأبه بمطالعة الصحف التي راحت تكشف كل أسبوع عن تصاعد التوتّر في أوروبا. بعد ضمّ ألمانيا للنمسا في شهر آذار، ظهرت بارقة أمل في نهاية شهر أيلول تشير إلى إمكانية تفادي الحرب: وقّعت كل من فرنسا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا اتفاق ميونيخ الذي ضمّ إقليم السوديت من تشيكوسلوفاكيا إلى المانيا، في مقابل تعهّد من هتلر بعدم مطالبة ألمانيا بأيّ أراضٍ أخرى. وقد أعلن رئيس الوزراء البريطاني نيفيل شامبرلين في خطاب له أنّ الاتفاق سيفضي إلى «سلام العصر».

تمنّى بيپ من أعماق قلبه أن يكون السيد شامبرلين محقًا. لكن مع حلول فصل الخريف، أصبح الحديث في حفرة الأوركسترا وفي شوارع بيرغن يرسم صورة قاتمة؛ قليل هم الذين يؤمنون بأنّ اتفاق ميونيخ سيصمد.

شكّلت احتفالات عيد الميلاد على الأقل استراحة مرحّبًا بها. أمضوا يوم الميلاد في منزل هورست وأستريد برفقة إيل وبو. وفي ليلة رأس السنة، أقام بيپ وكارين

حفلًا صغيرًا في منزلهما. وعندما قُرعت الأجراس معلنة انتصاف الليل وبدء سنة 1939 الجديدة، أخذ بيپ زوجته بين ذراعيه وقبّلها بحنان هامسًا لها:

- حبي، أدين لك بكل ما أنا عليه. لا أستطيع أن أشكرك بما يكفي على ما قدّمته لي وما فعلته. هذا نخبنا نحن الثلاثة.



وفي يوم رأس السنة الجديدة، صعدت كارين - التي أُقنعت بترك فيليكس تحت رعاية جدّيه الحنونين- برفقة بيپ وبو وإيل إلى متن الباخرة هيرتغروتن في ميناء بيرغن، وأبحروا على طول الشاطئ الغربي الرائع للنروج. نسيت كارين حتّى عذاب ضميرها كأمّ وهي تتأمّل المواقع الكثيرة المذهلة التي مرّوا بها. وكان المفضّل عندها من بين المواقع كلها الشلال السبع المعلّق عند حافة مضيق جيرانجر.

قالت وهي تقف على سطح المركب مع بيپ وقد تلحّفت بطبقات من الملبوسات الصوفية في مواجهة البرد القارس والحرارة التي تدّنت إلى ما تحت الصفر:

- إنه مشهد يقطع الأنفاس يا عزيزي.

وحدّقا برهبة إلى المنحوتات الجليديّة الطبيعيّة المذهلة التي تشكّلت عندما تجمّدت الجداول في منتصف تدفّقها نحو الأسفل في بداية فصل الشتاء.

أبحرت الباخرة هيرتغروتن قرب الساحل وبعيدًا عنه، مندفعة نحو المضائق وخارجة منها، ومتوقّفة في كل الموانئ الصغيرة المختلفة لتُنزل ما تحمله من مؤن وبريد، مانحة شريان حياة للمقيمين في التجمّعات السكانيّة المعزولة على طول الساحل.

وفي طريقهم نحو أقصى نقطة إلى الشمال، إلى ميهامن الواقعة في أعلى ساحل المنطقة القطبيّة من النروج، شرح بيپ لرفاقه ظاهرة الشفق القطبيّ.

قال في محاولة منه لإيجاز جمال المشهد في كلماتٍ مدركًا أنه سيفشل في ذلك:

- الأضواء القطبيّة هي أشبه باستعراض ضوني سماويّ صمّمه الرب.

سألته كارين:

- هل شاهدتها من قبل؟

- نعم، لكن مرة واحدة فقط حين كانت الظروف المناخيّة مناسبة ووصلت الأضواء جنوبًا حتى بيرغن. لم أقم بهذه الرحلة من قبل.

سألت إيل وهي تحدّق في السماء الصافية والمرصّعة بالنجوم فوقهم:

- كيف تتشكّل؟

اعترف بيپ قائلًا:

- أنا واثق من أنّ ثمة تفسيرًا تقنيًا وعلميًا، لكنني لست الشخص المناسب لتقديمه.

فقال بو:

- وربما لا يحتاج الأمر إلى أي تفسير في أيّ حال.

كانت الرحلة نحو الشمال من ترومسو مضطربة بفعل الأمواج، فانتقلت المرأتان إلى المقصورة مع اقتراب السفينة من البرّ الرئيسي في خليج الشمال. أعلن القبطان أنّ هذه النقطة هي أفضل موقع مراقبة لرؤية الأضواء القطبيّة، لكن بيپ اضطرّ إلى ترك بو وحيدًا على سطح السفينة يحدّق إلى السماء، ونزل إلى المقصورة ليعتني بكارين لأنّه يعلم مدى سوء حالها.

همهمت كارين وهي تتقيّأ في الكيس الذي تم تأمينه لأولئك الذين يعانون من دوار البحر:

- قلت لك إنني أكره الماء.

طلع الفجر على مياه أكثر هدوءًا بعد أن غادروا خليج الشمال وأبحروا جنوبًا عائدين نحو بيرغن. ألقى بو التحيّة على بيپ في غرفة الطعام وقد فاضت الحماسة من ملامح وجهه ثم قال:

- رأيتها يا صديقي! رأيت المعجزة! وعظمتها كانت كافية لتقنع أكثر الناس إلحادًا بوجود قوّة عظمى. الألوان... أخضر، أصفر، أزرق... السماء كلها كانت مضاءةً في تألّق فريد! أنا...

واختنق بو بكلماته الخاصة لكنه عاد وتمالك نفسه. وبعينين التمعتا بدموع لم يذرفها، مدّ يديه نحو بيب واحتضنه مضيفًا:

- شكرًا لك. شكرًا لك.



بعد عودتهم إلى بيرغن، وحرصًا على عدم إزعاج الطفل فيليكس، كان بيب ينسحب إلى قاعة الحفلات الموسيقيّة الفارغة أو إلى منزل والديه ليعزف على البيانو هناك. كان دماغه مشوّشًا بسبب الليالي الطويلة التي كان فيليكس يصرخ فيها من دون توقّف من جرّاء المغص الذي كان يُصاب به باستمرار. وعلى الرغم من أنّ كارين تعوّدت النهوض للاهتمام بالطفل وترك زوجها ينام لأنها تعرف حجم العمل الذي عليه أن ينجزه، لكنّ ضجيج بكاء فيليكس العالي النبرة كان يخترق الجُدُر الرقيقة في المنزل الصغير، ما يجعل الراحة مستحيلة لكليهما.

قالت كارين المُنهَكة أثناء تناول الفطور بعد ليلة متعِبة للغاية:

- ربما عليّ أن أضيف بعض الكحول إلى زجاجة الحليب وينتهي الأمر. هذا الطفل يقتلني.

وتنهّدت قبل أن تردف:

- أنا آسفة جدًا على هذا الإزعاج يا عزيزي. يبدو أني غير قادرة على تهدئته. أنا أمٌّ فاشلة.

وضع بيب ذراعه حول كتفيها ومسح دموعها بأصابعه قبل أن يقول:

- أنت بالتأكيد لست كذلك يا حبي. سنتجاوز ذلك، أعدك.

ومع اقتراب الصيف، يئس الوالدان من الحصول على ليلة نوم كاملة مجدّدًا. في الليلة الأولى من الصمت، استيقظا بشكل آلي عند الساعة الثانية ليلًا، وهي الساعة التي يبدأ فيها النواح في العادة.

قالت كارين وهي تنهض مسرعة من السرير لتتوجّه نحو المهد المحشور في إحدى زوايا الغرفة الصغيرة:

- هل تعتقد أنّه بخير؟ لمَ لا يبكي؟ يا إلهي! ماذا لو مات؟!

وتابعت تقول همسًا وهي تقف قرب فيليكس بعد أن وضعت يدها على جبينه:

- لا، لا، إنه يتنفّس ولا يبدو أنّه يعاني من أيّ حمى.

سألها بيپ:

- إذن، ما الذي يفعله؟

بدأت الابتسامة تتشكّل على شفتيْ كارين وهي تجيب:

- إنه نائم يا عزيزي. نائم.



ومع عودة السكون والسلام إلى المنزل، عاد بيپ للعمل على موسيقاه. وبعد كثير من التفكير، قرّر أن يطلق على عمله اسم كونشيرتو البطل. فالقصة التي قرأها عن الكاهنة التي خرقت قواعد الهيكل وقوانينه حين سمحت لعاشقها الشاب بأن يمارس الحب معها والتي رمت نفسها في البحر خلفه حين غرق، تناسب تمامًا طبيعة كارين الدراميّة والمستقلّة. كما أنّ كارين هي «بطلته»، وقد أدرك بيپ أنه إذا ما فقدها فسيفعل الأمر نفسه.

بعد ظهر أحد أيام شهر آب، وضع قلم الرصاص الذي يستخدمه ليكتب على أوراق الموسيقا، ومطّ ذراعيه إلى الأعلى في ارتياح. لقد أنهى الآن التوزيع الأوركسترالي ووضع اللمسات الأخيرة على مقطوعته.

وفي يوم الأحد التالي، أقلّه القطار برفقة كارين والطفل فيليكس لزيارة والديه في فروسكهاوست. وبعد تناول الغداء، أخرج أوراق الموسيقا التي تحتوي على مقاطع التشيللو والكمان والمزمار، وطلب من كارين وهورست دراستها. وبعد تمرين سريع-وكلاهما قارئان محترفان صاحبا خبرة- جلس بيپ إلى البيانو وبدأت الأوركسترا الصغيرة العزف.

بعد عشرين دقيقة، أراح بيپ يديه في حضنه والتفت ليرى أمه تمسح الدموع المنهمرة من عينيها.

همست وهي ترمق زوجها بنظرة:

- ابني كتب هذا... أعتقد أنه ورث موهبة أبيك يا هورست.

فقال هورست الذي بدا تأثّره جليًّا:

- نعم، بالفعل.

وصفق بيده على كتف بيپ مضيفًا:

- هذا مُلهِم جدًّا يا بنيّ. لا بدّ من عزفها أمام هيرالد هايد في أسرع وقت ممكن. أنا متأكّد من أنه سيتمنّى أن يعزفها للمرة الأولى هنا في بيرغن.



عندما أقلّهما القطار في طريق عودتهما إلى المنزل قالت كارين باستخفاف:

- بالطبع الفضل لي لأني اشتريت لك البيانو. والآن، عندما تصبح ثريًّا، باستطاعتك أن تشتري لي عقدًا بدل عقد اللؤلؤ الذي بعته لأشتري البيانو.

وانحنت نحوه لتقبّله على خدّه عندما رأت الصدمة ترتسم على وجهه فأردفت قائلةً:

- لا تتضايق يا حبي. لقد جعلتنا أنا وفيليكس فخورين، ونحن نحبك.

استجمع بيپ شجاعته ليبحث عن هيرالد هايد في قاعة الحفلات الموسيقيّة قبل العرض المسائي الأول لهذا الأسبوع. وعندما وجده في الكواليس، شرح له أنه كتب كونشيرتو وأنه يرغب في الحصول على رأيه فيه.

اقترح هيرالد:

- لا وقت أفضل من الوقت الحالي. لمَ لا تعزفه لي الآن؟

- حسنًا يا سيدي.

جلس بيپ بعصبيّة ووضع أصابعه على مفاتيح البيانو وراح يعزف الكونشيرتو كلّه من ذاكرته. لم يوقفه هيرالد وعندما أنهى بيپ العزف صفّق له بقوة.

- حسنًا، حسنًا، إنه جيّد جدًّا، جدًّا يا سيد هالڤورسن. إنّ الموضوع المتكرّر فريد بشكل جميل، وسار كما أنه ساحر. ها قد بدأت أدندنه. بعد أن تصفّحت هذه

الأوراق، استطعت أن أرى أن بعض أجزاء التوزيع الأوركسترالي تحتاج إلى تعديل، لكنّني أستطيع أن أساعدك في ذلك.

وأضاف وهو يعيد إلى بيپ أوراق الموسيقا:

- أتساءل إنْ كان هناك غريغ شاب آخر بيننا. هناك بالتأكيد شيء من عمله في التركيبة، لكنْ.. لعلّي سمعت رخمانينوڤ وسترافينسكي هنا أيضًا.

فأجابه بيپ بجرأة: «آمل أن تكون قد سمعت قليلًا مني أيضًا».

- بالطبع سمعت، بالطبع سمعت. أحسنت أيها الشاب. أعتقد أننا قد نتطلّع إلى إضافة الكونشيرتو إلى البرنامج في بداية الربيع، ما يمنحك الوقت الكافي لتعمل على التوزيع الأوركسترالي.

بعد الحفل الموسيقيّ، تجرّأ بيپ على إيقاظ زوجته النائمة قائلًا:

- هل تصدّقين ذلك يا عزيزتي؟ لقد حصل! في مثل هذا الوقت من العام القادم، قد أصبح مؤلّفًا موسيقيًا محترفًا!

- هذا أروع خبر سمعته يومًا. وهذا لا يعني أنني شككت في قدرتك ولو للحظة. سيكون لك نفوذ وتأثير.

وأضافت ضاحكةً:

- سأكون زوجة بيپ هالڤورسن الشهير.

صحّح كلامها:

- بالطبع، سأكون جانس هالڤورسن، سأحمل الاسم نفسه الذي حمله جدي من قبلي.

- أنا واثقة من أنّه فخور جدًا بك يا عزيزي. تمامًا مثلي أنا.

شرب كل واحد منهما كأسًا من الأكوافيت نخب هذه الأخبار، ثم أكملا الاحتفال بممارسة الحب بشكل صامت، لئلّا يزعجا فيليكس النائم بسلام في مهده الموضوع عند أسفل سريرهما.



لمَ يكون عمر السعادة قصيرًا دائمًا؟ طرح بيب هذا السؤال على نفسه بعد أن شعر بالبؤس وهو يقرأ في الصحيفة في 4 أيلول أنّ فرنسا وبريطانيا أعلنتا الحرب على المانيا إثر اجتياحها بولندا في الأول من أيلول. عندما غادر بيب المنزل وقطع المسافة القصيرة التي تفصله عن قاعة الحفلات الموسيقيّة من أجل التمارين، استطاع أن يشعر بوطأة الكآبة التي حلّت على سكّان المدينة.

قال صامويل، أحد زملاء بيب الموسيقيين بينما كانت الأوركسترا تستعد وتحضّر آلاتها في الحفرة:

- لكنّ النروج استطاعت أن تحافظ على حيادها في الحرب الأخيرة، فلمَ لا نتمكّن من ذلك الآن؟ نحن دولة مسالمة وليس علينا أن نخشى شيئًا.

كان الجميع متلهّفين لمعرفة مزيد من الأخبار وقد سيطر عليهم التوتّر.

أجاب هورست بنبرة متجهّمة وهو يُحضّر علبة التشيللو:

- تذكّرْ أنّ فيدكون كفيشلينغ الذي يترأس الحزب الفاشي هنا في النروج يبذل قصارى جهده لكي يحشد الدعم لقضيّة هتلر. وقد قدّم محاضرات كثيرة عما يسمّيه «المشكلة اليهوديّة». وإذا وصل إلى السلطة، لا سمح الله، فسيقف إلى جانب ألمانيا من دون شك.

عند انتهاء الحفل الموسيقيّ، أخذ بيب والده جانبًا وسأله:

- أبي، هل تعتقد حقًّا أنّنا سنتورّط في هذه الحرب؟

هزّ هورست كتفه بحزن وأجاب:

- أخشى أن يكون هذا ممكنًا. وحتى لو قاومت أمّتنا الدعوة إلى حمل السلاح إلى جانب أيّ من الطرفين، لكنّني شخصيًّا أشكّ في أن يتركنا النظام الألماني وشأننا.

في تلك الليلة، بذل بيب قصارى جهده لكي يواسي كارين التي ارتسم في عينيها مجدّدًا ذاك الخوف الذي رآه في لايبزيغ.

قال لها بينما هي تذرع أرض المطبخ ذهابًا وإيابًا، حاملة فيليكس الذي راح يتلوّى بينما هي تضمّه إلى صدرها لتحميه كما لو أنّ النازيين سيدخلون فجأة من الباب الأمامي وينتزعون طفلها من بين يديها:

- أرجوك أن تهدئي. تذكّري أنك الآن لوثريّة معمّدة وأنّ شهرتك هالڤورسن . حتى لو اجتاح النازيون البلاد وهذا أمر مُستبعَد، لا داعيَ لأن يعرف أحد أنّك يهوديّة الولادة.

- آه يا بيپ، لا تكن ساذجًا! جلّ ما يحتاجونه هو أن يلقوا نظرة واحدة عليّ ليروا الحقيقة. وقليل من التحريات بعدئذٍ ستكشفها. أنت لا تدرك شموليتهم؛ لن يتوقّفوا حتى يجتثّوا جذورنا! وماذا عن ابننا؟ دمٌ يهوديّ يجري في عروقه! قد يأخذونه هو أيضًا!

قال بيپ وهو يُبعد عن ذهنه التعليقات التي سمعها من أبيه في وقت سابق:

- لا أرى كيف يمكن لهم أن يكتشفوا ذلك. علينا أن نؤمن بأنهم لن يأتوا إلى هنا. قال لي أشخاص كُثُر إنّ اليهود ما يزالون يتقاطرون من كل أنحاء أوروبا إلى النروج مرورًا بالسويد للفرار من الخطر النازي. أنهم يرون البلاد ملاذًا آمنًا. فلمَ لا تستطيعين أن تري ذلك؟

- لأنّهم قد يكونون مخطئين يا بيپ... قد يكونون مخطئين.

وتنهّدت فجأة قبل أن تنهار على كرسي وهي تسأل:

- هل عليّ أن أشعر بالخوف دائمًا؟

- أقسم يا كارين أنّني سأفعل كل ما في وسعي لكي أحميكِ أنت وفيليكس. مهما يتطلّب الأمر يا حبي.

- رفعت ناظريها نحوه وقد بدت عيناها مشكّكتين وخائفتين وقالت:

- أعلم أنّ هذا ما ترغب فيه يا عزيزي، وأشكرك على ذلك. لكن، وللأسف، ربما لن تتمكّن حتى أنت من إنقاذي هذه المرّة.

وعلى غرار ما حصل بعد تدمير تمثال مندلسون في لايبزيغ وتحويله كومةً من ركام، شعر بيپ بأنّ الجو المتوتر والمشحون قد هدأ في الأشهر التالية، بعد أن بدأ الجميع في النروج يتقبلون الوضع ويتفاعلون معه. فعل الملك هوكون ورئيس وزرائهم يوهان نيغورسفول ما في وسعهما لطمأنة مواطنيهما إلى أنّ المانيا غير مهتمة بهذه الزاوية الصغيرة من العالم. وكرّرا أنْ لا داعيَ للهلع، على الرغم من أنّ

الجيش والقوات البحريّة وُضِعا على أهبّة الاستعداد وتم اتخاذ احتياطات كثيرة في حال حصول الأسوأ.

وفي الوقت نفسه، أمضى بيپ، تحت يديّ هيرالد الخبيرتَين والراعيتَين، ساعات طوالًا في العمل على التوزيع الأوركسترالي لكي يبلغ حدّ الاتقان. وقبيل عيد الميلاد، أبلغه هيرالد الأخبار الرائعة وهو أن كونشيرتو البطل سيُدرج ضمن برنامج الربيع. وهذه الأخبار جعلت كحول الأكوافيت تسيل عندما وصل بيپ إلى المنزل بعد الحفل الموسيقي.

- سأهدي عملي الأول لك يا حبيبتي.

- وسأكون حاضرة لأشهد ولادة تحفتك الفنّية. أنت كنت حاضراً عندما وضعت أنا تحفتي.

قالت كارين هذا وارتمت بين ذراعيه ثملة. بعدئذ، مارسا الحب في حماسة صاخبة، لا يقيّدها وجود ابنهما الذي كان يقضي الليلة في منزل جدّيه.

41



في صباح نهار ماطر من شهر آذار من العام 1940، جلس بيپ قبالة زوجته على مائدة الفطور، ولاحظ عبوسها وحاجبَيْها المنعقدَيْن وهي تقرأ الرسالة التي تلقّتها من أبوَيْها.

سألها: ما الأمر يا حبي؟.

أجابته وقد تلاقت عيناهما:

- ينصحنا والداي بالسفر إلى أميركا في الحال. فهما مقتنعان بأن القائد هتلر يريد السيطرة على العالم بأسره، بحيث لن يهدأ له بال قبل أن يحكم سيطرته على أوروبا ومن ثمّ ينتقل إلى ما هو أبعد منها. انظر، أرسلا لنا مبلغًا كبيرًا من الدولارات لنتمكّن من تسديد نفقات الرحلة.

- لوّحت له بالأوراق الماليّة وتابعت:

- إذا بعنا البيانو، نستطيع أن نؤمّن بقية المبلغ. يقول والداي إن فرنسا والنروج لم تعودا في مأمن من الغزو.

كان بيپ يستعد بعد أسبوع من الآن للعرض الأول المقرّر إقامته في المسرح الوطنيّ في الرابع عشر من نيسان، خلال حفل موسيقيّ خاص، فحدّق إليها قائلًا:

- أستميحك عذرًا، ولكن كيف يمكن لأبوَيْك، المقيمَيْن على بعد آلاف الأميال من هنا، أن يكونا على بيّنة من الوضع في أوروبا أكثر منا؟

- لأنّهما يتمتّعان ببعد النظر، والحياديّة التي نفتقر إليها هنا. فنحن في قلب العاصفة، وأظنّ أنّنا نوهم أنفسنا هنا في النروج، لأنها الطريقة الوحيدة التي تبعث في أنفسنا الراحة. أظن يا بيپ أنّ الوقت قد حان لنرحل من هنا.

- أظنك يا حبيبتي تدركين مثلي تمامًا أن مستقبلنا نحن الثلاثة يتوقّف على نجاح العرض الأوّل للكونشيرتو. كيف تريدين مني أن أترك كل شيء وأرحل؟

- ربما كان ذلك هو الحل الأفضل للحفاظ على سلامة زوجتك وطفلك؟

- لا تتكلّمي بهذه الطريقة يا كارين لو سمحت. فعلت كل ما باستطاعتي لحمايتك، ولن أتوانى عن القيام بذلك في المستقبل. إذا كنتِ ترغبين في أن نبني مستقبلًا لنا في أميركا، عليّ أن أكتسب شهرة كبيرة تسبقني إليها. وإلا، سأصل إلى تلك البلاد كمؤلف موسيقيّ طموح قادم من بلد لم يسمع به معظم الأميركيين. ولن يكون باستطاعتي الحصول على وظيفة في الأوركسترا الفيلهارمونية في نيويورك أو أي فرقة موسيقيّة أخرى إلا كصبي شاي، ناهيك بأنّني أشك في أن يأخذني أحدهم على محمل الجدّ.

رأى بيپ وميض الغضب الذي ظهر فجأة في عيني كارين وهي تقول:

- هل أنت واثق من أنك تسعى إلى جمع المال؟ أم أنك تريد إرضاء غرورك؟

أجابها ببرود وهو ينهض عن المائدة:

- توقّفي عن التعامل معي بتعالٍ. فأنا زوجك ووالد ابنك. وتقع على عاتقي مسؤولية اتخاذ القرارات في هذا المنزل. لديّ اجتماع مع هيرالد في غضون عشرين دقيقة. سنتحدث في الموضوع في وقت لاحق.

غادر بيپ المنزل في حالة من الاستياء الشديد، وهو يدرك في قرارة نفسه أنّ كارين تستفّزه في بعض الأحيان إلى أبعد حدود. فبالإضافة إلى قراءة كلّ الصحف التي تقع عليها يداه، كانت أذناه شديدتي الحرص على التقاط كل الأحاديث التي تدور في الشارع وفي المكان المخصّص للفرقة الموسيقيّة. كانت الأوركسترا تضمّ عازفَيْن يهوديّيْن ولم يكن أيّ منهما يظنّ أن الوضع يستدعي القلق. ولم يسمع حتّى الآن أحدًا يقول إن القائد هتلر يستعدّ قريبًا لاحتلال النروج. ما جعله يقرّ في نفسه، بينما كان يجتاز شوارع المدينة بأن والدي كارين يلجآن إلى ترويج إشاعات مقلقة. وبالنظر إلى أن العرض الأولى سيُقام في غضون ثلاثة أسابيع، سيكون من الجنون أن يغادرا المدينة في الوقت الحاليّ.

وبينما كانت شعلة السخط إزاء تقويض وجهات نظره تتأجّج في داخله، رأى بيپ بأنّ على كارين أن تسمع كلام زوجها.



في تلك الليلة، وبعد أن أخبر بيپ زوجته بأنّه لا يريد أن يغادر مع أسرته مدينة بيرغن إلّا بعد انتهاء العرض الأول، هزّت كارين كتفيْها بازدراء قائلة:

- كما تشاء. إذا كنت واثقًا من أن زوجتك وطفلك سيكونان في أمان هنا، لا أملك أي خيار سوى الوثوق بك.

- أعتقد أنك في أمان، أقلّه في الوقت الحالي. نستطيع، في المستقبل، إعادة النظر في المسألة بحسب ما تقتضيه الظروف.

راقبها بيپ وهي تنهض من مكانها، بعد استماعها إلى رفضه القاطع لوجهة نظر والديها وحدسها الشخصي، والتوتّر بادٍ عليها.

قال لها وهو يهزّ كتفيه بملل:

- لا يمكنني بالطبع منعك من الرحيل في حال كنتِ ترغبين في ذلك.

- سبق وقلت إنك زوجي وعليّ أن أحترم رأيك وحكمك على الأمور. ومن المؤكد أنني سأبقى أنا وفيليكس معك هنا لأنه مكاننا الطبيعيّ.

وأشاحت وجهها بعيدًا عنه وتوجّهت نحو الباب. ولكنها ما لبثت أن توقّفت واستدارت من جديد نحوه قائلة:

- أتمنّى من كلّ قلبي أن تكون محقًّا يا بيپ. وإلّا، فليكنِ الربّ بعوننا كلنا.



قبل خمسة أيام من الموعد المحدّد للعرض الأوّل لكونشيرتو بيپ، شنّت آلة الحرب الألمانيّة هجومًا على النروج، بينما كان الأسطول التجاريّ في البلاد غافلًا عن ذلك لانهماكه في مساعدة البريطانيين على تأمين الحصار في القناة منعًا لأي اجتياح. بذل النروجيون، الذين لم يكن لديهم قوات بحريّة على درجة عالية من الكفاءة،

ما بوسعهم للدفاع عن المرافئ في أوسلو، وبيرغن وتروندهيم، وتمكّنوا من تدمير سفينة حربيّة ألمانيّة تحمل أسلحة ومعدات. ولكن القصف البحريّ والجويّ والبريّ كان متواصلًا ومن الصعب إيقافه.

ومع محاصرة بيرغن، توجّه بيب وكارين وفيليكس إلى التلال، ولجأوا إلى المنزل في فروسكهاوست، حيث خيّم عليهم صمت مشوب بالرعب وهم يصغون إلى ضجيج الطائرات الألمانيّة فوق رؤوسهم، وصوت النيران في المدينة تحتهم.

لم يكن بيب قادرًا على النظر إلى عينَيْ كارين لأنّه كان يدرك تمامًا ما سيقرأ فيهما. ففي تلك الليلة، خلدا إلى النوم بصمت، واستلقيا في الفراش كشخصين غريبين بينما كان فيليكس نائمًا بينهما. وإذْ تعذّر على بيب تحمل ما يجري لوقت طويل، بحث عن يدها قائلًا في وسط الظلمة الدامسة:

- هل يمكن أن تسامحيني يا كارين على ما فعلته؟.

مرت فترة طويلة من الصمت قبل أن تجيبه قائلة:

- عليّ أن أفعل ذلك لأنك زوجي وأحبك.

- أقسم لك بأنّه على الرغم من كل ما يجري، نحن في أمان. فالجميع يقول إنه لا داعيَ لأن يهلع سكان النروج لأنّ النازيين احتلّوا البلاد لتأمين ممرّ لإمدادات الحديد الخام من السويد. فالأمر لا يتعلّق بك أو بي.

تنهّدت كارين بملل وأجابت قائلة:

- لا يا بيب. ولكنّ الأمر يتعلّق بنا.



خلال اليومين التاليين، تلقّى سكان بيرغن تطمينات من المحتل الألمانيّ بأنّه لا داعيَ للخوف وأنّهم يستطيعون أن يعيشوا حياتهم بشكل طبيعيّ. وعُلِّق الصليب المعكوف على مبنى البلدية، وعجّت شوارع المدينة بالجنود الذين يرتدون الزيّ الخاص بالنازيين. وتعرّض وسط المدينة لأضرار فادحة خلال المعركة التي جرت قبل احتلال بيرغن، ما أدّى إلى إلغاء كل الحفلات الموسيقيّة.

كان بيپ في حالة من اليأس المطلق، خاصّة وأنّه جازف بحياة زوجته وطفله من أجل عرض أوّل لا يمكن أن يُقام بعد الآن. فخرج من البيت وسار باتجاه الغابة، حيث جلس متّكئًا على جذع شجرة، ووضع رأسه بين يديه. وللمرّة الأولى منذ بلوغه سنّ الرشد، بكى بيپ وقد غمره شعور بالخزي والرعب.

جاء بو وإيل لزيارتهم في تلك الليلة في فروسكهاوست وجلس الستة يناقشون الوضع معًا.

قالت إيل لكارين:

- سمعت أن ملكنا الشجاع غادر أوسلو وهو يختبئ حاليًا في مكان في المناطق الشماليّة. وقرّرنا أنا وبو الرحيل أيضًا.

سألتها كارين:

- متى؟ وكيف؟

- لبو صديق صيّاد يعمل في الميناء. قال إنّ بإمكانه أن يقلّنا إلى اسكتلندا مع أي أشخاص آخرين يرغبون بذلك. أتريدون الانضمام إلينا؟

رمت كارين بيپ الغارق في حوار جديّ مع والده بنظرة سريعة.

- لا أظن أنّ زوجي سيوافق على ذلك. قولي لي يا إيل، هل حياتي وحياة فيليكس في خطر هنا؟ ماذا يقول بو؟

- لا أحد يعرف يا كارين. حتّى إن تمكّنا من الوصول إلى المملكة العظمى، يمكن أن يجتاحها الألمان أيضًا. فهذه الحرب أشبه بطاعون يتفشّى في كل مكان. لحسن الحظ أنّك متزوّجة من مواطن نروجيّ وأصبحت الآن لوثرية. هل أخبرت أحدًا عن ديانتك الأصلية وإرثك؟

- كلا، باستثناء والدَيْ زوجي بالتأكيد.

- في هذه الحالة، قد يكون من الأفضل أن تبقي هنا مع زوجك. فأنت تحملين اسمه، وتاريخ عائلته العريق في بيرغن، ما يؤمّن لك الحماية. غير أن الوضع مختلف بالنسبة إليّ وإلى بو. فليس لدينا ما نحتمي وراءه. ونحن في غاية الامتنان

لبيپ وأسرته لأنّهم أمّنوا لنا ملاذًا وساهموا في إبعاد براثن الخطر عنا. لو بقينا في ألمانيا، لكنا...

وهزّت كتفيْها استهجانًا وأضافت:

- سمعت قصصًا عن معسكرات اليهود، وعائلات بكاملها اختفت من منازلها في ظلمة الليل.

وكانت كارين قد سمعت تلك القصص أيضًا.

- متى تنويان الرحيل؟

- لا أستطيع إخبارك. من الأفضل ألّا تعلمي في حال زادت الأمور سوءًا. وأرجو منك ألّا تخبري بيپ أو والدَيْه.

- هل تنويان الرحيل قريبًا؟

- أجل. اسمعي يا كارين..

وأمسكت بيد صديقتها وتابعت:

- علينا أن نودّع بعضنا الآن. ولا يسعني سوى أن أتمنّى وأصلّي لنلتقي مرّةً ثانية يومًا ما.

تعانقتا والدموع تترقرق في أعينهما، ومن ثمّ أمسكت الواحدة منهما يد الأخرى كإشارة تضامن صامت.

همست كارين قائلة:

- سأكون دائمًا موجودة هنا في حال احتجت إليّ يا صديقتي. ابعثي لي رسالة لدى وصولك إلى اسكتلندا.

- أعدك بأن أفعل. وتذكّري دومًا بأن زوجك رجل طيب على الرغم من أنه أساء تقدير الأمور. كيف يمكن لأي شخص من خارج أبناء جنسنا أن يتنبّأ بما يحصل؟ سامحيه يا كارين، لأنه لا يستطيع أن يفهم ما معنى العيش في خوف دائم.

وافقتها كارين الرأي قائلة:

- سأحاول.

- حسنًا.

ونهضت إيل من مكانها وعلى ثغرها ابتسامة عريضة، وأومأت لبو لتبلغه بأنها جاهزة للرحيل.

وبينما كانت كارين تراقبهما وهما يغادران المكان، أدركت في قرارة نفسها أنها لن تراهما أبدًا مرّة ثانية.



بعد مرور يومين، استجمع كارين وبيپ شجاعتهما وغامرا باجتياز التلال متوجّهين إلى منزلهما. كان الدخان لا يزال يتصاعد من المنازل المحترقة على طول الميناء الذي تدمّر نتيجة تساقط القنابل عليه.

وكان من بين المنازل المشتعلة بالنار منزل صانع الخرائط.

وقفا مصعوقين يتأملان الركام المشتعلة وقد بدت أمارات الرعب في عينيهما.

سألها بيپ بصوت خافت:

- أتراهما كانا في المنزل؟

أجابت كارين رافضةً أن تنكث بالوعد الذي قطعته لإيل:

- لست أدري.. ربما.

- يا رب السماوات.

وركع بيپ على ركبتيْه وأجهش بالبكاء، وإذا بكارين ترى في تلك اللحظة فصيلة من الجيش الألماني تسير على الطريق.

- قف.

وهمست مزمجرة:

- في الحال.

انصاع بيپ لكلامها، وأومأ كلاهما للجنود بلا مبالاة لدى مرورهم بقربهما، آملين ألّا يرون فيهما سوى زوجَيْن نروجيّيْن يافعَيْن غارقَيْن في الحب.



في صباح اليوم الذي كان من المقرّر أن يُقام فيه العرض الأول لكونشيرتو البطل، لم يجد بيپ كارين في غرفة النوم عند استيقاظه من النوم. وحين رأى فيليكس مسترسلًا بنوم عميق في سريره الصغير الموضوع في أسفل سريرهما، نزل إلى الطابق السفليّ بحثًا عن زوجته. ولدى دخوله المطبخ، وجد ورقة صغيرة على الطاولة.

«خرجت لشراء الخبز والحليب. لن أتأخر في العودة».

فتح بيپ الباب الأماميّ وخرج قلقًا إلى الشارع يبحث عنها، متسائلًا في نفسه عما دفعها لمغادرة المنزل بمفردها. كان يسمع دويّ القنابل في البعيد، حيث واصل عدد ضئيل من الجنود النروجيين قتالهم حتى الرمق الأخير، على الرغم من أنه لم يخامر أي واحد منهم توهّم من أي نوع لمن سيكون النصر.

وإذ لم يقابل بيپ أي شخص في الشارع المهجور ليسأله عن مكان زوجته، عاد إلى المنزل وصعد إلى الطابق العلويّ ليوقظ ابنه. قفز فيليكس، الذي كان يومها يبلغ شهره السابع عشر، من السرير، ومن ثمّ نزل السلّم وهو ممسك بيد والده. ودوّى فجأة انفجار قنبلة قويّ.

قال فيليكس والابتسامة تعلو وجهه:

- بانغ، بانغ. أين أمي؟ أنا جائع.

- ستعود في الحال. لنذهبْ ونبحثْ عن شيء تأكله في المطبخ.

ولم يكد بيپ يفتح خزانة الطعام ويجدها خالية تمامًا حتى أدرك سبب خروج كارين من المنزل، كما لاحظ أن زجاجتَي الحليب الموضوعتَيْن قرب حوض الغسيل فارغتان. فسارع إلى إعطاء فيليكس قطعة من الخبز من بقايا العشاء في الليلة السابقة، حتى لا ينفجر بالبكاء قبل أن تعود والدته. وأجلس الطفل على ركبتيه، وراح يقرأ له قصّة محاولًا أن يتناسى لبعض الوقت الخوف الذي كان يملأ قلبه.

مرت ساعتان ولم تظهر كارين بعد. فتوجّه بيپ من شدّة يأسه إلى منزل الجيران وقرع الباب. حاولت المرأة أن تخفّف عنه وأكدت له أن هناك نقصًا كبيرًا

في المواد الغذائيّة بحيث اضطرّت في الأمس إلى الوقوف في الطابور لأكثر من ساعة لتتمكّن من شراء الخبز.

- أنا واثقة من أنها ستعود بين لحظة وأخرى. لعلها اضطرّت إلى الذهاب إلى مكان أبعد لتتمكّن من التزوّد بالمؤن.

عاد بيپ إلى المنزل وقد قرّر أنّه لم يعد يستطيع الانتظار. فساعد فيليكس على ارتداء ملابسه، وغادر المنزل على عجل، ممسكًا ابنه بيده. كانت ألسنة اللهب المتّقدة تتصاعد من الغارات الجويةّ التي يشنّها سلاح الجو الألمانيّ على الخليج، فيما القصف بالقنابل بقي مستمرًا ولكن بشكل متقطّع. وعلى الرغم من أن الساعة جاوزت الحادية عشرة، كانت الشوارع شبه مهجورة، ولاحظ أن المخبز المحليّ أقفل أبوابه شأنه شأن بائع الخُضَر وبائع الأسماك في شارع تيترغارتن. وإذ سمع وقع خطوات دورية راجلة، التفت ليجد الجنود متوجّهين نحوه.

أشار فيليكس إليهم غير مدرك للخطر الذي يمثّلونه، صارخًا:

- جنود.

أجابه بيپ:

- نعم، جنود. فيما كان يحاول أن يعصر ذهنه علّه يتمكّن من معرفة المكان الذي قصدته كارين. وتذكّر في تلك اللحظة مجموعة المتاجر الصغيرة في فاسكيرفيلفن، على مسافة قريبة من المسرح. غالبًا ما كانت كارين تطلب منه التوجه إلى هناك في طريق ذهابه أو إيابه من المسرح للتزوّد بما يحتاجون إليه.

مع اقترابه من المسرح، رفع نظره ورأى الواجهة الأماميّة مدمرة بالكامل. فشهق من الذعر مدركًا بأن التوزيع الأوركسترالي بقي في المكتب الرئيسيّ في المسرح على الرغم من أنه احتفظ بموسيقى البيانو الأصلية في فروسكهاوسهت.

تمتم بحزن: «يا إلهيّ! لا بدّ من أنها تلفت كلها».

أشاح بيپ بنظره بعيدًا حتى لا يلاحظ ابنه مدى ألمه وخوفه، وشقّ طريقه عبر ركام المسرح، عاقدًا العزم على ألّا يسمح لنفسه بتركيز تفكيره على ما حدث في الداخل.

- أبي؟ لمَ الناس نيام؟

وأشار فيليكس إلى بقعة على بعد بضعة ياردات حيث رأى بيپ عددًا من الجثث، حوالى اثنتي عشرة جثة، مرمية على الأرض وكأنها دمى قماشيّة مُهمَلة. لاحظ أن اثنتين منها ترتديان الزي النروجيّ العسكريّ، والباقين من الرجال والنساء المدنيين إضافة إلى فتى صغير. من الواضح أن اشتباكًا وقع في وقت سابق في هذه البقعة وأصيب هؤلاء الأبرياء خلال تبادل إطلاق النيران.

حاول بيپ إبعاد صغيره عن المكان، ولكن فيليكس بقي مسمّرًا في مكانه مشيّرا بإصبعه إلى إحدى الجثث.

- هل نستطيع الآن يا أبي أن نوقظ أمي؟



أيلول 2007

"Åse's Death"



42

كانت الدموع تلذع عينيّ بينما كان توم يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا وهو يخبرني قصته، قبل أن ينهار على كرسي.

همست عندما أنهى كلامه:

- يا إلهي يا توم. لا أعلم ماذا يمكن أن أقول. هذا فظيع جدًّا.

- نعم. إنه مروّع. من الصعب تصديق أنّ هذا حدث قبل جيلين فقط. وقد حصل هنا، في ما ظننتِه أنتِ حتى الساعة جنتنا الآمنة عند قمة العالم.

كيف تمكّن بيپ، بحقّ الله، من التحمّل بعد موت كارين؟ لا بدّ من أنه شعر بأنّه مسؤول كليًّا عن موتها.

- آلي، أنا... لم يحتمل. لم يتكيّف، في الواقع.

- ماذا تعني؟

- أحضر بيپ فيليكس إلى هنا ليقيم مع جدّيه بعد أن وجد كارين مقتولةً في الساحة بالرصاص. أخبر هورست وأستريد أنه سيخرج ليتمشّى قليلًا وأنه يحتاج بعض الوقت ليفكّر. وعندما لم يعد مع حلول الظلام، خرج هورست للبحث عنه ووجده ميتًا في الغابة قرب المنزل. لقد أخذ بندقيّة الصيد التي يملكها أبوه من الحظيرة وأطلق النار على نفسه.

هذا الخبر جعلني عاجزة عن الكلام وقد شعرت بالصدمة والرعب يسريان في جسدي لكني تمكّنت من أن أقول أخيرًا:

- آه، يا إلهي، مسكين، مسكين فيليكس.

فقال توم بحدّة:

- آه، كان على ما يرام. كان أصغر من أن يفهم ما جرى وقد اعتنى به هورست وأستريد وقاما بتربيته بالطبع.

- وإن يكنْ، فقد الأم والأب في يوم واحد...

وقرأت التعبير الذي ارتسم على وجه توم فقررت التزام الصمت.

أقرّ توم بعد أن سمع القساوة في صوته:

- أنا آسف يا آلي. في الواقع، لعلّ الأسوأ من هذا كلّه برأيي هو أنّ أحد الأذكياء في أوركسترا بيرغن الفيلهارمونيّة قرّر أن يروي الخبر ذات يوم، ظنًّا منه أن فيليكس يعرف، علمًا بأنّه لم يعرف من أحد من قبل كيف مات والده.

علّقت وأنا أرتعش:

- أوف.

كان في الثانية والعشرين من عمره وقد انضمّ إلى الأوركسترا لتوّه. لطالما تساءلت إنْ كان هذا ما جعله يحيد عن الطريق الصحيح، وأفقده تركيزه ودفعه إلى احتساء الكحول...

وخفت صوت توم فأجبت بلطف:

- ربما.

أردت أن أجيب بنعم، فأنا واثقة من أنّ اكتشافًا كهذا كفيل بزعزعة أيّ شخص، لكنّني امتنعت عن إعطاء رأيي.

وفجأة، هبّ توم واقفًا بعد أن التفت إلى ساعته وقال:

- حان وقت الذهاب يا آلي وإلّا سنفوّت موعد طبيبك.

غادرنا المنزل وأقلّتنا السيارة التي قادها توم بسرعة من التلال نحو وسط مدينة بيرغن. عند وصولنا إلى عيادة الطبيب، أوقف السيارة أمام المدخل الرئيسي وقال:

- ادخلي أنتِ وسألحق بكِ بعد أن أركن السيارة.

- لا حاجة لذلك يا توم حقًّا.

- سأدخل في أيّ حال. لا يتكلّم الجميع الإنكليزيّة أو الفرنسيّة في النروج كما تعلمين. حظًّا سعيدًا.

وابتسم لي ثم توجّه نحو مرأب السيارات.

تم استدعائي للدخول على الفور، وعلى الرغم من أن لغة الطبيبة الإنكليزيّة لم تكن مثاليّة لكنّها جيّدة بما يكفي لتفهم ما حاولت أن أقوله لها. طرحت عليّ أسئلة عديدة ومتنوعة ثم أخضعتني لفحص دقيق.

وعندما جلست لاحقًا، قالت إنها تحتاج لإجراء بعض فحوصات دم ولأخذ عيّنة بول.

سألتها بعصبيّة:

- ما المشكلة برأيك؟

- متى كانت عادتك الشهرية الأخيرة يا آنسة... دايليز؟

- أنا...

في الواقع، وجدت نفسي غير قادة على أن أتذكّر، فأضفت:

- لست متأكدة.

- هل هناك احتمال أن تكوني حاملًا؟

- أجبت وأنا عاجزة عن إدراك ضخامة سؤالها:

- أنا... لا أعلم.

- حسنًا، سنأخذ عيّنة دم لإجراء الفحوصات لكي نستبعد أيّ سبب آخر. لكن رحمك متوسّعة وحالتك ناجمة على الأرجح عن أسابيع الحمل الأولى. أعتقد أنه مرّ على حملك حوالى شهرين ونصف الشهر.

فقلت:

- لكني فقدت من وزني. لا يمكن أن يكون حملًا.

- بعض النساء يخسرن من وزنهن بسبب التقيؤ. الخبر الجيد هو أنّ الغثيان يخفّ تدريجًا بعد الأشهر الثلاثة الأولى. يجب أن تشعري بالتحسّن قريبًا جدًا.

- حسنًا. شكرًا لك.

وقفت، وقد شعرت فجأة بانقطاع الأنفاس والضعف حين أعطتني كوبًا لعيّنة البول لأحمله معي إلى الحمّام، وأرشدتني إلى الممرّضة المعنيّة بأخذ عيّنة الدم. بعد أن تركت غرفة المعاينة، وجدت أقرب مرحاض وفعلت ما عليّ فعله ثم جلست هناك، أتصبّب عرقًا وأرتجف، أحاول أن أتذكّر بيأس متى كانت عادتي الشهرية الأخيرة.

قلت للحيطان التي ردّدت صدى صوتي: «آه، يا إلهي».

حصل هذا قبل أن انضمّ إلى ثيو وطاقمه على متن المركب لنتدرّب من أجل سباق سيكلادس في حزيران...

عندما خرجت مترنّحة من الحمام وتوجّهت نحو الممرضة لأعطي بعض الدم، خطر لي كم من مرة سمعت نساءً يقلن إنهن لم يدركنَ أنهنّ حوامل. ولطالما سخرت منهن وتساءلت: كيف يمكن لأيّ امرأة ألّا تنتبه إلى انقطاع دورتها الشهرية وألّا تربط بين المسألتين.

والآن، أنا تلك المرأة. لأنني مع كل الأحداث التي جرت خلال الأسابيع القليلة الأخيرة لم أنتبه للأمر.

لكن كيف؟ طرحت على نفسي هذا السؤال عندما وجدت الممرضة التي ينبغي أن تسحب الدم، ورفعت كمي لتتمكّن من ربط العصابة البلاستيكيّة فوق مرفقي. لطالما كنت حريصة، ولطالما حرصت على تناول أقراص منع الحمل بدقّة كالساعة. بعدئذ، خطرت في بالي تلك الليلة على متن ناكسوس حين كنت مريضة جدًّا بين ذراعيّ ثيو الذي اعتنى بي بحنان فائق. هل أثّر مرضي بطريقة ما في مفعول القرص؟ أم أني نسيت، وبكل بساطة، أن أتناوله ذاك اليوم في خضم الاضطراب الذي تلا موت بابا...؟

عدت أدراجي إلى مكتب الاستقبال حيث سلّمت عيّنة البول وأُعلمت أنّ النتائج تظهر بعد ظهر اليوم التالي، وأنّ عليّ أن أتّصل بالعيادة للحصول عليها.

شكرت الموظّفة واستدرت لأجد توم خلفي تمامًا.

- هل انتهيت يا آلي؟

- أعتقد ذلك، نعم.

- حسنًا.

تبعتُ توم في طريق العودة إلى السيارة، وجلست صامتة بينما هو يقود متوجّهًا نحو الفندق.

- هل أنت واثقة من أنك بخير؟ ماذا قالت الطبيبة؟

- أجبته بنبرة عاديّة:

- آه، أني... مُتعَبَة، مُرهَقَة. طلبت بعض الفحوصات.

لم أكن مستعدة بعد لكشف تفاصيل الخمس عشرة دقيقة التي يمكن أن تغيّر حياتي قبل أن أستوعب الأمر وأتقبّله أنا شخصيًا.

- حسنًا، لديّ عمل مع الأوركسترا غدًا صباحًا في قاعة غريغ. ما رأيك لو حضرت إلى الفندق لأطمئنّ على حالك بعد ذلك، لنقل قرابة الظهر؟

- نعم، سيكون هذا رائعًا. أشكرك على كل ما فعلته يا توم.

قال بينما كنت أترجّل من السيارة وقد لاحظت القلق المرتسم على وجهه:

- لا بأس. وأنا آسف إذا ما سبّبت لك قصتي ضغطًا نفسيًا. اتّصلي بي إن احتجت أيّ شيء، هلّا فعلت؟

- بالطبع سأفعل. إلى اللقاء.

وبعد أن رأيت السيارة تختفي عن الأنظار من ناحية الميناء، سرت مترنحةً إلى خارج مدخل الفندق. كان عليّ أن أتأكد، والصيدلية التي رأيتها حين كان توم يقلّني إلى هنا ليست ببعيدة. ركضت مئات الأمتار القليلة نحو أعلى التلة، ووصلت منقطعة الأنفاس بينما كانوا يستعدون لإغلاق الصيدلية. اشتريت ما أحتاجه وعدت أدراجي إلى الفندق بخطى أبطأ بكثير.

وفي الحمّام، اتّبعت التعليمات وانتظرت دقيقتين، وهي المدّة التي ذُكر أنّ الفحص يستغرقها لتظهر نتيجته.

وعندما تجرّأت على النظر إلى العود البلاستيكي، لاحظت أنّ الخط استحال أزرق حتى بعد بضع ثوانٍ.

في ذاك المساء، عشت سلسلة من الأحاسيس المتنوّعة. شعرت بارتياح عارم لأنني لست مريضة بل مجرّد حامل، تلاه خوف مزدوج من أنّ شيئًا ما يحصل لجسدي لا يمكنني التحكّم فيه، ومن أنّ عليّ أن أتكيّف وأتعامل مع الطفل وحدي حين يأتي إلى العالم. وفي نهاية المطاف، غمرني، وبشكل غير متوقع تمامًا، شعور بالفرح راح يغلي تدريجًا في داخلي.

سأُرزق بطفل ثيو. جزء منه لا يزال حيًّا... وهو حاليًا في داخلي، يكبر وينمو ليصبح أقوى يومًا بعد يوم. ثمّة معجزة ما في ما يحصل بحيث وجدت نفسي ورغم الخوف، أذرف دموع الفرح من الطريقة التي تجد فيها الحياة سبيلًا لكي تجدّد نفسها.

وبعد أن تجاوزت الصدمة الأولى، وقفت ورحت أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، وقد تبخّر الشعور بالمرض والخوف والخمول لتحلّ عليّ طاقة جديدة. لقد حصل ما حصل، سواء أحببت ذلك أو لم أحبّ، ويُفترض بي الآن أن أفكّر في ما عليّ أن أفعله. أيّ نوع من العائلة يمكن أن أقدّم لطفلي؟ وأين سأعيش معه؟ علمت أنّ المال، ولحسن الحظ، لن يشكّل أيّ مشكلة. وممّا لا شك فيه أنّني سأحظى بالمساعدة التي أحتاجها مع وجود ماما في جنيف وسيليا في لندن، هذا من دون ذكر الخالات الخمس الشغوفات. لن أربّيه تربية تقليديّة لكنني عاهدت نفسي بأن أبذل قصارى جهدي لأكون الأب والأم لطفلي وطفل ثيو.

وفي وقت لاحق، عندما هدأت وقررت أن أحاول النوم، خطر لي فجأة أنني لم أفكر، ولو للحظة، منذ أن تأكّدت من أنّني حامل، في أن أتخلّص من الطفل.



قال توم وهو يقبّلني على خديّ في بهو الفندق في اليوم التالي:

- مرحبًا، آلي. تبدين بحال أفضل اليوم. كنت قلقًا عليك الليلة الماضيّة.

- أشعر أنّي بحال أفضل...

وابتسمت له ابتسامة ساخرة قبل أن أضيف، وأنا متشوّقة لأن أطلع أحدًا على هذه الأخبار:

- أعتقد.. في الواقع، يبدو أني حامل، ولهذا السبب كنت أشعر بهذا القدر من الإرهاق والانزعاج.

قال وهو يحاول أن يخمّن أفكاري:

- أنا... آه، واو، هذا رائع... أليس كذلك؟

- نعم، أعتقد فعلًا أنه كذلك يا توم. حتى وإن شكّل صدمة كبرى. لم أكن أتوقّع هذا، وما من أب موجود، لكنّي أشعر بسعادة كبيرة!

- إذًا، أنا سعيد من أجلك أيضًا.

أدركت أنّ توم ما زال ينظر إليّ ليتأكّد من أنّني لا أتظاهر بالشجاعة وحسب، فقلت له:

- أنا راضية فعلًا. في الواقع، شعوري أكبر من مجرد رضى.

- حسنًا. إذًا، لا بدّ من أن أهنّئك.

- شكرًا لك.

سألني:

- هل أطلعت أحدًا على الخبر؟

- لا، أنت أول شخص يعلم به.

قال ونحن نخرج من الفندق ونسير نحو سيارته:

- يشرّفني هذا فعلًا. أتساءل إنْ كانت الخطط التي وضعتها لبعد ظهر هذا اليوم مناسبة الآن، نظرًا لوضعك الدقيق.

- وما هي الخطط؟

- خطر لي أن نقوم بزيارة إلى منزل فيليكس لنرى ما لديه ليقوله دفاعًا عن نفسه. ولأنّ الزيارة يُحتمل أن تثير استياءك فلعلّه من الأفضل أن نؤجّلها في الوقت الحالي.

- لا، أنا بخير تمامًا في الواقع. أنا واثقة من أنّ الخوف من شعوري بهذا القدر من الوهن جعلني أمرض أكثر. الآن، وقد بتّ أعرف السبب، أستطيع أن أبدأ بوضع الخطط. لذا، نعم، دعنا نذهبْ لمقابلته.

- كما قلت لك أمس، هناك احتمال أن ينكر، حتى وإن كان يعلم بوجودك. كنت أعيش على بُعد خطوتين منه، لكنه رفض أن يتقبّل أنني ابنه.

سألته بعد أن صعدنا إلى السيارة:

- توم؟

- نعم؟

- تبدو واثقًا أكثر مني من وجود صلة قربى بيني وبينك وعائلة هالفورسن.

- وافقني الرأي وهو يشغّل المحرك قائلًا:

- لعلّي كذلك. الأمر الأول: أخبرتني أنّ والدك أعطى كل واحدة منكنّ أدلة تشير إلى ماضيكنّ، إلى حيث بدأت حكاية كل واحدة منكنّ. وفي حالتك أنت، كان الدليل كتاب جدّي الأكبر. الأمر الثاني: أنت موسيقيّة أو كنت كذلك، وقد أُثبت علميًا أنّ الموهبة يمكن أن تنتقل بالجينات. الأمر الثالث: هل نظرت إلى المرآة مؤخّرًا؟

- لماذا؟

- آلي، انظري إلينا!

- حسنًا.

قرّبنا رأسينا وحدّقنا إلى مرآة السيارة.

علّقت قائلةً:

- نعم. نحن متشابهان. لكن بصراحة، إن أول ما خطر لي عندما وصلت إلى النروج، هو أنني أبدو كأيّ شخص آخر هنا.

- أقرّ بأن لونك نروجي. لكن، أترين؟ لدينا نفس الغمّازتين.

وأشار توم بأصابعه إلى غمّازتيه فحذوت حذوه ووضعت أصابعي على غمّازتيّ. رفعت نفسي فوق عصا غيار السرعة واحتضنته قبل أن أقول، وأنا أضحك من سخافة هذا كله:

- حسنًا، حتى لو اكتشفنا أنّ ما من صلة قربى تجمعنا، أعتقد أنّني وجدت

صديقي المقرّب الجديد. آسفة إن بدا كلامي مثل سطر من أحد أفلام ديزني، لكنني أشعر بطريقة أو بأخرى، وكأنّني في فيلم في الوقت الحالي.

قال ونحن نبتعد عن الرصيف: «إذًا، أخبريني مجددًا أنّك مستعدة لهذا؟ أنّك مستعدة لزيارة الغول عند سفح التلة، هذا الغول الذي يمكن أن يكون أو لا يكون والدك البيولوجيّ.

- نعم، أنا مستعدّة. أهذه هي التسمية التي تطلقها عليه؟ غول؟

- هذا لقب لطيف مقارنة مع ما تعوّدت أن استعمل من تسميات في الماضي، فضلًا عن النعوت التي كانت أمي تستخدمها.

سألته ونحن ننطلق بمحاذاة الميناء:

- ألا تعتقد أنّ علينا أن نبلغه أننّا قادمان؟

- إذا علم أنّنا قادمان، فسيخرج بالتأكيد، لذا لا، لن أخبره.

- حسنًا، أخبرني مزيدًا عنه على الأقل قبل أن نصل إلى هناك.

- عدا عن أنه عديم الفائدة، ترك حياته وموهبته يضيعان هباءً.

- هيّا يا توم. عاش فيليكس أوقاتًا عصيبة في طفولته، بحسب ما أخبرتني أمس. لقد فقد والديه بأبشع الطرق.

- حسنًا، حسنًا يا آلي، أنا آسف. إنّها سنوات من السخط والضغينة المُكتسَبَيْن، اللذين اعترف بأن أمي غذّتهما. باختصار، هورست هو من علّم أبي العزف على البيانو. ويبدو، وبحسب الروايات، أنه كان يعزف الكونشيرتو بالأذن وهو في السابعة من عمره وقد ألّف عمله الخاص وهو في الثانية عشرة من عمره، مع التوزيع الأوركسترالي وخلافه.

أكمل توم كلامه وهو يقود:

- فاز بمنحة دراسيّة إلى باريس وهو في السابعة عشرة من عمره وبعد أن فاز بمسابقة شوپان في وارسو، قُبل على الفور في الأوركسترا هنا. كان أصغر عازف بيانو عمل في الأوركسترا الفيلهارمونيّة. أخبرتني أمي أنّ الأمور بدأت بالتدهوّر من

هذه النقطة. لم يكن يتمتع بأخلاقيات العمل، فيصل متأخّرًا إلى التمارين وهو يعاني غالبًا من آثار الثمالة، ليعود ويثمل تمامًا في المساء. تحمّله الجميع لأنه كان يتمتّع بموهبة عظيمة حتى طفح الكيل ولم يعد أحد يحتمل.

علّقت قائلة:

- يشبه إلى حدّ ما جدّه الأكبر جانس.

تمامًا. في أيّ حال، طُرد في النهاية من الأوركسترا لأنّ وصوله المتأخّر وغيابه تكرّرا كثيرًا. كما تبرّأ هورست وأستريد منه، ولم يجدا حلًّا أمامهما سوى أن يطرداه من فروسكهاوست. أعتقد أنها حالة ما يسميه المعالجون النفسيّون في أيامنا هذه «الحب القاسي». علمًا أن هورست سمح له باستخدام الكوخ الذي بناه هو وأستريد قبل سنوات ليقيما فيه عندما يرغبان في صرف بعض الوقت في الصيد في الغابات. إنه مكان بدائيّ وهذا أقلّ ما يمكن أن يُقال فيه. تعوّد في أغلب الأحيان العيش على حساب النساء اللواتي يوقعهنّ في شباكه بحسب ما أخبرتني أمي، وأن يتنقّل من واحدة إلى أخرى. حتى الآن، وبعد أن وصلت الكهرباء والمياه الجارية، لا يتعدى المكان كونه كوخًا فخمًا.

- يبدو أكثر مثل بير جينت مع كل جملة تتلفّظ بها. كيف استطاع أن يعيش من دون عمل؟

- اضطرّ لأن يكسب بعض المال ليموّل ما يستهلكه من كحول بإعطاء دروس خاصة في البيانو. وهكذا التقى والدتي. ولم يتغيّر كثيرًا للأسف خلال السنوات الثلاثين الأخيرة منذ ذاك الحين. فهو ما يزال سكّيرًا مفلسًا، وزير نساء عجوزًا، وشخصًا لا يمكن الاعتماد عليه.

تنهّدت وقلت:

- من المؤسف أن يضيّع موهبته.

- نعم، هذا مأسوي. ها هي قصة حياة أبي بإيجاز.

سألته ونحن نتوجّه صعودًا أكثر وأكثر نحو التلال:

- لكن ما الذي يفعله هنا في النهار؟

- ليس بإمكاني أن أخبرك سوى أنه لا يزال يستقبل التلاميذ ويسارع إلى إنفاق المال الذي يكسبه على الويسكي. فيليكس يتقدّم في السنّ، لكن هذا لا يعني أنه فقد سحره. آلي، أعلم أنّ ما سأقوله يبدو غير لائق وغير مناسب نظرًا للسبب الذي يجعلنا نزوره، لكنّني قلق من أن يحاول التحرّش بك.

قلت له بابتسامة متجهّمة:

- أنا واثقة من أنني قادرة على التعامل معه يا توم.

- أنا واثق من ذلك. لكني أشعر بأني أرغب في حمايتك فحسب. وبدأت أتساءل لماذا أعرّضك لهذا كله. ربما كان عليّ أن أذهب وأراه وحدي وأشرح له الأمر أولًا.

- شعرت بتوتّر توم وفكّرت في تهدئته فقلت:

- في الوقت الراهن، والدك لا يعني لي شيئًا على الإطلاق. إنه شخص غريب. نحن... أنت تخمّن ما يمكن أن يكون أو لا يكون. وإذا صحّ التخمين أو لم يصحّ، فلن يسبّب لي أيّ ألم، أعدك بذلك.

قال وهو يبطّئ سرعة السيارة ويركنها على مقربة من منحدر تغطّيه أشجار الصنوبر:

- آمل ذلك يا آلي، آمل ذلك فعلًا. ها قد وصلنا.

بينما كنت أتبع خطى توم على درجات صلبة غطاها العشب، أدركت أنّ هذه التجربة مؤلمة بالنسبة إليه أكثر مما هي مؤلمة بالنسبة إليّ بكثير. فمهما يكن ما سأجده عند أعلى الدرجات، سيبقى لديّ والد أحبّني ورعاني خلال طفولتي كلّها. وأنا بالتأكيد لا أبحث عن أبٍ آخر أو أحتاج إلى أب آخر.

عندما وصلنا إلى قمة التلّة، راحت الدرجات تتوجّه نزولًا ورأيت كوخًا خشبيًّا صغيرًا يختبئ وسط مساحة خضراء بين الأشجار. ذكّرني بمنزل الساحرة في قصة هانزل وغريتل.

شدّ توم على يدي ونحن نقف أمام الباب وسألني:

- هل أنت مستعدّة؟

أجبت:

- مستعدّة.

رأيته يتردّد قبل أن يطرق الباب ثم انتظر إجابة. همهم وهو يعود ويطرق الباب مجدّدًا:

- أعلم أنه هنا، لأنّني رأيت درّاجته النارية عند سفح التل. من المؤسف أنه لا يستطيع أن يتحمّل كلفة سيارة في هذه الأيام. أوقفته الشرطة مرات عديدة في الماضي ويبدو أنه يعتقد أنّ الدراجة وسيلة نقل خفيّة أكثر. يا إلهي، كم هو غبيّ!

وفي النهاية، تناهى إلى سمعنا وقع خطوات في الداخل وصوت يقول شيئًا ما بالنروجية قبل أن يُفتح الباب الأماميّ. ترجم لي توم الكلام:

- إنه ينتظر تلاميذ ويعتقد أننا هم.

ظهر وجه فحدّقت إلى عينيّ والد توم الزرقاوين اللامعتين. إنْ كنت أتوقّع أن أرى رجلًا عجوزًا أنهكته السنون، بأنف أحمر منتفخ، وجسد متهالك بسبب سنوات من تعاطي الكحول، فقد ثبت أنّني مخطئة. فالرجل الذي وقف في الباب كان حافي القدمين ويرتدي بنطالًا من الجينز ممزّقًا عند الركبة وقميصًا بكمّين قصيرين، بدا وكأنه نام فيه لأيام. كنت قد حسبت أنه في أواخر الستينات من عمره، لكنّني لم أرَ سوى قليل من الشيب في شعره وقليل من التجاعيد التي تعكس سنوات العمر على وجهه. ولو صادفته في الشارع لظننته أصغر من سنه الفعليّ بعشر سنوات على الأقل.

قال توم:

- مرحبًا فيليكس، كيف حالك؟

رمش وهو ينظر إلينا وقد بدا جليًّا أنه تفاجأ برؤيتنا وأجاب:

- أنا بخير. ماذا تفعلان هنا؟

- أتينا لزيارتك. لم أرَك منذ مدّة... هذه آلي.

- صديقة حميمة جديدة.

التفت إليّ وشعرت بنظراته تتفحّص جسدي قبل أن يردف:

- جميلة.

- لا يا فيليكس، إنها ليست صديقتي. هل نستطيع الدخول؟

- أنا... مدبّرة المنزل لم تأتِ مؤخّرًا، والمكان تعمّه الفوضى. لكن نعم، تفضّلا رجاءً.

لم أفهم شيئًا من الحوار السابق الذي دار بينهما لأنهما تحدّثا بالنروجية.

همست وأنا أتبع توم إلى الداخل:

- هل يتكلّم الإنكليزيّة أو الفرنسيّة؟

- على الأرجح. سأسأله.

شرح توم مشكلتي اللغويّة فأومأ فيليكس برأسه وانتقل على الفور للتحدّث بالفرنسيّة.

- تشرفنا يا آنسة. هل تعيشين في فرنسا؟

طرح سؤاله هذا وهو يقودنا نحو غرفة جلوس واسعة ولكنْ تعمّها الفوضى وعدم الترتيب، تناثرت في أرجائها أكوام من الكتب والصحف، وأكواب القهوة المتسخة وقطع ملابس متنوّعة رُميت كيفما اتّفق على قطع الأثاث.

أجبته:

- لا، جنيڤ.

- سويسرا... زرتها مرة لخوض مسابقة في العزف على البيانو. إنه بلد منظّم جدًّا.

وتابع يسألني وهو يشير إلينا بالجلوس:

- هل أنت سويسريّة؟

أجبته وأنا أدفع جانبًا، وبالخفاء كنزة قديمة وقبعة مسحوقة لأفسح المجال لي ولتوم لكي نجلس على الأريكة الجلديّة المتهالكة:

- نعم.

فقال وهو يضحك ضحكة خشنة:

- حسنًا، هذا مؤسف، إذ كنت آمل أن نتحدّث عن باريس حيث أهدرت شبابي.

- يؤسفني أنّني خيّبت أملك، مع أنّني أعرف المدينة جيدًا.

- ليس بقدر ما أعرفها أنا يا آنسة، أؤكّد لك هذا. لكنّ تلك قصة أخرى.

وغمز لي، فلم أعرف إنْ كان عليّ أن أرتعش أم أضحك.

أجبته بحشمة ورزانة:

- أنا واثقة من ذلك.

وفجأة، قال توم بحدّة:

- هلّا تكلّمنا الإنكليزيّة، بحيث نتمكّن كلنا من فهم الحديث.

عندئذ سأل فيليكس وهو يبدّل اللغة كما طُلب منه:

- إذًا، ما الذي أتى بكما إلى هنا؟

فردّ توم:

- باختصار، آلي تبحث عن أجوبة.

- بشأن ماذا؟

- إرثها الحقيقيّ.

- ما الذي تعنيه بهذا؟

تم تبني آلي وهي طفلة، ووالدها بالتبنّي توفيّ منذ بضعة أسابيع تاركًا لها بعض المعلومات لتساعدها في العثور على عائلتها البيولوجيّة. إذا ما رغبت في ذلك.

وتابع توم كلامه قائلًا:

- أحد الأدلّة التي قُدّمت لها هو قصة حياة جانس وآنا هالفورسن التي كتبها جدّك الأكبر. لذا، خطر لي أنّك قد تتمكّن من مساعدتها.

رأيت عينيّ فيليكس تتأمّلانني من جديد. وتنحنح قبل أن يمدّ يده ليأخذ كيسًا من التبغ وبعض الأوراق ليلفّ سيجارة ثم سأل:

- وكيف أستطيع أن أساعد بحسب رأيك؟

- حسنًا، اكتشفنا أنا وآلي أنّنا في السنّ نفسه. و...

راقبت توم وهو يخوض صراعًا داخليًا قبل أن يتابع حديثه:

- تساءلت إن كان هناك أيّ امرأة عرفتها... كحبيبة، ربما... أنّ... حسنًا، لعلّها أنجبت فتاةً في الوقت الذي أنجبتني فيه أمي تقريبًا؟

عند هذا الحدّ، أطلق فيليكس ضحكةً رنّانةً وأشعل سيجارته.

- فيليكس، المسألة ليست مضحكة، رجاءً.

أمسكت بيد توم وضغطت عليها في محاولة مني لإبقائه هادئًا.

تمالك فيليكس نفسه وقال:

- أنا آسف، أعلم أنها ليست كذلك. هل آلي هو اختصار لأليسون؟

- آلسيون في الواقع.

فعلّق قائلًا:

- إحدى نجمات الثريّا السبع.

- صحيح. أحمل اسمي تيمّنًا بها.

- حقًّا؟

وعاد يتكلّم بالفرنسيّة، ولم أكن واثقة إنْ كان تعمّد أن يفعل ذلك ليثير أعصاب توم ويزعجه أم لا:

- حسنًا يا آلسيون، لا علم لي للأسف بوجود أيّ أولاد آخرين من نسلي. لكن إذا أردت مني أن أتصّل بكل صديقاتي السابقات وأسألهن إذا ما أنجبنَ من دون علمي فتاة قبل ثلاثين سنة، فيسرّني أن أفعل ذلك.

همس توم يسألني:

- ما الذي قاله؟

- لا شيء مهم.

وتابعت كلامي بفرنسيّة سريعة:

- إذًا يا فيليكس، لا تلمْ توم على طرح أسئلة صعبة. لطالما ظننت أنّ المسألة أشبه بمطاردة سراب. ابنك شخص طيّب جدًّا وهو يحاول أن يساعدني وحسب. أعلم أنّ علاقتكما لم تكن سهلة في الماضي، لكن عليك أن تفتخر به. والآن، لن نضيّع وقتك أكثر.

ووقفت بعد أن شعرت بأنني اكتفيت من أسلوبه البعيد كل البعد عن مراعاة مشاعر الآخرين ثم قلت بالإنكليزيّة مجددًا:

- هيا يا توم.

وقف توم بدوره ورأيت الألم في عينَيْه وهو يعلّق قائلًا:

- يا إلهي يا فيليكس، أنت فعلًا رجل عجيب.

اعترض فيليكس وهو يهزّ كتفيه استهجانًا:

- ما الذي فعلته؟

همهم توم غاضبًا بينما كنّا نتوجّه نحو الباب بخطى سريعة لنخرج ونعود إلى أعلى التلة:

- علمت أنها مضيعة للوقت.

وشعرت بيد على كتفي. إنه فيليكس.

- سامحيني يا آلي، فكلامك شكّل صدمة لي. أين تقيمين؟

أجبته باقتضاب:

- في فندق هافنكونتوريت.

- حسنًا، إلى اللقاء.

تجاهلته وأسرعت للحاق بتوم.

قال وهو يفتح باب السيارة ويصعد إليها:

- أنا آسف يا آلي، كانت فكرة غبيّة.

واسيته قائلةً:

- لا، لم تكن كذلك. أشكرك لأنك حاولت. والآن، ما رأيك في أن نعود إلى منزلك وسأعدّ لك فنجانًا من القهوة لكي تهدأ؟

- حسنًا.

قال هذا وهو ينطلق بسرعة، بينما راح محرك سيارة الرينو الصغير يزأر كأسد غاضب بسبب القوة، التي لا لزوم لها، والتي كانت قدم توم تضغط بها على دوّاسة الوقود.



حين وصلنا إلى فروسكهاوست، اختفى توم لبعض الوقت في رغبة جليّة منه في أن يكون وحده. أدركت الآن مدى الألم الذي سببه له الماضي. خلّف رفض فيليكس له جرحًا مزمنًا بشعاً، جرحًا أشكّ في أن يلتئم، لاسيّما بعد أن قابلت فيليكس. جلست على الكنبة ورحت أضيّع وقتي في الاطّلاع على أوراق الموسيقا القديمة لكونشيرتو البيانو الذي كتبه جانس هالفورسن، والتي وُضعت في كومة غير مرتّبة على الطاولة أمامي. وبينما أنا أتأمّل الورقة الأولى، لاحظت بعض الأرقام التي كُتبت بخط صغير في الزاوية اليمنى من أسفل الصفحة الأولى. بذل دماغي ما في وسعه لكي يتلمّس طريقه نحو الدروس التي تلقيّتها في المدرسة، فأخذت قلمًا وترجمت الأرقام في الصفحة الأخيرة من دفتر يومياتي.

صحت بصوت عالٍ وبنبرة انتصار:

- حسنًا، بالطبع!

وخطر لي أنّ هذا قد يرفع معنويات توم ويفرحه.

عندما عاد توم للظهور في نهاية الأمر، سألته:

- أنت بخير؟

فأجاب وهو يجلس إلى جانبي:

- نعم.

- أنا آسفة جدًّا لأنك تشعر بالغضب والاستياء إلى هذا الحدّ.

- وأنا آسف لأنني عرّفتك إليه. توقّعت منه أن يتصرّف بشكل مختلف. لا شيء ولا أحد يتغيّر يا آلي، وهذه هي الحقيقة.

قاطعته قائلةً:

- لعلك على حق لكن اسمع يا توم، أعتذر لأنني أغيّر الموضوع، لكنني أعتقد أنني اكتشفت شيئًا مثيرًا جدًا.

- ما هو؟

- حسنًا، أعتقد أنك افترضت أنّ هذا الكونشيرتو هو عمل جدّك الأكبر، جانس؟

- نعم، ولمَ لا أفعل؟

- حسنًا، ماذا لو لم يكن كذلك؟

- آلي، إنّ اسمه على الورقة الأولى للنسخة الأصليّة.

ونظر إليّ توم بحيرة وهو يشير إلى الاسم ثم أضاف:

- إنه هنا أمامك. يقول إنه هو من كتبه.

ماذا لو لم يكن جدك الأكبر جانس هو من كتب الكونشيرتو الذي وجدته، بل جدّك المباشر أيّ جانس هالڤورسن الابن، المعروف أكثر باسم بيپ؟ ماذا لو كان هذا هو كونشيرتو البطل، الذي ألّفه ليهديه لكارين، والذي لم يُعزف أبدًا؟ ولعلّ هورست وضعه في العلّيّة للأسباب التي شرحتها لي بالأمس، ولأنه لم يتحمّل أن يسمعه من جديد بعد ما حصل لابنه ولكنّته؟

شعرت بأنّ أفكاري بقيت عالقة في الهواء وانتظرت من توم أن يتلقّفها.

- تابعي كلامك يا آلي. أنا استمع إليك.

- أعلم أنّك قلت إنّ الكونشيرتو يبدو نروجيًّا، وهذا صحيح، والتأثير ظاهر بالتأكيد. أنا لست مؤرّخة في عالم الموسيقا فلا تقتبس كلامي، لكنّ الموسيقا التي عزفتها لي البارحة لا تتماشى مع ما تم تأليفه في أوائل القرن العشرين. سمعت شيئًا من رخمانينوڤ ولعلّ الأهم هو تأثير سترافنسكي الواضح هنا. وهو لم يؤلّف أعماله المؤثّرة والإبداعيّة إلا في العشرينيات والثلاثينيات، أيّ بعد وفاة جانس هالڤورسن الأول بوقت طويل.

ساد الصمت مجدّدًا وراقبت توم وهو يفكّر في ما قلته.

- أنت محقّة يا آلي. لقد افترضت أنه عمل جانس الأول. الأوراق القديمة هي كذلك بالنسبة إليّ، سواء كان عمرها ثمانين سنة أو تسعين أو مئة. وجدت في تلك العلّيّة كثيرًا من أوراق الموسيقا التي تعود بالتأكيد إلى جانس هالڤورسن الأول، فافترضت أنّه هو من كتب الكونشيرتو أيضًا. كما أنه لم يسمّه كونشيرتو البطل، أليس كذلك؟

وافقني توم الرأي مضيفًا:

- أتعلمين، كلما فكّرت في الأمر أكثر، زاد شعوري بأنّك على حق.

- أخبرتني أنّ الموسيقا الأوركستراليّة الرسميّة الكاملة ضاعت بالتأكيد عندما قُصِف المسرح.

وتابعت الكلام وأنا أشير إلى الأوراق:

- هذه على الأرجح هي الأوراق الأصلية الأولى للموسيقا على البيانو التي كتبها بيپ قبل أن يقرّر الاسم الذي سيطلقه على الكونشيرتو.

- أعمال جدي الأكبر كانت رومنسية واشتقاقيّة أكثر. أما هذا العمل فمليء باللهيب والشغف... إنه مختلف عن أيّ شيء آخر سمعت أنه كتبه. يا إلهي يا آلي.

وابتسم توم ابتسامة ضعيفة قبل أن يردف:

- بدأنا بسرّك أنت ويبدو أننا نتعامل الآن مع سرّي أنا.

وأعلنت بنبرة غرور استطعت أنا نفسي أن ألحظها في صوتي:

- في الواقع، ثمة دليل قاطع على كلامي.

- أحقًّا؟

- نعم، انظر.

وأشرت إلى حروف صغيرة مكتوبة بالحبر في الزاوية اليمنى من أسفل الورقة ثم قرأتها بصوت عالٍ:

- أم سي أم إكس إكس إكس أي إكس MCMXXXIX.

- يعني؟

عندئذ، سألته:

- هل تعلّمت اللاتينيّة في المدرسة؟

- لا.

- حسنًا، أنا تعلّمتها. هذه الحروف تشير إلى أرقام.

- نعم، حتى وإن كنت أعرف هذا. لكن ما الذي تمثّله؟

- العام 1939.

بقي توم صامتًا وهو يحاول أن يستوعب ما يعنيه كلامي ثم قال:

- إذًا، هذه هي المقطوعة التي ألّفها جدي.

- انطلاقًا من التاريخ المدوّن عليها، لا بد أنها كذلك، نعم.

- أنا... لا أعلم ماذا أقول.

- ولا أنا أيضًا، لاسيّما بعد ما أخبرتني به بالأمس.

وجلسنا صامتين لبعض الوقت.

أخيرًا، قال توم بعد أن استعاد قدرته على الكلام:

- يا إلهي يا آلي، إنه اكتشاف لا يُصدّق بالفعل. أعني ليس بسبب الارتباط العاطفي وحسب، بل لأنّه كان من المفترض أن تعزفه للمرّة الأولى أوركسترا بيرغن الفيلهارمونيّة قبل سبعين سنة تقريبًا. وبسبب كل ما أخبرتك به من قبل، لم يبصر النور مجدّدًا.

- وبيپ أهداه لكارين... بطلته...

وعضضت شفتي بعد أن تجمّعت الدموع في عينيّ واسترجعت ما حصل في حياتي الخاصة.

خطر لي أنهما كانا شابين أيضًا، وقد بدآ حياتهما للتو عندما تدخّل القدر بشكل قاسٍ ووحشيّ. وخطر لي كم أنا محظوظة لأنني أعيش في زمن أفضل، ولأنني ما أزال على قيد الحياة، وسأتمكّن، إذا ما حالفني الحظ، من الاعتناء بالطفل الذي يكبر في داخلي.

قرأ توم التعابير التي ارتسمت على وجهي فغمرني بشكل تلقائي وقال:

- نعم. مهما تكن الصلة التي قد نكتشف أنها تربطنا معًا، فإنّني أقسم لك يا آلي بأن أكون دومًا إلى جانبك. أعدك بذلك.

- شكرًا لك يا توم.

- والآن، سأعيدك إلى فندقك وأتوجّه إلى قاعة غريغ لأبحث عن دايفْد سيوارت، قائد الأوركسترا. يجب أن أخبره قصة كونشيرتو البطل. وعليه أن يساعدني في العثور على شخص يمكنه أن يوزّع الموسيقى أوركستراليًا في الوقت المناسب لعزفها في حفل مئويّة غريغ الموسيقيّ. يجب أن يُعزف في تلك الليلة. الأمر بهذه البساطة.

- نعم، لا بد من ذلك.



عندما دخلت إلى الفندق بعد أن أوصلني توم، وجدت رسالة بانتظاري في مكتب الاستعلامات. فتحتها وأنا في المصعد، وتفاجأت حين اكتشفت أنها من فيليكس.

تقول الرسالة «اتصلي بي» وقد ترك رقم هاتف خلويّ.

لن أتصل به بعد سلوكه المنفّر في وقت سابق من هذا اليوم. استحممت وصعدت إلى السرير ورحت أفكّر مليًا في أحداث هذا اليوم وخطر لي مجددًا كيف تعلّق قلبي بتوم.

توم، الذي عرف منذ بداية حياته أنّ له والدًا يعرف بوجوده لكنه يرفضه. وتذكّرت تلك الليالي من مراهقتي، التي قضيتها وأنا أشعر بالنقمة والثورة على سلطة ماما وپاپا سولت، وتمنيّت أن أعرف والديّ الحقيقيين اللذين كنت واثقة من أنهما سيفهمانني بشكل أفضل.

وبينما كنت أغفو، أدركت أكثر من أيّ وقت مضى أنّ طفولتي كانت سعيدةً.

43

صباح اليوم التالي، اتّصلت بالطبيبة قبل أن أفعل أيّ شيء آخر، للحصول على نتائج تحليل عيّنة البول. وكما كنت أتوقّع، جاءت نتيجة الفحص إيجابيّة. هنّأتني الطبيبة بأسلوب لطيف، ومن ثمّ قالت لي:

- أنصحك آنسة داپلييز بأن تتخذي الإجراءات اللازمة بشأن خدمات الأمومة فور وصولك إلى منزلك في جنيف.

- سأفعل. وأشكرك جزيل الشكر.

استلقيت على سريري أحتسي فنجاناً من الشاي الخفيف، الذي حلّ محل القهوة، لأنّني لم أكن قادرة على تحمّل رائحتها. وعلى الرغم من أنّ الغثيان لم يفارقني لحظة واحدة، لكنّه لم يعد يثير قلقي، لأنّني أدركت أنّه من العواقب الطبيعيّة المترتّبة عن الحمل. وقرّرت في ذهني أن أطلب عبر الإنترنت كتابًا عن الحمل، خاصّة وأنني لا أملك أدنى فكرة عن أمور الأطفال. لكنّني عدت وفكّرت بأنّ معظم النساء لا يهتممن بهذه الأمور إلّا حين يكتشفنَ بأنهنّ حوامل.

كنت دائمًا متحفّظة حيال مسألة الأمومة، من دون أيّ مشاعر مؤيّدة أو معارضة لها. وكنت أعتبرها من الأمور التي يمكن أن تحصل في المستقبل أو لا. وقد تحدّثنا، أنا وثيو، في هذا الموضوع، وضحكنا كثيرًا حين كنّا نستعرض أسماء سخيفة لأولادنا الوهميين. كما تناقشنا في موضوع مزرعة الماعز «في مكان ما» والتي عليها أن تكون فسيحة بما فيه الكفاية لتأوي ذرّيّتنا ذوي البشرة البرونزيّة اللون الذين لا بدّ من أن يستمتعوا بطفولتهم مثل أبطال رواية من روايات جيرالد دوريل.

من المؤسف أن تلك الحياة الريفيّة المثالية لم تعدّ من نصيبنا. وعليّ، في

مرحلة معينة في المستقبل، أن أختار المكان الذي أرغب في إنجاب طفلي فيه، وأحدّد المكان الذي اعتبره موطني.

رنّ الهاتف الموضوع قرب سريري، فرفعت السماعة على عجل. قالت لي عاملة الاستقبال إن هناك اتصالًا لي من السيّد هالڤورسن، فطلبت منها أن توصلني به لاعتقادي بأنه توم.

- صباح الخير يا آلي. كيف حالك؟

استولى عليّ الرعب عندما اكتشفت بأن المتّصل هو فيليكس.

فأجبته بجفاء:

- إنني بخير، وأنت؟

- أنا بخير أيضاً على الرغم من أن عظامي أصبحت متصلّبة. هل أنت مشغولة؟

- لماذا تسأل؟

ساد الصمت بيننا لفترة قصيرة قبل أن يجيبني قائلًا:

- أودّ التحدّث معك.

- بأيّ شأن؟

- لا أريد مناقشة الأمر على الهاتف. أخبريني متى تكونين قادرة على مقابلتي.

تبيّن لي من خلال نبرة صوته أن المسألة، بصرف النظر عما يمكن أن تكون، جدية.

- بعد ساعة تقريبًا، هنا.

- اتفقنا.

- حسنًا، أراك لاحقًا.

كنت جالسة في قاعة الاستقبال عند وصوله حاملًا بيده خوذة دراجة ناريّة متآكلة. نهضت من مكاني لأرحّب به، وأنا أتساءل إنْ كان الضوء ساطعًا أم أنّ فيليكس أصبح مسنًّا بين ليلة وضحاها. فاليوم، كان يبدو كأيّ رجل عجوز في مثل سنّه.

قال لي، وهو يحاول جاهدًا أن يرسم ابتسامة على ثغره:

- صباح الخير آنستي. أشكرك لأنك وافقت على مقابلتي. هل من مكان يمكننا التحدث فيه؟

- أظن أنّ هناك ردهة للنزلاء. هل تفي بالغرض؟

- لا بأس.

اجتزنا البهو متوجّهين نحو الردهة حيث جلس يحدّق إليّ لبعض الوقت قبل أن يبتسم ابتسامة واهية قائلًا:

- أتظنّين أنّ الوقت مبكّر بعض الشيء لشرب كأس؟

- لست أدري يا فيليكس. القرار لك.

- سنشرب القهوة إذًا.

ذهبت للبحث عن نادلة لتحضر فنجانًا من القهوة لفيليكس وكوبًا من الماء لي، وأنا أتساءل عن سبب انكماش فيليكس هذا الصباح، كأنّ الطاقة التي كانت تحرّكه تحلّلت وتسبّبت بانهياره وتجرّده من كل شيء. تبادلنا أطراف الحديث ريثما أحضرت النادلة المشروبات، وأنا أدرك أنه لا يريد أن يقاطعه أحد أثناء قول ما جاء ليقوله. نظرت إلى فيليكس وهو يحتسي القهوة، ولاحظت أن يديه كانتا ترتجفان وهو يمسك الفنجان.

- اسمحي لي يا آلي أن أتحدث معك في بادئ الأمر عن توم. فمن الواضح أنك مقرّبة منه.

- هذا صحيح، ولكنني أود الإشارة إلى أننا تقابلنا منذ بضعة أيام فقط. والغريب في الأمر هو أننا نشعر برابط قوي بيننا.

ضاقت عينا فيليكس لبضع لحظات.

- لا بدّ من ذلك. عندما رأيت الطريقة التي تتعاملان بها معاً، حسبت أن أحدكما يعرف الآخر منذ سنوات عديدة. في مطلق الأحوال، أظنّ أنه أخبرك عن رفضي الاعتراف به كابن لي.

- نعم، أخبرني ذلك.

- هل تصدقينني إن قلت لك إنني لم أكن واثقًا من أنّه ابني إلى حين أجريت اختبار الحمض النوويّ؟

- إذا كنت تقول ذلك، علي أن أصدّقك.

أومأ فيليكس رأسه بإصرار قائلًا:

- أقسم لك بأنّ والدة توم كانت طالبة عندي. وعلى الرغم من أن علاقتي بها كانت عابرة، لم يخبر أحد توم أنها كانت في الوقت عينه، على علاقة بشخص آخر، ومخطوبة له، وأنهما كانا يخطّطان للزواج عندما التقينا.

- فهمت.

تابع فيليكس قائلًا:

- لا أريد أن تظني أنني مغرور، ولكن منذ أن وقعت عينا مارتا عليّ، انقلبت حياتها رأسًا على عقب، وأغرمت بي حدّ الهوس. غير أن تلك العلاقة لم تكن تعني لي شيئًا. بعبارة أخرى، كانت مجرد نزوة ولا بدّ من أن تنتهي. لم أكن أريد منها، أو من أيّ امرأة أخرى، أيّ شيء. فالحق يُقال يا آلي إنني لم أكن من النوع المؤيّد لفكرة الزواج أو حتى لمسألة الأبوّة. يمكن حاليًا وصف حالتي «بالخوف من الارتباط»، لكنني كنت دائمًا حريصًا على التحدث بكل صراحة في هذا الشأن مع النساء اللواتي أخرج برفقتهنّ. فقد ترعرعت في حقبة الحب المتحرّر، والثورة الثقافيّة، حيث تحرّر الجميع فجأة من قيود العادات القديمة.

وهز كتفيْه بلامبالاة وأضاف:

- والمشكلة هي أن هذا السلوك رافقني طوال حياتي، سواء للأسوأ أو للأفضل، وهذا ما أنا عليه.

- حسنًا. وعندما أخبرتك والدة توم بأنها حامل، ماذا قلت لها؟.

- قلت لها إذا كنت ترغبين في الاحتفاظ بالطفل، الذي كنت يومها أعتقد أنّه طفل خطيبها، لأننا لم نكن قد تطارحنا الغرام إلا في مناسبتين فقط، فعليك أن

تخبريه لتتزوّجا في أسرع فرصة ممكنة. فأخبرتني بأنها قطعت علاقتها به في الليلة التي سبقت، لأنّها أدركت بأنّها لم تعدْ تحبّه، بل كانت تحبّني أنا.

رفع فيليكس يده إلى جبينه، ومن ثم وضعها أمام عينيه مضيفًا:

- أخجل من القول إنني انفجرت بالضحك أمامها وقلت لها إنها مجنونة. فبصرف النظر عن عدم وجود أيّ دليل على أن الطفل مني، بدت لي فكرة الارتباط، وأداء دور العائلة السعيدة، سخيفة. كنت أعيش عيشة الكفاف في كوخ بارد... ماذا يمكن لي أن أقدم لتلك المرأة وطفلها، حتّى وإن كنت أريد الزواج بها؟ لذا طردتها، ظنًّا منّي أنّها ستعود لخطيبها إذا ما أدركت بأن لا مستقبل لها معي. لكنها لم تعد إليه، وبعد فترة وجيزة من الولادة، لجأت إلى جدّيّ هورست وأستريد اللذين كانا يومها في الثالثة والتسعين والثامنة والسبعين، وأخبرتهما بأنّني تعاملت معها بسفالة. وبالنظر إلى أنّ علاقتي بهما كانت متزعزعة من قبل، فقد أدّى ذلك إلى انقطاع التواصل بيننا بشكل كليّ. ومع أنني كنت أعبد جدّي في صغري، فقد تُوفّي وهو غاضب مني. كان هورست رجلًا مميّزًا يا آلي، أقسم لك. عندما كنت صغيرًا، كنت أعتبره بطلي.

نظر فيليكس إليّ ببؤس وسألني:

- أتظنين أنني سافل يا آلي؟ تمامًا كما يقول توم؟

أجبته بحذر:

- لستُ هنا لأحكم عليك. أنا هنا لأسمع ما تريد قوله.

- حسنًا. اختفت مارتا بعد أن قلت لها إنني لا أريد ذلك الطفل، وبعثت إليّ رسالة تقول فيها إنها تنوي الاحتفاظ بالطفل، وستقيم لدى صديقة لها في المنطقة الشماليّة، على مسافة قريبة من ذويها، إلى أن تقرّر ما تريد فعله. ولم تتوقف أبدًا عن التعبير عن مدى حبها لي في الرسائل التي لا تُعدّ ولا تُحصى والتي كتبتها لي. وكنت حريصًا على عدم الردّ آملًا أن يحثّها صمتي على المضي قُدُمًا في حياتها. كانت صغيرة في السنّ، وفاتنة، وكنت واثقًا من أنّها لن تواجه أيّ مشكلة في العثور على شخص آخر من شأنه أن يوفر لها ما تحتاج إليه. ومن ثم... بعثت لي رسالة بعد الولادة وأرفقتها بصورة فوتوغرافيّة....

توقّف فيليكس عن الكلام ورأيته يحدّق إليّ بطريقة غريبة. ولكنه ما لبث أن تابع قائلًا:

- انقطعت أخبارها خلال الأشهر القليلة التالية، إلى أن رأيتها في أحد الأيام تجرّ عربة أطفال في وسط المدينة، هنا في بيرغن.

وتجهّم وجهه مضيفًا:

- كنت جبانًا، فاختبأت منها، وطلبت من صديق لي أن يبحث عن مكان سكنها. وكان هو من أخبرني بأن جدّيّ استقبلاها في منزلهما لأنها لم تجد مكانًا تذهب إليه، بعد أن طردتها الصديقة التي كانت تقيم عندها. لا بدّ من أن توم أخبرك بأنّها كانت تعاني من نوبات اكتئاب، وأتصوّر أنها عانت من ذلك بعد الولادة.

سألته:

- ما الذي شعرت به بعد أن علمت أنها تقيم في منزل جدّيك؟

- استشطت غضبًا! شعرت بأنهم يتلاعبون بي ليفرضوا عليّ امرأة تدعي بأنّها تحمل ابني، ولكن ماذا بإمكاني أن أفعل؟ نجحت في إقناعهما بكلامها، لاسيّما وأنني كنت دائمًا في نظرهما فاسقًا عديم الأخلاق، ما يعني أن سلوكي كان متوقّعًا. يا إلهي كم كنت غاضبًا يا آلي. وبقيت غاضبًا لسنوات طوال. صحيح أنني ارتكبت خطأً عندما جعلت تلك المرأة تحمل مني، ولكنهما أبيا الإصغاء إلى وجهة نظري في الموضوع، ولو لمرة واحدة. إذ نجحت مارتا في إقناعهما بأنني وغد، وانتهى الأمر. اسمعي، سأذهب لإحضار كأس، أتريدين شيئًا؟

- كلّا، شكرًا لك.

راقبته وهو ينهض من مكانه ويغادر الردهة، بحثًا عن المشرب في قاعة الاستقبال. وحاولت أن أتذكّر كلمات پاپا سولت عن الجانب الآخر من القصة. فكل ما قاله فيليكس حتى الآن يبدو لي منطقيًا. وحتّى لو كان سكّيرًا وغير مسؤول، لا أظنّ أنه كان يكذب. جلّ ما يمكنني أن أقوله عنه هو أنه فجّ وصريح. وإذا ما افترضت أنّ روايته صحيحة، فذلك يعني بأنّني قادرة على تفهُّم وجهة نظره.

عاد فيليكس حاملًا بيده كأسًا من الويسكي. فرفعها عاليًا قائلًا: «في صحتك»، ومن ثمّ ارتشف قليلًا منها.

- هل حاولت أن تخبر توم بما قلته لي للتو؟

- طبعًا لا.

وضحك ضحكة رنّانة مضيفًا:

- قيل له منذ لحظة ولادته، إنني شخص سيّىء. كما أنه كان يدافع باستمرار عن والدته، وهذا أمر يمكن تفهُّمه.

وتابع فيليكس:

- ولكن مع مرور السنين، بدأت أشعر بالأسف نحوه، بصرف النظر عمّا إذا كان ابني من لحمي ودمي أم لا. وبلغني من الشائعات المُتناقَلة محليًا أن حالة مارتا النفسيّة كانت تارة تسوء وتارة تتحسّن. ولحسن الحظ أن توم عاش خلال السنوات القليلة الأولى من حياته مع جدّي بحيث وفّر له ذلك نوعًا من الاستقرار النفسيّ. كانت مارتا أشبه بالندفة، وتصرّفاتها طفوليّة، واعتقدت أنّ الرياح ستسير بحسب ما تشتهيه.

- وتركت الأمور على ما هي عليه إلى أن اكتشفت أن توم ورث منزل العائلة؟

- أجل. تُوفّيَ هورست عندما كان توم في الثامنة من العمر، في حين تُوفّيت جدّتي، التي كانت تصغره سنًّا، بعد بلوغ توم الثامنة عشرة. وعندما أخبرني المحامي أنّني ورثت التشيللو الخاص بهورست، إضافة إلى مبلغ بسيط من المال، في حين ورث توم كل ما تبقّى، لم أجد بدًّا من التحرّك.

- ما الذي شعرت به عندما اكتشفت أنك والد توم؟

اعترف فيليكس قائلًا بعد أن ابتلع جرعة أخرى من الويسكي:

- ذُهِلت تمامًا. فالقدر كان لي بالمرصاد، وأراد أن يمارس عليّ ألاعيبه الصغيرة. صحيح أنّ طعني بالوصية جعل توم يكرهني أكثر فأكثر، ولكنني واثق من أنك ستفهمين، بعد كل ما أخبرته به، السبب وراء اقتناعي بأنّ توم كان مجرد وقواق يحتلّ عشي بالوراثة.

- هل فرحت عندما علمت أن توم ابنك من لحمك ودمك؟

شعرت بعد أن طرحت عليه هذا السؤال، وكأنّني معالجة نفسيّة تُحلّل شخصية مريضها، وفكّرت في سرّي بأن ثيو كان ليحب ذلك.

- لا أذكر، صراحة، ما شعرت به. وبقيت ثملًا أسابيع عدّة بعد أن بلغني أن نتيجة الفحص إيجابيّة. وحرصت مارتا على أن تبعث لي رسالة عنيفة للتعبير عن مدى فرحها بانتصارها، فرميتها من شدّة غضبي في الموقدة.

وتنهّد فيليكس مضيفًا:

- يا لها من ورطة، ورطة لعينة.

خيّم الصمت علينا لبعض الوقت، واستغللت من جهتي هذا الصمت لاستيعاب ما قاله له. وطغى عليّ إحساس بالحزن الشديد على الأرواح التي هُدِرت هباءً.

خرقت بعدها جدار الصمت قائلة:

- أخبرني توم أنك كنت عازف بيانو ومؤلفًا موسيقيًا موهوبًا جدًّا.

ابتسم فيليكس ابتسامة صادقة للمرّة الأولى قائلًا:

- كنت! وأؤكّد لك بأنني ما أزال.

- من المؤسف أنك لا تستغل هذه الموهبة.

- ومن أين لك أن تعرفي أنني لا أستغلّها؟ فتلك الآلة الموسيقيّة القابعة في كوخي هي حبيبتي ومعذبتي ومصدر سلامتي العقليّة. وعلى الرغم من أن لا أحد كان يرضى بتوظيفيّ لأنّني سكّير وغير جدير بالثقة، ولكن ذلك لا يعني أنني توقّفت عن العزف. ماذا تظنّين أنني أفعل في الكوخ طوال النهار؟ أعزف لنفسي. قد أسمعك عزفي يومًا ما.

- برفقة توم؟

-أشك في أن يوافق على ذلك، ولا يحقّ لي أن ألومه إن رفض. فهو الضحية في هذه الرواية، ضحية والدته المكتئبة والقاسية، ووالده الذي لم يتحمل يومًا مسؤوليته. له كل الحقّ في أن يحتقرني.

- عليك أن تخبره يا فيليكس بكل ما أخبرتني به منذ قليل.

- أقسم لك يا آلي بأنّه يكفي أن أتفوّه بكلمة واحدة سلبية عن والدته العزيزة على قلبه ليغادر المكان على الفور. كما أنّ تدمير الصورة التي رسمها طوال حياته لوالدته، بعد أن كانت بنظره الضحية البريئة، سيكون قاسيًا عليه، خاصة وأنها مُتوفّية الآن. ما النفع من ذلك؟ ما حصل قد حصل.

تضاعف إعجابي بفيليكس أكثر فأكثر، لأنّ ما قاله للتوّ يدلّ على أنه يهتم لأمرهما. ولكن الأمر الوحيد الظاهر بشكل جليّ هو أنه لم يبذل أي جهد للتقرّب من ابنه.

- هل بإمكاني أن أسألك لما أخبرتني بكل تلك الأمور؟ أتريد منّي أن أخبر توم؟

حدّق فيليكس إليّ لبضع ثوانٍ، ومن ثمّ حمل كأس الويسكي وارتشفها كلها دفعة واحدة.

- كلّا.

فمازحته قائلة:

- أتقصد من ذلك أن تثبت لي أنّ توم على حق؟ وأنني ابنة غير شرعية لك من امرأة أخرى أغويتها؟

أوحت لي نظرات عينيه بأنّ لديه مزيدًا ليُفضي به.

- ليس الأمر بهذه السهولة يا آلي. اللعنة! أرجو المعذرة.

ونهض من جديد من مكانه وهرع باتّجاه المشرب ليعود بعد دقائق قليلة حاملًا كأسًا ثانيةً من الويسكي.

- آسف، ولكن من الواضح أنّني مدمن على الكحول. ولعلمك، أعزف بشكل أفضل بكثير عندما أكون ثملًا.

وإذ خشيت أن يفقد تسلسل أفكاره بينما تتسلّل الويسكي إلى مجرى دمه، ألححت عليه قائلة:

- ما الذي تريد أن تقوله لي يا فيليكس؟

- أريد أن أقول... عندما رأيتك جالسة البارحة على الأريكة بجانب توم، كنتما

أشبه بحبّتي بازيلاء في جراب واحد. فربطت الأحداث سويًا، ولم أذق طعم النوم وأنا أفكر ما إذا كان يجدر بي أن أخبرك أم لا. خلافًا لما يقوله الناس عني، أنا رجل صاحب مبادئ أخلاقيّة وعاطفيّة. وآخر ما يمكن أن أرغب فيه هو أن أتسبّب بضرر أكبر من ذلك الذي تسبّبت به حتّى الآن.

- أرجوك يا فيليكس، قُلْ ما عندك.

- حسنًا، حسنًا. ولكن كما سبق وقلت لك، بنيت استنتاجاتي على التخمين فحسب...

كنت أشاهده وهو يُدخل يده في جيبه ويُخرج منها مظروفًا قديمًا، ويضعه أمامي على الطاولة.

- عندما بعثت مارتا لي رسالة تبلغني فيها بأنّ الولادة قد تمّت بخير، أرفقت بها صورة فوتوغرافيّة.

- نعم، أخبرتني بذلك. صورة فوتوغرافيّة لتوم.

- أجل، صورة فوتوغرافيّة لتوم. ولكنها كانت تحمل بين ذراعيها طفلة صغيرة... أنجبت مارتا توأمًا. أتريدين رؤية الصورة والرسالة؟

- يا إلهي.

وأحكمتُ قبضتي على مسند الأريكة وقد شعرت بأنّ كل شيء من حولي يدور بسرعة. وضعت رأسي بين ساقيّ وشعرت بفيليكس يجلس بجانبي ويربّت ظهري.

- اشربي يا آلي قليلًا من الويسكي لتتمكّني من تحمّل وقع الصدمة.

- كلّا.

أبعدت الكأس من أمامي لأنّ رائحتها أصابتني بالغثيان.

- لا أستطيع، فأنا حامل.

وسمعت فيليكس يهتف قائلًا:

- ربّاه! ما الذي فعلته؟

- أعطني كوب الماء. أشعر الآن بتحسن.



فعل ما طلبته منه وارتشفت بضع جرعات منها، وقد بدأت أشعر بالدوار يتلاشى.

- آسفة لما حصل، ولكنني بخير الآن.

نظرت إلى المظروف الموضوع على الطاولة ومن ثم مددت يدي والتقطته. فتحت المظروف بيدين مرتعشتين تمامًا مثل يدي فيليكس، وأخرجت منه قصاصة من الورق وصورة فوتوغرافيّة قديمة بالأبيض والأسود للمرأة الجميلة التي رأيت صورها المؤطرة في فروسكهاوست. كانت تحضن طفلين رضيعين مقمّطين.

- هل أستطيع قراءة الرسالة؟

- إنها باللغة النروجية. دعيني أقرأها لك.

- لو سمحت.

- حسنًا. استُهِلّت الرسالة بالعنوان في مستشفى سانت أولاف في تروندهيم، وإلى جانبه التاريخ في الثاني من حزيران 1977. حسنًا، سنبدأ بالرسالة.

تنحنح فيليكس وتابع:

- عزيزي فيليكس، ظننت أنّ من الأفضل أن أعلمك بأنّني أنجبت توأمًا، صبيًا وبنتًا. وُلِدت الفتاة البنت أولًا في منتصف ليل الواحد والثلاثين من أيار، في حين وُلِد الصبي لاحقًا في ساعات الفجر الأولى من الأول من حزيران. ما زلت متعبة نتيجة الولادة الطويلة ويمكن أن أبقى في المستشفى أسبوعًا آخر، ولكنّني بدأت أستعيد عافيتي. أرفقت لك طيًا صورة فوتوغرافية لطفلينا، وفي حال كنت ترغب في رؤيتهما أو في رؤيتي، أرجو منك أن تأتي لزيارتنا. أحبك. مارتا. هذا ما جاء في الرسالة.

لاحظت أنّ صوت فيليكس تحوّل إلى أجشّ وكأنّه على وشك البكاء.

- الواحد والثلاثون من أيار... عيد ميلادي.

- أجل.

حدّقت إلى فيليكس بذهول ومن ثمّ حوّلت نظري من جديد إلى الطفلين

الرضيعين في الصورة. لم يكن بإمكاني التمييز بينهما بسبب القماط ولم أستطع أن أعرف أيًّا منهما أنا.

- أستطيع الافتراض بأنّ مارتا، التي لم تكن تملك منزلًا أو زوجًا، قرّرت التخلي عن أحد الطفلين وعرضه للتبنّي على الفور.

- ولكن عندما رأيتها في بيرغن التي عادت إليها بعد الولادة، لا بدّ من أنك سألت نفسك أين يمكن أن يكون الطفل الآخر؟

شربت كمية كبيرة من الماء وأضفت:

- أين كنت أنا؟

وضع فيليكس يده على يدي بتردّد قائلًا:

- أخشى يا آلي أن أكون افترضت أنّ الطفل الآخر لقي حتفه. لم تحدثني عنك ثانية، وبحسب علمي لم تأتِ على ذكرك يومًا أمام جديّ أو توم. فخطر لي أن الذكرى كانت مؤلمة، واختارت أن تمحوها من ذهنها. لا أذكر أنني تحدّثت معها بعد ذلك إلا بعبارات الغضب والألم.

عبست من شدة الارتباك قائلة:

- هذه الرسالة توحي بأنّ مارتا كانت لا تزال مقتنعة بأن علاقتكما ستعود إلى سابق عهدها.

- لعلّها توقّعت أن يكون ردّ فعلي العاطفيّ حين رأيت طفليّ، جامحًا، بحيث اعتبرت أنه لم يعد أمامي خيار سوى تحمّل مسؤولياتي بجدّية وقد رأى طفلاي النور.

- هل أرسلت لها ردًّا؟

- كلّا يا آلي، سامحيني لأنني لم أفعل.

شعرت وكأنّ رأسي على وشك الانفجار لعجزي عن استيعاب ما سمعته لتوّي، بينما امتلأ قلبي بالمشاعر المتضاربة. في الوقت الذي لم أكن فيه واثقة من أن فيليكس أبي الوراثي، كنت قادرة على التفكير بشكل منطقيّ في الأمور التي أخبرني بها عن ماضيه. ولكنّني لم أعد أعلم في هذه اللحظة ما أشعر به حياله.

تمتمت بيأس:

- قد لا أكون أنا. لا يتوافر أي دليل دامغ يثبت ذلك.

- هذا صحيح، ولكن بعد أن رأيتكما سويًا، وعرفت تاريخ ميلادك وحقيقة أنّ والدك بالتبني أرسلك إلى هنا للبحث عن آل هالفورسن، سيكون من الصعب عليّ القول إنك لست هي.

وأضاف فيليكس بنبرة لطيفة:

- من السهل التحقّق من ذلك في الوقت الراهن بحسب علمي. ففحص الحمض النوويّ يقطع الشك باليقين على الفور. ويسرّني أن أخضع لهذا الفحص في حال كنت ترغبين في ذلك يا آلي.

أرحت رأسي على ظهر الأريكة، وأخذت نفسًا عميقًا وأنا مغمضة عينيّ. كنت أدرك تمامًا أنّني لست بحاجة إلى التأكد من الأمر. فقطع الأحجية خرجت كلها إلى النور، تمامًا كما قال فيليكس. وإلى جانب الأسباب التي سردها منذ قليل، لا يسعني سوى الاعتراف بأنّني، منذ وقعت عيناي على توم، أحسست وكأنّني أعرفه من زمن بعيد، بحيث بدا لي مألوفًا بطريقة ما. كنّا أشبه بحبّتي بازيلاء في جراب. فخلال الأيام القليلة الماضية، غالبًا ما كنا نعبّر عن الفكرة نفسها بشكل متزامن وننفجر بعدها بالضحك. أحسست بالدوار من شدّة الفرحة التي غمرتني لعثوري على أخي التوأم، ولكن في الوقت عينه، كان علي أن أتعامل مع حقيقة أن أمي الوراثيّة اضطرت لاختيار أيٍّ من الطفلين عليها أن تتركه للتبنّي، واختارتني أنا.

قطع فيليكس حبل أفكاري قائلًا:

- أعرف جيّدًا ما تفكرين فيه يا آلي، وأنا في غاية الأسف. لست أدري إنْ كان كلامي سيخفّف عنك، ولكن عندما أبلغتني مارتا بحملها، قالت لي إنها واثقة من أنه صبي لأنها ترغب بإنجاب صبي. وأنا واثق من أنها اتّخذت قرارها انطلاقًا من مسألة الجنس وليس لأي اعتبار آخر.

- شكراً لك، ولكن ما قلته الآن لا يجعلني أشعر بتحسّن.

- كنت واثقًا من ذلك. ماذا يسعني أن أقول؟

- لا شيء. ليس الآن على أي حال. ولكن، أشكرك لأنك شاركتني تلك المعلومات. هل تسمح لي بالاحتفاظ بالصورة والرسالة لبعض الوقت؟ وأعدك بأن أعيدهما إليك.

- بالتأكيد.

- أرجو منك أن تعذرني، ولكنّني أرغب في الذهاب لأتمشّى قليلًا وحدي.

ونهضت من مكاني مضيفة بحدّة:

- أحتاج إلى تنشّق هواء منعش.

- فهمت. وسامحيني مرة أخرى لأنني أخبرتك الحقيقة. لو كنت أعلم أنّك حامل لما أخبرتك شيئًا، لأنّني أخشى أن يزيد ذلك وضعك سوءًا.

غادرت الردهة وخرجت مسرعة من باب الفندق الأماميّ بحثًا عن الهواء البارد الشديد الملوحة. سرت بخفّة على طول الرصيف متوجّهة صوب البحر. كانت السفن راسية، بعضها يفرغ حمولته وبعضها الآخر يحمل البضائع، ولما بلغت في نهاية المطاف مربط حبال، جلست على سطحه الصلب والبارد. كانتْ الريح تهب في ذلك النهار خفيفة، فتطايرت خُصل شعري حول وجهي، ما دفعني إلى ضمه بربطة الشعر التي كنت أضعها باستمرار حول رسغي.

حسنًا، أصبحت الآن على بيّنة. فتلك المرأة التي تُدعى مارتا حملت بي في بيرغن من رجل يُدعى فيليكس، ولكنّها تخلّت عني بعد أن أنجبتني بوقت قصير. كان تفكيري المنطقيّ يقول لي إن ذلك يمثل النتيجة الحتمية للتحريات التي كنت أقوم بها بحثًا عن والديّ الحقيقيين، ولكن وخز الألم الناجم عن تفضيل والدتي لطفلها الآخر كان موجعًا جدًّا.

أتراني كنت أفضّل لو أنها اختارت أن تحتفظ بي، ليتسنى لي بذلك تبادل الأدوار مع توم؟

لم أكن واثقة...

جلّ ما كنت واثقة منه هو أنه منذ يوم ولادتي، كان عالم آخر يسير بشكل متوازٍ مع عالمي، عالم كان يمكن أن يكون قدري. واللافت هو أن العالمين اصطدما الآن، واحدهما بالآخر، بينما كنت أميل يمينًا وشمالًا ضائعة بين الاثنين.

«مارتا أمي».

تفوّهت بتلك العبارة بصوت مرتفع، متسائلة في سرّي ما إذا كان ينبغي، بالنظر إلى اسمها المسيحيّ، أن أناديها ماما أيضًا؟ ابتسمت لتلك المفارقة بينما كنت أتأمّل زوجين من طيور النورس يحومان على جناح الريح. ومن ثمّ رحت أفكّر في الحياة التي كانت تنمو في أحشائي، حياة لم أكن أتوقّع أن تكون موجودة..

صرخت للمياه قائلة : «كيف تمكّنتِ من التخلي عني؟».

وسألتها ثانية بصوت أشبه بالنشيج : «كيف استطعتِ أن تفعلي ذلك؟».

وأطلقت بعدها العنان لدموعي لتسيل بغزارة على خديّ، بينما كانت الريح العاتية تجفّفها أثناء تساقطها.

لن أتمكّن أبدًا من معرفة السبب الذي دفعها للتخلّي عني. لن أتمكّن يومًا من سماع روايتها لما حدث. لن أعرف أبدًا مدى الألم الذي قاسته عندما تخلّت عني وودّعتني للمرّة الأخيرة. ولا بدّ من أنها ضمّت يومها توم إلى صدرها بقوة لأنّه لم يتبقَّ لديها سواه لتغدق عليه حنانها.

وإذ أدركت أن مجرى مشاعري اتّخذ مسارًا جامحًا، وقفت وبدأت أسير بخفّة، وأفكاري تتخبّط كالأمواج المتلاطمة التي كانت تتكسّر على صخور الميناء، حائرة لعجزها عن التدفّق بشكل طبيعيّ، وعاكسة على سطحها مدى يأسي.

كان ذلك مؤلمًا. مؤلمًا جدًّا.

سألت نفسي: «ما الذي كنت أرغب في الحصول عليه عندما قررت القيام بهذه الرحلة؟ الألم؟».

فأجبت نفسي بحزم: «كنتِ تميلين يا آلي إلى الانغماس في الملذات. ماذا عن توم؟ لقد عثرتِ على شقيقكِ التوأم»

«أجل. ماذا عن توم؟»

ولما بدأت أستعيد هدوئي وأفكر بالإيجابيات، أدركت أنني وجدت الحب، تمامًا مثل مايا الذي ذهبت للبحث عن ماضيها، باستثناء أن الحب الذي وجدتُه مختلف عن الحب الذي وجدته هي. ففي الليلة الماضية، شعرت حين أويت إلى الفراش، بالتعاطف مع توم لأنّ طفولته كانت صعبة. واعترفت في داخلي بمدى

قلقي من تقاربي منه، لاسيّما وأنّني لم أتمكّن من تصنيف ما يعنيه لي، ما جعلني أتردّد في الاعتراف بأنني أحبّه. ولكنّني أحبّه فعلًا، والمشاعر التي أكنّها له طبيعيّة ولا عيب فيها، خاصّة بعد أن عرفت الآن أنّه شقيقي التوأم.

عندما أتيت إلى النروج، كنت أقاسي من فقدان أعز شخصين على قلبي في الكون. وفي طريق العودة إلى الفندق على طول الرصيف، أدركت أن الألم المترتّب عن اكتشاف الحقيقة ليس شيئًا أمام عثوري على توم.

وصلت إلى الفندق في حالة من الإنهاك الشديد، فصعدت إلى غرفتي، وطلبت من عاملة الاستقبال ألّا تحوّل لي أي اتصال، واسترسلت في نوم عميق بلا أحلام.

كانت الغرفة غارقة في الظلمة لدى استيقاظي. نظرت إلى ساعتي وتبيّن لي أنها جاوزت الثامنة مساءً، وأنّني نمت ساعات عدة. رميت الغطاء جانبًا، ودخلت الحمام لأغسل وجهي بالماء البارد، بينما كنت أستعيد في ذهني ما قاله لي فيليكس. ولكن قبل أن أتعمّق في تحليل الأمور، أدركت أنّني أتضوّر جوعًا، فسارعت إلى ارتداء سروال الجينز وقميصًا ثقيلًا ونزلت إلى الأسفل لأحضر طعامًا من المطعم.

لدى دخولي الردهة، تفاجأت برؤية توم جالسًا على إحدى الأرائك. قفز واقفًا من مكانه لدى رؤيتي وقد بدت على وجهه أمارات القلق.

- هل أنتِ بخير يا آلي؟ حاولت الاتصال بغرفتك ولكن كان هاتفك مغلقًا.

- نعم.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟ لم يكن يفترض بنا أن نلتقي اليوم، صح؟.

- كلّا... ولكن قرابة الظهر، فتحت باب منزلي لأجد فيليكس أمامه وهو في حالة هستيريّة، ويبكي بحرقة . أدخلته إلى المنزل وقدمت له كأس ويسكي وسألته عما يجري. فأخبرني بأنه أخبرك أشياء لم يكن يُفترض به أن يقولها لك، ولكنه لم يكن يعلم أنك حامل. كان قلقًا جدًّا بشأن حالتك النفسيّة، وأخبرني بأنك خرجت للتنزّه على طول الميناء.

- كما ترى، لم أقفز في المياه بعد. هل تمانع يا توم في أن نتابع حديثنا في المطعم؟ فأنا جائعة جدًّا.

- بالتأكيد. إنها علامة جيدة في أيّ حال.

أضاف توم وهو يتنفّس الصعداء بينما كنا نجلس إلى إحدى الطاولات:

- وأخبرني بعدها بالقصّة المؤسفة كاملة.

حدّقت إليه من خلال قائمة الطعام التي كنت أمسك بها.

- إذًا.

- صُعِقتُ مثلك تمامًا، ولكن فيليكس كان مستاءً للغاية ولم أجد بدًا من تهدئته. إنّها المرّة الأولى التي أشعر فيها بالأسف نحوه.

ناديت النادلة وطلبت منها أن تحضر لي قليلًا من الخبز على الفور وطبقًا من الستيك ورقاقات البطاطس.

سألت توم:

- هل ترغب في تناول شيء ما؟

- لمَ لا؟ سأتناول مثل ما ستتناولينه.

ومن ثم عاد وقال للنادلة بصوت مرتفع:

- مع كأس جعّة لو سمحت.

- عندما قلت إنّ والدك أخبرك القصّة كاملة، هل كان ذلك يشمل حقيقة ما جرى بين والدتك وفيليكس عندما التقيا للمرة الأولى؟

- أجل، ولكن سواء كنت أصدّقه أم لا، فتلك مسألة أخرى.

- على الرغم من أنّني كنت في موقف المتفرجة حتّى بضعة أيام خلت، أظنّ أنني أصدّقه. مع أنّ ذلك لا يبرّر ما فعله... أو حريٌّ بي أن أقول، ما لم يفعله.

وأضفت على عجل لئلا يعتقد توم أنّني متحيّزة وأدافع عن فيليكس:

- ولكنّ ذلك يبرّر، إلى حدٍّ ما، سلوكه. إذ خُيّل إليه في مرحلة معيّنة أنّ الجميع يتلاعبون به.

- أخشى أنّني لم أبلغ بعد المرحلة التي أستطيع فيها الوثوق به، أو مسامحته، ولكنّني قرأت اليوم في عينيه تعابير الندم. في أيّ حال، كفى كلامًا عمّا أشعر أو لا أشعر به. ماذا عنكِ؟ لا بدّ من أنّ وقع الصدمة كان عنيفًا عليك. إنني في غاية الأسف يا آلي. عليّ الاعتذار لأنّ والدتي اختارت أن تحتفظ بي أنا.

- لا تكن سخيفًا يا توم. لن نتمكّن أبدًا من أن نعرف السبب الحقيقيّ وراء ما فعلته؛ صحيح أنّ الشعور الذي تملّكني كان مريعًا، ولكن ما حصل قد حصل. ولأتمكّن من أن أنعم بقليل من راحة البال، أود التحقّق ما إذا كان المستشفى الذي أنجبتنا مارتا فيه يحتفظ بسجل أو ببعض التفاصيل عن عملية التبنّي التي تلت الولادة. وأرجو ألّا تمانع في أن نخضع كلانا لفحص الحمض النووي.

- طبعًا يا آلي. لكنّني لا أظن أنّ هناك مجالًا للشك. صح؟

- كلا.

وإذ وصل الخبز، أخذت قطعة منه وأقحمتها في فمي بنهم.

- لحسن الحظ أنّك استعدت، كما يبدو، شهيتك للأكل على الرغم من الصدمة. لعلّ الوقت ليس مناسبًا يا آلي للتفكير في الإيجابيات، خاصّة وأنك لا تزالين تحاولين استيعاب صدمة السلبيات، ولكنني أدركت لتوّي بأنني سأصبح خالًا. وهذا يسعدني كثيرًا.

وافقته الرأي قائلة:

- ليس من السابق لأوانه أن نبدأ بالنظر إلى الجانب الايجابيّ. قبل مجيئي إلى النروج، كنت تائهة ووحيدة. وها قد عثرت الآن على أسرة جديدة، بصرف النظر عن أن والدي الحقيقيّ فاسق وسكّير.

مدّ توم يده عبر المائدة وأمسك بيدي بخجل.

- مرحبًا يا شقيقتي التوأم.

- مرحبًا يا شقيقي التوأم.

بقيت يدانا متشابكتين لبعض الوقت، وأنا واثقة من أن المشاعر تفيض في داخل كل منّا. فالمعادلة في غاية البساطة: كلٌّ منّا يكمل الآخر.

- إنه من الغريب..

قلنا ذلك معًا في الوقت نفسه ومن ثمّ انفجرنا بالضحك.

- أنتِ أولًا يا آلي. فأنتِ الأكبر سنًّا في أي حال.

- يا إلهي، إنها فكرة غريبة! كنت دائمًا الابنة الثانية في الأسرة بعد مايا. ولكن كُنْ واثقًا من أنني سأستغل موقعي المتفوّق المُكتسَب حديثًا على أكمل وجه.

- لا شك عندي في ذلك.

وتابع توم:

- قلنا معًا إنه من الغريب...

- نعم، ولكنّني نسيت الآن ما الذي كنت أقصده بالتحديد، لأن هناك أشياء كثيرة وغريبة في الوقت الحالي.

ولم أكد أنهي كلامي حتى وصل العشاء.

- معك حق.

وسكب توم الجعَة ورفع كأسه قائلًا:

- سنشرب نخبنا، ونخب جمع شملنا بعد ثلاثين سنة. أتعلمين شيئًا؟

- ماذا؟.

- لم أعُدْ طفلًا وحيدًا.

- هذا صحيح. أتعلم شيئًا أيضًا؟

- ماذا؟

- أصبح للشقيقات الستّ أخ.

44

اقترح توم، ونحن نتناول العشاء، أن أنتقل على الفور إلى فروسكهاوست. وأضاف وهو يحمل حقيبة الظهر خاصتي ونحن نصعد الدرجات المؤديّة إلى الباب الأمامي في وقت لاحق من ذلك المساء:

- لا شيء أسوأ وأتعس من الإقامة في فندق. وفي الواقع يُفترض، على الأرجح، أن يكون نصف هذا المنزل لك يا آلي في أيّ حال.

عندئذٍ سألته:

- على فكرة، ما معنى فروسكهاوست؟

- «منزل الضفدع». يبدو أنّ هورست أخبر فيليكس أنه تعوّد الاحتفاظ بنسخة عن الضفدع الذي كان غريغ يحمله معه ويضعه على حمّالة الورق فوق البيانو. لا أعلم ما الذي حصل له لكن لعلّ تسمية المنزل لها علاقة به.

- حسنًا، أعتقد أنّ هذا ممكن.

وابتسمت حين وضع توم حقيبتي في البهو ثم أدخلت يدي في أحد الجيوب الجانبيّة وأخرجت ضفدعي الصغير:

- انظر، هذا هو الدليل الآخر الذي تركه لي پاپا سولت. رأيت عشرات الضفادع المشابهة له في متحف غريغ.

أخذه توم من يدي وراح يتأمّله ثم ابتسم لي وقال:

- كان يرشدك إلى هذا المكان يا آلي. إلى منزلك الحقيقي.



أجرينا أنا وتوم فحصًا جينيًا وأصرّ فيليكس على أن يقدّم عيّنات من لعابه ومن بُصيلات شعره. وفي خلال أسبوع، صدرت نتائج رسميّة تؤكّد أنّني الأخت التوأم لتوم وأنّ فيليكس والدي الذي عثرت عليه مؤخّرًا.

قلت ونحن نقرأ البيانات في الرسالة التي تضمّنت النتائج:

- يبدو أنّنا لسنا متطابقين لأنّنا من جنسين مختلفين. لكل واحد منا مواصفات حمض نووي مختلفة.

- يبدو ذلك. أنا أجمل منك بكثير يا أختي الكبيرة.

- شكرًا.

- على الرحب والسعة. إذًا، هل نتصل بوالدنا الضال ونطلعه على الخبر السعيد؟

وافقت على اقتراحه:

- لمَ لا؟

حضر فيليكس رسميًا تلك الليلة حاملًا معه زجاجة من الشمبانيا وأخرى من الويسكي لاستعماله الخاص. وتبادلنا نحن الثلاثة الأنخاب لأننا نتشارك الإرث الجينيّ نفسه. لاحظت أنّ توم ما يزال متحفّظًا حيال والده لكنه يبذل جهدًا كبيرًا من أجلي. كما لاحظت أنّ فيليكس يحاول أن يعوّض ويكفّر عن أخطائه. خطر لي، وأنا أرتشف الشمبانيا، مع أبي وأخي أنّ هذه على الأقل بداية.

نهض فيليكس ليغادر وترنّح بينما هو يتوجّه نحو الباب.

سألته وهو يضع خوذته ويثبّتها:

- هل أنت واثق من أنك قادر على قيادة هذا الشيء نحو التلال؟

نخر فيليكس وأجاب متذمّرًا:

- إني أفعل هذا منذ حوالى أربعين عامًا يا آلي ولم أقع عنها بعد. لكنني أشكرك على السؤال. مرّ وقت طويل لم يهتم فيه أحد لأمري بما يكفي ليسألني. تصبحين على خير وشكرًا.

وصاح وهو يثير متعثرًا ليبتلعه الظلام:

- لا تتصرّفي كشخص غريب، هلّا فعلت؟

بعد أن أغلقت الباب خلفه، تنهّدت بعد أن أدركت أنّ عليّ ألّا أظهر الشفقة التي أشعر بها حيال فيليكس أمام توم.

لكنّ شقيقي التوأم قرأ أفكاري كالمعتاد.

وما أن عدت أدراجي إلى الغرفة وتوجّهت صوب المدفأة لأدفئ يديّ الباردتين حتى قال:

- لا بأس.

- ما الذي لا بأس به؟

- أن تشعري بالأسف حيال فيليكس. في الواقع، أشعر، أنا نفسي، بالأسف حياله رغمًا عني. لست جاهزًا بعد لكي أسامحه على ما فعله بأميّ، لكن أن يرى أمّه ميتة في الشارع وأن ينتحر والده بعد ذلك بساعات...

وهزّ توم كتفيه قبل أن يردف:

- حتّى وإن كان لا يتذكّر التفاصيل، لا يمكن للشعور أن يكون أسوأ، أليس كذلك؟ ومن يعلم ما هي الندوب التي خلّفها الأمر في داخله؟

وافقته الرأي وقلت:

- نعم، من يعلم؟

- في أيّ حال، يكفي كلامًا عن فيليكس يا آلي.

وزفر توم ثم حدّق إليّ قبل أن يردف:

- لديّ شيء آخر أودّ أن أطلعك عليه.

- حقًّا؟ تبدو جدّيًا للغاية، أتساءل إن كنت ستخبرني أنّ لي أخًا آخر أو أختًا أخرى.

مازحني قائلًا:

- ينبغي أن يعلمنا فيليكس بذلك ومن يدري؟ لكن هذا شيء...

وبذل توم جهدًا ليجد الكلمة الصائبة ثم أضاف:

- جوهريّ أكثر.

- لا أستطيع أن أتخيّل ما هو الأمر الجوهريّ أكثر من أن أكتشف أنني في الواقع من عائلة هالڤورسن بالولادة.

- آلي، لقد أصبتِ الحقيقة عن غير قصد. والآن، أريد أن أريك شيئًا ما.

وقف ثم توجّه عبر الغرفة نحو مكتب صغير في الزاوية، حيث أخذ مفتاحًا من مزهريّة موضوعة عليه. فتح أحد الأدراج وأخرج ملفًّا ثم عاد ليجلس على الكنبة إلى جانبي. لم أنطق بأيّ حرف بل انتظرت حتى يستجمع أفكاره مهما تكن.

- حسنًا، هل تذكرين كم كنتِ مغتاظة بعد أن قرأت سيرة حياة جانس هالڤورسن التي روى فيه قصته هو وآنا؟ وكيف لم تستطيعي أن تصدّقي أنّ آنا رضيت بعودة جانس إلى حياتها من دون أن تهمس بحرف واحد، بعد أن هجرها في لايبزيغ لسنواتٍ طوال؟

- بالطبع أتذكّر. وما أزال لا أفهم دوافعها. قال جانس بنفسه في الكتاب إنّه ظنّ أنها تخلّت عن الحب وعنه. وبعد أن وُصفت بالشخصيّة المشاكسة والانفعاليّة، يستحيل أنّ أصدّق أنها رضيت بعودته كما فعلت.

- تمامًا.

وحدّق إليّ توم مجدّدًا فشجّعته قائلةً: «أنطقْ بالأمر إذًا».

- ماذا لو كانت مضطّرة لأن تفعل هذا؟

- مضطّرة لأن تفعل ماذا؟

- أن ترضى بعودته؟

- أتعني من أجل الشكليّات؟ لأن النساء في تلك الأيام لم يكن بإمكانهنّ أن يطلّقنَ من دون إثارة فضيحة؟

- نعم، لكن ليس تحديدًا. أنت بالتأكيد على الطريق الصحيح في ما يتعلق بأخلاقيات تلك الحقبة.

قلت له:

- توم، لقد جاوزت الساعة الحادية عشرة ليلًا، وأنا لست مستعدة للعبة العشرين سؤالًا. أخبرني بما ترمي إليه.

- حسنًا يا آلي. لكنْ، وقبل أن أتكلّم، عليك أن تقسمي على أن تحافظي على السرّية التامّة. وهذا يشمل فيليكس، والدنا. لم أخبر أيّ مخلوق بهذا من قبل.

- توم، تبدو الآن وكأنّك وجدت الفروة الذهبيّة مدفونةً هنا تحت فروسكهاوست. أرجوك أخرج هذه الجوهرة.

- آسف، لكنّ المسألة حسّاسة جدًّا. حسنًا، المسألة هي أنني حين كنت أجري بحثًا عن علاقة جانس وآنا هالڤورسن بغريغ من أجل كتابي، سرت على خطاهم وقصدت لايبزيغ. وهذا ما وجدته.

وأخذ توم مظروفًا من الملف وسحب ورقة من داخله ثم سلّمني إياها قائلًا:

- عليك أن تلقي نظرة عليها.

تفحّصتها فوجدت أنها شهادة ميلاد باسم إدوارد هورست هالڤورسن، فعلّقت قائلةً:

- جدّنا الأكبر. وماذا في ذلك؟

- أنا واثق من أنك لن تتمكّني من أن تسترجعي المسألة من الذاكرة، لكن جانس وصف في سيرته الذاتية كيف عاد إلى لايبزيغ في نيسان 1884.

- لا، لا أتذكر صدقًا.

- حسنًا، إليك نسخة عن الصفحة المعنيّة في الكتاب.

ناولني الورقة ثم تابع كلامه:

- وضعت علامة على المقطع المعني. استنادًا إلى شهادة الميلاد، وُلد هورست في 30 آب 1884. بالتالي، هذا يعني أنّ آنا أنجبت طفلًا حيًّا بعد أربعة أشهر من الحمل. وهذا مستحيل، حتى بعد قرن.

تأمّلت التاريخ على شهادة الميلاد ووجدت أنّه محق. قلت:

- حسنًا، لعلّ جانس نسي الشهر الذي عاد فيه إلى لايبزيغ بالتحديد؟ في النهاية، كتب السيرة بعد مرور وقت طويل، بعد سنوات طويلة من وقوع الأحداث.

- هذا ما خطر لي أنا أيضًا في بادئ الأمر.

- هل تحاول أن تقول إنّ الطفل الذي حملت به آنّا- بمعنى آخر هورست- لا يمكن أن يكون ابن جانس؟

- نعم، هذا ما أقوله.

وهبط كتفا توم فجأة، سواء من الارتياح أو القنوط أو الخوف. ولعلّ شعوره كان خليطًا من الثلاثة.

- حسنًا، أنا معك حتى الآن. لكن ما الذي اكتشفته لاحقًا وأكّد لك هذه النظريّة؟

- هذا.

وأعطاني توم ورقة أخرى من الملف. استطعت أن أرى أنها نسخة عن رسالة قديمة كُتبت بالنروجيّة. وقبل أن أشكو من عجزي عن قراءتها، سلّمني ورقة أخرى قائلًا:

- هذه الترجمة إلى الإنجليزية.

- شكرًا لك.

وقرأت المحتوى الذي كان مؤرّخًا بتاريخ آذار 1883.

- إنها رسالة حب.

- نعم، إنها كذلك. وهناك كثير منها من المصدر نفسه.

سألته وأنا أرفع ناظريّ إليه:

- توم، من مرسل هذه الرسالة؟ من هو «الضفدع الصغير» كما وقّع بنفسه؟

وقبل أن يتمكّن من الرد على سؤالي، أدركت الإجابة فهمست:

- آه، يا إلهي، لا داعي لأن تخبرني. قلت إن هناك مزيدًا؟

- عشرات منها. كان مراسلًا غزير الإنتاج. لقد كتب حوالى عشرين ألف رسالة إلى أشخاص مختلفين خلال حياته. قارنت الخط مع الرسائل الموجودة في متحف بيرغن. إنه هو بالتأكيد.

قلت، وأنا أبتلع ريقي بصعوبة:

- إذن، أين وجدت هذه؟

- كانت هنا في هذه الغرفة في متناول الجميع وذلك على مدى السنوات المئة وعشر الماضية.

- أين؟

وتأمّلت غرفة الجلوس.

- وجدت مخبأها عن طريق الصدفة. وقع مني القلم تحت البيانو فجثوت على ركبتيّ لألتقطه، واصطدم رأسي بأسفله. رفعت نظري إلى الأعلى ولاحظت وجود حافّة خشبيّة ضيّقة، لا يتعدّى عمقها الإنش الواحد، أُضيفت إلى الإطار. تعالي، سأريك ما أعنيه.

جثونا نحن الاثنين على ركبتيْنا ونزلنا تحت البيانو لنرى ما عناه بكلامه. وهناك، في وسط البيانو تحت قسم الأوتار، رأيت درجًا واسعًا من رقائق الخشب مثبّتًا إلى القاعدة. مدّ توم يده وأمسك به من الأسفل ثم سحبه من الأقواس الخشبيّة الضيّقة.

قال وهو يزحف خارجًا من تحت البيانو، واضعاً الدرج على الطاولة:

- أرأيت؟ هناك العشرات منها.

رفعت بعناية الرسالة تلو الأخرى، ورحت أتأملها بذهول. كان الحبر على الورق الأصفر باهتًا إلى حدّ أنه لا يكاد يُقرأ-حتّى لو كنت قادرة على قراءة النروجية- لكنّني استطعت أن أكتشف أنّ التواريخ تتراوح ما بين العام 1879 والعام 1884 وأنّ الرسائل كلها تحمل توقيع «الضفدع الصغير».

وتابع توم كلامه:

- على الرغم من أنه لطالما كان معروفًا باسم هورست إلا أنك لاحظت بالتأكيد أنّ اسم جدّنا الأكبر هو في الأصل «إدوارد» على شهادة الميلاد.

قلت وأنا أحدّق إلى الخط الجميل على إحدى الصفحات أمامي: «أنا... لا أعلم ماذا أقول. هذه الرسائل من إدوارد غريغ إلى آنّا. هي بالتأكيد كنز. هل عرضتها على مؤرّخ؟

- كما قلت لكِ سابقًا يا آلي، لم يرَها أحد آخر غيرك.

- لكن، لمَ بحق الله لم تدرجها في كتابك؟ إنها دليل قاطع على وجود علاقة بين غريغ وآنا هالڤورسن.

- في الواقع، إنها تثبت ما هو أبعد من ذلك. بعد أن قرأتها كلّها تبيّن لي، ومن دون أدنى شك، أنهما كانا عشيقين لما لا يقل عن أربع سنوات.

- واو.. حسنًا. لو صحّ هذا، فأنا واثقة من أنك كنت لتبيع ملايين النسخ من كتاب يتضمّن مثل هذا الكشف المثير عن واحد من أشهر مؤلّفي الموسيقى في العالم. لا أفهم لِمَ لم تفعل ذلك يا توم.

قال عابسًا:

- آلي، تستطيعين بالتأكيد أن تخمّني لِمَ لم أفعل. ألم تدركي بعد السبب الذي منعني؟

أجبته بعصبيّة:

- دعك من المحاضرات يا توم. أنا أحاول أن أرى المشهد الكامل، لكن امنحني بعض الوقت. هذه الرسائل تؤكّد أنّ آنّا وغريغ كانا عاشقين، وأفترض أنّك تعتقد أنّ غريغ هو والد طفل آنّا؟

- أعتقد أنّ هناك احتمالًا كبيرًا، نعم. أتتذكرين أنّي أخبرتك أنّ غريغ نفسه هو من ذهب إلى باريس وأخرج جانس من مجاريها؟ حصل هذا في أواخر العام 1883، عندما كان منفصلًا عن زوجته نينا لما يقارب العام ويقيم في ألمانيا. وفي ربيع العام 1884، بعد أن ظهر جانس مجدّداً على عتبة باب آنّا، عاد غريغ إلى نينا في كوبنهاغن. ووُلِد إدوارد هورست هالڤورسن في آب.

همست في محاولة مني لاستيعاب ضخامة مثل هذا الاحتمال:

- إدوارد هورست هالڤورسن، ابن غريغ.

- وكما قلتِ بنفسك بعد أن قرأتِ القصة، لماذا تكبّد غريغ عناء الذهاب إلى باريس والبحث عن جانس بعد مرور ست سنوات على رحيله؟ ولماذا كانت

آنّا مستعدة لتقبّل عودته بسهولة؟ إلا إذا عقدت اتّفاقًا بينها وبين غريغ من أجل الأولويّات. علينا أن نتذكّر أنّ غريغ حينذاك كان واحدًا من أشهر الرجال في أوروبا. وعلى الرغم من أنه مقبول أن يُشاهد برفقة سيدات موهوبات مُلهَمات مثل آنّا، لكنّه ما كان ليخاطر بتلويث سمعته بعمل وضيع، مثل أن يُقال عنه إنّه أبٌ لطفل غير شرعيّ. ولا تنسي أنّ غريغ كان منفصلًا عن نينا في ذاك الوقت وثمة أدلة موثّقة من البرامج الموجودة في الأرشيف تشير إلى أنه جال في ألمانيا برفقة آنّا لإقامة حفلات موسيقيّة. ربما كان هناك شائعات بشأن علاقتهما، لكن عودة زوجها وظهوره في الصورة وضعا من دون شكّ حدًّا للتكهّنات عند ولادة الطفل بعد بضعة أشهر. انتقل جانس وآنا إلى بيرغن خلال العام نفسه وتم تقديم الطفل في النروج على أنه طفلهما.

- ورضيت آنّا لاقتناعها بأنّ هذا ما عليها أن تفعله؟ أن تعيش كذبة؟

- عليك أن تتذكّري أنّ آنّا كانت مشهورة أيضًا حينذاك. وأيّ فضيحة بشأنها كانت لتضع حدًّا لمسيرتها المهنيّة كمغنيّة. أدركت أنّ غريغ لن يطلّق نينا. ونحن نعلم أن آنّا امرأة واقعيّة وحساسّة. أراهن على أنهما أعدّا هذه الخطة في ما بينهما واتّفقا عليها.

- لكنْ إن كنت محقًّا وقد عاد جانس ليجد آنّا حاملًا في شهرها الرابع أو الخامس، فلمَ بقي؟

- لعلّه أدرك أنه إن لم يفعل، فسيموت بعد فترة وجيزة غارقًا في الفقر المدقع في شوارع باريس. وأنا شبه متأكّد من أن غريغ وعد بأن يفعل كل ما في وسعه ليساعد جانس على أن يشقّ طريقه في النروج ويبرز كمؤلّف. أترين المشهد يا آلي؟ كان هذا الوضع مناسبًا الجميع.

- وفي غضون سنة، أصبح الثنائيان جارين. يا إلهي يا توم، أتعتقد أنّ نينا شكّت يومًا في ما جرى؟

- لا أعلم. مما لا شكّ فيه أنها أحبّت إدوارد وهو أحبّها، لكنّ الزواج من شخص بهذه الشهرة يتطلّب دفع ثمن، وأظنّ أنّ هذا هو الحال على الدوام. لعلها

رضيت واكتفت بعودة زوجها إليها. وكان هناك هورست طبعًا. إنّ العيش على بُعد خطوتين يعني أنّ غريغ كان قادرًا على أن يرى ابنه المُحتمَل بقدر ما يشاء من دون أن يثير الشبهات. تذكّري أنه لم يُرزق بأطفال مع نينا. في إحدى رسائله العديدة التي كتبها إلى مؤلّف صديق له، قال غريغ إنه شغوف بالطفل هورست.

- إذًا، كان على جانس أن يتقبّل هذا الوضع.

- نعم. أعتقد شخصيًا أنّه عوقِب عقابًا حقيقيًا على هجره لآنا. لقد عاش طيلة عمره في الظل الموسيقي لغريغ، واضطر بالتأكيد إلى أنْ يربّي طفله غير الشرعيّ على أنه طفله.

- لمَ كتب سيرته هو وآنا إذًا، إن كان بينهما مثل هذا السرّ؟

- لعلّك تعلمين أنّ آنا تُوفّيت في السنة نفسها التي توفي فيها غريغ. كان هذا عندما بدأت مؤلّفات جانس الموسيقيّة تبرز وتشتهر. أعتقد أنّ الكتاب كان مجرّد مسعى لكسب المال من الشهرة التي شعر جانس أنه لم يحقّقها حتى الساعة. في تلك الأيام، كان الكتاب من أكثر الكتب مبيعًا وقد جعله على الأرجح يكسب مبلغًا كبيرًا من المال.

علّقت قائلةً:

- كان عليه أن يظهر حرصًا أكبر على التواريخ.

من كان ليعلم يا آلي؟ إلا إذا قصدوا لايبزيغ بحثًا عن وثيقة ولادة هورست الأصليّة كما فعلت أنا.

- نعم، بعد أكثر من مئة وعشرين عامًا. توم، كل هذا مجرّد تكهّنات.

- انظري إلى هذه.

وأخرج من ملفّه ثلاث صور ثم أضاف:

- هذا هو هورست في شبابه، وهذان هما والداه المحتملان. والآن، من يشبه أكثر برأيك؟

تأمّلت الصور ورأيت أنّ الشكل لا يكاد يُذكر، لكني قلت:

- كانت عينا آنّا زرقاوين، وبشرتها بيضاء مثل بشرة غريغ، لعل هورست ورث مظهره الخارجيّ من والدته.

وافقني توم الرأي:

- هذا صحيح. يستند هذا كله إلى الأدوات الوحيدة المتوافرة بين أيدينا عندما نبحث في الماضي: الأدلّة الموثّقة، ومروحة واسعة من الفرضيّات.

لم أعد أصغي بشكل كامل إلى توم بعد أن راح معنى كلامه هذا يتضح لي فجأة. وقلت له:

- إذًا، إذا صحّ كلامك، فهورست وفيليكس وأنا وأنت...

- نعم. كما قلت في البداية يا آلي، قد لا تكونين، بدقيق العبارة، من عائلة هالڤورسن.

- جديًا يا توم، هذا أكثر ممّا يمكن للعقل استيعابه. هل باستطاعتنا أن نثبت هذا الكلام بطريقة أو بأخرى، لو أردنا ذلك؟

- بالتأكيد. فجون، شقيق غريغ، رُزق بأولاد وما يزال أحفاده على قيد الحياة. باستطاعتنا أن نعرض عليهم الأدلة، ونسألهم إن كانوا يوافقون على إجراء فحص الحمض النووي. فكّرت في التواصل معهم مئات المرّات لكنني عدت وفكّرت في الضجّة التي يمكن أن يحدثها هذا الأمر، وبالضرر المُحتمَل الذي يمكن أن يلحق بسمعة غريغ النظيفة، فتساءلت عن النفع؟ حصل هذا قبل أكثر من مئة وعشرين عامًا وأنا أفضّل شخصيًا أن أحصل على الدعاية لموسيقاي للأسباب الصحيحة، وليس لأنّني أعتمد على فضيحة تاريخيّة ما. وبالتالي، اتّخذت القرار بأن أترك الماضي يرتاح في الماضي. ولهذا السبب لم أورد ما اكتشفته في الكتاب. عليك أن تتخذي قرارك أنت أيضًا يا آلي ولا أستطيع أن ألومك لو رغبت في أن تتأكّدي، حتى لو كنت أفضّل أن نترك الأمر.

قلت له بابتسامة:

- يا إلهي يا توم. أمضيت ثلاثين سنة راضية بألّا أعرف شيئًا عن المكان الذي أتحدّر منه وعن العائلة التي أنتمي إليها أصلًا. بالتالي، أعتقد أنّ توليفة جينيّة جديدة واحدة تكفي في الوقت الحاليّ. وماذا عن فيليكس؟ قلت إنك لم تخبره؟

- لا، لأنني لا أستطيع أن أثق بأنه لن يعلن للجميع، وهو ثمل، أنه حفيد غريغ فيوقعنا في ورطة كبيرة.

تنهّدت وأجبته:

- أوافقك الرأي. واو، يا لها من قصة.

- نعم، لقد أزحتِ الآن هذا العبء عن صدري. هل ترغبين في كوب من الشاي؟



عرضت على توم شهادة ولادتي الأصليّة عندما وصلت بعد بضعة أيام. وكنت قد راسلت المستشفى وسجّل الولادات والوفيّات المحلي في تروندهايم، ليس بهدف الحصول على الدليل فحسب بل أردت أن أحصل على أيّ تفاصيل توضّح لي كيف عثر عليّ پاپا سولت.

قلت له:

- أترى، أطلقوا عليّ في الأصل اسم «فيليسيا»، تماشيًا مع فيليكس بحسب ما أفترض.

أجاب توم في محاولة منه لإغاظتي:

- أحببت هذا الاسم. إنه جميل جدًّا وأنثويّ.

عارضته قائلةً:

- أعتذر منك، لكنّ صفة أنثويّ لا تناسبني. آلي يناسبني أكثر.

وسلّمته وثيقة أخرى وصلت مع شهادة الولادة، تُفيد بأنّه تم تبنّيَ في الثالث من آب 1977. وحملت الوثيقة ختمًا بدا لي رسميًّا في أسفلها، لكن من دون أيّ تفاصيل أخرى.

كل وكالات التبنّي التي راسلتها أجابتني بأنها لا تملك أيّ ملفات أو وثائق تشير إلى عمليّة تبنٍّ رسميّة، وأنها تعتقد بالتالي أنّ عملية التبنّي كانت عملية خاصة. ما يعني أنّ پاپا سولت التقى مارتا في مرحلة ما.

ورحت أطرح التساؤلات في سرّي وأنا أعيد آخر رسالة إلى الملف.

فجأة، قال توم:

- خطر لي هذا للتو يا آلي. أخبرتني أنت كيف أنّ پاپا سولت تبنّى الفتيات الست، واسماهنّ على أسماء نجوم الثريّا. ماذا لو أنه هو من اختارك أنتِ ولم يخترني؟

فكّرت في كلامه ما خفّف ألمي على الفور. وقفت وتوجّهت نحوه بعد أن جلس إلى البيانو ثم أحطت عنقه بذراعيّ وقبّلته في أعلى رأسه.

- أشكرك على هذا.

نظرت إلى ورقة الموسيقا الموضوعة على المسند والمليئة بملاحظات كُتبت بقلم رصاص ثم سألته:

- ما الذي تفعله بهذه؟

- آه، أنظر إلى ما فعله الرجل الذي أوكل إليه دايڤد ستيوارت مَهمّة التوزيع الأوركسترالي لكونشيرتو البطل.

- وكيف تسير الأمور؟

- ما رأيته حتّى الآن لم يبهرني بصراحة. أشكّ كثيرًا في أن يكون الكونشيرتو جاهزًا لعزفه للمرّة الأولى في الحفل الموسيقي الذي سيُقام بمناسبة مئويّة غريغ في كانون الأول. نحن نشارف الآن على نهاية شهر أيلول، ويجب أن تكون ورقة الموسيقا النهائيّة في المطبعة في نهاية الشهر القادم لنتمكّن من تسليمها للأوركسترا للتمرّن عليها. بعد أن حصلت على موافقة دايڤد على إدراج الكونشيرتو في برنامج الحفل، ستحل كارثة إنْ لم ينتهِ العمل عليه لتقديمه، لكن هذه...

وهزّ كتفيه في حركة إحباط قبل أن يردف:

- لا تبدو لي صحيحة ومناسبة على الإطلاق. وهي بالتأكيد لا تتعدّى كونها خربشات لا تستحق أن أعرضها على قائد الأوركسترا.

قلت له:

- ليتني أستطيع أن أفعل شيئًا لمساعدتك.

وعندئذ، خطرت لي فكرة مفاجئة، لكنني لم أكن واثقة مما إذا كان عليّ أن أنطق بها.

سألني توم:

- ما الأمر؟

بدأت أدرك أنّ من المستحيل أن أخفي أيّ شيء عن أخي التوأم الذي وجدته حديثًا.

- إذا أخبرتك، فهل تعدني بألّا ترفض على الفور؟

- حسنًا، لن أفعل. هيّا، تكلّمي.

- فيليكس- أعني والدنا- يمكن أن يفعل هذا. إنه ابن بيپ في النهاية. أنا واثقة من أنه سيشعر بموسيقى والده.

- ماذا؟! آلي، هل فقدتِ صوابك تمامًا؟ أعلم أنّك تحاولين أن تجعلينا نؤدي دور العائلة السعيدة، لكنك تبالغين هنا. فيليكس سكّير وعديم الفائدة، وهو لم ينجز أيّ شيء طيلة حياته. لن أعطيه كونشيرتو جدّنا الثمين لكي يدمّره أو يصل إلى منتصف العمل ويستسلم، وهذا أسوأ. إن كان أمامنا أيّ فرصة لتقديم العرض الأول في الحفل، فهذا الطريق ليس هو الذي يجب علينا أن نسلكه.

لم أتراجع وبقيت مصرّةً على كلامي فقلت:

- أنت تعلم أنّ فيليكس ما يزال يعزف لساعات كل يوم؟ ولمتعته الخاصة فقط؟ وأنت نفسك أخبرتني مرارًا وتكرارًا أنّه عبقري وأنّه ألّف أعمالًا موسيقيّة خاصة به ووزّعها أوركستراليًا بنفسه بينما كان ما يزال مراهقًا.

- يكفي يا آلي. انتهى الموضوع.

قلت باستهجان وأنا أغادر الغرفة:

- حسنًا.

شعرت بالاستياء والإحباط. إنه أول خلاف يقع بيني وبين توم منذ أن التقينا.

وفي وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، غادر توم البيت للعمل مع الأوركسترا.

كنت أعلم أنه يحتفظ بأوراق بيپ هالڤورسن الموسيقيّة الأصليّة في المكتب في غرفة الجلوس. لم أكن واثقة إنْ كان ما سأُقدم عليه صوابًا أم لا. فتحت قفل المكتب وأخذت كومة الأوراق ثم وضعتها في حقيبة وحملت مفاتيح السيارة التي استأجرتها مؤخّرًا وغادرت المنزل.



- ما رأيك يا فيليكس؟

شرحت له القصّة التي أدّت إلى تأليف كونشيرتو البطل وأخبرته كم أنّنا نتوق إلى توزيع الموسيقى بشكل أوركسترالي. استمعت إليه وهو يعزف الكونشيرتو من البداية حتى النهاية. وعلى الرغم من أنه لم يره من قبل لكنّه عزفه من دون أيّ غلطة وباحترافيّة تقنيّة عالية وموهبة وذوق لا يتمتع بهما إلا عازف البيانو الموهوب.

- أعتقد أنه رائع فعلًا. يا إلهي، كم كان والدي موهوبًا.

بدا فيليكس متأثرًا، فاقتربت منه بشكل تلقائي وضغطت على كتفه قائلةً:

- نعم، كان موهوبًا، أليس كذلك؟

- من المؤسف أنّني لا أتذكّره على الإطلاق. أتعلمين أنّني لم أكن سوى طفل حين مات.

- أعلم هذا. ومن المؤسف ألّا تُعزف المقطوعة للمرّة الأولى في الحفل. ألن يكون رائعًا لو قُدّمت للجمهور؟

- نعم، نعم. مع التوزيع الأوركستراليّ الصحيح والمناسب... فعلى سبيل المثال، هنا في الحقول الأربعة الأولى، مزمار، ينضمّ إليه كمان هنا...

وأشار إلى التقطيع قبل أن يتابع كلامه:

- لكن مع دخول الطبول على الفور كمفاجأة.

ورسم الإيقاع بقلمين من رصاص وأردف:

- سيُصدم أولئك الذين يعتقدون أنهم يستمعون إلى عمل آخر من أعمال غريغ.

وابتسم بخبث، ورأيت بريقًا في عينيه وهو يمدّ يده ليأخذ بعض أوراق الموسيقا البيضاء ويملأها بالتوليفة التي وصفها للتوّ. قال وهو يعود للعزف من جديد:

- قولي لتوم إنها ستكون ضربة معلم. بعدئذٍ، تدخل الكمانات وترافقها الطبول مجدّدًا لتثير شعورًا بوجود خطر.

وسرعان ما ملأ سطورًا أخرى على ورقة الموسيقا. لكنه توقّف فجأة ورفع ناظريه نحوي قائلًا:

- آسف لأنني تحمّست. وأشكرك لأنك أطلعتني على هذا العمل.

- برأيك، كم من الوقت يتطلّب التوزيع الأوركستراليّ الكامل لهذا العمل؟

- ربّما يتطلب شهرين؟ ولعلّ السبب هو أنّ أبي كتبه في الأصل. لكنّني أستطيع أن أسمع كيف ينبغي أن يكون بالتحديد.

- ماذا عن ثلاثة أسابيع؟

حدّق إليّ ثم حرّك عينيه وضحك قبل أن يقول:

- أفترض أنك تمزحين؟

- لا، أنا لا أمزح. عليّ أنّ أحضّر لك نسخة عن الموسيقا على البيانو، لكن إن استطعت أن توزّع العمل أوركستراليًّا وتقدّمه لتوم بالشكل الرائع الذي قدّمته لي، فإنّني أشكّ في أن يتمكّن هو أو قائد الأوركسترا الفيلهارمونيّة في بيرغن من أن يقول كلمة لا.

جلس فيليكس صامتًا لبعض الوقت وهو يفكّر في الأمر ثم سألني:

- إذًا، أنت تتحدينني؟ هل تفعلين ذلك لتثبتي لتوم أنّني قادر على القيام بهذا العمل؟

- بغض النظر عن أنّ هذا العمل مدرج حاليًّا في برنامج الحفل الموسيقيّ الذي

سيُقام بمناسبة مئويّة غريغ في شهر كانون الأول، نعم، أنا أتحدّاك. أنت عبقري ورائع تمامًا بحسب ما سمعته للتو. وإذا سمحت لي أن أقول التالي: المهلة الزمنيّة تعني أنّ عليك أن تحافظ على تركيزك التام.

شخر فيليكس وعلّق:

- كان هذا خليطًا من المديح والإهانة أيّتها الشابّة. سأختار المديح لأنّك بالطبع محقّة. فمن الأفضل أن أعمل ضمن مهلة زمنيّة محدّدة لأنني كنت أفتقر كثيرًا لهذا في السنوات القليلة الماضية.

إذًا، هل ستحاول؟

- إذا أخذت هذه على عاتقي، فأؤكد لك أني سأفعل ما هو أفضل من المحاولة. سأبدأ الليلة.

- حسنًا، لكن عليّ أن آخذ الأوراق الأصليّة للمعزوفة معي. لا أريد أن يكتشف توم ما نفعله.

- لا تقلقي بهذا الشأن، فقد أصبحت محفوظة في ذهني.

وجمع فيليكس أوراق الموسيقا معًا ورتّبها في كومة ثم سلّمها لي مضيفًا:

- اتركي لي نسخة عنها في الغد. لكنني لا أريد بعد ذلك أن أراك هنا باستمرار لتتحقّقي ممّا يجري بينما أنا أعمل. وبالتالي، سأراك بعد ثلاثة أسابيع اعتبارًا من اليوم.

- ولكن..

قال فيليكس وهو يتبعني إلى الباب:

- من دون «ولكن».

- حسنًا، سأحضر لك النسخة في الغد. إلى اللقاء يا فيليكس.

- آلي.

- نعم.

- أشكرك لأنّك منحتني الفرصة.

45

خلال الأسابيع الثلاثة التي تلت، كنت أدور كثيرًا حول بيت فيليكس. كنت أعلم أنّ توزيع سمفونية للأوركسترا بشكل متقن يحتاج في العادة إلى شهور عدّة من العمل الدؤوب. وحتّى لو نجح فيليكس في إكمال الدقائق الخمس الأولى فقط، كنت آمل أن يكون ذلك كافيًا لإقناع توم بما سمعته بنفسي. وإن كان فيليكس لم يفعل شيئًا، فلا شيء نخسره، ولن يعلم توم أبدًا بذلك.

«يستحق الجميع فرصة ثانية»: هذا ما كنت أفكّر فيه حين سمعت باب المدخل يُفتح ويدخل توم إلى البيت بعد أن شارك في عزف أوبرا كارمن مع الأوركسترا، إذ إنّ موسم الحفلات الموسيقية قد بدأ. وبعدما ارتمى على الكنبة، مكفهرّ الوجه من الإرهاق، ناولته جعّة باردة من الثلاّجة.

- شكرًا، آلي. قد أتعوّد هذا. في الواقع، كنت أفكّر في بعض الأمور خلال الأيام الأخيرة.

- حقًّا؟

- هل قرّرتِ أين ستنجبين ثمبيلّينا؟

كان ذلك اسم الدلع الذي أطلقه توم على الطفل بعد أن سألني عن حجمه فاستعملت إبهامي لأجيبه، مسترشدة بكتابي الجديد عن الحمل.

- لا، لم أقرّر بعد.

- حسنًا، ما رأيك في البقاء هنا معي في فروسكهاوست؟ تقولين باستمرار إنك متلهّفة لتجديده، وأنا لا أملك الوقت الكافي للقيام بذلك. وباعتبار غريزة بناء العش التي كنت تقرئين عنها قبل أيام، ما رأيك في توجيه هذه الغريزة والشروع بالعمل؟

ثم داعبني قائلاً:

- وذلك مقابل الطعام والمسكن ومن ثمّ فإن الكلفة تتزايد بالنظر إلى شهيّتكما المزدوجة. وطبعًا لقاء الملكية القانونية لنصف المكان؟

- توم حقًّا؟ إنه ملكك أنت! ولن أفكّر أبدًا بأخذ نصفه منك.

- حسنًا، وما رأيك في استثمار بعض النقود، هذا إذا كنت تملكين نقودًا، في تحديث هذا المكان؟ أعتبر ذلك مقايضة منصفة. أترين؟ لست كريمًا بالقدر الذي اعتقدتِه.

- بإمكاني طبعًا أن أسأل غيورغ هوفمان، محامي «بابا». أنا متأكّدة من أنّه سيراه استثمارًا جيّدًا. لن يحتاج الأمر إلى مبلغ كبير لتجديد هذا المكان، مع أنني كنت أفكّر في أنّ ذلك الفرن المريع، المؤذي للعين، يجب أن يُقتلَع بالكامل ويُستبدَل به فرن حديث، وربما نحتاج إلى بعض التدفئة تحت الأرض لبقية المنزل. أوه، ونحتاج إلى تغيير المرجل وتجديد سباكة الحمّامات كلها، لأنني سئمت من تقطّع الماء الساخن عندما استحم، و...

ضحك توم ضحكة مكتومة وقال:

- ها قد بدأنا. يجب أن ندفع، على الأقل، مليون كرونة للقيام بالعمل كما ينبغي. قيمة المنزل حوالي أربعة ملايين، لذا سأدفع لك مبلغًا إضافيًّا صغيرًا لكونك مصمّمتي الداخلية. وعلينا أن نتّفق على أنّه إذا احتاج أحدنا إلى بيعه في المستقبل، فيحق عندها للآخر شراء حصّته. ولكن يا آلي، أعتقد أنّ المهم أن تشعري بأنكما أنت والطفل تملكان بيتًا خاصًّا بكما.

- لقد أبليت حسنًا حتى الآن بدون بيتٍ خاصٍّ بي.

- لكنّك لم تنجبي طفلاً قبل الآن. وكشخص ترعرع في بيت كانت أمّي تذكّرني باستمرار بأنه ليس ملكنا، أودّ ألّا يقلق ابن أختي أو ابنة أختي بشأن هذا الأمر. ربّما استطعت تقديم خدماتي كأبٍ ومرشدٍ حتى يظهر شخص آخر على الساحة». وأنا متأكّد من أنّ هناك مَن سيظهر في أحد الأيام.

- ولكن، يا توم، إذا بقيت هنا...

- نعم؟

- سيكون عليّ أن أتعلّم النروجية! وهذا مستحيل.

قال مبتسمًا:

- حسنًا، تستطيعين أنت والطفل أن تتعلّما معًا.

- وماذا سيحصل إذا وجد أحدنا أو كلانا شخصًا آخر؟

- كما سبق وقلت، بإمكاننا أن نبيعه، أو يشترى أحدنا حصّة الآخر. ولا تنسي أنّ هناك أربع غرف نوم. وباستثناء رفضي السماح لك بأن تكوني مع رجل لا أوافق عليه، ليس هناك من سبب يحول دون أن نعيش جميعنا هنا معًا. في أي حال، لا أعتقد أن هناك داعيًا للقلق ممّا قد يحدث. أليست هذه إحدى عباراتك المفضّلة؟

- كانت كذلك في الماضي، أما الآن فلديّ خطة لمستقبلنا.

- طبعًا لديك خطة. الأمومة تغيّرك منذ الآن.

حين تمدّدت في السرير تلك الليلة، فكّرت في أن توم كان على حق. لم أعدْ أفكّر بنفسي فقط ، ولكن في ما هو أفضل لطفلي. لا شكّ في أنّني كنت سعيدة هنا، وفي أمان وسكينة في هذا البلد الذي بدأت أحبّه. وكوني حُرِمت من إرثي الحقيقي زادت أهمية السماح لطفلي باحتضان إرثه. وسنقوم بذلك معًا.

في الصباح، قلت لتوم إنني أعتقد، بالمبدأ، أنّ فكرته رائعة، وإنّني أودّ كثيرًا أن أبقى وأنجب الطفل هنا. وأضفت:

- وسأرى أيضًا إن كنت أستطيع أن أجعلهم يأتون بيخت ثيو «السانسيكر» إلى هنا. حتى وإن كنت لن أتمكّن يومًا من استجماع الشجاعة الكافية لأصعد ثانية إليه. وربّما ترغب في اصطحاب ابنة أختك أو ابن أختك للتجوّل صيفًا في أزقّة النروج البحرية.

وافق توم قائلاً:

- إنها فكرة ممتازة. لكن، ولصالح الطفل، يا آلي، إن لم يكن لصالحك أنت، يجب عليك أن تعودي إلى البحر في وقت من الأوقات.

أجبت بنبرة جافّة:

- أعلم، ولكن ليس الآن. إن الشيء الوحيد الذي يشغل بالي هو ما الذي سوف أفعله بعد دور المصمّمة الداخلية وإنجاب طفلي.

قلت هذا ووضعت الرقائق التي يحبّها على طاولة الفطور.

- أرأيتِ؟ ها أنت تقومين بالشيء نفسه مجدّدًا، وتفكّرين في الاحتمالات المستقبلية.

- اخرس، يا توم. إنك تنظر إلى امرأة عملت طوال حياتها، وواجهت تحدّيًا كل يوم.

- ألا تظنّين أن الانتقال إلى بلد جديد وإنجاب طفل هو تحدٍّ كافٍ لك؟

- طبعًا هو كذلك في الوقت الحالي. ولكن بالرغم من أنّني سأكون أمًّا، فسيكون عليّ أن أقوم بشيء آخر أيضًا.

قال طوم بطريقة عابثة:

- بإمكاني على الأرجح أن أرمي لك بعظمة.

- ماذا تقصد؟

- هناك دائمًا مكان في الأوركسترا لعازفة فلوت بمثل موهبتك. في الواقع، كنت سأقترح عليك شيئًا.

- أوه، وما هو؟

- أنت على علم بـ «حفلة مئوية غريغ»، الحفلة التي كان من المفترض أن تشمل «كونشيرتو البطل»، لكنّها لن تشمله الآن على الأرجح. النصف الأول يتضمّن «سويت بير جينت» وكنت أفكّر كم سيكون مناسبًا لو قام فرد حقيقي من أسرة هالڤورسن بعزف الفواصل الافتتاحية لـ «مزاج الصباح». في الواقع، لقد ذكرت الأمر بالفعل لدايڤد ستيوارت وهو يعتقد أنها فكرة رائعة. فما رأيك؟

- هل تكلّمت فعلاً معه؟

- آلي، طبعًا تكلّمت معه. لم يتطلّب ذلك مني كثيرًا من التفكير و...

وأنهيت الجملة مكانه قائلة:

- حتّى إن كنتُ أكثر من فاشلة، فاسمي سيؤمّن لي العمل.

- الآن تقصدين أن تكوني بليدة الفهم! لقد سمعك تعزفين مع ويليَم في مسرح لوغن، هل تذكرين؟ ما الذي أحاول قوله هو أنّك لا تعرفين إلى أين يمكن

أن تقودك تلك الليلة. لذا فلن أقلق كثيرًا لو كنت مكانك بشأن إيجاد عمل إذا قرّرت أن تستقرّي هنا نهائيًا.

ضاقت عيناي بينما كنت أحدّق إلى وجهه.

- لقد وجدتَ حلًّا لكل شيء، أليس كذلك؟

- أجل، قد فعلت. مثلما كنتِ ستفعلين أنت أيضًا.



بعد ثلاثة أسابيع على إعطائي الكونشيرتو لفيليكس، وكنت أحسبها يومًا بيوم، طرقت باب بيته بخوف وقلق. لم يُجب أحد لبرهة فشككت في أنّ فيليكس ما يزال نائمًا بسبب إكثاره من الشرب بالرغم من أن الوقت قد قارب الظهر.

عندما وصل إلى الباب، بعينين متعبتين دامعتين، مرتديًا تي شرت وسروالاً داخليًا قصيرًا، غار قلبي في صدري.

- أهلاً، آلي. ادخلي.

- شكرًا.

فاحت في غرفة المعيشة رائحة كحول وتبغ كريهة، واشتدّ توتّري عندما رأيت زجاجات الويسكي الفارغة مصفوفة مثل ألعاب البولينغ على طاولة القهوة.

- آسف للفوضى. اجلسي.

ورفع غطاءً ومخدّة رثّين عن الكنبة.

- أخشى أن أكون قد نمت حيث سقطت في هذه الأسابيع الأخيرة.

- أوه.

- هل تشربين كأسًا؟

- لا شكرًا. أنت تعلم سبب وجودي هنا، أليس كذلك؟

قال وهو يمرّر يده في شعره الخفيف:

- بشكل مبهم. شيء له علاقة بالكونشيرتو؟

قلت بسرعة وقد أصبحت متلهّفة لمعرفة إنْ كان على قدر التحدّي:

- هذا صحيح، نعم. وما رأيك؟

- أجل... أين وضعته الآن؟

كانت هناك أكوام من أوراق النوتة مكدّسةً في أنحاء الغرفة، وأوراق كثيرة مجعّدة على شكل كرات. كانت هناك عند آخر زيارة لي وأصبحت اليوم تجمع الغبار وخيوط العنكبوت حيث أُلقي بها. راقبته بحزن وهو يبحث على رفوف الكتب وفي الأدراج المكدّسة وخلف الأريكة التي كنت أجلس عليها.

نظر إلى ما تحت البيانو وتمتم قائلاً:

- أعلم أنّني وضعته في مكان ما لأحفظه... ثم صاح بنبرة المنتصر وهو يرفع غطاء بيانو «البلوثنر» الكبير الرائع ويثبّته بقضيب خشبي «آها! ها هو». مدّ يده إلى داخل البيانو وأخرج رزمة ضخمة من أوراق النوتة. حملها إليّ وألقى بها على ركبتيّ اللتين كادتا أن تنهارا تحت ثقلها.

- أتممت كل شيء.

لاحظت أن الأوراق الأولى كانت تشكّل القسم الأصلي المخصّص للبيانو، محفوظًا في ملفٍ بلاستيكيٍّ شفّاف. والقسم التالي هو قسم الفلوت، والذي بعده للفيولا ومن ثمّ الدفوف، تمامًا مثلما شرح. قلّبت ملفًّا تلو ملفٍ من الموسيقا المدوَّنة بترتيب خالص، وعندما وصلت إلى قسم الآلات النحاسية، كنت قد نسيت عدد الآلات في الأوركسترا التي وزّع لها الموسيقا. رفعت نظري إليه بذهول مطلق ورأيته يبتسم لي باعتداد بالنفس.

- لو كنت تعرفينني منذ وقت أطول، يا ابنتي الجديدة العزيزة، لعلمت أنّني أرتقي دائمًا إلى مستوى أي تحدٍّ موسيقي، وبخاصة تحدٍّ مهمّ كهذا.

وقعت عيناي على زجاجات الويسكي على الطاولة أمامي وقلت:

- ولكن...

- وأتذكّر بوضوح أنّني أخبرتك أني أعمل بشكلٍ أفضل وأنا ثمل. شيء حزين ولكنه صحيح. في أي حال، كل أوراق الموسيقا هنا جاهزة لكي تأخذيها إلى ابني الحبيب وتحصلي على حكمه. شخصيًّا، أعتقد أننا، أبي وأنا، قد أنتجنا عملاً عبقريًّا.

- حسنًا، أنا لست مؤهّلة للحكم على الجودة، ولكن ممّا لا شك فيه هو أن مقدار العمل الذي أنجزته في الوقت المحدّد لك، هو معجزة.

- نهارًا وليلاً، يا عزيزتي، نهارًا وليلاً. حسنًا، بإمكانك الذهاب.

- حقًّا؟

- نعم، أريد أن أعود للنوم. لم أنلْ قسطًا كبيرًا من النوم منذ رأيتك آخر مرّة.

قلت: «حسنًا»، بينما كنت أنهض وأنا أضمّ الحزمة الضخمة إلى صدري.

- أخبريني بالحكم، هلّا تفعلين؟

- طبعًا سأخبرك.

- أوه، وقولي لتوم على لساني إنّ القسم الوحيد الذي لم يقنعني هو دخول الأبواق مع الأُبوا في الفاصلة الثالثة من الحركة الثانية. قد يكون مبالغًا به بعض الشيء. إلى اللقاء، آلي.

وبهذه الكلمات أُغلِق الباب بحزم خلفي.



ما إن وصل توم إلى البيت بعد العمل مع الأوركسترا عصر ذلك اليوم حتّى لاحظ أكداس أوراق النوتة الموضوعة على طاولة القهوة في غرفة المعيشة فسأل:

- ما هذا؟

فقلت بلا مبالاة:

- أوه هذا هو التوزيع الأوركسترالي الكامل لكونشيرتو البطل. هل تريد فنجان قهوة؟

- من فضلك.

ثم قام بردّ فعل متأخّر مضحك عندما أدرك ما الذي كان ينظر إليه.

مضيت بهدوء إلى المطبخ وسكبت القهوة ثم رجعت إلى غرفة المعيشة لأجد توم يقلّب الأوراق مثلما فعلت أنا بالضبط.

- كيف؟ متى؟ مَنْ؟

- فيليكس، في الأسابيع الثلاثة الأخيرة.

- أنت تمزحين!

- لا، لست أمزح.

أردت أن أرفع قبضتي إلى السماء بحركة انتصار أمام تعابير الدهشة على وجهه.

تنحنح وانخفض صوته أوكتافًا كاملاً وقال:

- حسنًا، بالطبع، لا أعلم ما مدى جودته، ولكن...

راقبته وهو يدندن قسم الأوبوا، و الفيولا، ثم انتقل إلى الدفوف وبدأ يضحك بينه وبين نفسه.

- رائع! يعجبني كثيرًا.

- هل أنت غاضب؟

- سأخبرك فيما بعد. نظر عندها إليّ ورأيت ودًّا واحترامًا حقيقيًّا في عينيه، ثم استأنف قائلاً:

- ولكن، للوهلة الأولى، قام فيلكس بعمل غير معقول. انسي القهوة، سأتصل بدايفد ستيوارت لألحقه قبل أن يغادر. سآخذه له الآن. أنا متأكّد من أنه سيُدهَش مثلنا.

ساعدته في جمع أوراق الموسيقى ولوّحت له بيدي عند الباب، متمنّيةً له التوفيق، وأنا أشعر ببهجة حقيقية.

نظرت إلى النجوم من باب المدخل وهمست: بيپ، سوف يحصل «بطلك» أخيرًا على عرضه الافتتاحي.

***

مع انقضاء الخريف شيئًا فشيئًا واكتساب خطط عرض الكونشيرتو الكامل مع التوزيع الأوركسترالي المُلهَم الذي وضعه فيليكس، زخمًا قويًّا، انشغلتُ بخططي

الخاصة. كنت قد اتّصلت بغيورغ هوفمان وشرحت له الوضع. ووافق على أن تجديد بيت، أملك جزءًا منه، يأويني أنا وطفلي يبدو فكرة سديدة. وقد أضفت مدّخراتي الضئيلة وإرث توم القليل إلى المبلغ المتوفّر وبدأت بعد ذلك بتجديد فروسكهاوست. كانت قد تشكّلت صورة في رأسي لمنتجع إسكندينافي جميل، بأرضيات وحيطان من خشب الصنوبر الفاتح، وأثاث من مصمّمين نروجيين شباب، وأحدث تكنولوجيا لتوفير الطاقة.

كنت أقلّب في ذهني فكرة أنّه ينبغي علينا أصلاً، أنا وتوم، أن نفعل الشيء الصحيح في ما يتصل بفيليكس، ونعطيه، على أقل تقدير، ثلث ملكيّة المنزل عندما نغيّر الصكوك لتشملني أنا. عندما واجهت فيليكس بموضوع حصّته في فروسكهاوست، ابتسم لي ابتسامة عريضة وقال:

- لا، شكرًا، يا عزيزتي. لطفٌ منك أن تعرضي ذلك، لكنّني سعيد جدًّا هنا في كوخي، ونعلم أنا وأنت أين سيذهب المال في أي حال».

بالإضافة إلى ذلك، كانت دار «إديسيون پيترز»- التي كانت تُعرَف بدار «س. ف. پيترز» عندما كانت تنشر مؤلفات غريغ منذ كل تلك السنوات في لايبزيغ- قد سألت في الأسبوع الماضي عن «كونشيرتو البطل» واتّفقت على التسجيل مع أوركسترا بيرغن الفيلهارمونية في السنة الجديدة. ولكون فيليكس الوريث الشرعي لحقوق العرض والنشر الخاصّة بعمل والده، بالإضافة إلى عمله الخاص على التوزيع الأوركسترالي، كان هناك احتمال كبير جدًّا بأن يكسب مالًا كثيرًا إذا ما حقّق الكونشيرتو نجاحًا مثلما اعتقد أندرو ليتّون.

بعد إراحة ضميري، وسواء كان السبب غريزة بناء العشّ أم لا، شعرت بأنني مفعمة بالتفاؤل والطاقة بينما أُجري مقابلات مع التجّار والبنّائين المحلّيين، وأستشير هيئات التخطيط، وأتمعّن في قراءة عدد لا يُحصى من المجلّات والمواقع الإلكترونية. فكّرت في شقيقاتي وكيف سيضحكن علي، لاهتمامي بالتصميم الداخلي. كما فكّرت في طبيعة هرموناتنا المسؤولة عن كثير من تصرّفاتنا البشرية.

أثناء تصفّحي دفترًا لعيّنات القماش، أدركت، وقد انتابني شعور بالذنب،

أنني لم أتصل بـ «ما» أو بسيليا بالقدر اللازم أثناء وجودي في بيرغن. والآن وقد تجاوزت «فترة الخطر» المُفترَضة، وهي الأشهر الثلاثة الأولى، يجدر بي أن أتّصل بهما وأطلعهما على آخر الأخبار.

طلبت رقم «ما» في جنيف أوّلاً.

- آلو؟.

- ما، هذه أنا، آلي.

- عزيزتي كم هو رائع أن أسمع صوتك.

ابتسمت ارتياحًا عند سماعي الدفء في صوتها وغياب أي لوم.

سألتْ

- كيف حالك؟

قلتُ بضحكة نمّت عن الأسف:

- حسنًا، هذا سؤال كبير بالمصادفة.

- وبينما كانت تقاطع كلامي هنا وهناك بتعابير الدهشة والعجب، أخبرتها كل شيء عن توم وفيليكس، وكيف أنّ أدلّة «پا سولت» قادتني إليهما.

قلت في النهاية:

- لذا، آمل أنك ستفهمين لماذا قرّرت البقاء في بيرغن لمزيد من الوقت. وهناك أمر آخر لم أخبرك به بعد يعقّد الأمور قليلاً؛ أنا حامل بطفل ثيو.

ساد الصمت لبرهة في الطرف الآخر من الخط، ثم سمعتها تستنشق الهواء تعبيرًا عن سرورها.

- ولكنْ هذا أروع خبر، يا آلي! أعني، بعد كل ما عانيتِه. متى موعد ولادة الطفل؟

- في الرابع عشر من آذار.

وفكّرت في أنّ كلامي في موضوع الحمل، وأنّه تمّ في يوم وفاة بابا أو قريبًا منه، لا لزومَ له، خاصّة بعدما أكّد التصوير الطبقي التاريخ الدقيق.

- أوه، آلي. إنّني في غاية السعادة من أجلك يا عزيزتي. هل أنتِ سعيدة أيضًا؟

- جدًّا.

- وأخواتك سيكنّ سعيدات أيضًا. سوف يصبحن خالات، وسيكون لدينا طفل جديد يزور أتلانتيس. هل أخبرتهنّ؟

- لا، ليس بعد. أردت أن أخبركِ أنتِ أوّلاً. كنت على اتصال بماريّا وستار وتيغي في الأسابيع القليلة الماضية، ولكن لم أتمكّن من الوصول إلى إلكترا بأي شكل من الأشكال. لم تردّ على نصوصي أو رسائلي الإلكترونية، وعندما اتصلت هاتفيًّا بوكيلها في لوس أنجلوس وتركت رسالة، لم يرد أحد على اتّصالي. هل كل شيء على ما يرام عندها؟

- أنا متأكّدة من أنّها منشغلة جدًّا لا أكثر. تعلمين كم أنّ برنامج عملها حافل.

جاء ردّ «ما» بعد ما ظننته وقفة صغيرة.

- على قدر ما أعلم، هي بخير.

- حسنًا، لقد ارتحت. ولكنْ عندما اتصلت بستار في لندن، طلبت التكلّم مع سيسي، فقالت ستار إنها ليست في البيت. ولم أسمع أي شيء من أي منهما منذ ذلك الحين.

- فهمت.

- هل لديك أيّ فكرة عمّا يجري؟

- لا، للأسف. ولكنْ مثلما قلتِ، أنا متأكّدة من عدم وجود أيّ سبب يجعلك تقلقين.

- ستخبرينني إذا سمعت أيّ شيء عنهما، أليس كذلك؟

- طبعًا يا عزيزتي. والآن، أخبريني مزيدًا عن خططك عند وصول الطفل.



بعدما أغلقت الخط في النهاية مع «ما»، ودعوتها هي، وأيًّا من شقيقاتي اللواتي تستطيع جمعهن، إلى حفلة مئوية غريغ في كانون الأول، طلبت رقم سيليا.

أردت أن أطلع سيليا وجهًا لوجه على موضوع الطفل، لعلمي كم ستكون لحظة مؤثّرة بالنسبة إليها. وكان هناك أيضًا مسألة رماد ثيو التي لم تُحَلّ بعد. ومثل «ما» بدت سيليا سعيدة بسماع صوتي.

- سيليا، أخشى ألّا يكون لديّ الوقت للكلام الآن، ولكنّني أتساءل إذا كان لديك أي مانع في أن آتي لأراك بعد بضعة أيام؟

- آلي، أنت لست بحاجة إلى السؤال. أهلاً بك في أي وقت. أحب كثيرًا أن أراك.

- وربما نستطيع الذهاب إلى لايمنغتون، لـ...

ولم أستطع أن أكمل كلامي بعد أن قلت هذه الكلمات.

أجابت بهدوء:

- أجل، لقد حان الوقت. سنقوم بذلك معًا، مثلما كان يريد.



بعد ذلك بيومين هبطت طائرتي في مطار هيثرو، وكانت سيليا بانتظاري في قاعة الوصول. بينما كنّا نخرج من المطار في سيّارتها الـ «ميني» العتيقة، ألقت عليّ نظرة سريعة.

- «آلي، آمل ألّا يكون عندك مانع، ولكنّنا سنذهب مباشرة إلى لايمنغتون بدلاً من شيلسي. لا أعلم إنْ كنت ذكرت لك يومًا أنني ما أزال أملك كوخًا هناك. إنه بيت صغير، ولكنّنا تعوّدنا، أنا وثيو، على التخييم هناك في العُطَل المدرسية، بحيث نتمكّن من الخروج معًا في المركب الشراعي. بدا لي من المناسب بشكل ما أن نمكث هناك.

مددت يدي وضغطتُ على يدها التي كانت تتشبّث بقوّة بمقود السيّارة.

- سيليا، يبدو ذلك رائعًا.

وكان كذلك. كان الكوخ الصغير المقوّس الواجهة يختبئ في قلب مركز بلدة لايمنغتون الجيورجي الطراز، تحيط به شوارع مرصوفة بالحصى وأبنية قديمة فاتحة

الألوان. ألقينا بحقائبنا في مدخل الكوخ الضيّق وتبعت سيليا إلى غرفة الجلوس المريحة ذات السقف المكوّن من العوارض الخشبية الظاهرة. أخذت يديّ بين يديها.

- آلي، قبل أن أريك غرفتك، أريد أن أنبّهك فقط: هذا الكوخ لا يحتوي إلّا على غرفتيْ نوم، إحداهما لي والأخرى... حسنًا، هي حيث تعوّد ثيو أن ينام، وما تزال تحتوي على ذكريات كثيرة.

تأثّرت كالعادة بلطفها ومراعاتها لي فطمأنتها قائلة:

- لا بأس، يا سيليا.

- ربّما تودّين أخذ حقيبتك إلى الطابق العلوي؟ سأشعل النار وأبدأ بتحضير العشاء. أحضرت معي بعض الأشياء المتفرّقة بحيث أتمكّن من تحضير شيء لنا بسرعة، إلّا إذا كنت تفضّلين تناول العشاء في الخارج؟

- أنا أكثر من سعيدة بالبقاء في البيت، شكرًا يا سيليا. سأعود على الفور لأساعدك.

نادتني قائلة:

- أوّل باب إلى اليسار في أعلى الدرج.

حملت حقيبة ظهري وتسلّقت الدرج. في الأعلى، رأيت بابًا خشبيًّا منخفضًا، حُفر عليه «كوخ ثيو» كيفما اتّفق. فتحت الباب فرأيت سريرًا ضيّقًا تحت النافذة ذات الألواح الزجاجية، عليه دبدوب بلون الكاراميل يرتدي كنزة بحّار صغيرة وقد أُسند إلى الوسائد. انتشرت فوق الجُدُر غير المستوية صور ليخوت، وفوق خزانة الأدراج الملوّنة عُلِّق طوق نجاة قديم الطراز مقلّم بالأبيض والأحمر. وخزت الدموع عينيّ وأنا ألاحظ التشابه مع غرفة طفولتي في أتلانتيس.

شعرت فجأةً بطيف ثيو من حولي فهمست قائلة: «يا رفيق روحي».

ثم جلست على السرير، والتقطت الدبدوب وضممته بقوّة إلى صدري، بينما كانت الدموع تسيل على وجنتيّ عندما أدركت تمامًا أن ثيو لن يرى طفله أبدًا.

ذلك المساء، تحدّثنا أنا وسيليا بإلفة ومودّة وهي تسكب يخنة الدجاج في الأطباق. كانت النار تطقطق في موقد غرفة الجلوس ورتّبنا جلستنا على الكنبة الطرية الباهتة اللون لتناول الطعام.

- هذا المكان يعطي شعورًا قويًّا بالدفء والراحة، يا سيليا، وأفهم لماذا تحبينه.

- كنت محظوظة أن ورثته عن والديّ. كانا بحّارين أيضًا وكان هذا الكوخ هو المكان المثالي الذي كنت أصطحب إليه ثيو أثناء نشأته. لم يحبّ بيتر كثيرًا الإبحار، وفي أي حال كان في تلك الأيام بشكل شبه دائم خارج البلاد لدواعي العمل. لذا، فقد أمضينا، أنا وثيو، قسطًا كبيرًا من الوقت هنا بطريقة أو بأخرى.

سألتها برقّة:

- بالحديث عن بيتر، هل وصلتك أي أخبار عنه مؤخّرًا؟

- الغريب في الأمر أنني على اتصال به. في الواقع أستطيع أن أقول إننا أصبحنا ودودين جدًّا في علاقتنا خلال الأسابيع القليلة الماضية. فهو يتّصل بي بانتظام، وهناك حديث حول مجيئه للبقاء معي في شيلسي في فترة الميلاد. إذ يبدو أن كلينا بدون ارتباط.

علا احمرار خفيف وجنتيْ سيليا الرقيقتين.

- أعلم أنّ ذلك قد يبدو مبتذلاً، ولكن، كأنّ وفاة ثيو أزالت، بشكل ما، بعضًا من المرارة التي بيننا.

- لا يبدو ذلك مبتذلاً على الإطلاق. أعلم أنه جرحك للغاية، يا سيليا، لكنّني أشعر حقًّا أنّه رأى الأخطاء التي ارتكبها وكيف آذتك.

- حسنًا. لا أحد كامل، يا آلي. وربّما نضجت أنا أيضًا ورأيت بعض الأشياء التي أخطأت فيها. وأعلم تمامًا أنه عندما وُلِد ثيو، أصبح دنياي طوال سنوات. أبعدت بيتر عني، وكما أدركتِ على الأرجح، هو لا يقبل الإهمال.

- أستطيع أن أتصوّر ذلك. لكنّني سعيدة لأنكما أصبحتما من جديد على علاقة طيّبة، على الأقل.

- أخبرته أنّنا سنأتي، أنا وأنت، لنثر رماد ثيو غدًا صباحًا عند الفجر، ولكنّني لم أسمع منه أي شيء بعد ذلك. هذا هو سلوك بيتر النموذجي.

تنهّدت سيليا وتابعت قائلة:

- لم يكن يومًا يجيد التواصل في الأمور المهمّة.

قالت مجدّدًا:

- في كل حال، كفى كلامًا عني. أريد أن أسمع عن كل ما تفعلينه في النروج. لقد ذكرت من قبل في السيّارة أنك تتتبّعين الأدلة التي تركها لك والدك. إذا كنت تشعرين أنك قادرة على ذلك، أودّ أن تخبريني القصة كاملة.

خلال الساعة التالية، رويت لها تفاصيل بحثي الغريب لاكتشاف جذوري. وكما في حديثي مع ماما، كان التفصيل الوحيد الذي أغفلته هو الصلة الوراثية المُحتمَلة بإدفارد غريغ. ومثل توم، شعرت أنه إيضاح من الأفضل إبقاؤه لنفسي. فبدون إثبات دامغ، لم يكن له أي معنى، وكان بالتالي غير مهم.

صاحت سيليا متعجّبة بعدما انتهيت، ووضعنا جانبًا صواني عشائنا:

- حسنًا، أعترف بأنني مذهولة! لقد وجدت لنفسك شقيقًا توأمًا جديدًا، ووالدًا أيضًا. إنه تطوّر كبير في الأحداث. كيف تشعرين حيال كل ما جرى؟

قلت مبتسمة:

- أنا في الواقع سعيدة للغاية. فتوم... يشبهني كثيرًا. وأرجو ألّا أكون عديمة الإحساس عندما أقول إنّني فقدت مرشدي عندما فقدت پاپا سولت وفقدت رفيق روحي عندما فقدت ثيو، لكنّني وجدت رجلاً آخر أستطيع التواصل معه، ولكن بطريقة مختلفة تمامًا.

- آلي، حبيبتي. أعتقد أن ذلك رائع حقًّا! يا لها من رحلة قمتِ بها خلال هذه الأسابيع القليلة الماضية.

- في الواقع، يا سيليا، لم تنتهِ الرحلة تمامًا بعد. هناك شيء آخر عليّ أن أخبرك به.

نظرت إلى عينيها، فرأيت فيهما تساؤلاً وحيرة، ثم أخذت نفسًا عميقًا وقلت:

- سوف تصبحين جدّة.

تحوّلت نظرةُ الحيرة في عينيها نظرةَ عدم فهم مؤقت، حين تغلغلت كلماتي في ذهنها. ثم افترّ فمها عن ابتسامة من السعادة الغامرة ومدّت ذراعيها عبر الأريكة لتحضنني في عناق شديد.

- آلي، أكاد لا أجرؤ على التصديق. هل أنت متأكّدة؟

- متأكّدة تمامًا. أكّد طبيب في بيرغن الحمل، ومنذ أسبوع، ذهبت لإجراء تخطيطي الأول.

نهضت عن الكنبة لأخذ حقيبتي، وتحسّست محتواها حتى وجدت ما كنت أبحث عنه. أخرجت الصورة المشوّشة بالأبيض والأسود ومددتها لها.

- أعلم أن ذلك لا يبدو واضحًا، ولكنْ هذا حفيدك، يا سيليا.

أخذت الصورة وتفحّصتها، فتتبّعت أصابعها محيط الشكل غير الواضح للحياة البالغة الصغر، التي كانت تنمو في داخلي.

قالت أخيرًا وقد تهدّج صوتها من التأثّر:

- آلي... هذا أجمل شيء رأيته في حياتي.

بعد أن ضحكنا وبكينا وحضنت كلٌّ منّا الأخرى مرّات عدّة، عدنا للجلوس على الأريكة وكلتانا في حالة من الخدر.

قالت سيليا:

- على الأقل أستطيع الآن أن أفكّر في مهمتنا غدًا ببعض الأمل في قلبي. بالحديث عن مهمتنا، ولأنه يجب علينا ذلك، لديّ زورق شراعي صغير أحتفظ به في المرسى. يبدو لي أن الأمر البديهي الذي يجب فعله هو أن نبحر بالزورق عند الفجر... ونضعه في مثواه الأخير في البحر.

قلت متلعثمةً:

- أنا متأسـ ... سفة جدًا، لكنّني لا أستطيع. بعد وفاة ثيو، أقسمت ألاّ أعود إلى الإبحار مجددًا. آمل أن تتفهّميني.

- أتفهّمك يا عزيزتي، ولكن أرجوك، فكّري في الأمر. مثلما قلت بنفسك، لا نستطيع طمس الماضي ببساطة. أظنّك تعلمين أن ثيو كان سيكره التفكير في أنه أبعدك عن شغفك.

في تلك اللحظة علمت أنه مهما يكن ذلك صعبًا، فقد كنت مدينة لثيو ولطفلنا بالعودة إلى متن مركب.

قلت في النهاية:

- سيليا، هذا تمامًا ما يجب علينا فعله.





استيقظت في الصباح التالي على جرس منبّه هاتفي المحمول قبل شروق الشمس، وكنت مشوّشة لبعض الوقت قبل أن أشعر بشيء خشن على خدّي. بعد أن أضأت المصباح بجانب السرير، رأيت دبدوب ثيو العتيق ممدّدًا على الوسادة بجانبي. مددت يدي لأمسك به ودفنت أنفي في فروه الخشن، كما لو كنت أستطيع، بشكل ما، أن أستنشق روح ثيو نفسها. نهضت من السرير وارتديت بسرعة بنطالًا ضيّقًا وكنزة صوفية سميكة ثم نزلت إلى تحت، حيث وجدت سيليا تنتظرني. لم يحتج الأمر إلى أي كلام وأنا أحدّق إلى الجرّة الزرقاء العادية «البريئة» التي كانت تحملها.

كانت شوارع لايمنغتون خالية تمامًا عندما خرجنا معًا من الكوخ ونزلنا باتجاه المرسى في الضوء اللبني الشاحب الذي يسبق الفجر. وعندما توقّفنا على الرصيف الخشبي، حيث كان زورق سيليا راسيًا، كان زورق الصيد المجاور علامة النشاط الوحيدة الأخرى في المكان. حيّانا عضوا الطاقم بإيماءة رأس سريعة، قبل أن يتابعا مهمتهما في رتق الشباك استعدادًا لصيد اليوم.

- تعلمين، لو كان ثيو حيًّا لأحبّ هذا. إيقاع المد والجزر والبحر الأبدي، الذي يستمر مثلما كان منذ بداية الزمن.

- أجل، كان أحب هذا، أليس كذلك؟

استدرنا كلتانا على ذلك الصوت المألوف ورأينا بيتر يسير باتجاهنا. لاحظت

تعابير سيليا التي اعترتها الدهشة، ثم كيف أضاء وجهها عندما فتح لها بيتر ذراعيه وسارت لتلتجىء إليهما. ظللت واقفة في مكاني، وتركتهما يحظيان بلحظتهما معًا، ولكنهما سارا بعد ذلك باتجاهي وحضنني بيتر أنا أيضًا.

قال بيتر بصوت متهدّج:

- حسنًا، يجدر بنا أن نباشر بالأمر.

بينما صعدت سيليا بجهد إلى الزورق، همس بيتر في أذني قائلاً:

- آمل ألّا ألحق بنفسي العار أمامكما، أنتما الاثنتين، بتقيّؤ فطوري في هذه اللحظة المهيبة. لست بارعًا كثيرًا في المياه، يا آلي.

قلت:

- في الوقت الحالي، وصمتّ برهة ثم تابعت:

- لست ماهرة أيضًا. مددت يدي له وقلت:

- تعال، سنفعل ذلك معًا.

صعدنا إلى الزورق وثبّتُّ بيتر ثم جعلته يجلس بينما استرجعت بكثير من التوتّر قدرتي على التوازن فوق الماء.

- جاهزة للإنطلاق، يا آلي؟

- نعم.

وبعد أن اطمأنّت سيليا، رفعت الأشرعة وحللت الحبال.

بدأت أولى أشعة الشمس الوردية والذهبية تنتشر لتلامس الشاطئ فتتلألأ فوق قمم الأمواج الكسولة بينما كنّا نبحر مبتعدين في سبيل سولنت البحري. دفع النسيم البارد الزورق فوق الماء وطيّر بلطف شعري عن وجهي. ومع أنّني كنت أتخوّف من العودة إلى البحر، فقد استغربت شعوري بالسلام. ومضت صور في ذهني، ولكن، للمرة الأولى منذ غادرني، ملأني تفكيري فيه بالفرح بقدر ما ملأني بالحزن.

عندما وصلنا إلى بقعة تبعد بضع مئات الأمتار عن الشاطئ وبإمكاننا أن نرى منها منظرًا رائعًا لميناء لايمنغتون، طوينا الأشرعة وتوارت سيليا تحت السطح،

لتخرج بعد بضع ثوان، حاضنةً الجرة الزرقاء بين يديها. توجّهنا إلى بيتر، الذي كان يبدو أخضر اللون عند مؤخّرة الزورق، وساعدناه على الوقوف بيننا.

بينما تحرّرت أخيرًا شمس الصباح وارتفعت بكل مجدها فوق الأفق، قالت سيليا:

- خذها أنت، يا بيتر.

سأل:

- هل أنتما جاهزتان؟

أومأت برأسي، وأمسكنا جميعنا بقوّة بالجرة، التي كانت بالرغم من قلة قيمتها الظاهرية، مشبعة بأحلام وآمال وذكريات كثيرة. وعندما رفع بيتر الغطاء ونثر محتويات الجرّة في النسيم، راقبنا ضباب الرماد الرقيق ينجرف إلى أسفل لملاقاة البحر المزبد تحتنا. أغمضت عينيّ بقوة وسالت دمعة وحيدة على خدّي.

تحرّكت يدي غريزيًا لملامسة استدارة بطني وهمست قائلة:

- وداعًا، يا حبيبي. اعلم أنّ حبّنا سيبقى حيًّا.

46

7 كانون الأول 2007

كالعادة، استيقظت باكرًا، يعتريني خفقان لطيف ينبعث من داخلي. تحقّقت من الوقت، فوجدت أن الساعة قد جاوزت الخامسة بقليل، وأملت ألّا يكون هذا هو شكل الأمور في المستقبل، وألّا يكون الطفل قد أرسى منذ الآن نمط نومه في أحشائي. كان الظلام ما يزال مخيّمًا في الخارج عندما اختلست النظر بعينين مغبّشتين، من خلال الستائر، لأرى طبقة سميكة من الصقيع تغطّي النافذة. بعد دخولي الحمام، عدت مجدّدًا إلى السرير لمحاولة الاستسلام ثانية للنوم. سيكون اليوم طويلاً؛ كنت أعلم. وستكون قاعة غريغ مليئة بكامل قدرة استيعابها التي تصل إلى ألف وخمسمئة شخص لحضور حفل المئوية الليلة. ووسط الجمهور سيكون هناك أصدقائي وعائلتي. كما ستحضر ستار و«ما» بالطائرة إلى بيرغن عصر اليوم لحضور الحفلة الموسيقية. كنت أشعر برعشة تعتريني ترقّبًا لرؤيتهما.

تملّكني إحساس، بأن حملي والطفل في داخلي جمعيان: بالرغم من كوني أنا الأم والوصية، فإن قدومه بعد ثلاثة أشهر من الوقت سيشكّل صلة وصل بين أعضاء مجموعة كانوا في السابق أناسًا متباينين.

كانت هناك الصلة بماضيّ الذي وجدته حديثًا- فيليكس، أبي بالدم، وتوم، شقيقي التوأم- ثم هناك الخالات الخمس، اللواتي سوف يغمرنه من دون أدنى شك، بكل الحب والاهتمام. فإلكترا، التي بعثت لي أخيرًا برسالة تهنئة بالبريد الإلكتروني، ردًّا على رسالتي، أرسلت بوساطة خدمة فيديكس صندوقًا من ملابس الأطفال، من ماركة مشهورة، وباهظة الثمن بشكل مخيف. وقد وصلتني رسائل إلكترونية مؤثّرة

من معظم شقيقاتي، وطبعًا من «ما»، التي كنت أعرف أنها بالرغم من أسلوبها الهادئ والمبسّط للأمور، فإنها تتوق بشدّة إلى أخذ مولود جديد بين ذراعيها لتعيش من جديد الذكريات الرائعة التي تعود إلى الزمن الذي كنّا فيه جميعًا تحت رعايتها. ثم كان هناك جانب ثيو من العائلة: سيليا وبيتر، اللذان أصبحا جزءًا من حاضري الأحدث، والقادمان أيضًا الليلة. وأعلم أنهما سيكونان جزءًا مرحَّبًا به جدًّا منّي ومن طفلي في المستقبل.

تمتمت لنفسي: «دورة الحياة...»، وأنا أفكّر كيف تنبثق من وسط الخسارة المروّعة، حياة جديدة وأمل جديد. وتمامًا مثلما قالت تيغي عن الوردة الجميلة التي تتفتّح لأنه حان وقت التفتّح، ومن ثم تبدأ أزرار أخرى بالتفتّح على النبتة نفسها بينما تتساقط البتلات عن الوردة القديمة، اكتشفت أنا أيضًا معجزة الطبيعة. ومع أنّني فقدت أهم شخصين في حياتي في فترة بضعة أشهر، فقد تجدّدتُ بالحب الذي عرفت أنه لا يمكن إلاّ أن ينمو ويقوى، وشعرت بأنّه بركة أُعطيت لي.

والليلة، بعد العرض، ستلتقي خيوط قصتي المختلفة للمرة الأولى على العشاء. الأمر الذي أعاد تفكيري مجدّدًا إلى فيليكس...

برنامج الليلة بسيط جدًّا وواضح: يبدأ بـ «سويت بير جينت»، وفي الواقع معي أنا على الفلوت، فتعزف بذلك حفيدة حفيد جانس هالڤورسن تلك الفواصل الأولى الأيقونية، تمامًا مثلما عزفها هو منذ أكثر من مئة وإحدى وثلاثين سنة في الحفلة الافتتاحية. أو، مثلما كنّا أنا وتوم نتباحث في ذلك سرًّا، ربّما تعزفها حتى حفيدة حفيد المؤلّف. ومهما تكن الحال، فلن يحتال أي منا في عزف مقطوعته. فتوم سيكون قريبًا مني، كالعازف الأول على الكمان - آلة جانس الثانية- فيتمّ تاريخ هالڤورسن دورة كاملة.

قيل كثير عن صلاتنا العائلية في وسائل الإعلام النروجية، وتضاعف الاهتمام عندما تبيّن أن القسم الثاني من البرنامج سيكون العرض الأول لكونشيرتو البيانو المُكتشَف مؤخّرًا لجانس هالڤورسن جونيور، والذي وضع له التوزيع الأوركسترالي ابن المؤلف، فيليكس، الذي سوف يقود الأوركسترا على البيانو.

شعر أندرو ليتون، قائد أوركسترا بيرغن الفيلهارمونية، الذي يحظى باحترام كبير، بفرح غامر عند اكتشافه العمل الضائع، وذُهل لتوزيع فيليكس الملهم، ناهيك بالمدة التي استغرقها. ومع ذلك، فعندما سأل توم دايفد ستيوارت إذا كان من الممكن أن يُسمَح لوالده بعزف الكونشيرتو فعليًا بنفسه في ليلة العرض، رفض قائد الأوركسترا بطريقة صريحة ومباشرة.

عاد توم إلى البيت بعد الحديث مع ستيوارت وهزّ لي برأسه.

- قال إنّه يعرف فيليكس منذ زمن، وإنّ العرض الأول لهذا العمل، والليلة بالذات، مهمّان جدًا بحيث لا يمكن وضعهما موضع الخطر. وعليّ القول بأني أوافقه الرأي، يا آلي. مهما تكن فكرتك رائعة في جمع ما هو في الخلاصة...

- وأشار إلى استدارة بطني ثم استأنف قائلاً:

- خمسة أجيال من هالفورسن موسيقيًا، وفيليكس هو الحلقة الأضعف. ماذا لو انغمس في الشرب عشية الحفلة ولم يحضر؟ أنت تعلمين مثلي تمامًا أن نجاح هذا الكونشيرتو يعتمد على عازف البيانو. لو أنه كان يضرب الصنوج في الخلف، لاختلف الأمر، لكنّ فيليكس في هذه الحالة سوف يأخذ مركز الصدارة. وأصحاب السلطة في الأوركسترا الفيلهارمونية لا يريدون المخاطرة بحدوث شيء فظيع مثل عدم حضور أبينا العزيز. مثلما سبق أن أخبرتك، لقد طُرِد منذ كل تلك السنين لأنّه كان غير جدير بالثقة..

فهمت. لكنّي لم أكن مستعدّة للتخلّي عن فيليكس.

ذهبت لرؤيته في ما أسميناه أنا وتوم «الحفرة» وسألته ما إذا كان سيعطيني وعدًا جازمًا، في حال خضت المعركة من أجله، ويقسم لي بحياة حفيده الذي سيولد قريبًا أنه سوف يكون موجودًا في جميع التمارين ويحضر في ليلة الحفل.

حدّق فيليكس ذلك الصباح بعينيه المشبعتين بالكحول وهزّ كتفيه.

- طبعًا سأفعل، ولكن ليس لأني أحتاج إلى أي تدريب. بإمكاني عزفه في نومي، ومع زجاجتين في جوفي، يا عزيزتي آلي.

اعترضت على كلامه قائلةً:

- أنت تعلم أن الأمور لا تسير بهذا الشكل. وإذا كان هذا هو موقفك، فإذًا...
عند ذلك، استدرت وتوجّهت صوب باب المدخل.

- حسنًا، حسنًا.

- ماذا تعني؟

- أعدك بأنني سأحسن التصرّف.

- حقًّا؟

- نعم.

- لأنّني قلت لك ذلك؟

- لا. أنا أتعهّد بذلك لأنه كونشيرتو أبي، وأريد أن أجعله يشعر بالفخر. ولأنّني أعلم أن لا أحد يستطيع عزفه أفضل مني.

ذهبت بعد ذلك لرؤية دايڤد ستيوارت بنفسي، وعندما رفض مجدّدًا أن يدعم عزف فيليكس في الحفلة، لجأت إلى قليل من الابتزاز وأخجل من الاعتراف بذلك. قلت:

- فيليكس هو في نهاية الأمر ابن بيب وبالتالي يمكن القول إنه المالك الشرعي لحقوق الكونشيرتو.

قلت ذلك بدون أن أرفع عينيّ لئلّا يحمرّ وجهي خجلاً. ثم تابعت قائلةً:

- تنتاب أبي شكوك جدية بشأن عزف الكونشيرتو. فهو يفكّر بقلق بأنه إذا لم يتمكّن من عزف الموسيقى بالطريقة التي كان والده يريدها، فربّما من الأفضل ألا تُدرَج ضمن الحفل على الإطلاق.

كنت أراهن على أن الأوركسترا ترغب في تقديم أول عرض للمقطوعة المحلية الأكثر إثارةً، منذ أن قدّمها غريغ نفسه للعالم. وبفضل اللّه، كان حدسي صائبًا. فقد استسلم دايڤد في النهاية ووافق.

- لكننا سنجعل ويليم يتمرّن مع الأوركسترا أيضًا. فإذا خذلنا والدك، لن تكون الأمسية كلّها كارثية. ولن أعلن حتّى للصحافة أنه سوف يعزف قبل موعد الحفلة. اتّفقنا؟

- اتّفقنا.

قلت ذلك ونحن نتصافح. ثم خرجت ورأسي مرفوع، وكأنني انتصرت بالضربة القاضية.

بالرغم من أن فيليكس قد وفى فعلاً بوعده فكان يصل في الموعد المحدّد إلى التمارين طوال الأسبوع المنصرم، كنا جميعًا نعلم أن لا شيء يضمن حضوره عندما يكون ذلك مهمًّا. ففي النهاية، سبق له أن فعلها.

لم يُعلَن رسميًّا أن فيليكس هو عازف البيانو. وأخبرني توم أنه اكتشف طبع مجموعتين مختلفتين من برامج الحفلة؛ إحداهما تحمل اسم فيليكس، والأخرى اسم ويليَم.

شعرت بالذنب قليلًا، لأن ذلك لا يمكن أن يرضي كبرياء ويليَم إذا عرف أنه - وأصوغ هنا جملة موسيقية - يؤدّي دور الكمان الثاني وراء سكّير مسنّ لا يمكن الاعتماد عليه، ولمجرّد أن اسمه عائلته هو هالڤورسن. لكنّه سوف يعزف كونشيرتو غريغ للبيانو على الـ«لا الصغير» خلال النصف الأول، وكان في ذلك، على الأقل، بعض التعزية.

في الأسبوع الماضي، ذهبت في إحدى الأمسيات لمشاهدة توم يعزف مع الأوركسترا، وكان ويليَم عازف البيانو الأول، ويعزف كونشيرتو ليسزت للبيانو رقم واحد. وبينما كنت أراقب أصابعه الموهوبة الرشيقة تطير على لوحة المفاتيح، وفتحتا أنفه تتسعان، وشعره الأسود اللامع يخفق فوق حاجبيه، شعرت باضطراب مألوف في معدتي، لم يكن له أي علاقة بالطفل المختبئ في داخلي. قلت في سرّي إنّ رد فعلي الجسدي الغريزي على الأقل يعني أنني قد أتعافى مع الوقت من خسارة ثيو، حتى وإن لم يكن ذلك في الوقت الحالي. وأنني يجب ألّا أشعر بالذنب حيال ذلك. كنت في الثلاثين من عمري وأمامي حياة كاملة أعيشها. وكنت متأكدة من أن ثيو لم يكن يريدني أن أعيش مثل راهبة.

وما يثير السخرية هو أن توم وويليَم أصبحا متقاربين، وقد ربطهما في البداية عملهما معًا، لكنّ صداقة شخصية تطوّرت بينهما إلى جانب العلاقة المهنية. وكان

توم قد دعا ويليَم إلى المنزل في الأسبوع القادم ولم أكن قررت بعد إنْ كنت أفضّل أن أكون في البيت أم لا.

أخيرًا، استسلمت إلى حقيقة أنني لن أنال قسطًا إضافيًّا من النوم هذا الصباح، فشغّلت كومبيوتري المحمول للتحقّق من رسائلي الإلكترونية. وجدت أنّ هناك رسالة من مايا ففتحتها.

«حبيبتي آلي، أريد أن أقول إنّ أفكاري معك اليوم. أتمنّى لو كنت هناك أيضًا، لكن المسافة بعيدة جدًّا من البرازيل إلى النروج. لقد صعدنا إلى التلال لأن الطقس في ريّو حارق حتى بالنسبة إليّ. نحن نقيم في المزرعة ولا أستطيع أن أخبرك كم أن المكان جميل هنا. تحتاج المزرعة إلى كثير من التجديد، لكنّنا نتباحث في خطط لتحويلها إلى مركز للأولاد من الأحياء الفقيرة، بحيث يتمكّنون من الصعود إلى هنا، والتمتّع بالحرية والمجال الفسيح، والتجوّل في أرجاء الطبيعة الرائعة. في أيّ حال، كفى حديثًا عني. آمل أن تكونا أنت والطفل بخير، ولا أطيق الانتظار حتى أقابل طفل شقيقتي الجديد. أنا فخورة جدًّا بك، يا شقيقتي الصغيرة. مايا».

ابتسمت للرسالة، وكنت مسرورة لأنها بدت سعيدة، ثم ذهبت لأستحم قبل ارتداء بنطال بدلة الرياضة، وهو إحدى قطع الملابس القليلة لديّ التي كانت ما تزال تتّسع لوسطي المتمدّد. رفضت هدر المال على ملابس الحمل، وأمضيت معظم أيامي مرتديةً إحدى كنزات توم الفضفاضة. اشتريت فستانًا أسود مطّاطًا أرتديه لظهوري على المسرح الليلة، وقد علّق توم بعذوبة بأنّني أبدو جميلة به، لكنني أظن أنه كان يتصرّف بلطف وحسب.

بعدما نزلت السلالم، دخلت المطبخ، الذي نُقِل مؤقّتًا إلى غرفة الجلوس، مع استمرار عمليات التجديد في المنزل. واشتمل هذا المطبخ على بوفيه وفوقه غلّاية وفرن مايكرووايف. وكان المطبخ الأساسي يُعرّى في هذه الأثناء حتّى العظم، وحسبما اعتقدت، أُنجِز الآن معظم العمل الصعب. وضعنا مرجلاً جديدًا، وكان المتعهّد على وشك تركيب التدفئة في الأرضيات، لكن العمل كان يستغرق ضعف

الوقت الذي توقّعته وكنت أشعر بالهلع لعدم انتهاء البيت قبل مجيء الطفل. كانت غريزة بناء العش تحرّكني وتثير جنون البنّائين وهو أمر طبيعي تمامًا.

ظهر توم ورائي وكان شعره كالعادة واقفًا من أثر النوم. قال:

- صباح الخير. حسنًا، اليوم هو اليوم المنتظر.

تنهّد ثم سأل:

- كيف حالك؟

- أنا متوتّرة، متحمّسة، وأتساءل...

قلنا بصوت واحد:

- ما إذا كان فيليكس سوف يحضر.

كان الماء يغلي في الغلاّية فعرضت عليه القهوة.

- شكرًا. متى تصل عصابتك؟

سأل ذلك وهو يسير مشتّت الذهن صوب النوافذ الزجاجية الجديدة التي تصل إلى الأرض وتفتح على السطيحة، فتتيح رؤية منظر عريض رائع لأشجار التنّوب، والزقاق البحري في الأسفل.

- أوه، سيصلون جميعًا اليوم في أوقات مختلفة. قلت لـ«ما» وستار أن تأتيا إلى مدخل الفنانين قبل العرض لتلقيا التحية.

تحرّكت فراشات في مِعدتي الصفراوية لمجرّد التفكير بذلك.

- هذا سخيف جدًّا، أليس كذلك؟ أنا قلقة لأن مجموعة من أصدقائي وأفراد أسرتي سيشاهدونني هناك، أكثر بكثير مما قد يقوله أي ناقد.

- طبعًا أنت قلقة وهذا طبيعي، لكنّك، على الأقل، ستنتهين من عزفك المنفرد من البداية، ثم علينا أن ننتظر، على أعصابنا، حتى ينتهي فيليكس من عزف النوتة الأخيرة من كونشيرتو البطل.

قلت بتذمّر:

- لم أعزف من قبل أمام جمهور بهذا الحجم. وخصوصًا أمام جمهور يدفع ثمن مقعده.

- ستبلين حسنًا.

استشعرت توتّره أيضًا وأنا أناوله قهوته. كان يومًا مُهمًّا بالنسبة إلينا نحن الاثنين. شعرنا أننا أوجدنا، ما بيننا، كيانًا موسيقيًا جديدًا كان على وشك القدوم إلى العالم. والليلة، سنكون والدين فخورين عند ولادته.

سأل توم:

- هل ستتّصلين بفيليكس للتأكّد من أنه يتذكّر؟

كنت قد قرّرت عدم الاتّصال به فقلت:

- لا، يجب أن يعود ذلك إليه هو، وهو وحده.

تنهّد وقال:

- أجل، هذا يعود إليه. حسنًا، أنا ذاهب لأستحم: هل يمكن أن تكوني جاهزة للمغادرة بعد عشرين دقيقة؟

- نعم.

- يا إلهي، آمل أن يحضر.

أدركت عندها، بالرغم من أي اعتراض بخلاف ذلك، أنّ ظهور فيليكس الليلة يحمل أهمية بالنسبة إلى توم أكبر مما هو بالنسبة إليّ.

- سوف يكون هناك، أعلم أنه سيأتي.

مع ذلك، عندما أخذت مكاني في الأوركسترا من أجل التمرين بعد ذلك بساعتين، ورأيت مقعد البيانو الفارغ، تلاشت ثقتي. وفي العاشرة والربع، عندما قال أندرو ليتّون إننا لا نستطيع الانتظار أكثر لنبدأ، حضنت هاتفي المحمول بين راحتيّ الساخنتين.

- لا، لن أتّصل به.

تم الإتصال بويليَم ليأخذ مكان فيليكس على البيانو وألقى توم نظرة سريعة نحوي أظهرت خيبة أمله بينما رفع أندرو ليتّون عصاه للبدء.

- كيف استطعت القيام بذلك؟ أيها التافه! بعد أن شتمت فيليكس بصوت خافت، رأيته يركض في القاعة باتجاه المسرح، لاهثًا شاحبًا.

قال وهو يصعد الدرجات:

- أشك في أنّ شخصًا هنا سيصدّقني، لكنّ درّاجتي النارية تعطّلت في منتصف الطريق إلى أسفل التل، واضطررت إلى إيقاف سيارة لتأمين توصيلة لبقية الطريق. وقد أحضرت معي السيدة اللطيفة التي أوصلتني لأثبت ذلك.

ثم نادى السيدة قائلاً:

- هانيه، هل أقول الحقيقة أم لا؟

تبعت مئة زوج وزوج من الأعين إصبع فيليكس الذي كان يشير إلى خلفية القاعة، حيث وقفت سيدة في منتصف العمر بدت متوتّرة ومُحرَجة بشكل واضح.

- أخبريهم، يا هانيه.

- نعم، تعطّلت درّاجته النارية وأنا أوصلته.

- شكرًا لك. سيكون هناك تذكرة بانتظارك في شباك التذاكر لعرض الليلة.

التفت فيليكس إلى الأوركسترا وانحنى بحركة مسرحية وقال:

- إعذروني على تأخيركم جميعًا، لكنّ الأمور ليست أحيانًا على ما تبدو عليه.

بعد التمرين، رأيت فيليكس متّكِئًا على مدخل الفنانين يدخّن سيجارة فذهبت إليه.

- مرحبًا، يا آلي، آسف على ذلك. هو سبب حقيقي، على سبيل التغيير.

- أجل. هل تريد الذهاب لشرب كأس؟

- لا، شكرًا يا عزيزتي. سيكون سلوكي على أحسن ما يرام هذه الليلة، هل تذكرين؟

- نعم أذكر. هذا مدهش حقًّا، أليس كذلك؟ أربعة أجيال أو حتى خمسة من آل هالڤورسن موجودون هنا الليلة.

فقال وهو يهزّ كتفيه:

- أو آل غريغ، حسبما تقتضي الحال.

- أنا... هل أنت على علم بذلك؟

- طبعًا. أخبرَتْ أنّا هورست على فراش الموت، وأين خبّأت الرسائل. ومن ثم

أخبرني مباشرةً قبل ذهابي إلى باريس للدراسة. لقد قرأتها كلها. إنها مادّة ساخنة جدًّا، أليس كذلك؟

كنت مذهولة لطريقته اللامبالية في البوح بالأمور.

- ألم تفكّر يومًا بأن تقول شيئًا باستخدام ذلك؟

- بعض الأسرار يجب أن تبقى أسرارًا، ألا تعتقدين ذلك، يا حبيبتي؟ وأنتِ من بين كل الناس ينبغي أن تعرفي أن المُهمّ ليس من أين تأتين جينيًّا، ولكن مَنِ الشخص الذي تصبحين عليه. حظًا طيبًا الليلة.

بعد هذه الكلمات، لوّح لي فيليكس بيده وتوارى من باب المسرح.

في السادسة والنصف، بعثت لي ستار رسالة نصّية لتقول إنهما قد وصلتا هي و«ما». أخذت توم معي من الغرفة الخضراء الخاصة بالموسيقيين وسرنا في الرواق، وأنا أشعر بتوتّر أكيد حيال تعريف أختيّ بشقيقي التوأم.

قلت ما إن رأيتها وقد سرّعت خطاي «ما». كانت تبدو أنيقة دون عناء كالعادة، بسترتها الشانيل البوكليه وقميصها الكحلي.

- آلي، كم هو رائع أن أراك يا عزيزتي. ضمّتني «ما» بين ذراعيها وشممت عبير عطرها المألوف، الذي يعبّر عن السلامة والأمان.

- مرحبًا، ستار، رائع أن أراك أنت أيضًا.

عانقتها ثم التفتُّ إلى شقيقي التوأم، الذي كان يحدّق إلى أختي فاغر الفم. وقلتُ بينما كانت ستار ترفع نظرها إليه وتبتسم بخجل:

- وهذا توم، أخي الجديد.

أجابت:

- مرحبًا، يا توم.

وكزته ليردّ.

- نعم، مرحبًا. إنه، همم، من الرائع أن أتعرّف إليك، يا ستار. وأنت، همم، يا «ما»... أعني، يا مارينا.

- قطّبت جبيني وأنا أنظر إلى وجه توم، الذي كان يتصرّف بغرابة شديدة. كان

توم في العادة مندفعًا بالتحية والترحيب، وشعرت ببعض الاستياء لكونه لم يتصرّف الآن بكثير من الترحاب.

ردّت مارينا:

- ونحن سعيدتان جدًّا بالتعرّف إليك، يا توم. شكرًا لاهتمامك بآلي من أجلي.

فقال وهو ما يزال يحدّق إلى ستار:

- نحن نتبادل الاهتمام، أليس كذلك، يا شقيقتي؟

في تلك اللحظة تمامًا، علا نداء من مكبّر الصوت يدعو إلى اجتماع الأوركسترا على خشبة المسرح.

- حسنًا، علينا أن نذهب، ولكن سوف نراكما فيما بعد في البهو.

ثم ودّعتهما بقبلة وقلت متنهّدةً:

- يا إلهي، إني أشعر بالتوتّر.

طمأنتني «ما» قائلةً:

- ستكونين رائعة، يا عزيزتي، أنا متأكّدة من ذلك.

- شكرًا.

وبعد أن لوّحت لهما بيدي، سرت في الرواق عائدةً إلى المسرح برفقة توم وسألته:

- هل أكلت القطة لسانك؟

وبينما لحقت به إلى خشبة المسرح لسماع كلام أندرو ليتّون التشجيعي قبل العرض، كان كل ما استطاع قوله هو:

- يا إلهي، إن أختك جميلة، أليس كذلك؟



في تلك الليلة، وبينما كنّا نعود، الواحد تلو الآخر، إلى خشبة المسرح، عند الساعة السابعة وسبع وعشرين دقيقة بالضبط، لنُستقبل بعاصفة من التصفيق الصاخب، همست لتوم قائلةً:

- أنا قلقة. ما يزال يبدو صاحيًا. لقد قال لي إنه يعزف بشكل أفضل بكثير عندما يكون ثملاً.

أصدر توم ضحكة مكتومة عندما رأى عبوس وجهي الناتج عن قلق حقيقي.

- أنا في الواقع أشفق على فيليكس. فالرجل المسكين لا يستطيع أن يربح! وتذكّري أن لديه النصف الأول بكامله، إضافة إلى الاستراحة، ليعالج الوضع.

ثم همس قائلاً:

- والآن، كفّي عن القلق بشأنه واستمتعي بهذه اللحظة الرائعة من تاريخ آل هالڤورسن، أو آل غريغ. وأضاف مبتسمًا بينما كنّا نأخذ مكانينا في الأوركسترا:

- أحبك، يا أختي.

جلست في مقعدي في قسم آلات النفخ، وكنت أعلم أنّني سأنهض في غضون ثلاث دقائق لعزف الفواصل الموسيقية الأربع الأولى من «مزاج الصباح». وأنه، مثلما قال لي فيليكس من قبل، ليس المهم مَنْ أنجبني في الأصل. فالمهم فقط هو أني مُنحت هبة الحياة وأن الأمر يعود إليّ لأجعلها- وأجعل نفسي- بأفضل حالة ممكنة.

عندما خفتت الأضواء وهبط السكون ، فكّرت في كل أولئك الذين يحبّونني، في مكان ما هناك في ظلمة القاعة، ويدعمونني بالنية والرغبة الشديدة.

وفكّرت في پا سولت، الذي قال لي إنني سأجد قوّتي الكبرى في لحظتي الأضعف. وفكّرت بثيو، الذي علّمني حقيقة أن تحب شخصًا آخر. لم يكن أيٌّ منهما حاضرًا بالجسد، ولكنّني علمت أنهما سيفخران كثيرًا بي وأنهما يحرسانني من فوق النجوم.

ابتسمت عند التفكير بالحياة الجديدة في داخلي، التي ما يزال عليّ أن أعرفها.

وضعت الفلوت على شفتيّ وبدأت العزف من أجلهم جميعًا.

ستار

السابع من كانون الأوّل 2007

"The Hero Concerto"



خفتت الأضواء في القاعة وشاهدت أختي تنهض عن مقعدها على خشبة المسرح. استطعت رؤية ملامح الحياة الجديدة داخلها محدَّدة بوضوح تحت الفستان الأسود. أغمضت آلي عينيْها للحظة كما لو أنها تصلّي. وعندما رفعت الفلوت إلى شفتيها، امتدّت يدٌ إلى يدي وضغطت عليها بلطف. فعرفت أن «ما» كانت تشعر أيضًا بتردّد الصدى.

عندما علا اللحن الجميل المألوف، الذي كان جزءًا من طفولتنا أنا وشقيقاتي في أتلانتيس، وطاف أرجاء القاعة، شعرت ببعض توتّر الأسابيع القليلة الماضية يفيض مني مع موجة الموسيقا. عرفت، وأنا أسمعها، أن آلي كانت تعزف من أجل كل أولئك الذين أحبّتهم وفقدتهم، ولكنّني فهمت أيضًا أنّ ضوءًا جديدًا ظهر في حياتها الآن كما تطلع الشمس بعد ليل مظلم طويل. وعندما انضمّت إليها الأوركسترا وبلغت الموسيقا الجميلة ذروتها، واحتفلت ببزوغ يوم جديد، شعرت أنا بالمثل.

ولكن، في ولادتي الجديدة، عانى آخرون، وكان ذلك هو الجزء الذي لم أكن قد فسرته وبرّرته بعد. ولم أكن قد فهمت إلّا حديثًا أنّ هناك أنواعًا كثيرة مختلفة من الحب.

في الاستراحة، ذهبنا أنا و«ما» إلى البار، وانضمّ إلينا بيتر وسيليا فاليس- كنغز، اللذان عرّفا عن أنفسهما بأنهما والدا ثيو، لتناول كأس من الشمبانيا. ولاحظت الطريقة التي استقرّت بها ذراع بيتر على خصر سيليا بحركة تنم عن رغبة في الحماية، فبدوَا زوجَيْن شابّيْن مغرمَيْن.

قالت «ما» وهي تدق كأسها بكأسي فتجعلها ترن:

- في صحتك! أليست هذه أروع أمسية على الإطلاق؟

- أجل، هي كذلك.

- عزفت آلي بشكل جميل جدًّا. أتمنّى لو أنّ أخواتك الأخريات كنّ هنا لمشاهدتها. ووالدك، طبعًا.

رأيت حاجبَيْ «ما» ينعقدان فجأة من القلق، وتساءلت عن الأسرار التي احتفظت بها، وعن مدى العبء الذي تلقي به على كاهلها، مثل حال سرّي أنا.

سألتني بتردّد:

لم تتمكّن سيسي من الحضور إذًا؟

- كلا.

- هل رأيتها مؤخَرًا؟

- لا أبقى في الشقة كثيرًا هذه الأيام.

لم تلحّ عليّ أكثر بالموضوع. إذ كانت تعلم أنّ عليها ألّا تلح.

لامست يدٌ كتفي فأجفلت. لطالما كنت شديدة الحساسية حيال اللمس. كسر بيتر لحظة الصمت المشحونة بالانفعال، مع أنني كنت متعوّدة مثل تلك اللحظات، وقال: «مرحبًا جميعًا». ثم التفت إلى «ما» وأضاف:

- إذن أنت «الأم» التي اعتنت بآلي في طفولتها؟

- نعم.

- لقد قمت بعمل رائع.

ردّت «ما» بتواضع وقالت:

- هذا يعود إليها هي وليس إليّ. جميع بناتي يجعلنني أشعر بكثير من الفخر.

نظر إليّ بيتر بعينَيْه الثاقبتَيْن وقال:

- وأنت إحدى أخوات آلي المشهورات؟

- نعم.

- وما اسمك؟

- ستار.

- وما هو رقمك بين الشقيقات؟

- ثلاثة.

نظر إليّ ثانية وقال:

- مثير للاهتمام. أنا كنت الرقم ثلاثة أيضًا. لم أصغِ ولم أسمعْ قط. أليس كذلك؟

- لم أجب.

فاستأنف كلامه قائلاً:

- أراهن أنّ هناك أمورًا كثيرة تدور داخل رأسك هذا، صحيح؟ دار كثير بالتأكيد في رأسي أنا.

حتى وإن كان مصيبًا، فلن أخبره بذلك. هززت كتفيّ بصمت.

قالت سيليا وهي توجّه إليّ ابتسامة حارّة وتغيّر الموضوع:

- آلي إنسانة مميّزة جدًّا. وقد تعلّمنا منها كلانا كثيرًا.

فهمت أنّها اعتقدت أنّ صمتي يعني أنني كنت أجد صعوبة في التعامل مع بيتر، ولكنّني لم أجد صعوبة في ذلك. الآخرون هم مَن كانوا يجدون صمتي صعبًا.

قال بيتر:

- أجل، بالفعل. والآن سوف نصبح جدّين. يا لها من هدية قدّمتها لنا أختك، يا ستار. وهذه المرّة، سوف أكون موجودًا إلى جانب الصغير. الحياة قصيرة جدًّا، أليس كذلك؟

رنّ الجرس إيذانًا بالبدء بعد دقيقتين، فأفرغ جميع من حولي كؤوسهم، وعدنا جميعًا إلى القاعة لأخذ مقاعدنا. كانت آلي قد أطلعتني مسبقًا بالبريد الإلكتروني على اكتشافاتها في النروج. تفحّصت فيليكس هالفورسن بدقّة حين صعد إلى المسرح، وقرّرت أن صلات آلي الجينية به لم يكن لها تأثير يُذكر على سماتها الجسدية. ولاحظت أيضًا مشيته المتهادية وهو يمشي باتّجاه البيانو وتساءلت إنْ كان ثملاً، ورفعت صلاة صغيرة داعيةً ألّا يكون كذلك. عرفت ممّا قالته لي آلي من قبل مدى أهمية هذه الأمسية بالنسبة إليها وإلى شقيقها المكتشَف حديثًا، توم. عندما قابلته في وقت سابق، أعجبني على الفور.

عندما رفع فيليكس أصابعه إلى المفاتيح ثم توقّف قليلاً، شعرت بأن كل شخص في الجمهور يحبس أنفاسه معي. ولم ينكسر التوتّر إلّا عندما نزلت أصابعه على

المفاتيح وعُزِفت الفواصل الافتتاحية لكونشيرتو البطل للمرّة الأولى أمام الجمهور. ووفقًا للبرنامج، بعد أكثر من ثمانية وستين عامًا على تأليفه. خلال نصف الساعة التالي، استمتعنا بأداء خالص الندرة والجمال، خلقته كيمياء ممتازة بين المؤلّف والعازف: الأب والإبن.

وبينما كان قلبي يطير إلى الأعلى ويحلّق مع الموسيقا الجميلة، رأيت لمحة من المستقبل. همست باقتباس تولستوي «الموسيقى حبٌ يبحث عن صوت». الآن، يتعيّن عليّ أن أجد صوتي، وأيضًا الشجاعة لأرفع هذا الصوت.

جاء التصفيق عاصفًا، وعن جدارة، ووقف الجمهور ضاربًا الأرض بأقدامه هاتفًا ومهلّلاً. انحنى فيليكس مرة بعد مرة، مشيرًا إلى ابنه وابنته في الأوركسترا للانضمام إليه، ثم هدّأ الجمهور وأهدى عرضه لوالده المرحوم، وأولاده.

في هذه الحركة، رأيت دليلاً حيًا على أنه يمكن للمرء أن يمضي قُدُمًا. وأن يُحدث تغييرًا يقبله الآخرون في النهاية، مهما يكن صعبًا.

وعندما بدأ الحاضرون ينهضون عن مقاعدهم، لمست «ما» كتفي وقالت لي شيئًا.

هززت رأسي لها بدون تعبير، وبدون أن أستوعب كلامها. همست لها بأنّني سأراها في البهو، ثم جلست هناك وحدي أفكّر. وبينما كنت أفكّر، كنت مدركةً، بشكل مبهم لبقية الحضور الذين كانوا يمرّون بي في الممر سائرين إلى مدخل القاعة. عندها، لمحت بطرف عيني شخصًا مألوفًا.

بينما بدأ قلبي يخفق بشدّة، نهض جسمي بمحض إرادته وركضت في القاعة الفارغة نحو الحشد المتحرّك دون مقصد عند المخارج الخلفية. بحثت بكل ما أوتيت من قوة للحصول على لمحة أخرى، راجيةً أن تعود تلك الصورة الجانبية التي لا تخطئها العين إلى الظهور لي مرة أخرى في الوسط.

شققت طريقي في البهو، وحملتني ساقاي إلى الخارج في جو كانون الأول القارس. وقفت في الشارع، على أمل الحصول على لمحة أخرى، لكي أتأكّد، لكنّني أدركت أنّ الشخص قد اختفى.

شكر

ساعدني أشخاص كُثُر في البحوث المتعلّقة بـ «الشقيقة العاصفة».

أدّى أصدقائي في كابيلين دام، دار النشر الرائعة التي أعمل معها، دورًا فعّالاً في تعريفي إلى الأشخاص الذين احتجت إلى التحدّث معهم. لذا فالشكر الأول (والأكبر) يذهب إلى كنوت غورفيل وجوريد ماثياسن وبيپ هالن وماريان نيلسن.

في أوسلو: إريك إدفاردسن في متحف أيبسن، ولارس روديه في متحف أوسلو، وإلسيه روسنكفيست وكاري- آن بدرسن في متحف نورسك فولكنموزيو. وأيضًا بيورغ لارسن ريغ في كابيلين دام (الذي تجاوزت مقالته الطويلة عن مصارف المياه والسباكة في كريستيانيا في العام 1876 حدود الواجب بكثير!). هيلديه ستوكلاسا، من شبكة رحلات أوسلو البحرية Oslo Cruise Network، وشكر خاص للعاملين في الغراند هوتيل في أوسلو، الذين قدّموا لي الطعام والشراب في أي وقت من النهار والليل أثناء كتابتي المسوّدة الأولى.

في بيرغن: جون رولستاد، الذي عرّفني إلى إيرلينغ داهل، المدير السابق لمتحف إدفارد غريغ في ترولداوغن، وسيغورد ساندمو، المدير الحالي. هنينغ مالسنس في أوركسترا بيرغن الفيلهارمونية، وميتي أومفيك، التي أعطتني تفاصيل رائعة عن مسرح «دين ناسيوناي سين» Den Nationale Scene في بيرغن. المؤلّف النروجي الشهير كنوت فاغيه، الذي شرح آليات التأليف والتوزيع الأوركسترالي. وأتوجّه أيضًا بالشكر إلى العاملين في فندق هافِنكونتوريت في بيرغن، الذين اهتموا بي خلال إقامتي هناك.

في لايبزيغ: بارباره فيرمان في جامعة الموسيقى والمسرح «فيليكس مندلسون بارتولدي»، وصديقتي الرائعة كارولين شاتكه من إديسيون بيترز في لايبزيغ، التي جمعتنا والدها، هورست، معًا في أشد الظروف العرضية المثيرة للمشاعر.

لا أميل كثيرًا بطبيعتي إلى البحر، لذا تلقيت مساعدة كبيرة من دايفد بفرلي في جميع الشؤون البحرية، وفي اليونان من جوفانا نيكيتش وكوستاس غكيكاس من «أبحر في المياه اليونانية». ولمساعدتهم بأبحاثي حول سباق فاستنت، أودّ أن أشكر العاملين في كلٍّ من نادي لندن الملكي لليخوت والنادي الملكي للسباق في المحيط في كاوز. وأشكر أيضًا، ليزا ومانفرد ريتزلر، اللذين اصطحباني ليوم كامل على متن مركبهما الـ «سانسيكر» وأرياني ما الذي يمكن أن يفعله.

أودّ أيضًا أن أشكر مساعدتي الشخصية المدهشة أوليفيا، وفريق عملي النشيط الدؤوب المؤلف من سوزان موس وإلّا ميتشلر، اللتين اهتمّتا بالتحرير والبحوث. وكل الذين اضطروا إلى ساعات عمل مرنة أثناء محاولتنا إنجاز كل تلك الأعمال المتعلّقة، ليس فقط بسلسلة «الشقيقات السبع» ولكن أيضًا بإعادة كتابة وتحرير كتبي المنشورة سابقًا.

كما أشكر ناشري كتبي الدوليين الثلاثين حول العالم- وخصوصًا كاثرين ريتشاردز وجيريمي تريفاثان في دار «بان ماكميلان المملكة المتحدة»، وكلوديا نيغيليه وغيورغ روتشلاين في دار «راندوم هاوس ألمانيا»، وأناليزا لوتيني ودوناتيلا مينوتو في دار «جونتي إديتوري» في إيطاليا، وبيتر بورلاند وجوديث كور في دار «أتريا» في الولايات المتحدة. لقد كانوا جميعًا داعمين جدًّا ومستعدّين للتعامل مع التحديات - والإثارة- التي تنطوي عليها سلسلة من سبعة كتب.

عائلتي المدهشة الصبورة جدًّا، حيث أمضي حياتي حاليًا مربوطة بمخطوطة وقلم. ومن دون ستيفن (الذي يعمل أيضًا وكيلًا لأعمالي) وهاري وبيلا وليونورا وكيت، لما كان لهذه الرحلة في الكتابة معنى. أمي جانيت، وأختي جورجيا، وجاكلين هسلوب، وأنوّه خصوصًا بـ «فلو»، رفيقتي المخلصة في الكتابة، التي

فقدناها في شباط ولا نزال نشتاق إليها كثيرًا. وأيضًا ريتا كالاغايت وجواو دي ديوس وجميع أصدقائي الرائعين في دار «كازا دي دوم إيناسيو» في أباديانيا في البرازيل.

وأخيرًا، الشكر الكبير لكم أنتم، أعزائي القرّاء، الذين أقابلكم في رحلاتي إلى زوايا الأرض الأربع وأستمع إلى قصصكم، أنتم الذين بحبّكم ودعمكم تلهمونني وتجعلونني أشعر بالتواضع أمامكم. كما تجعلونني أدرك أيضًا أن لا شيء يمكنني أن أكتبه يستطيع أن يضاهي رحلة الحياة المذهلة والمعقّدة بشكلٍ لامتناهٍ.

لوسيندا رايلي

حزيران 2015



قائمة المراجع

«الشقيقات السبع» هو عمل روائي خيالي يقوم على خلفية تاريخية وأسطورية. وفي ما يلي قائمة المصادر التي اعتمدتها، في بحوث عن تلك الفترة الزمنية وتفاصيل حياة الشخصيات التي ابتكرتها من نسج خيالي:

Munya Andrews, The Seven Sisters of the Pleiades (North Melbourne,Victoria: Spinifex Press, 2004)

Finn Benestad (ed.), Edvard Grieg: Letters to Colleagues and Friends trans William H. Halverson (Columbus, Ohio: Peer Gynt Press, 2000)

Finn Benestad (ed.) and William H. Halverson (ed. and trans.), Edvard Grieg: Diaries, Articles, Speeches (Columbus, Ohio: Peer Gynt Press, 2001)

Erling Dahl Jr., My Grieg: A Personal Introduction to Edvard Grieg's Life and Music (Bergen: Vigmostad & Bjoerke, 2007)

Robert Ferguson, Henrik Ibsen: A New Biography (London: Faber & Faber, 2010)

M. C. Gillington, A Day with Edvard Grieg (London: Hodder & Stoughton, 1886)

Robert Graves, The Greek Myths (London: Penguin, 2011)

Robert Graves, The White Goddess (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2013)

Henrik Ibsen, Peer Gynt (Harmondsworth: Penguin Classics, 1970)

David Monrad-Johansen, Edvard Grieg, trans. Madge Robertson (New York: Princeton University Press, 1938)

Oslo Jewish Museum, What Happened in Norway? Shoah and the Norwegian Jews (2013)

Rudolf Rasmussen, Rulle: De andre. Minner og meninger om livet på scene og podium (Oslo: Classica Antikvariat, 1936)

ملاحظة المؤلّفة

تستند سلسلة «الشقيقات السبع» إلى ميثولوجيا ثريّا الشقيقات السبع النجميّة، وهي مشروع ضخم: سبعة كتب، ستة منها حول الشقيقات اللواتي تبنّاهن «پا سولت» من أنحاء العالم وأحضرهن معه إلى أتلانتيس، بيته الخرافي القائم في شبه جزيرة خاصة على ضفاف بحيرة جنيف.

كتب لي عدد كبير من قرّائي يطرحون عليّ أسئلة عن السلسلة، وأجوبة محتملة عن الألغاز غير المحلولة التي يطرحها الكتاب الأول. فقررت إلحاق قسم من الأسئلة والأجوبة في نهاية كل كتاب.

بالنسبة إليّ، تشكّل السلسلة قصة واحدة ضخمة، أقطّعها إلى سبعة أجزاء، مع أن كل كتاب منها «مستقل بذاته» ويمكن قراءة قصة كل واحدة من الشقيقات المميّزات جدًّا بأي ترتيب كان، إذ إن كل كتاب يبدأ في اللحظة نفسها من الزمن. ولكن في أساس كل قصّة هناك حبكة تمتدّ من أول القصة إلى نهايتها كخيط رفيع، وسوف تشكّل قصّتها الكاملة أساس الكتاب السابع.

وقد شكّلت البحوث حول العناصر المجازية والتاريخية على حدٍّ سواء تحدّيًا جدّيًا وآمل أن تشرح فقرة «الأسئلة والأجوبة» شيئًا من خلفية السلسلة وقصة آلي الرائعة. ولكن، بالرغم من الجانب «التقني» لكتابة الحبكة وإيراد التفاصيل الدقيقة بشكل صحيح، كالعادة، فإن «الشقيقة العاصفة» كُتِب بالكامل بصورة شمولية، وقد تتبّعت ببساطة خطوات شخصياتي. إنها في أحيان كثيرة رحلة مؤثّرة ومثيرة للدهشة بالنسبة إليّ أثناء الكتابة، وآمل أن تكون كذلك أيضًا بالنسبة إليك، أنت القارىء.

الرجاء الذهاب إلى www.thesevensistersseries.com، حيث بإمكانكم قراءة مزيد عن الميثولوجيا وعلم الفلك المتعلّقين بكوكبة «الشقيقات السبع»،

بالإضافة إلى معلومات إضافية عن غريغ ومؤلّفه الفائق البراعة «سويت بير جينت» وكونسرفاتوار الموسيقى في لايبزيغ، و«سباق فاستننت»، وإحدى أقدم الأوركسترات في العالم، أوركسترا بيرغن الفيلهارمونية.

أخيرًا، أشكركم جدًّا لأنكم أخذتم الوقت اللازم لقراءة قصة آلي إلى الآن... أعلم أنها طويلة، ولكنني لا أستطيع أن أنهيها إلّا عندما تخبرني الشخصيات أن قصّتها قد انتهت.

لوسيندا

أسئلة وأجوبة

- ما الذي جعلك تختارين النروج وموسيقى غريغ لـ «بير جينت» كخلفية لـ«الشقيقة العاصفة»؟

- لم أكن تجاوزت بعد الخامسة من عمري عندما عاد أبي من أسفاره في النروج، وأحضر معه أسطوانة كبيرة لـ«سويت بير جينت». وقد أصبحت بالفعل الموسيقى الخلفية لطفولتي، بينما كان أبي يشيد بجمال البلد، ولا سيما الأزقّة البحرية الرائعة. وقال لي: إذا ما سنحت لي الفرصة في المستقبل، فعليّ أن أذهب وأراها بنفسي. ومن المفارقة، أنه بعد وفاة والدي مباشرةً، كانت النروج البلد الأول الذي دعاني لزيارته في جولة لتقديم كتابي. وأتذكّر أنّني كنت جالسة في الطائرة وعيناي مليئتان بالدموع، في طريقي إلى ما أسماه أبي قمة العالم. شعرت- مثل آلي- أنّني، أنا أيضًا، كنت أتبع كلمات أبي الراحل. زرت النروج مرات عدّة منذ رحلتي الأولى إلى هناك، ومثل أبي من قبلي، وقعت في الحب. وبالتالي، لم يكن هناك أي شك في المكان الذي ستدور فيه أحداث الكتاب الثاني من سلسلة «الشقيقات السبع».

- ما نوع التحديات التي واجهتها في كتابة الجزء الثاني من سلسلة الكتب السبعة؟ كيف اختلف ذلك عن كتابة الكتاب الأول، «الشقيقات السبع»؟

- في الواقع، لم أدرك التحدّي الذي وضعته لنفسي في كتابة مثل هذه السلسلة الكبيرة المعقّدة إلّا عندما باشرت العمل على قصّة آلي. إلى جانب كتابة قصة مايا وآلي التي تجري في أيامنا الحاضرة، وبالإضافة إلى الكمية الهائلة من البحوث حول المقاطع التاريخية في كل كتاب، كان عليّ التأكّد من أن الخط الزمني يتوافق بشكل صحيح مع حركات كتاب الشقيقة السابقة. فعلى سبيل المثال، إذا كانت آلي قد تحدّثت مع أيّ من أخواتها في أتلانتيس، فمن الضروري التحقّق مرة أخرى من كل موقع، ومن الكلمات الدقيقة التي قيلت من أجل دقة التوقيت والأحداث.

ناهيك بالتدقيق المستمر في تفاصيل الحبكة الضمنية «الخفية» التي تمتد على طول الكتب... أو الإشارات والجناسات التصحيفية المجازية الإغريقية التي تشكّل خلفية السلسلة. يشبه الأمر نوعًا ما اللعب بمكعّب روبيك: يتوافق أحد الخطوط مع المجريات، لكنّ خطًّا آخر يخرج عندئذٍ عن الإطار الصحيح. استهلكت هذه السلسلة طاقتي الإبداعية وأيضًا الذهنية إلى أقصى الحدود. أريد أن تكون كل قصة قادرة على أن تقوم بذاتها أيضًا، فكان عليّ إيجاد فرضيّات مثيرة للاهتمام لتفسير خط الحبكة الأساسي للقرّاء الجدد، وهو تبنّي «پا سولت» لجميع الفتيات، بدون الإفراط في التكرار بالنسبة لأولئك الذين قرأوا قصص الشقيقات السابقة.

- كيف قاربتِ مهمة إجراء البحوث حول الأحداث التاريخية والشخصيات الثقافية الأيقونية في النروج الظاهرة في «الشقيقة العاصفة»؟

- ترتكز «الشقيقة العاصفة» على شخصيات تاريخية حقيقية وشخصيات نروجية أيقونية مثل إدفارد غريغ وهنريك إيبسن، غير أن تصويري لشخصية هؤلاء الأشخاص في الكتاب هو من نسج مخيّلتي وليس حقيقة واقعة. وقد نسجتُ شخصيّتيّ الخياليّتَيْن – آنّا وجانس- وأدخلتهما في الوقائع الحقيقية للأحداث الفعلية.

ارتكز قسم كبير من سعي آلي لاكتشاف ماضيها في القصة على رحلتي النروجية التي سعيت فيها للكشف عن قصة «بير جينت» وغريغ. ويظهر بعض الذين قابلتهم، في رحلة بحثي عن القصة، بشخصياتهم الحقيقية في الكتاب، وأشكرهم للسماح لي باستخدام أسمائهم الحقيقية في القصة.

كان إريك إدفاردسن، في متحف إيبسن، مقصدي الأول. وهو الذي أخبرني أن إيبسن طلب من غريغ أن يؤلّف الموسيقى المرافقة لقصيدته، وأراني الصور من العرض الأصلي لـ «بير جينت» ومن ثمّ أخبرني عن «صوت شبح» سولفيغ، الذي ما تزال هويته غير معروفة إلى اليوم. وأعطاني ذلك المفتاحَ إلى قصة «الماضي». وقد أتى كامل المنظور التاريخي للحياة في النروج في سبعينيات القرن التاسع عشر من لارس روديه في متحف أوسلو.

مثلما يحدث دائمًا عند وصف أشخاص حقيقيين، أبذل جهدي في إنصافهم، وخصوصًا مع شخص مهم للنروج والعالم كله مثل إدفارد غريغ. ذهبت مرّتين إلى بيرغن، حيث كان من دواعي سروري البالغ قضاء بعض الوقت مع البروفسور إيرلينغ داهل، الخبير الأول في العالم حول غريغ، والحائز على جائزة غريغ. وقد اصطحبني في جولة في متحف إدفارد غريغ- منزل غريغ السابق- في ترولدهاوغن، وسُمِحَ لي بالجلوس إلى البيانو الكبير العائد لغريغ! في بيرغن، قرأت، على قدر ما استطعت، عن غريغ ومعاصريه، وتمعّنت في تفاصيل العرض الأصلي لـ «بير جينت». لحسن الحظ، كان غريغ غزير الإنتاج ككاتب يوميات ورسائل وليس من شيء أفضل من قراءة الكلمات التي كتبتها الشخصيات التاريخية بنفسها. إنها أفضل وسيلة بإمكانك الحصول عليها لاكتساب فهم عميق وحقيقي، وينبغي أن أتذكر دائمًا أنني راوية قصص أولاً ولست مؤرّخة.

قابلت أيضًا هنينغ مالسنيس في أوركسترا بيرغن الفيلهارمونية، الذي شرح لي كيفية إدارة الأوركسترا يوميًا، بالإضافة إلى تاريخ الأوركسترا خلال الحرب. كما شرح لي المؤلّف الموسيقي النروجي الشهير كنوت فاغيه عملية التأليف الأوركسترالي بمنظور تاريخي.

- الآن وقد أصبحت في الجزء الثاني من السلسلة، هل تغيّر مخطّطك الإجمالي لكتابة النهاية أو أنك ما تزالين ترين نهاية واضحة للسلسلة؟

- خطّطتُ للنهاية منذ البداية. والأسرار التي سوف تنكشف في نهاية المطاف موجودة كلها في رأسي. ويمتدّ خط الحبكة الخفي هذا من أول السلسلة إلى آخرها، وعليّ التأكّد من بقائه غير ملحوظ كثيرًا، وثابتًا في الكتب كافة. زوجي هو الوحيد الذي يعرف حبكة الكتاب الأخير، لكنّه قال لي مؤخّرًا إنه قد نسيها...!

- نحن لا نرى النروج فقط، لكنّ الكتاب يأخذنا أيضًا إلى مدينة لايبزيغ في ألمانيا المعروفة بالموسيقى. فهل زرتها هي أيضًا لإجراء أبحاث؟

- نعم. إنها مدينة جميلة، وهي تمرّ الآن بعملية ترميم لتستعيد مجدها

السابق. ألمانيا هي أحد البلدان المفضّلة لديّ، وكثيرًا ما سافرت إليها للقاء قرّائي. كما أن غريغ درس هناك لثلاث سنوات ولا يزال مقر دار «إديسيون بيترز»، ناشر موسيقاه - التي كان يديرها في ذلك الوقت صديق مقرّب اسمه ماكس أبراهامز- في لايبزيغ. أجد في أحيان كثيرة أنني أمر بتجارب غريبة وليدة الصدفة أثناء الكتابة. فقد اتصلت بي كارولين شاركيه، وهي صديقة قديمة لي، لتخبرني أنها انتقلت من جامعة كامبردج للعمل لصالح شركة في لايبزيغ تُدعى «إديسيون بيترز»، وأنها جالسة حاليًا في المبنى نفسه الذي كنت أكتب عنه حينها. وكانت هذه الشركة ناشر موسيقى غريغ منذ تأليفها قبل أكثر من مئة عام.

- تتطرّقين في هذا الكتاب إلى أهوال الحرب العالمية الثانية ، مثلما فعلت في الكتب السابقة. لماذا تعتبرين أنه موضوع مهم لهذه الدرجة وينبغي تناوله في كتابتك؟

- وقعت الحرب العالمية الثانية منذ أقل من ثمانين سنة خلت. ولمعظم الناس اليوم أقرباء تأثّروا بها بشكل من الأشكال. إنها تمزّق رهيب في تاريخنا العالمي، وتؤثّر في أي رواية تدور أحداثها في أي بلد كان بين 1938 و1945. أجريت أبحاثًا عن تاريخ لايبزيغ ومأساة سكّانها اليهود، وشعرت أن تدمير تمثال فيليكس مندلسون شكّل لحظة محورية، «نقطة لا عودة» بالنسبة إلى المدينة. وقد سمحت لي معرفة ما حدث في النروج بفهم الحقيقة وبرؤية أوضح للأمور، فمسرح الحرب هذا لا يُدرَّس كثيرًا في صفوف التاريخ.

- هل كان لديك دائمًا اهتمام بالموسيقا الكلاسيكية؟ وكيف أتاح لكِ ذلك صياغة وصف الأشياء في الرواية؟

- تدرّبت راقصة باليه من سن الثالثة إلى السادسة عشرة، وبالتالي فقد كبرت مع الموسيقى الكلاسيكية طوال حياتي. ولطالما كانت «سويت بير جينت» لغريغ من القطع المفضّلة لدي- كلٌ من «مزاج الصباح» و«في قاعة ملك الجبل» هي قطعة أيقونية من الموسيقى. فالجميع يتعرّف إليهما عند سماعهما؛ وقد أصبحتا

متجذّرتين للغاية في الثقافة الشعبية، إذ استُخدمتا (وأسيء استخدامهما) في كثير من البرامج والإعلانات التلفزيونية والأفلام وحتى مدن الملاهي.

- ما هي أفضل ذكرياتك عن النروج؟ هل اكتشفت أيّ شيء جعلك تغيّرين تصميمك الأصلي للكتاب؟

- أحببت جدًّا الذهاب شمالاً إلى تروندهايم ورؤية الأزقّة البحرية والجبال المكلّلة بالثلوج في الأسفل من الطائرة. طموحي هو أن أشارك يومًا ما، عندما يتوفّر لي الوقت، في إحدى رحلات هورتيغروتن البحرية. ولكن فوق كل شيء، أحببت الناس الذين قابلتهم. كانوا ودودين ومضيافين ويسعدني دائمًا العودة إلى هناك.

- كيف تتطابق آلي مع نظيرتها الميثولوجية؟ وما هي جوانبها التي أجريت تحديثًا عليها؟

- في الميثولوجيا الإغريقية، كانت ألسيوني، الشقيقة الثانية، معروفة بأنها «القائدة» ونجمها هو أحد النجوم الأكثر سطوعًا في المجموعة. وفي «أيام هالسيون»، عندما كان العالم مليئًا بالفرح والازدهار والطمأنينة، سهرت سميّتها الإغريقية على البحر المتوسّط، فجعلته هادئًا وأمينًا للبحّارة. ولترجمة ذلك من أجل جمهور حديث، جعلت آلي امرأة شجاعة وقوية تعرف ما تريد وهي قائدة بالفطرة. تعشق البحر وتضع بصمتها كبحّار، لكنّها وقعت بشدّة في حب ثيو فاليس- كينغز- واسمه هو جناس تصحيفي لعشيق أستيروبي الميثولوجي الإغريقي، ملك ثيساليا. وعقد «العين الشريرة» الذي يشتريه ثيو لآلي هو رمز لكونها حامية البحّارة. وعندما تُجبّر على الانفصال عن حبيبها، تؤدّي قصتها إلى المأساة، تمامًا كما في الأسطورة الإغريقية.

- في هذا الكتاب، نكتشف بعض الأشياء الإضافية حول «پا سولت» الغامض. هل وجدت صعوبة في إبقاء النهاية سرًّا، وما هو موقفك من تكهّنات معجبيك على #WhoIsPaSalt؟

- أستمتع بقراءة النظريات المختلفة التي يأتي بها القرّاء، وأحيانًا أضحك لها

بهدوء. أنا سعيدة جدًّا لأن السلسلة استحوذت على اهتمام القراء الذين يقومون بهذا الكم من التكهّنات على شبكات التواصل الاجتماعي. طبعًا لا أحد يعرف الحقيقة سواي (وزوجي إذا تمكّن من تذكّرها) ولم يكن من الصعب على الإطلاق إبقاؤها سرًّا. كان ذلك ممتعًا جدًّا.

- في نهاية «الشقيقة العاصفة»، نحصل على لمحة من منظور ستار، الشقيقة الثالثة. هل بإمكانك أن تعطينا فكرة عمّا ستتضمّنه رحلتها؟

- ستار شخصية غامضة وساحرة، وأنا أستمتع في التعمّق أكثر في منظورها للقصة. ما أزال أكتب قصتها، التي تدور في إنكلترا. وقد حمل ذلك تغييرًا بالنسبة إليّ لأنني أسبر الآن تاريخ بلدي وأستكشف مناظره الطبيعية المختلفة. ويعني ذلك أنني أستطيع الكتابة في دياري، حيث إنه يتعيّن عليّ دائمًا أن أسكن لبعض الوقت في البلد الذي أكتب عنه. وسوف تأخذنا قصة ستار من براري كمبريا والجمال الخام لمقاطعة البحيرة إلى التجاوزات والدوّامة الاجتماعية في لندن في عهد الملك إدوارد السابع.

- ما الذي ترغبين في أن يأخذه القراء معهم من «الشقيقة العاصفة»؟

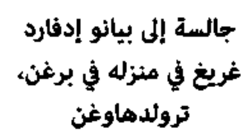
- أودّ أن تلهم قوة آلي وإيجابيّتها قرّائي. فآلي تعاني كثيرًا في «الشقيقة العاصفة». ولا أستطيع أن أقول لك كم بكيت وأنا أكتب مشاهد سباق فاستنت وخصوصًا الحفل التأبيني من أجل ثيو. آلي امرأة تتحلّى بعزيمة مذهلة، وبالرغم من مقدار الحزن الذي تكابده، فإنها تنجح في إيجاد مصدر جديد للإبداع وبيت جديد وعائلة جديدة تستطيع فيها تربية ابنهما هي وثيو. مثلما تنبّأت كلمات «يا سولت» الأخيرة لها، «في لحظات الضعف، سوف تجدين أكبر قوة لديك»، وآمل أن يكون ذلك صحيحًا بالنسبة إلينا جميعًا.

الرجاء الرجوع إلى www.thesevensistersseries.com لمزيدٍ من المعلومات عن السلسلة والمراجع التاريخية والميثولوجية المُستخدَمة في كل كتاب.





في كافيه إيبسن، غراند
هوتيل، أوسلو



جالسة إلى بيانو إدفارد
غريغ في منزله في برغن،
ترولدهاوغن





خارج ترولدهاوغن،
الذي أصبح متحفًا

تستطيعون قراءة مزيدٍ عن ستار وأخواتها في الكتاب الثالث في:

سلسلة الشقيقات السبع

لم يصدر الجزء الثالث مترجم للآن
وقت تجهيز هذا الملف ونشره pdf
من مكتبة .. سر من قرأ



آلي، بحّارة محترفة وعازفة فلوت موهوبة، تُفجع بوفاة والدها بالتبنّي الذي يترك لها دليلًا يرشدها إلى جذورها وبلدها المنشأ.

بأسلوب سردي سلس ومشوّق وحوار سريع ووصف واقعي للحياة في الريف والمدينة في النروج وألمانيا من القرن الماضي، تنطلق آلي في رحلة بحثها عن عائلتها البيولوجية، لتتكشّف لنا قصص حبّ وخيانة وفقر وعَوَز ونجوميّة بين أحد أعظم مؤلّف للموسيقا الكلاسيكيّة ونجمة الغناء الأولى في أوروبا، ومفاجآت الجيل الثاني لهذه العائلة.

الشقيقة العاصفة، الرواية الثانية من سلسلة روايات الشقيقات السبع، دعوة للتفكير في معاني الحبّ والتضحية والخسارة وكيفيّة التصدّي لعواصف الحياة العاتية والصمود أمامها.



لوسيندا رايلي، وُلدَت في إيرلندا في العام 1965 وكتبَت روايتَها الأولى في سنّ الرابعة والعشرين. تُرجمت رواياتها إلى 33 لغة وبيعت ملايين النسخ منها لتصل إلى رأس قائمة الكتب الأكثر مبيعًا على مستوى العالم.

سلسلة من 7 قصص كتبتها لوسيندا، وأكملها ابنها هاري بالكتاب الثامن. حازت الجائزة البلاتينية الهولندية للرواية الأكثر مبيعًا في عام واحد، وهي الجائزة نفسها التي مُنحت لسلسلة هاري بوتر. توفيت لوسيندا في العام 2021 بعد معاناة مع السرطان.





ISBN 978-6144-58-582-5





شركة المطبوعات للتوزيع والنشر